جَامِعَةُ الأَزْهَرِ
قِطَاعُ كُلِّيَّاتِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَالشُّعَبِ المُنَاظِرَةِ لَهَا
أَقْسَامُ البَلَاغَةِ وَالنَّقْدِ

الكِتَابُ الثَّانِي

الإيضَاحُ لِتَلخِيصِ المِفتَاحِ

المُقَرَّرُ عَلَى طُلَّابِ الفِرْقَةِ الثَّانِيَةِ فِي كُلِّيَّاتِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَالشُّعَبِ المُنَاظِرَةِ لَهَا

تَأْلِيفُ قَاضِي القُضَاةِ الإِمَامِ

الخَطِيبِ القَزْوِينِيِّ

جَلَالِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ عُمَرَ القَزْوِينِيِّ الشَّافِعِيِّ
« ت ٧٣٩ هـ »

حرَّر أبوابَه الثَّلاثةَ الأُولَى وبَيَّنَها

أ.د/ محمود توفيق محمَّد سعد

أستاذ البلاغة والنقد في جامعة الأزهر
وعضو هيئة كبار العلماء

حرَّر بَابَه الرَّابعَ وبَيَّنَه

أ.د/ مَحمُود حَسَن مَخلوف   أ.د/ عَلِي عَبد الحَمِيدِ عِيسَى

أستاذا البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بأسيوط

العَامُ الجَامِعِي
« ١٤٤٥ هـ / ٢٠٢٣-٢٠٢٤ م »

جَامِعَةُ الأزْهَرِ
قِطَاعُ كُلِّيَّاتِ اللُّغَةِ العَرَبيَّةِ وَالشُّعَبِ المُنَاظِرَةِ لَهَا
أَقْسَامُ البَلَاغَةِ وَالنَّقْدِ

الطبعة الأولى

١٤٤٥ هـ / ٢٠٢٣ م

الكِتَابُ الثَّانِي

الإيضاح لتلخيص المفتاح

المُقرَّرُ عَلى طلاَّبِ الفِرْقَةِ الثَّانِيَةِ فِي كُلِّيَّاتِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَالشُّعَبِ المُنَاظِرَةِ لَهَا

المراجعة العلمية

أ. د/ إبراهيم صلاح الهدهد

أستاذ البلاغة والنقد
في كلية اللغة العربية بالقاهرة

أ.د/ محمد إبراهيم شادي

أستاذ البلاغة والنقد
في كلية اللغة العربية بالمنصورة

أ. د/ عبد الله عبد الغني سرحان

أستاذ البلاغة والنقد
في كلية اللغة العربية بالقاهرة

أ. د/ سعيد أحمد جمعة

أستاذ البلاغة والنقد في كلية الدراسات
الإسلامية والعربية بنات بالسادات

أ. د/ السيد محمد سلام

أستاذ البلاغة والنقد
في كلية اللغة العربية بالمنوفية

أ. د/ سعيد إسماعيل الهلالي

أستاذ البلاغة والنقد
في كلية اللغة العربية بالزقازيق

* * *

المراجعة اللغوية والفنية

أ. د/ مصطفى نجاح عيسى

أستاذ البلاغة والنقد المساعد
في كلية اللغة العربية بالمنصورة

أ.د / محمود شعبان حميدة

أستاذ البلاغة والنقد المساعد
في كلية اللغة العربية بالقاهرة

* * *

التصميم والإخراج

أ/ عبد الرحمن عبد المنعم مصطفى

الباحث بقسم البلاغة والنقد
في كلية اللغة العربية بالقاهرة

المنسق العام

د/ ياسين عطية جمعة

مدرس البلاغة والنقد
في كلية اللغة العربية بالقاهرة


بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةُ الكِتَابِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِين، الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ.

اللَّهُمَّ صَلِّ، وَسَلِّمْ، وَبَارِكْ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَوَرَثَتِهِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَأُمَّتِهِ، وَاجْزِهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ، وَآتِهِ الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَالدَّرَجَةَ الْعَالِيَةَ الرَّفِيعَةَ، وَابْعَثْهُ الْمَقامَ المَحْمُودَ الَّذِي وَعَدتَّهُ، وَأَنْزِلْهُ الْمَنْزِلَ الْمُقَرَّبَ عِنْدَكَ، إِنَّكَ سُبْحَانَكَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، وَذُو الْفَضْلِ العَظِيمِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَهذِهِ وُرَيْقَاتٌ تَسْعَىٰ إِلَىٰ تَحْرِيرِ وَتَبْيِينِ الْأَبْوَابِ الْأَرْبَعَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ «عِلْمِ الْمَعَانِي» مِنْ كِتَابِ «الإِيضَاحِ فِي عُلُومِ الْبَلاغَةِ» لِجَلَالِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُمَرَ الْقَزْوِينِيِّ الشَّافِعِيِّ (٦٦٦- ٧٣٩ هـ)، هَذِهِ الْأَبْوَابُ الأَرْبَعَةُ (الْقَصْرُ – الْإِنْشَاءُ – الْفَصْلُ وَالْوَصْلُ – الإِيجَازُ وَالإِطْنَابُ) تُمَثِّلُ الشَّطْرَ الآخَرَ لـ«عِلْمِ المَعَانِي» الَّذِي هُوَ أَوَّلُ ثَلَاثَةِ عُلُومٍ يَقُومُ مِنْهَا «عِلْمُ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيِّ»، وَبَيْنَ بَابِ «الْقَصْرِ» وَ«الْإِيجَازِ» تَآخٍ؛ فَأُسْلُوبُ «القَصْرِ» مِنْ أَسَالِيبِ «الْإِيجَازِ»، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ بَابِ «الْإِطْنَابِ» مُقَابَلَةٌ.

• • •

مَعَالِمُ الطَّرِيقِ إِلَىٰ الْإِفَادَةِ مِمَّا فِي هَذِهِ الْأَبْوَابِ خَاصَّةً وَسَائِرِ أَبْوَابِ «عِلْمِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيِّ» عَامَّةً

هَذَا الْعِلْمُ لَيْسَ كَمِثْلِ سَائِرِ عُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ. هُوَ عِلْمٌ تَرْبَوِيٌّ إِصْلَاحِيٌّ، مُهِمَّتُهُ الرَّئِيسَةُ إِصْلَاحُ مَنْ يَتَعلَّمُهُ لِيَكُونَ ذَا قُدْرَةٍ وَمَهَارَةٍ فِي الْفَهْمِ عَنِ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - وَعَنْ رَسُولِهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ - فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ، وَلِيَكُونَ — أَيْضًا - ذَا قُدْرَةٍ عَلَىٰ أَنْ يُبِينَ عَمَّا فِي فُؤَادِهِ مِنَ المَعَانِي؛ جَلِيلِهَا وَدَقِيقِهَا، بِأُسْلُوبٍ يَتَّسِمُ بِالدِّقَةِ وَالعُذُوبَةِ، فَيَكُونُ فِيهِ مِنَ المَنْفَعَةِ الْعَقْلِيَّةِ، وَالمُتْعَةِ النَّفْسِيَّةِ، مَا يُمَكِّنُ مَعَانِيَكَ فِي فُؤَادِ مَنْ يُصْغِي إِلَيْكَ، وَتِلْكَ طِلْبَةٌ وَبُغْيَةٌ عَلِيَّةٌ مَحْمُودَةٌ عِنْدَ أُولِي الْأَلْبَابِ.

وَهَذَا لَا يَتَحَقَّقُ لَكَ إِذَا أَنْتَ اكْتَفَيْتَ بِحِفْظِ الْقَوَاعِدِ والشَّوَاهِدِ وَمَنَاطِ الاسْتِشْهَادِ، وَوَعَيْتَ التَّعَارِيفَ وَالْأَقَاسِيمَ، وَمَقُولَاتِ الْعُلَمَاءِ، وَمَا بَيْنَهمْ مِنْ حِوَارٍ وَنِقَاشٍ. كُلُّ ذَلِكَ - عَلَىٰ جَلَالِهِ، وَعُلوِّ شَأْنِهِ، وَصُعُوبَةِ تَحْصِيلِهِ - لَيْسَ هُوَ المَأَمَّ الرَّئِيسَ الْأَمْجَدَ الْأَحْمَدَ.

مِنْ بَعْدِ أَنْ تَفْرَغَ مِنْ تَحْصِيلِ مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ قَبْلُ عَلَيْكَ أَنْ تَحْمِلَ هَذَا الزَّادَ لِتُقِيمَ بِهِ فِي رِيَاضِ الْكَلِمَةِ الْإِنْسَانِ: الْإِبْدَاعِ الْأَدَبِيِّ؛ شِعْرًا وَنَثْرًا أَدَبِيًّا فِي عُصُورِ الْإِبْدَاعِ كَافَّةً، وَلَا سِيَّمَا عُصُورُ الْإِبْدَاعِ الذَّهَبِيَّةُ فِي الْقُرُونِ الْخَمْسَةِ الْأُولَىٰ، لِتَقْرَأَ هَذَا الَّذِي حَصَّلْتَهُ مِنَ الْقَوَاعِدِ وَالشَّوَاهِدِ وَمَقَالَاتِ الْعُلَمَاءِ وَمَذَاهِبِهِمْ فِي مَا أَبْدَعَهُ أَهْلُ الْبَيَانِ الْعَالِي؛ شِعْرًا وَنَثْرًا.

مِنْ بَعْدِ أَنْ تَفْرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْبَابِ قِرَاءَةً احْتِرَافِيَّةً مُحِيطَةً مُحْكَمَةً عَلَيْكَ أَنْ تَعْمَدَ إِلَىٰ قَصِيدَةٍ مِنْ قَصَائِدِ الشِّعْرِ، وَلَا سِيَّمَا الْمُعَلَّقَاتُ الْعَشْرُ، فَتَقْرَأَ الْبَابَ فِي ضَوءِ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ، لَا أَنْ تَقْرَأَ الْقَصِيدَةَ فِي ضَوءِ الْبَابِ.

لِتَحْذَرْ أَنْ تَجْعَلَ قَوَاعِدَ الْبَابِ سُلْطَانًا عَلَىٰ الْقَصِيدَةِ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْإِفْكُ الْمُبِينُ وَالْبَلَاءُ الْعَظِيمُ. «الشُّعَرَاءُ أُمَرَاءُ الْبَيَانِ» كَمَا قَالَهَا الْعَلَّامَةُ: أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَمْرو بْنِ تَمِيمٍ الْفَرَاهِيدِيُّ (١٠٠ - ١٧٠هـ).

الصِّرَاطُ الْقَوِيمُ أَنْ تَقْرَأَ قَوَاعِدَ «عِلْمِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيِّ» فِي ضَوءِ قَصِيدَةٍ مِنْ قَصَائِدِ الشِّعْرِ الذَّهَبِيِّ؛ فَالشِّعْرُ هُوَ الَّذِي يَمْنَحُ الْقَاعِدَةَ نَضَارَتَهَا، وَيَمْنَحُهَا التَّمَكُّنَ مِنْ فُؤَادِكَ، ثُمَّ يَمْنَحُهَا الْقُدْرَةَ عَلَىٰ أَنْ تَتَكَاثَرَ الْمَعْرِفَةُ الْبَيَانِيَّةُ فِيهِ، فَيَكُونُ لَكَ مِنْهَا مَا يُمْكِنُ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْكَ، فَتُذْكَرَ يومًا فِي دِيوَانِ أَهْلِ الْعِلْمِ وتُشْكَرَ، وَهَذَا حَقُّ نَفْسِكِ عَلَيْكَ، فَلَا تَبْخَسْ نَفْسَكَ حَقَّهَا: «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا» (سُنَنُ التِّرْمِذِيُّ: الزُّهْدُ. رقم: ٢٥٩٦)، فَإِذَا تَمَكَّنْتَ مِنْ ذَلِكَ ارْتَقَيْتَ إِلَىٰ الَّتِي هِيَ أَجَلُّ: عَمَدْتَ إِلَىٰ قَلَمِكَ فَصُغْتَ مَقَالًا أَدَبِيًّا فِي مَوضُوعٍ شَرِيفٍ، تُقِيمُ فِيهِ قَوَاعِدَ هَذَا الْبَابِ، بِحَيْثُ يَسْتَحِيلُ مَقَالُكَ الْأَدَبِيُّ هَذَا إِلَىٰ قِطْعَةٍ بَيَانِيَّةٍ تَكْتَنِزُ أَسَالِيبَ هَذَا الْبَابِ، مَصُوغَةً صِيَاغَةً عَلِيَّةِ الْقَدْرِ، غَنِيَّةَ الثَّمَرِ، سَخِيَّةَ الْعَطَاءِ، فَيَكُونُ لِهَذَا الْبَابِ ثَلَاثُ حَيَوَاتٍ:

حَيَاةٌ فِي كِتَابِ «الْإِيضَاحِ» الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ، وَحَيَاةٌ فِي قَصِيدَةِ الشِّعْرِ الَّتِي تَفَرَّسْتَهَا وَتَذَوَّقْتَهَا وَاسْتَطْعَمْتَهَا، ثُمَّ حَيَاةٌ فِي مَا أَبْدَعْتَهُ مِنْ مَقَالٍ أَدَبِيٍّ هُوَ ذَوْبُ نَفْسِكِ، وَمُسْتَجْمَعُ مَعَارِفِكِ وَمَهَارَاتِكِ وَخِبْرَاتِكِ.

إِذَا مَا تَمَّ لَكَ ذَلِكَ فَاحْمِلْ هَذِهِ المَهَارَاتِ وَالْخِبْرَاتِ وَالْأَدَوَاتِ، وَاعْمَدْ إِلَىٰ رِيَاضِ الْبَيَانِ النَّبَوِيِّ، وَاقْرَأْ هَذَا الْبَابَ الَّذِي أَنْتَ بِصَدَدِهِ فِي أَحَادِيثَ مِنْ بَيَانِ النُّبُوَّةِ، مُسْتَحْضِرًا جَلَالَ وَجَمَالَ قَائِلِ تِلْكَ الْأَحَادِيثَ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ - ؛ فَهَذَا الْاسْتِحْضَارُ مُعِينٌ لَكَ عَلَىٰ أَنْ تَرَىٰ مِنَ الدَّقَائِقِ وَالْأَسْرَارِ الْبَلَاغِيَّةِ وَالْإِيمَانِيَّةِ مَا لَا تُحَصِّلُهُ فِي غَيْرِهِ مِنْ بَيَانِ الْبَشَرِ.

وَإِذَا مَا تَمَّ لَكَ ذَلِكَ فَاعْمَدْ إِلَىٰ قِرَاءَةِ الْبَابِ فِي سُورَةٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قِرَاءَةَ اسْتِبْصَارٍ مُتَدَبِّرٍ، وَاسْتَجْمِعْ مِنْ قِرَاءَتِكِ هَذِهِ فُيُوضًا مِنْ النُّورِ وَالسَّكِينَةِ، وَالتَّشَوُّفِ إِلَىٰ مَرْضَاةِ رَبِّكَ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ.

إِذَا مَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فِي كُلِّ أَبْوَابِ عِلْمِ الْبَلَاغَةِ فَقَدْ سَعَيْتَ إِلَىٰ حُسْنِ الْإِفَادَةِ مِنْ هَذَا الْعِلْمِ، وَعَلِمْتَ حِينَذَاكَ عِلْمًا شُهُودِيًّا مُحققًا أَنَّ هَذَا العِلْمَ: «عِلْمَ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّ» لَيْسَ كَمِثْلِهِ عِلْمٌ مِنْ عُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ، فَجَمِيعُهَا خَدَمٌ لَهُ، وَعَلِمْتَ أَنَّهُ مِفْتَاحُ الطَّرِيقِ إِلَىٰ أَنْ تَكُونَ وَاحِدًا مِنْ أَعْيَانِ عُلَمَاءِ فِقْهِ الْعَقِيدَةِ ، وَفِقْهِ الشَّرِيعَةِ، وَفِقْهِ الْإِحْسَانِ، وَحِينَذَاكَ تَجِدُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَمَنْ فِيهَا؛ مِنْ مَتَاعٍ، وَمَنَاصِبَ، وَجَاهٍ زَائِفٍ = تَتَزَلَّفُ إِلَيْكَ، وَتَخْطُبُ وُدَّكَ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَفِرَّ مِنْهَا فِرَارَكَ مِنَ الْأَسْدِ، وَتَقُولَ لَهَا بِمِلْءِ فُؤَادِكِ الرَّشِيدِ وَلِسَانِكِ الصَّدُوقِ: «إِلَيْكِ عَنِّي. طَلَّقْتُكِ ثَلَاثًا طَلَاقًا لَا رَجْعَةَ فِيهِ».

إِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ كُنْتَ كَمَا قُلْتُ لَكَ، وَإِلَّا فَخَيْرٌ لَكَ أَنْ تَبْحَثَ لَكَ عَنْ طَرِيقٍ غَيْرِ طَرِيقِ الْعِلْمِ يُوَصِّلُكَ إِلَىٰ الْجَنَّةِ.

﴿ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨]

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ، وَبَارَكَ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَوَرَثَتِهِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَأُمَّتِهِ، وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.



كَتَبَهَا:

أ.د/ محمود توفيق محمد سعد

أستاذ البلاغة والنقد في جامعة الأزهر

وعضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف



الْبَابُ الْخَامِسُ

الْقَوْلُ فِي الْقَصْرِ(١)

(١) الْقَصْرُ: بِفَتْحِ القَافِ وَسُكُونِ الصَّادِ عَلَىٰ زِنَةِ «الْقَلْبِ» لُغَةً: الحَبْسُ. وَهُوَ ضِدُّ الْمَدِّ وَالإِطْلَاقِ، وَاصْطِلَاحًا [أَيْ عِنْدَ الْبَلَاغِيِّينَ]: «تَخْصِيصُ أَمْرٍ بِأَمْرٍ بِطَرِيقٍ مَعْهُودٍ».

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ هُوَ: «المَقْصُورُ».

والْأَمْرُ الْآخَرُ هُوَ: «المَقْصُورُ عَلَيْهِ».

وَالطَّرِيقُ المَعْهُودُ هُوَ: مَا يَدُلُّ عَلَىٰ «الْقَصْرِ»، وَهُوَ عِنْدَ الْبَلَاغِيِّ طَرِيقٌ مَخْصُوصٌ.

وَيَتَّسِمُ طَرِيقُ الْقَصْرِ الْاصْطِلَاحِيِّ بِأَنَّهُ: لَا يَدُلُّ عَلَىٰ الْقَصْرِ دَلَالَةً مُبَاشِرَةً مِنْ مَادَتِهِ نَحْوَ: «مُحَمَّدٌ مُخْتَصٌّ بِالْكَرَمِ»، فَالدَّالُّ عَلَىٰ الْقَصْرِ هُنَا هُوَ كَلِمَةُ: «مُخْتَصٌّ»، وَكَذَلِكَ قَوْلُكَ: «مُحَمَّدٌ مَقْصُورٌ عَلَىٰ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ»، وَكَذَلِكَ قَوْلُكَ: «تَفَرَّدَ مُحَمَّدٌ بِالشَّجَاعَةِ»، وَكَذَلِكَ: «لَا يُشَارِكُ أَحَدٌ مُحَمَّدًا فِي سُرْعَةِ الْبَدِيهَةِ»، فَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَىٰ «الْقَصْرِ» دَلَالَةً مُبَاشِرَةً مِنْ مَادَّةِ الْكَلِمَةِ، وَمِنْ ثَمَّ لَا يَكُونُ هَذَا مِنْ قَبِيلِ الْقَصْرِ الْبَلَاغِيِّ، بَلْ هُوَ قَصْرٌ مَعْنَوِيٌّ.

وَمِنْ هُنَا تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَا دَلَّ أَوْ أَفَادَ تَخْصِيصًا وَحَصْرًا يَكُون مِنَ الْقَصْرِ الْاصْطِلَاحِيِّ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ دَلَالَتُهُ أَوْ إِفَادَتُهُ التَّخْصِيصَ وَالْحَصْرَ، بِطَرِيقٍ مَخْصُوصٍ، وَلَيْسَ بِأَيِّ طَرِيقٍ.

وَ«الْقَصْرُ» يُسَمَّىٰ أَيْضًا عِنْدَ الْبَلَاغِيِّينَ «الحَصْر»، وَيُسَمَّىٰ «التَّخْصِيص بِالثُّبُوتِ»، فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ مُصْطَلَحَاتٍ بِمَعْنَىٰ وَاحِدٍ.

وَ«الْقَصْرُ» يَعْتَمِدُ عَلَىٰ حُكْمَيْنِ: إِثْبَاتٌ وَنَفْيٌ، وَيَكُونانِ فِي جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ، لَا جُمْلَتَيْنِ. تَقُولُ: «إِنَّمَا شَوْقِيٌّ شَاعِرٌ» أَثْبَتَّ الشَّاعِرِيَّةَ لِشَوْقِيٍّ، وَنَفَيْتَ عَنْهُ مَا عَدَاهَا مِنَ الصِّفَات المُتَعَلِّقَةِ بِالإِبَانَةِ فَقَطْ، وَلَمْ تَنْفِ الصِّفَاتِ الْأُخْرَىٰ كُلَّهَا، فَهُوَ نَفْيُ صِفَاتٍ أُخْرَىٰ مَخْصُوصَةٍ مِنْ نَحْوِ: الْخَطَابَةِ، أَوْ الْكِتَابَةِ، أَوْ الرَّسْمِ ... وَلَمْ تَنْفِ عَنْهُ كُلَّ الصِّفَاتِ الْأُخْرَىٰ: كَالرُّجُولَةِ، وَالإِسْلَامِ، وَالْعُرُوبَةِ، وَالْحَيَاءِ، وَالطُّولِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَإِذَا قُلْتَ: «جَاءَ مُحَمَّدٌ وَلَمْ يَأْتِ خَالِدٌ»، فَهَذَا لَيْسَ مِنَ الْقَصْرِ الْاصْطِلَاحِيِّ الْبَلَاغِيِّ؛ وَإِنْ كَانَ قَصْرًا مَعْنَوِيًّا؛ أَيْ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَىٰ لَا مِنْ حَيْثُ الْاصْطِلَاحُ الْبَلَاغِيُّ.

وَسَبَبُ ذَلِكَ: أَنَّكَ أَثْبَتَّ وَنَفَيْتَ فِي جُمْلَتَيْنِ، وَلَوْ قُلْتَ: جَاءَ مُحَمَّدٌ لَا خَالِدٌ، كَانَ قَصْرًا اصْطِلَاحِيًّا؛ لِأَنَّ مِنْ طُرُقِ الْقَصْرِ النَّفْي بِلَا، وَلَيْسَ النَّفْيُ بِأَيِّ أَدَاةِ نَفْيٍ.

وَالْأَصْلُ فِي «الْقَصْرِ الْاصْطِلَاحِيِّ الْبَلَاغِيِّ» أَنَّكَ تَدُلُّ عَلَىٰ الْإِثْبَاتِ تَصْرِيحًا، وَعَلَىٰ النَّفي تَلْوِيحًا وَإِشَارَةً.

[أَقْسَامُ القَصْرِ بِاعْتِبَارِ عُمُومِ المَنْفِيّ وَخُصُوصِهِ][1]

أَقْسَامُ القَصْرِ: الْقَصْرُ حَقِيقيٌّ، وَغَيْرُ حَقِيقيٍّ[2].

وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ضَرْبَانِ:

قَصْرُ المَوصُوفِ عَلَىٰ الصِّفَةِ، وَقَصْرُ الصِّفَةِ عَلَىٰ المْوَصُوفِ.

وَالْمُرَادُ الصِّفَةُ المَعْنَوِيَّةُ لَا النَّعْتُ[3].

وَمِنْ هُنَا تَعْلَمُ أَنَّ الْقَصْرَ الْاصْطِلَاحِيِّ يَتَّسِمُ بِسِمَاتٍ:

- أَنَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَ الْإِثْبَاتِ والنّفي.
- أَنَّ الْإِثْبَاتَ وَالنَّفْيَ يَكُونانِ فِي جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ.
- أَنَّهُ لَا يَكُون فِي جُمْلَةٍ إِنْشَائِيَّةٍ.
- أَنَّ الْإِثْبَاتَ يُدَلُّ عَلَيْهِ تَصْرِيحًا، وَالنَّفْيُ يُدَلُّ عَلَيْهِ تَلْوِيْحًا.

(١) الْقَصْرُ مُنْقَسِمٌ مِنْ جِهاتٍ ثَلَاثَةٍ:

مِنْ حَيْثُ طَرَفَاهُ (نَوعُ الْمَقْصُورِ وَالْمَقْصُورِ عَلَيْهِ).

- مِنْ حَيْثُ عُمُومُ النَّفْيِ وَخُصُوصُهُ.
- مِنْ حَيْثُ مُطَابَقَتُهُ الْوَاقِعَ وَالْادِّعَاءِ.

يَنْقَسِمُ الْقَصْرُ إِلَىٰ حَقِيقِيٍّ وَغَيْرِ حَقِيقِيٍّ (إِضَافِيٍّ)، وَإِلَىٰ تَحْقِيقِيٍّ وَادِّعَائِيٍّ.

(٢) هَذَا التَّقْسِيمُ إِلَىٰ «حَقِيقِيٍّ»، وَ«غَيْرِ حَقِيقِيٍّ» [إِضَافِيٍّ] مَنْظُورٌ فِيهِ إِلَىٰ جِهَةِ الْمَنْفِي عَنْهُ الْحُكْمِ: أَهُوَ كُلُّ مَا عَدَا الْمَذْكُورِ الْمُثْبَتِ لَهُ الحُكْمُ، فَيَكُونُ «حَقِيقِيًّا» كَمَا فِي قَوْلِك: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» نَفَيْتَ الْالُوهِيَّةَ الْحَقَّةَ عَنْ كُلِّ مَا عَدَا اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَأَثْبَتَّهَا للهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَحْدَهُ؟

(٣) هَذَا تَقْسِيمٌ لِلْقَصْرِ «الْحَقِيقِيِّ»، و«غَيْرِ الحَقِيقِيِّ» [الْإِضَافِيِّ] بِاعْتِبَارِ رُكْنَيْهِ: طَرَفَيْهِ. الْقَصْرُ كَالتَّشْبِيهِ مُكَوَّنٌ مِنْ رُكْنَيين «طَرَفَيْنِ»: مَوصُوفٍ، وَصِفَةٍ.

وَالْمَوصُوفُ: مَا كَانَ ذَاتًا؛ أَيْ مَا كَانَ قَائِمًا بِنَفْسِهِ لَا بِغَيْرِهِ، أَوْ مَا كَانَ مُتَعَلِّقًا بِهِ غَيْرُهُ، وَلَا يَتَعَلَّقُ هُوَ بِغَيْرِهِ.

وَالْأَوَّلُ مِنَ الْحَقِيقِيِّ كَقَوْلِكَ: «مَا زَيْدٌ إِلَّا كَاتِبٌ» إِذَا أَرَدْتَ أَنَّهُ لَا يَتَّصِفُ بِصِفَةٍ غَيْرِ الْكِتَابَةِ، وَهَذَا لَا يَكَادُ يُوجَدُ فِي الْكَلَامِ؛ لِأَنَّهُ مَا مِنْ مُتَصَوَّرٍ إِلَّا وَتَكُونُ لَهُ صِفَاتٌ تَتَعَذَّرُ الْإِحَاطَةُ بِهَا أَوْ تَتَعَسَّرُ[1].

وَالثَّانِي مِنْهُ كَثِيرٌ؛ كَقَوْلِنَا: «مَا فِي الدَّارِ إِلَّا زَيْدٌ»[2]. وَالفَرْقُ بَيْنَهُمَا ظَاهِرٌ، فَإِنَّ المَوصُوفَ فِي الْأَوَّلِ لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يُشَارِكَهُ غَيْرُهُ فِي الصِّفَةِ الْمَذْكُورَةِ. وَفِي الثَّانِي يَمْتَنِعُ[3].

وَالمرَادُ بِالصِّفَةِ: مَا كَانَ أَمْرًا مَعْنُوِيًّا؛ أَيْ أَمْرًا مُتَعَلِّقًا بِغَيْرِهِ، وَلَيْسَ مُتَعَلِّقًا بِنَفْسِهِ نَحْوَ: الشَّجَاعَةِ، وَالْكَرَمِ، وَالْإِنْسَانِيَّةِ، فَهُوَ يُحْكَمُ بِهِ، وَلَيْسَ ذَاتًا، وَلَا يُرَادُ فِي هَذَا الْبَابِ: «بَابِ الْقَصْرِ» النَّعْتُ الَّذِي هُوَ أَحَدُ التَّوَابِعِ عِنْدَ النُّحَاةِ.

وَمِنَ المقرَّرِ أَنَّ الْقَصْرَ لَا يَقَعُ بيْنَ المَنْعُوتِ وَنَعْتِهِ بِمُصْطَلَحِ النُّحَاةِ، وَلَكِنَّهُ يَقَعُ بيْنَ الصِّفَةِ وَالْمَوصُوفِ بِمصْطَلَحِ البَلاغِيِّينَ.

فِي قَوْلِكَ: «الصَّبْرُ الجَمِيلُ عِبَادَةٌ» قَوْلُكَ: «عِبَادَةٌ» صِفَةٌ عِنْدَ البَلَاغِيِّينَ، وَلَيْسَ بِصِفَةٍ: «نَعْتٍ» عِنْدَ النُّحَاةِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِتَابِعٍ، وَإِنَّمَا هُوَ «مُسْنَدٌ»؛ أَيْ خَبَرٌ عَنِ المُبْتَدَإِ. وَأَمَّا قَوْلُكَ: «الجَمِيلُ» فَهُوَ صِفَةٌ عِنْدَ كُلٍّ مِنَ البَلَاغِيِّ وَالنَّحْوِيِّ، هُوَ صِفَةٌ عِنْدَ النَّحْوِيِّ؛ لِأَنَّهُ «تَابِعٌ»، وَصِفَةٌ عِنْدَ البَلَاغِيِّ؛ لِأَنَّهُ قَائِمٌ بِغَيْرِهِ، وَكُلُّ قَائِمٍ بِغَيْرِهِ عِنْدَهُمْ «صِفَةٌ» لَا ذَات.

(١) هَذَا مَذْهَبُ الْخَطِيبِ الْقَزْوِينِيِّ وَمَنْ تَبِعَهُ، وَفِيهِ نَظَرٌ:

الْبَلَاغِيُّ حِينَ يُثْبِتُ صِفَةً، وَيَنْفِي عَنِ الْمَوصُوفِ كُلَّ مَا عَدَاهَا، لَا يَنْفِي عَنْهُ كُلَّ مَا عَدَاهَا مِنَ الصِّفَاتِ المُجَانِسَةِ لِلْصِفَةِ المُثْبَتَةِ المَذْكُورَةِ، وَغَيْرِ المُجَانِسَةِ، بَلْ هُوَ مُرْتَبِطٌ بِالسِّيَاقِ؛ أَيْ مَا الْكَلَامُ فِيهِ، فَإِذَا أَثْبَتَ صِفَةَ الشَّاعِرِيَّةِ لِأَحَدٍ، وَنَفَىٰ عَنْهُ كُلَّ مَا عَدَاهَا، كَمَا فِي قَوْلِهِ: «مَا الْمُتَنَبِّي إِلَّا شَاعِرٌ»، فَإِنَّهُ لَا يَنْفِي جَمِيعَ الصِّفَاتِ عَنْهُ كَالْإِنْسَانِيَّةِ، وَالعُرُوبَةِ، وَالْإِسْلَامِ وَنَحْوَ ذَلِكَ، بَلْ يَنْفِي عَنْهُ جَمِيعَ الصِّفَاتِ الَّتِي مِنْ جِنْسِ الشَّاعِرِيَّةِ؛ أَيْ مَا يَتَعَلَّقُ بِصِفَاتِ الْبَيَانِ مِنْ نَحْوَ: «الْكِتَابَةِ»، و«الْخَطَابَةِ»، و«الرَّسْمِ».

(٢) فَهَذَا مِنْ قَبِيلِ قَصْرِ الصِّفَةِ عَلَىٰ الْمَوصُوفِ، وَمِثْلُهُ: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ»، و«مَا خَاتَمُ الرُّسُلِ إِلاَّ مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، و«لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلَّا مُسْلِمٌ»، وَهَذَا فِي البَيَانِ البَلِيغِ كَثِيرٌ.

(٣) قَوْلُهُ: «دُونَ أُخْرَىٰ» يَقصِدُ أَنَّ الْقَصْرَ يَكُون لِنَفْيِ مَا يَعتَقِدُهُ المُخاطَبُ مِنَ اشْتِرَاكِ صِفَتَيْنِ فِي الْمَوصُوفِ، فَتقصِرُ الْمَوصُوفَ عَلَىٰ وَاحِدَةٍ دُونَ أُخرَىٰ، كَأَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ (شَوْقِي) شَاعِرٌ وَخَطِيبٌ،

[تَقْسِيمُ القَصْرِ الحَقِيقِيّ بضَرْبيْهِ بِاعْتِبَارِ مُطابَقَةِ عُمُومِ النَّفْي الْوَاقِعِ، وَعَدَمِ مُطَابَقَتِهِ؛ أَي البِنَاء عَلَى المُبَالَغَةِ وَالادِّعَاءِ]

وَقَدْ يُقْصَدُ بِهِ؛ [أَيْ الْحَقِيقيُّ بِقِسْمَيْه] المُبَالَغَةُ لِعَدَمِ الِاعْتِدَادِ بِغَيْرِ المَذْكُورِ، فَيُنَزَّلُ مَنْزِلَةَ المَعْدُومِ(١).

فَتَقَوْلُ لَهُ: «إِنَّمَا شَوقِي شَاعِرٌ» لَا غَيْرَ؛ أَيْ وَلَيْس شَاعِرًا وَخَطِيبًا مَعًا. وَهَذَا تَرَاهُ وَاضِحًا فِي قَوْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [النساء: ١٧١] أَفْرَدَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِالْوَحْدَانِيَّةِ مُخَاطِبًا مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ مَعَ اللهِ تَعَالَىٰ إِلهًا آخَرَ، كَمَا كَانَ يَعْتَقِدُ مُشْرِكُو العَرَبِ، فَجَاءَهُمْ الْإِسْلَامُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ.

وَقَوْلُهُ: «مَكَانَ أُخرَىٰ» يَقْصِدُ أَنَّ الْقَصْرَ يَكُونُ لِنَفْيِ مَا يَعْتَقِدُهُ الْمُخَاطَبُ عَكْسَ الوَاقِعِ، مِثْلَ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ (شَوقِي) خَطِيبٌ وَلَيْس شَاعِرًا، فَتَقُولُ لَهُ: «مَا شَوقِي إِلَّا شَاعِرٌ»؛ أَيْ وَلَيْس خَطِيبًا كَمَا تَعْتَقِدُ، فَتَقلِبُ عَلَيْهِ اعْتِقَادَهُ...وَمِثْلُ هَذَا يُثمِرُ فِي سِيَاقِ «المُنَاظَرةِ» و«الْاحْتِجَاجِ». وَهُوَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ البَلَاغَةِ جَلِيلٌ.

(١) هَذَا تَقْسِيمُ الْقَصْرِ مِنْ حَيْثُ مُطَابَقَةُ عُمُومِ النَّفْيِ الوَاقِعَ، وَعَدَمُ مُطَابَقَتِهِ.

يَنْقَسِمُ الْقَصْرُ الحَقِيقِيُّ إِلَىٰ قَصْرٍ حَقِيقِيٍّ «تَحْقِيقِيٍّ» مُطَابِقٍ فِيهِ عُمُومُ النَّفْيِ الوَاقِعِ، كَمَا فِي: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، فَالمَنفِيّ عَنْهُ الْأُلُوهِيَّةُ الحَقَّةُ غَيْرُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَامٌّ، وَهُوَ كَذَلِكَ فِي الوَاقِعِ.

وَقَدْ يَكُونُ النَّفْيُ عَامًّا ادِّعَاءً؛ أَيْ: أَنَّكَ لَا تَعتَدُّ بِمَنْ تَكُونُ فِيهِ الصِّفَة، كَمَا فِي قَوْلِكَ: (إِنَّمَا الْجَوَادُ حَاتِمٌ) تَنْفِي الْجُودَ عَنْ كُلِّ مَاعَدَا حَاتِمٍ، وَهَذَا غَيْرُ مُطَابِقٍ لِلْوَاقِعِ، فَهُنَالِك مَنْ هُوَ جَوادٌ مِنْ قَبْلِ حَاتِمٍ وَمِنْ بَعْدِهِ، لَكِنَّكَ لَا تَعْتَدُّ بِجُودِهِ فِي مُقَابِلِ جُودِ حَاتِمٍ، وَهَذَا تَجِدُهُ فِي الشِّعْرِ والنَّثرِ الْأَدَبِيِّ كَثِيرًا. وَيُسَمَّىٰ هَذَا: «قَصْرُ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوصُوفٍ قَصْرًا حَقِيقِيًّا ادِّعائِيًّا».

وَمِنْ هَذَا فِي الْقُرآنِ قَوْلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٨]

قَوْلُهُ: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ قَصَرَ خَشْيَةَ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ العُلَمَاءِ، قَصْرَ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوصُوفٍ، وَنَفَاهَا عَنْ كُلِّ مَنْ عَدَاهُمْ، وَهَذَا عَلَىٰ سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ فِي كَمَالِ خَشْيَةِ العُلَمَاءِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لِأَنَّهَا الْخَشْيَةُ الْمُؤَسَّسَةُ عَلَىٰ الْعِلْمِ، وَخَشْيَةُ غَيْرِهِمْ لَيْسَتْ كَذَلِكَ، فَكَأَنَّ خَشْيَتَهمْ بِالنِّسبةِ لِخَشْيَةِ العُلَمَاءِ لَيْسَتْ خَشْيَةً لِعَدَمِ كَمَالِهَا، فَهَذَا مِنْ قَصْرِ الصِّفَةِ عَلَىٰ الْمَوصُوفِ قَصْرًا حَقِيقِيًّا لِلْمُبَالَغَةِ «الادِّعَاءِ»، وَفِي هَذَا تَحْرِيضٌ وَحَثٌّ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ المَرْءُ مِنَ العُلَمَاءِ لِتَتَحَقَّقَ لَهُ فَضِيلَةُ الْخَشْيَةِ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ.

وَمِنْ هَذَا قَوْلُ الحَبِيبِ أَبِي تَمَّام مُثْنِيًا عَلَىٰ الخَلِيفَةِ العَبَّاسِيِّ «المُعْتَصِم باللهِ» فِي بَائِيَّتِهِ الْفَرِيدَةِ:

خَلِيفَةَ اللهِ جَازَىٰ اللهُ سَعْيَكَ عَنْ ... جُرْثُومَةِ الدِّينِ وَالإِسْلَامِ وَالحَسَبِ

بَصُرتَ بِالرَّاحَةِ الْكُبرَىٰ فَلَمْ تَرَهَا ... تُنَالُ إِلَّا عَلَىٰ جِسْرٍ مِنَ التَعَبِ

إِنْ كَانَ بَيْنَ صُرُوفِ الدَّهْرِ مِنْ رَحِمٍ ... مَوْصُولَةٍ أَوْ ذِمَامٍ غَيْرِ مُنْقَضِبِ

فَبيْنَ أَيَّامِكَ اللَّائِي نُصِرْتَ بِهَا ... وَبَيْنَ أَيَّامِ بَدْرٍ أَقْرَبُ النَّسَبِ

هَذَا الْبَيْتُ يُصُورُ لَنَا شَأْنَ المُعْتَصِمِ. لَا يَرْضَىٰ بِمَا يَسْهلُ اكْتِسَابُهُ، فَشَأْنُ مَا يَأْتِيكَ بِغَيْرِ مُجَاهَدَةٍ أَنْ يُغَادِرَكَ سَرِيعًا، أَمَّا مَا أَنْتَ حَائِزُهُ بِجُهْدٍ وَمُكَابَدَةٍ، فَإِنَّهُ يَعْجَزُ عَنْ أَنْ يُغَادِرَكَ بِغَيْرِ إِرَادَتِكَ، فَإِنَّ أَجَلَّ الْأَعْمَالِ قَدْرًا، وَأَبْقَاهَا مَقَامًا، وَأَعْلَاهَا شَأْنًا مَا كَانَ.

قَوْلُهُ: «فَلَمْ تَرَهَا تُنَالُ إِلَّا عَلَىٰ جِسْرٍ مِنَ التَعَبِ» قَصْرُ مَوصُوفٍ عَلَىٰ صِفَةٍ قَصْرًا حَقِيقِيًّا ادِّعائِيًّا، هُوَ يَقصرُ نُوَالَ الرَّاحَةِ الْكُبرَىٰ عَلَىٰ كَوْنِهَا تُنَالُ عَلَىٰ جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ، وَأَصْلُ التَّرْكِيبِ: تُنَالُ الرَّاحَةُ الْكُبرَىٰ عَلَىٰ جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ.

وَهَذَا قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ؛ لِأَنَّهُ نَفَىٰ مَا عَدَا جِسْرِ التَّعَبِ طَرِيقًا إِلَىٰ الرَّاحَةِ الْكُبْرَىٰ، وَهَذَا عَلَىٰ سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ والْادِّعَاءِ؛ لِأَنَّهَا قَدْ تَتَحَقَّقُ بِغَيْرِ تَعَبٍ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعْتَدّ بِهَذَا، فَأَنْزَلَهُ مَنْزِلَةَ المَعْدُومِ.

وهَذَا الْبَيْتُ مِنْ حُرِّ الشِّعْرِ وَشَرِيفِهِ. هُوَ مِنَ الشِّعْرِ الَّذِي يُسْهِمُ فِقْهُهُ وَتَذْوقُهُ فِي صِنَاعَةِ الرِّجَالِ الَّذِينَ لَا يَرْضُونَ بِغَيْرِ مَقْعَدِ الشَّمْسِ مَنْزِلًا. يَرَوْنَ الذُّلَّ وَالموتَ سَواءً، وَهَذَا مَا يَجبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ شَأْنُ المُسْلِمِ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تَتَخَلَّقَ بِهَذَا الخُلُقِ المَجِيدِ الحَمِيدِ؟

وَجُمْهُورُ البَلَاغِيِّينَ يَجْعَلُ تَقْسِيمَ الْقَصْرِ إِلَىٰ قَصْرِ «تَحْقِيقِيٍّ»، وَقَصْرِ «ادِّعَائِيٍّ» خَاصًّا بِالْقَصْرِ الحَقِيقِيِّ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ الْمَنفِيُّ عَامًّا، وَلَا يَتَحَقَّقُ عِنْدَهُمْ فِي الْقَصْرِ الْإِضَافِيِّ.

تَحْرِيرُ الْمُفَارَقَاتِ بَيْنَ الْأَقْسَامِ:

(١) الفَرْقُ بَيْنَ الْقَصْرِ الْحَقِيقِيِّ مُطْلَقًا وَالإِضَافِيِّ مُطْلَقًا:

الْحَقِيقِيُّ يَكُونُ النَّفْيُ فِيهِ لِكُلِّ مَا عَدَا المُثْبَتِ المَذْكُورِ مِنْ جِنْسِهِ. وَالإِضَافِيُّ النَّفْيُ فيه لِبَعْضِ مَا عَدَا المَذْكُورِ.

(٢) الفَرْقُ بَيْنَ التَّحْقِيقِيِّ مُطْلَقًا وَالادِّعَائِيِّ مُطْلَقًا:

التَّحْقِيقِيُّ النَّفْيُ فِيهِ مُطَابِقٌ لِلْوَاقِعِ الخَارِجِيِّ.

وَالادِّعَائِيُّ النَّفْيُ فِيهِ غَيْرُ مُطَابِقٍ لِلْوَاقِعِ الخَارِجِيِّ، وَالنَّفْيُ حِينَذَاكَ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ التَّنْزِيلِ وَالمُبَالَغَةِ.

فَإِذَا قُلْتَ: (مَا شَوقي إِلَّا شَاعِرٌ) عَلَىٰ أَنَّهُ قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ ادِّعَائِيٌّ كَانَ كُلُّ مَا عَدا الشَّاعِرِيَّةِ مِنْ أَجْنَاسِ

[تَقْسِيمُ القَصْرِ بِاعْتِبَارِ اعْتِقَادِ المُخَاطَبِ]

وَالْأَوَّلُ مِنْ غَيْرِ الحَقِيقِيِّ: تَخْصِيصُ أَمْرٍ [أَيْ مَوصُوفٍ] بِصِفَةٍ دُونَ أُخْرَىٰ، أَوْ مَكَانَ أُخْرَىٰ[1]، وَالثَّانِي مِنْهُ: تَخْصِيصُ صِفَةٍ بِأَمْرٍ [أَيْ صِفَةٍ] دُونَ آخَرَ، أَوْ مَكَانَ آخَرَ[2].

الْإِبْدَاعِ الفَنِّيِّ مَنْفِيًّا عَنْ شَوْقِي نَفيًا غيرَ مُتَطَابِقٍ مَعَ الْوَاقِعِ، فَقَدْ كَانَ كَاتِبَ مَسْرَحِيَّةٍ نَثْرِيَّةٍ، وَكَانَ كَاتِبَ نَثْرٍ أَدَبِيٍّ، كَمَا فِي كِتَابِهِ أَطْوَاقِ الذَّهَبِ غَيْرَ أَنَّكَ نَزَّلتْ هُنَا كُلَّ ذَلِكَ مَنْزِلَةَ العَدَمِ بِجَانِبِ عَبْقَرِيتِهِ الشَّاعِرَةِ.

فَإِنْ قُلتَ: «إنّما شَوقِي شَاعِرٌ لَا رَسَّامٌ» كَانَ ذَلِكَ قَصْرًا إِضَافِيًّا؛ حَيْثُ لَمْ يَتَنَاولِ النَّفْيُ سِوىٰ جِنْسٍ وَاحِدٍ مِنْ أَجْنَاسِ الْإِبْدَاعِ الفَنِّيِّ وَهُوَ الرَّسْمُ، وَكَانَ ذَلِكَ مُطَابِقًا لِلْوَاقِعِ، فَلَمْ يَكُنْ شَوقِي رَسّامًا قَطُّ.

(١) قَوْلُهُ: وَالأَوَّلُ مِنْ غَيْرِ الحَقِيقِيِّ» يُلْفِتُ إِلَىٰ أَنَّ تَقْسِيمَ الْقَصْرِ بِاعْتِبَارِ حَالِ الْمُخَاطَبِ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْقَصْرِ غَيْرِ الْحقيقيِّ؛ أيْ الْقَصْرُ الْإِضَافِيُّ، أَمَّا الْقَصْرُ الحَقيقيُّ، فَلَا يَنْقَسِمُ بِاعْتِبَارِ الْمُخَاطَبِ.

وَقَوْلُهُ: «تَخْصِيصُ أمْرٍ بِصِفَةٍ»، هُوَ مِنْ قَبِيلِ قَصْرِ مَوصُوفٍ عَلَىٰ صِفَةٍ.

وَقَوْلُهُ: «دُونَ أخْرَىٰ» يَقْصِدُ أَنَّ الْقَصْرَ يَكُونُ لِنَفْيِ مَا يَعْتَقِدُهُ المُخَاطَبُ مِنْ اشْتِرَاكِ صِفَتَيْنِ فِي الْمَوصُوفِ، فَتَقْصِرُ الْموصُوفَ عَلَىٰ وَاحِدةٍ دُونَ أُخرَىٰ، كَأَنْ يَعْتَقِدَ الْمُخَاطَبُ أَنَّ (شَوقِي) شَاعِرٌ وخَطِيبٌ مَعًا، فتَقُوْلُ لَهُ: «إنّما شَوقِي شَاعِرٌ»؛ أَيْ لَيْسَ شَاعِرًا وَخَطِيبًا مَعًا. وَهَذَا تَرَاهُ وَاضِحًا فِي قَوْلِ اللهِ جَلَّجَلَالُهُ: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[النساء: ١٧١] أَفْرَدَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بِالْوَحْدَانِيَّةِ مُخَاطِبًا مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ مَعَ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إِلهًا آخَرَ، كَمَا كَانَ يَعْتَقِدُ مُشْرِكُو العَرَبِ، فَجَاءَهُم الْإِسْلامُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ.

وَقَوْلُهُ: «مَكَانَ أُخْرَىٰ» يَقْصِدُ أَنَّ الْقَصْرَ يَكونُ لِنَفْيِ مَا يَعْتَقِدُهُ المُخَاطَبُ عَكسَ الْوَاقِعِ، كَأَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ (شَوقِي) خَطِيبٌ وَلَيْسَ شَاعِرًا، فَتَقُوْلُ لَهُ: «إِنَّمَا شَوقِي شَاعِرٌ»؛ أَيْ لَيْسَ خَطِيبًا كَمَا تَعْتَقِدُ، فَتَقلِبُ عَلَيْهِ اعْتِقَادَهُ... وَمِثْلُ هَذَا يَصْلُحُ فِي بَابِ الْمُناظَرَةِ وَالمُجَادَلَةِ وَالْاحْتِجَاجِ. وَهُوَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْبَلَاغَةِ وَسِيعٌ، وَالْقُرْآنُ وَافِرٌ فِيهِ ذَلِكَ.

(٢) هَذَا مِنْ قَبِيلِ قَصْرِ الصِّفَةِ عَلَىٰ الْمَوصُوفِ؛ أَيْ: أَنَّ المُخَاطَبَ إِمَّا أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ (شَوقِي وَنَجِيب مَحْفُوظ) كِلَاهُمَا شَاعِرٌ، فَتُفْرِدُ (شَوقِي) بِالشَّاعِرِيَّةِ: «إِنَّمَا الشَّاعِرُ شَوقِي» فهَذَا قَصْرُ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوصُوفٍ إِفْرَادًا؛ وَلِذَا اسْتَعْمَلَ كَلِمَةَ «دُونَ» أَوْ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ (نَجِيب مَحْفُوظ) هُوَ الشَّاعِرُ، وَلَيْسَ

فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ضَرْبَانِ[1].

[تَعْيِينُ الْمُخَاطَبِ بِكُلِّ ضَرْبٍ]

وَالْمُخَاطَبُ بِالْأَوَّلِ: [أَيْ قَصْرَ الإِفْرَادِ] مِنْ ضَرْبَيْ كُلٍّ (أَعْنِي تَخْصِيصَ أَمْرٍ [أَيْ مَوصُوفٍ] بِصِفَةٍ دُونَ أُخْرَىٰ، وَتَخْصِيصَ صِفَةٍ بِأَمْرٍ دُونَ آخَرَ) مَنْ يَعْتَقِدُ الشَّرِكَةَ؛ أَيْ اتِّصَافَ ذَلِكَ الْأَمْرِ بِتِلْكَ الصِّفَةِ، وَغَيْرِهَا جَمِيعًا فِي الْأَوَّلِ. [أَيْ قَصْرَ مَوْصُوفٍ عَلَىٰ صِفَةٍ] وَاتِّصَافَ ذَلِكَ الْأَمْرِ وَغَيْرِهِ جَمِيعًا بِتِلْكَ الصِّفَةِ فِي الثَّانِي.

فالمُخَاطَبُ بِقَوْلِنَا: «مَا زَيْدٌ إِلَّا كاتِبٌ»، مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ زَيْدًا كَاتِبٌ وَشَاعِرٌ. وَبِقَوْلِنا: «مَا شَاعِرٌ إِلَّا زَيْدٌ» مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ زَيْدًا شَاعِرٌ، لَكِن يَدَّعِي أَنَّ عَمْرًا - أَيْضًا - شَاعِرٌ، وَهَذَا يُسَمَّىٰ «قَصْرَ إِفْرَادٍ»؛ لِقَطْعِهِ الشَّرِكَةَ بَيْنَ الصِّفَتَيْنِ فِي الثُّبُوتِ

(شَوقِي)، فَتَقْلِبُ عَلَيْهِ اعْتِقَادَهُ، فَتَقُوْلُ: «إِنَّمَا الشَّاعِرُ شَوقِي»؛ أَيْ وَلَيْسَ (نَجِيب مَحْفُوظ)، فَهَذَا قَصْرُ «قَلْبٍ»؛ وَلِذَا اسْتَعْمَلَ كَلِمَةَ «مَكَانَ» وَعَلَىٰ هَذَا يَكُونُ قَوْلُكَ: «لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ» يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَصْرَ «إِفْرَادٍ» إِنْ كَانَ الْمُخَاطَبُ يَعْتَقِدُ أَنَّ مَعَ اللهِ تَعَالَىٰ إِلهًا آخرَ.

وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قصرَ «قَلْبٍ» بِحَسَبِ اعْتِقَادِ المُخَاطَبِ، إِنْ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْإِلَهَ هُوَ «الشَّمْسُ» أَوْ «النَّارُ»، فَتَقْلِبُ عَلَيْهِ اعْتِقَادَهُ، فَالمُتَكَلِّمُ إِنَّما يُجْرِي كَلَامَهُ قَصْرًا عَلَىٰ حَسَبِ اعْتِقَادِ مَنْ يُخَاطِبُهُ، فَمُلَاحَظَةُ حَالِ المُخَاطَبِ هُنا مُهِمَّةٌ جِدًّا.

(١) قَوْلُهُ: «فَكُلُّ واحِدٍ مِنْهما ضَرْبَانِ»؛ أَيْ كُلّ وَاحِدٍ مِنْ قَصْرِ الصِّفَةِ عَلَىٰ الْمَوصُوفِ، وَقَصْرِ الْمَوصُوفِ عَلَىٰ الصِّفَةِ ضَرْبَانِ، فَيَكُونُ لَدينا أَرْبَعَةُ أَضْرُبٍ:

أ- قَصْرُ مَوصُوفٍ عَلَىٰ صِفَةٍ قَصْرَ إِفْرَادٍ.

ب- قَصْرُ مَوصُوفٍ عَلَىٰ صِفَةٍ قَصْرَ قَلْبٍ.

ج- قَصْرُ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوصُوفٍ قَصْرَ إِفْرَادٍ.

د- قَصْرُ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوصُوفٍ قَصرَ قَلْبٍ.

لِلْمَوصُوفِ أَوْ بَيْنَ المَوصُوفِ وَغَيْرِهِ فِي الْاتِّصَافِ بِالصِّفَةِ[1].

وَالمُخَاطَبُ بِالثَّانِي مِنْ ضَرْبَيْ كُلٍّ: (أَعْنِي تَخْصِيصَ أَمْرٍ بِصِفَةٍ مَكَانَ أُخْرَىٰ وَتخْصِيصَ صِفَةٍ بِأَمْرٍ مَكَانَ آخرَ)، إِمَّا مَنْ يَعْتَقِدُ الْعَكْسَ؛ أَيْ اتِّصَافَ ذَلِكَ الْأَمْرِ بِغَيْرِ تِلْكَ الصِّفَةِ عِوضًا عَنْهَا فِي الْأَوَّلِ، وَاتِّصَافِ غَيْرِ ذَلِكَ الْأَمْرِ بِتِلْكَ الصِّفَةِ عِوَضًا عَنْهُ فِي الثَّانِي، وَهَذَا يُسَمَّىٰ «قَصْرَ القَلْبِ» لِقَلْبِهِ حُكْمَ السَّامِعِ[2].

وَإِمَّا مَنْ تَسَاوَىٰ الْأَمْرَانِ عِنْدَهَ؛ أَيْ اتِّصَافُ ذَلِكَ الْأَمْرِ بِتِلْكَ الصِّفَةِ، وَاتِّصَافُهُ بِغَيْرِهَا فِي الْأَوَّلِ، وَاتِّصَافُهُ بِهَا، وَاتِّصَافُ غَيْرِهِ بِهَا فِي الثَّانِي، وَهَذَا يُسَمَّىٰ قَصْرَ تَعْيِينٍ[3].

فَالمُخَاطَبُ بِقَوْلِنَا: «مَا زَيْدٌ إِلَّا قَائِمٌ» مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ زَيْدًا قَاعِدٌ، لَا قَائِمٌ أَوْ يَعْلَمُ أَنَّهُ إِمَّا قَاعِدٌ أَوْ قَائِمٌ، وَلَا يَعْلَمُ أَنَّهُ بِمَاذَا يَتَّصِفُ مِنْهُما بِعَيْنِهِ، وَبِقَوْلِنَا: «مَا

---

(١) يُرِيدُ أَنَّ المُخَاطَبَ بِقَصْرِ «الإِفْرَادِ» هُوَ ذَلِكَ الَّذِي يَعْتَقِدُ أَنَّ شَخْصًا قَدْ جُمِعَتْ فِيهِ صِفَتَانِ، بَيْنَا الْوَاقِعُ أَنَّهُ لَا يَتّصِفُ إِلَّا بِوَاحِدَةٍ، فَتَقْصِرُهُ عَلَيْها، وَتَنفِي عَنْهُ الْأُخْرَىٰ، فَيَكُونُ «قَصْرَ مَوصُوفٍ عَلَىٰ صِفَةٍ قَصْرَ إِفْرَادٍ».

أَوْ يَعْتَقِدُ أَنَّ صِفَةً مَا قَائِمَةٌ فِي شَخْصَيْنِ بَيْنَا الْوَاقِعُ أَنَّهَا فِي شَخْصٍ وَاحِدٍ، فَيَقْصِرُهَا المُتَكَلِّمُ عَلَىٰ شَخْصٍ وَاحِدٍ، فَيَكُونُ مِنْ قَصْرِ الصِّفَةِ عَلَىٰ المَوصُوفِ قَصْرَ إِفْرَادٍ.

فَالمُخَاطَبُ بِالْإِفْرَادِ لَا يَنْفِي شَيْئًا، بَلْ يَجْمَعُ شَيْئَينِ أَوْ أَشْيَاءَ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ، فَهُوَ يُدْخِلُ شَيْئًا صِفَةً أَوْ مَوصُوفًا مَعَ غَيْرِهِ فِيمَا لَا حَقَّ لَهُ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ.

(٢) يُرِيدُ أَنَّ قَصْرَ «الْقَلْبِ» يَكُونُ المُخَاطَبُ بِه مُقِيمًا صِفَةً مَقَامَ صِفَةٍ فِي قَصْرِ الْمَوصُوفِ عَلَىٰ الصِّفَةِ، أَوْ يُقِيمُ مَوصُوفًا مَكَانَ مَوصُوفٍ، فِي قَصْرِ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوصُوفٍ. فَهُوَ مُسْتَبْدِلٌ شَيْئًا غَيْرَ مُسْتَحِقٍ مَكَانَ شَيْءٍ مُسْتَحِقٍ.

(٣) يُرِيدُ أَنَّ قَصْرَ «التَّعْيِينِ» يُخَاطَبُ بِهِ مَنْ كَانَ لاَ يَمْلِكُ الْقَطْعَ بِشَيْءٍ، فَهُوَ مُتَرَدِّدٌ: لاَ يُعَيِّنُ مَنْ هُوَ مُتَّصِفٌ بِالشَّاعِرِيَّةِ: شَوقِي أَمْ المَعَرِّيّ. وَمَا الَّذِي يَتَصِفُ بِهِ شَوْقِي: الشِّعْرُ أَمْ الخَطَابَةُ؟ فَيَأْتِي الْقَصْرُ مُعَيِّنًا أَحَدَ الْأَمْرَينِ.

قَائِمٌ إِلَّا زَيْدٌ» مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ عَمْرًا قَائِمٌ لا زَيْدًا، أَوْ يَعْلَمُ أَنَّ القَائِمَ أَحَدُهُما دُونَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، لَكِنْ لَا يَعْلَمُ مَنْ هُوَ مِنْهُمَا بِعَيْنِهِ[١].

[شَرَائِطُ كُلِّ صُورَةٍ مِنْ صُوَرِ القَصْرِ][٢]

وَشَرْطُ قَصْرِ الْمَوصُوفِ عَلَىٰ الصِّفَةِ «إِفْرَادًا»: عَدَمُ تَنَافِي الصِّفَتَيْنِ حَتَّىٰ تَكُونَ المَنْفِيَّةُ فِي قَوْلِنَا: «مَا زَيْدٌ إِلَّا شَاعِرٌ» كَوْنُهُ كَاتِبًا أَوْ مُنَجِّمًا أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، لَا كَوْنَهُ مُفْحَمًا لَا يَقُولُ الشِّعْرَ؛ لِيُتَصَوَّرَ اعْتِقَادُ المُخَاطَبِ اجْتِمَاعَهُمَا.

وَشَرْطُ قَصْرِهِ «قَلْبًا»: تَحَقُّقُ تَنَافِيهِمَا حَتَّىٰ تَكُونَ الْمَنْفِيَّةُ فِي قَوْلِنَا: «مَا زَيْدٌ إِلَّا قَائِمٌ» كَوْنُهُ قَاعِدًا أَوْ جَالِسًا أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، لا كَوْنُهُ أَسْوَدَ أَوْ أَبْيَضَ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ؛ لِيَكُونَ إِثْبَاتُها مُشْعِرًا بِانْتِفَاءِ غَيْرِهَا.

---

(١) جَلِيٌّ أَنَّ تَنَوّعَ صُوَرِ الْقَصْرِ مِنْ «إِفْرَادٍ» إِلَىٰ «قَلْبٍ» إِلَىٰ « تَعْيِينٍ» أَمْرٌ مَتَعَلِّقٌ بِحَالِ المُخَاطَبِ بِهِ، وَهَذَا يُوجِبُ عَلَىٰ المُتَكَلِّمِ أَنْ يَكُونَ عَلِيمًا بِحَالِ المُخَاطَبِ، وَأَنْ يَبْنِي كَلَامَهُ عَلَىٰ وَفْقِ مَا يَقْتَضِيهِ حَالُ المُخَاطَبِ. فَلَا سَبِيلَ لَكَ أَنْ تَعْرِفَ قَوْلَنَا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» أَهُوَ قَصْرُ «إِفْرَادٍ»، أَمْ قَصْرُ «قَلْبٍ»، أَمْ قَصْرُ «تَعْيِينٍ» إِلَّا بِمَعْرِفَتِكِ حَالَ مَنْ يُخَاطَبُ بِهِ سَواءٌ مِنْ سِيَاقِ الْكَلَام (المَقَالِ) أَوْ سِيَاقِ الحَالِ(المَقَام) فَقَدْ يُخَاطَبُ بِهَذِهِ الجُمْلَةِ الشَّرِيفَةِ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ مَعَ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إِلَهًا آخَرَ، فَتَكُونُ الْجُمْلَةُ قَصْرَ «إِفْرَادٍ»، وَقَدْ يُخَاطَبُ بِهَا مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ الإِلَهَ هُوَ الشَّمْسُ، فَتَقْلِبَ عَلَيْهِ اعْتِقَادَهُ، فَيَكُونُ قَصْرَ «قَلْبٍ»، أَوْ يُخَاطَبُ بِهَا مَنْ لَا يَعْرِفُ أَهُوَ اللهُ تَعَالَىٰ، أَم «الشَّمْسُ»، أَم «النَّارُ»؟ فَتُعَيِّنُ لَهُ الإِلَهَ الحَقَّ، فَيَكُونُ قَصْرَ «تَعْيِينٍ».

وَمُعْظَمُ الْأَسَالِيبِ البَلَاغِيَّةِ لَا تُحَرَّرُ مَعَانِيهَا وَمَقَاصِدُهَا إِلَّا بِمَعُونَةِ السِّيَاقِ المَقَالِيِّ أَوْ المَقَامِيِّ أَوْ هُمَا مَعًا. فَعِلْمُ البَلَاغَةِ عِلْمٌ سِيَاقِيٌّ مَقَاصِدِيٌّ أَيْ يَعْتَمِدُ عَلَىٰ السِّيَاقِ، وَمَقْصِدِ الْكَلَامِ، لِيَتِمَّ تَحْرِيرُ الْمَعْنَىٰ. وَهَذَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ فُؤَادٍ رَشِيدٍ يَقِظٍ.

وَعَلَىٰ هَذَا، فَمَسْتَمَدُّ الْمَعْنَىٰ ثَلَاثَةٌ: «النَّظْمُ»، وَ«السِّيَاقُ الْمَقَالِيُّ وَالْمَقَامِيُّ»، و«المَقْصِدُ وَالمَغْزَىٰ».

(٢) لمّا كَانَتْ صُورُ الْقَصْرِ «الإِضَافِيِّ» بِاعْتِبَارِ حَالِ المُخَاطَبِ قَدْ تَتَدَاخَلُ كَانَ حَسَنًا أَنْ يُعْمَلَ عَلَىٰ تَبْيِينِ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَرْشَدَ بِهِ، لِيُفْصَلَ بَيْنَ الصُّورِ، فَجَعَلُوا لِكُلِّ صُورَةٍ شَرْطًا إِذَا تَحَقَّقَ اسْتَقَامَ الْبَيَانُ، وَكَانَ مَنَاطُ هَذَا الشَّرْطِ هُوَ الصِّفَةَ.

وَقَصْرُ «التّعْيينِ» أَعَمُّ؛ لِأَنَّ اعْتِقَادَ كَوْنِ الشَّيْءِ مَوْصُوفًا بِأَحَدِ أَمْرَيْنِ مُعَيَّنَيْنَ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ لَا يَقْتَضِي جَوَازَ اتِّصَافِهِ بِهِمَا مَعًا وَلَا امْتِناعِهِ. وَبِهَذَا عُلِمَ أَنَّ كُلَّ مَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مِثَالًا لِقِصْرِ «الْإِفْرَادِ»، أَوْ لِقَصْرِ «الْقَلْبِ» يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مِثَالًا لِقَصْرِ «التَّعْيينِ» مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ[1].

[صَنِيعُ السَّكَّاكِيِّ]: وَقَدْ أَهْمَلَ السَّكَّاكِيُّ القَصْرَ «الحَقِيقِيَّ»، وَأَدْخَلَ قَصْرَ «التَّعْيينِ» فِي قَصْرِ «الْإِفْرَادِ»، وَلَمْ يَشْتَرِطْ فِي قَصْرِ المَوْصُوفِ إِفْرَادًا عَدَمَ تَنَافِي الصِّفَتَيْنِ، وَلَا فِي قَصْرِهِ «قَلْبًا» تَحَقُّقَ تَنَافِيهِمَا[2].

---

(١) لاَ يَكُونُ الْقَصْرُ إِفْرَادً إِلاَّ إِذَا كَانَ الْمَقْصُورُ عَلَيْهِ الْمُثْبَتُ صِفَةً لاَ يَتَنَافَىٰ اجْتِمَاعُهَا مَعَ الصِّفَةِ الْمَنْفِيَّةِ، مِنْ نَحْوِ الشِّعْرِ وَالْخَطَابَةِ وَالْكِتَابَةِ وَالرَّسْمِ لِيَصِحَ اعْتِقَادُ أَنَّ الْمخاطَبَ يَعْتَقِدُ اجْتِمَاعَ هَذِهِ الصِّفَاتِ فِي الْمَوصُوفِ، فَتُفْرِدَ مِنْهَا صِفَةً، فَلَوْ كَانَ الصِّفَتَانِ لَا تَجْتَمِعَانِ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَظُنَّ أَنَّ الْمُخَاطَبَ يَعْتَقِدُ اجْتِمَاعَهُمَا، لِتُفْرِدَ لَهُ وَاحِدَةً دُونَ الْأُخْرَىٰ، لَا يُمْكِنُ أَنَّ يَظُنَّ الْمُتَكَلِّمُ أَنَّ الْمُخَاطَبَ يَعْتَقِدُ أَنَّ مَحَمَّدًا جَالِسٌ وَنَائِمٌ، فَتُفْرِدَ بِالْقَصْرِ وَاحِدَةً لَهُ. هَذَا لَا يُقَالُ بَتَّةً، وَلَا يَكُونُ قَصْرُ قَلْبٍ إِلَّا إِذَا كَانَتْ الْمَقْصُورُ عَلَيْهِ صِفَةً يَصِحُ تَنَافِيهَا مَعَ الصِّفَةِ الْمَنْفِيَّةِ مِنْ نَحْوِ: «الطُّولِ» و«الْقِصَرِ»، أَوْ «الْإِبْصَارِ» و«الْعَمَىٰ» حَتَّىٰ إِذَا أَثْبَتَ الْمُتَكَلِّمُ إِحْدَاهُمَا انْتَفَتْ الْأُخْرَىٰ ضِمْنًا، فَإِذَا قُلْتَ: «إِنَّمَا مُحَمَّدٌ طَوِيلٌ»، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمُخَاطَبُ مُعْتَقِدًا الشَّرِكَةَ؛ أَيْ أَنَّهُ طَوِيلٌ وَقَصِيرٌ، فَيَأْتِي الْقَصْرُ بِالْإِفْرَادِ، لَا يَكُونُ ذَلِكَ، وَلَكِنْ يَكُونُ الْمُخَاطَبُ مُعْتَقِدًا أَحَدَهُمَا دُونَ الْأُخْرَىٰ، فَيَأْتِي الْقَصْرُ قَالِبًا عَلَيْهِ اعْتِقَادَهُ.

وَقَصْرُ «التَّعْيينِ» أَعْمُّ مِنَ الاثْنِينِ، فَكُلُّ مَا يَصلُحُ أَنْ يَكُونَ «إِفْرَادًا»، أَوْ «قَلْبًا» يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ تَعْيِينًا. وَلَيْسَ كُلُّ قَصْرِ «تَعْيينٍ» يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ «إِفْرَادًا»، أَوْ «قَلْبًا»؛ لِأَنَّ «التَّعْيينَ» لَا يَكُونُ مَعَهُ قَطْعُ شَرِكَةٍ، أَوْ عَكْسٌ حَتَّىٰ يَكُونَ «إِفْرَادًا» مَعَ الْاشْتِرَاكِ أَوْ «قَلْبًا» مَعَ الْعَكْسِ.

(٢) يَنْتَقِدُ الْخَطِيبُ الْقَزْوِينِيّ أَبَا يَعْقُوبَ السَّكَّاكِيِّ (ت: ٦٢٦هـ) فِي ثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

الأَوَّلِ: أَنَّ السَّكَّاكِيَّ أَهْمَلَ الحَدِيثَ عَنِ الْقَصْرِ الْحَقِيقِيِّ، وَقَصَرَ كَلَامَهُ فِي الْقَصْرِ «غَيْرِ الْحَقِيقِيِّ»؛ أَيْ الَّذِي يَكُونُ الْمَنْفِيُّ عَنْهُ الْحُكْمَ غَيْرَ عَامٍّ، بَلْ هُوَ مُتَعَيِّنٌ قَوْلًا أَوْ مَقَامًا.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ لَمْ يُفْرِدْ قَصْرَ «التَّعْيينِ» بِالْقَوْلِ، بَلْ جَعَلَهُ ضِمْنَ «قَصْرِ الْإِفْرَادِ».

وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ لَمْ يَشْتَرِطْ شَرْطًا فِي قَصْرِ «الْإِفْرَادِ»، وَلَمْ يَشْتَرِطْ شَرْطًا فِي قَصْرِ «الْقَلْبِ».

[طُرُقُ القَصْرِ الاصْطِلَاحِيِّ]

وَلِلْقَصْرِ طُرُقٌ[1] مِنْهَا[2]:

= الْعَطْفُ[3]

وَعَدَمُ نَصِّهِ عَلَىٰ الشَّرْطِ مِنْ أَنَّهُ مِمَّا لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ النَّصِّ عَلَيْهِ: «الإِفْرَادُ» لَا يَكُونُ إِلَّا بَيْنَ شَيْئَيْنِ يَصِحُّ اجْتِمَاعُهُمَا فِي اعْتِقَادٍ. وَهَذَا أَمْرٌ مُقَرَّرٌ عَقْلًا، وَمَا كَانَ مُقَرَّرًا عَقْلاً لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ التَّصْرِيحِ بِهِ.

وَ «الْقَلْبُ» لَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَا مُتَنَافِيَيْنِ، بَلِ الَّذِي يَلْزَمُ أَنْ يَعْتَقِدَ الْمُخَاطَبُ خِلَافَ الْوَاقِعِ، سَوَاءٌ كَانَ هَذَا الَّذِي اعْتَقَدَهُ مُنَاقِضًا أَوْ مُخَالِفًا دُونَ مُنَاقَضَةٍ، فَإِذَا اعْتَقَدَ أَنَّ (شَوقِي) رَسَّامٌ، وَهُوَ مُخَالِفٌ لِلْوَاقِعِ، فَيَقْصُرُهُ الْمُتَكَلِّمُ عَلَىٰ الشِّعْرِ، وَيَنْفِي ضِمْنًا عَنْهُ الرَّسْمَ، وَلَيْسَ الشِّعْرُ بِمُنَاقِضِ الرَّسْمَ، بَلْ هُوَ مُغَايِرٌ لَا مُنَاقِضٌ، فَاشْتِرَاطُ التَّنَافِي فِي «الْقَلْبِ» إِنْ كَانَ شَرْطُ حُسْنٍ لَا صِحَّةٍ، فَلَا تَثْرِيبَ، وَلَا يَلِيقُ حِينَئِذٍ مِنَ الْخَطِيبِ الِاعْتِرَاضَ الْخَفِيَّ عَلَىٰ السَّكَّاكِيِّ.

(١) الطُّرُقُ: جَمْعُ «طَرِيقٍ» وَهُوَ مَا طَرَّقَتْهُ الأَرْجُلُ وَغَيْرُهَا مِنْ كَثْرَةِ السَّيْرِ عَلَيْهِ، فَهُوَ يَتَّسِمُ بِالْوُضُوحِ، وَهُوَ قَدْ يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ، تَقُولُ: هَذَا طَرِيقِي إِلَىٰ الْمَسْجِدِ، وَهَذِهِ طَرِيقِي إِلَىٰ الْمَسْجِدِ، وَالْمُرَادُ هُنَا بِالطَّرِيقِ: «مَا يَدُلُّ عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ الْمُرَادِ: الْقَصْرِ وَالْحَصْرِ»، وَهَذَا قَدْ يَكُونُ بِأَدَاةٍ لُغَوِيَّةٍ، وَقَدْ يَكُونُ بِأُسْلُوبِ: النَّظْمِ وَنَسَقِ الْكَلَامِ. وَطُرُقُ الْقَصْرِ كَمِثْلِ أَدَوَاتِ التَّشْبِيهِ، هِيَ دَالَّةٌ عَلَىٰ إِرَادَةِ التَّشْبِيهِ، إِلَّا أَنَّ أَدَاةَ التَّشْبِيهِ قَدْ تُحْذَفُ، وَتَبْقَىٰ إِرَادَةُ التَّشْبِيهِ وَاضِحَةً: «مُحَمَّدٌ أَسَدٌ»، بَيْنَا أَدَوَاتُ الْقَصْرِ لَا تُحْذَفُ، وَيَبْقَىٰ عَمَلُهَا.

وَطُرُقُ الْقَصْرِ الْاصْطِلَاحِيِّ عِنْدَ الْبَلَاغِيِّينَ فِي هَذَا الْبَابِ خَاصَّةً أَرْبَعَةٌ: «الْعَطْفُ بـ «لَا»، و«بَلْ»، و«لَكِنْ» ـ وَالْاسْتِثْنَاءُ الْمُتَّصِلُ الْمَنْفِيُّ النَّاقِصُ «الْاسْتِثْنَاءُ الْمُفَرَّغُ»، و«إِنَّمَا»، و«التَّقْدِيمُ».

(٢) قَوْلُهُ: (مِنْهَا) يُفِيدُ أَنَّهَا لَيْسَتْ مَحْصُورَةً فِيمَا سَيَذْكُرُهُ هُنَا، فَهُنَالِكَ طُرُقٌ أُخْرَىٰ مِنْهَا مَا سَبَقَ بَيَانُهُ فِي مَبْحَثِ أَحْوَالِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ، وَأَحْوَالِ الْمُسْنَدِ، وَأَحْوَالِ مُتَعَلِّقَاتِ الْفِعْلِ، وَمِنْهَا مَا لَمْ يَذْكُرْهُ، وَهُوَ غَيْرُ قَلِيلٍ فِي أَسْفَارِ عُلَمَاءِ الْأُصُولِ، فِي مَبْحَثِ مَا يُعْرَفُ بـ «مَفْهُومِ الْمُخَالَفَةِ.» وَيُسَمَّىٰ عِنْدَهُمْ أَيْضًا «دَلِيلُ الْخِطَابِ»، فَالْمَذْكُورُ هُنَا بَعْضُ طُرُقِ الْقَصْرِ. وهَذَا يَسْتَوْجِبُ عَلَيْكَ طَالِبَ عِلْمٍ أَنْ تَرْجِعَ إِلَىٰ مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ فِي مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ، فَتُجَدِّدَ الْعِلْمَ بِهِ، فَإِنَّهُ لَكَ نَفِيعٌ.

(٣) لَا يُرَادُ الْعَطْفُ بِكُلِّ أَدَوَاتِهِ، وَإِنَّمَا مَا كَانَ أَحَدُ طَرَفَيِّ الْعَطْفِ بِهِ إِثْبَاتًا وَالْآخَرُ نَفْيًا، لِيَتَحَقَّقَ الْقَصْرُ، وَهَذَا يَكُونُ فِي ثَلَاثِ أَدَوَاتٍ هِيَ: «لَا»، و«بَلْ»، و«لَكِنْ» وَلِكُلِّ أَدَاةٍ مِنْهَا شُرُوطٌ لِيَفِيدَ الْعَطْفُ بِهَا الْقَصْرَ:

أَوَّلًا: الْعَطْفُ بـ «لَا» يُشْتَرَطُ فِيهِ شَرْطَانِ:

الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ مَا قَبْلَهَا مُثْبَتًا.

الْآخَرُ: أَنْ يَأْتِي بَعْدَهَا مُفْرَدٌ، نَحْوَ: «جَاءَ مُحَمَّدٌ لَا خَالِدٌ» قَصَرَ الْمَجِيءَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ، وَنَفَاهُ عَنْ مَا بَعْدَ (لَا)، وَهُوَ خَالِدٌ، قَصْرَ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوصُوفٍ قَصْرًا إِضَافِيًّا لِلْإِفْرَادِ أَوْ الْقَلْبِ بِحَسَبِ حَالِ الْمُخَاطَبِ.

وَكَذَلِكَ: «مُحَمَّدٌ عَالِمٌ لَا شَاعِرٌ» قَصَرَ مُحَمَّدًا عَلَىٰ صِفَةِ الْعِلْمِ، وَنَفَىٰ عَنْهُ مَا بَعْدَ «لَا» قَصْرًا إِضَافِيًّا غَيْرَ حَقِيقِيٍّ، قَصْرَ إِفْرَادٍ أَوْ قَلْبٍ أَوْ تَعْيِينٍ بِحَسَبِ حَالِ الْمُخَاطَبِ، وَالْمَقْصُورُ عَلَيْهِ الْمُقَابِلُ لِمَا بَعْدَ(لَا).

وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ فِي بَائِيَّتِهِ: (السَّيْفُ أَصْدَقُ)

بِيضُ الصَّفَائِحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ فِي ... مُتُونِهِنَّ جَلَاءُ الشَّكِّ وَالرِّيَبِ
وَالْعِلْمُ فِي شُهُبِ الْأَرْمَاحِ لَامِعَةً ... بَيْنَ الْخَمِيسَيْنِ لَا فِي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ
هَيْهَاتَ زُعْزِعَتِ الْأَرْضُ الْوَقُورُ بِهِ ... عَنْ غَزوِ مُحْتَسِبٍ لَا غَزْوِ مُكْتَسِبِ
إِنَّ الْأُسُودَ أُسُودَ الْغِيلِ هِمَّتُهَا ... يَوْمَ الْكَرِيهَةِ فِي الْمَسْلُوبِ لَا السَّلَبِ

وَقَوْلُ ابْنِ الرُّومِي:

فَتًـىٰ إِذَا مَـا مَدَحْنَـاهُ أُتِيـحَ لَـهُ ... مِنْ أَرْضِهِ الْمَدْحُ فَاسْتَغْنَىٰ عَنِ الْجَلبِ
مَعْرُوفُـهُ فِي جَمِيــعِ النَّاسِ مُقْتَسَــمٌ ... فَحَمْدُهُ فِي جَمِيعِ النَّاسِ لَا الْعُصَبِ
خِــرْقٌ حَــوَتْ يَــدُهُ مُلْـكًا فَجَـادَ بِهِ ... فَأَصْبَــحَ الْمِلْكُ مُلْكًا غَيْــرَ مُغْتَصَبِ
أَغَــرُّ أَبْلَــجُ يَكْسُــو نَفْسَــهُ حُلَــلًا ... مِنَ الْمَحَامِــدِ لَا تَبْلَىٰ عَلَــىٰ الْحِقَبِ
أَمْوَالُــهُ فِــي رِقَــابِ النَّاسِ مِــنْ مِنَنٍ ... لَا فِــي الْخَزَائِنِ مِنْ عِيْنٍ وَمِنْ نَشَــبِ
فَلَيْــسَ يَــــمْلِكُ إِلَّا غَيْــرَ مُنْتــزَعٍ ... وَلَيْــسَ يَلْبَــسُ إِلَّا غَيْــرِ مُسْــتَلَبِ

وَقَوْلُ الْآخَرِ:

إِلَىٰ اللهِ أَشْكُو، لَا إِلَىٰ النَّاسِ أَنَّنِي ... أَرَىٰ الْأَرْضَ تَبْقَىٰ وَالْأَخلَاءُ تَذْهَبُ

وَقَوْلُ الْآخَرِ:

بِرَأْيِكَ، لَا رَأْيِي تَعَرَّضْتُ لِلْهَوَىٰ ... وَفِعْلِكَ، لَا فِعْلِي، وَقَلْبِكَ، لَا قَلْبِي

وَقَوْلُ الْآخَرِ:

عُمْرُ الْفَتَىٰ ذِكْرُهُ، لَا طُولُ مُدَّتِهِ ... وَمَوْتُهُ خِزْيُهُ، لَا يَوْمُهُ الدَّانِي

كَقَوْلِكَ فِي قَصْرِ المَوْصُوفِ علَىٰ الصِّفَةِ إِفْرَادًا: «زَيْدٌ شَاعِرٌ لَا كَاتِبٌ»، أَوْ

ثَانِيًا: الْعَطْفُ بـ«بَلْ» يُشْتَرَطُ فِيهِ شَرْطَانِ: الْأَوَّلُ: أَنْ تُسْبَقَ بِنَفْيٍ، وَالْآخَرُ: أَنْ يَكُونَ مَا بَعْدَهَا مُفْرَدًا، نَحْوَ: «مَا جَاءَ مُحَمَّدٌ بَلْ خَالِدٌ» قَصَرَ الْمَجِيءَ عَلَىٰ مَا بَعْدَ «بَلْ» وَهُوَ خَالِدٌ، وَنَفَاهُ عَمَّا قَبْلَهَا «مُحَمَّدٌ».

وَمِنْهُ: «مَا مُحَمَّدٌ شَاعِرٌ بَلْ عَالِمٌ» قَصَرَ مُحَمَّدًا عَلَىٰ الْعِلْمِ، وَنَفَي عَنْهُ الشِّعْرَ، قَصْرَ مَوصُوفٍ عَلَىٰ صِفَةٍ قَصْرًا إِضَافِيًّا لِلْإِفْرَادِ أَوْ الْقَلْبِ أَوْ التَّعْيِينِ بِحَسَبِ حَالِ الْمُخَاطَبِ، وَالمَقصُورُ عَلَيْهِ هُوَ مَا بَعْدَ (بَلْ): قَصَرَ المَجِيءَ عَلَىٰ خَالِدٍ، وَنَفَاهُ عَنْ مُحَمَّدٍ.

وَلَمْ يَتَيَسَّرْ لِي وُقُوعُ مُفْرَدٍ بَعْدَ (بَلْ) فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، فَلَيْسَ مِنْ قَبِيلِ الْقَصْرِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] ذَلِكَ أَنَّ مَا جَاءَ بَعْدَ (بَلْ) جُمْلَةٌ، فَقَوْلُهُ: «أَحيَاءٌ» بِالرَّفْعِ» خَبَرٌ؛ أَيْ هُمْ أَحْيَاءٌ، و«بَلْ» الْعَاطِفَةُ لَا يَأْتِي بَعْدَهَا جُمْلَةٌ، بَلِ الْجُمْلَةُ تَأْتِي بَعْدَ (بَلْ) الْإِضْرَابِيَّةِ. الْمُبْطِلَةِ مَا قَبْلَهَا، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ – ٢٧].

كَذَلِكَ لَيْسَتْ (بَلْ) عَاطِفَةً مُفِيدَةً لِلْقَصْرِ؛ لِأَنَّ مَا قَبْلَهَا (مُوجَبٌ غَيْرُ مَنْفِيٍّ) وَالشَّرْطُ أَنْ يَكُونَ مَا قَبْلَهَا مَنْفِيًّا، فَهِيَ هُنَا لِلْإِضْرَابِ الْإِبْطَالِيِّ.

وَقَوْلُ الشَّرِيفِ الْمُرْتَضَىٰ:

لِقَاؤُكِ يَا سَلْمَىٰ وَإِنْ كَانَ دَائِمًا	يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ يَكُونَ لِمَامَا
وَقَدْ كَانَ صُبْحًا يَمْلأُ الْعَيْنَ قُرَّةً	فَعَادَ بِقَوْلِ الْكَاشِحِينَ ظَلَامَا
كِلا الهَجْرِ مِنْكِ الطَّرْفَ أَنْ لَا تُعَرِّجِي	عَلَىٰ الْحَيِّ أَيْقَاظًا وَزُرْتِ نِيَامَا
وَلَمْ يَشْفِ ذَاكَ الْقُرْبُ وَهُوَ مُرَجَّمٌ	مِنَ الْقَوْمِ سُقْمًا بَلْ أَثَارَ سِقَامَا
وَمَا كَانَ إِلَّا بَاطِلًا غَيْرَ أَنَّنَا	كُفِينَا بِهِ مِمَّنْ يَلُومُ مَلَامَا

قَوْلُهُ: (بَلْ أَثَارَ سِقَامَا) جَاءَ بَعْدَ (بَلْ) جُمْلَةٌ، فَكَانَتْ لِلْإِضْرَابِ لَا عَاطِفَةً. فَلَا تُفِيدُ الْقَصْرَ.

الثَّالِثُ: الْعَطْفُ بـ «لَكِنْ» وَهُمْ يَشْتَرِطُونَ فِيهَا لِإِفَادَتِهَا الْقَصْرَ أَرْبَعَةَ شُرُوطٍ: أَنْ تُسْبَقَ بِنَفْيٍ - أَلَّا تَكُونَ مَسْبُوقَةٌ بِحَرْفِ عَطْفٍ كَالوَاوِ - أَنْ تَكُونَ مُخَفَّفَةٌ (لَكِنْ) - أَنْ يَكُونَ مَا بَعْدَهَا مُفْرَدًا لَا جُمْلَةً.

مِثَالُ هَذَا قَوْلُكَ: (مَا جَاءَ مُحَمَّدٌ لَكِنْ خَالِدٌ) الْمَقْصُورُ عَلَيْهِ هُوَ مَا بَعْدَ (لَكِنْ) (خَالِدٌ) فَهُوَ قَصْرُ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوصُوفٍ قَصْرًا إِضَافِيًّا إِفْرَادًا أَوْ قَلْبًا أَوْ تَعْيِينًا كُلٌّ بِحَسَبِ حَالِ الْمُخَاطَبِ بِهِ، أَمَّا قَوْلُكَ: «مَا أَنْتَ تَاجِرٌ لَكِنْ أَنْتَ طَالِبُ عِلْمٍ» مَا بَعْدَهُ جُمْلَةٌ، أَوْ «مَا أَنْتَ تَاجِرٌ، لَكِنَّكَ طَالِبُ عِلْمٍ» (بِتَثْقِيلِ النُّونِ)، أَوْ (مَا أَنْتَ تَاجِرٌ وَلَكِنْ عَالِمٌ)؛ أَيْ يَسْبِقُهَا عَاطِفٌ، فَلَيْسَ مِنْ أُسْلُوبِ الْقَصْرِ=

«مَا زَيْدٌ كَاتِبًا بَلْ شَاعِرٌ».

وَقَلْبًا: «زَيْدٌ قَائِمٌ لَا قَاعِدٌ»، أَوْ «مَا زَيْدٌ قَاعِدًا بَلْ قَائِمٌ»، وَفِي قَصْرِ «الصِّفَةِ عَلَىٰ المَوْصُوفِ» إِفْرَادًا، أَوْ قَلْبًا بِحَسَبِ الْمَقَامِ: «زَيْدٌ قَائِمٌ لَا عَمْرٌو»، أَوْ «مَا عَمْرٌو قَائِمًا بَلْ زَيْدٌ».

وَمِنْهَا: النَّفْيُ وَالاسْتِثْنَاءُ(١)

= لِاخْتِلَالِ مَا اشْتُرِطَ لِإِفَادَةِ الْقَصْرِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥] جَاءَ بَعْدَ (لَكِنْ) جُمْلَةٌ، وَكَذَلِكَ سُبِقَتْ بِالْوَاوِ، فَمَا هِيَ بِعَاطِفَةٍ بَلِ اسْتِدْرَاكِيَّةٍ، وَلَوْ قِيلَ فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ لَكَانَ مِمَّا اخْتَلَفَ فِيهِ شَرْطٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ أَلَّا يَسْبِقَهَا حَرْفُ عَطْفٍ، وَمِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ لَمْ يَشْتَرِطْ هَذَا الشَّرْطَ، فَأَكْثَرَ مَا تَأْتِي الْمُخَفَّفَةُ مَسْبُوقَةً بِعَاطِفٍ، وَمِمَّا تَحَقَّقَ فِيهِ الشُّرُوطُ كُلُّهَا خَلَا سَبْقَهَا بِعَاطِفٍ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧] ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١] ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠] ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦].

وَطَرِيقُ الْقَصْرِ بِالْعَطْفِ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْقَصْرِ الْإِضَافِيِّ «غَيْرِ الْحَقِيقِيِّ».

(١) لِلاسْتِثْنَاءِ صُوَرٌ كَثِيرَةٌ، وَلَيْسَ مِنْهَا مُفِيدًا لِلْقَصْرِ الْاصْطِلَاحِيِّ عِنْدَ الْبَلَاغِيِّينَ إِلاَّ مَا يُسَمَّىٰ «الاسْتِثْنَاءُ الْمُفَرَّغُ»؛ أَيْ «الاسْتِثْنَاءُ الْمُتَّصِلُ الْمَنْفِيُّ النَّاقِصُ» كَمَا فِي قَوْلِنَا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وَلَا يُشْتَرَطُ فِي النَّفْيِ أَدَاةٌ خَاصَّةٌ، فَكُلُّ أَدَوَاتِ النَّفْيِ سَوَاءٌ، وَالنَّهْيُ كَالنَّفْيِ. كَمَا تَقُولُ: لَا تَقُلْ إِلَّا الْحَقَّ، أَمَّا مَا يَدُلُّ عَلَىٰ النَّفْيِ بِغَيْرِ أَدَاةٍ مِنْ نَحْوِ: «امْتَنَعَ، وَأَبَىٰ، وَرَفَضَ...»، فَلَا يُعَدُّ مِنْ طُرُقِ الْقَصْرِ، وَطَرِيقُ الاسْتِثْنَاءِ الْمُفَرَّغِ هُوَ أَقْوَىٰ وَأَظْهَرُ طُرُقِ الْقَصْرِ، وَلَا يَجْتَمِعُ مَعَهَا الْعَطْفُ بِـ (لَا) فَلَا تَقُولُ: (مَا أَنَا إِلَّا طَالِبُ عِلْمٍ لَا تَاجِرٌ)؛ لِأَنَّ النَّفْيَ فِيهِ قَوِيٌّ لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ تَوكِيدٍ بِـ (لَا).

وَ «الاسْتِثْنَاءُ الْمُفَرَّغُ» غَيْرُ قَلِيلٍ فِي بَيَانِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالسُّنَّةِ وَالشِّعْرِ، وَجُمْهُورُ الْبَلَاغِيِّينَ عَلَىٰ أَنَّ الاسْتِثْنَاءَ الْمَنْفِيَّ التَّامَّ لَيْسَ مِنَ الْقَصْرِ الاصْطِلَاحِيِّ عِنْدَ الْبَلَاغِيِّينَ: (مَا تَخَلَّفَ الطُّلَّابُ إِلَّا عَلِيٌّ).

كَقَوْلِكَ فِي قَصْرِ المَوْصُوفِ عَلَىٰ الصِّفَةِ إِفْرَادًا: «مَا زَيْدٌ إِلَّا شَاعِرٌ»، وَقَلْبًا: «مَا زَيْدٌ إِلَّا قَائِمٌ»، وَتَعْيِينًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ [يس: ١٥]؛ أَيْ لَسْتُمْ فِي دَعْوَاكُمْ لِلرِّسَالَةِ عِنْدَنَا بَيْنَ الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ، كَمَا يَكُونُ ظَاهِرُ حَالِ الْمُدَّعِي إِذَا ادَّعَىٰ، بَلْ أَنْتُمْ عِنْدَنا كَاذِبُونَ فِيهَا[1].

وَفِي قَصْرِ الصِّفَةِ عَلَىٰ المَوْصُوفِ بالاعْتِبَارَيْنِ: «مَا قَائِمٌ أَوْ مَا مِنْ قَائِمٍ أَوْ لَا قَائِمٌ إِلَّا زَيْدٌ».

وَتَحْقِيقُ وَجْهِ القَصْرِ فِي الْأَوَّلِ أَنَّهُ مَتَىٰ قِيلَ: «مَا زَيْدٌ» تَوَجَّهَ النَّفْيُ إِلَىٰ صِفَتِهِ لَا ذَاتِهِ؛ لِأَنَّ أَنْفُسَ الذَّوَاتِ يَمْتَنِعُ نَفْيُهَا، وَإِنَّمَا تَنْفِي صِفَاتِهَا، كَمَا بُيِّنَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ هَذَا الْعِلْمِ، وَحَيْثُ لَا نِزَاعَ فِي طُولِهِ وَقِصَرِهِ وَمَا شَاكَلَ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا النِّزَاعُ فِي كَوْنِهِ شَاعِرًا أَوْ كَاتِبًا تَنَاوَلَهُمَا النَّفْيُ، فَإِذَا قِيلَ: «إِلَّا شَاعِرٌ» جَاءَ القَصْرُ[2].

---

(١) قَوْلُهُ تَعَالَىٰ حِكَايَةً عَنْ أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ لِرُسُلِهِمْ: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ قَصْرٌ لِلرُّسُلِ عَلَىٰ صِفَةِ الْكَذِبِ، وَنَفْيُ أَنْ يَكُونُوا صَادِقِينَ، فَهُوَ» قَصْرُ مَوصُوفٍ عَلَىٰ صِفَةٍ قَصْرَ قَلْبٍ»؛ إِبْلَاغًا مِنْهُمْ فِي دَفْعِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ؛ وَلِذَا جَاءُوا بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ، لَمْ يَقُولُوا: إِنْ أَنْتُمْ كَاذِبُونَ، بَلْ يَتَهِمُونَهُمْ بِأَنَّهُمْ يُمَارِسُونَ الْكَذِبَ مُجَدَّدًا، وَكَأَنَّهُ مِنْ دَيْدَنِهِمْ. وَهَذَا شَأْنُ الْمُعَانِدِينَ: إِنَّهُمْ يُجَرْدُونَ خُصُومَهُمْ مِنْ فَضِيلَةِ «الصِّدْقِ» تَنْفِيرًا لِلدَّهْمَاءِ عَنْهُمْ.

(٢) يَهْدِيكَ إِلَىٰ وَجْهِ إِفَادَةِ الْاسْتِثْنَاءِ الْمُفَرَّغِ الْقَصْرَ. وَهَذَا مَا يُعْرَفُ بِجِهَةِ الدَّلَالَةِ، وَفِي هَذَا تَعْلِيمٌ لَكَ أَنَّهُ لَا يَكْفِيكَ بَلَاغِيًّا أَنْ تَعْرِفَ دَلَالَةَ الْكَلَامِ عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ، كَمَا يَكْتَفِي بِذَلِكَ كَثِيرٌ غَيْرُكَ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ عَلَىٰ عِلْمٍ بِأُمُورٍ أُخَر تُمَيِّزُكَ بَلَاغِيًّا عَنْ غَيْرِكَ، لَا بُدَّ أَنْ تَعْرِفَ جِهَةَ الدَّلَالَةِ؛ أَيْ مِنْ أَيْنَ دَلَّ هَذَا التَّرْكِيبُ عَلَىٰ هَذَا الْمَعْنَىٰ؟ وَأَنْ تَعْرِفَ مُسْتَوَىٰ الدَّلَالَةِ مِنْ حَيْثُ الْقُوَّةُ وَالضَّعْفُ، وَمُسْتَوَاهَا مِنْ حَيْثُ الْقُرْبُ وَالْبُعْدُ، وَالتَّصْرِيحُ وَالتَّلْوِيحُ وَنَحْوَ ذَلِكَ.

هَذِهِ أُمُورٌ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ عِنَايَتُكَ بِهَا عَدِيلَ عِنَايَتِكَ بِمَعْرِفَةِ دَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ، بَيْنَا الْمُفَسِّرُ وَالشَّارِحُ قَدْ يَكْتَفِي بِمَعْرِفَةِ دَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ، وَلَا يُشْغَلُ بِوَجْهِ الدَّلَالَةِ وَمُسْتَوَاهَا، فَإِنْ شُغِلَ كَانَ مُفَسِّرًا وَبَلَاغِيًّا مَعًا.

وَجْهُ دَلَالَةِ الْاسْتِثْنَاءِ الْمُفَرَّغِ عَلَىٰ قَصْرِ الْمَوصُوفِ عَلَىٰ الصِّفَةِ «مَا زَيْدٌ إِلَّا شَاعِرُ» أَنَّكَ لَمَّا سَلَّطْتَ

وَفِي الثَّانِي أَنَّهُ مَتَىٰ قِيلَ: «مَا شَاعِرٌ» فَأُدْخَلَ النَّفْيُ عَلَىٰ الوَصْفِ المُسَلَّمِ ثُبُوتُهُ أَعْنِي «الشِّعْرَ» لِغَيْرِ مَنِ الْكَلَامُ فِيهِمَا، كَزَيْدٍ وَعَمْرٍو مَثَلًا تَوَجَّهَ النَّفْيُ إِلَيْهِمَا، فَإِذَا قِيلَ: «إِلَّا زَيْدٌ» جَاءَ القَصْرُ[1].

وَمِنْهَا: إِنَّمَا[2]

النَّفْيَ «مَا» عَلَىٰ «زَيْدٍ» وَأَنْتَ الْعَلِيمُ أَنَّ الذَّوَاتِ لَا تُنْفَىٰ، وَإِنَّمَا تُنْفَىٰ أَوْصَافُهَا وَأَفْعَالُهَا وَأَحْوَالُهَا، فَإِذَا سَمِعْتَ «مَا زَيْدٌ» عَلِمْتَ أَنَّ مَنَاطَ النَّفْيِ لَمَّا يَأْتِ بَعْدُ، فَإِذَا قَالَ: «إِلَّا شَاعِرٌ» عَلِمْتَ أَنَّ مُقَابِلَ مَا بَعْدَ «إِلَّا» غَيْرُ الْمُصَرَّحِ بِهِ هُوَ الْمَنْفِيُّ، وَأَنَّ الْمُصَرَّحَ بِهِ بَعْدَ «إِلَّا» هُوَ الْمُثْبَتُ لِزَيْدٍ، وَالْمَقْصُورُ عَلَيْهِ زَيْدٌ قَصْرُ مَوصُوفٍ عَلَىٰ صِفَةٍ.

(١) يَهْدِيكَ إِلَىٰ أَنَّكَ إِذَا مَا سَمِعْتَ «مَا شَاعِرٌ» تَطَلَّعْتَ إِلَىٰ أَنْ تَعْرِفَ مَنِ المَنْفِيِّ عَنْهُ الصِّفَةَ، وَمَنِ المُثْبَتَةِ لَهُ؛ لِأَنَّهُ لَا صِفَةَ إِلَّا وَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحَلٍّ لَهَا، وَهُوَ المَوصُوفُ، فَإِذَا قَالَ: «إِلَّا زَيْدٌ» عَلِمْتَ أَنَّ مَحَلَّهَا «زَيْدٌ»، وَلَيْسَ غَيْرُهُ بِخِلَافِ مَا لَوْ قَالَ: «مَا شَاعِرٌ زَيْدٌ» لَعَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يَهُمُّهُ إِلَّا أَنْ يَنْفِيَ الشَّاعِرِيَّةَ عَنْ «زَيْدٍ» دُونَ أَنْ يُخْبِرَ بِمَحَلِّهَا وَالْمَوصُوفُ بِهَا، فَفِي «مَا زَيْدٌ شَاعِرٌ» الْقَصْدُ إِلَىٰ الْإِخْبَارِ بِخَبَرٍ وَاحِدٍ مُصَرَّحٍ بِهِ، وَهُوَ نَفْيُ الشَّاعِرِيَّةِ عَنْ «زَيْدٍ». وَإِذَا قَالَ: «مَا شَاعِرٌ إِلَّا زَيْدٌ» عَلِمْتَ أَنَّهُ يُخْبِرُكَ بِخَبَرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مُصَرَّحٌ بِهِ، إِثْبَاتُ الشَّاعِرِيَّةِ لِزَيْدٍ.

وَالْآخَرُ: مُلَوَّحٌ بِهِ، نَفْيُهَا عَنْ غَيْرِهِ الْمُصَرَّحُ بِهِ إِثْبَاتُ الشَّاعِرِيَّةِ لِزَيْدٍ.

وَالْمُلَوَّحُ بِهِ نَفْيُهَا عَنْ غَيْرِهِ جَمَعَ لَكَ بِهَذَا أَمْرَيْنِ فِي جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ، وبِذَلِكَ تَفْهَمُ أَثَرَ «إِلَّا» وَنَحْوَهَا فِي مَعْنَىٰ الْعِبَارَةِ، وَأَنَّهُ بِهَا صَارَتْ الْجُمْلَةُ: «مَا شَاعِرٌ إِلَّا زَيْدٌ» مِنْ قَبِيلِ إِيجَازِ الْقَصْرِ، وَأَطْعَمَكَ مَعْنَيينِ بِمَذَاقَيْنِ وَنَكْهَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ إِحْسَانًا فِي ضِيَافَةِ فُؤَادِكَ. فَأَنْتَ أَهْلٌ لِأَنْ تُكْرَمَ. وَالْقَصْرُ بِطَرِيقِ «النَّفْيِ وَالِاسْتِثْنَاءِ» كَثِيرٌ.

(٢) الطَّرِيقُ الثَّالِثُ: اسْتِعْمَالُ إِنَّمَا: و«إِنَّمَا» أَدَاةٌ مُرَكَّبَةٌ مِنْ (إِنَّ) النَّاسِخَةُ الْمُؤَكِّدَةُ نِسْبَةَ ثُبُوتِ «الْمُسْنَدِ» إِلَىٰ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ، و«مَا» الْكَافَّةِ لِهَا عَنْ الْعَمَلِ فِي مَدْخُولِهَا إِعْرَابًا، وَكَأَنَّهَا لَمَّا كُفَّتْ بِـ «مَا» عَنِ الْعَمَلِ الْإِعْرَابِيِّ: «نُصِبَ اسْمُهَا» زَادَتْ فِي قُوَّةِ عَمَلِهَا فِي الْمَعْنَىٰ: «تَوكِيدِ ثُبُوتِ نِسْبَةِ الْمُسْنَدِ إِلَىٰ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ»، فَارْتَقَتْ بِذَلِكَ مِنْ طَورِ «التَّأْكِيدِ» إِلَىٰ طَورِ «التَّخْصِيصِ»، فَأَضْحَتْ «إِنَّمَا» أَدَاةَ قَصْرٍ، وَمِنَ الْفَرِيضَةِ أَنْ تَتَبَصَّرَ حَالَ(مَا) الْمُلْحَقَةِ بِـ (إِنْ)، فَالشَّرْطُ أَنْ تَكُونَ كَافَّةً، وَلَيْسَتْ «مَوصُولَةً»، فَإِنْ كَانَتْ (مَا) مَوصُولَةً بِمَعْنَىٰ «الَّذِي» لَا يَكُونُ طَرِيقُ الْقَصْرِ هُنَا (إِنَّمَا)، وَقَدْ تَتَعَيَّنُ (مَا) مَعَهَا أَنْ تَكُونَ «كَافَّةً»، وَقَدْ تَتَعَيَّنُ أَنْ تَكُونَ «مَوصُولَةً»، وَقَدْ تَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ

كَقَوْلِكَ فِي «قَصْرِ المَوصُوفِ عَلَىٰ الصِّفَةِ» إِفْرَادًا: «إِنَّمَا زَيْدٌ كَاتِبٌ»، مَعًا، فَكُنْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ.

فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١] تَجِدُ (مَا) مُتَعَيِّنَةً لِتَكُونَ كَافَّةً، فَـ (إِنَّمَا) هُنَا أَدَاةُ قَصْرٍ، وَالْمَعْنَىٰ: «مَا نَحْنُ إِلَّا مُصْلِحُونَ»، وَهُوَ قَصْرُ مَوصُوفٍ عَلَىٰ صِفَةٍ قَصْرًا إِضَافِيًّا لِلْقَلْبِ، وَهُوَ يُصَوِّرُ لَكَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ مُنَاكَدَةٍ وَمُعَانَدَةٍ، فَمَنْ يُصِرُّ عَلَىٰ أَنَّ فَسَادَهُ صَلَاحٌ فهُوَ الَّذِي بَلَغَ مِنَ السُّوءِ مَبْلَغًا لَا أَمَلَ فِي إِصْلَاحِهِ، فَإِنَّ كَانَتْ مُتَعَيِّنَةً لِلْمَوْصُولِيَّةِ، كَمَا فِي قَوْلِكَ: «إِنَّمَا أَهْدَيْتُكَ كِتَابٌ» بِرَفْعِ «كِتَابٌ» فَلَا تَكُونُ (إِنَّمَا) لِلْقَصْرِ، عَلَىٰ أَنْ تُكْتَبَ (إِنَّ مَا) بِفَصْلِ (مَا) عَنْ (إِنَّ)، وَالْمَعْنَىٰ: إِنَّ الَّذِي أَهْدَيْتُكَ كِتَابٌ، فَلَوْ نَصَبْتَ «كِتَاب»، فَقُلْتَ: «إِنَّمَا أَهْدَيْتُكَ كِتَابًا» كَانَتْ (مَا) كَافَّةً، وَكَانَتْ (إِنَّمَا) أَدَاةَ قَصْرٍ، وَالْمَعْنَىٰ: «مَا أَهْدَيْتُكَ إِلَّا كِتَابًا».

وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] الْمَعْنَىٰ: وَلَوْ أَنَّ الَّذِي فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ...، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَطُّ أَنْ تَكُونَ (مَا) هُنَا كَافَّةً، و(أَنَّمَا) الْمَفْتُوحَةُ الْهَمْزَةِ، كَمِثْلِ (إِنَّمَا) بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ، وَهَذَا الطَّرِيقُ يَصْلُحُ لِكُلِّ صُورِ «الْقَصْرِ» عِنْدَ الْجُمْهُورِ، وَمِنْهَا: «قَصْرُ الْإِفْرَادِ»، وَهَذَا مَا تَرَاهُ جَلِيًّا فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، لَا يَسْتَقِيمُ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ الْمُخَاطَبَ يَعْتَقِدُ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَتَقَبَّلُ مِنْ غَيْرِ الْمُتَّقِي، وَلَا يَتَقَبَّلُ مِنَ المُتَّقِي، لِيَكُونَ الْقَصْرُ بِـ «إِنَّمَا» لِلْقَلْبِ، بَلْ الْأَقْرَبُ أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ الْقَبُولَ يَكُونُ مِنْهُمَا مَعًا، فَتَكُونُ «إِنَّمَا» لِقَصْرِ الْإِفْرَادِ.

وَمِثْلُهُ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

الْمُتَبَادَرُ أَنَّ هَذَا قَصْرُ «إِفْرَادٍ»، لَا قَصْرُ «قَلْبٍ»، فَلَيْسَ يَتَأَتَّىٰ أَنْ يَعْتَقِدَ أَحَدٌ أَنَّ تَعْمِيرَ الْمَسَاجِدِ مِنَ الْفَسَقَةِ لَا مِنَ الْأَتْقِيَاءِ، لِيَقْلِبَ عَلَيْهِم الْحُكْمَ بِـ «إِنَّمَا».

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

لَا يَتَبَادَرُ إِلَىٰ الْقَلْبِ أَنَّ ثَمَّ مُعْتَقِدًا أَنَّ الصَّدَقَاتِ لَا تَكُونُ لِلْفُقَرَاءِ بَلْ تَكُونُ لِغَيْرِهِم، فَيَقْلِبَ عَلَيْهِ الْحُكْمَ بِـ «إِنَّمَا». الْأَقْرَبُ أَنْ يُفْرِدَ الْمَذْكُورِينَ بِالاسْتِحْقَاقِ دُونَ مَا عَدَاهُمْ؟

وَكَذَلِكَ قَوْلُ أَبِي فِرَاسٍ الْحَمْدَانِيِّ:

وَقَلْبًا: «إِنَّمَا زَيْدٌ قَائِمٌ»، وَفِي «قَصْرِ الصِّفَةِ عَلَىٰ المَوصُوفِ» بِالْاعْتِبَارَيْنِ: «إِنَّمَا قَائِمٌ زَيْدٌ».

• • •

[الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ «إِنَّمَا» تُفِيدُ القَصْرَ] (١)

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ أَنَّهَا تُفِيدُ القَصْرَ:

أ- كَوْنُهَا مُتَضَمِّنَةً مَعْنَىٰ «مَا» و«إِلَّا» لِقَولِ المُفَسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ ﴾ [البقرة: ١٧٣] بِالنَّصْبِ مَعْنَاهُ: «مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا المَيْتَةَ» وَهُوَ الْمُطَابِقُ لِقِرَاءَةِ «الرَّفْعِ» لِمَا مَرَّ فِي بَابِ: «المُنْطَلِقُ زَيْدٌ»(٢).

لَيْسَ جُودًا عَطِيَّةٌ بِسُؤَالِ ... قَدْ يَهُزُّ السُّؤَالُ غَيْرَ الْجَوَادِ

إِنَّمَا الجُودُ مَا أَتَاكَ ابْتِدَاءً ... لَمْ تَذُقْ فِيهِ ذِلَّةَ التَّرْدَادِ

قَصَرَ الْجُودَ عَلَىٰ مَا يَأْتِيكَ مِنْ غَيْرِ سُؤَالٍ، وَنَفَاهُ عَمَّا يَكُونُ بِسُؤَالٍ، وَلَيْسَ مَعْقُولًا أَنَّ هُنَالِكَ مَنْ يَقْلِبُ، فَيَرَىٰ أَنَّ الْجُودَ الْحَقَّ هُوَ مَا كَانَ نَتِيجَةَ إِلْحَاحٍ وَتَذَلُّلٍ، هَذَا لا يُقَالُ، فَالْقَصْرُ هُنَا بـ (إِنَّمَا) قَصْرُ إِفْرَادٍ، لَا قَصْرُ قَلْبٍ.

(١) عُنِيَ الْخَطِيبُ تَبْعًا لِعَبْدِ الْقَاهِرِ بِالْقَوْلِ فِي أَدِلَّةِ إِفَادَةِ «إِنَّمَا» الْقَصْرَ مِنْ أَنَّهَا لَمْ يَتَّفِقْ كُلُّ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَىٰ إِفَادَتِهَا الْقَصْرَ، فَمِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ يَذْهَبُ إِلَىٰ أَنَّهَا لِلتَّوْكِيدِ، لَا لِلْقَصْرِ غَيْرَ مُلْتَفِتٍ إِلَىٰ أَثَرِ مَا فِي كَفِّ «إِنَّ» عَنِ الْعَمَلِ وَجَمْهَرَةُ الْبَلَاغِيِّينَ، وَغَيْرُ قَلِيلٍ مِنْ مُتَقَدِّمِي عُلَمَاءِ «النَّحْوِ»، وَعُلَمَاءِ «أُصُولِ الْفِقْهِ» عَلَىٰ ذَلِكَ.

(٢) هَذَا هُوَ الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ عَلَىٰ أَنَّ «إِنَّمَا» تُفِيدُ الْقَصْرَ، وَهُوَ يَسْتَمِدُّهُ مِنْ تَأْوِيلِ أَعْيَانِ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ، فَتَأْوِيلُهُمْ قَائِمٌ عَلَىٰ حَلِّ دَلَالَةِ «إِنَّمَا» إِلَىٰ «مَا»، و«إِلَّا»؛ أَيِ الاسْتِثْنَاءُ الْمُفَرَّغُ، الَّذِي هُوَ طَرِيقٌ لَا يُنَازِعُ أَحَدٌ فِي دَلَالَتِهِ عَلَىٰ الْقَصْرِ خَلَا مُتَقَدِّمِي «الْحَنَفِيةِ». أَعْيَانُ المُفَسِّرِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ فَسَّرُوا قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: «إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ» عَلَىٰ قِرَاءَةِ نَصْبِ «الْمَيْتَةَ» مَفْعُولًا لِلْفِعْلِ «حَرَّمَ» لِجَعْلِ الْفِعْلَ «حَرَّمَ» مَبْنِيًّا لِلْفَاعِلِ، وَالْفَاعِلُ مُضْمَرٌ لِتَعَيُّنِهِ، بِقَوْلِهِمْ: مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا الْمَيْتَةَ، أَعْرَبُوا بِقَوْلِهِمْ هَذَا مُقِيمِينَ «مَا»، و«إِلَّا» مَقَامَ «إِنَّمَا» لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُمَا سَوَاءٌ.

وَهَذَا التَّأْوِيلُ مُطَابِقٌ لِقِرَاءَةِ رَفْعِ «الْمَيْتَةُ» عَلَىٰ أَنَّ «مَا» فِي (إِنَّمَا) بِمَعْنَىٰ «الَّذِي» يَكُونُ الْمَعْنَىٰ: «الَّذِي

ب ـ وَلِقَوْلِ النُّحَاةِ «إِنَّمَا» لِإِثْبَاتِ مَا يُذْكَرُ بَعْدَهَا وَنَفْيِ مَا سِوَاهُ[١].

ج ـ انْفِصَالُ الضَّمِيرِ مَعَهَا، كَقَولِكَ: «إِنَّمَا يَضْرِبُ أَنَا» كَمَا تَقُولُ: «مَا يَضْرِبُ إِلَّا أَنَا»[٢].

قَالَ الفَرَزْدَقُ[٣]:

أَنَا الذَّائِدُ الْحَامِي الذِّمَارَ، وَإِنَّمَا ... يُدَافِعُ عَنْ أَحْسَابِهِم أَنَا أَوْ مِثْلِي[٤]

حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيتَةُ»، فتكُونُ «الْمَيتَةُ» خَبَرَ «اسْمِ الْمَوصُولِ: مَا»، وَيَكُونُ طَرِيقُ الْقَصْرِ هُنَا هُوَ تَعْرِيفُ الطَّرَفِينِ كَمَا فِي: «الْمُنْطَلِقُ زَيْدٌ»؛ أَيْ لَيْسَ الْمُنْطَلِقُ إِلَّا زَيْدٌ، وَلَيْسَ الْمُحَرَّمُ عَلَيْكُمْ إِلَّا الْمَيتَةُ ... وَمَعْنَىٰ الْقِرَاءَتينِ مُتَطَابِقٌ، فَيَلْزَمُ هَذَا أَنْ تَكُونَ «إِنَّمَا» بِمَثَابَةِ تَعْرِيفِ الطَّرَفَيْنِ الْمُعْتَرَفِ بِدَلَالَتِهِ عَلَىٰ الْقَصْرِ.

(١) هَذَا الدَّلِيلُ مُسْتَمَدٌّ مِمَّا ذَهَبَ إِلَيْهِ النُّحَاةُ، وَهُمْ أَعْيَانُ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ إِلَىٰ أَنَّ مَعْنَىٰ «إِنَّمَا» إِثْبَاتُ نِسْبَةِ الْمُسْنَدِ لِلْمُسْنَدِ إِلَيْهِ، وَنَفْيُهُ عَمَّا عَدَاهُ، فَإِذَا قُلْتَ: «إِنَّمَا أَنَا طَالِبُ عِلْمٍ»، فَأَنْتَ بـ «إِنَّمَا» تُثْبِتُ صِفَةَ طَلَبِ الْعِلْمِ لِنَفْسِكَ، وَتَنْفِي عَنْكَ غَيْرَهَا مِنْ جِنْسِهَا؛ أَيْ تَنْفِي عَنْكَ أَنْ تَكُونَ طَالِبَ مَالٍ أَوْ جَاهٍ، أَوْ سُلْطَانٍ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ.

فَجَمَعَ تَفْسِيرُهُمْ (إِنَّمَا) بِهَذَا بَيْنَ الْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ فِي جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَكَانَ الْإِثْبَاتُ تَصْرِيحًا، وَالنَّفْيُ تَلْوِيحًا، وَهَذَا هُوَ أَصْلُ دَلَالَةِ «الْقَصْرِ».

(٢) يَسْتَدِلُّونَ بِصِحَّةِ انْفِصَالِ الضَّمِيرِ عَنْ الْفِعْلِ مَعَ «إِنَّمَا» كَمَا صَحَّ مَعَ «مَا»، و«إِلاَّ» فَكَمَا تَسَاوَيَا فِي هَذَا يَتَسَاوَيَانِ فِي الدَّلَالَةِ، وَغَيْرُ مُنَازَعٍ أَنَّ «مَا جَاءَ إِلَّا أَنَا» عَلَىٰ الْقَصْرِ، كَذَلِكَ يَجِبُ أَلَّا يُنَازَعَ فِي دَلَالَةِ «إِنَّمَا» عَلَىٰ الْقَصْرِ. وَهُوَ اسْتِدْلَالٌ بِالْقِيَاسِ.

(٣) هُوَ هَمَّامُ بْنُ غَالِبِ بْنِ صَعْصَعَةَ التَّمِيمِيِّ الدَّارِمِيِّ (ت:١١٠هـ) شَاعِرٌ أُمَوِيٌّ يُشَبَّهُ بـ «زُهَيرِ بْنِ أَبِي سُلْمَىٰ» كَانَ أَبُوهُ مِنَ النُّبَلَاءِ، وَلَهُ دِيوَانُ شِعْرٍ مَطْبُوعٍ ،وَعَلَىٰ شِعْرِهِ دِرَاسَاتٌ وَافِرَةٌ.

(٤) الذِّمَارُ: مَا يَجِبُ عَلَيْكَ حِمَايَتَهُ، مِنْ عَرْضٍ وَحُرِّيَّةٍ وَأَهْلٍ وَمَالٍ...، وَالذَّائِدُ: الدَّافِعُ عَنِ الشَّيْءِ، وَالْأَحْسَابُ: مَا يَعُدُّهُ الْمَرْءُ مِنْ مَنَاقِبِ وَشَرَفِ الْآبَاءِ.

فَصَلَ الْفَرَزْدَقُ الضَّمِيرَ (أَنَا) مَعَ (إِنَّمَا) وَأَخَّرَهُ لِيَكُونَ مَقْصُورًا عَلَيْهِ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْمَقْصُورِ عَلَيْهِ مَعَ(إِنَّمَا)، فَكَانَ الْمَعْنَىٰ: مَا يُدَافِعُ عَنْ أَحْسَابِهِنَّ إِلَّا أَنَا قَصْرَ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوصُوفٍ، يَسْتَدِلُّ الْبَلَاغِيُونَ بِفَصْلِ الضَّمِيرِ الْمُتَّصِلِ مَعَ (إِنَّمَا) عَلَىٰ أَنَّهُ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَقْصِرَ الدَّافِعَ عَلَىٰ الْأَحْسَابِ

وَقالَ عَمْرُو بنُ مَعْدِيكَرِب[1]:

قَـدْ عَلِمَـتْ سَـلْمَىٰ وَجَارَاتُهَـا　　　مَـا قَطَّـرَ الفَـارِسَ إِلَّا أَنَـا[2]

وَقَالَ السَّكَّاكِيُّ: ويُذْكَرُ لِذلِكَ وَجْهٌ لَطِيفٌ يُسْنَدُ إِلَىٰ عَلِيٍّ بْنِ عِيسَىٰ

عَلَيْهِ فَصَلَ الضَّمِيرَ وَأَخَّرَهُ، لِيَكُونَ مَقْصُورًا عَلَيْهِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّ (إِنَّمَا) مُفِيدَةً لِلْقَصْرِ، وَلَوْلَا إِفَادَتُهَا الْقَصْرَ مَا كَانَ لِلْفَصْلِ وَالتَّأْخِيرِ مُقْتَضٍ. فَلَمَّا شَابَهَتْ (إِنَّمَا) (مَا) و(إِلَّا) فِي فَصْلِ الضَّمِيرِ دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ الْعِلَّةَ وَاحِدَةٌ، وَهِيَ مَكَانُ الْحَصْرِ، فَكَانَ فِي هَذَا بُرْهَانٌ عَلَىٰ أَنَّ (إِنَّمَا) و(مَا)، و(إِلَّا) فِي الدَّلَالَةِ عَلَىٰ الْحَصْرِ سَوَاءٌ.

(١) هُوَ عَمْرُو بْنُ مَعْدِيكَرِبِ بْنِ رَبِيعَةَ الْقَحْطَانِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شَاعِرٌ مُخَضْرَمٌ.

(٢) يَفْخَرُ الشَّاعِرُ بِشَجَاعَتِهِ وَقُوَّتِهِ قَائِلاً:

أَلْمِـمْ بِسَـلْمَىٰ قَبْلَ أَنْ تَظْعَنَا　　　إِنَّ لَنَـا مِـنْ حُبِّهَـا دَيْدَنَـا

قَدْ عَلِمَتْ سَلْمَىٰ وَجَارَاتُهَا　　　مَـا قَطَّـرَ الْفَـارِسَ إِلَّا أَنَـا

شَـكَكْتُ بِالرُّمْـحِ حَيَازِيمَـهُ　　　وَالْخَيْـلُ تَعْـدُو زِيَمًـا بَيْنَنَـا

الظَّعْنُ: السَّيرُ وَالرَّحِيلُ، وَسُمِّيتْ الْمرْأَةُ الرَّاحِلَةُ عَنْ مَحِلَّتِهَا «ظَعِينَةٌ»، وَالدَّيْدَنُ: الدَّأْبُ وَالْعَادَةُ، وَقَطَّرَهُ: أَلْقَاهُ عَلَىٰ قُطْرِهِ؛ أَيْ جَانِبِهِ. وَالْحَيَازِمُ: جَمْعُ حَيْزُومٍ، وَهُوَ وَسَطُ الصَّدْرِ، وَمَا يُضَمُّ عَلَيْهِ الحِزَامُ، و(الزِّيَمُ) الْمُتَفَرِّقَةُ الْجَائِلَةُ بَيْنَهُمْ.

يَفْخَرُ الشَّاعِرُ بِأَنَّ نَبَأَ اخْتِصَاصِهِ بِتَقْطِيرِ الْفَارِسِ أَمْرٌ قَدْ عَلِمَتْهُ سَلْمَىٰ وَالنِّسَاءُ، وَتَدَاوَلْنَهُ لِفَرَادَتِهِ، وَأَنَّهُ بَاتَ حَدِيثَ المَحَلَّةِ، وَفِي نَعْتِهِ مَن قَطَّرَهُ بِأَنَّهُ «الْفَارِسُ» مَزِيدُ فَخْرٍ وَمُبَالَغَةٍ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ الْفَخْرُ أَنْ تُقَطِّرَ أَحَدًا أَيَّ أَحدٍ. إِنَّمَا الْفَخْرُ أَنْ تُقَطِّرَ فَارِسًا لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُقَطَّرَ، فَقَصَرَ تَقْطِيرَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ.

وَلَمَّا كَانَ غَرَضُ الشَّاعِرِ أَنْ يَقْصِرَ هَذَا الْفِعْلَ عَلَىٰ نَفْسِهِ فَصَلَ ضَمِيرَ الْمُتَكَلِّمِ وَأَخَّرَهُ مَعَ(مَا) و(إِلَّا) لِيَجْعَلَهُ مقصورًا عليه.

وَأَهْلُ الْعِلْمِ بِالْعَرَبِيَّةِ يَجْعَلُونَ مِنْ مَوَاضِعَ فَصْلِ الضَّمِيرِ الْمُتَّصِلِ أَنْ يَقَعَ مَقْصُورًا عَلَيْهِ، فَفَصْلُهُ فِي بَيْتِ الْفَرَزْدَقِ (إِنَّمَا) كَفَصْلِهِ مَعَ (مَا، وَإِلَّا) فِي بَيْتِ عَمْرِو بْنِ مَعْدِيكَرِب بُرْهَانٌ عَلَىٰ أَنَّ (إِنَّمَا) مُفِيدَةٌ «الْقَصْرَ».

الرَّبْعِيِّ[1]: وَهو أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ كَلِمَةُ «إِنَّ» لِتَأْكِيدِ إِثْبَاتِ «المُسْنَدِ» لِلْمُسْنَدِ إِلَيْهِ، ثُمَّ اتَّصلَتْ بِهَا «مَا» المُؤَكِّدَةُ، لَا «النَّافِيةُ»[2] كَمَا يَظُنُّهُ مَنْ لاَ وُقُوفَ لَهُ عَلَىٰ عِلْمِ «النَّحْوِ»[3] نَاسَبَ أَن يُضَمَّنَ مَعْنَىٰ «الْقَصْرِ»؛ لَأنَّ «القَصْرَ» لَيْسَ إِلاَّ تَأْكِيدًا عَلَىٰ تَأْكِيدٍ، فَإِنَّ قَوْلَكَ: «زَيْدٌ جاءَ لَا عَمْرٌو» لِمَنْ يُرَدِّدُ المَجِيءَ الْوَاقِعَ بَيْنَهُمَا يُفِيدُ إِثْبَاتَهُ لِزَيْدٍ فِي الابْتِدَاءِ صَرِيحًا، وَفِي الآخَرِ ضِمْنًا[4].

(١) هُوَ أَبُو الْحَسَنِ: عَلِيُّ بْنُ عِيسَىٰ بن الْفَرَجِ بْنِ صَالِحِ الرَّبْعِيِّ النَّحْوِيِّ (٣٢٨-٤٢٠هـ) تِلْمِيذُ أَبِي عَلِيٍّ الْفَارِسِيِّ وَأَبِي سَعِيدٍ السِّيرَافِيِّ، وَكَانَ ابْنُ أُخْتِ أَبِي عَلِيٍّ الْفَارِسِيِّ النَّحْوِيِّ شَيْخِ عَبْدِ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيِّ، يَقُولُ: لَوْ سِرْتُ مِنَ الشَّرْقِ إِلَىٰ الْغَرْبِ لَمْ أَجِدْ أَنْحَىٰ مِنَ الرَّبْعِيِّ.

وَهُوَ قَرِينُ ابْنِ جِني فِي الطَّلَبِ، وَصَنَّفَ كِتَابًا عُنْوَانُهُ: «التَّنْبِيهُ عَلَىٰ خَطَأِ ابْنِ جِنِّي فِي تَفْسِيرِ شِعْرِ الْمُتَنبِّي»، وَلَهُ كِتَابُ: «شَرْحُ الإِيضَاحِ، لِأَبِي عَلِيٍّ الْفَارِسِيِّ» فِي النَّحْوِ.

(٢) قَوْلُهُ: «مَا الْمُؤَكِّدَةُ، لاَ النَّافِيةُ» مَعْنَاهُ: «مَا» الْمُفِيدَةُ التَّوكِيدِ، وَلَيْسَتْ «مَا» الْمُفِيدَةَ النَّفْيِ، فَالْعِبَارَةُ مِنْ قَبِيلِ الْقَصْرِ بِطَرِيقِ الْعَطْفِ بـ «لَا»، وَهُوَ قَصْرُ مَوصُوفٍ «مَا» عَلَىٰ الصِّفَةِ «التَّأْكِيدِ» قَصْرًا إِضَافِيًّا لِلْقَلْبِ. أَثْبَتَ لـ «مَا» الَّتِي فِي «إِنَّمَا» إِفَادَةَ «التَّوكِيدِ»، وَنَفَىٰ عَنْهَا إِفَادَةَ النَّفْيِ.

(٣) يُشِيرُ إِلَىٰ الإِمَامِ فَخْرِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ عُمْرَ بْنِ الْحُسَينِ الرَّازِيِّ (ت: ٦٠٦هـ) صَاحِبِ تَفْسِيرِ «مَفَاتِيحِ الْغَيْبِ»، وَ«نِهَايَةِ الإِيجَازِ فِي دِرَايَةِ الإِعْجَازِ»، و«الْمَحْصُولُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ»، وَمَا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنَ الْقَوْلِ بِأَنَّ «مَا» فِي «إِنَّمَا» لِلنَّفْيِ قَالَهُ فِي «الْمَحْصُولِ»(ص ٣٨٣) تَحْقِيقُ أ د: طَه الْعِلْوَانِي — مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةِ).

(٤) يُؤَسِسُ الرَّبْعِيُّ رُؤْيَتَهُ عَلَىٰ مَا تُفِيدُهُ «إِنَّ» مِنْ تَأْكِيدِ ثُبُوتِ النِّسْبَةِ بَيْنَ رُكْنَي الْجُمْلَةِ، وَمَا تُفِيدُهُ «مَا» عِنْدَهُ مِنَ التَّوْكِيدِ، وَإِفَادَتِهَا التَّوْكِيدِ آتٍ مِنْ زِيَادَتِهَا، وَالشَّأْنُ فِي الْحَرْفِ الْمَزِيدِ أَنْ يُؤَدِّيَ تَأْكِيدًا لْمَعْنَىٰ مَا زِيدَ فِيهِ، فَهُوَ لَا يُؤَسِّسُ مَعْنَىٰ، بَلْ يُؤَكِّدُ مَعْنَىٰ مُؤَسَّسًا بِمَا زِيدَ فِيهِ، فَقَوْلُهُمْ: «حَرْفٌ زَائِدٌ»؛ أَيْ زَائِدًا فِي مَعْنَىٰ مَا قُرِنَ بِهِ، فَافْهَمْ.

لَيْسَ ثَمَّ مَا يُزَادُ عَقِيمًا، فَالْوُجُودُ الْعَبَثِيُّ لِلْكَلِمِ، بَلْ لِلأَحْرُفِ وَالْحَرَكَاتِ أَمْرٌ غَيْرُ وَاقِعٍ، فَلَيْسَ شَيْءٌ يَنْطِقُ بِهِ الْبَلِيغُ إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ بِمَعْنًىٰ سَواءٌ كَانَ مَعْنًىٰ تَأْسِيسِيًّا أَوْ تَقْيِيدِيًّا أَوْ تَوْكِيدِيًّا، وَنَحْوَ ذَلِكَ «الْكَلِمَةُ»، بَلْ «الْحَرْفُ»، بَلْ «الْحَرَكَةُ» فِي الْوُجُودِ الْبَيَانِيِّ الْبَلِيغِ، كَمَثَلِ الإِنْسَانِ فِي الْوُجُودِ الْأَدَمِيِّ لَهُ وَظِيفَةٌ وَرِسَالَةٌ.

رُؤْيَةُ «الرَّبْعِيِّ» المُؤَسَّسَةُ عَلَىٰ أَنَّ «مَا» الزَّائِدَةَ فِي «إِنَّمَا» حَقَّقَتْ مُسْتَوَيَيْنِ مِنْ تَوْكِيدِ الْمَعْنَىٰ، و«الْقَصْرُ» لَيْسَ إِلَّا «تَوْكِيدٌ» عَلَىٰ «تَوْكِيدٍ»؛ لِأَنَّهُ قَائِمٌ عَلَىٰ إِثْبَاتِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ وَنَفْيِهِ عَنْ غَيْرِهِ، فَالْأَوَّلُ إِثْبَاتٌ

وَمِنْهَا: التَّقْدِيمُ[1]

كَقَوْلِكَ فِي قَصْرِ الْمَوْصُوفِ عَلَىٰ الصِّفَةِ إِفْرَادًا: «شَاعِرٌ هُوَ» لِمَنْ يَعْتَقِدُهُ شَاعِرًا أَوْ كَاتِبًا، وَقَلْبًا: «قَائِمٌ هُوَ» لِمَنْ يَعْتَقِدُهُ قَاعِدًا[2].

وَفِي قَصْرِ الصِّفَةِ عَلَىٰ الْمَوصُوفِ إِفْرَادًا: «أَنَا كَفَيْتُ مُهِمَّكَ» بِمَعْنَىٰ: «وَحْدِي» لِمَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّك وَغَيْرَكَ كَفَيْتُمَا مُهِمَّهُ[3]، وَقَلْبًا: «أَنَا كَفَيْتُ مُهِمَّكَ»

صَرِيحٌ، وَالثَّانِي إِثْبَاتٌ ضِمْنِيٌّ يَلْزَمُ النَّفْيَ عَنْ غَيْرِه. فَأَنْتَ حَيْثُ نَفَيْتَ شَيْئًا عَنْ شَيْءٍ فَإِنَّهُ يَلْزَمُهُ إِثْبَاتُهُ لِضِدِّهِ أَوْ مُقَابِلِهِ، فَلَدَيْنَا إِعْرَابٌ عَنِ الْمَعْنَي بِطَرِيقَيْنِ: طَرِيقِ التَّصْرِيحِ مُمَثَّلًا فِي «الْإِثْبَاتِ»، وَطَرِيقِ التَّلْوِيحِ « مُمَثَّلًا فِي» النَّفْيِ».

(١) يُرَادُ بـ «التَّقْدِيم» هُنَا تَقْدِيمُ مَا رُتْبَتُهُ التَّأْخِيرُ إِلاَّ أَنَّهُ لاَ يُمْتَنَعُ تَأْخِيرُهُ لِمُقْتَضٍ كَتَقْدِيمِ الْفَاعِلِ عَلَىٰ فِعْلِهِ، وَتَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ عَلَىٰ الْفَاعِلِ أَوْ عَلَىٰ الْفِعْلِ لِاقْتِضَاءِ الْمَقَامِ.

هَذَا التَّقْدِيمُ فِي بِعْضِ السِّيَاقَاتِ يُفَادُ بِهِ مَعْنَىٰ «الْقَصْرِ»، فَدَلَالَةُ «التَّقْدِيمِ» عَلَىٰ الْقَصْرِ دَلَالَةُ سِيَاقِيَّةٌ، وَلَيْسَ فِي كُلِّ سِيَاقٍ.

(٢) لَمَّا كَانَ الْأَصْلُ «هُوَ شَاعِرٌ» فَعَدَلَ عَنْهُ إِلَىٰ «شَاعِرٌ هُوَ» كَانَ لاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِذَلِكَ الْعُدُولِ عَنِ الْأَصْلِ مِنْ مُقْتَضٍ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ عُدُولٌ إِلَّا لِسَبَبٍ مُقْتَضٍ هَذَا الْمُقْتَضِي هُنَا هُوَ إِرَادَةُ قَصْرِهِ عَلَىٰ الشَّاعِرِيَّةِ.

وَهَذَا الْمِثَالُ: «شَاعِرٌ هُوَ» جَعَلَهُ الْخَطِيبُ لِقَصْرِ الْمَوصُوفِ عَلَىٰ الصِّفَةِ قَصْرَ إِفْرَادٍ بِنَاءً عَلَىٰ ظَنٍّ أَنَّ الْمُخَاطَبَ بِهِ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ شَاعِرٌ وَخَطِيبٌ، فَأُفْرِدَ بِالتَّقْدِيمِ بِالشِّعْرِ.

وَهَذَا الْمِثَالُ نَفْسُهُ لَا يَتَعَيَّنُ أَنْ يَكُونَ لِلإِفْرَادِ، بَلْ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ لِلْقَلْبِ إِذَا كَانَ الْمُخَاطَبُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ خَطِيبٌ وَلَيْسَ بِشَاعِرٍ، وَيَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ لِلتَّعْيِينِ إِذَا كَانَ الْمُخَاطَبُ بِهِ لَا يَتَعَيَّنُ عِنْدَهُ: أَهُوَ شَاعِرٌ أَمْ خَطِيبٌ؟ فَيَأْتِي الْقَصْرُ لِيُعَيِّنَ لَهُ أَحَدَهُمَا.

وَالْخَطِيبُ الْقَزْوِينِيّ مَثَّلَ فِي قَصْرِ الْمَوصُوفِ عَلَىٰ الصِّفَةِ لِلْقَلْبِ بِقَوْلِهِ: قَائِمٌ هُوَ، وَهَذَا الْمِثَالُ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ لِلْإِفْرَادِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَصِحُّ أَنْ يَعْتَقِدَ أَحَدٌ أَنَّ زَيْدًا قَائِمٌ وَقَاعِدٌ وَنَائِمٌ، فَيُفْرَدُ بِالْقِيَامِ؛ لِأَنَّها صِفَاتٌ لَا يَصِحُّ أَنْ تَحَقَّقَ فِي الْمَوصُوفِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ. لَكِنْ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ لِلْتَّعْيِينِ، إِذَا كَانَ الْمُخَاطَبُ لَا يَدْرِي: أَهُوَ قَائِمٌ أَمْ قَاعِدٌ أَوْ نَائِمٌ أَمْ مُضْطَجِعٌ؟ فَيُعَيَّنُ لَهُ بِالْقَصْرِ أَنَّهُ قَائِمٌ.

(٣) قَوْلُهُ: «أَنَا كَفَيْتُ مُهِمَّكَ» أَصْلُهُ: « كَفَيْتُ مُهِمَّكَ «؛ لَأَنَّ الأَصْلَ هُوَ الْجُمْلَةُ الْفِعْلِيَّةُ، بِتَقْدِيمِ

بِمَعْنَىٰ: «لَا غَيْرِي» لِمَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ غَيْرَكَ كَفَىٰ مُهِمَّهُ دُونَكَ[1] كَمَا تَقَدَّمَ[2].

[خَوَاصُّ الطُّرُقِ وَمَا بَيْنَهَا مِنْ فُرُوقٍ]

وَهَذِهِ الطُّرُقُ تَخْتَلِفُ مِنْ وُجُوهٍ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ دَلَالَةَ الثَّلَاثَةِ الْأُولَىٰ بِالوَضْعِ دُونَ الرَّابِعِ[3].

الثَّانِي: أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْأَوَّلِ أَن يَدُلَّ عَلَىٰ الْمُثْبَتِ والمَنْفِي جَمِيعًا بِالنَّصِّ، فَلَا يُتْرَكُ ذَلِكَ إِلَّا كَرَاهَةَ «الإِطْنَابِ» فِي مَقَامِ «الاخْتِصَارِ» كَمَا إِذَا قِيلَ: «زَيْدٌ

الْفِعْلِ عَلَىٰ الْفَاعِلِ، فَإِذَا قُدِّمَ الْمُسْنَدُ إِلَيْهِ «تَاءُ الْمُتَكَلِّمِ» فِي «كَفَيْتُ» فُصِلَ الضَّمِيرُ، فَصَارَ «أَنَا كَفَيْتُ...» فَدَلَّ عَلَىٰ قَصْرِ الْكِفَايَةِ عَلَيْهِ قَصْرَ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوصُوفٍ لِلْإِفْرَادِ إِذَا مَا كَانَ الْمُخَاطَبُ يَعْتَقِدُ أَنّ كِفَايَةَ مَا يُهِمُّهُ كَانَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِ وَغَيْرِهِ مَعًا، فَالْمَعْنَىٰ: مَا كَفَاكَ مُهِمَّكَ إِلَّا أَنَا وَحْدِي، فَالْمَقْصُورُ عَلَيْهِ هُوَ «الْمُقَدَّمُ».

(١) مَثَّلَ صَاحِبُ الإِيضَاحِ فِي قَصْرِ الصِّفَةِ عَلَىٰ الْمَوصُوفِ قَلْبًا بِالْمِثَالِ نَفْسِهِ الَّذِي مَثَّلَ بِهِ لِقَصْرِ الصِّفَةِ عَلَىٰ الْمَوصُوفِ إِفْرَادًا: «أَنَا كَفَيْتُ مُهِمَّكَ»، وَالتَّفْرِقَةُ بَيْنَهُمَا بِاعْتِبَارِ حَالِ اعْتِقَادِ الْمُخَاطَبِ، وَهَذَا يُؤْخَذُ مِنَ السِّيَاقِ الْمَقَامِيِّ.

(٢) أَيْ فِي مَبْحَثِ «تَقْدِيمِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ عَلَىٰ الْخَبَرِ الْفِعْلِيِّ» فَإِنْ كَانَ التَّقْدِيمُ فِي حَيِّزِ «النَّفْيِ» كَانَتْ دَلَالَتُهُ عَلَىٰ الْقَصْرِ مُتَعَيِّنَةً؛ أَيْ دَلَالَةٌ نَظْمِيَّةٌ مِنَ التَّرْكِيبِ، وَإِنْ كَانَ التَّقْدِيمُ فِي حَيِّزِ الإِثْبَاتِ كَمَا هُنَا، فَالدَّلَالَةُ عَلَىٰ الْحَصْرِ غَيْرُ مُتَعَيِّنَةٍ، وَإِنَّمَا هِيَ مَرْهُونَةٌ بِالسِّيَاقِ، فَالدَّلَالَةُ عَلَىٰ الْقَصْرِ سِيَاقِيَّةٌ.

حَقِيقٌ عَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَسْتَحْضِرَ مَا دَرَسَهُ مِنْ قَضَايَا التَّقْدِيمِ فِي مَبَاحِثِ «أَحْوَالِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ، وَالْمُسْنَدِ، وَمُتَعَلِّقَاتِ الْفِعْلِ» فَلِكَثِيرٍ مِنْهَا عَلَاقَةٌ وُثْقَىٰ بِدَلَالَةِ التَّقْدِيمِ عَلَىٰ الْقَصْرِ. وَمَنْ قَصَّرَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ.

(٣) هَذَا فَرْقٌ بَيْنَها مِنْ حَيْثُ جِهَةِ الدَّلَالَةِ: يُرِيدُ أَنَّ طَرِيقَ الْعَطْفِ بِـ« لاَ»، و«بَلْ»، و«لَكِنْ»، وَطَرِيقَ «النَّفْيِ وَالاسْتِثْنَاءِ»، و«إِنَّمَا» هِيَ دَالَّةٌ عَلَىٰ الْقَصْرِ عَنْ طَرِيقِ الْوَضْعِ اللُّغَوِيِّ لَهَا، فَهِيَ تَدُلُّ عَلَيْهِ حَيْثُ حَلَّتْ.

أَمَّا «التَّقْدِيمُ» فَإِنَّهُ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ بِالْوَضْعِ، بَلْ دَلَالَتُه عَلَيْهِ سِيَاقِيَّةٌ؛ أَيْ يَدُلُّ عَلَىٰ الْقَصْرِ فِي سِيَاقٍ، وَلَا يَدُلُّ عَلَيْهِ فِي سِيَاقٍ آخَرَ، وَهَذَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ مَزِيدِ يَقَظَةٍ وَفِرَاسَةٍ بَيَانِيَّةٍ

يَعْلَمُ النَّحْوَ وَالتَّصْرِيفَ وَالْعَروضَ وَالْقَوافِي»، أَوْ «زَيْدٌ يَعْلَمُ النَّحْوَ»، وَعَمْرٌو وَبَكْرٌ وَخَالِدٌ، فَتَقُولُ فِيهِمَا: «زَيْدٌ يَعْلَمُ النَّحْوَ لَا غَيْرُ»، وَفِي مَعْنَاه «لَيْسَ إِلَّا»؛ أيْ لَا غَيْرَ النَّحْوِ، أَوْ «لَا غَيْرَ زَيدٍ»، وَأَمَّا الثَّلَاثَةُ البَاقِيةُ، فَتَدُلُّ بِالنَّصِّ عَلَىٰ «الْمُثْبَتِ» دُونَ المَنْفِيِّ[1].

الثَّالِثُ: أَنَّ النَّفْيَ لَا يُجَامِعُ الثَّانِي؛ لِأَنَّ شَرْطَ المَنْفِيِّ بِـ«لَا» أَلَّا يَكُونَ مَنْفِيًّا قَبْلَهَا بِغَيْرِهَا، وَيُجَامِعُ الآخَرَيْنِ، فَيُقَالُ: «إِنَّمَا زَيْدٌ كَاتِبٌ لَا شَاعِرٌ» و«هُوَ يَأْتِينِي لَا عَمْرٌو»؛ لِأَنَّ النَّفْيَ فِيهِمَا غَيْرُ مُصَرَّحٍ بِهِ، كَمَا يُقَالُ: «امْتَنَعَ زَيْدٌ عَنِ الْمَجِيءِ لَا عَمْرٌو»[2].

قَالَ السَّكَّاكِيُّ: «شَرْطُ مُجَامَعَتِهِ لِلثَّالِثِ أَلَّا يَكُونَ الوَصْفُ مُخْتَصًّا بِالْمَوصُوفِ، كَقَولِهِ تَعالَىٰ: ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٦]؛ فَإِنَّ كُلَّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ أَنَّ الاسْتِجَابَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا مِمَّنْ يَسْمَعُ، وَكَذَا قَوْلُهُم: إِنَّمَا يَعْجَلُ مَنْ يَخْشَىٰ الفَوْتَ»[3].

---

(١) هَذَا الْفَرْقُ مِنْ حَيْثُ مَا يُذْكَرُ مِنْ «الإِثْبَاتِ» و«النَّفْيِ» فِي كُلٍّ.
طَرِيقُ «الْعَطْفِ» يَتَحَقَّقُ فِيهِ الطَّرَفَانِ، فَهُمَا مَدْلُولٌ عَلَيْهِمَا بِالتَّصْرِيحِ، مِمَّا يَجْعَلُ هَذَا الطَّرِيقَ لَا يُفِيدُ إِيجَازَ الْقَصْرِ، وَالطُّرُقُ الثَّلَاثَةُ الْبَاقِيَةُ تَجْمَعُ بَيْنَ مَا دُلَّ عَلَيْهِ بِالتَّصْرِيحِ، وَمَا دُلَّ عَلَيْهِ بِالتَّلْوِيحِ، فَهُوَ جُمْلَةٌ وَاحِدَةٌ يُفَادُ مِنْهُ مَعْنَىٰ جُمْلَتَيْنِ، فَهُوَمِنْ قَبِيلِ «إِيجَازِ الْقِصْرِ»

(٢) هَذَا شَرْطُ صِحَةٍ، وَكَأَنَّهُم يَذْهَبُونَ إِلَىٰ أَنَّ «لاَ» هِيَ مُؤَسِّسَةٌ لِنَفْيٍ، وَلاَ تَكُونُ مُؤَكِّدَةً لِنَفْيٍ صَرِيحٍ، فَإِنْ كَانَ نَفْيٌ قَبْلَهَا غَيْرَ صَرِيحٍ، فَلَا مَانِعَ مِنْ أَنْ تَأْتِي مِنْ بَعْدِهِ، وَهَذَ إِمَّا يَجْعَلُهَا صَالِحَةً لِأَنْ تَكُونَ مَعَ «إِنَّمَا» فَالنَّفْيُ فِيهَا ضِمْنِيٌّ غَيْرُ مُصَرَّحٍ بِهِ، بِخِلَافِ (النَّفْيِ وَالاستِثْنَاءِ)، فَالنَّفْيُ مُصَرَّحٌ بِه، فَلَا تَأْتِي مَعَهُ «لَا».
وَهَذَا أَمْرٌ مَرْجِعُهُ إِلَىٰ عَلَاقَاتِ الْمَعَانِي الْإِضَافِيَّةِ بِبَعْضِهَا، وَهِيَ الْمَعَانِي الْمَدْلُولُ عَلَيْهَا بِمَا يُسَمَّىٰ «أَدَوَاتُ المَعَانِي».

(٣) كَأَنَّ السَّكَّاكِيَّ جَعَلَ ذَلِكَ شَرْطَ صِحَّةٍ لاَ شَرْطَ حُسْنٍ.

وَقَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ القَاهِرِ: «لا تَحْسُنُ مُجَامَعَتُهُ لَهُ فِي المُخْتَصِّ، كَمَا تَحْسُنُ فِي غَيْرِ المُخْتَصِّ وَهَذَا أَقْرَبُ»[(١)]، وَمُجَامَعَتُهُ لَهُ إِمَّا مَعَ «التَّقْدِيمِ» كَقَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢١ - ٢٢].

وَإِمَّا مَعَ التَّأْخِيرِ كَقَوْلِكَ: «مَا جَاءَنِي زَيْدٌ، وَإِنَّمَا جَاءَنِي عَمْرٌو».

وَفِي كَوْنِ نَحْوِ هَذَيْنِ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ نَظَرٌ[(٢)].

الرَّابِعُ: أَنَّ أَصْلَ «الثَّانِي» أَنْ يَكُونَ مَا اسْتُعْمِلَ لَهُ مِمَّا يَجْهَلُهُ المُخَاطَبُ وَيُنْكِرُهُ[(٣)].

---

(١) ذَهَابُ عَبْدِ الْقَاهِرِ إِلَىٰ الاسْتِحْسَانِ.

فِي الْآيَةِ الْإِنْبَاءُ بِظَاهِرِ المَعْنَىٰ: أَنَّ الَّذِي يَسْتَجِيبُ هُوَ مَنْ يَعْقِل، كَلَّا وَإِنَّمَا الْقَصْدُ التَّعْرِيضُ بِمَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ، فَهُوَ فَقِيدُ عَقْلٍ، وَالْقَصْدُ إِلَىٰ الثَّنَاءِ عَلَىٰ مَنْ اسْتَجَابَ حَثًّا لَهُمْ عَلَىٰ شُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ لِيَزِيدَهَا اللهُ تَعَالَىٰ.

وَالْإِنْبَاءُ بِنَفْيِ التَّعَقُّلِ عَنِ الْكَافِرِينَ وَالْعُصَاةِ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ، جَاءَ التَّصْرِيفُ الْبَيَانِيُّ عَنْهُ وَافِرًا، وَاسْتِقْرَاءُ ذَلِكَ وَتَدَبُّرُهُ بَالِغُ النَّفْعِ، وَفِي هَذَا حَثٌّ عَلَىٰ الْحِفَاظِ عَلَىٰ هَذِهِ النِّعْمَةِ، فَعَلَيْهَا تَتَرَتَّبُ كُلُّ النِّعَمِ، وَأَعْلَاهَا نِعْمَةُ الإِيمَانِ، وَكُلُّ اعْتِنَاءٍ يَمُدُّ هَذِهِ النِّعْمَةَ «الْعَقْلَ» بِالتَّزْكِيَةِ، وَالتَّزْكِيَةُ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ.

(٢) فِي سِيَاقِ مُجَامَعَةِ «إِنَّمَا» النَّفْيَ بـ«لَا» أَوْرَدَ مُجَامَعَةَ «إِنَّمَا» النفي بِغَيْرِ «لَا» وَهِيَ مُقَدَّمَةٌ عَلَىٰ النَّفْيِ وَأَوْرَدَ مِثَالًا صِنَاعِيًّا وَهِيَ مُؤَخَّرَةٌ عَنْهُ، وَهَذَا غَيْرُ قَوِيمٍ؛ لِأَنَّ سِيَاقَ الْقَوْلِ فِي مُجَامَعَةِ «إِنَّمَا» النَّفْيَ بـ«لَا» لَا مُطْلَقَ النَّفْيِ.

وَالَّذِي هُوَ ظَاهِرٌ فِي الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ أَنَّهُ يَغْلُبُ أَنْ يَسْبِقَ «إِنَّمَا» أَوْ يَعْقُبَهَا نَفْيٌ، ذَلِكَ أَنَّ مَا تَتَضَمَّنُهُ «إِنَّما» مِنَ النَّفْيِ غَيْرُ مُصَرَّحٍ بِهِ، فَيَأْتِي قَبْلَهَا أَوْ بَعْدَهَا مَا يُصَرِّحُ بِالنَّفْيِ، وَبِمَقْدُورِكَ أَنْ تَرْقُبَ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

(٣) فِي هَذَا نَظَرٌ إِلَىٰ المَقَامِ الَّذِي يَأْنَسُ بِهِ طَرِيقُ الْقَصْرِ بِالنَّفْيِ وَالاسْتِثْنَاءِ «الاسْتِثْنَاءِ المُفَرَّغِ» يَأْتِي فِي سِيَاقِ مَا يَجْهَلُهُ المُخَاطَبُ وَيُنْكِرُهُ، إِمَّا لِأَمْرٍ يَرْجِعُ إِلَىٰ المُخَاطَبِ، أَوْ إِلَىٰ المَعْنَىٰ لِغَرَابَتِهِ، فَيَكُونُ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُجعَلَ أَوْ يُنْكَرَ أَوْ يُسْتَغْرَبَ، أَوْ يَكُون المَعْنَىٰ ممَّا يُرِيدُ المُتَكَلِّمُ تَقْرِيرَهُ فِي

كَقَوْلِكَ لِصَاحِبِكَ، وَقَدْ رَأَيْتَ شَبَحًا مِنْ بَعِيدٍ: «مَا هُوَ إِلَّا زَيْدٌ»، إِذَا وَجَدْتَهُ يَعْتَقِدُ غَيْرَ زَيْدٍ، وَيُصِرُّ عَلَىٰ الْإِنْكَارِ. وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٦٢][(١)].

[صُوَرٌ مِنَ العُدُولِ عَنْ مُقْتَضَى ظَاهِرِ الحَالِ][(٢)]

وَقَدْ يُنَزَّلُ الْمَعْلُومُ مَنْزِلَةَ المَجْهُولِ لِاعْتِبَارٍ مُنَاسِبٍ، فَيُسْتَعْمَلُ لَهُ الثَّانِي إِفْرَادًا نَحْوَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]؛

النَّفْسِ لِجَلِيلِ قَدْرِهِ، أَوْ لِأَنَّ حَالَ المُخَاطَبِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِهِ مُخَالِفٌ لِمَا يَقْتَضِيهِ عِلْمُهُ بِهِ، فَهَذِهِ بَعْضُ المَقَامَاتِ الَّتِي يَأْتِي الْقَصْرُ فِيهَا بِطَرِيقِ «الاسْتِثْنَاءِ المُفَرَّغِ».

(١) جَاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي سِيَاقِ سُورَةِ صَفَاءِ التَّوحِيدِ، وَكَمَالِ الاصْطِفَاءِ «سُورَةِ آلِ عِمْرَان»: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران: ٦٢ – ٦٣].

وَأَنْتَ تَلْحَظُ أَنَّ الآيَةَ اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ ثَلَاثِ صُوَرٍ مِنَ الْقَصْرِ: الْأُولَىٰ وَالثَّانِيَة اتَّفَقَتَا فِي طَرِيقِ الْقَصْرِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تَعْرِيفِ الطَّرَفَيْنِ مَعَ ضَمِيرِ الْفَصْلِ وَتَوَسَّطَ بَيْنَهُمَا الْقَصْرُ بـ«الاسْتِثْنَاءِ المُفَرَّغِ»: ﴿مَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ تَكَاثُفُ صُوَرِ الْقَصْرِ وَتَوَالِيهَا لِتَقْرِيرِ حَقِيقَةِ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَهَذِهِ الحَقِيقَةُ أَهَمُّ الْحَقَائِقِ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ الْحَقَائِقِ الْأُخْرَىٰ مَبْنِيَّةٌ عَلَيْهَا، فَهِيَ «الْأَسَاسُ»، وَهِيَ «مِفْتَاحُ بَابِ الجَنَّةِ»، وَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا أَكْثَرُ الْحَقَائِقِ ظُهُورًا، وَأَكْثَرُهَا دَلَائِلَ عَلَيْهَا فِي كُلِّ شَيْءٍ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ هِيَ الَّتِي عَانَدَ فِيهَا كُفَّارُ مَكَّةَ، وَمَا عَانَدُوا سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شَيْءٍ كَمِثْلِ مَا عَانَدُوهُ فِيهَا.

وَهَذَا يُبَيِّنُ لَكَ عَظِيمَ قَدْرِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَعَظِيمَ عِنَادِ الْكَافِرِينَ فِيهَا، وَمِنْ ثَمَّ جَاءَتْ الصُّورَةُ عَلَىٰ نَحْوٍ بَالِغِ الْوَكَادَةِ، وَكَانَتْ جَدِيرَةً بِأَنْ يُعْرَبَ عَنْهَا بِأَقْوَىٰ طُرُقِ الْقَصْرِ «النَّفْيِ وَالاسْتِثْنَاءِ: الاسْتثناءِ المُفَرَّغِ» وَجَاءَ قَوْلُهُ: «مِنْ» المُفِيدُ الْعُمُومِ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ، فَنَفَتْ الآيَةُ كُلَّ صُوَرِ تَأْلِيهِ غَيْرِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَأَثْبَتَتْ كُلَّ صُوَرِهِ وَاسْتِحْقَاقَاتِه للهِ رَبِّ الْعَالَمِين.

(٢) إِذَا مَا كَانَتْ حَقِيقَةُ «الْبَلَاغَةِ» كَمَا أَنْتَ بِذَلِكَ عَلِيمٌ فَهِيمٌ: «مُطَابَقَةُ الْكَلَامِ الْفَصِيحِ مُقْتَضَىٰ الْحَالِ»؛ فَإِنَّ الْحَالَ أَيًّا كَانَ صَاحِبُهُ، لَهُ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ، وَالْغَالِبُ أَنْ يُرَاعَىٰ ظَاهِرُ الْحَالِ، وَقَدْ يَأْتِي مَا يُوجِبُ مُرَاعَاةَ بَاطِنِ الحَالِ، وَهُنَا يَكُونُ الْبَيَانُ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ مَزِيدٍ مِنَ اللَّقَانَةِ وَالْفِرَاسَةِ، لِيَكُونَ مُطَابِقًا بَاطِنَ الْحَالِ، وهَذَا لَا يُحَقِّقُهُ إِلَّا بَلِيغٌ خِرِّيتٌ

أَيْ أَنَّهُ مَقْصُورٌ عَلَىٰ الرِّسَالَةِ لَا يَتعدَّاهَا إِلَىٰ التَّبَرِّي مِنَ الهَلَاكِ. نَزَّلَ اسْتِعْظَامَهُمْ هَلَاكَهُ مَنْزِلَةَ إِنْكَارِهِمْ إِيَّاهُ(١).

وَنَحْوُهُ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٢٢ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٢ – ٢٣] فَإِنَّهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ لِشِدَّةِ حِرْصِهِ عَلَىٰ هِدَايَةِ النَّاسِ يُكَرِّرُ دَعْوَةَ المُمْتَنِعِينَ عَنِ الْإِيْمَانِ، وَلَا يَرْجِعُ عَنْهَا، فَكَانَ فِي مَعْرِضِ مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَمْلِكُ مَعَ صِفَةِ الْإِنْذَارِ إِيجَادَ الشَّيْءِ فِيْمَا يَمْتَنِعُ قَبُولَهُ إِيَّاهُ(٢).

(١) جاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي سِيَاقِ سُورَةِ «آلِ عِمْرَان»: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٤٤ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤ – ١٤٥]

وَكَانَ نُزُولُهَا فِي سِيَاقِ مَا كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ «أُحُد» فَكَانَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ أَنْ بَيَّنَ لَهُمْ مَا يَجْعَلُ إِيمَانَهُمْ صَفِيًّا، لَا يُعَلِّقُونَ أَقْدَارَهُمْ وَمَصَائِرَهُمْ، وَأَقْدَارَ الدَّعْوَةِ بِغَيْرِ اللهِ ﷻ، فَالأَمْرُ للهِ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ فِيهِ شَيْءٌ، فَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ، شَأْنُهُ شَأْنُ كُلِّ رَسُولٍ وَكُلِّ مَخْلُوقٍ.

هَذِهِ حَقِيقَةٌ الصَّحَابَةُ هُمْ بِهَا عَالِمون، وَكَانَ مُقْتَضَىٰ هَذَا أَلَّا يَكُونُ مِنْهُمْ مَا كَانَ مِنْ بَعْضِهِمْ يَوْمَ «أُحُدٍ» مِنْ تَأَثُّرٍ مُفْسِدٍ مِنْ بَعْضٍ، فَنَزَّلَهُمْ مَنْزِلَةَ مَنْ يَجْهَلُ تِلْكَ الْحَقِيقَةَ، فَظَاهِرُ الْعَقْلِ أَنَّهُ وَثِيقُ الْإِيمَانِ بِهَا، وَلَكِنْ حَالُهُمْ وَتَصَرُّفُهُمْ كَانَ عَلَىٰ غَيرِ ذَلِك، فَصِيغَتْ الآيَةُ عَلَىٰ مَا يَقْتَضِيهِ بَاطِنُ الْحَالِ، لَا ظَاهِرَ الْعِلْمِ الْعَقْلِيِّ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ.

(٢) جَلِيٌّ لاَ يَخْفَىٰ بَتَّةً عَلَيْكَ أَنَّ سَيِّدَنَا النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيمٌ بِأَنَّهُ نَذِيرٌ لاَ يَمْلِكُ إِلاَّ هِدَايَةَ الإِبَانَةِ بِتَمْلِيكِ اللهِ تَعَالَىٰ لَهُ، وَلَا يَمْلِكُ هِدَايَةَ الإِعَانَةِ وَالتَّوْفِيقِ والتَّسْدِيد. إِنْ هِيَ إِلَّا للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. حَقِيقَةٌ رَاسِخَةٌ فِي فُؤَادِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ هِيَ مَمْزُوجَةٌ بِهِ نَفْسًا وَعَقْلًا وَقَلْبًا وَرُوحًا، لَا تَغِيبُ عَنْهُ بَتَّةً. وَفِي الْقُرْآنِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ تُقَرِّرُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ.

بَيْدَ أَنَّ مَنْ يَرَاهُ حَرِيصًا عَلَىٰ أَنْ يُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ شَفَقَةً عَلَيْهِم يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَظُنُّ أَنَّهُ مَسْؤُولٌ عَنْ عَدَمِ هِدَايَتِهِمْ هِدَايَةَ سُلُوكٍ لَا هِدَايَةَ تَبْيِينٍ فَحَسْبُ ،وَمَا هُوَ كَذَلِكَ – مَعَاذَ اللهُ تَعَالَىٰ – أَنْ يَكُونَ مِنْهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي يَظُنُّ ذَلِكَ لَيْسَ هُوَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

أَوْ قَلْبًا كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ حِكَايَةً عَنْ بَعْضِ الْكُفَّارِ: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]؛ أَيْ: أَنْتُمْ بَشَرٌ لَا رُسُلٌ. نَزَّلُوا الْمُخاطَبِينَ مَنْزِلَةَ مَنْ يُنْكِرُ أَنَّهُ بَشَرٌ لِاعْتِقَادِ الْقَائِلِينَ أَنَّ الرَّسُولَ لَا يَكُونُ بَشَرًا مَعَ إِصْرَارِ الْمُخَاطَبِينَ عَلَىٰ دَعْوَىٰ الرِّسَالَةِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ حِكَايَةً عَنِ الرُّسُلِ: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١] فَمِنْ مُجَارَاةِ الْخَصْمِ لِلتَّبْكِيتِ والْإِلْزَامِ وَالْإِفْحَامِ، فَإِنَّ مِنْ عَادَةِ مَنِ ادَّعَىٰ عَلَيْهِ خَصْمُهُ الخِلَافَ فِي أَمْرٍ هُوَ لَا يُخَالِفُ فِيهِ أن يُعِيدَ كَلَامَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ، كَمَا إِذَا قَالَ لَكَ مَنْ يُنَاظِرُكَ: «أَنْتَ مِنْ شَأْنِكَ كَيْتَ وَكَيْتَ» فَتَقُولُ: «نَعَمْ أَنَا مَنْ شَأْنِي كَيْتَ وكَيْتَ، وَلَكِنْ لا يَلْزَمُنِي مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَا ظَنَنْتَ أَنَّهُ يَلْزَمُ»، فَالرُّسُلُ -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- كَأَنَّهُمْ قَالُوا: «إِنَّ مَا قُلْتُمْ مِنْ أَنَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ هُوَ كَمَا قُلْتُمْ لا نُنْكِرُهُ، وَلَكِنْ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ اللهُ تَعَالَىٰ قَدْ مَنَّ عَلَيْنَا بِالرِّسَالَةِ.

وَأَصْلُ الثَّالِثِ أَنْ يَكُونَ مَا اسْتُعْمِلَ لَهُ مِمَّا يَعْلَمُهُ الْمُخَاطَبُ، وَلَا يُنْكِرُهُ عَلَىٰ عَكْسِ الثَّانِي[1].

بَلْ مَنْ يَرَىٰ اجْتِهَادَهُ فِي الدَّعْوَةِ، فَالقَوْلُ بِأَنَّهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الَّذِي يَظُنُّ أَنَّهُ يَمْلِكُ مَعَ صِفَةِ الإِنْذَارِ إِيجَادَ الشَّيْءِ فِيمَا يَمْتَنِعُ قَبُولُهُ إِيَّاهُ، إِنمَّا هُوَ قَوْلٌ غَيْرُ حَكِيمٍ، التَّأْكِيدُ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ۝ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٢ - ٢٣] لَيْس مُرَاعَاةً لِمُقْتَضَىٰ حَالِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَلْ مُرَاعَاةً لِمَا قَدْ يَظُنُّهُ بِهِ مَنْ يَرَاهُ عَلَىٰ ذَلِكَ الاجْتِهَادِ فِي تَحْقِيقِ الدَّعْوَةِ، وَتَحْقِيقِ كَمَالِ هِدَايَةِ الإِبَانَةِ، فَعِبَارَةُ «صَاحِبِ الإِيضَاحِ» غَيْرُ حَكِيمَةٍ عِنْدِي.

(١) يُشِيرُ إِلَىٰ أَنَّ الطَّرِيقَ الثَّالِثَ «إِنّمَا» الأَصْلُ فِيهِ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي سِيَاقِ الْمَعْنَىٰ الَّذِي مِنْ شَأْنِه ألاَّ يُنْكَرَ أَوْ يُجْهَلَ أَوْ يُتَوَقَّفَ فِي التَّسْلِيمِ بِهِ، وَأَنْ يُسْتَعْمَلَ مَعَ المُخَاطَبِ خَلِيِّ الذِّهْنِ الَّذِي يُصْغِي إِلَيْكَ، وَلَيْسَ فِي عَقْلِهِ مُقَرَّرَاتٌ مُنَاقِضَةٌ أَوْ مُنَاهِضَةٌ أَوْ مُعَارِضَةٌ مَا أَنْتَ مُخَاطِبُهُ بِهِ. وَهَذَا يَقْتَضِي

كَقَوْلِكَ: «إِنَّمَا هُوَ أَخُوكَ»، «وَإِنَّمَا هُوَ صَاحِبُكَ الْقَدِيمُ» لِمَنْ يَعْلَمُ ذَلِكَ ويُقِرُّ بِهِ، وَتُرِيدُ أَنْ تُرَقِّقَهُ عَلَيْهِ، وَتُنَبِّهَهُ لِما يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّ الْأَخِ وَحُرْمَةِ الصَّاحِبِ.

وَعَلَيهِ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ:

إِنَّمَا أَنْتَ وَالِدٌ وَالْأَبُ الْقَا طِعُ أَحْنَىٰ مِنْ وَاصِلِ الْأَوْلَادِ[1]

لَمْ يُرِدْ أَنْ يُعْلِمَ كَافُورًا أَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ، وَلَا ذَاكَ مِمَّا يَحْتَاجُ كَافُورٌ فِيهِ إِلَىٰ الْإِعْلَامِ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُذَكِّرَهُ مِنْهُ بِالْأَمْرِ المَعْلُومِ، لِيَبْنِي عَلَيْهِ اسْتِدعَاءَ مَا يُوجِبُهُ.

أَنْ يَكُونَ المُعرِبُ بـ«إِنَّمَا» كَمَا هُوَ خَبِيرٌ بِمَعْنَاهُ أَنْ يَكُونَ خَبِيرًا بِحَالِ مَنْ يُخَاطِبُهُ ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ؛ لِيَكُونَ اسْتِعْمَالُهُ «إِنَّما » فِي مُخَاطَبَتِهِ نَجِيعًا فَعِيلًا بَالِغًا مَقْصِدَهُ وَمَغْزَاهُ مِنْ بَيَانِهِ فِي يُسْرٍ، ذَلِكَ مَا تَقْضِيه سِيَاسَةُ التَّخَاطُبِ، والتَّحَاوِرِ، فَلَيْسَ الأَهَمُّ وَحْدُهُ أَنْ تَكُونَ مُقْتَدِرًا عَلَىٰ أَنْ تَقُولَ، بَلْ لَابُدَّ أَنْ تَكُونَ حَكِيمًا ذَا سِيَاسَةٍ نَاجِعَةٍ تَسُوسُ بِهَا مَعَانِيكَ وَبَيَانَك عَنْها؛ لِتَسُوسَ بِهَا مَنْ تُخَاطِبُهُ إِلَىٰ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ لَكَ وَلَهُ وَلِلْأَئِمَّةِ جَمْعَاء. تِلْكَ مَسْؤُولِيَّةُ الْبَيَانِ الَّذِي امْتَنَّ عَلَيْكَ اللهُ تَعَالَىٰ بِتَعْلِيمِهِ إِيَّاهُ.

(١) الْبَيْتُ الثَّامِنُ مِنْ قَصِيدَةٍ مَطْلَعُهَا:

حَسَمَ الصّلْحُ مَا اشْتَهَتْهُ الأَعادي وَأَذَاعَتْـهُ أَلْسُـنُ الْحُسَّـادِ

قَالَهَا لمَّا عَمَدَ غِلْمَانٌ لِابْنِ الإِخْشِيدِ غُلَامَ كَافُور أَنْ يَعِيثُوا لِيُفْسِدُوا عَلَىٰ كَافُور، فَأَمَرَهُ كَافُورُ أَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْهِ، فَسَلَّمَهُم الإِخْشِيدَ، واصْطَلَحَا، فَاسْتَهَلَّ المُتَنَبِّي الْقَصِيدَةَ بِمَا سَمِعْتَ، وَهُوَ يَشْفَعُ لِابْنِ الإِخْشِيدِ عِنْدَ كَافُور بِتَذْكِيرِ كَافُور أَنَّهُ الَّذِي رَعَىٰ ابْنَ الإِخْشِيد، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الوَالِدِ مِنْهُ، وَمَهْمَا غَضِبَ الوَالِدُ عَلَىٰ وَلَدِهِ الْقَاطِعِ، فَهُوَ الأَحَنُّ مِنَ الْوَلَدِ الْوَاصِلِ، فَلَا يَكُنْ مِنْكَ لَهُ كَمِثْلِ مَا كَانَ لَهُ مِنْكَ.

وَحَقِيقَةُ أَنَّ الْوَالِدَ الْقَاطِعَ أَحْنَىٰ مِنَ الْوَلَدِ الْوَاصِلِ حَقِيقَةٌ غَيْرُ مَدْفُوعَةٍ، وَلَا يُحتَاجُ إِلَىٰ الإِعْلَامِ بِهَا، فَلَيْسَ قَصْدُ الْمُتَنَبِّي إِعْلَامَ كَافُور بِمَا لَا يَعْلَمُ، وَإِنَّمَا يَسْتَحِثُّهُ، وَيُغْرِيهِ بِمَا وَرَاءَ ذَلِكَ: بِمَا تَقْتَضِيهِ تِلْكَ الْحَقِيقَةُ: العَفْوُ وَالصَّفْحُ وَالإِصْلَاحُ.

وهَذَا مَا اقْتَضَىٰ الْمُتَنَبِّي اسْتِعْمَالَ(إِنَّمَا) الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي مَا هُوَ مَعْلُومٌ أَوْ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَكُونَ مَعْلُومًا، فَهُوَ هُنَا جَارٍ عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ ظَاهِرِ الحَالِ.

[الْعُدُولُ عَنْ ظَاهِرِ الْحَالِ]: وَقَدْ يُنَزَّلُ المَجْهُولُ مَنْزِلَةَ المَعْلُومِ لِادِّعَاءِ المُتَكَلِّمِ ظُهُورَه، فَيَسْتَعْمِلُ لَهُ الثَّالِثَ نَحْو: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١١] ادَّعَوا أَنَّ كَوْنَهُمْ مُصْلِحِينَ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ؛ وَلِذَلِكَ جَاءَ: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٢] لِلرَّدِّ عَلَيْهِمْ مُؤَكَّدًا بِمَا تَرَىٰ مِنْ جَعْلِ الجُمْلَةِ اسْمِيَّةً وَتَعْرِيفِ الْخَبَرِ بِاللَّامِ وَتَوْسِيطِ الْفَصْلِ وَالتَّصْدِيرِ بِحَرْفِ التَّنْبِيهِ، ثُمَّ بِإِنَّ[1].

---

(١) قَدْ يَكُونُ الأَمْرُ مَجْهُولاً أَوْ مَدْفُوعًا غَيْرَ مُسَلَّمٍ، إلاَّ أَنَّك تَذْهَبُ إِلَىٰ هَذَا شَأْنُهُ أَنْ يَكُونَ مُسَلَّمًا، فَلَا تَلْتَفِتْ إِلَىٰ حَالِ الإنْكَارِ، وَالدَّفْعِ، فَتُجْرِيَهُ عَلَىٰ مَا تَزْعُمُ أَنَّهُ حَقُّه أَنْ يُسَلَّمَ، لِقُوَّةِ الْقَرَائِنِ عَلَيْه، فَتَسُوقَ الْكَلَامَ مَسَاقَ مَا هُوَ مَعْلُومٌ مُسَلَّمٌ، فَتَسْتَعْمِلَ لَهُ الأَدَاةَ الَّتِي أَصْلُهَا أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي «الْمَعْلُومِ» المُسَلَّمِ: (إِنَّما) فَهَذَا عُدُولٌ عَنْ الأَصْلِ، وَتَنْزِيلٌ لِلْمَجْهُولِ مَنْزِلَةَ المَعْلُومِ المُسَلَّمِ، ادِّعَاءً بِأَنَّ حَقَّهُ أَلَّا يُجْهَلَ أَوْ يُنْكَرَ، وَتَعْرِيضًا بِمَا جَهِلَهُ، أَوْ أَنْكَرَهُ، وَأَنَّه مُخَالِفٌ فِي صَنِيعِه مَا هُوَ المُقْتَضَىٰ.

وَذَلِكَ مَا أَنْتَ تَرَاهُ فِي دَعْوَىٰ «المُنَافِقِينَ» حِينَ دُعُوا إِلَىٰ تَرْكِ «الإِفْسَادِ» فِي الأَرْضِ، فَاشْتَطُّوا فِي الرَّدِّ، وادَّعَوْا أَنَّ دَعْوَتَهُمْ إِلَىٰ تَرْكِ الإِفْسَادِ دَعْوَةٌ فِي غَيْرِ مَحلِّهَا؛ لِأَنَّهَا وُجِّهَتْ إِلَىٰ مَنْ لَيْسَ لَهُ مِنَ الإِفْسَادِ شَرْوَىٰ نَقِيرٍ، فَأَجَابُوا مَنْ دَعَوْهُمْ أَنْ يَتْرُكُوا الإِفْسَادَ جَوَابًا مَمْزُوجًا بِالتَّعْرِيضِ بِمَنْ دَعَا: إِنَّهُمْ لَا يُحْسِنُونَ العِلْمَ بِمَا هُوَ إِصْلَاحٌ، وَمَا هُوَ إِفْسَادٌ، فَهُمْ يَظُنُّونَ الصَّلَاحَ فَسَادًا، وَالمصْلِحِينَ مُفْسِدِينَ، كَأَنَّ المُنَافِقِينَ فِي رَدِّهِمْ يَطْعَنُونَ مَنْ يَقُولُ لَهُمْ: ﴿ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١١] لَيْسُوا بِذَوِي بَصِيرَةٍ تُفَرِّقُ بَيْنَ المُفْسِدِ وَالمُصْلِحِ، فَقَالُوا: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١١] ، ادَّعَوْا أَنَّهُمْ مُصْلِحُون، وَنَفَوْا عَنْ أَنْفُسِهِمْ الإِفْسَادَ الَّذِي يَنْهَوْنَ عَنْهُ، وَبَالَغُوا فَأَعْرَبُوا بِالِاسْمِ «مُصْلِحُون» إِيمَاءً إِلَىٰ أَنَّ هَذَا الإِصْلَاحَ غَدَا صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِم ثَابِتَةً فِيهِمْ لَا تَتَخَلَّىٰ عَنْهُمْ، وَلَا يَتَخَلَّوْنَ عَنْهَا، وَهَذَا مِنْ مَكْرِهِمْ. كَمَا هُوَ شَأْنُ كُلِّ عَنِيدٍ مَرِيدٍ.

قَصَرُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَىٰ الإِصْلَاحِ، وَنَفَوْا عَنْهَا الإِفْسَادَ، قَصْرَ قَلْبٍ. إِنْ ذَهَبْتَ إِلَىٰ أَنَّ المُنَافِقِينَ حَسِبُوا أَنَّ دَاعِيَهُم يَذْهَبُ إِلَىٰ أَنَّهُم خَلُصُوا لِلإِفْسَادِ، وَلَيْسَ مِنْهُمْ مَعَهُ إِصْلَاحٌ، فَقَلَبُوا عَلَيْهِمْ مَا حَسِبُوهُ مِنْهُمْ.

وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَهُ مِنْ قَبِيلِ الإِفْرَادِ إِنْ ذَهَبْتَ إِلَىٰ أَنَّ المُنَافِقِينَ يَحْسِبُونَ أَنَّ مَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ تَرْكِ الإِفْسَادِ عَلَىٰ مَظِنَّةِ أَنَّهُمْ الجَامِعُونَ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ: الإِصْلَاحِ والإِفسَادِ، وَأَرَادُوا مِنْهُمْ أَنْ يُخْلِصُوا لِلإِصْلَاحِ، وَجَاءَ الرَّدُّ عَلَىٰ ادِّعَائِهِمْ المَفْضُوحِ بِلِسَانِ حَالِهِم ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٢] مُسْتَهلًا بـ(إِلَّا) المُسْتَفْتِحَةِ مَغَالِيقَ القُلُوبِ والعُقُولِ، والمُنْبِئَةِ بِأَنَّ مَا هُوَ آتٍ أَهْلٌ لِأَنْ يُتَلَقَّىٰ بِكُلِّ اليَقَظَةِ

وَمِثْلُهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ(١):

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ اللهِ ... تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظَّلْمَاءُ

ادَّعَىٰ أَنَّ كَوْنَ مُصْعَبَ كَمَا ذَكَرَ جَلِيٌّ مَعْلُومٌ لِكُلِّ أَحَدٍ عَلَىٰ عَادَةِ الشُّعَرَاءِ إِذَا مَدَحُوا أَنْ يَدَّعُوا فِي كُلِّ مَا يَصِفُونَ بِهِ مَمْدُوحِيهِم الجَلاءَ، وَأَنَّهُمْ قَدْ شُهِرُوا

والاعْتِنَاءِ، فَإِنَّهُ الْحَقُّ المُبِينُ، وَلَمْ يَقُلْ لَهُم: (أَلَا إِنَّكُم) أَعْرَضَ عَنْ خِطَابِهِمْ، تَعْرِيضًا بِهِمْ أَنَّهُم لَيْسُوا بِأَهْلٍ لأَنْ يُخَاطَبُوا، إِنَّهُم الغَائِبُونَ عَنْ مَسَاقِ الإِصْلَاحِ، فَلْيَكُونُوا- أَيْضًا - الغَائِبِينَ عَنْ مَسَاقِ الخِطَابِ، فِي العُدُولِ عَنِ الخِطَابِ إِلَىٰ الْغَيْبَةِ مُطَابَقَةً لِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ تَعْرِيضٍ بِمَنْ نَهَوْهُم عَنِ الإِفْسَادِ فِي الأَرْضِ، وَمُطَابَقَةً لِفُجُورِهِمْ فِي ادِّعَاءِ مَا يَفْضَحُهُم عَلَىٰ رُؤُوسِ الأَشْهَادِ لِسَانُ حَالِهِم، حَالُهُم لَا يَعْرِفُ إِلَّا الإِعْرَابَ عَنْ إِفْسَادِهِمْ؛ لِأَنَّهُ هُوَ القَائِمُ فِيهِم، فَكَانَ تَعَانُدٌ بَيْنَ مَا يُعْرِبُ عَنْهُمْ لِسَانُ مَقَالِهِم، وَمَا يُعْرِبُ عَنْهُ لِسَانُ حَالِهِم، وَذَلِكَ مُتَوَافِقٌ بَلْ مُتَآنِسٌ مَعَ طَبِيعَةِ نِفَاقِهِم، وَأَكَّدَ الرَّدَ عَلَيْهِمْ كَذَلِكَ بـ(إِنَّ) وَضَمِيرِ الفَصْلِ (هُمْ) الْحَامِلِ رَدًّا عَلَىٰ تَعْرِيضِهِمْ بِمَنْ دَعَوْهُمْ إِلَىٰ تَرْكِ الإِفْسَادِ، وَهُوَ يَتَآخَىٰ مَعَ قَوْلِه بَعْدَ: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢] وَتَعْرِيفُ المُسْنَدِ، وَجَعْلُهُ اسْمًا لِلإِعْلَامِ بِأَنَّ الفَسَادَ هُوَ الصِّفَةُ المَمْزُوجَةُ بِهِم مَزْجًا لَا سَبِيلَ لَهُمْ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْهُ، وَفِي هَذَا- أَيْضًا -تَيْئِيسٌ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْ يَطْمَعُوا فِي صَلَاحِهِمْ، فَهُوَ مُلْتَفِتٌ إِلَىٰ قَوْلِه مِن بَعْدِ: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٧٥]، وَهَذَا مِنْ بَابِ: «تَلَاحُظِ المَعَانِي» وَهُوَ بَابٌ دَقِيقٌ عَمِيقٌ عَرِيضٌ، فَقَوْلُه: ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: ١٢] قَصْرٌ لَهُمْ عَلَىٰ الإِفْسَادِ قَصْرَ مَوصُوفٍ عَلَىٰ صِفَةٍ قَصْرًا إِضَافِيًّا لِلْقَلْبِ، وَطَرِيقُهُ «تَعْرِيفُ الطَّرَفَيْنِ»، وَتَذْيِيلُ الآيَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ تَكْثِيفٌ لِثَلْمِهِم، وَكَشْفٌ لِحَقِيقَتِهِم، وَفَقْدِهِم مُجَرَّدَ «الشُّعُورِ» الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ دَرَجَاتِ الْعِلْمِ، وَهُوَ مُتَحَقِّقٌ لِلأَنْعَامِ، فَكَأَنَّهُم بِمَا قَالُوا أَعْرَبُوا عَنْ أَنَّهُمْ بَلَغُوا حَدًّا فِي الغَفْلَةِ تَجَاوَزُوا بِهِ مَا كَانَ لِلأَنْعَامِ مِنْهَا، وَهَذَا يَلْحَظُ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

(١) الْبَيْتُ لِعُبَيْدِ اللهِ بْنِ قَيْس المعْرُوفُ بِابْنِ قَيْسِ الرُّقَيَّات، وَإِنَّمَا نُسِبَ إِلَىٰ الرُّقَيَّات؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُشَبِّبُ بِثَلاثِ نِسْوَةٍ اسْمُ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ «رُقَيَّةُ»، مِنْ قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ بِهَا سَيِّدَنَا مُصْعَبَ بْنَ الزُّبَيْرِ رضِيَ اللهُ عَنْهما، مَطْلَعُهَا:

أَقْفَرَتْ مِنْ آلِ عَبدِ شَمسٍ كَدَاءُ ... فَكُدَيٌّ فَالرُّكْنُ فَالبَطْحَاءُ

بِهِ حَتَّىٰ أَنَّهُ لَا يَدْفَعَهُ أَحَدٌ[1].

كَمَا قَالَ الآخَرُ:

وَتَعْذِلُنِي أَفْنَاءُ سَعْدٍ عَلَيْهِمُ ... وَمَا قُلْتُ إِلَّا بِالَّذِي عَلِمَتْ سَعْدُ[2]

---

(١) مِنْ بَعْدِ هَذَا الْبَيْت قَوْلُهُ:

مُلْكُهُ مُلْكُ قُوَّةٍ، ليسَ فيهِ ... جبروتٌ، وَلَا بِهِ كِبْرِيَاءُ

يتَّقِي اللهَ فِي الأُمُورِ، وَقَدْ أَفْلَحَ ... مَنْ كَانَ هَمُّه الاتِّقَاءُ

قَصَرَ الشَّاعِرُ مُصْعَبًا عَلَىٰ كَوْنِهِ شِهَابًا مِنَ اللهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظَّلْمَاءُ قَصْرَ مَوصُوفٍ عَلَىٰ صِفَةٍ.
وهَذَا المَعْنَىٰ قَدْ يَكُونُ مَحَلَّ مُنَازَعَةٍ، فَلَا يُسَلَّمُ، وَكَانَ ظَاهِرُ أَمْرِهِ أَلَّا يكُون الْقَصْرُ بـ(إِنَّما) لكِنَّ الشَّاعِرَ ادَّعَىٰ أَنَّ تِلْكَ الصِّفَةَ لمَّا كَانَتْ لمُصْعَبٍ، كَانَ حَقُّهَا أَنْ تَكُونَ مُسَلَّمَةً، لَا يَتَوقَّفُ فِيهَا مُنْصِفٌ فَضْلًا عَنْ أَنْ يُنَازَعَ، وَرِعَايَةً لحقِّ الصِّفَةِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ كَانَ حَرِيًّا أَنْ يَكُونَ الْقَصْرُ بـ(إِنَّما) وَلَوْ أَنَّهُ رَاعَىٰ حَقَّ الصِّفَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ، لَا مِنْ حَيْثُ هِيَ صِفَةُ مُصْعَبٍ، لَقَالَ: «مَا هُوَ إِلَّا شِهَابٌ»، وَحِينَئِذٍ يُنَزَّلُ القَوْلُ فِي مَقَامِ المَدْحِ مَنزِلاً لَا يَليقُ بِمُصْعَبٍ.
مُصْعَبُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ هَذِهِ الصِّفَةَ ذَاتَ استِحقَاقٍ أَنْ تُسَلَّمَ، وَلَا تُنَازَعَ، وَغَيْرُهُ لَيْسَ بِملكِهِ أَنْ يَفْعَلَ فِيهَا ذَلِكَ الفِعْلَ. لَوْ كَانَ المَمْدُوحُ غَيْرَ مُصْعَبٍ، لَوَجَبَ أَنْ يَقُولَ: مَا فُلانٌ إِلَّا شِهَابٌ...أَرَأَيْتَ كَيْفَ مُصْعَبٌ فِي الأَشْيَاءِ؟ أَيُّ رَجُلٍ هَذَا؟ أَفِي زَمَانِنَا مِثْلُهُ؟!!! كَمَالُ الثَّنَاءِ أَوْ إِنْ شِئْتَ كَمَالُ الصِّدْقِ فِي الْوَصْفِ أَوْجَبُ أَنْ يَكُونَ الْقَصْرُ بـ(إِنَّمَا)؛ لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تُقَرِّرُ أَنَّ هَذَا المَعْنَىٰ عَلَىٰ الرَّغمِ مِنْ غَرابَتِهِ فِي نَفْسِهِ هُوَ بالنِّسْبَةِ لمُصْعَبٍ لَيْسَ بِمَجْهُولٍ أَوْ مُتَوَقَّفٍ فِيهِ.

(٢) الْبَيْتُ لِلْحُطَيْئَة: جُرُولُ بْنُ أَوْسِ بْنِ مَالِكٍ أَبُو مُلَيْكَةَ العَبْسِيِّ شَاعِرٌ مُخَضْرَمٌ (ت: ٤٥ هـ)، والْبَيْتُ مِنْ قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ بِهَا بَنِي بَغِيضٍ بْنِ شَمَاسٍ مِنْ بَنِي أَنْفِ النَّاقَةِ. وَيَهْجُو الزِّبْرَقَانِ بْنِ بَدرٍ وَقَومَهُ، وَالقَوْمَانِ أَبْنَاءُ عَمٍّ مِنْ سَعْدِ بْنِ مَنَاة، وَقَبْلَهُ:

أُوْلَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا البِنَا ... وَإِنْ عَاهَدُوا أَوْفَوْا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا

وَإِنْ كَانَتْ النُّعْمَىٰ عَلَيْهِمْ جَزَوْا بِهَا ... وَإِنْ أَنْعَمُوا لَا كَدَرُوهَا وَلَا كَدُّوا

وَتَعذِلُنِي أَفْنَاءُ سَعْدٍ عَلَيْهِمُ ... وَمَا قُلتُ إِلَّا بِالَّذِي عَلِمَتْ سَعْدُ

يَزْعُمُ الحُطَيْئَةُ أَنَّ الَّذِي قَالَ فِي مَنْ مَدَحَ إِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ لَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ أَنْ يَدْفَعَهُ، فَمَا قَالَ إِلَّا بِالَّذِي هُوَ مَعْلُومٌ مَشْهُورٌ.
قَوْلُهُ: «وَمَا قُلْتُ إِلَّا...» قَصْرُ مَوصُوفٍ عَلَىٰ صِفَةٍ قَصْرًا إِضَافِيًّا» قَصَرَ قَوْلَهُ عَلَىٰ صِفَة هِيَ أَنَّه مَعْلُومٌ

وَكَمَا قَالَ الْبُحْتُرِيُّ:

لَا أَدَّعِـي لِأَبِـي الْعَـلَاءِ فَضِيلَـةً ... حَتَّـىٰ يُسَـلِّمُهَا إِلَيْـهِ عِـدَاهُ[1]

[مَزِيَّةُ «إِنَّمَا» عَلَىٰ «طَرِيقِ الْعَطْفِ»] وَاعْلَمْ أَنَّ لِطَرِيقِ «إِنَّمَا» مَزِيَّةً عَلَىٰ طَرِيقِ «العَطْفِ»، وَهِيَ أَنَّهُ يُعْقَلُ مِنْهَا إِثْبَاتُ الفِعْلِ لِشَيْءٍ وَنَفْيِهِ عَنْ غَيْرِهِ دَفْعَةً وَاحِدَةً بِخِلَافِ «العَطْفِ»[2].

مَشْهُورٌ مشهودٌ لَهُ، وَفِي هَذَا مِنَ المُبَالَغَةِ أَنَّه لَا يَعْدُو فِي مَدْحِهِ أَنْ يَكُونَ مُسَجِّلًا مَا هُوَ مُسَلَّمٌ بِه، وَأَنَّهُمْ أَجَلُّ مِنْ أَنْ يُدَّعَىٰ فِي مَدْحِهِمْ مَا لَيْس فِيهِمْ، بَلْ مَا لَيْس مُسَلَّمًا لَهُمْ، فَهُمْ أَغْنِيَاءُ عَنْ أَنْ يُقَالَ فِيهِمْ مَا لَمْ يُشْتَهَرْ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ خِصَالِهِمْ، وَفِيهِ تَعْرِيضٌ بِمَنْ عَذَلَهُ فِي مَدْحِهِم. يُعَرِّضُ بِهِمْ أَنَّهُمْ لَيْسُوا حُكَمَاء يَضَعُونَ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوضِعِهِ: وَضَعُوا العَذْلَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، فَجَمَعَ الحُطَيْئَةَ فِي بَيْتِه بَيْنَ مَدْحٍ وَتَعْرِيضٍ، كُلٌّ عَلَىٰ وَجْهٍ جَاءَ مِنَ المُبَالَغَةِ المُمَكِّنَةِ لِلمَعَاني في الأَفْئِدَةِ. وَكَذَلِكَ الشِّعْرُ.

(١) لَيْسَ فِي بَيْتِ الْبُحْتُرِيِّ قَصْرٌ، وَإِنَّمَا جَاءَ بِهِ دَلَالَةً عَلَىٰ أَنَّ الشُّعَرَاءَ فِي مَدْحِهِمْ إِنَّمَا يَذْهَبُونَ إِلَىٰ أَنَّ مَا يَمْدَحُونَ بِهِ لَيْسَ أَمْرًا خَفِيًا، بَلْ هُوَ أَمْرٌ مُسَلَّمٌ مُقَرَّرٌ، يَدَّعِي أَنَّ الْمَمْدُوحِينَ لَا يُعْرَفُونَ بِسَبَبِ مَا يُقَالَ فِيهِمْ مْنْ أَشْعَارٍ، مَا الشُّعَرَاءُ بِمَدْحِهِمْ إِلَّا الْمُسْتَأْنِسُونَ بِمَدْحِهِمْ، الْمُتَلَذِّذُونَ بِأَنْ تَجْرِي مَنَاقِبُهُمْ عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِمْ كَمَا جَرَتْ فِي مَرْأَىٰ أَعْيُنِهِمْ وَاقِعًا مَشْهُودًا، فَأَمْرُ مَدْحِهِمْ يَعُودُ إِلَىٰ الْمَادِحِ لَا إِلَىٰ الْمَمْدُوحِ، وَهَذَا مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي الثَّنَاءِ. كَذَلِكَ الشُّعَرَاءُ.

(٢) هَذِهِ الْمَزِيَّةُ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَا يَدلُّ عَلَيْهِ كُلٌّ وَبِطَرِيقِ الدَّلَالَةِ.

فـ(إِنَّمَا) جَامِعَةٌ لَكَ الْإِثْبَاتَ وَالنَّفْيَ وَمَا وَقَعَ عَلَيْهِمَا فِي جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ، يُصَرِّحُ لَكَ بِالْإِثْبَاتِ وَالْمُثْبَتِ، وَيُلَوِّحُ بِالنَّفْيِ وَالمَنْفِيِّ، فَأَنْتَ تَسْلُكُ السَّبِيلَينِ: سَبِيلِ التَّصْرِيحِ وَسَبِيلِ التَّلْوِيحِ، وَالثَّانِي لَازِمٌ مِنْ لَوَازِمِ الْأَوَّلِ، وَهَذَا يُحَقِّقُ لِلْبَيَانِ وَجَازَتَهُ. وَوَجَازَةُ الْبَيَانِ تُحَقِّقُ لِلْمَعْنَىٰ اتِّسَاعَهُ فِي فُؤَادِ السَّامِعِ.

وَطَرِيقُ الْعَطْفِ يُصَرِّحُ لَكَ بِالْأَمْرَيْنِ مَعًا: الْإِثْبَاتِ وَالْمُثْبَتِ، وَالنَّفْيِ وَالْمَنْفِيِّ، وَفِي هَذَا تَوْضِيحٌ وَتَعْيِينٌ، وَهَذَا يَصْلُحُ فِي سِيَاقِ الْقَطْعِ بِالدِّلَالَةِ وَالْمَدْلُولِ، وَاسْتِعْمَالُ الْأَسَالِيبِ الْقَطْعِيَّةِ الدَّلَالَةِ لَهَا مَسَاقَاتُهَا الَّتِي تُشْرِقُ فِيهَا، فَلَيْسَتْ دَلَالَتُهُ عَلَىٰ الْأَمْرَيْنِ مَعًا أَدْنَىٰ بَلَاغَةً مِنَ الطَّرِيقِ الْجَامِعِ بَيْنَهُمْ فِي جُمْلَةٍ، فَكَثِيرًا مَا يَقْتَضِي الْمَقَامُ تَفْصِيلًا وَتَوْضِيحًا لِتَكُونَ الْمَعَانِي مُحْكَمَةً لَا يُتَوَهَّمُ غَيْرُهَا، وَهَذَا مُهِمٌّ فِي بَعْضِ الْمَسَاقَاتِ. فَلِكُلٍّ مَقَامُهُ الَّذِي يَحْسُنُ فِيه. فَالْاعْتِبَارُ بِالْمَقَامِ

[التَّعْرِيضُ أَحسَنُ مَواقِعِ «إِنَّما»][1]، وَإِذَا مَا اسْتَقْرَيْتَ وَجَدْتَهَا أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مَوقِعًا إِذَا كَانَ الْغَرَضُ بِهَا «التَّعْرِيضُ» بِأَمرٍ هُوَ مُقْتَضَىٰ مَعْنَىٰ الكَلَامِ

وَالْقَصْدِ، وَمَسَاقِ الْبَيَانِ.

أَوَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. جَمَعَ تَصْرِيحًا بَيْنَ جُمْلَةِ الإِثْبَاتِ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ وَجُمْلَةِ النَّفْيِ: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، وَكَانَ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ: (مَا يُرِيدُ اللهُ بِكُمْ إِلَّا الْيُسْرَ) أَوْ (إِنَّمَا يُرِيدُ بِكُمْ الْيُسْرَ) أَوْ (الْيُسْرَ يُرِيدُ بِكُمْ رَبُّكُمْ).

الْمَقَامُ يَقْتَضِي تَقْرِيرَ هَذَا الْمَعْنَىٰ فِي الْأَفْئِدَةِ لِتُقْدِمَ عَلَىٰ مَا تُكَلَّفُ بِهِ؛ أَيْ تُلْزَمُ بِصِنَاعَتِهِ تَعَبُّدًا لِإِقْبَالِ الْمُوقِنُ بِأَنَّ هَذَا الَّذِي أُلْزِمَ بِهِ إِنْ رَأَتْ فِيهِ النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ عُسْرًا وَتَضْيِيقًا، فَالْحَقُّ الْمُبِينُ أَنَّهُ لَا يَكُونُ مِنَ اللهِ ﷻ عَلَىٰ عِبَادِهِ تَعْسِيرٌ، فَهُوَ الَّذِي قَالَ لَهُمْ عَنْ نَفْسِهِ: «رَبُّ الْعَالَمِينَ»، وَلَا تَكُونُ التَّرْبِيَةُ بِالتَّعْسِيرِ، وَبِهَذَا إِذَا تَقَرَّرَ هَذَا الْمَعْنَىٰ فِي الْفُؤَادِ نَظَرَ فِي كُلِّ شَيْءٍ عَلَىٰ أَنَّهُ مِنْ أُفُقِ الْيُسْرِ، وَأَنَّهُ لَا تَعْسِيرَ فِيهِ، فَعُلُوُّ الْهِمَّةِ وصِدْقُ الْقَصْدِ يَجْعَلَانِ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا مُسَخَّرَةً مُيَسَّرَةً. وَهَذَا الْمَعْنَىٰ إِذَا اسْتَقَرَّ فِي الْفُؤَادِ اسْتَقَامَتْ لِصَاحِبِهِ الْحَيَاةُ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

جَمَعَ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ مَعَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ مُفِيدٌ لِلْقَصْرِ بِطَرِيقِ تَقْدِيمِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ ﴿ٱللَّهُ﴾ عَلَىٰ الْخَبَرِ الْفِعْلِيِّ، وَمِثْلُهُ: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ بَيْدَ أَنَّ الْقُرْآنَ جَمَعَ بَيْنَهُمَا تَصْرِيحًا؛ تَقْرِيرًا لِلْمَعْنَىٰ فِي فُؤَادِ السَّامِعِ لِعَظِيمِ أَهَمِّيَّةِ تَقْرِيرِ اخْتِصَاصِ اللهِ تَعَالَىٰ بِالْعِلْمِ الْمُحِيطِ، وَتَقْرِيرِ أَنَّ الْمَرْءَ مَهْمَا عَظُمَ شَأْنُهُ، فَإِنَّ مَا يَعْلَمُ فِي جَانِبِ مَا لَا يَعْلَمُ جِدُّ قَلِيلٌ، كَأَنَّهُ لَا يَكُونُ. وَهَذَا إِذَا تَقَرَّرَ فِي الْفُؤَادِ ازْدَادَ الْمَرْءُ ارْتِقَاءً فِي مَقَامِ الْعُبُودِيَّةِ وَالْقُنُوتِ للهِ تَعَالَىٰ وَإِسْلَامِ الْوَجْهِ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(١) «التَّعْرِيضُ» خِلَافُ التَّصْرِيحِ، وَهُوَ اسْتِعْمَالُ الْكَلَامِ تَلْوِيحًا فِي غَيْرِ مَعْنَاهُ الْمُصَرَّحِ بِهِ، لِمُقْتَضٍ. وَهَذَا يَلْزَمُهُ الْخَفَاءُ، وَالاتِّسَاعُ وَالتَّكَاثُرُ؛ أَيْ كُلَّمَا زِدْتَهُ تَبَصُّرًا اتَّسَعَ الْمَعْنَىٰ فِي فُؤَادِكَ، وَزَادَكَ مِنْ جِنْسِ مَعْنَاهُ. وَلَهُ مَقَامَاتٌ يَحْسُنُ فِيهَا جِدًّا، وَهُوَ مِنْ قَبِيلِ مَا يُسَمَّىٰ: «مُسْتَتْبَعَاتُ التَّرَاكِيبِ» فَلَا يُوصَفُ بِأَنَّهُ حَقِيقَةٌ أَوْ مَجَازٌ أَوْ كِنَايَةٌ.

بَعْدَهَا[1]، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[الرعد: ١٩]» فَإِنَّهُ تَعْرِيضٌ بِذَمِّ الكُفَّارِ، وَأَنَّهُمْ مِنْ فَرْطِ العِنَادِ، وَغَلَبَةِ الْهَوَىٰ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِ مَنْ لَيْسَ بِذِي عَقْلٍ، فَأَنْتُمْ فِي طَمَعِكُمْ مِنْهُمْ أَنْ يَنْظُرُوا، وَيَتَذَكَّرُوا كَمَنْ طَمِعَ فِي ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أُولِي الْأَلْبَابِ[2].

وَكَذا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾[النازعات: ٤٥][3].

---

(١) وَجْهُ دَلاَلَةِ (إِنَّمَا) عَلَىٰ التَّعْرِيضِ أَنَّهَا إِذَا مَا اسْتُعْمِلَتْ فِيمَا هُوَ مَعْلُومٌ بَلْ مُسَلَّمٌ لاَ يُنَازَعُ فِيهِ، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ بِهَا لَا يُرِيدُ الْإِنْبَاءَ بِمَا دَخلَتْ عَلَيْهِ فَهُوَ مَعْلُومٌ مُسَلَّمٌ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ شَيْئًا هُوَ التَّعْرِيضُ بِمَنْ يُخَاطِبُ لِمَا بَدَا مِنْهُ مَا يُصَوِّرُ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا هُوَ مَعْلُومٌ مُسَلَّمٌ، فَمَنْ اسْتَجْهَلَ مَا لَا يُجْهَلُ، فَهُوَ أَحَقُّ بِأَنْ يُعَرَّضَ بِهِ وَيُثْلَمَ.

(٢) جَاءَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ فِي سِيَاقِ الْمُفَاضَلَةِ بَيْنَ فَرِيقَيْنِ: فَرِيقٍ يَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ ﷻ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ، وَآخَرُ أَعْمَىٰ لَا يُبْصِرُ بِفُؤَادِهِ الْحَقَّ الْمُبِينَ، يَقُولُ الْحَقُّ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩]، وَهَذِهِ الْمُفَاضَلَةُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ أَمْرٌ بَالِغُ الْجَلَالِ، فَعَرَّضَ بِمَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الْمُنَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ هُوَ الْحَقُّ إِنَّمَا هُوَ غَيْرُ عَقِيلٍ، وَلَوْ كَانَ عَقِيلًا لَتَذَكَّرَ هُوَ الْحَقِيقَةَ، وَذَكَرَهَا، وَذَكَّرَ بِهَا، فَلَيْسَ ثَمَّ مَنْ يَتَوَقَّفُ فِي أَنَّ التَّذَكُّرَ لَاَ يَكُونُ إِلَّا لِأُولِي الْأَلْبَابِ، فَمَنْ لَمْ يَتَذَكَّرْ فَهُوَ عَمِيٌّ بَصِيرَةٍ، وَفَقِيدُ عَقْلٍ، لَا تَحْسِبَنَّ «التَّذَكُّرَ» الَّذِي قُصِرَ بِـ «إِنَّمَا» عَلَىٰ أُولِي الْأَلْبَابِ هُوَ مُجَرَّدُ اسْتِحْضَارِ الشَّيْءِ فِي وَعْيِكَ، وَكَفَىٰ، كَلَّا، إِنَّمَا «التَّذَكُّرُ» مَا يُبْنَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ الْاسْتِحْضَارِ الْقَلْبِيِّ مِن اسْتِحْقَاقَاتٍ سُلُوكِيَّةٍ مَبْدَؤُهَا التَّفْكِيرُ الْعَمِيقُ الْمُحِيطُ فِيهِ وَتَحْلِيلُهُ، وَإِحَالَتُهُ إِلَىٰ وَاقِعٍ سُلُوكِيٍّ مَشْهُودٍ.

(٣) يُعَرِّضُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِمَنْ يَطْلُبُ مِنْ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنْ يُعَيِّنَ لَهُ مَوْعِدَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَكَأَنَّهُ ﷺ إِنَّمَا جَاءَ لِذَلِكَ، فَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا جَاءَ مُنْذِرًا بِهَا، لَا مُعَيِّنًا مَوْعِدَهَا يَقُولُ الْحَقُّ: ﷻ ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ لَيْسَ قَصْرُ إِنْذَارِهِ عَلَىٰ مَنْ تَحَقَّقَتْ مِنْهُ الْخَشْيَةُ، بَلْ هُوَ قَصْرُ مُهِمَّةِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَىٰ الْإِنْذَارِ بِهَا رَدًّا عَلَىٰ سُؤَالِهِمْ لَهُ عَلَىٰ تَعْيِينِهَا، قَصْرَ «إِفْرَادٍ» لِمنْ ظَنَّ أَنَّهُ مُرْسَلٌ لِلْإِنْذَارِ وَلِتَعْيِينِ مَوْعِدِهَا، أَوْ قَصْرَ «قَلْبٍ» لِمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ ﷺ مُرْسَلٌ لِتَعْيِينِ مَوْعِدِهَا، وَفِي هَذَا تَعْرِيضٌ بِهِمْ أَنَّهُمْ اعْتَقَدُوا جَهَالَةً وَغَبَاءً أَنَّ مُهِمَّةَ الرُّسُلِ تَعْيِينُ مَوْعِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالْحَقُّ أَنَّهُمْ

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ [فاطر: ١٨] المَعْنَىٰ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ هَذِهِ الْخَشْيةُ، فَكَأَنَّهُ لَيْس لَهُ أُذُنٌ تَسْمَعُ وَقَلْبٌ يَعْقِلُ، فَالْإِنْذَارُ مَعَهُ كَلَا إِنْذَارٍ(١).

قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ القَاهِرِ: وَمِثَالُ ذَلِكَ مِنَ الشِّعْرِ قَوْلُهُ(٢):

أَنَـا لَـمْ أُرْزَقْ مَحَبَّتَهَـا ... إِنَّمَـا لِلْعَبْـدِ مَـا رُزِقَـا(٣)

أُرْسِلُوا لِلْإِنْذَارِ، لَا لِتَعْيِينِ مَوْعِدِهَا. فَإِخْفَاءُ مَوْعِدِهَا إِنَّمَا هُوَ رَحْمَةٌ بِهِمْ، هُوَ لِحَثِّ الْعِبَادِ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ حَالٍ عَلَىٰ مَا يُنَجِّيهِمْ مِنْ أَهْوَالِها، وَهَذَا مِنْ عَطَاءِ رُبُوبِيَّتِهِ ﷻ لِلْعَالَمِينِ، فَالْمَقْصُورُ عَلَيْهِ هُوَ قَوْلُهُ: ﴿مُنذِرُ﴾ وَلَيْس قَوْلُهُ: ﴿مَن يَخۡشَىٰهَا﴾.

(١) الآيَةُ مِنْ قَبِيلِ «قَصْرِ الْمَوصُوفِ عَلَىٰ الصِّفَةِ قَصْرَ إِفْرَادٍ»، وَالْمَعْنَىٰ: مَا يَنْفَعُ إِنْذَارُكَ إِلاَّ الَّذِينَ يَخْشَونَ رَبَّهُمْ، وَهَذَا يَهْدِيكَ إِلَىٰ أَنَّهُ لَا يُرَادُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْذَارُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ خَاصًّا بِالَّذِينَ يَخْشَونَ، فَالْوَاقِعُ مُعَارِضٌ ذَلِكَ، فَهُوَ ﷺ يُنْذِرُ كُلَّ سَامِعٍ، وَلَكِنَّ الْقَصْدَ إِلَىٰ قَصْرِ نَفْعِ إِنْذَارِهِ عَلَىٰ الَّذِينَ يَخْشَونَ، لِيُبَيِّنَ لِسَيِّدِنَا رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّ عَدَمَ تَأْثِيرِ إِنْذَارِكَ مِنْ قِبَلِهِمْ لَا مِنْ قِبَلِكَ، وَفِي هَذَا تَعْرِيضٌ بِمَنْ لَمْ يُؤَثِّرْ فِيهِ إِنْذَارُهُ، وَفِيهِ تَسْلِيَةٌ لِسَيِّدِنَا رَسُولِ اللهِ ﷺ وَرَفْعُ الْحَرَجِ وَالْهَمِّ عَنْهُ، وَبِهَذَا تَفْهَمُ أَنَّ إِنْذَارَهُ ﷺ يَنْفَعُ مَنْ هُوَ مُتَأَهِّلٌ لِأَنْ يَخْشَىٰ، لَا مَنْ وَقَعَتْ مِنْهُ الْخَشْيَةُ، فَمَنْ وَقَعَتْ مِنْهُ الْخَشْيَةُ، لَا يَفْتَقِرُ إِلَىٰ الإِنْذَارِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَحَقَّقَ مِنْهُ قَبْلُ مَا يُرَادُ بِالْإِنْذَارِ.

(٢) الْبَيْتُ لِلْعَبَّاسِ بْن الْأَحْنَفْ بْن الأَسْوَدْ، مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ، (ت:١٩٢هـ) وَهُوَ شَاعِرُ غَزَلٍ، صَرَفَ شِعْرَهُ لِلْغَزَلِ وَالوَصْفِ. وَفِي «الْغَزَلِ» فَيْضٌ مِنَ الثَّنَاءِ والسَّنَاء.

(٣) قَوْلُهُ: «إِنَّما لِلْعَبْدِ مَا رُزِقَا» مِنْ قَبِيلِ «قَصْرِ الصِّفَةِ عَلَىٰ الْمَوْصُوفِ».
وَلَيْسَ مِنْ أَحَدٍ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ لَهُ مَا رُزِقَ، فَتِلْكَ حَقِيقَةٌ مُسَلَّمَةٌ لَا تُدْفَعُ، وَالشَّاعِرُ مَا قَالَهَا لِلْإِعْلَامِ بِذَلِكَ، إِنَّمَا الشَّاعِرُ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ يُصَبِّرُهَا عَلَىٰ مَا حَلَّ فِيهَا مِنَ الْأَسَىٰ بِسَبَبِ الْإِعْرَاضِ وَالحِرْمَانِ، وَيُعَرِّضُ بِأَنَّه لَا مَطْمَعَ لَهُ فِي وَصْلِهَا، يَسْعَىٰ إِلَىٰ تَسْكِينِ نَفْسِهِ، وَأَنْ تَسْتَمِعَ بِالرِّضَا بِقَدَرِ اللهِ ﷻ، فَذَلِكَ خَيْرٌ لَهَا مِنْ أَنْ تَتَشَوَّفَ مَا لَا سَبِيلَ لَهَا إِلَيْهِ. وَفِي كُلِّ هَذَا مُبَالَغَةٌ فِي تَصْوِيرِ مَا حَلَّ بِهِ مِنْ صُدُودِ صَاحِبَتِهِ، وَلَوْ أَنَّ فُؤَادَهَا سَمِعَ وَفَقِهَ لَأَقْبَلَ وَجَادَ بِالوَصْلِ، لَكِنَّهَا المُتَلَذِّذَةُ بِصَدِّهَا. وَتِلْكَ شِرْعَةُ الْغَوَانِي.

فَإِنَّهُ تَعْرِيضٌ بِأَنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا مَطْمَعَ لَهُ فِي وَصْلِهَا، فَيَئِسَ مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنْهَا إِسْعَافٌ بِهِ.

وَقَوْلُهُ(١):

«وَإِنَّمَا يَعْذُرُ الْعُشَّاقَ مَنْ عَشِقَا»

يَقُولُ: يَنْبَغِي لِلْعَاشِقِ أَنْ لَا يُنْكِرَ لَوْمَ مَنْ يَلُومُهُ، فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ كُنْهَ بَلْوَىٰ الْعَاشِقِ، وَلَوْ كَانَ ابْتُلِيَ بِالْعِشْقِ مِثْلَهُ لَعَرَفَ مَا هُوَ فِيهِ، فَعَذَرَهُ(٢).

وَقَوْلُهُ(٣):

مَا أَنْتَ بِالسَّبَبِ الضَّعِيفِ وَإِنَّمَا ... نُجْحُ الأُمُورِ بِقُوَّةِ الْأَسْبَابِ
الْيَوْمَ حاجَتُنَا إِلَيْكَ وَإِنَّمَا ... يُدْعَىٰ الطَّبِيبُ لِشِدَّةِ الْأَوْصَابِ

---

(١) الْبَيْتُ لِلْعَبَّاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ. وَصَدْرُهُ: «يَلُومُ فِي الحُبِّ مَنْ لَمْ يَدْرِ طَعْمَ الْهَوَىٰ».

(٢) لاَ يَقْصِدُ الشَّاعِرُ بِمَقَالِهِ هَذَا الإِعْلاَمَ بِهِ، فَذَلِكَ حَقِيقَةٌ لاَ تُدْفَعُ، عِنْدَ أَهْلِ الهَوَىٰ، الشَّاعِرُ يَسُوسُ نَفْسَهُ أَلَّا تَلُومَ مَنْ يَلُومُهُ عَلَىٰ مَا هُوَفِيهِ مِنْ نَعِيمِ الْعِشْقِ، لَوْ أَنَّهُمْ ذَاقُواْ لَمَا كَانُوا عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْهُمْ، هُمُ الأَحَقُّ بِأَنْ يُرْحَمُواْ إِذْ حُرِمُوا مِمَّا هُوَ أَكْسِيرُ الحَيَاةِ، مَنْ لاَمَ عَاشِقًا، فَإِنَّهُ لَذُو قَلْبٍ لَمْ يَمَسُّهُ الهَوَىٰ، وَقَلْبٌ كَهَذَا لَا حَيَاةَ فِيهِ، فَالعِشْقُ حَيَاةُ القُلُوبِ عِنْدَ أَهْلِ الهَوَىٰ، وَأَهْلُ العِشْقِ عَلَيْهِم أَلَّا يَلُومُوا مَنْ لاَمَهُمْ؛ لِأَنَّهُم مَعْذُورُونَ، فَلَوْ مَسَّ الْعِشْقُ قُلُوبَهُمْ مَا لاَمُوا عَاشِقًا. فَلَيْسَ عَلَىٰ الْعَاشِقِ مِنْ حَرَجٍ.

(٣) يُنْسَبُ الْبَيْتَانِ لِلبَاخَرْزِيِّ، وَلِغَيْرِهِ. قَوْلُه: «وَإِنَّمَا نُجْحُ الْأُمُورِ بِقُوَّةِ الأَسْبَابِ»، وَقَوْلُهُ: «وَإِنَّمَا يُدْعَىٰ الطَّبِيبُ لِشِدَّةِ الْأَوْصَابِ» لَيْسَا هُمَا مَنَاطَ الْقَصْدِ الرَّئِيسِ، فَذَلِكَ مِمَّا لَا يُفْتَقَرُ إِلَىٰ الإِعْلَامِ بِهِ، وَقَدْ يُذْكَرُ الأَمْرُ المَعْلُومُ المُسَلَّمُ لِيُبْنَىٰ عَلَيه مَا لَيْسَ بِمَعْلُومٍ، القَصْدُ إِلَىٰ التَّعْرِيضِ بِضَرُورَةِ تَحْقِيقِ طِلْبَتِهِ مِنْ أَنَّهُ اتَّخَذَ إِلَيْهَا قَوِيَّ الأَسْبَابِ وَفَتِيَّهَا، اتَّخَذَ المَمْدُوحَ إِلَيْهَا سَبِيلًا، وَلَيْسَ غَيْرُهُ أَهْلٌ لِأَنْ يُتَّخَذَ إِلَيْهَا سَبَبًا، فَهُوَ فِي يَقِينٍ أَنَّهُ بَالِغُ طِلْبَتِهِ حِينَ اتَّخَذَ المَمْدُوحَ إِلَيْهَا، وَهُوَ يُعَرِّضُ بِعَظِيمِ حَاجَتِهِ والإِسْرَاعِ فِي تَحْقِيقِهَا، وَهَذَا مَسْلَكٌ لَطِيفٌ مِنْ مَسَالِكِ الحَمْلِ عَلَىٰ الاسْتِجَابَةِ. وَهُوَ مَحْمُودٌ فِي أَدَبِ الطَّلَبِ.

يَقُولُ فِي البَيْتِ الْأَوَّلِ: إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ أَنْجَحَ فِي أَمْرِي حِينَ جَعَلْتُكَ السَّبَبَ إِلَيْهِ.

وَفِي الثَّانِي: إِنَّا قَدْ وَضَعْنَا الشَّيْءَ فِي مَوْضِعِهِ، وَطَلَبْنا الْأَمْرَ مِنْ جِهَتِهِ حِينَ اسْتَعَنَّا بِكَ فِيمَا عَرَضَ مِنَ الْحَاجَةِ، وَعَوَّلْنَا عَلَىٰ فَضْلِكَ، كَمَا أَنَّ مَنْ عَوَّلَ عَلَىٰ الطَّبِيبِ فِيمَا يَعْرِضُ لَهُ مِنَ الْسُقْمِ، كَانَ قَدْ أَصَابَ فِي فِعْلِه.

• • •

[بَيَانُ مَوْقِعِ القَصْرِ فِي بِنَاءِ الجُمْلَةِ، وَمَوْقِعُ المَقْصُورِ عَلَيْهِ فِي كُلِّ طَرِيقٍ]

ثُمَّ القَصْرُ كَمَا يَقَعُ بَيْنَ الْمُبْتَدإِ وَالْخَبَرِ، كَمَا ذَكَرْنَا يَقَعُ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالفَاعِلِ وَغَيْرِهِمَا، فَفِي طَرِيقِ «النَّفْيِ وَالاسْتِثْنَاءِ» يُؤَخَّرُ المَقْصُورُ عَلَيْهِ مَعَ حَرْفِ الْاسْتِثْناءِ، كَقَولِكَ فِي قَصْرِ الفَاعِلِ عَلَىٰ الْمَفْعُولِ «إِفْرَادًا» أَوْ «قَلْبًا» بِحَسَبِ المَقَامِ: «مَا ضَرَبَ زَيْدٌ إِلَّا عَمْرًا»[1].

وَعَلَىٰ الثَّانِي لَا الْأَوَّلِ قُولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ المَعْنَىٰ: إِنِّي لَمْ أَزِدْ عَلَىٰ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ شَيْئًا؛ إِذْ لَيْسَ الْكَلَامُ فِي أَنَّهُ زَادَ شَيْئًا عَلَىٰ ذَلِكَ أَوْ نَقَصَ مِنْهُ، وَلَكِنَّ المَعْنَىٰ أَنِّي لَمْ أَتْرُكْ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَقُولَ لَهُمْ إِلَىٰ خِلَافِهِ؛ لِأَنَّهُ قَالَهُ فِي مَقَامٍ اشْتَمَلَ عَلَىٰ

(١) يُرَادُ بِقَصْرِ الفَاعِلِ مِنْ حَيْثُ هُوَ فَاعِلٌ لاَ مِنْ حَيْثُ ذَاتُهُ؛ أَيْ حَصْرُهُ فِي فِعْلِهِ المتَعَلِّقِ بِالمَفْعُولِ، فَفِي: «مَا ضَرَبَ زَيْدٌ إِلَّا عَمْرًا»، المَعْنَىٰ عَلَىٰ «مَا مَضْرُوبُ زَيدٍ إِلَّا عَمْرٌو» فَمَا بَعْدَ «إِلَّا» هُوَ الْمَوصُوفُ؛ أَيْ هُوَ قَصْرُ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوصُوفٍ، وَلَكَ أَنْ تُؤَوِّلَهُ: مَا زيدٌ إِلَّا مَضروبُه عَمْرٌو؛ فَيَكُونُ «قَصْرُ مَوصُوفٍ عَلَىٰ صِفَةٍ.

مَعْنَىٰ: إِنَّكَ يَا عِيسَىٰ تَرَكْتَ مَا أَمَرْتُكَ أَنْ تَقُولَهُ إِلَىٰ مَا لَمْ آمُرْكَ أَنْ تَقُولَهُ، فَإِنِّي أَمَرْتُكَ أَنْ تَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ أَنْ يَعْبُدُونِي، ثُمَّ إِنَّكَ دَعَوْتَهُمْ إِلَىٰ أَنْ يَعْبُدُوا غَيْرِي، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦][1].

وَفِي قَصْرِ المَفْعُولِ عَلَىٰ الفَاعِلِ: «مَا ضَرَبَ عَمْرًا إِلَّا زَيْدٌ»[2].

وَفِي قَصْرِ المَفْعُولِ الْأَوَّلِ عَلَىٰ الثَّانِي فِي نَحْوِ «كَسَوْتُ» و«ظَنَنْتُ»: «مَا كَسَوْتُ زَيْدًا إِلَّا جُبَّةً»[3]، و«مَا ظَنَنْتُ زَيْدًا إِلاَّ مُنْطَلِقًا»[4].

---

(١) قَوْلُهُ: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ [المائدة: ١١٧] مِنْ قَصْرِ الفَاعِلِ عَلَىٰ المَفْعُولِ قَصْرَ قَلْبٍ؛ أَيْ قَصَرَ نَفْسَهُ قَائِلًا عَلَىٰ مَا أُمِرَ بِهِ. وَنَفَىٰ عَنْ نَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ قَائِلًا غَيْرَ مَا أُمِر بِهِ؛ أَيْ مَا أَنَا قَائِلٌ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي به «قَصْرُ قَلْبٍ».

هَذِهِ الآيَةُ مِمَّا سيَكُونُ يَوْمَ القِيَامَةِ جَوَابًا مِنْ سَيِّدِنَا عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام عَلَىٰ سُؤَالٍ يُوَجِّهُهُ إِلَيْهِ خَالِقُهُ سبحانه وتعالى عَلَىٰ مَسْمَعٍ مِمَّنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ نَبِيًّا، فَاتَّخَذُوهُ وَأُمَّهُ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦ – ١١٧] لَيْسَ السِّيَاقُ سُؤَالَهُ عَنْ شَيْءٍ زَادَهُ مِنْ عِنْدِهِ عَلَىٰ مَا أُمِرَ بِهِ أَوْ نَقَصَ مِنْهُ، بَلْ عَنْ شَيْءٍ قَالَهُ عَلَىٰ غَيْرِ مَا كُلِّفَ بِقَوْلِهِ لَهُمْ، كُلِّفَ عليه السلام بِأَمْرِهِمْ اتِّخاذِ اللهِ سبحانه وتعالى وَحْدَهُ إِلهًا، وَلَمْ يُرْسَلْ بِأَنْ يَأْمُرَهُمْ بِاتِّخَاذِهِ وَأُمِّهِ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ تَعَالَىٰ.

(٢) هَذَا مِنْ حَصْرِ المَفْعُولِ فِي الْفَاعِلِ، وَالمَعْنَىٰ عَلَىٰ: (مَا عَمْرٌو إِلاَّ مَضْرُوبُ زَيْدٍ) قَصْرُ مَوْصُوفٍ عَلَىٰ صِفةٍ، وَيَصِحُّ أَنْ تُؤَوِّلَهُ عَلَىٰ أَنَّ الْمَعْنَىٰ: «مَا ضَارِبٌ عَمْرًا إِلَّا زَيْدٌ» قَصْرَ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوصُوفٍ.

(٣) قَوْلُهُ: (مَا كَسَوْتُ زَيْدًا إِلاَّ جُبَّةً) مِنْ قَبِيلِ قَصْرِ المَفْعُولِ الأَوَّلِ عَلَىٰ المَفْعُولِ الثَّانِي، وَالمَعْنَىٰ: (مَا مَكْسُوُّ زَيْدٍ إِلَّا جُبَّةً). قَصَرَ صِفَةَ (مَكْسُوُّ زَيْدٍ) عَلَىٰ مَوصُوفٍ (جُبَّة).

(٤) وَقَوْلُهُ: (مَا ظَنَنْتُ زَيْدًا إِلاَّ مُنْطَلِقًا) مَعْنَاهُ: «مَا مَظْنُونِي زَيْدٌ إِلاَّ مُنْطَلِقًا» قَصْرَ مَوصُوفٍ (مَظْنُونِي زَيْدٌ) عَلَىٰ صِفَةِ (مُنْطَلِقًا).

وَفِي قَصْرِ الثَّانِي عَلَىٰ الْأَوَّلِ: «مَا كَسَوْتُ جُبَّةً إِلَّا زَيْدًا»[1]، و«مَا ظَنَنْتُ مُنْطَلِقًا إِلَّا زَيْدًا»[2].

وَفِي قَصْرِ ذِي الْحَالِ عَلَىٰ الْحَالِ: «مَا جَاءَ زَيْدٌ إِلَّا رَاكِبًا»[3].

وَفِي قَصْرِ الْحَالِ عَلَىٰ ذِي الْحَالِ: «مَا جَاءَ رَاكِبًا إِلَّا زَيْدٌ»[4].

• • •

[وَجْهُ دِلَالَةِ الْاسْتِثْنَاءِ الْمُفَرَّغِ عَلَىٰ الْقَصْرِ]

وَالْوَجْهُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ أَنَّ النَّفْيَ فِي الْكَلَامِ النَّاقِصِ أَعْنِي «الْاسْتِثْنَاءَ الْمُفَرَّغَ» يَتَوَجَّهُ إِلَىٰ مُقَدَّرٍ هُوَ مُسْتَثْنًىٰ مِنْهُ عَامٌّ مُنَاسِبٌ لِلْمُسْتَثْنَىٰ فِي جِنْسِهِ وَصِفَتِهِ.

أَمَّا تَوَجُّهُهُ إِلَىٰ مُقَدَّرٍ هُوَ مُسْتَثْنًىٰ مِنْهُ، فَلِكَوْنِ «إِلَّا» لِلْإِخْرَاجِ، وَاسْتِدْعَاءِ الْإِخْرَاجِ مُخْرَجًا مِنْهُ.

---

(١) وَقَوْلُهُ: (مَا كَسَوْتُ جُبَّةً إِلاَّ زَيْدًا) مَعْنَاهُ: مَا مَكْسُوي جُبَّةً إِلاَّ زَيْدٌ قَصْرَ صِفَةٍ (مَكْسُوي جُبَّةً) عَلَىٰ مَوصُوفٍ (زَيْد).

(٢) وَقَوْلُهُ: (مَا ظَنَنْتُ مُنْطَلِقًا إِلاَّ زَيْدًا) مَعْنَاهُ: مَا مَظْنُونِي مُنْطَلِقًا إِلاَّ زَيْدٌ، مِنْ قَصْرِ الصِّفَةِ «مَظْنُونِي مُنْطَلِقًا» عَلَىٰ الْمَوصُوفِ «زَيْدٌ».

(٣) وَقَوْلُه: «مَا جَاءَ زيدٌ إِلاَّ رَاكِبًا» مِنْ قَصْرِ صَاحِبِ الحَالِ عَلَىٰ الحَالِ؛ أَيْ قَصْرُ مَوصُوفٍ عَلَىٰ صِفةٍ، والمَعْنَىٰ: «مَا زَيْدٌ جَاءَ إِلَّا رَاكِبًا».

(٤) وقَوْله: (مَا جَاءَ رَاكِبًا إِلاَّ زَيْدٌ) مِنْ قَصْرِ الحَالِ عَلَىٰ صَاحِبِهِ، قَصْرَ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوصُوفٍ، والمعْنَىٰ: مَا صَاحِبُ المَجِيءِ رَاكِبًا إِلَّا زَيْدٌ.

وَأَمَّا عُمُومُهُ فَلِيَتَحَقَّقَ الْإِخْرَاجُ مِنْهُ[١]؛ وَلِذَلِكَ قِيلَ تَأْنِيثُ الْمُضْمَرِ فِي «كَانَتْ» عَلَىٰ قِرَاءَةِ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَدَنِيِّ (إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةٌ) [يس: ٢٩] بِالرَّفْعِ[٢].

وَفِي «تُرَىٰ» مَبْنِيًا لِلْمَفْعُولِ فِي قِرَاءَةِ الحَسَنِ: (فَأَصْبَحُوا لَا تُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُم) بِرَفْعِ مَسَاكِنِهِم[٣].

---

(١) يُبِينُ عَنْ وَجهِ دَلَالَةِ الاستِثْنَاءِ المُفَرَّغِ عَلَىٰ القَصْرِ بِأَنَّ النَّفْيَ لَابُدَّ أَنْ يُوَجَّهَ إِلَىٰ شَيْءٍ، وَهُوَ هُنَا لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُقَدَّرًا؛ لِأَنَّ «الاسْتِثْنَاءَ المفرَّغَ» لَا يَكُونُ «المسْتَثْنَىٰ مِنْهُ» الَّذِي هُوَ مَنَاطُ النَّفْيِ مَذْكُورًا. وَهَذَا المُسْتَثْنَي مِنْهُ المُقَدَّرُ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ أَمْرَيْنِ:

الأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ مِنْ جِنْسِ (المسْتَثْنَىٰ) وَصِفَتِهِ، كَيْلَا يَكُونَ مُنْقَطِعًا.

الآخَرُ: أَنْ يَكُونَ عَامًّا لِيَتَأَتَّىٰ إِخْرَاجُ شَيْءٍ مِنْهُ بِـ(إِلَّا) هُوَ(المُسْتَثْنَىٰ) فَلَوْ لَمْ يَكُنْ عَامًّا لَمَا تَأَتَّىٰ الإِخْرَاجُ. فَوُجُودُ «النَّفْيِ» قَاضٍ تَقْدِيرَ مُسْتَثْنَىٰ مِنْهُ، لِيَكُونَ مَنَاطَ النَّفْيِ، وَوُجُودُ (إِلَّا) قَاضٍ بِأَنْ يَكُونَ هَذَا المُقَدَّرُ عَامًّا.

وَتَرَتَّبَ عَلَىٰ هَذَا أَنَّهُ إِذَا كَانَ الفِعْلُ فَاعِلَهُ مُؤَنَّثًا وَاقِعًا بَعْدَ (إِلَّا) نَحْو: «مَا جَاءَ إِلَّا هِنْدٌ» فَلَكَ وَجْهَانِ فِي الْفِعْلِ: أَنْ تُذَكِّرَهُ، وَهُوَ الأَصْلُ، وَأَنْ تُؤَنِّثَهُ (جَاءَتْ) حَمْلًا عَلَىٰ ظَاهِرِ اللَّفْظِ، وَهُوَ قَلِيلٌ، بَلْ مُسْتَنْكَرٌ عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ.

(٢) أَبُو جَعْفَر المَدَنِيِّ هُوَ: يَزِيدُ بْنِ الْقَعْقَاعِ، مَوْلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ الْمَخْزُومِيِّ عَتَاقَةً. تابِعِيٌّ، وَكَانَ إِمَامَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فِي الْقِرَاءَةِ، فَسُمِّيَ القَارِيءُ بِذَلِكَ، وَكَانَ ثِقَةً قَلِيلَ الْحَدِيثِ رَوَىٰ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَابْنِ عُمَرَ، وَغَيْرِهِمَا، وَتُوُفِّيَ فِي خِلَافَةِ مَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ (ت ١٣٢هـ). قَرَأَ وَحْدَهُ كَلِمَةَ: «صَيْحَةٌ» بِالرَّفْعِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس: ٢٩] بِالرَّفْعِ. وَقَرَأَ البَاقُونَ: ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ بِالنَّصْبِ وَقِرَاءَتُهُ بِالرَّفْعِ عَلَىٰ أَنَّ ﴿صَيْحَةً﴾ فَاعِلٌ لِـ(كَانَ) التَّامَّة، أَنَّثَ الفِعْلَ (كَانَ) مُرَاعَاةً لِظَاهِرِ لَفْظِ الفَاعِلِ ﴿صَيْحَةً﴾.

(٣) يَقُولُ الحَقُّ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢١ - ٢٥]. قَرَأَ عَاصِمُ وَحَمْزَةُ وَيَعْقُوبُ وَخَلَفُ ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ﴾ بِضَمِّ اليَاءِ ﴿إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ بِالرَّفْعِ.

وَفِي «بَقِيَتْ» فِي بَيْتِ ذِي الرُّمَّةِ:

فَمَا بَقِيَتْ إِلَّا الضُّلُوعُ الْجَرَاشِعُ[1]

وَقَرَأَ البَاقُونَ «لَا تَرَىٰ» بِالتَّاءِ مَفْتُوحَةً «إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ» بالنَّصْبِ، وَقَرَأَ شُعَيْبُ بْنُ أَيُّوبَ عَنْ يَحْيَىٰ عَنْ أَبِي بَكْرٍ «لَا تُرَىٰ» بِضَمِّ التَّاءِ «إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ» بِالرَّفْعِ، كَمَا رُوِيَ عَنْ الحَسَنِ وَأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ، وَكَذَلِكَ رَوَاهُ يُونُسُ عَنْ أَبِي عَمْرٍو، وَحَمَّادُ بْنِ زَيْدٍ عَنِ ابْنِ كَثِيرٍ. (المَبْسُوطُ فِي الْقِرَاءَاتِ الْعَشْرِ، لابْنِ مِهْرَانَ. ص: ٤٠٦ - ٤٠٧)

رُفِعَ قَوْلُهُ: ﴿مَسَٰكِنُهُمْ﴾ عَلَىٰ قِرَاءَةِ الحَسَنِ البَصْرِيِّ مَعَ بِنَاءِ الْفِعْلِ (تُرَىٰ) لِلْمَفْعُولِ وَتَأْنِيثِهِ - نَظَرًا لِظَاهِرِ اللَّفْظِ. وَالأَكْثَرُ الأَظْهَرُ: أَنْ يَكُونَ الْفِعْلُ (يَرَىٰ) غَيْرَ مُؤَنَّثٍ؛ لِأَنَّ الْفِعْلَ إِذَا كَانَ فَاعِلُهُ مُؤَنَّثًا، وَكَانَ الْفَاعِلُ بَعْدَ ﴿إِلَّا﴾ كَانَ التَّذْكِيرُ أَظْهَرَ وَأَكْثَرَ. فَمَنْ أَنَّثَ ذَهَبَ إِلَىٰ المُطَابَقَةِ مُرَاعَاةً لِظَاهِرِ اللَّفْظِ، وَمَنْ ذَكَّرَ ذَهَبَ إِلَىٰ مُرَاعَاةِ المَعْنَىٰ، وَلَا تَحْسِبَنَّ أَنَّ اخْتِلَافَ الْقِرَاءَاتِ أَمْرٌ لَفْظِيٌّ، بَلْ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ مَعَانٍ.

(١) عَجُزُ بَيْتٍ مِنْ قَصِيدَةٍ مَطْلَعُهَا:

أَمَنْزِلَتَـيْ مَـيٍّ سَـلَامٌ عَلَيْكُمَـا   هلْ الأَزْمُنُ الَّلائِي مَضَيْنَ رَوَاجِعُ

يَصِفُ ذُو الرُّمَّةِ فِي هَذَا الْبَيْتِ نَاقَتَهُ بِالضُّمُورِ، وَمَا لَقِيَتْ فِي سَفَرِهَا:

بَرَىٰ النَّحْزُ والأَجْرَازُ مَا في غُرُوضِها   فَمَا بَقِيَتْ إِلَّا الضّلُوعُ الجَرَاشِعُ

(النَّحْزُ): الدَّفْعُ بِهَا لِتَنْشَطَ سَيْرًا، يُقَالُ: نَحَزْتُ النَّاقَةَ، وَنَخَسْتُهَا، وَدَفَعْتُهَا، وَرَكَلْتُهَا بِرِجْلِي؛ حَثًّا لَهَا عَلَىٰ أَنْ تَنْشَطَ.

الأَجْرَازُ: جَمْعُ جُرُزٍ: الأَرْضُ اليَابِسَةُ الصَّلْدَةُ، وَفِي هَذَا إِيمَاءٌ إِلَىٰ قِلَّةِ مَطْعَمِ نَاقَتِهِ، فَطَرِيقُهُ أَرْضٌ قَحْلَاءُ.

يَقُولُ الحَقُّ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧].

الغُرُوضُ: جَمْعُ غَرْضٍ، حِزَامُ الرَّحْلِ، يُقَالُ: أَغْرَضْتُ الْبَعِيرَ: شَدَدْتُ عَلَيْهِ الغَرْضَ.

الجَرَاشِعُ: جَمْعُ جُرْشُعٍ، عَلَىٰ زنة (فُلْفُل)، الجُرْشُعُ: المُنْتَفِخُ الجَنْبَيْنِ.

أَنَّثَ الفِعْلَ (بَقِيَ)، فَقَالَ: (بَقِيتْ) نَظَرًا لِظَاهِرِ لَفْظِ (الضُّلُوعِ)، والأَقْوَىٰ تَذْكِيرُهُ؛ لِأَنَّهُ فُصِلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ فَاعِلِهِ بـ(إِلَّا)، فَيُحْمَلُ الْفِعْلُ عَلَىٰ المَعْنَىٰ، فَيُذَكَّرُ، فَيُقَالُ: فَمَا بَقِيَ إِلَّا الضُّلُوعُ، كَمَا تَقُولُ: «مَا جَاءَ إِلَّا الطَّالِبَاتُ».

وقَوْلُه: (فَمَا بَقِيَتْ إِلَّا الضُّلُوعُ الجَرَاشِعُ) مِنْ قَصْرِ الفِعْلِ عَلَىٰ الفَاعِلِ: قَصْرَ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوصُوفٍ،

لِلنَّظَرِ إِلَىٰ ظَاهِرِ اللَّفْظِ، وَالأَصْلُ التَّذْكِيرُ؛ لاقْتِضَاءِ المَقَامِ مَعْنَىٰ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ.

وَأَمَا مُناسَبَتُهُ فِي جِنْسِهِ وَصِفَتِهِ، فَظَاهِرَةٌ؛ لِأَنَّ المُرَادَ بِجِنْسِهِ أَنْ يَكُونَ فِي نَحْوِ «مَا ضَرَبَ زَيْدٌ إِلَّا عَمْرًا»: أَحَدًا.

وَفِي نَحْوِ قَوْلِنَا: «مَا كَسَوْتُ زَيْدًا إِلَّا جُبَّةً» لِبَاسًا.

وَفِي نَحْوِ: «مَا جَاءَ زَيْدٌ إِلَّا رَاكِبًا» كَائِنًا عَلَىٰ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ.

وَفِي نَحْوِ: «مَا اخْتَرْتُ رَفِيقًا إِلَّا مِنْكُم» مِنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْجَمَاعَاتِ.

وَمِنْهُ قَوْلُ السَّيِّدِ الحِمْيَرِيِّ(١):

لَـوْ خُيِّـرَ المِنْبَـرُ فُرْسَـانَهُ ... مَـا اخْتَـارَ إِلَّا مِنْكُـمْ فَارِسَـا(٢)

لِمَا سَيَأْتِي - إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ - أَنَّ أَصْلَهُ - مَا اخْتَارَ فَارِسًا إِلَّا مِنْكُمْ(٣).

وَفِي هَذَا إِيماءٌ إِلَىٰ عَظِيمِ مَا لَقِيَتْ نَاقَتُهُ مِنَ الْوَصَبِ وَالجُوعِ، فَاجْتَمَعَ عَلَيْهَا الأَمْرَانِ: مَشَقَّةُ السَّيْرِ، وَمَشَقَّةُ الجُوعِ. وَهِيَ صَابِرَةٌ، لَا تَئِنُّ.

(١) إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدِ بْنِ رَبِيعَةِ بْنِ مفرّغ الحِمْيَرِيّ (١٠٥ - ١٧٣ هـ) كَانَ مُغَالِيًا فِي تَشَيُّعِهِ لِسَيِّدِنَا عَلِيٍّ ﷺ، وَكَانَ يَسُبُّ الصَّحابَةَ، وَأُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ. وَهَذَا مِنَ الضَّلَالِ المُبِينِ.

(٢) الْبَيْتُ مِنْ قَصِيدَةٍ مَطْلَعُهَا:

دُونَكُمُوهَا يا بَنِي هَاشِمٍ ... فَجَدِّدُوا مِنْ آيِهَا الطَّامِسَا

وَيَقُولُ:

قَـدْ سَاسَـهَا قَبْلَكُـمْ سَاسَـةٌ ... لَـمْ يَتْرُكُـوا رَطْبًـا وَلَا يَابِسَـا

لَـوْ خُيِّـرَ المِنْبَـرُ فُرْسَـانَهُ ... مَا اخْتَارَ إِلَّا مِنْكُمْ فَارِسَا

والمُلْكُ لَوْ شُووِرَ فِي سَائِسٍ ... لَما ارْتَضَىٰ غَيْرَكُمْ سَائِسَا

(٣) إِذَا نَظَرْتَ فِي بَيْتِ «السَّيِّدِ الحِمْيَرِيِّ» رَأَيْتَهُ مِنْ قَبِيلِ تَأْخِيرِ المَعْمُولَيْنِ عَنْ (إِلاَّ) وَالَّذِي وَلِيَ (إِلاَّ) هُوَ المتَعَلِّقُ: الجَارُّ وَالمَجْرُورُ «مِنْكُمْ». وَالمَعْنَىٰ: مَا اخْتَارَ فَارِسًا إِلَّا مِنْكُمْ. يُثْنِي عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ

وَالمُرَادُ بِصِفَتِهِ كَوْنُهُ فَاعِلًا أَوْ مَفْعُولًا أَوْ ذَا حَالٍ أَوْ حَالًا، وَعَلَىٰ هَذَا الْقِيَاسِ. وَإِذَا كَانَ النَّفْيُ مُتَوَجِّهًا إِلَىٰ مَا وَصَفْنَاهُ، فَإِذَا أَوْجَبَ مِنْهُ شَيْءٌ جَاءَ الْقَصْرُ.

• • •

[حُكْمُ تَقْدِيمِ المَقْصُورِ عَلَيْهِ مَعَ «إِلَّا»][1]

وَيَجُوزُ تَقْدِيمُ «المَقْصُورِ عَلَيْهِ» مَعَ حَرْفِ الْاسْتِثْنَاءِ بِحَالِهِمَا عَلَىٰ المَقْصُورِ، كَقَوْلِكَ: «مَا ضَرَبَ إِلَّا عَمْرًا زَيْدٌ»، و«مَا ضَرَبَ إِلَّا زَيْدٌ عَمْرًا»، و«مَا كَسَوْتُ إِلَّا جُبَّةً زَيْدًا»، و«مَا ظَنَنْتُ إِلَّا زَيْدًا مُنْطَلِقًا»، و«مَا جَاءَ إِلَّا رَاكِبًا زَيْدٌ»، و«مَا جَاءَ إِلَّا زَيْدٌ رَاكِبًا».

وَقَوْلُنَا: «بِحَالِهِمَا» احْتِرَازٌ مِنْ إِزَالَةِ حَرْفِ الاسْتِثْنَاءِ عَنْ مَكَانِهِ بِتَأْخِيرِهِ عَنْ المَقْصُورِ عَلَيْهِ. كَقَوْلِكَ فِي الْأَوَّلِ: «مَا ضَرَبَ عَمْرًا إِلَّا زَيْدٌ»، فَإِنَّهُ يَخْتَلُّ المَعْنَىٰ[2].

مَحَلُّ الاخْتِيَارِ لِلْفِرْسَانِ، فَفِيهِ تَعْرِيضٌ بِغَيْرِهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا أَهْلًا لِأَنْ يَخْتَارَ المِنْبَرُ فَارِسًا مِنْهُمْ كَمَا يَخْتَارُ مِنَ المَمْدُوحِينَ. ذَلِكَ مَا يُوجِبُهُ الثَّنَاءُ، وَنَهْجُ الإِطْرَاءِ.

وَلَوْ أَنَّا جَعَلْنَا المقْصُورَ عَلَيْهِ هُوَ المَفْعُولُ بِهِ (فَارِسًا) لَاسْتَحَالَ المَعْنَىٰ إِلَىٰ (مَا اخْتَارَ مِنْكُمْ إِلَّا فَارِسًا). وَمَعْنَىٰ هَذَا: أَنَّ فِيهِمْ مَنْ لَيْسَ بِفَارِسٍ، وهَذَا لا يَجْرِي فِي بَحْرِ الثَّنَاءِ، وَمِنْ ثَمَّ يَنْبُو عَنِ السِّيَاقِ.

(١) هَذَا نَظَرٌ نَحْوِيٌّ لاَ بَلاَغِيٌّ، فَالبَلاَغِيُّ لاَ يُعْنَىٰ بِالجَوَازِ والمَنْعِ؛ لأَنَّهُ لاَ يَعْمَلُ إِلاَّ فِي مَا كَانَ جَائِزًا، أَمَّا مَا كَانَ وَاجِبًا أَوْ مُمْتَنِعًا، فَلَا يُعْنَىٰ بِالقَوْلِ فِيه؛ لِأَنَّهُما لَا يَكُونُ مَعَهُمَا اخْتِيَارٌ، وَالبَلَاغِيُّ لَا يَعْمَلُ إِلَّا فِيمَا كَانَ فِيه اخْتِيَارٌ، فَيَخْتَارُ الْبَلِيغُ وَفْقَ مُقْتَضَىٰ الحَالِ.

(٢) سَيَكُونُ المَعْنَىٰ حِينئِذٍ مَا وَقَعَ الضَّرْبُ عَلَىٰ عَمرٍو إِلاَّ مِن زَيدٍ، فَأَنْتَ بِهَذَا تُعَيّنُ «الفِعْلَ»، وَلَيْسَ القَصْدُ إِلَىٰ ذَلِكَ.

المُرَادُ تَعْيِينِ المَفْعُولِ؛ أَيْ مَا وَقَعَ الضَّرْبُ مِنْ زَيْدٍ إِلَّا عَلَىٰ عَمْرٍو، وَمِنْ ثَمَّ يَكُونُ تَقْدِيمُ المقْصُورِ عَلَيْهِ وَحْدَهُ دُونَ «إِلَّا» لَا يُحَقِّقُ حُسْنَ الدَّلَالَةِ، وَمِنْ ثَمَّ يَكُونُ مِنْ قَبِيلِ «التَّعْقِيدِ اللَّفْظِيِّ» المُخِلِّ

فَالضَّابِطُ أَنَّ الْاخْتِصَاصَ إِنَّمَا يَقَعُ فِي الَّذِي يَلِي «إِلَّا»، وَلَكِنَّ اسْتِعْمَالَ هَذَا النَّوْعِ أَعْنِي تَقْدِيمَهَا قَلِيلٌ؛ لِاسْتِلْزَامِهِ قَصْرَ الصِّفَةِ قَبْلَ تَمَامِهَا، كَالضَّرْبِ الصَّادِرِ مِنْ «زَيْدٍ» فِي: «مَا ضَرَبَ زَيْدٌ إِلَّا عَمْرًا»، وَالضَّرْبِ الْوَاقِعِ عَلَىٰ «عَمْرٍو» فِي: «مَا ضَرَبَ عَمْرًا إِلَّا زَيْدٌ».

وَقِيلَ: إِذَا أُخِّرَ الْمَقْصُورُ عَلَيْهِ والْمَقْصُورُ عَنْ «إِلَّا» وَقُدِّمَ الْمَرْفُوعُ، كَقَوْلِنَا: «مَا ضَرَبَ إِلَّا عَمْرٌو زَيْدًا»، فَهُوَ عَلَىٰ كَلَامَيْنِ، و«زَيْدًا» مَنْصُوبٌ بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: «مَا ضَرَبَ إِلَّا عَمْرٌو»؛ أَيْ مَا وَقَعَ ضَرْبٌ إِلَّا مِنْهُ، ثُمَّ قِيلَ: مَنْ ضَرَبَ؟ فَقِيلَ: «زَيْدًا»؛ أيْ ضَرَبَ زَيْدًا[1]. وَفِيهِ نَظَرٌ لِاقْتِضَائِهِ الحَصْرَ فِي الفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ جَمِيعًا.

• • •

بِفَصَاحَةِ البَيَانِ؛ ذَلِكَ أَنَّ بَيَانَكَ يُفِيدُ شَيْئًا سَيَفْهَمُهُ السَّامِعُ مِنْهُ، وَأَنْتَ تَقْصِدُ غَيْرَهُ، فَيُعَامِلُ السَّامِعَ عَلَىٰ غَيرِ مَا تُرِيدُ، فيَكُونُ فَسَادًا، وَحَقُّ السَّامِعِ عَلَيْكَ مُتَكَلِّمًا أَنْ يَكُونَ بَيَانُكَ هَادِيًا لَهُ إِلِىٰ مُرَادِكَ، فَيَتَحَقَّقُ التَّوَاصُلُ الَّذِي هُوَ طِلْبَةُ التَّخاطُبِ بَيْنَكُمَا.

(١) الذَّهَابُ إِلَىٰ أَنَّ قَوْلَنَا: «مَا ضَرَبَ إِلاَّ عَمْرٌو زَيْدًا» جُمْلَتَانِ يَسْتَوْجِبُ أَنْ تَكُونَ سَكْتَةٌ بَعْدَ «عَمْرٍو» فِي الأَدَاءِ الشّفَاهِيّ، ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ بَعْدَ هُنَيْهَةٍ قَائِلًا: «عَمرًا»، ويَسْتَوْجبُ فِي الأَدَاءِ الْكِتَابِيّ أَنْ تُوضَعَ عَلَامَةُ التَّرْقِيمِ النُّقْطَةُ بَعْدَ عَمْرو: (مَا ضَربَ إِلَّا عَمرُو. زَيْدًا)، وَهَذَا يَجْعَلُ قَوْلَهُ: «زَيْدًا» جُمْلَةً اسْتِئْنافِيّةً مَفْصُولَةً عَنِ الَّتِي قَبْلَهَا، لِشِبْهِ كَمَالِ الاتِصَال (الاسْتِئْنَافِ البَيَانِيّ)؛ أَيْ تَكُونُ جَوَابًا عَنْ سُؤَالٍ تَضَمَّنَتْهُ الجُمْلَةُ الأُوْلَىٰ: «مَنْ ضَرَبَ»، فَيَأْتِي قَوْلُكَ: (زَيْدًا) جَوَابًا عَنْ هَذَا السُّؤَالِ المُقدَّرِ، حُذِفَ مِنْه صَدْرُ «الاستئنَافِ»؛ أَيْ ضَرَبَ زَيْدًا.

[مَوْقِعُ المَقصُورِ عَلَيْهِ مَعَ «إِنَّما»]:

وَأَمَّا فِي «إِنَّمَا»، فَيُؤَخَّرُ المَقْصُورُ عَلَيْهِ. تَقُولُ: «إِنَّمَا زَيْدٌ قَائِمٌ»، و«إِنَّمَا ضَرَبَ زَيْدٌ»، و«إِنَّمَا ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْرًا»، و«إِنَّمَا ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْرًا يَوْمَ الجُمُعَةِ»، و«إِنَّمَا ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْرًا يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي السُّوقِ»، أَيْ «مَا زَيْدٌ إِلَّا قَائِمٌ»، و«مَا ضَرَبَ إِلَّا زَيْدٌ»، و«مَا ضَرَبَ زَيْدٌ إِلَّا عَمْرًا»، و«مَا ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْرًا إِلَّا يَوْمَ الْجُمُعَةِ»، و«مَا ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْرًا يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَّا فِي السُّوقِ».

فَالْوَاقِعُ أَخِيرًا هُوَ المَقْصُورُ عَلَيْهِ أَبَدًا؛ وَلِذَلِكَ تَقُولُ: «إِنَّمَا هَذَا لَكَ»؛ و«إِنَّمَا لَكَ هَذَا»؛ أَيْ مَا هَذَا إِلَّا لَكَ، وَمَا لَكَ إِلَّا هَذَا، حَتَّىٰ إِذَا أَرَدْتَ الْجَمْعَ بَيْنَ «إِنَّمَا»، و«الْعَطْفِ»، فَقُلْ: «إِنَّمَا هَذَا لَكَ لَا لِغَيْرِكَ»، و«إِنَّمَا لَكَ هَذَا لَا ذَاكَ»، و«إِنَّمَا أَخَذَ زَيْدٌ لَا عَمْرٌو»، و«إِنَّمَا زَيْدٌ يَأْخُذُ لَا يُعْطِي»[1].

وَمِنْ هَذَا تَعْثُرُ عَلَىٰ الْفَرْقِ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨]، وَقَوْلِنَا: «إِنَّمَا يَخْشَىٰ العُلَمَاءُ مِنْ عِبَادِ اللهِ»، فَإِنَّ الْأَوَّلَ يَقْتَضِي قَصْرَ خَشْيَةِ اللهِ عَلَىٰ الْعُلَمَاءِ، وَالثَّانِي يَقْتَضِي قَصْرَ خَشْيَةِ العُلَماءِ علَىٰ اللهِ[2].

(١) هَذَا يَسْتَوجِبُ أَنْ يَكُونَ مَا بَعْدَ (لاَ) هُوَ المُقَابِلُ لَلمَقْصُورِ عَلَيْهِ: «إِنَّمَا جَاءَ مُحمَّدٌ لاَ خَالِدٌ»، فَإِنْ قُلْتَ: «إِنَّما شَوْقِي شَاعِرٌ لَا المَعَرِّي»، كُنْتَ قَدْ أَخْلَلْتَ، وَالصَّوَابُ:» إِنَّما شَوقِي شَاعِرٌ لَا رَسَّامٌ».

(٢) قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨] القَصْدُ إِلَىٰ أَنَّ الخَشْيَةَ الحَقِيقَةَ للهِ إِنَّما تَكُونُ مِنَ العُلَمَاءِ لَا مِنْ غَيرِهِمْ، ذَلِكَ أَنَّ «الخَشْيَةَ» هِيَ الخَوفُ المؤَسَّسُ عَلَىٰ العِلْمِ، بِمَا يُخافُ مِنْهُ ف «الخوفُ» أعَمُّ، و«الخَشْيَةُ» أَخصُّ، وَلَا يُرَادُ بِالعُلَمَاءِ هُنَا عُلَمَاءُ الشَّرِيعَةِ وَحْدَهُمْ، بَلْ كُلُّ عِلمٍ يَزِيدُكَ قُرْبًا مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ ، وَمَنْفَعَةً لِلْعِبادِ، وَإِصْلَاحًا لِلْحَياةِ هُوَ عِلْمٌ نَافِعٌ يُحقِّقُ لِصَاحِبِهِ الخَشْيَةَ مِنَ اللهِ تَعالَىٰ وَصَاحبه مِنَ العُلَمَاءِ.

[ما بيْن «غيْر»، و«إلَّا»]

وَاعْلَمْ أَنَّ حُكْمَ «غَيْرِ» حُكْمُ «إِلَّا» فِي إِفَادَةِ القَصْرَيْنِ؛ أَيْ «قَصْرَ المَوْصُوفِ عَلَىٰ الصِّفَةِ»، و«قَصْرَ الصِّفَةِ عَلَىٰ المَوْصُوفِ»، وَفِي امْتِنَاعِ مُجامَعَةِ «لَا» الْعَاطِفَةِ.

تَقُولُ فِي قَصْرِ المَوْصُوفِ إِفْرَادًا: «مَا زَيْدٌ غَيْرُ شَاعِرٍ»، وَقَلْبًا: «مَا زَيْدٌ غَيْرُ قَائِمٍ».

وَفِي قَصْرِ الصِّفَةِ بِالاعْتِبَارَيْنِ بِحَسَبِ المَقَامِ: «لَا شَاعِرَ غَيْرُ زَيْدٍ»، وَلَا تَقُولُ: «مَا زَيْدٌ غَيْرَ شَاعِرٍ لَا كَاتِبٍ»، وَلَا: «لَا شَاعِرَ غَيْرُ زَيْدٍ لَا عَمْرٍو». (انتهىٰ).



تَلْخِيصُ بَابِ الْقَصْرِ

١) «الْقَصْرُ» مُصْطَلَحٌ بَلَاغِيٌّ يُرَادُ بِهِ تَخْصِيصُ أَمْرٍ بِأَمْرٍ بِطَرِيقٍ مَخْصُوصٍ فِي جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ.

٢) يَقُومُ الْقَصْرُ مِنْ: مَقْصُورٍ، وَمَقْصُورٍ عَلَيْهِ.

٣) يَقُومُ «الْقَصْرُ» مِنَ اجْتِمَاعِ «إِثْبَاتٍ وَنَفْيٍ» فِي جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ. يَكُونُ الْإِثْبَاتُ تَصْرِيحًا فِي طُرُقِهِ كُلِّهَا إِلَّا «طَرِيقُ الْعَطْفِ»، فَهُمَا مَعًا مُصْرَحٌ بِهِمَا فِيهِ.

٤) الْقَصْرُ طَرِيقٌ مِنْ طُرُقِ «إِيجَازِ القِصَرِ» لِجَمْعِهِ بَيْنَ مَعْنَىٰ جُمْلَتِينِ فِي جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ.

٥) الْقَصْرُ بِاعْتِبَارِ طَرَفَيْهِ نَوْعَانِ: قَصْرُ مَوصُوفٍ عَلَىٰ صِفَةٍ، وَقَصْرُ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوصُوفٍ.

٦) الْقَصْرُ بِاعْتِبَارِ عُمُومِ النَّفْيِ وَخُصُوصِهِ إِلَىٰ نَوْعَيْنِ: قَصْرٍ حَقِيقِيٍّ (الْمَنْفِيُّ عَامٌّ)، وَقَصْرٍ غَيْرِ حَقِيقِيٍّ (إِضَافِيٍّ): مَا كَانَ الْمَنْفِيُّ غَيْرَ عَامٍّ.

٧) الْقَصْرُ بِاعْتِبَارِ تَحَقُّقِ النَّفْيِ وَادِّعَائِهِ ضَرْبَانِ: قَصْرٌ تَحْقِيقِيٌّ: مَا كَانَ النَّفْيُ الْعَامُّ مُطَابِقًا لِلْوَاقِعِ، وَقَصْرٌ ادِّعَائِيٌّ(لِلْمُبَالَغَةِ): مَا كَانَ النَّفْيُ الْعَامُّ غَيْرَ مُطَابِقٍ لِلْوَاقِعِ.

٨) الْقَصْرُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ الَّذِي يَنْقَسِمُ إِلَىٰ: تَحْقِيقِيٍّ وَادِّعَائِيٍّ عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَبَعْضُهُمْ يَجْعَلُهُ حَاضِرًا فِي الْإِضَافِيِّ أَيْضًا.

٩) يَنْقَسِمُ الْقَصْرُ الْإِضَافِيُّ (غَيْرُ الْحَقِيقِيِّ) بِاعْتِبَارِ حَالِ الْمُخَاطَبِ اعْتِقَادًا إِلَىٰ ثَلَاثَةِ أَضْرُبٍ: (قَصْرِ إِفْرَادٍ)، و(قَصْرِ قَلْبٍ)، و(قَصْرِ تَعْيِينٍ).

١٠) «الْقَصْرُ» غَرَضٌ مِنْ أَغْرَاضِ الْبَيَانِ الَّتِي يَرْمِي إِلَيْهَا الْمُبِينُ، وَكُلُّ غَرَضٍ لَهُ طَرَائِقُ، وَطَرَائِقُ الْقَصْرِ كَثِيرَةٌ. اخْتَصَّ الْبَلَاغِيُّونَ أَرْبَعَةً مِنْهَا فِي هَذَا الْبَابِ.

١١) الْعَطْفُ بـ(لَا)، و(بَلْ)، و(لَكِنْ) وَلِكُلٍّ شُرُوطٌ، لِيُفِيدَ الْقَصْرَ.

١٢) الْعَطْفُ بـ(لَا) يَكُونُ الْمَقْصُورُ عَلَيْهِ هُوَ الْمُعَادِلُ لِمَا بَعْدَهَا فِي الْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ عَلَيْهَا.

١٣) الْعَطْفُ بـ(لَا) يَجْتَمِعُ مَعَ (إِنَّمَا)، و(التَّقْدِيمِ)، وَلَا يَجْتَمِعُ (مَعَ الاسْتِثْنَاءِ الْمُفَرَّغِ).

١٤) الْعَطْفُ بـ(لَا) يَكُونُ لِقَصْرِ الْقَلْبِ.

١٥) الْعَطْفُ بـ (بَلْ) الْمَقْصُورُ عَلَيْهِ مَا كَانَ بَعْدَهَا.

١٦) الْعَطْفُ بـ (لَكِنْ) الْمَقْصُورُ عَلَيْهِ مَا كَانَ بَعْدَهُ.

١٧) طَرِيقُ (الْعَطْفِ) لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْقَصْرِ «الْإِضَافِيِّ».

١٨) طَرِيقُ (الاسْتِثْنَاءِ الْمُفَرَّغِ) يَكُونُ الْمَقْصُورُ عَلَيْهِ مَا كَانَ بَعْدَ (أَدَاةِ الاسْتِثْنَاءِ) مُبَاشَرَةً، لَا يُفْصَلُ بَيْنَهُمَا، وَلَا يَتَقَدَّمُ هُوَ عَلَيْهَا.

١٩) يَصِحُّ تَقْدِيمُ الْمَقْصُورِ عَلَيْهِ عَلَىٰ الْمَقْصُورِ إِذَا تَقَدَّمَتْ مَعَهُ «أَدَاةُ الاسْتِثْنَاءِ».

٢٠) الْقَصْرُ بـ (الْاسْتِثْنَاءِ الْمُفَرَّغِ) يَكُونُ مَعَ مَا يَكُونُ مَجْهُولًا أَوْ مُنْكَرًا أَوْ غَرِيبًا، أَوْ مَا شَأْنُهُ أَنْ يَكُونُ كَذَلِكَ.

٢١) قَدْ يُنَزَّلُ غَيْرُ الْمَجْهُولِ مَنْزِلَةَ الْمَجْهُولِ لِمُقْتَضٍ.

٢٢) طَرِيقُ (إِنَّمَا) مُكَوَّنٌ مِنْ (إِنَّ) و(مَا) الْكَافَّةِ، وَلَيْسَتْ (الْمَوصُولَةَ)، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ (إِنَّمَا) بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ، وَفَتْحِهَا فِي إِفَادَةِ الْقَصْرِ.

٢٣) الْمَقْصُورُ عَلَيْهِ مَعَ (إِنَّمَا) هُوَ الْمُؤَخَّرُ، وَهُوَ الَّذِي يَكُونُ مُعَادِلًا لِمَا بَعْدَ (لَا) إِذَا ذُكِرَتْ مَعَهَا.

٢٤) يَكُونُ الْقَصْرُ بـ (إِنَّمَا) مَعَ مَا لَا يُجْهَلُ، أَوْ لَا يُنْكَرُ، أَوْ مَا كَانَ شَأْنُهُ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ.

٢٥) قَدْ يُنَزَّلُ الْمَعْلُومُ، وَالمُسَلَّمُ مَنْزِلَةَ الْمَجْهُولِ وَالْمُنْكِرِ لِمُقْتَضٍ.

٢٦) أَحْسَنُ مَقَامَاتِ (إِنَّمَا) التَّعْرِيضُ، وَهُوَ الدَّلَالَةُ عَلَىٰ مَعْنَىٰ غَيْرِ مَذْكُورٍ بِطَرِيقِ «التَّلْوِيحِ»، وَهُوَ مَا يُسَمَّىٰ بـ (مُسْتَتْبَعَاتِ التَّرَاكِيبِ).

٢٧) طَرِيقُ (التَّقْدِيمِ) الْمُفِيدِ لِلْقَصْرِ هُوَ تَقْدِيمُ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرِ فِي (النَّحْوِ)، أَمَّا مَا وَجَبَ تَقْدِيمُهُ أَوْ امْتَنَعَ عِنْدَ «النُّحَاةِ» فَلَا يَكُونُ فِيهِ قَصْرٌ.

٢٨) «التَّقْدِيمُ» يَقَعُ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالْفَاعِلِ، وَالْفِعْلِ وَمُتَعَلَّقَاتِهِ إِلَا الْمَفْعُول مَعَهُ، وَلَا يَقَعُ بَيْنَ النَّعْتِ وَالْمَنْعُوتِ.

٢٩) الْمَقْصُورُ عَلَيْهِ فِي التَّقْدِيمِ هُوَ الْمُقَدَّمُ.

٣٠) تَجْتَمِعُ(لَا) مَعَ التَّقْدِيمِ، وَيَكُونُ مَا بَعْدَهَا هُوَ عَدِيلُ الْمُقَدَّمِ.

طَرِيقُ (الْعَطْفِ)، و(الْاسْتِثْنَاءِ الْمُفَرَّغِ)، و(إِنَّمَا) يُفِيدُ الْقَصْرَ وَضْعًا، و(التَّقْدِيمُ) يُفِيدُ الْقَصْرَ بِالْفَحْوَىٰ وَالذَّوْقِ، فَدَلَالَتُهُ سِيَاقِيَّةٌ.



تَطْبِيقَاتٌ تَحْلِيلِيَّةٌ

التَّطْبِيقُ الْأَوَّلُ

يَقُولُ الْحَقُّ ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] جاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي سِيَاقِ سُورَةِ: (آلِ عِمْرَانَ) وَهِيَ سُورَةٌ مَعْقُودَةٌ لِلْقَوْلِ فِي تَقْرِيرِ عَقِيدَةِ صَفَاءِ التَّوْحِيدِ، وَذِكْرِ شَأْنِ الْمُصْطَفِينَ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ، قَوْلُهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يُفِيدُ الْقَصْرَ بِطَرِيقِ تَعْرِيفِ الطَّرَفَيْنِ، وَالْمَعْنَىٰ: مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ إِلَّا اللهُ، وَهَذَا تَمْكِينٌ لِمَعْنَىٰ الْوَحْدَانِيَّةِ، فَلَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهٌ آخَرُ لَشَارَكَهُ، أَوْ نَازَعَهُ فِي إِنْزَالِ الْكِتَابِ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ أَوْ عَلَىٰ غَيْرِهِ.

وَهَذَا مِنْ جَلِيلِ مَا يُسَمَّىٰ: (بَرَاعَةَ الاسْتِهْلَالِ) وَلَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ (بَرَاعَةَ الاسْتِهْلَالِ) مَقْصُورَةٌ عَلَىٰ أَوَّلِ السُّورَةِ أَوْ الْقَصِيدَةِ، بَلْ تَكُونُ فِي مُفْتَتَحِ كُلِّ قَوْلٍ بَلِيغٍ سُورَةٍ أَوْ آيَةٍ أَوْ قَصِيدَةٍ أَوْ فَصْلٍ فِي قَصِيدَةٍ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ تَتَلَاحَظُ مَعَ فَاتِحَةِ السُّورَةِ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ١ – ٥].

قَوْلُهُ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] عَلَىٰ مَذْهَبِ وُجُوبِ الْوَقْفِ عَلَىٰ اسْمِ الْجَلَالَةِ يَكُونُ الْأُسْلُوبُ طَرِيقَ الْقَصْرِ فِيهِ الْاسْتِثْنَاءُ الْمُفَرَّغُ، وَالْمَقْصُورُ عَلَيْهِ هُوَ مَا بَعْدَ (إِلَا) هُوَ اسْمُ الْجَلَالَةِ (اللهُ) وَالْمَقْصُورُ هُوَ (عِلْمُ تَأْوِيلِ الْمُتَشَابِهِ)، فَقَدْ قَصَرَ عِلْمَ تَأْوِيلِ الْمُتَشَابِهِ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَنَفَاهُ عَنْ كُلِّ مَا عَدَاهُ جَلَّالَهُ، فَهُوَ قَصْرُ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوصُوفٍ قَصْرًا حَقِيقِيًّا تَحْقِيقِيًّا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧] عَلَىٰ هَذَا يَكُونُ فِيهِ قَصْرٌ طَرِيقُهُ التَّقْدِيمُ: قُدِّمَ الْمُسْنَدُ إِلَيْهِ ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ عَلَىٰ الْمُسْنَدِ ﴿يَقُولُونَ﴾ قَصَرَ مَوصُوفٍ عَلَىٰ صِفَةٍ قَصْرًا إِضَافِيًّا، نَفَىٰ هَذَا الْقَوْلَ عَنِ الَّذِين فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ.

فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ تَسْلِيمَ الْمُتَشَابِهِ فِي كَيْفِيَّتِهِ إِلَىٰ اللهِ ﷻ هُوَ مَذْهَبُ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ. التَّفْوِيضِ فِي الْكَيْفِيَّةِ، وَلَيْسَ فِي مَعْنَىٰ الْكَلَامِ. فَمَعْنَىٰ مَا تَشَابَهَ مَفْهُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ.

وَعَلَىٰ مَذْهَبِ مَنْ يَقِفُ عَلَىٰ آخرِ قَوْلِهِ: ﴿ٱلْعِلْمِ﴾ يَكُونُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِمَّنْ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهَ، إِلَّا أَنَّ عِلْمَهُمْ لَيْسَ كَعِلْمِ اللهِ تَعَالَىٰ الْمُتَشَابِهِ: عِلْمُهُ جَلَّالَهُ مُحِيطٌ الْمَعْنَىٰ وَالْكَيْف، وَعِلْمُ الرَّاسِخِينَ مَحْصُورٌ فِي عِلْمِ تَأْوِيلِ الْمَعْنَىٰ دُونَ الْكَيْفِ، وَهَذَا مَا أَذْهَبُ إِلَيهِ وَأُومِنُ بِهِ. فَهُوَ الْأَحْكَمُ وَالْأَسْلَمُ.

وَفِي عَطْفِ قَوْلِهِ: ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ عَلَىٰ اسْمِ الْجَلَالَةِ تَشْرِيفٌ لِلْرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ، وَفِي هَذَا مِنْ إِغْرَائِكَ وَتَثْوِيرِكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ مَا فِيهِ، وَأَنْ تَكُونَ عَلَىٰ يَقِينٍ أَنَّ تَحْصِيلَ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ هِيَ المَأمّ الْأَنْفُسُ، وَالْمَحَجُّ الْأَقْدَسُ عِنْدَ أُولِي الْأَلْبَابِ،

وَالرُّسُوخُ فِي الْعِلْمِ لَا يَعْنِي قَطُّ تَحْصِيلَ دَرَجَاتٍ عِلْمِيةٍ، وَاسْتِجْمَاعَ إِجَازَاتٍ وَتَكْثِيرَ شُيُوخٍ، وَتَفَاخُرَ وَتَكَاثُرَ. كَلَّا.

وَالْإِعْرَابُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ قَرِينَةٌ عَلَىٰ أَنَّهُمْ مُتَّسِمُونَ بِمَا يُمَيِّزُهُمْ فِي هَذَا الْبَابِ: بَابِ «الْمُتَشَابِهِ» وَلَا يَكُونُ هَذَا التَّمَيُّزُ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ لَهُمْ مِنْ تَأْوِيلِهِ نَصِيبٌ يَلِيقُ بِمَا وُصِفُوا بِهِ: «الرُّسُوخُ فِي الْعِلْمِ» وَالرُّسُوخُ فِي الْعِلْمِ يَعْصِمُهُمْ مِنْ تَأْوِيلِ الْكَيْفِيَّةِ، فَمَنَ أَوَّلَ الْكَيْفِيَّةَ وَحَاوَلَ تَصوُّرَهَا، فَهُوَ لَيْسَ مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي شَيْءٍ، فَاحْذَرْ «التَّأْوِيلَ» فِي «الْكَيْفِيَّةِ»، وَاحْذَرْ «التَّفْوِيضَ» فِي « الْمَعْنَىٰ».

وَقَوْلُهُ: ﴿يَقُولُونَ﴾ جُمْلَةٌ مَفْصُولَةٌ لـ (الْاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ) وَكَأَنَّهُ قِيلَ: مَاذَا يَقُولُ الرَّاسِخُونَ؟ فَقِيلَ: ﴿يَقُولُونَ﴾.

قَوْلُهُ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أُسْلُوبُ قَصْرٍ طَرِيقُهُ الاسْتِثْنَاءُ الْمُفَرَّغُ، وَهُوَ مِنْ قَصْرِ الصِّفَةِ (التَّذَكُّرِ) عَلَىٰ الْمَوصُوفِ (الْأَلْبَابِ) وَهُوَ – عِنْدِي – قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ تَحْقِيقِيٌّ، وَالْجُمْهُورُ يَجْعَلُهُ قَصْرًا حَقِيقِيًّا ادِّعَائِيًّا أَوْ مَجَازِيًّا.

وَأَنْتَ بِالْخِيَارِ لَكَ أَنْ تَأْخُذَ بِأَيِ الْمَذْهَبَيْنِ، أَخْتَارُ لِنَفْسِي أَنَّهُ قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ تَحْقِيقِيٌّ. فَالتَّذَكُّرُ الْمُرَادُ هُنَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَقَّقَ إِلَّا مِنْ أُولِي الْأَلْبَابِ. فَمَنْ الْتَفَتَ إِلَىٰ خُصُوصِيَّةٍ فِي «التَّذَكُّرِ» وَفْقَ السِّيَاقِ الَّذِي وَرَدَتْ فِيهِ يَكُونُ الْقَصْرُ عِنْدَهُ قَصْرًا حَقِيقِيًّا تَحْقِيقِيًّا. وَمَنْ أَطْلَقَ «التَّذَكُّرَ» جَعَلَهُ مِنْ قَبِيلِ الْقَصْرِ الْحَقِيقِيِّ الْادِّعَائِي.

وَفِي الْإِعْرَابِ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ إِيمَاءٌ إِلَىٰ صَفَاءِ أَفْئِدَتِهِمْ، لَيْسَ فِيهَا مَا يَشُوبُهَا مِنْ شُبْهَةٍ أَوْ شَهْوَةٍ، فَاللُّبُّ هُوَ صَفِيُّ الْفُؤَادِ، وَفِي الْإِتْيَانِ بِالْقَصْرِ هُنَا

بِطَرِيقِ (الْاسْتِثْنَاءِ الْمُفَرَّغِ) دُونَ (إِنَّمَا) كَمَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد: ١٩]. وقوله: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

لِخُصُوصِيَّةِ مَا يَتَكَلَّمُ فِيهِ فِي آيَةِ (آلِ عِمْرَانَ) فَهِيَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَتَيَسَّرُ لِكَثِيرٍ تَذَكُّرُ الْحَقِيقَةِ فِيهَا، وَلِذَلِكَ خَبَطَ فِي بَابِ الْمُتَشَابِهِ كَثِيرٌ مِنَ الْمُشْتَغِلِينَ بِالْعِلْمِ، فَكَانَ هَذَا الْمَعْنَىٰ جَدِيرًا بِأَنْ يَكُونَ الْقَصْرُ فِيهِ بِـ(مَا) و(إِلَّا).

وَغَيْرُ خَفِيٍّ عَلَيْكَ أَنَّ قَوْلَهُ ﷻ: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ لَيْسَ مَعْطُوفًا عَلَىٰ قَوْلِهِمْ: ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ ﴾ فَهُوَ لَيْسَ مِنْ مَقُولِهِمْ الْمَحْكِيِّ عَنْهُمْ، بَلْ هُوَ «تَذْيِيلٌ» مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ، و(الْوَاوُ) «اسْتِئْنَافِيَّةٌ» أَوْ «تَذْيِيلِيَّةٌ» هُوَ قَوْلٌ مَسُوقٌ ثَنَاءً عَلَىٰ «الرَّاسِخِينَ» تَعْرِيضًا بِغَيْرِهِمْ: الَّذِينَ لَيْسَ حَالُهُمْ حَالَ الرَّاسِخِينَ فِي هَذَا الْبَابِ. وَلَيْسَ أَنْكَىٰ عَلَىٰ الْمَرْءِ مِنْ أَنْ يَنْفِيَ أَنْ يَكُونَ مِنْ أُولِي الْأَلْبَابِ.

• • •

التَّطْبِيقُ الثَّانِي

يَقُولُ الْحَقُّ جَلَّجَلَالُهُ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣ – ١٣٦].

جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ خَتْمًا لِلْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي الَّتِي أَرْشَدَ إِلَيْهَا «الَّذِينَ آمَنُوا»، اسْتَهَلَّتْ بِنِدَاءِ (الَّذِينَ آمَنُوا) إِيمَاءً إِلَىٰ أَنَّ مَا هُوَ آتٍ مِنْ أَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ وَنَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ، لَا سَبِيلَ إِلَىٰ تَحْقِيقِهِ إِلَّا إِذَا اسْتُقْبِلَ بِصَفِيِّ الْإِيمَانِ الَّذِي أُسُّهُ التَّسْلِيمُ الْمُطْلَقُ، وَالْيَقِينُ بِأَنَّ كُلَّ أَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ يَكُونُ مِنَ اللهِ ﷻ إِنَّمَا هُوَ نِعْمَةٌ مِنْ نِعَمِهِ ﷻ، وَأَنَّهُ مَا أَلْزَمَنَا بِهِ إِلَّا تَرْبِيَةً لَنَا، وَتَزْكِيَةً، فَهُوَ الَّذِي اسْتَهَلَّ كِتَابَهُ بِإِعْلَامِنَا أَنَّ لَهُ الْحَمْدَ كُلَّهُ، فَجَمِيعُ شَأْنِهِ مُصَاحِبٌ لِكَمَالِ الْحَمْدِ، وَبِإِعْلَامِنَا أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ يُرَبِّيهِمْ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَبِالْمَنْحِ وَالْمَنْعِ... فَحَقٌّ عَلَيْنَا نَحْنُ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ نَنْظُرَ إِلَىٰ كُلِّ أَمْرٍ وَكُلِّ نَهْيٍ فِي بَيَانِ الْوَحْيِ قُرْآنًا وَسُنَّةً إِنَّمَا هُوَ نِعْمَةٌ تَسْتَوجِبُ الشُّكْرَ.

وَشُكْرُهَا يَتَمَثَّلُ فِي أَمْرَيْنِ كُلِّيَّيْنِ:

الْأَوَّلُ: اسْتِقْبَالُهَا بِإِنْفَاذِ مَا جَاءَتْ بِهِ، إِنْفَاذًا مُؤَسَّسًا عَلَىٰ الْمَحَبَّةِ، وَالتَّشَوُّفِ، والتَّشَرُّفِ.

وَالْآخَرُ: الْيَقِينُ الْمَكِينُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَوْدَعَ فِينَا مِنَ الْقُوَّةِ وَالْإِمْكَانَاتِ مَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُومَ بِتَحْقِيقِ مَا أَمَرَنَا بِهِ وَالْكَفِّ عَمَّا نَهَانَا عَنْهُ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، فَإِذَا مَا كَلَّفَنِي رَبِّي ﷻ بِأَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ، فَقَدْ أَقَامَ فِيَّ مَا يُمَكِّنُنِي مِنَ الْقِيَامِ بِمَا أَمَرَ أَوْ نَهَىٰ عَلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي يُرْضِيهِ، فَإِذَا لَمْ يُقِمْ فِيهِ هَذِهِ الْإِمْكَانَاتِ أَسْقَطَ عَنِي التَّكْلِيفَ.

قَوْلُهُ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿لَا تَأْكُلُواْ﴾ [آل عمران: ١٣٠]، وَعَلَىٰ قِرَاءَةِ (سَارِعُوا) بِغَيْرِ (وَاوِ عَطْفٍ) كَمَا هِيَ قِرَاءَةُ نَافِعٍ وَابْنُ عَامِرٍ وَأَبُو جَعْفَر يَكُونُ هَذَا مَفْصُولًا لِكَمَالِ الاتِّصَالِ لِوُقُوعِهِ عَطْفَ بَيَانٍ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ١٣٢] ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الطَّاعَةَ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا بِهَذِهِ الْمُسَارَعَةِ. فَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ مُسَارَعَتِنَا إِلَىٰ طَاعَتِهِ تَعَالَىٰ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ إِنَّمَا هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ مُسَارَعَةٌ إِلَىٰ الْمَغْفِرَةِ، وَالْجَنَّةِ كَمَا وَصَفَهَا، وَفِي هَذَا مِنَ التَّحْفِيزِ مَا فِيهِ.

أَفْهَمُ قَوْلَهَ تَعَالَىٰ: ﴿مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ عَلَىٰ مَعْنَىٰ أَوْسَعَ مِنْ مَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ:

أَذْهَبُ إِلَىٰ أَنَّهُ يَدْخُلُ فِي الْمَغْفِرَةِ مَغْفِرَةُ اللهِ ﷻ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ كُلِّ مَا يَلْحَقُ بِهِمْ ضُرًّا يُنْقِصُ قَدْرَهُمْ فِي الْإِيمَانِ؛ أَيْ يَغْفِرُهُمْ، يَحْفَظُهُمْ مِمَّا يَلْحَقُ بِهِم شَرًّا، فَالْمَغْفُورُ هُنَا هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا، وَالْمَغْفُورُ مِنْهُ هُوَ كُلُّ شَرٍّ! يُنْقِصُ مِنْ إِيمَانِهِمْ، وَهَذَا يَكُونُ فِي مَسِيرِهِمْ فِي الدُّنْيَا، أَمَّا الْمَغْفِرَةُ الَّتِي تَكُونُ فِي الْأَخِرَةِ، فَتَكُونُ مَغْفِرَةٌ مِنَ النَّارِ، وَمِنْ مَغْفِرَةِ ذُنُوبٍ وَآثَامٍ. ذَلِكَ مَا أَذْهَبُ إِلَيهِ.

فَقَوْلُهُ: ﴿مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فِيهِ مِنْ مَعْنَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨] فَكُلُّ مُسْلِمٍ حَقًّا هُوَ مَغْفُورٌ، وَذَنْبُهُ مَغْفُورٌ؛ أَيْ هُوَ مَغْفُورٌ مَحْفُوظٌ مِنَ الشُّرُورِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهُوَ مَغْفُورٌ ذَنْبُهُ وَإِثْمُهُ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قَصْرُ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوصُوفٍ: قَصَرَ مَحَبَّةَ الْمُحْسِنِينَ عَلَيْهِ تَعَالَىٰ، فَطَرِيقُ الْقَصْرِ هُنَا هُوَ: «تَقْدِيمُ الْمُسْنَدِ إِلَيهِ عَلَىٰ الْمُسْنَدِ الْفِعْلِيِّ».

وَفِي مَوَاضِعَ كَثِيرةٍ يُسْنِدُ اللهُ ﷻ إِلَيْه مَحَبَّةَ أَشْيَاءٍ بِعَيْنِهَا، وَفِي هَذَا حَثٌّ وَإِغْرَاءٌ لِي وَلَكَ أَنْ نَسْعَىٰ إِلَىٰ تَحْقِيقِهَا؛ لِأَنَّ مَنْ أَحَبَّ اللهَ تَعَالَىٰ سَعَىٰ إِلَىٰ تَحْقِيقِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ، ذَلِكَ أَنَّ «الحُبَّ» الْحَقَّ هُوَ أَنْ يُؤْثِرَ المُحِبُّ مُرَادَ مَحْبُوبِهِ عَلَىٰ مُرَادِهِ، إِذَا أَحَبَّ اللهُ ﷻ أَمْرًا، فَآيَةُ مَحَبَّتِكَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَنْ تُؤْثِرَ مَا أَحَبَّهُ عَلَىٰ مَا أَنْتَ تُحِبُّ.

فَحَقٌّ عَلَيْكَ لِنَفْسِكَ أَنْ تَسْتَقْرِأَ المَوَاضِعَ الَّتِي أَنْبَأَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِيهَا أَنَّهُ يُحِبُّ كَذَا، لِتُحَقِّقَ مَحْبُوبَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِيكَ، وَتُؤْثِرَ مَحْبُوبَهَ عَلَىٰ مَحْبُوبِكِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْكَ أَنَّ (مَنْ) هُنَا اسْتِفْهَامٌ مَعْنَاهُ النَّفْيُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ، وَجَاءَ بِالنَّفْيِ فِي أُسْلُوبِ اسْتِفْهَامٍ كَأَنَّهُ يَسْتَحِثُّكَ إِلَىٰ أَنْ تَبْحَثَ وَتَتَوخَىٰ لِتُجِيبَ، فَإِذَا مَا تَوَخَّيْتَ وَاسْتَقْرَيْتَ وَجَدْتَ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ، فَتَكُونُ قَدْ بَلَغْتَ الْحَقِيقَةَ بِنَفْسِكِ، وَذَلِكَ أَمْكَنُ لَهَا فِيكَ، وَذَلِكَ مُحَقِّقٌ لَكَ أُنْسَكَ بِهَا، مِنْ أَنَّكَ أَنْتَ الَّذِي بَلَغْتَهَا بِجُهْدِكَ.

هُوَ أُسْلُوبُ قَصْرٍ طَرِيقُهُ (الْاسْتِثْنَاءُ الْمُفَرَّغُ) وَالْمَقْصُورُ عَلَيهِ هُوَ اسْمُ الْجَلَالَةِ: مَا بَعْدَ (إِلَّا)، وَهُوَ قَصْرُ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوصُوفٍ؛ أَيْ قَصْرُ مَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَهُوَ قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ تَحْقِيقِيٌّ.

فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ يجْتَمِعُ جَلَالُ الْأُلُوهِيَّةِ وَجَمَالُ الرُّبُوبِيَّةِ: جَلَالُ الْأُلُوهِيَّةِ مُتَمَثِّلٌ فِي تَفَرُّدِهِ عَزَّوَجَلَّ بِهَذَا فَلَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهٌ آخر، لَنَازَعَهُ ذَلِكَ أَوْ عَارَضَهُ. وَجَمَالُ الرُّبُوبِيَّةِ يَتَمَثَّلُ فِي تَطْيِيبِ نُفُوسِ مَنْ وَقَعُوا فِي الذُّنُوبِ، وَتَنْشِيطٌ لَهُمْ إِلَىٰ التَّوْبَةِ، وَحَجْزٌ لَهُمْ عَنِ الْيَأْسِ، فَالذُّنُوبُ وَإِنْ تَكَاثَرَتْ وَعَظُمَتْ هِيَ مَحَلُّ مَغْفِرَةٍ، فَهُوَ عَزَّوَجَلَّ «الْغَافِرُ، وَالْغَفُورُ، وَالْغَفَّارُ» تَعَدَّدَتْ صِيغُ اسْمِهِ، إِيمَاءً إِلَىٰ اتِّسَاعِ هَذَا الْفِعْلِ الرَّبَانِيِّ، وَتَنَوُّعِ آثَارِهِ وَأَنَّهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ ذَنْبٍ.

• • •

التَّطْبِيقُ الثَّالِث

يَقُولُ اللهُ تعَالَىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥].

فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞ﴾ طَرِيقُ الْقَصْرِ (إِنَّمَا) وَهُوَ قَصْرُ مَوصُوفٍ ﴿أَنَا۠﴾ عَلَىٰ صِفَةٍ ﴿مُنذِرٞ﴾ قَصْرًا إِضَافِيًّا؛ أَيْ: أَنَّ الْمَنْفِي مُتَعَيِّنٌ مُحَدَّدٌ؛ أَيْ لَسْتُ مُنْزِلًا لِلْعِقَابِ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ طَرِيقُ الْقَصْرِ الاسْتِثْنَاءُ الْمُفَرَّغُ وَهُوَ قَصْرُ صِفَةٍ ﴿إِلَٰهٍ﴾ عَلَىٰ مَوصُوفٍ ﴿ٱللَّهُ﴾ قَصْرًا إِضَافِيًّا؛ أَيْ لَسْتُ أَنَا الْإِلَهُ الَّذِي يُنْزِلُ الْعِقَابَ.

وَالسِّيَاقُ الَّذِي انْسَابَتْ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةُ هُوَ الْمُحَدِّدُ الصِّفَةَ الْمَنْفِيةَ، يَقُولُ الْحَقُّ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ٥٥ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٥٦ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ٥٨ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ٥٩ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٦٠ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ٦١ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ٦٢ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٦٣ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ٦٤ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٦٦ قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ٦٧ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ٦٨ مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٦٩ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ [ص: ٥٥ – ٧٠].

السِّيَاقُ كَمَا تَرَىٰ يَفِيضُ بِالْإِنْذَارِ وَالتَّخْوِيفِ مِنْ مَصِيرِ الْإِعْرَاضِ وَعَاقِبَةِ التَّكْذِيبِ، وَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمْ كَسَابِقِيهِمْ أَنَّهُ مَا أَنْذَرَهُمْ وَخَوَّفَهُمْ عُقْبَاهُمْ إِلَّا اسْتَعْجَلُوهُ مَا أَوْعَدَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ، وَمِنَ الْمَقْطُوعِ بِهِ فِي الْعُقُولِ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ إِنْزَالِهِ وَإِيقَاعِهِ إِلَّا إِلَهٌ، لَا نَبِيٌّ أَوْ مَلَكٌ، فَكَأَنَّهُمْ بِاسْتِعْجَالِهِمْ زَاعِمُونَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْسِبُ إِلَىٰ ذَاتِهِ الْأُلُوهِيَّةَ الْمُخْتَصَّةَ بِالْإِنْزَالِ وَالْإِيقَاعِ، لَا النُّبُوَّةَ وَالرِّسَالَةَ الْمُخْتَصَّةَ بِالْإِنْذَارِ وَالتَّخْوِيفِ، فَرَدَّ عَلَيْهِمْ زَعْمَهُمْ مُبَيِّنًا لَهُمْ حَقِيقَتَهُ، كَمَا أَمَرَهُ بِهِ الْحَقُّ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾؛ أَيْ: مُخَوِّفٌ بِمِثْلِ هَذَا مَنْ أَعْرَضَ.

قَصَرَ ذَاتَهُ عَلَىٰ صِفَةِ الإِنْذَارِ، وَنَفَىٰ عَنْهَا مَا ادَّعَىٰ الْمُشْرِكُونَ أَنَّهُ نَاسِبُهُ إِلَىٰ ذَاتِهِ مِنْ صِفَةِ الْأُلُوهِيَّةِ، قَالِبًا عَلَيْهِم اعْتِقَادَهُمْ فِي مَوْقِفِهِ. وَبَعْدَ مَا نَفَىٰ عَنْ ذَاتِهِ هَذِهِ الصِّفَةَ (الْأُلُوهِيَّةَ) الَّتِي تَوَهَّمُوا أَنَّهُ يَنْسِبُهَا لِذَاتِهِ.

أَبَانَ عَمَّنْ هُوَ مُخْتَصٌّ بِهَا، فَقَالَ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ قَصَرَهَا عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ قَصْرَ إِفْرَادٍ يُؤَكِّدُهُ قَوْلُهُ: ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ الدَّالُّ عَلَىٰ التَّفَرُّدِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ.

وَمِمَّا يَحْسُنُ أَنْ تَقِفَ عَلَيْهِ مُسْتَبْصِرًا الْأَمْرَ الْمُوَجَّهَ إِلَىٰ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿قُلْ﴾ هَذَا الْأَمْرُ مِنْ مَآلَاتِ مَعْنَاهُ أَنَّ سَيِّدَنَا رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَأْمُورٌ، وَمَا كَانَ مَأْمُورًا فَثَمَّ آمِرُهُ، وَمَا كَانَ مَأْمُورًا لَا يَسْتَقِيمُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا؛ لِأَنَّ الْإِلَهَ يَأْمُرُ، وَلَا يُؤْمَرُ؛ فَحَيْثُ قَرَأْتَ قَوْلَهُ: ﴿قُلْ﴾ فَهُوَ يُمَكِّنُ فِيكَ عَقِيدَةَ أَنَّ سَيِّدَ خَلْقِهِ إِنَّمَا هُوَ بَشَرٌ مَأْمُورٌ، وَأَنَّ الْإِلَهَ هُوَ اللهُ وَحدَهُ الْخَالِقُ وَالْآمِرُ، فَفِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾ حَيْثُ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مَعْنَىٰ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ).

• • •

التَّطْبِيقُ الرَّابِعُ

وَمِمَّا كَانَ لِلْقَصْرِ الْإِضَافِيِّ فِيهِ الْقَدْحُ الْمُعَلَّىٰ فِي بِنَائِهِ اللُّغَوِيِّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: ١٨٧].

فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَرْبَعُ صُورٍ مِنْ أُسْلُوبِ الْقَصْرِ:

١) قَوْلُهُ: ﴿ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ (إِضَافِيّ تَحْقِيقِيّ إِفْرَادِيّ).

٢) قَوْلُهُ: ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ (إِضَافِيّ تَحْقِيقِيّ إِفْرَادِيّ).

٣) قَوْلُهُ: ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ (إِضَافِيّ تَحْقِيقِيّ إِفْرَادِيّ، وَيَحْتَمِلُ الْقَلْبَ أَوْ التَّعْيِينَ حَسَبَ حَالِ الْمُخَاطَبِ).

٤) قَوْلُهُ: ﴿ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (إِضَافِيّ تَحْقِيقِيّ إِفْرَادِيّ).

كُلُّ صُورِ الْقَصْرِ فِيهَا قَصْرٌ إِضَافِيٌّ تَحْقِيقِيٌّ:

جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي مَعْرِضِ تَقْرِيرِ الْمَطَالِبِ الْأَرْبَعَةِ الرَّئِيسَةِ فِي الْقُرْآنِ (التَّوْحِيدِ / النُّبُوَّةِ / الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ / الْمَعَادِ)، وَقَدْ سَبَقَ هَذِهِ الْآيَةَ تِبْيَانُ الثَّلَاثَةِ الْأُولَىٰ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا تِبْيَانُ الْمَعَادِ، ذَلِكَ سِيَاقُ الْآيَةِ الْعَامِّ، أَمَّا سِيَاقُهَا الْخَاصُّ، فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ قَدْ حَثَّهُمْ عَلَىٰ الْإِشْفَاقِ وَالْخَوْفِ وَالْوَجَلِ مِنْ اقْتِرَابِ أَجَلِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأعراف: ١٨٥]، وَكَانُوا مُنْكِرِينَ لِلْبَعْثِ مُتَهَكِّمِينَ بِالنَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جَعَلُوا يَسْأَلُونَهُ عَنْ مِيقَاتِهَا، فَأَبَانَ الْحَقُّ لَهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ حَقِيقَةَ الْحَقَائِقِ.

أَبَانَ بِالتَّعْبِيرِ بِالْمُضَارِعِ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ دِينَهُمْ لَا يَمْلُونَهُ، وَلَا يَقْنَعُونَ بِمَا يُقَالُ لَهُمْ فِيهِ، عِنَادًا وَجَهْلًا، وَأَبَانَ أَنَّ سُؤَالَهُمْ لَيْسَ عَنِ السَّاعَةِ ذَاتِهَا وَأَهْوَالِهَا وَأَحْدَاثِهَا، وَإِنَّمَا عَنْ مِيقَاتِهَا ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّ سُؤَالَهُمْ كَانَ سُؤَالَ اسْتِهْزَاءٍ، وَقَدْ وَقَعُوا بِهَذَا السُّؤَالِ فِي ضَلَالَيْنِ:

- ضَلَالِ سُؤَالِهِمْ عَنْ أَمْرٍ غَيْرُهُ أَهَمُّ لَهُمْ، فَكَانَ الْأَلْيَقُ السُّؤَالَ عَمَّا يُنْجِيهِمْ وَقْتَ إِرْسَائِهَا.

- ضَلَالِ سُؤَالِهِمْ اسْتِهْزَاءً عَمَّا تَكَاثَرَتْ الدَّلَائِلُ عَلَىٰ أَنَّهُ حَقُّ الْحَقِيقَةِ الَّتِي لَا رَيْبَ فِيهَا.

وَهُمْ فِي سُؤَالِهِمْ الْمُصْطَفَىٰ ﷺ عَنْ مِيقَاتِهَا كَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يَدَّعِي عِلْمَ مِيقَاتِهَا، فَأَمَرَهُ الْحَقُّ ﷻ أَنْ يَقْصِرَ عِلْمَهَا عَلَىٰ كَوْنِهِ عِنْدَ رَبِهِ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ فَهُوَ لَيْسَ قَصْرًا لِعِلْمِ وَقْتِهَا وَمَرْسَاهَا فَحَسْبُ، بَلْ عِلْمِهَا كُلِّهَا، وَهَذَا قَصْرُ مَوصُوفٍ عَلَىٰ صِفَةٍ قَصْرًا إِضَافِيًّا تَحْقِيقِيًّا، وَالتَّعْبِيرُ بِصِفَةِ الرُّبُوبِيَّةِ هُنَا يُشِيرُ إِلَي الْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ﷺ وَإِلَىٰ أُمَّتِهِ بِاسْتِئْثَارِ اللهِ ﷻ بِعِلْمِهَا إِذْ يَكُونُونَ بِذَلِكَ عَلَي صَبْوَةِ الطَّاعَةِ أُهْبَةً وَاسْتِعْدَادًا.

وَالْقَصْرُ هُنَا كَانَ قَصْرَ الْعِلْمِ بِأَحْوَالِهَا وَوَقْتِهَا عَلَىٰ كَوْنِهِ عِنْدَ رَبِهِ، وَلَمْ يَكُنْ قَصْرًا لِعِلْمِهَا عَلَىٰ رَبِّهِ، وَفَرْقٌ بَيْنَهُمْ؛ إِذْ إِنَّهُ أَرَادَ هُنَا إِنْبَاءَهُمْ أَنَّ عِلْمَ أَحْوَالِهَا وَمِيقَاتِهَا قَدْ أُودِعَ حَيْثُ لَا يُمْكِنُ لِمَخْلُوقٍ أَنْ يَكُونَ، فَأَنَّىٰ لِي وَلِمِثْلِي بِعِلْمِهَا، وَمَا عِلْمِي مِنْ شُئُونِ الْمَلَكُوتِ إِلَّا بِوَحْيٍ مِنْهُ سُبْحَانَهُ؛ وَلِذَا أَكَّدَ ذَلِكَ بِقَصْرِ تَجْلِيَتِهَا لِوَقْتِهَا عَلَىٰ الْحَقِّ ﷻ: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ قَصْرَ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوصُوفٍ،

بِخِلَافِ مَا قَبْلَهُ، فَقَدْ كَانَ قَصْرَ مَوصُوفٍ عَلَىٰ صِفَةٍ، لِتَتَآزَرَ خَصَائِصُ الصُّورَتَيْنِ فِي تَقْرِيرِ تِلْكَ الْحَقِيقَةِ كَيْمَا يَقْطَعُ عَلَيْهِم السَّبِيلَ، وَفِي التَّعْبِيرِ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿ثَقُلَتْ﴾ تَنَاغَمٌ مَعَ التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ وَمَعَ قَصْرِ تَجْلِيَتِهَا لِوَقْتِهَا عَلَىٰ الْحَقِّ ﷻ، وَأَكَّدَ خَفَاءَهَا وَثِقَلَهَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِهَذَا الْقَصْرِ الْمُرْعِبِ ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ قَصْرَ مَوصُوفٍ عَلَىٰ صِفَةٍ قَصْرَ قَلْبٍ.

تَتَابَعَتْ صُورُ الْقَصْرِ مُؤَكِّدَةً بَعْضَهَا، ثُمَّ كَرَّرَ إِنْكَارَهُ عَلَيْهِمْ تَكْرِيرَهُمْ السُّؤَالَ عَمَّا الْأَهَمُّ لَهُمْ السُّؤَالَ عَنْ غَيْرِهِ، فَقَالَ: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ مُبَالِغٌ فِي السُّؤَالِ عَنْهَا مُسْتَشْرِفٌ إِلَىٰ إِدْرَاكِ مِيقَاتِهَا وَسِمَاتِهَا، فَكَرَّرَ الْأَمْرَ لَهُ بِأَنْ يَقْطَعَ عَلَيْهِمْ السَّبِيلَ، وَأَنْ يُقَرِّرَ لَهُمْ أَنَّ عِلْمَهَا عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ، وَلَيْسَ عِنْدَ غَيْرِهِ، وَإِنْ كَانَ سَيِّدَ أَنْبِيَائِهِ وَأَعْظَمَهُمْ وَأَقْرَبَهُمْ. فَعِلْمِ مَوْعِدِ السَّاعَةِ مِنْ خَصَائِصِ الْأُلُوهِيَّةِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ سِوَاهُ.

• • •

التَّطْبِيقُ الخَامِسُ

يَقُولُ الْحَقُّ عَزَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

الْآيَةُ مَسُوقَةٌ لِتَقْرِيرِ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَتَوْكِيدِ بَشَرِيَّةِ رَسُولِهِ ﷺ وَرِسَالَتِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ يَأْمُرُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ﴾ فِيهِ قَصْرُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْهِ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ قَصْرُ الْإِلَهِ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ. اجْتَمَعَ القَصْرُ بِطَرِيقِ(إِنَّما)، وَطَرِيقِ (أَنَّمَا) وَفَائِدَةُ اجْتِمَاعِهِمَا: الدَّلَالَةُ عَلَىٰ أَنَّ الْوَحْيَ إِلىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَقْصُورٌ عَلَىٰ اسْتِئْثَارِ اللهِ تَعَالَىٰ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، أَيْ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّهُ لا إِلَهَ لَكُمْ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ المَقْصُودَ الْأَصْلِيَّ مِنْ بِعْثَتِهِ مَقْصُورٌ عَلىٰ التَّوْحِيدِ، فَالأُولَىٰ لِقَصْرِ الحُكْمِ عَلَىٰ الشَّيءِ، وَالثَّانِيَةَ عَلَىٰ الْعَكْسِ.

وَجَلِيٌ أَنَّ القَصْرَ فِي الصُّورَةِ الأُولَىٰ قَصْرٌ إِضَافِيٌ ادِّعَائِيٌ لِلْقَلْبِ؛ إِمَّا أَنَّه: ادِّعَائِيٌّ، أَوْ مَجَازِيٌّ، أَوْ تَنْزِيلِيٌّ، أَوْ عَلَىٰ سَبِيلِ المُبَالَغَةِ، سَمِّهِ مَا شِئْتَ، فَإِنَّهُ وَإِنْ أُوْحِي إِلَيْهِ أُمُورٌ كَثِيرةٌ فَغَيْرُ مَنْظُورٍ إِلَيْهَا هُنَا مُبَالَغَةً فِي إِعْلَاءِ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ، فَهُوَ الْأَصْلُ الأَصِيلُ، وَفِي التَّهَاوُنِ فِيهِ تَبْلِيغًا وَاعْتِقَادًا تَحْطِيمُ كُلِّ شَيءٍ.

وَإِمَّا أَنَّهُ: قَلْبٌ، فَإِنَّهُ مَنْظُورٌ فِيهِ إِلَىٰ أَنَّ الخِطَابَ مَعَ المُشْرِكِينَ، فَالمَعْنَىٰ مَا أُوحِيَ إِلَيَّ فِي أَمْرِ الرُّبُوبِيَّةِ إِلَّا التَّوْحِيدُ. وَفِي قَوْلِهِ: ﴿يُوحَىٰٓ﴾ بِالبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ تَقْرِيرُ: أَنَّ المُوحِي إِلَيْهِ مُتَعَيِّنٌ لَا حَاجَةَ إِلَىٰ ذِكْرِهِ، وَفِي هَذَا رَائِحَةُ قَصْرٍ غَيرِ اصْطِلَاحِيٍّ؛ لِأَنَّ تَعَيُّنَ المُوحِي إِلَيْهِ مَعْنَاهُ: مَا مُوحٍ إِلَيَّ إِلَّا هُو.

التَّطْبِيقُ السَّادِسُ

ومِمَّا يَحْسُنُ الالْتِفَاتُ إِلَيْهِ أَنَّهُ إِذَا مَا كَانَتْ الْبَلَاغَةُ الْإِيجَازَ كَمَا جَرَتْ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَكَانَ أُسْلُوبُ الْقَصْر صُورَةً مِنْ صُوَرِ إِيجَازِ الْقِصرْ، فَإِنَّ الْمَقَامَ يَقْتَضِي حِيْنًا الْعُدُولَ عَنْ الْإِيْجَازِ بِأُسْلُوبِ الْقَصْرِ إِلَىٰ التَّصْرِيحِ بِالْجُمْلَتَيْنِ مَعًا الْمُثْبَتَةِ وَالْمَنْفِيَّةِ، تَرَىٰ هَذَا فِي قَوْلِ الله تَعالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٦].

كَانَ يُمْكِنُ فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ أَنْ يُقَالَ: وَمَا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا، فَيُفْهَمُ مِنْ هَذَا أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبَيلِ الطَّاغُوتِ، بَيْدَ أَنَّهُ عَدَلَ عَنْ هَذَا الْوَجْهِ مِنَ الْبَيَانِ إِلَىٰ أُسْلُوبِ التَّصْرِيحِ بِالْحَالَيْنِ؛ لأَنَّ الْمَقَامَ يَلِيقُ بِهِ مَزِيدُ التَّصْرِيحِ، فَتَجْعَلَ الدَّلَالَةَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ كُلِّ جُمْلَةٍ دَلَالَةً صَرِيحَةً هِيَ دَلَالَةُ الْمَنْطُوقِ (دَلَالَةُ الْعِبَارَةِ) الَّتِي هِيَ أَقْوَىٰ وَأَصْرَحُ وَأَحْكَمُ مُسْتَوَيَاتِ الدَّلَالَةِ، وَلْيَجْعَلَ الْحَالَيْنِ (الْفِعْلَيْنِ) مِنْ كُلِّ فَرِيقٍ بَيْنَ نَاظِرَيْكَ، فَتَرَىٰ فَرْقَ مَا بَيْنَهُمَا، وَتَعْلَمَ مِنْ خِلَالِ ذَلِكَ عَظِيمَ شَرَفِ الَّذِينَ آمَنُواْ، وَأَنَّهُمْ دَائِمًا عَلَىٰ هُدًىٰ، وَأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تَكُونَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِمْ إِلَىٰ خَيْرٍ أَبَدًا، وَحِينَئِذٍ لَا يَجِدُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ إِلَّا فِي الَّذِينَ آمَنُواْ قَائِمًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ. وَهَذَا مَعْنَىً نَفْسِيٌّ جِدٌّ جَلِيلٌ.

وَانْظُرْ كَيْفَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَمْ يَقُلْ: يُقَاتِلُونَ بِمَاذَا، أَوْ يُقَاتِلُونَ مَنْ.

لَمْ يَقُلْ: (يَقْتُلُونَ)؛ لِأَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَيْسَتْ غَايَتُهُ قَتْلَ الْمُخَالِفِ، وَإِنَّمَا غَايَتُهُ مَنْعُ الْمُخَالِفِ مِنْ أَنْ يَصُدَّ الْإِسْلَامَ عَنْ أَنْ يَبْلُغَ النَّاسَ جَمِيعًا، وَأَنْ يُبْصِرُوا الْحَقَّ، وَيَتَّخِذُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا. فَمَنْ تَرَكَ الْإِسْلَامَ يُسْتَمَعُ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَتَصَدَّ لَهُ، فَذَلِكَ لَا يُقْتَلْ، وَلَا يُقَاتَلْ، أَمَّا مَنْ تَصَدَّىٰ، فَإِنَّهُ يُقَاتَلُ، فَإِمَّا يَكُفُّ عَنْ تَصَدِّيهِ، فَيُكَفُّ عَنْ قَتْلِهِ، وَإِمَّا يُقَاتَل حَتَّىٰ يَنْدَحِرَ أَوْ يَنْتَحِرَ.

وَأَطْلَقَ أَدَوَاتِ الْقِتَالِ وَطَرَائِقَهُ، وَأَطْلَقَ مَنْ يَكُونُ قِتَالُهُمْ لَهُ، لِيَشْمَلَ كُلَّ مَنْ كَانَ عَقَبَةً فِي سِيَادَةِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ فِي الْحَيَاةِ، فَكُلُّ مَنْ أَصَرَّ عَلَىٰ أَنْ يَعِيقَ الحَقَّ وَالْخَيْرَ عَنْ أَنْ يُحِيطَ بِحَرَكَةِ الحَيَاةِ هُوَ أَهْلٌ لِأَنْ يُقَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ.

وَأَطْلَقَ الْأَدَوَاتِ وَالطَّرَائِقَ، فَمِنَّا مَنْ يُقَاتِلُ بِلِسَانِ حَالِهِ وَمَقَالِهِ، وَمِنَّا مَنْ يُقَاتِلُ بِمَالِهِ، وَجَاهِهِ، وَمِنَّا مَنْ يُقَاتِلُ بِسَيْفِهِ ... إِلَخ، الْمُهِمُّ أَنْ يَكُونَ الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَىٰ.

• • •

التَّطْبِيقُ السَّابِعُ

يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

هَذِهِ الْآيَةُ اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ خَمْسَةِ مُحَرَّمَاتٍ هِيَ عَلَىٰ التَّرْتِيبِ:

١) ﴿ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾.

٢) ﴿وَٱلۡإِثۡمَ﴾.

٣) ﴿وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾.

٤) ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾.

٥) ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

وَهَذِهِ الْخَمْسُ هِيَ الْمَقْصُورُ عَلَيْهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: مَا حَرَّمَ رَبِّيَ إِلَّا الْفَوَاحِشَ ... إلخ.

وَهَذَا قَصْرٌ إِضَافِيٌّ نَظَرًا لِلْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وَالْمَعْنَىٰ: هَذَا مَا حَرَّمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، وَلَيْسَ الَّذِي حَرَّمْتُمُوهُ أَنْتُم. فَكَأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّمَا حَرَّمَ اللهُ هَذَا، لَا مَا حَرَّمْتُمُوهُ.

وَإِنْ تَأَمَّلْتَ أَلْفَيْتَ أَنَّ هَذِهِ الْخَمْسَةَ اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ سَبِيلِ الإِجْمَالِ كُلَّ مَا هُوَ مُحَرَّمٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَقَوْلُهُ: ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾، ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾، ﴿وَٱلْبَغْىَ﴾ يَدْخُلُ فِيهَا كُلُّ مُحَرَّمٍ، فَمَا مِنْ مُحَرَّمٍ إِلَّا وَهُوَ مِنَ الْفَوَاحِشِ، وَمَا مُحَرَّمٌ إِلَّا وَهُوَ إِثْمٌ، وَمَا مِنْ مُحَرَّمٍ إِلَّا وَهُوَ بَغْيٌ بِغَيْرِ حَقٍّ.

وَهَذِهِ الْمُحَرَّمَاتُ الْكُلِّيَّةُ الْخَمْسُ هِيَ مُحَرَّمَةٌ فِي شِرْعَةِ كُلِّ رَسُولٍ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْهَا أَلْبَتَّةَ مُبَاحًا، فَنُسِخَتْ إِبَاحَتُهُ فِي شَرِيعَةِ رَسُولٍ آخَرَ. وَمِنْ ثَمَّ فَهِيَ أُصُولُ الْمُحَرَّمَاتِ كُلِّهَا، وَهِيَ تَشْمَلُ كُلَّ أَحْوَالِ الإِنْسَانِ وَعَلَاقَاتِهِ مَعَ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَمَعَ نَفْسِهِ، وَمَعَ غَيْرِهِ مِنَ الإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ.

جَاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ عَقِبَ قَصِّ قِصَّةِ آدَمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- مِنْ خَلْقِهِ إِلَىٰ إِخْرَاجِهِ، وَمَا كَانَ مِنْ إِبْلِيسَ مَعَهُ، وَإِهْبَاطِهِ مِنَ الْجَنَّةِ، وَتَذْكِيرِ اللهِ تَعَالَىٰ لِبَنِي آدَمَ أَلَّا يَفْتِنَهُم الشَّيْطَانُ، كَمَا فَتَنَ أَبَوَيْهِمَا آدَمَ وَحَوَّاءَ، وَذَمِّ الْكَافِرِينَ فِي تَحْرِيمِ مَا لَمْ يُحَرَّمْ، آمِرًا نَبِيَّهُ بِذَلِكَ التَّسْفِيهِ وَالإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

أَتْبَعَ ذَلِكَ بِبَيَانِ أُصُولِ مَا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَىٰ، آمِرًا نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِأُمَّتِهِ أُمُورًا يُبَلِّغُهُمْ بِهَا عَنْ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ.

والثَّانِي: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَمَرَ بِالْقِسْطِ، وَإِقَامَةِ الْوَجْهِ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ، وَدَعْوَةِ اللهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ.

وَمِمَّا أَمَرَهُ بِقَوْلِهِ: تِبْيَانِ مَا حَرَّمَهُ اللهُ ﷻ، وَهِيَ الْخَمْسَةُ الَّتِي ذَكَرْتُهَا قَبْلُ.

• • •

التَّطْبِيقُ الثَّامِنُ

يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

يَقُولُ عَبْدُ الْقَاهِرِ: «الْاخْتِصَاصَ فِي الآيَةِ الْأُوْلَىٰ فِي الْمُبتَدَأِ الَّذِي هُوَ الْبَلاغُ وَالْحِسَابُ دُونَ الْخَبَرِ الَّذِي هُوَ عَلَيْكَ وَعَلَيْنَا»، وَهَذَا فِيهِ مُرَاجَعَةٌ تَبْيِينِيَّةٌ مُهِمَّةٌ:

الْمَعْنَىٰ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ مَا عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بِمَا يَقْتَرِحُونَهُ، إِشَارَةٌ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧].

فَالمَنْفِيُّ لَيسَ هُوَ الْحِسَابُ، أَيْ لَيسَ المَعْنَىٰ إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ، لَا الحِسَابُ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْنَا، فَلَيْسَ السِّيَاقُ هُنَا لِلْمُنَازَعَةِ أَعَلَيْهِ الْبَلاغُ أَمْ الحِسَابُ.

وَالمَعْنَىٰ فِي: ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ أَيْ مَا عَلَيْنَا إِلَّا الحِسَابُ، وَلَيْسَ عَلَيْنَا أَنْ نُجِيبَ مُقْتَرَحَاتِهِمْ، فَالسِّيَاقُ هُنَا لِإِثْبَاتِ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَسْتَجِيبَ لِمُقْتَرَحَاتِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَتَعَنُّتَاتِهِمْ، بَلْ الَّذِي عَلَيْهِ -تَفَضُّلًا- هُوَ حِسَابُهُمْ، وَبِهَذَا لَا يُكُونُ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ: الْحِسَابُ عَلَيْنَا لَا عَلَيْكَ كَمَا قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: «وَعَلَيْنَا لَا عَلَيْكَ حِسَابُهُمْ وَجَزَاؤُهُمْ عَلَىٰ أَعْمَالِهِم، فَلَا يُهُمَّنَّكَ إِعْرَاضُهُم، وَلَا تَسْتَعْجِلْ

بِعَذَابِهِم». (أهـ)؛ لَأَنَّ هَذَا لَيْسَ مَنَاطَ الْمُنَازَعَةِ.

هَذَا هُوَ تَحْرِيرُ المَعْنَىٰ، وَأَنْتَ تَرَىٰ حَصَافَةَ عَبْدِ الْقَاهِرِ هُنَا، وَعُمْقَ بَصِيرَتِهِ، فَقَدْ لَاحَظَ السِّيَاقَ. وَبِنَاءً عَلَىٰ هَذَا يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿ عَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ مَعْطُوفًا عَلَىٰ مَدْخُولِ ﴿ إِنَّمَا ﴾، وَلَيْسَ مَعْطُوفًا عَلَىٰ ﴿ إِنَّمَا ﴾، وَمَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ؛ لَأَنَّا إِنْ جَعَلْنَاهُ مَعْطُوفًا عَلَىٰ ﴿ إِنَّمَا ﴾ وَمَدْخُولِهَا، كَانَ التَّقْدِيمُ هُوَ طَرِيقَ الْقَصْرِ قَوْلًا وَاحِدًا، وَلَوْ قُلْنَا بِذَلِكَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الاخْتِصَاصُ فِي المُقَدَّمِ: ﴿ عَلَيْنَا ﴾، وَحِينَئِذٍ لَا يَتَجَاوَبُ المَعْنَىٰ مَعَ السِّيَاقِ.مِنْ خِلَالِ الَّذِي بَيَّنْتُهُ لَكَ يَتَبَيَّنُ لَكَ أَنَّ الِاعْتِرَاضَ عَلىٰ عَبْدِ الْقَاهِرِ بِأَنَّ الاخْتِصَاصَ لَيْسَ فِي الحِسَابِ، بَلْ فِي ﴿ عَلَيْنَا ﴾ اعْتِرَاضٌ لَمْ يَلْحَظْ حَرَكَةَ المَعْنَىٰ وَسِيَاقَهَا فِي السُّورَةِ، وَإِنَّما نَظَرَ إِلَىٰ الجُمْلَةِ مَحْجُوزَةً عَنْ سِيَاقِهَا.

وَبِذَلِكَ تُدْرِكُ الفَرْقَ بَيْنَ المعنىٰ فِي: ﴿ عَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ فِي سُورَةِ (الرَّعْدِ)، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [الغاشية: ٢١ – ٢٦]. إِنْ تَبَصَّرْتَ عَلِمْتَ أَنَّ الاخْتِصَاصَ فِي آيَةِ «الْغَاشِيَةِ» هُوَ «عَلَيْنَا»، مِثْلَمَا الاختِصَاصُ فِي «إِلَيْنَا» فِي قَوْلِهِ: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾، وَالمَعْنَىٰ: إِيَابَهُمْ إِلَيْنَا لَا إِلَىٰ غَيْرِنَا، وَحِسَابُهُم عَلَيْنَا لَا عَلَىٰ غَيْرِنَا. وَفِي قَوْلِهِ: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ المَنْفِيُّ عَنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ بَعْدَهُ: ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾، أَمَّا الاسْتِثْنَاءُ فِي: ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾ فَهُوَ استِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ.

• • •

التَّطْبِيقُ التَّاسِعُ

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ بِسَنَدَيْهِمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَىٰ ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وَالمَسْجِدِ الأَقْصَىٰ».

هَذَا بَيَانٌ نَبَوِيٌ هَادٍ إِلَىٰ الْحسْنَىٰ، قَصَرَ فيه شَدَّ الرِّحَالِ إِلَىٰ المَسَاجِدَ لِلصَّلَاةِ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ، فَهُوَ مِنْ قَبِيلِ قَصْرِ المَوْصُوفِ عَلَىٰ الصِّفَةِ، قَصْرًا حَقِيقِيًّا تَحْقِيقِيًّا، فَهُوَ حُكْمٌ هَامٌّ لِكُلِّ المَسَاجِدَ خَلَا الثَّلَاثَةُ المَذْكُورَةُ، فَالمَعْنَىٰ: شَدُّ الرِّحَالِ إِلَىٰ مَسْجِدٍ لِلصَّلَاةِ فِيهِ مَقْصُورٌ حلُّهُ علىٰ أَنْ يَكُونَ إِلىٰ ثَلَاثَةِ مَسَاجِد.

جَاءَ البَيَانُ فِي أُسْلُوبٍ خَبَرِيٍّ يُرَادُ بِهِ النَّهيُ عَنْ أنْ تُشَدَّ الرِّحَالُ مِنْ أَجْلِ الصَّلَاةِ إِلَّا إِلَىٰ ثَلَاثَةِ مَسَاجِد.

هُوَ فِي الظَّاهِرِ نَهْيٌ عَنْ شَدِّ الرِّحَالِ إِلَىٰ غَيرِ الثَّلَاثَةِ عُمُومًا لِأَيِّ مَقْصِدٍ، وَلَكِنْ أُرِيدَ بِهِ الخَاصُّ، وَهُوَ الصَّلَاةُ، بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ: «المَسَاجِدُ، سُمِّيَتْ بِهَذَا إِيمَاءً إِلَىٰ السُّجُودِ بِاعْتِبَارِهِ مِنَ الْأَرْكَانِ المُهِمَّةِ؛ لِأَنَّهُ الرُّكْنُ الَّذِي يَكُونُ الْعَبْدُ فِيهِ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ إِلَىٰ رَبِّهِ تَعَالَىٰ، ولِأَنَّهُ رَمْزُ الخُضُوعِ والتَذَلُّلِ، وَكَمالِ الطَّاعَةِ، وَكَأَنَّهُ يُومِيءُ إِلَىٰ تَحْقِيقِ كَمَالِ الطَّاعَةِ لِهَذَا النَّهْيِ، فَكَانَ تَلاحُظٌ بَيْنَ اصْطِفَاءِ قَوْلِهِ: «المَسَاجِدِ» وَإِخْرَاجِ النَّهْيِ مُخْرَجَ الخَبَرِ إِيمَاءً إِلَىٰ وُجُوبِ تَحْقِيقِهِ عَلَىٰ وَجْهِ السُّرْعَةِ، فَكَأَنَّهُ اسْتُجِيبَ وَتَحَقَّقَ، فَكَانَ حَقُّهُ أَنْ يُخْبَرَ عَنْهُ.

وإِخْرَاجُ الْإِنْشَاءِ أَمْرًا وَنَهْيًا مخْرَجَ الخَبَرِ مَسْلَكٌ مِنْ مَسَالِكِ التَّوْكِيدِ جِدُّ عَظِيمٌ، وَهُوَ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ يَحْمِلُ إِيمَاءً إِلَىٰ عَظِيمِ أَهَمِّيَّةِ إِنْفَاذِ مَا يُؤْمَرُ بِهِ،

وَالْكَفِّ عَمَّا يُنْهَىٰ عَنْهُ مِنْ مَسَالِكِ تَوكِيدِ المَعَانِي وَتَقْرِيرِهَا فِي الْأَفْئِدَةِ، وَحَثٌّ عَلَىٰ الطَّاعَةِ لِمَا كَانَ مِنْ أَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ. وَكَأَنَّهُ يَقْضِي بِأَنَّ الْأَمْرَ هُنَا لِلْوُجُوبِ، وَالنَّهْيَ للتَّحْرِيمِ، وَأَنَّ كُلًّا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ الفَوْرِ، وَأَنَّ كُلًّا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ الدَّيْمُومَةِ، فَإِخْرَاجُ الْإِنْشَاءِ أَمْرًا وَنَهْيًا يُحَقِّقُ لِلْمَعْنَىٰ اتِّسَاعَهُ وثَرَاءَهُ وَوَكَادَتَهُ.

جَاءَ هَذَا الْبَيَانُ النَّبَوِيُّ قَاصِرًا شَدَّ الرِّحَالِ لِلصَّلَاةِ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ، لِمَا لِكُلٍّ مِنْهَا مِنْ عَظِيمِ الثَّوَابِ فِيهَا، وَسَائِرُ المَسَاجِدَ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فِي هَذَا البَابِ سَواءٌ فِي المَثُوبَةِ، فَلَيْسَ ثَمَّ مَكَانٌ غَيْرُهَا أَفْضَلَ وَأَكْثَرَ مَثُوبَةٍ لِلصَّلَاةِ فِيهِ، فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ صَلَاتَهُ فِي أَيِّ مَسْجِدٍ غَيرِ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ أَعْظَمُ ثَوَابًا مِنَ الصَّلَاةِ فِي غَيْرِهَا، فَقَدْ افْتَرَىٰ الحَرَجَ فِي شَدِّ الرِّحَالِ لِلصَّلَاةِ فِي غَيْرِ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ، أَمَّا لِغَيْرِ الصَّلَاةِ، كَالْعِلْمِ، أَوْ لِقَاءِ صَاحِبٍ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَلَا حَرَجَ.

• • •

التَّطْبِيقُ العَاشِرُ

رَوَىٰ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ: «الِّلبَاسِ وَالزِّينَةِ» مِنْ صَحِيحِهِ بِسَنَدِهِ عَنْ أُمِّ المؤْمِنِينَ سَيِّدَتِنَا عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «إِنَّمَا كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِىٰ يَنَامُ عَلَيْهِ أَدَمًا حَشْوُهُ لِيفٌ».

قَصرتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِرَاشَ رَسُولِ الله ﷺ علىٰ كَوْنِهِ أَدَمًا حَشْوُهُ لِيفٌ، قَصْرَ مَوْصُوفٍ عَلَىٰ صِفةٍ قَصْرًا حَقِيقِيًا تَحْقِيقِيًّا، وَإِنْ شِئْتَ جَعَلْتَه قَصْرًا إِضَافِيًّا؛ أَيْ نَفَيْتَ أَنْ يَكُونَ وِطَاءً مِنْ قُطْنٍ وَنَحْوَهُ، وَطَرِيقُ القَصْرِ (إِنَّمَا).

وَفِي هَذَا الحَدِيثِ حَثٌّ عَلَىٰ أَلَّا يُبَالِغَ النَّاسُ فِي فُرُشِهِم وَنَحْوَهَا عَلَىٰ نَحْوِ مَا تَرَاهُ فِي قَوْمِكَ، وَلَا سِيَّما حِينَ تَكُونُ بِالنَّاسِ ضَائِقَةٌ، فَإِنَّ الْإِكْثَارَ مِنَ التَنَعُّمِ قَدْ يُنْسِي المُسْلِمَ حَقَّ المُنْعِمِ عَلَيْهِ، وَإِذَا كَثُرَ تَحْصِيلُ النِّعَمِ والتَرَفُّهِ ضَاقَ الْوَقْتُ عَنْ شُكْرِهَا، فَتَبْقَىٰ عَلَىٰ المَرْءِ يَوْمَ القِيَامَةِ تبِعَتُهَا، فَلَيْسَ الْأَمْرُ مُنْحَصِرًا فِي أَنْ تَكُونَ مِنْ حَلَالٍ، بَلْ ثَمَّ سُؤَالٌ: فِيمَ أُنْفِقَتْ؟ وَسُؤَالٌ: لمَ لمْ تَشْكُرْ المُنْعِمَ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَيْهَا؟ فَحَقٌّ عَلَىٰ المُسْلِمِ النَّاصِحِ نَفْسَهُ أَلَّا يَجْتَهِدَ فِي النِّعَمِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ حَلَالٍ، لِضِيقِ الْوَقْتِ عَلَىٰ شُكْرِهَا. وَتَرْكُ شُكْرِ النِّعْمَةِ كُفْرٌ بِالنِّعْمَةِ، وَإِدْمَانُ الْكُفْرِ بالنِّعْمَةِ قَدْ يُفْضِي إِلَىٰ الْكُفْرِ بِالمُنْعِمِ.

وَيومَ الْقِيَامَةِ سَيُقَالُ لِلَّذِينَ كَفرُوا: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢] يَجِبُ أَنْ يَفْقَهَ فِي ضَوْءِ إِضَافَةِ «الزِّينَةِ» إِلَىٰ اسْمِ الجَلَالَةِ ﴿زِينَةَ ٱللَّهِ﴾؛ أَيْ الزِّينَةُ الَّتِي تُذَكِّرُكَ بالمُنْعِمِ، أَمَّا الَّتِي تُنْسِيكَ حَقَّ المُنْعِمِ عَلَيْكَ، فَلَيْسَ مِنْ زِينَةِ اللهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ لَا يَكُونُ الرِّزْقُ طَيِّبًا إِلَّا إِذَا كَانَ عَوْنًا لَكَ عَلَىٰ طَاعَةِ رَبِّكَ، وَذِكْرِهِ.

• • •

التَّطْبِيقُ الْحَادِيَ عَشَرَ

رَوَىٰ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الطَّلَاقِ مِنْ صَحِيحِهِ بِسَنَدِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ ﷺ كَانَ عَبْدًا يُقَالُ لَهُ: مُغِيثٌ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي، وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَىٰ لِحْيَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَبَّاسٍ: «يَا عَبَّاسُ، أَلاَ تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا!!». فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ رَاجَعْتِهِ». قَالَتْ يَا رَسُولَ اللهِ: تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: «إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ». قَالَتْ: لاَ حَاجَةَ لِي فِيهِ.

قَوْلُهُ ﷺ لِبَرِيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ» قَصَرَ نفسَهُ علىٰ صِفَةِ الشَّفَاعَةِ، ونَفَىٰ عَنْهَا أَنْ يَكُونَ آمِرًا، فَهُوَ مِنْ قَصْرِ الْمَوْصُوفِ عَلَىٰ الصِّفَةِ قَصْرًا إِضَافِيًّا لِلْقَلْبِ.

وَفِي هَذَا الحَدِيثِ تَصْوِيرٌ لِعَظِيمِ سَمَاحَةِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللهِ ﷺ وَتَوَاضُعِهِ، وَرَأْفَتِهِ بِعِبَادِهِ. تُبْصِرُ شَفَقَتَهُ بِمُغيثٍ، وَهُوَ الْعَبْدُ، وتُبْصِرُ تَوَاضُعَهُ، وَقَدْ ذَهَبَ لِبَرِيرَةَ، وَقَدْ كَانَتْ أَمَةً لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا يَشْفَعُ لمُغِيثٍ، وَتُبْصِرَ تَوَاضُعَهُ فِي نَفْي أَنْ يَكُونَ لِبَرِيرَةَ آمِرًا، وَتُبْصِرَ فِقْهَ بَرِيرَةَ، سَأَلَتْهُ: أَتَأْمُرُنِي؟ فَلَوْ كَانَ آمِرًا، لَقَالَتْ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، فَدَلَّتْ عَلَىٰ أَنَّ أَمْرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لا اخْتِيَارَ لِأَحَدٍ مَعَهُ، مَهْمَا كَانَ؛ لِأَنَّهُ ﷺ لَا يَأْمُرُ أَحَدًا بِشَيْءٍ إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، هَذَا فِقْهُهَا، وَهِيَ الْأَمَةُ الْأُمِّيَّةُ الَّتِي لَا تَقْرَأُ وَلَا تَكْتُبْ، وَلَكِنَّ الْإِيمَانَ يَمْلَأُ قَلْبَهَا، وَنَاظِرْ هَذَا بِحَالِ مَنْ يُسَمُّونَ أَنْفَسَهُم النُّخْبَةَ الْمُثَقَّفَةَ، يَرُدُّونَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ.

وَتُبْصِرَ عِزَّةَ بَرِيرَةَ، كَيْفَ أَنَّهَا احْتَفَظَتْ لِنَفْسِهَا بِحَقِّهَا، وَبِأَنْ تَتَّخِذَ قَرَارَهَا لِنَفْسِهَا بِنَفْسِهَا فِي أَمْرٍ يَخُصُّهَا، فَهَلْ لَنَا أَنْ نُرَبِّيَ أَنْفُسَنَا وَأَوْلَادَنَا وَتَلَامِيذَنَا عَلَىٰ

ذَلِكَ؟ أَلَّا نَتْرُكَ غَيْرَنا يَتَسَلَّطُ عَلَيْنَا، وَيَتَّخِذَ لَنَا قَرَارَنَا فِي شَأْنِنَا الخَاصّ.

هَذَا الحَدِيثُ بَالِغُ الأَهمِّيَّةِ فِي تَرْبِيَةِ المُسْلِمِ. وَبِهِ أَخْتِمُ الْقَوْلَ فِي هَذِهِ التَّطْبِيقَاتِ، فَلَا يَكُنْ همُّكَ مِنْها أَنْ تَحْفَظَهَا، إِنَّمَا رَقِّنْهَا؛ لِتكُونَ لَكَ نبْرَاسًا تَهْتَدِي بِمَا فِيهَا مِنْ صَوَابٍ، وَتَرْغَبُ عَمَّا فِيهَا مِنَ الخَطَأ. وَاللهُ الهَادِي إِلَىٰ سَوَاءِ السَّبِيلِ.



تَدْرِيبَاتٌ

أَوَّلًا:

اسْتَقْرِئْ كُلَّ صُورِ الْقَصْرِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا سُورَةُ «فَاطِر»، سَواءٌ مَا كَانَ طَرِيقُهُ مِنَ الطُّرُقِ الْأَرْبَعِ الْمَذْكُورَةِ فِي بَابِ «الْقَصْرِ»، أَو الَّتِي دَرَسْتَ فِي مَبْحَثِ أَحْوَالِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ وَالْمُسْنَدِ وَمُتَعَلَّقَاتِ الْفِعْلِ، مُحَلِّلًا كُلَّ صُورَةٍ مِنْ حَيْثُ: طَرَفَاهَا، وَالطَّرِيقُ، وَمَا فِيهَا مِنْ عُدُولٍ عَنْ ظَاهِرِ الْحَالِ، وَأَثَرُ ذَلِكَ كُلِّهِ فِي «الْمَعْنَىٰ الْقُرْآنِي» وَفِيكَ مُتَدَبِّرًا، عَلَىٰ أَنْ تَجْمَعَ النَّظِيرَ إِلَىٰ النَّظِيرِ فِي ظَاهِرِ النَّظْمِ، مُسْتَنْبِطًا الْكُلِّيَّاتِ الضَّابِطَةَ لِقَضَايَا وَمَسَائِلِ أُسْلُوبِ «الْقَصْرِ» فِي السُّورَةِ.

• • •

ثَانِيًا:

اسْتَقْرِئْ أُسْلُوبَ الْقَصْرِ فِي بَيَانِ الْخَطِيبِ الْقَزْوِينِيِّ عَنْ قَضَايَا وَمَسَائِلِ بَابِ «الْقَصْرِ» فِي كِتَابِهِ: «الْإِيضَاحِ»، مُحَلِّلًا كُلَّ صُورَةٍ تَحْلِيلًا مُحِيطًا وَمُسْتَوْعِبًا، وَمُبْرِزًا خَصَائِصَ أُسْلُوبِهِ، وَقُدْرَتَه عَلَىٰ الْإِبَانَةِ عَنْ مَعَانِيهِ الْعِلْمِيَّةِ فِي هَذَا الْبَابِ، لِتَتَحَقَّقَ لَكَ مَهَارَةُ الْقِرَاءَةِ الْبَلَاغِيَّةِ لِلْأَسَالِيبِ الْعِلْمِيَّةِ كَمِثْلِ مَهَارَتِكَ فِي قِرَاءَةِ الْأَسَالِيبِ الْأَدَبِيَّةِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ، فَالْخَصَائِصُ الْبَلَاغِيَّةُ تَرْكِيبًا وَدَلَالَةً قَائِمَةٌ فِي الْأَسَالِيبِ الْعِلْمِيَّةِ لِأَعْيَانِ عُلَمَائِنَا.

• • •

ثَالِثًا:

لِتكْتُبْ بِأُسْلُوبِكَ الْبَلِيغِ الْبَدِيعِ مَقَالًا فِي كُلِّ مَوضُوعٍ مِمَّا يَأْتِي مُسْتَوعِبًا فِي كُلٍّ مُعْظَمَ صُورِ الْقَصْرِ، وَطُرُقَه، ثُمَّ حَلِّلْ مَا رَقَنَتْ يَمِينُكَ، مَعَ الْعِنَايَةِ بِضَبْطِ كُلِّ كَلِمَةٍ مِمَّا تَكْتُبُ، وَالْعِنَايَةِ بِوَضْعِ عَلَامَاتِ التَّرْقِيمِ فِي مَوَاضِعِهَا.

- الاحْتِفَاءُ بِمِيلَادِ سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ ضَرُورَةٌ إِيمَانِيَّةٌ دَعَوِيَّةٌ.
- مُقَوِّمَاتُ حُسْنِ طَلَبِ الْعِلْمِ النَّافِعِ.
- رِسَالَةُ طَالِبِ الْعِلْمِ الْأَزْهَرِيِّ.
- رِفْقًا بِالْقَوَارِيرِ.
- الْإِسْلَامُ وَطَنٌ.





الباب السَّادسُ

القَوْلُ فِي الإنشَاء[1]

[أقْسَامُ الإنْشاءِ]

الإنشاءُ ضَرْبانِ: طَلَبٌ وَغَيْرُ طَلَبٍ، والطَّلَبُ يَسْتَدْعِي مَطْلوبًا غَيرَ حاصِلٍ وَقْتَ الطَّلَبِ؛ لامْتِناعِ تَحْصِيلِ الحاصِلِ[2].

---

(١) الإنشاءُ قسيمُ «الخَبر»، والخبرُ عند المناطقة: ما احتملَ الحكم عليهِ بالصِّدقِ والكذب لِذاتِه.

قولُهم: «بذاتِه» معناه: دون نظرٍ إلىٰ شأنِ قائلِه، فقد يكونُ القائلُ مِمّن لا يحتمل كلامُه الصِّدق والكذب، بل هو صدقٌ حقًّا؛ ككلامِ سيّدنا رسول الله - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلّم - وقد لا يكونُ إلا كذبًا، ككلامِ الشَّيطانِ، وسَحرة إبليس.

والأعلَىٰ عندي والأحكمُ هو أنّ الخبرَ: «ما صحَّ نفيُه، أو إثباتُه»، أوْ كَما يَقُول سلطان العلماء؛ العزّ ابن عبدِ السّلام - رحمَه الله - (ت:٦٦٠هـ): «الخبر: اللفظُ الدَّالُّ علَىٰ أنّ مدلولَهُ قد وقعَ قبل صدور الكلام، أو يقعُ بعد صُدورِ الكلام من المتكلّم».

ومفهوم الإنشاء الاصطلاحيّ: «ما لا يصحُ نفيُه، أو إثباتُه»، أوْ كما يقُول العِزُّ: الإنْشَاءُ هو اللفظُ الدّالُّ علَىٰ أنَّ مدلولَهُ قد حصلَ معَ آخرِ حرفٍ من نطق الكلامِ، أو عقيب النطقِ بآخر حرفٍ منه.

(٢) الإنشاءُ غيرُ الطّلبي هو: ما لا يُطلب به إيجادُ ما ليس بموجودٍ عند البيان، ولا يُخبر به عنْ شَيْءٍ كان قبل البيان، بل هو أسلوبٌ يُفصِح عن أحوالٍ ومشاعرَ قائمةٍ فيك؛ ولذا يسميه بعضُ العلماء: «الأسلوب الإفصاحِيّ»، ويقولون: الأساليب ثلاثة: «خبرٌ»، و«طلب» (إنشاء طلبيّ)، و«إفصاح»؛ (أي: إنشاء غير طلبيّ)، مثل: أساليب التّوجّع، والتّحسُّر، وصيغ التّعجب، وصيغ المدح والذّم، والقسم، وأفعال المقاربة...

والبلاغيون يقولون: إنّ أساليبَ الإنشاء غير الطلبي (الإفصاحيّة) أصلُها الخبر إلا أنّها تُخْبِرُ عن واقع داخليّ للمتكلم، وهمْ - أَيْضًا - علىٰ أنّ أساليب «الإنشاء الطّلبيّ» خمسة: «التّمنّي»، و«الاسْتفهام»، و«الأمر»، و«النهي»، و«النّداءُ».

وَهُوَ المَقْصُودُ بالنَّظَرِ هَهُنَا[١]، أَنْواعُهُ كَثِيرَة[٢]؛ منْهَا: التَّمَنِّي[٣]:

(١) قولُه: «وهو المقصُودُ بالنّظر هنا» إيماءٌ إلىٰ أنَّ البلاغيين لا يلتفتون إلىٰ «الإنشاء غير الطّلبيّ» (الإفصاحِي)؛ لِقلة مباحثه العلمية، وهم لا يريدون قلة بلاغتِه، فرقٌ بين ما قلّتْ مباحثُه العلميّة، وما ضعفتْ بلاغتُه.

هم ينفون قلّة المباحث العلمية البلاغيّة، ولا ينفون بلاغته، فالقرآن فيه كثيرٌ من الأساليب البلاغية ذات الدقائق واللطائف الإحسانية، فانتبه. التّعليلُ بأن أصلَه: «الخبر» تعليلٌ غير قويّ؛ لأنَّ هذا يستوجِبُ عليْهم أن يلتفتوا إلىٰ مدارسته في أبواب مباحث الأسلوب الخبري، وهم لم يفعلوا.

(٢) قوله: «وأنواعُه كثيرةٌ» يلفت إلىٰ أنّها غير محصُورة في الخمسةِ الّتِي سيذكرون، وقوله بعد: (منها) كأنه يشيرُ أنَّ الخمسةَ المذكورةَ هنا لا ينحصِرُ أسلوبُ الإنشاء الطلبي فيها، وهَذا من الحَيطةِ.

(٣) «التّمنّي» علىٰ زنة «التفعُّل»: كالتّفهم، والتّكرُّم، والتعلّم، والتحفظ ...، وقيل: التَّمَنِّي: حديث النفس بما يكون، وبما لا يكون.

وقال ابن الأثير في (النهاية في غريب الأثر، ٤/ ٨٠٤): «التَّمَنِّي تَشَهِّي حُصُولِ الأَمرِ المَرْغوب فيه، وحديثُ النَّفْس بما يكون وما لا يكون.» (ا.هـ)

وهو طلبُ محبوب غير ميسور تحققه؛ إمّا لاستحالته أو صعوبته، ولو في ظنّ المتمَنِّي. وَعَدَمُ تَيسُّرِ حصوله إمّا لأمرٍ يرجِعُ إلىٰ المطلُوب نفسِه، كعَودةِ الشباب بعد الهرم، وإمّا لأمرٍ يرجِعُ إلىٰ المتمني لنفسِه؛ لأنه ليس أهلًا لأن يكون له ما يتمنّاه، كتَمَنِّي الطَّالبِ الَذي لا يستذكِر علومَهُ أن يكونَ الأول علىٰ أقرانِهِ، وإمّا لأمْرٍ يرجِعُ إِلَىٰ المَطلُوبِ مِنه ذلك، كطلبِك مِن الأعْمَىٰ أن يراكَ.

أسلوبُ التَّمنّي يصوّر به صَاحبه رغبةً نفسيةً فِي تحقيق أمرٍ مَحبوبٍ غير مُتيسّر عَليْهِ، فالتصويرُ النّفسيُّ فيه أقوَىٰ من الدَّلالة علىٰ الطّلب.

وَاللفْظُ المَوضُوعُ لَهُ «لَيْتَ»[1]، وَلا يُشْتَرَطُ فِي التَّمَنّي الإمْكانُ[2]؛ تَقُولُ: «لَيْتَ زَيْدًا يَجِيءُ»[3]، و«لَيْتَ الشّبابَ يَعُودُ»[4].

---

(١) أيْ: إنّ دلالةَ (ليْت) علىٰ التّمنّي دَلالةٌ وضعية، وهِي لا تُستعمل في غير هذا المعنىٰ، فليست دلالتُها علىٰ التّمنّي دلالة سياقية، بلْ هي حيثُ جاءتْ فهِي للتَّمَنّي.

والأداةُ إذا لم تستعمل إلا في معنًىٰ واحدٍ فدلالتُها عليه تكون قويّةً محكمة، وإذا استعملت في أكثر من معنىٰ – بحسب السياق – فمدلولُها يكون متسعًا؛ لتشرُّبه من المعاني المتعددة بتعدّد سِياقاتِ الاسْتعمال، وفرق بين قوة الدّلالة، واتساع المدلول. فافهم.

وجاءت (ليت) في القرآن أربع عشرة مرة، (ليت: ٣)، و(ليتنا:٢) و(ليتني:٨)، و(ليتها:١)، وفي جميع هذه المواضع كانت تفيض بالحسرة علىٰ نفسه، أو علىٰ غيره.

(٢) يشير إلىٰ أنّ التّمنّي لا يشترطُ فيه أن يكونَ ما يُتمنّىٰ ممكنًا حصولُه؛ فقد يَتمنّىٰ المَرْء ما هو العليمُ بأنّه لَن يكونَ، وإنَّما يتمناه لِيصوّر لك عظيمَ رغبتِه أوْ حاجتِه، فهو لتصوير الواقع النَّفسيّ، وليس لتحقق المطلوب. فمعنىٰ الطلب في «أسلوب التمني» ضعيف، وتصوير الواقع النفسِي قويّ.

(٣) قوله: «ليْت زيدًا يَجيء» يُفهِمُ أنَّ مجيءَ زيد إليْه، وإن كان في نفسِه ليس مستحيلاً، ولا عسرًا، إلا أنّه بالنسبة لتصور المتكلم، ورؤيته لأمور تتعلق بما بيْنهما يتصَوَّره أمرًا عسرًا، فهو لا يطلب في المقام الأول، بلْ يُصَوّر لك أنّ مَجِيْءَ زيدٍ إليْه أمرٌ محبوبٌ إليْه، لكنّه في تصوره هو أمرٌ جدّ عَصِيّ؛ لأمرٍ يَرجِع إليْه هُو، أوْ لِزيدٍ، أوْ غيرِهما، فيصوّر لَك حالتَه النَّفْسِيّة، ويُطلِعُك عَليْها؛ وَلذا فَهُوَ إلىٰ الإفصاحِ أقربُ مِنْه إلىٰ الطَّلَبِ، ودلالته عليه تبعية.

(٤) جاءت هذه الجملة في بيت لمحمد بن عبد الملك الزيات، كما في «الفاضل» للمبرد، وقيل: لغيرِه، يقُول:

عَرِيتُ عن الشَّبابِ وكنتُ غَضًّا	كما يعـرَىٰ عـن الـورَقِ القضيبُ
ونُحْتُ علىٰ الشَّبـابِ بدمعِ عيني	فمـا نفَـعَ البكـاءُ ولا النَّحيـبُ
ألا ليتَ الشَّبـابَ يعودُ يومًا	فأُخبِـرَهُ بمـا فعَـلَ المشـيبُ

هو عليمٌ بأن ذلك مستحيلٌ، إلّا أنّه يتمناه؛ لِيصوّرَ لك عظيمَ حبّه ذلك، وليصورَ لك شدة ما يلقَىٰ من تقدم عمُرِه من العجز، والهموم والآلام.

قالَ الشّاعِرُ: (يا لَيْتَ أيّامَ الصِّبا رَوَاجِعَا ...)[1]

[ما يُتمنىٰ به سياقيًّا، لا وضعيًّا]

وَقَدْ يُتمنّىٰ بِـ«هَلْ»، كَقَوْلِ القائِلِ: «هَلْ لِي مِنْ شَفِيعٍ؟ «فِي مَكانٍ يَعْلَمُ أَنَّه لَا شَفِيعَ لَهُ فِيهِ لإبْرازِ المُتَمَنَّىٰ؛ لِكَمالِ العِنَايَةِ بِهِ فِي صُورَةِ المُمْكِنِ[2]، وَعَلَيْهِ قَولُهُ - تَعالَىٰ - حِكايَةً عَن الكُفارِ: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾ [الأعراف: ٥٣][3].

وَقَدْ يُتَمَنَّىٰ بـ«لـو»، كَقَوْلِكَ: «لَوْ تَأْتِينِي، فَتُحَدِّثَنِي» بِالنّصْبِ[4].

---

(١) من أرجوزةٍ للعجاج عبد الله بن رؤبة. نصَبَ اسم «ليت»، وخبرَها علىٰ مذهبٍ عند العرب، ينصبون بـ«ليت» الاسم والخبر. والأشهرُ أنّها تعمل عمل (إنّ) النّاسخة.

رجُوع أيام الصّبا مستحيلٌ؛ نزولًا علىٰ قدر الله -تعالىٰ- وسنته في العباد، والقائلُ يعلمُ ذلك، ولكنّه يُصور لنا ما يعتلِجُ في نفسِه من التحسُّر علىٰ فوات زمن الصّبا الذي لم يستثمره في ما ينفعه.

(٢) قوله: «لإبْرازِ المُتَمَنَّىٰ؛ لِكَمالِ العِنَايَةِ بِهِ فِي صُورَةِ المُمْكِنِ» هو بيان للمقتضي الإعراب عن التّمني بـ(هل) الّتي للاستفهام؛ ذلك أنّ الاستفهام إنّما يكون في ما هو ممكنٌ، فصور لك مُتَمَناه في صورةِ ما يمكن الاستفهام عنه.

(٣) يقولُ الحقّ سُبْحانه وتعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣]، قول الكافرين يوم القيامةِ وقد بلغ منهم اليأس مبلغًا من الأمريْن معا: (الشفاعة، والرّدّ) يصور لك عظيم ما هم فيه من البلاء، فما يكون لهم أن يطلبوا هذا في هذا المقام، إنما هو حديثُ نفْسٍ يائسةٍ، وفي هذا تصويرٌ لنا ما سيكونون عليه، وهو - كما ترىٰ - يحمل تحذيرًا من أن نكون كمثلهم، ففيه عِظَةٌ لمن كان ذا قلبٍ رشيد.

ونصب الفعل: ﴿يَشْفَعُواْ﴾ ﴿نَعْمَلَ﴾ بعد «الفاء»؛ لوقوعه في سياق (هل) الدالة علىٰ التمني.

(٤) قَوْلُهُ: «بالنصب» يهديك به إلىٰ أنَّ (لو) دالة علىٰ التمني، ولولا ذلك لما كان الفعل المضارع «تحدّث» منصوبًا، فالنصبُ بعد «الفاء» قرينَةٌ علىٰ أنَّ (لو) للتمنّي، وليست شرطية.

[مذهبُ السّكاكِيّ في تركيبِ أدوات التّندِيم والتّحضيض]

قالَ السَّكّاكِيُّ: «وَكَأنّ حُرُوفَ «التّنْدِيمِ» و«التَّحْضِيضِ»، وَهِيَ: «هَلَّا» و«ألَا» بِقَلْبِ «الهاءِ» هَمْزَةً، وَ«لَوْلَا» و«لَوْمَا» مَأْخُوذَةٌ مِنْهُمَا مُرَكّبَتَيْنِ مَعَ «لا» و«ما» الْمَزِيدَتَيْنِ لِتَضْمِينِهِما مَعْنَىٰ «التّمَنّي»؛ لِيَتَولَّدَ مِنْهُ فِي الْمَاضِي «التَّنْدِيمُ»، نَحْوَ: «هَلّا أكْرَمْتَ زَيْدًا»، وَفِي الْمُضَارِعِ «التّحْضِيضُ»»[1].

[التّمني بـ«لعلَّ»]

وَقَدْ يُتَمَنَّىٰ بـ«لَعَلّ»، فَتُعْطَىٰ حُكْمَ «لَيْتَ»، نَحْو: «لَعَلِّي أَحُجُّ، فَأَزُورَكَ» بِالنّصْبِ؛ لِبُعدِ الْمَرْجُوّ عَن الْحُصُولِ[2].

---

(١) يشيرُ السّكاكِيّ إلىٰ أن «هل» حين يُضَمُّ إليه حرف «لا» (هَلاّ) يتولّد منهما معنىٰ «التّنديم» إذا كان الفعل «ماضيًا»، ويتولد معنىٰ «التّحضيض» إذا كان الفعل «مضارِعًا».

وكذلك (لو) حين يضم إليه حرف «لا»، أو «ما» يتولد من الاجتماع معنىٰ غير الذي كان لكلٍّ؛ يتولد «التّنديم» إذا كان الفعل «ماضيًا»، ويتولد التّحضيض إذا كان الفعل «مُضارِعًا». فنوعُ الفعل له أثرٌ في نوع المعنىٰ المدلول عليه بالأداة المركبة من حرفيْن.

فالأدواتُ المركّبة من حرفين لها معنىٰ غير الذي كان لكلٍّ، وهذا ما رأيتَه فِي باب «القَصر» حين ضُمَّتْ (ما) إلىٰ (إنّ)؛ فتولّدَ منهما معنىٰ «القصر».

وهذا تجده – أيضا– في ضمِّ كلمةٍ إلىٰ كلمة، يتولد منهما معنىٰ لم يكن لأي منهما قبل الضَّمِّ، وهذا هو أساسُ نظرية» النظم» الجُرجانِيَّةِ.

(٢) إقامةُ «لعلَّ» مَقامَ «ليت» دَلالة علىٰ أنّ» الحجَّ» أمرٌ غير ميسور له، مع أنّه في أصله ميسُور، وكان يُمكن استعمال «ليت»، لكنّه عدل عنه إلىٰ (لعلّ) إشارةً إلىٰ أنّ ما يتمناه إنّما هو فِي أصلِه مرجوّ متوقع غير عسيرٍ، ولكن أمرًا ما قد أحالَه بالنسبة إليْه أمرًا غير مرجوّ. فجمع لك بإقامة «لعلَّ» مقام (ليْت) بيْن معنيين:

الأول: حال الشَّيْءِ في نفسِه. والآخرُ: حاله بالنسبة له.

والقرينةُ علىٰ أنّ (لعلّ) بمعنىٰ (ليت) نصبُ المضارع بعد «الفاء»، فهو ينصب بأنْ مقدّرةً بعد «الفاء» في (التمنّىٰ)، لا في (الترجي)؛ لأن الترجّي توقُّعٌ وإشفاق، وليس طلبًا.

وَعَلَيْهِ قِراءَة «عاصِمٍ» فِي رِوايَةِ «حَفْص»[1]: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٦ - ٣٧] بِالنَّصْبِ[2].



(١) عاصم بن بهدلة، أبي النَّجُود الأسْدِي، الكوفي، التابعيّ، شيخ الإقراء بالكوفة، وأحد القراء السبعة (ت: ١٢٧هـ). وحفص بن سليمان بن المغيرة الأسدي الكوفي (٩٠ - ١٨٠هـ) أخذ القراءة عرضًا وتلقينًا عن عاصم وكان ربيبه -ابن زوجته- وروايته هي الأشهر في المشرق.

(٢) قرأ حفص عن عاصم: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٧] بالنصب، وقرأ بقية العشرة: بالرفع ﴿فَأَطَّلِعُ﴾.

يقول الحق - جَلَّ جلالُهُ -: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾ [غافر: ٣٦ - ٣٧]، نصب الفعل ﴿أَطَّلِعَ﴾ بعد «الفاء» قرينةٌ علىٰ أنَّ (لعلَّ) ضمّنت معنىٰ (ليت)؛ لأنَّ (لعلّ) لا طلب فيها، إنَّما هي - في أصل وضعها - للترقب والإشفاق.

[جُمُعةُ القولِ وزبْدتُه]

الكلامُ ضربان: خبرٌ وإنشاءٌ. والإنشاءُ: ما لا يَحتمِلُ الحُكم عليهِ بالصّدقِ والكَذبِ لِذاتِه، أوْ ما لا يَحتمِلُ الإثباتَ والنّفيَ.

وهو ضربان: طلبيٌّ وغيرُ طلبيٍّ.

الطّلبيُّ: ما يَدُلّ عَلَىٰ طَلَبِ إيجادِ ما لَم يكُنْ.

وغيرُ الطّلبيِّ يُصوّرُ ما هُو مُعتلِج فِي نفسِ المُتكلّمِ مِن رغبةٍ وشعورٍ، وفيه رائحة «الخبر» للدلالة علىٰ الواقع النَّفْسِيّ (الدَّاخِلِي) لا الخَارِجِيّ، كـ(الخَبر) الصِّرْفِ.

الإنشاء الطلبي خمسة أساليب: التمنّي، والاسْتفهامُ، والأمر، والنّهيُ، والدعاءُ.

«التمني»: طلبُ محبوبٍ غيرُ متيسّر حصولُه.

للتمني أداة واحدة وضعًا (ليت)، وهي لا تسْتمعل في غير التمني؛ بينا يستعملُ غيرها فِيه.

يدلّ علىٰ (التّمنّي) بأدواتٍ غير (ليت) (هل)، و(لو)، و(لعل) ودَلالتها علىٰ (التّمَنِي) سِياقيّة، لا (وَضْعِيّةٌ).

إذا رُكّبَتْ (هل) مع (لا) أَفادتْ التَّندِيم علىٰ ما مَضىٰ فعلًا أو تركًا، وأفادتْ التَّحضيض علىٰ فعل ما لم يكن.



تطبيقات تحليلية على التمنِّي

التَّطبيق الأوَّل:

فِي سياقِ ذِكر ما كان منْ شَأن السيدة مَريم - رضِيَ اللهُ عنْها - ومَا جرَىٰ بيْنها وبَين المَلَك المرسلِ لها، مبشرًا بميلاد سيّدنا عيسَىٰ - عليْه السّلامُ - يقولُ الحقّ - سبْحانه وتعالىٰ: ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾[مريم: ٢٢ - ٢٥]

يُصوّر قولُها: ﴿ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ ما حلّ بها من الهمّ والجَزع ممَا قد يُلاحِقُها مِن قومِها، فتَمنَّت أن كانت قد لَقيت ربَّها - سُبْحانه وتعالىٰ - قبلُ، ثمَّ تَصاعدَتْ في تمنّيها إلىٰ أن تمنتْ أن كانتْ نسيًا مَنسيًّا، وفي إعرابها بـ«نسيًا منْسِيًّا» إيماءٌ إلىٰ أنَّ الأمر ليس متعلقًا بها، بل بقومها، وموتُها لن يعصمهم من المعرّة، هي ما جزعت من أجلِ نفسِها؛ ليقينها أنّ الّذي هِي فيه شرفٌ لها ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾[مريم: ١٩] إلّا أنَّ قومَها لن يسْلموا من سُوءِ القالةِ، فتمنَّتْ أن كانت شيئًا حقيرًا لا يُلتفتُ إليهِ، بلْ منْ حقّهِ ألَّا يلتفتَ إليْه، فالنَسْيُ (بفتح النون وكسرها قراءتان) هو الشّيءُ الْحقِيرُ المُحتقَر الَّذِي لا يلتفت إليه، ولا يتذكّر إن فقد، بل ذلك حقّه، وأكّدته بقولها: ﴿ مَّنسِيًّا ﴾، لم تكتفِ بأنْ تمنَّت أن تكونَ شيئًا حقيرًا، بل تَصاعدت، فتمنَّت أن يكون مَنسيًّا؛ لأن النّسيَ الحقير قَد يُلتفت إليه بعضٌ، فَلكلِّ ساقطةٍ لاقطة، تمنَّتْ أن تكون ما حقّه ألا يلتفت إليه أحدٌ بتّةً.

وهذا يُبيّن لك أنَ المرأةَ حرّةَ النّفسِ لا يَهمّها بعد إيمانِها بربها - سبْحانه وتعالىٰ - وطاعتِه شيْءٌ كمثلِ نقاءِ عِرضِها، وسلامته من القيلِ والقال؛ ولذا كان جمالُ كلّ امرأة في حيائِها ومروءَتِها، «جمالُها من جلالها»، لا منْ سماتِ جسدها.

حقيقةٌ هِي الفريضةُ الّتي يجبُ أن تكونَ راسِخةً في فؤادِ كلّ امرأةٍ، وأنْ تكونَ حاضرة في وعيِها وسلوكِها.

• • •

التطبيقُ الثاني

وقد يأتي التّمنّي مِمّن هو العليمُ بأنَّ ما يتمنَّاه لَن يكونَ أبدًا، ومع هذا تراه معربًا به عمَّا هو محيطٌ به، وعمّا هو فيه العجز المطبق.

يقُول الحقُّ – سبْحانه وتعالىٰ – مصورًا لنا ما سيكونُ يومَ القيامة من الذين كفروا بما أمر بالإيمان به: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٥ – ٢٩]

اسْتُهِلَّ البيانُ بتصويرِ ما كان منهم في الدّنيا مِن العنتِ والمناكدةِ والتكذيبِ، وفي مقابله ما سيكونُ منهم يوم القيامة؛ ليتبينَ لكلّ ذي حق يُصادَمُ أنّ حقّه هو القائمُ القيومُ، وأن الله – تعالىٰ – لن يتخلّىٰ عنْه، فهذه الآياتُ فيها من تثبيتِ سيدنا رسول الله – صَلّىٰ الله عليْه وسلم – وتأييده بذكر ما سيكونُ لمن خالفَه وصَادمَهُ.

صور ما سيكونُ منهم يوم القيامة، فبدأ بما أعرب عن عظيم هَولِه، وأن البيان عنه تصريحًا قد لا يتسع وعي السّامع لما يصوره، فجاء بقوله تَعالىٰ: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ﴾ وفي الإعراب بقوله: ﴿ وُقِفُوا ﴾ آية علىٰ أنّهم وإن كانوا

في الدنيا يدَّعون لأنفسهم العزة، وأنَّهم لا ينقادون لأحدٍ أنفةً جاء مصورًا لهم يوم القيامة أذلاء يساقون، ويوقفون، ولا يملكونَ امتناعا أو توقفا.

وبنىٰ الفعلَ للمفعول لِتعيّن فاعله، أوْ لِتعيّن الآمر به الذي له الحكم القَيُّومِ الذي لا يُعصَىٰ حينذاك.

وفي قوله: ﴿وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ مبالغةٌ في ما سيكون منهم حين يدخلوها، فإذا كان هذا منهم، ولمّا يُنبذوا فيها، مجرَّدُ الوقوفِ عليها جعلهم يقولون هذا، فكيف الأمر حين يقذفون وينبذون فيها؟!!

لم يصرِّح بجواب (لو)؛ لفتح المجال للنفس أن تتصوَّر فظاعة ما سيَكون، أيْ: لرأيت ما لا يُحيطُ به فؤادٌ من الهولِ والفزعِ، فحذفُ الجوابِ أدلُّ علىٰ المراد من ذكره، فربّ حذف أبْين من ذكر، وفي التّصريح تعيين، وفي الحذف اتساعٌ في الرؤية والتلقّي؛ فإنك تجدك أنطقَ ما تكون إذا لم تنطق.

وفي الإعراب بالماضي في ﴿وُقِفُواْ﴾ هدايةً إلىٰ أن ما يخبرُ بأنّه سيكون هو والإخبار عمّا كان سواءً بسواء، وفي هذا من الإيماء إلىٰ وحدانيةِ الله – تعالىٰ – وعزته ما فيه، فمعالمُ جلالِ الألوهية هنا ظاهرةٌ جدًّا.

والإعراب بـ«علي» في ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾ إعرابٌ عَن تمكن الفعلِ وإحاطتِه، وأنَّ أهلَ النار جميعا في هذا سواءٌ علىٰ اختلافِ مراكزهم في الدُّنيا.

و(يا) في ﴿يَٰلَيۡتَنَا﴾ ليستْ للنداء، بلْ هي دالةٌ علىٰ عظيم تحسّرهم، وأنّهم عالمونَ بأنَّ ما يتمنونَه بعيدٌ بعيدٌ!

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٥٥ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٨ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[الزمر: ٥٥ - ٥٩]

وهم يتمنون ثلاثةً: ﴿ نُرَدُّ ﴾، ﴿ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا ﴾، ﴿ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ وقد نسقت نسقًا تصاعديًّا؛ بدؤوا بما هو الأصل، وبما هو أول ما يكون؛ الرّد إلىٰ الدنيا كما كانوا فيها، ولم يصرح بما يردّونَ إليْه؛ لأنّ الرّد مِن شيْءٍ إنما يكونُ إلىٰ ما كان فيه، لا يتغيّر.

ورتّبوا علىٰ هذا الرَّد عكسَ ما كانوا عليه في ما تمنّوا الرَّدّ إليه، فقالوا: ﴿ لَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا ﴾ تلك هي المفارقة؛ التّحلّي عن التكذب بآيات ربهم، وفي (الباء) في ﴿ بِـَٔايَٰتِ ﴾ تمكينٌ لانتفاء التكذيبِ؛ ولذا لا يُقالُ: ﴿ لَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا ﴾، والتَّكذيبُ بالآيات آيةٌ علىٰ تمكّن الْعَمَهِ في بصائِرهم؛ لأن الآيات منْ شأنِها أنْ تكون حاضرة لا تغيبُ، تدرِك بيسرٍ لِمنْ شاءَ أن يدرك، وأنْ يسْتبصِرَ؛ ولِذا كان التَّكذيب بالآياتِ أشدَّ عِنادًا من التكذيبِ بما هو غيب، فإذا ما وصف المتقون في فاتحة سُورةِ «البقرة» بأنّهم يؤمنون بالغيب، فهذا مبالغة في تقرير الإيمان بآيات الله - تعالىٰ - فمَنْ آمن بالغيب كان إيمانُه بالمشهودِ من الآيات أقوىٰ.

ثُم يتصاعدُ التّمنّي، فهم لا يدّعون أن يكون منهم عدمُ التّكذيب بآيات ربّهم - سبْحانه وتعالىٰ - فحسْبُ، بل يجتهدون ليبلغوا مقامًا أعلىٰ: سَيَجتَهِدون؛ لِيكونوا من المؤمنين ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، والمؤمنون أعلىٰ مقامًا من الذين آمنوا؛ ولذا لم يقولوا: (وَلاَ نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا، ونؤمنَ)، ولم يقولوا: (وَلاَ نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا، ونكون من الذين آمنوا)، بل لم يقُولوا: (وَلاَ نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا، ونكون مؤمنين)، بل قالوا: ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، فـ«مِن» هذه دالة علىٰ أنَّهم سيكونون من الجماعة، وفي مرتبة عالية؛ أي سيكونون في الجماعة المؤمنةِ التي عدّ الإيمان صفة من صفاتهم، عاملين الحسْنىٰ، مؤثرين بها في أمتهم.

والإبلاغ في تصوير ما يُتَمنّىٰ في مثل هذا المقام فيه إبلاغ في تصوير ما همْ فيه من الهولِ والتَّحسّر، فإذا ما فقِه المرءُ ذلك، وهُو في قيد الحياة كانت أمامه فرصٌ يُحقق فيها ما سيسْعَىٰ إلىٰ أن يتمناه يومَ القيامة، لات ساعة مُتمَنّىٰ.

• • •

التّطبيقُ الثّالث

عُنيَ الذكرُ الحكيمُ بتصويرِ شأنِ فرعون موسَىٰ وحالِه، وصرّف البيان عنه؛ ليكون ذلك قائمًا في فؤاد كُلّ سميعٍ فهيمٍ، ذلك أن فرعون «نموذج» حاضرٌ في كلّ قَومٍ وعصرٍ ومصْرٍ، لن تخلو الأرضُ منْ تلاميذ مدرسته، القائمين برسالته الإفسادية، فإذا ما كان إبليس قد وُعِدَ بالإنظار إلىٰ يوم القيامةِ فإن فرعون موسَىٰ لمدرسته الإفسادية سيرورة في كلّ قومٍ وعصْرٍ ومصْرٍ، وفي هذا حفزٌ لأهل الحقّ أن يكونُوا في رباطٍ دائمٍ، فمن أحبّ مقومات الإيمان المنقذ، المزحزح عن النار، مقوّم الجهاد في سبيلِ اللهِ كلّ بما هو عليْه مقتدر، وله متقنٌ.

يقُولُ الله –سبْحانه وتعالَىٰ –: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٦ – ٣٧].

هاتان الآيتان جاءتا كاشفتين لأولي الألباب عن حقيقة كلّ طاغية ممثلًا في إمامهم «فرعون»، وكاشفة لنا عن يقينه بأنّه ليس بشيْءٍ.

تبصّر قوله: ﴿ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾ لَو كان كما يزعم زورًا أنّه إلهٌ، وأنّه لا يعلمُ لقومِه إلهًا غيره، وأنَّه ربّهم الأعلىٰ – ما بالُه يطلب من وزيره أن يبنيَ له صرحًا؟! أليس بإلهٍ يقولُ للصّرح كن فيكونُ؟ بلْ ما بالُه بحاجةٍ إلىٰ صرحٍ؟! أليس بإلهٍ يُمْكنه أن يطلّع إلىٰ إله موسىٰ، وهو في قصرِه، وعلىٰ عرشِه؟! أيحتاج الإلهُ إلىٰ أن ينتقل إلىٰ مكانٍ؛ ليطلعَ علىٰ شيْءٍ، أيُّ إلهٍ هذا؟!

ثُمَّ تبصَّر قوله: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾، أوَ يَظُنّ الإله؟ أيعجِز أن يكونَ ذاعلم محكم محيط؟ معالمُ خورِه، ويقينِه بأنَّه كذَّابٌ أشِرٌ قائمةٌ فِي لسانه.

يُنْبِئُ البيانُ القرآنيّ بنصب الفعل ﴿أَطَّلِعَ﴾ ما يَشْعُرُ به فرعونُ من عسْر الفعل الّذي يريدُ، وهو الذي أوْهم باستعمال (لعل) أولًا أنّه مرجُوٌّ يسير، ففضحَه نَصْبُ الفِعل، وأبان عَن حقيقةِ شعورِه بأنّه أمرٌ لا سبيلَ إليْه.

صَوَّر لك الاستهلال بـ(لعلّ)، ونصب الفعل في سياقه ما فيه من تَناقضٍ شعورِيّ: (لعل) ثمرة ادِّعاءٍ، والنصب كشف حقيقة.

كذلك الطّغاة ترَىٰ في كلامِهم ما يكشف لِك ما عليه حقيقتهم، تراه يَتوعّد ويُهدّد، وهو المُرْتجِف هَلَعًا، فيجرِي فِي لسانِه ما يُعرّيه، ويفضحُه.

• • •

التطبيقُ الرَّابـعُ

كان من شأن «المتنبّي» ألّا يمدح إلّا الأمراء، وألَّا ينشدَ الشّعر إلا جالسًا بين يدي الممدوحِ، وكانت من أمانِيّ أبي القاسم العلوي أن يمدَحه المتنبي، فاحتال أبو القاسم لذلك، فكانت هذه «البائيةِ» يقول فيها:

فَيا لَيتَ ما بَيْني وبَينَ أحِبّتي ... مِنَ البُعْدِ ما بَيني وبَينَ المَصائِبِ
أُراكِ ظَنَنْتِ السّلكَ جِسمي فعُقْتِه ... عَلَيْكِ بدُرٍّ عن لِقاءِ التّرائِبِ
ولَوْ قَلَمٌ أُلقيتُ في شَقّ رأسِهِ ... من السّقمِ ما غيّرْتُ من خطّ كاتِبِ

يُصوّر لنا الشَّاعرُ أن ما بيْنه وبيْن أحبّته مِن البُعد جدٌّ عظيمٍ، ويتمنَّىٰ أنَّ لو كان ذلك البعدُ هو الذي بينه وبين المصائبِ.

جمَع لك بين حالين، كلٌّ إلىٰ نفسِه كريهٌ؛ يتمنّىٰ استبدال كلٍّ بالآخر: يصوّر لك ما بيْنه وبيْن أحبّته من البُعد، وما بيْنه وبين المصائب من القربىٰ، فلو كان من أحبّته ما كان من المصائبِ لكانت الحسْنىٰ.

وهذا الّذي يتمنّاه هُو في نفسِه ليس عسيرًا، ولا عَصِيًّا، ولكنّ الشّاعر يراه كذلك، ويرَىٰ تلازمًا بينهما، فكلّما ابتعدَ الأحبةُ اقتربت المصائِبُ، وكأنّه يُصوّر لك قربَ أحبّته حِصنًا يَقيه المصائبَ، فلَيْتهم جادوا عليه بقربهم.

• • •

التطبيقُ الخـامسُ:

المتنبي في قصيدة يمدح فيها كافور الإخشيديّ، مطلعها:

أُغالِبُ فيكَ الشّوْقَ وَالشوْقُ أغلَبُ وَأعجبُ من ذا الهجرِ وَالوَصْلُ أعجبُ

يقُولُ:

وَما الخَيلُ إلاّ كالصّديقِ قَليلَةٌ وَإنْ كَثُرَتْ في عَينِ مَن لا يجرّبُ
إذا لم تُشاهِدْ غَيرَ حُسنِ شِياتِهَا وَأعْضَائِهَا فالحُسْنُ عَنكَ مُغَيَّبُ
لحَىٰ الله ذي الدّنْيا مُناخًا لراكبٍ فكُلُّ بَعيدِ الهَمّ فيهَا مُعَذَّبُ
ألا لَيْتَ شعري هَلْ أقولُ قَصِيدَةً فَلا أشْتَكي فيها وَلا أتَعَتّبُ
وَبي ما يَذودُ الشّعرَ عني أقَلُّهُ وَلَكِنّ قَلبي يا ابنَةَ القَوْمِ قُلَّبُ
وَأخْلاقُ كافُورٍ إذا شِئْتُ مَدْحَهُ وَإنْ لم أشأْ تُملي عَليّ وَأكْتُبُ
إذا تَرَكَ الإنْسَانُ أهْلًا وَرَاءَهُ وَيَمّمَ كافُورًا فَمَا يَتَغَرّبُ
فَتًىٰ يَمْلأُ الأفْعالَ رَأيًا وحِكْمَةً وَنَادِرَةً أحْيَانَ يَرْضَىٰ وَيَغْضَبُ
إذا ضرَبتْ في الحرْبِ بالسّيفِ كَفُّهُ تَبَيَّنْتَ أنّ السّيفَ بالكَفّ يَضرِبُ
تَزيدُ عَطَاياهُ علىٰ اللّبْثِ كَثرَةً وَتَلْبَثُ أمْوَاهُ السّحابِ فَتَنضُبُ

في قوله: «ألا لَيْتَ شِعْرِي: هَلْ أقولُ قَصِيدَةً ...» يصور لك حاله، وأنّه قد بات غير مقتدرٍ علىٰ أن يكبح جماح الشكوىٰ والعتبىٰ؛ لفداحة ما يحلّ به من أن تبدو في قصيدة من قصائده.

إنّها لأمنية يتطلع إليها؛ أن يتخلص يومًا من الاضطرار إلىٰ التشكّي، وهذا آية علىٰ أنّ ما به لا يطاقُ، إنّه العاجز عن أن يصبر، وهو هو.

وفي إيراده التّمني بـ(هل) إيماء إلىٰ أنّه يخيّل لنفسه، يسلّيها أن ذلك يمكن أن يكون، فيبدو أنّه يتساءل: أيمكن أن يكون له ذلك؟ وهو يعلم أنَّ ذلك لا يكون، ولكنّه يُسلّي نفسَه، يُمنيها، كذلك يصّور لك التمني بـ(هل) مبلغ ما يتطلع إليه، وما هو ساعٍ به إلىٰ تسلية نفسِه التي أنهكها الأسىٰ.

وهو - كما ترىٰ - يَعتب علىٰ صحبه، ويحثهم علىٰ أن يجودوا عليه مِن حالهم معه بما يُعينه علىٰ أن يقُول قصيدة خلاءً من الشكوىٰ والعتاب، ما بال أولئك الأصحاب يضنون عليه بذلك؟ أعزيزٌ عليْهم أنْ تصفو نفسُه برهةً، فيقولها قصيدة طهورًا من الشكوىٰ والعتاب؟ إن هذا لشيءٌ عجاب!

• • •

التطبيق السّادسُ

يقُول محمد بن عبد الملك الزيات:

عَرِيتُ عن الشَّبابِ وكنتُ غَضًّا   كما يعرَىٰ عن الورَقِ القضيبُ
ونُحْتُ علىٰ الشَّبابِ بدمعِ عيني   فما نفَعَ البكاءُ ولا النَّحيبُ
ألا ليتَ الشَّبابَ يعودُ يومًا   فأُخبِرَهُ بما فعَلَ المشيبُ

يصوّر لك الشّاعر ما كان فيه شابًّا، وما آل إليْه، وقد عَدَت به السّنون إلىٰ حيث ما لَمْ يكن يُحبُّ، فعلت به السّنون، فعجز عن كفّها أن تفعل، وهو الذي كان يحسب في شبابه أنه إنْ قال فُعِلَ، بل إن أراد فُعِلَ.

كذلك كان حالُه حين كان وزيرًا للمعتصم، فلقِي من السّنين ما أقامه هذا المقام الّذي أعرب عنه بأنّه عُرّي عن الشَّبابِ وكان غَضّا، أرأيتَ المقابلة بين الحالين؟

أرأيتَ ما تصورّه لك كلمة (عُريت) أوَ تسمع الأسىٰ ينعِق، لا، بل أرأيْت الأسىٰ يتأجّج؟ ثم تأمل قوله: (كنت غضًّا) كم تفيض حزنًا وأسىٰ علىٰ الذي مضىٰ؟ صراعٌ بين صدر البيت (عَريت) وقافيته (غضًّا).

هو العليم بأنّ الذي يتمناه هو المستحيلُ، إلا أنه يتمناه ليصور لك عظيم حبه ذلك، وليصور لك شدة ما يلقىٰ من تقدم عمره من العجز، والآلام، وفي هذا عظةٌ لمن أحسن ما هو فيه من نعمة الشباب.

• • •

التَّطبيق السّابعُ

ومن استحقاقات «المدح» لدَىٰ الشعراء ألّا يكون في بيانه ما يومئ إلىٰ أن ما قالَ مِنّة منه علىٰ الممدوح، أو أنه يخبر بما ليس بمعلومٍ مشهور، أو أن ما يُخبر به علىٰ قدر شأن الممدوح، فكلّ ذلك يُفسِد عليه مدحْه، وربما أحاله إلىٰ هجاءٍ.

ومن مسالك إتيان المعنىٰ من الجهة التي هي المَأتَىٰ إليْهِ أن يُخيل للممدوحِ والسّامعين المتلذذين بما يسْمعون أنَّ الكلم مهما عظم شأنها فصَاحةً وثراء هي أَقَلّ من أن تكون مادة يصاغ منها الشّعر الذي يحاول أن يحوم حول حمَىٰ شأن الممدوح وكماله.

ولذا هو يتمنّىٰ أن يكون له اقتدار علىٰ أن ينال ما في السَّماء من نجوم؛ ليقيمَ من نظمها شعرًا يحاول أن يحوم حول حمىٰ شأن الممدوح.

يقُول الشاعر: أبو محمد: عمارة بن عليّ بن زيدان اليمني (ت:٥٦٩ هـ) يمدح الملك الفائز الفاطمي (ت: ٥٥٠هـ)، ووزيره الصالح زريك الروميّ:

أقسمتُ بالفائزِ المعصومِ معتقدًا	فوزَ النّجاةِ وأَجرَ البرّ في القَسمِ
لقد حمَىٰ الدَّينَ والدّنيا وأهلَها	وزيرُهُ الصّالح الفرَّاجُ للغُمم
اللّابسُ المجدَ لم تنسِج غلائلهُ	إلّا يدُ الصانِعَيْنِ السّيفِ والقلم
قد مَلّكَتْهُ العوالِي رِقّ مملكةٍ	تُعيرُ أنفَ الثُّريا عِزّةَ الشّمَم
أرَىٰ مقامًا عظيمَ الشّأن أوْهَمَنِي	فِي يَقْظَتِي أنّه مِن جُملةِ الحُلُم
لَيْتَ الكواكِبَ تَدْنُو لِي، فأنظمَها	عقودَ مَدْحِ، فَما أرْضَىٰ لَكُمْ كَلِمِي

ركب الشاعر متن الإيغالِ في ثنائهِ علىٰ الملِك العبيديّ، ووزيرِه الرّوميّ، وهو العربيّ القح، وما كان له أن يفعلَ، ولكنه الشّعرُ.

ادّعَىٰ أن كَلِمَه لا طاقة لها أن تصفَ واقعًا مَشهودًا، هو واقعٌ فوق قدرة لسانٍ أن يقرّبه إلىٰ الأفهام؛ لما اتسم به عجائبية لا يعتقد اليقظان، وهو يشاهده إلا أنه في حُلُم مدهش.

يتمنىٰ الشاعر لو أن الكواكبَ تدنو؛ ليتخذ منها بيانه الواصفَ حقيقة ما هو قائمٌ مدهشٍ، وهذه أمنية لا سبيل إلىٰ تحقيقها، لكنه يَنَعَمُ في روضِها، فكم مِن أمانيّ عِذابٍ يرتحِل إليْها المَرءُ حِين يَقهره العجز عَن تحقيق المُراد.

وكأنّي بالشّاعر يعتذر للملك الفاطميّ لا عن عجزه مبدعًا، بل عن عجز كلِمه أن تكون قادرة علىٰ أن تصوّر ما يرَىٰ، ولا حيلةَ له في هذا ولا سبيل له إلّا أن يتمنّىٰ أن تدنو الكواكب ليصنع منها ما يليق بشأن الممدوح، ولكن أنّىٰ له ذلك!



[الاستفهام]

وَمِنْها الاسْتِفهامُ(١): وَالَأْلْفاظُ الْمَوضُوعَةُ له: «الْهمزَةُ»، و«هلْ»، و«ما»، و«مَنْ»، و«أيْ»، و«كَمْ»، و«كَيْفَ»، و«أيْنَ»، و«أنّىٰ»، و«مَتَىٰ»، و«أيّان»(٢).

---

(١) الاستفهامُ في اللغة: طلب حصول الفهم، و«السّين والتّاء» في صيغة (استفعل) – غالبًا – لطب حصول ما بعدهما. وفي الاصطلاح: طلبُ حصولِ صورةِ الشَّيْءِ المُستفهَمِ عنه في ذهنِ المسْتفهِم.

(٢) الحقُّ أنّ الّذِي وُضع للاستفهام وضعًا تحقيقيًّا شخصيًّا هو «الهمزة» وحدَها، وما عداها إنّما هو بالتضمّن.

وأدواتُ الاسْتفهامِ من حيثُ نوعُها ضربان: حروف، وأسْماء: «الهمزة»، و«هل» هما الحروف، وسائر الأدواتِ أسماء، وكل ّاسم منها وضع لمعنىٰ غير الاستفهام، ثمّ ضمّن معنىٰ الاستفهام؛ ولذا كان يُسْتَفهم به عن المعنىٰ الذي وُضِعَ له.

ولمّا كانت «الهمزة» هي الوحيدة الّتي وضِعت للاستفهام وضعًا شخصيًّا كانت «أم الباب»، وكانتْ الأداة الوحيدة الصالِحة لكلّ صور الاستفهام وأنواعِه؛ صالحة للاستفهام التّصوري، والاستفهام التصديقِيّ، وصالحة لأن يليها كلّ ما هو مسستفهَم عنه؛ مسندًا، أو مسندًا إليه، أو ما هو متعلق بالمسند؛ في حين (هل) لا تكون إلّا للاستفهام التّصديقي، وسائر الأدوات الأُخَر للاستفهام التّصوّري.

و«الهمزةُ» وحدَها هِي الصَالحة لأن تقدر حين تحذف أداة الاستفهام لقرينة علىٰ إرادة الاستفهام، كما في قول امرئ القيس:

أصاحِ ترَىٰ برقًا أُريك وميضه ... كَلمعِ الْيَدَيْنِ فِي حبي مكلّل؟

أيْ: أترىٰ...؟

وقول عمر بن أبي ربيعَة:

فوَاللهِ مَا أدرِىٰ وإنْ كنتُ دارِيا ... بسَبْعٍ رَمَيْن الجَمْر أم بثَمانِ؟

وقَوْل الْكُمَيْت:

طربت وَمَا شوقًا إِلَىٰ الْبيض أطرب ... وَلَا لعبًا مني وَذُو الشيب يلْعَب؟

فـ«الهَمزَةُ» لِطَلَبِ «التّصْدِيقِ»[1]، كَقَولِكَ: «أَقامَ زَيْدٌ؟» أَزَيْدٌ قائِمٌ؟» أَوْ «التَّصَوّرِ»[2]، كَقَوْلِكَ:» أَدِبْسٌ فِي الإِناءِ أَمْ عَسَلٌ؟» وَ» أَفِي الخابِيَةِ دِبْسُكَ أَمْ فِي الزِّقِّ؟» وَلِهَذا لَمْ يَقْبُحْ:» أَزَيْدٌ قائِمٌ؟» و»أَعَمْرًا عَرَفْتَ؟»[3].

وَالْمَسْؤُولُ عَنْهَ بِهَا هُوَ ما يَلِيهَا، فَتَقُولُ: أَضَرَبْتَ زَيْدًا؟» إِذَا كانَ الشّكُّ فِي الْفِعْلِ نَفْسِهِ، وَأَرَدْتَ بِالاسْتِفهامِ أَنْ تَعْلَمَ وُجُودَهُ، وَتَقُولُ: «أَأَنْتَ ضَرَبْتَ زَيْدًا؟» إِذَا كانَ الشَّكُّ فِي الفاعِلِ مَنْ هُوَ، وَتَقُولُ: «أَزَيْدًا ضَرَبْتَ؟» إِذَا كانَ الشَّكُّ فِي المَفْعولِ: مَنْ هُوَ.

وَ«هَلْ» لِطَلَبِ «التَّصْدِيقِ» فَحَسْبُ، كَقَوْلِكَ: «هَلْ قامَ زَيْدٌ؟» وَ»هَلْ عَمْرٌو قاعِدٌ؟»[4].

---

(١) الاستفهامُ التّصديقيُّ: هو طلب العلم بثبوت نسبة المسند إلىٰ المسند إليْه أو عدم ثبوتها. فيجابُ بـ«نعم» عند ثبوت النّسبةِ، أو بـ«لا» عند عدم ثبوتِهَا.

(٢) الاستفهامُ التّصويريُّ: هو طلب العلم بأحد طرفي النسبة أو بشيْءٍ من متعلقات المسند، ويجاب بالتَّعيين، لا بـ«نعم»، أو«لا».

وكلُّ هذا متعلقّ بدقّة العبارة، وحسن الدلالة. وهذا غير مختصٍّ بالبيان الإبداعي، بل يكون في البيان التواصليّ بين الناس، وهو إلىٰ علم المنطق أقرب، ولكنَّ علمه ضرورة للبلاغيّ.

(٣) عدم قبح (أزيد قام)، أو (أعمرًا عرفت) من أنّ «التّقديم» في كلٍّ لا يتعارضُ مع دَلالة «الهمزة»؛ إنْ قلت التقديم لا يفيد القصر – عند من لا يراه مفيدًا للقصر، بل هو لتقوية النّسبة – فأنت تسألُ عن المقدَّم في كل، أيْ: تسأل عن مفردٍ، فيكون تصورًا.

وإن كان التقديمُ في كلٍّ مفيدًا للقصر، فالسؤال عن النسبة، فيكون للتصديق، و«الهمزة» صَالحةٌ لكلٍّ، فلم يكن التركيبُ في كلٍّ قبيحًا.

(٤) «هَلْ» الاستفهامية حرفٌ لطلب التصديق إثباتًا، لا نفيًا، يقال: «هل صَلَّىٰ محمّد الصبحَ جماعةً؟» ولا يقُال: «هل لم يُصلّ محمدٌ الصبْحَ جماعةً؟»

ووجْهُ أنّها للتّصديق وحدَه دون التّصور أنّ (هل) أصلها بمعنىٰ: (قد)، وكان الأصلُ أن يُقالَ: (أَهَل) أيْ: أقد حدث كذا؟ وهذا التّركيبُ سؤال تصديق؛ لأنه ليس سؤالًا عن أحد طرفي النسبة،

وَلِهَذَا امْتَنَعَ: «هَلْ زَيْدٌ قَامَ أَمْ عَمْرٌو؟»[1] وَقَبُحَ: «هَلْ زَيْدًا ضَرَبْتَ؟» لِما سَبَقَ أنّ التَّقدِيمَ يَسْتَدْعِي حُصُولَ «التّصْدِيقِ» بِنَفْسِ الفِعْلِ، وَالشّك فِيما قُدّمَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَقْبُحْ: «هَلْ زَيْدًا ضَرَبْتَهُ؟» لِجَوازِ تَقدِيرِ المَحْذوفِ المُفَسَّرِ مُقَدّمًا، كَما مَرَّ[2].

وَجَعَلَ السَّكاكِيّ قُبْحَ نَحْو: «هَلْ رَجُلٌ عَرَفَ؟» لِذَلِكَ؛ أيْ: لِما قَبُحَ لَهُ: «هَلْ زَيْدًا ضَرَبْتَ؟» وَيَلْزَمُهُ أَن لا يَقْبُحَ نَحْو: «هَلْ زَيْدٌ عَرَفَ؟» لامْتِناعِ تَقديرِ التّقْديمِ

فـ(قد) للتّحقيق، ولا يكون التّحقيق لمفرد بل للنسبة، فلمَّا كثر استعمال (أهل) استُغْنِي عن (الهمزة)، وضمن معناه في (هل)، فصارت (هل) جامعةً بين معنىٰ (الهمزة)، ومعنىٰ (قد)، وهذا هو الاستفهام التَّصديقيّ.

ولذا إذا أفيد الاستفهامُ من غيرها، كوقوع (أم) المنقطعة قبلها جُرّدت (هل) من الاستفهام، وأُفيد الاستفهام من (الهمزة) المقدرة مع (أم) المنقطعة.

ولما كان السؤالُ بها عن النسبة، وكانت النّسبة ألزم للمسند - فعلا، أو ما في معناه - كان دخولُها علىٰ المسند الفعليّ هو الأليق والآنس.

(١) وجهُ الامتناع في: «هَلْ زَيْدٌ قَامَ أَمْ عَمْرٌو؟» أنَّ (أم) للتّصور؛ لوقوع المفرد بعدها المعادل مدخول (هل)، و(هل) للتصديق، فكان تناقضٌ، فإن جعلت (أم) للإضراب - عليْك أن تجعل ما بعد (أم) جملةً لا مفردًا.

(٢) جَعَلَه قبيحًا، ولم يجعله ممتنِعًا؛ نظرًا إلىٰ أنَّ ثَمَّ مَن لا يذهبُ إلىٰ إفادةِ «التقديم» التّخصيص، كأبي حيّان الأندلسيّ، وابن الأثير، والتّقيّ السّبكيّ (والد البهاء السّبكيّ، في رسالته: «الاقتناص في الفرق بين الحصر والاختصاص).

أمَّا «هَلْ محمّدًا أكرمتَهُ؟» فقوله: (محمّدًا) معمول لفعل محذوف، دلَّ عليه الفعل في (أكرمته) المستوفِي معموله: (الضمير)، فيكون تقدير الكلام: هل أكرمتَ محمّدًا أكرمته؟ ومثل هذا لا يقال في: « هلْ محمّدًا أكرمتَ؟» لأن الفعل (أكرم) لم يستوفِ مفعولَه، فيطلب «محمدًا» مفعولًا له.

وهذا - كما ترَىٰ - نظرٌ نحويّ، والبلاغي بحاجةٍ إلىٰ النظر في المقتضِي بناءَ العبارةِ علىٰ هذا النَّحو، فكلُّ ما لا اقتضاءَ له ليس ممَّا يعتنِي به البلاغيّ.

وَالتَّأْخِيرِ فِيهِ عِنْدَهُ - عَلَىٰ مَا سَبَقَ(١).

وَعَلَّلَ غَيْرُهُ الْقُبْحَ فِيهِمَا بِأَنَّ أَصْلَ «هَلْ» أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَىٰ «قَدْ» إِلَّا أَنَّهُمْ تَرَكُوا «الْهَمْزَةَ» قَبْلَهَا؛ لِكَثْرَةِ وُقُوعِهَا فِي الاسْتِفْهامِ(٢).

---

(١) السكاكيّ جعل (هَل رَجلٌ عرَف؟) قبيحًا، من أنّ الفعل مبنيٌّ علىٰ نكرة، وهذا عنده للتّخصيص؛ لأنَّه يذهب إلىٰ أنَّ النّكرةَ هنا مُقَدَّمة من تأخير، فهو تقديم ما حقُّهُ التأخير، يفيد التّخصيص المفيد ثبوت النسبة. وهذا يعني الإقرار بوقوع النسبة، و(هل) للسؤال عنها، فيكون تدافعٌ بيْن مطلوب (هل)، ومدلولِ تقدم النّكرة علىٰ الفِعلِ.

وكذلك: (هَلْ زيدًا ضربْت؟) تقديم زيد مفعولًا علىٰ الفعل مفيد للتّخصيص، فالنسبة مقررةٌ، و(هل) للسؤال عن النسبة، فيكون - أيْضًا - تدافع كالذي قبله.

وقولنا: (هل زيدٌ عرَف؟) التّقديم عند الجمهرة للتخصيص، فتكون النسبة مقررة؛ ومن ثم كان قبيحًا عندهم، والسَّكاكيّ لا يقُول بقبحه؛ لأنَّه لا يراه من قبيل التّقديم الذي حقّه التأخير.

المُسند إليه معرفةٌ اسم ظاهر، وليس ضميرًا، فـ«زيد» في (زيد عرَف) لا يلزمه التّأخير؛ بيْنا (أنا عرفت) هو تقديم ما حقه التّأخير؛ لأن أصلَه (عرفتُ أنا) فكان في (أنا عرفت) تخصيصٌ علىٰ سبيل القطع، فلا يصحّ معه (هل)؛ بيْنا في (زيد عرَف) التّخصِيص فيه احتماليٌّ لا قطعيّ؛ لاحتمالِ أن يكونَ التّقديم للتّقوّي. فلا يقبحُ معه (هل)، فتقول: (هل زيدٌ عرَف؟) فلا تدافع بين مطلوب (هل)، ومدلول تقديم زيد علىٰ الفعل، وهو في هذا مخالفٌ للنّحاة.

ومن النّحاة من ذهب في (هل زيدٌ خرج؟) إلىٰ أنّه علىٰ تقدير فعل بعد (هل)، وقبل (زيد)؛ أي: (هلْ خرج زيدٌ خرج؟) فلا يكون فيه تخصيصٌ؛ ومن ثَمَّ لا يَقبُح عنده، فهو يعامل (هل) معاملة (إذا) المستوجب دخولها علىٰ فعل، ففي قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] التَّقدير: إذا انفطرت السماءُ انفطرتْ، وجواب الشَّرط: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥].

وهذا سبقتْ مُدارستُهُ في مبحث أحوال المُسند إليه تقديمًا.

وكلُّ ما مضَىٰ هو من باب تحقيق حسن دلالة التَّركيبِ، واجتناب ما يسمىٰ: «ضعف التأليف»، فهو داخلٌ في مبحثِ «الفصَاحة»، لا في مباحث «المطابقةِ» الَّتي هي جوهرُ البلاغة، فالاعتناءُ به اعتناءٌ بما يُبْنَىٰ عليه الاعتناءُ بمباحث المطابقة

(٢) القول بأنَّ (هل) أصلها: (أهل) منه قول زيد الخبل الطائي:

سَائِلْ فَوَارِسَ يَرْبُوعٍ بِشِدَّتنا ... أَهَلْ رَأَوْنَا بِسَفْحِ الْقَاعِ ذِي الْأَكَمِ؟

وَ«هَلْ» تُخَصِّصُ «الْمضَارِعَ» بِالاسْتِقْبالِ[١]، فَلا يَصِحُّ أَن يُقالَ: «هَلْ تَضْرِبُ زَيْدًا، وَهُوَ أَخُوكَ؟» كَمَا تَقُولُ: «أَتَضْرِبُ زَيْدًا، وَهُوَ أَخُوكَ؟»[٢].

(يربوع): أبو حي من تميم، (بشدتنا) بفتح الشين وكسرها: قوتنا وحملتنا، (والباء) بمعنىٰ (عن) أي: (عن شَدّتنا) أي: قوتنا، و(سفح): أسفل، و(القاع): ما استوىٰ من الأرض، و(الأكمة): التّل.

قال: (أهل) جامعًا بين (الهمزة)، و(هل) مع بقاء (الهمزة) علىٰ دلالتها علىٰ الاستفهام، و(هل) بمعنىٰ (قد) علىٰ مذهب من لم يؤول العبارة علىٰ أنه خبر؛ ولذا لا تنصب المضارع الواقع بعد (الفاء) في (أهل)؛ أي: لا تقل: «أهلْ جاء محمدٌ، فأكرمَه» بنصب «أكرمه»، بل قلْ: (أكرمُه) بالرفع؛ لأنّ في (أهل) خرج الاستفهام إلىٰ الخبرية؛ كأنك قلت: (ألست صديقي فتزرُنِي) برفع الفعل (تزور).

ومثله قَالَ خِطَامٌ الْمُجَاشِعِيُّ:

أَهَلْ عَرَفْتَ الدارَ بالغَرِيَّيْنْ؟ ... لَمْ يَبْقَ منْ آيٍ بِهَا يُحَلَّيْنْ

غَيْـرُ خِطـامٍ ورَمـادٍ كِنْفَيْـنْ ... وصالِيـاتٍ كَكمـا يُؤَثْفَيْـنْ

و(الغَرِيَّان): مَوضِع بِالْكُوفَةِ نَحْو فرسخين عَنْهَا، وَهُوَ مثنىٰ الغَرِي - بِفَتْح «الْغَيْن»، وَكسر «الرَّاء»، وَتَشْدِيد «الْيَاء» - أَيْ: المَطْليان، والغَريّان فِي الأَصْل: منارتان علىٰ قَبْرِي ابن عَمْرو بن مَسْعُود وخَالِد بن نَضْلَةَ الأسديين، كَانَ الْمُنْذر الأَكْبَر اللَّخْمِيّ يغريهما بالدماء؛ أَي: يطليهما بهَا.

و(الصّاليات): أراد بها «الأثافي»؛ لأنها صليت بالنار، أي: أحرقت حتىٰ اسودت، و(الأثافي): جمع أُثْفِية، وهي الحجارة التي ينصب عليها القدر.

يصف الشّاعر دارًا خلت من أهلها، ولم يبق من آثارهم إلا الأثافي (الصَّاليات) التي كانوا يضعون عليها القدرَ، والمعنىٰ: لم يبق من هذه الديار التي خلت من أهلها غير رماد القدر، وغير حجارة القدر.

ومن أَهل العلم مَنْ يذهَبُ إلىٰ أنَّ هذا ليس خاصًّا بـ(هل)، بل كل أسماء الاستفهام الأصل فيها اجتماعها مع (الهمزة): أمَن، أمتىٰ، أكم؟... وَالْأَصْل أَمَن؟ أمتىٰ؟ ... وَلما كثر اسْتِعْمَالهَا فِي الِاسْتِفْهَام حذفت (الهمزةُ)، وتضمن الاسم الذي كان بعدها مَعْنَاهَا؛ ولذا كانت أسماء الاستفهام مبنية لتضمنها معنىٰ الاستفهام، وهو معنىٰ الأصل أن يكون الدالُّ عليْه حرفٌ، خلا (أي) الاسْتفهامية.

(١) تخصيصُها المضارعَ بالاستقبالِ دلالةٌ وَضعِيّةٌ، كمثل «السّين» و«سَوف».

(٢) لاريبَ أنّ الاستفهامَ في: (هل تضرِبُ زيدًا، وهو أخوك) إنّما هُو تَوبِيخِيٌ، أي: ما يكونُ لك

[وجه اختصاص «هل» بما هُو زَمانيٌّ]

وَلِهَذَيْنِ - أَعْنِي اخْتِصاصَها بِـ«التّصْدِيقِ»، وَتَخْصِيصَها المُضارِعَ بِالاسْتِقبالِ - كانَ لَهَا مَزِيدُ اخْتِصاصٍ بِمَا كَوْنُهُ زَمانِيًّا أَظْهَرَ كَالفِعْلِ، أمّا الثّانِي فَظاهِرٌ، وَأَمَّا الأَوَّلُ فَلأنَّ الْفِعْلَ لَا يَكُونُ إلَّا صِفَةً.

وَ«التَّصْدِيقُ» حُكْمٌ بِالثُّبُوتِ أَوْ الانْتِفاءِ. وَ«النَّفْيُ» وَ«الإثْباتُ» إنّما يَتَوَجّهانِ إلَىٰ الصّفاتِ لا الذّواتِ(١).

أن تفعل، والتّوبيخُ لا يكون علىٰ الاستقبال، وإنّما يكونُ علىٰ الحالِ أو الماضي، و(هل) للاستقبال، فهنالِك تدافعٌ بيْن إرادةِ التوبيخ من الاستفهامِ، واختصاصِ (هل) بالاستقبال.

وقد يكون التوبيخُ علىٰ إرادة الفعل، فيظن أنه توبيخٌ علىٰ مستقبل، نحو: هل تريد أن تهجر أخاك؟ والتحقيقُ أنّه توبيخ علىٰ الإرادة.

أمّا الاستفهامُ بـ(الهمزة) فلا تدافع؛ لأنّ (الهمزةَ) ليستْ مختصّةً بالاستقبال، ومِن هنا صحَّ: (أتضربُ زيدًا، وهو أخوك؟) فالتوبيخُ المراد من الاستفهام بالهمزة هنا لا يتدافع مع (الهمزة)، فَهي تكون لما مضَىٰ، وللحال، وللاستقبال مِن أنّها (أم الباب).

(١) أمران مقرران:

(الأول): أن (هل) للتصديق.

و(الآخر): أن الفعل صفة، ومن مُكَوّنِه «النسبة» ثبوتًا ونفيًا، فالفعلُ مُكَوَّنٌ من ثلاثةٍ: (الحدث، والذات، والنسبة).

والتّصديقُ حكمٌ بالثبوت أو بالنفي، فكان تآخٍ بين الفعل والتصديق، فترتّب عَلَيْهِ تآخٍ بيْن (هل) والفعل.

فإذا ما كان في جملة الاستفهام بـ(هل) فِعلٌ، فإنها توجبُ أن يكون الفعلُ مدخولَها، وألَّا يُفرّق بينهما منْ أنّه مشتملٌ علىٰ النسبة، وهي إنما يسأل بها عن النسبة بين الطرفين ثبوتًا، وانتفاءً.

وهي إذا لم ترَ الفعل في حيزها، أيْ: فِي جملتها ذهلت عنه - كما يقول أهل العلم علىٰ سبيل التّخييل - ونسيت مطلوبها؛ بخلاف ما إذا رأته، فانَّها تذكّرت العهود، وحنَّت إلىٰ الإلف، فلم ترضَ بافتراق بينهما.

يقول السعدُ في «المطول» ومختصره: «إذا لم ترَ الفعل في حيزها ذهلت عنه ونسيت؛ بخلاف ما

وَلِهَذَا كَانَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠](1) أَدَلَّ عَلَىٰ طَلَبِ الشُّكْرِ مِن قَولِنَا: «فَهَلْ تَشْكُرونَ؟» وَقَوْلِنَا: «فَهَلْ أَنْتُمْ تَشْكُرونَ؟» لِأَنَّ إِبْرازَ

إذا رأته، فانّها تذكَّرت العهود، وحَنّت إلىٰ الإلف المألوف وعانقته، ولم ترض بافتراق الاسم بينهما.

ولذا لم يقبح «هَلْ زيدٌ قائمٌ؟» كما قبُح (هَل زيدٌ قام)، فِي الأوّل لَم يكُن في الجملة فعلٌ، وفي الثّانية كان، فأوجبَت أن يليَها فِي الأول»الفعل»، ولم توجِب فِي الثَّانِية.

وشرطٌ أن يكون ذلك الفعل نسبته هي محل الاستفهام، ففي قولك: (هل رأيت محمدًا يصلي؟) مناط السؤال هو النسبة التي في (رأيت)، وليس النسبة التي في (يصلىٰ)، وعلىٰ هذا تفهم ما في قول علقمة بن عبدة:

هل ما علمتَ وما استُودِعْتَ مَكْتومُ ... أم حَبْلُها إذ نَأَتْك اليومَ مصْرومُ

أم هل كبيرٌ بَكىٰ لم يَقْضِ عَبْرتَه ... إثْرَ الأَحِبْةِ يومَ البَينِ مَشْكومُ

المستفهم عنه في (أم هلْ كبيرٌ بكىٰ؟) هو النسبة التي في: (لم يَقْضِ عَبْرتَه)، والاستفهام فيه ليس بـ«هل»، بلْ بـ «الهمزة» المقدرة مع «أم» المنقطعة «الاستئنافية»، فنظمُ البيت قويمٌ لا محظور فيه.

وكذلك جردتْ (هل) من الاستفهام في قول الله تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

وإذا اجتمعت «أم» مع غير «هل» لا تجرد أداة الاستفهام منه، بل تجرد «أم» كما في قول الشاعر:

كَيفَ الْقَرار بِبَطن مَكَّة بَعْدَمَا ... هـم الَّذيـن تحـب بالإنجـاد

أم كَيفَ صبرك إِذْ ثويت معالجا ... سقما خلافهم وسقمك بادي

الاستفهام في (أمْ كَيفَ صبْرُك...؟) مفاد من (كيف)، وليس من(أم).

(١) جاء قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ في سياق الحديث عَن سيِّدنا «داود» - عَلَيْهِ السّلامُ -: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ۝٧٩ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٧٩ - ٨٠]، دخلت (هل) علىٰ اسمٍ خبره اسم مشتق، وليس فعلًا، ولو قيل - في غير القرآن -: (فهل أنتم تشكرون) لكان قبيحًا؛ لأن حقَّ (الفعل) أن يكون رديف (هل)؛ لمزيد اختصاصها بالفعل.

مَا سَيَتَجَدَّدُ فِي مَعْرِضِ الثَّابِتِ أَدَلُّ عَلَىٰ كَمَالِ الْعِنَايَةِ بِحُصُولِهِ مِن إبْقائِهِ عَلَىٰ أَصْلِهِ، وَكَذَا مِنْ قَوْلِنَا: «أفأَنْتُمْ شَاكِرُونَ؟» وَإنْ كانَتْ صِيغَتُهُ لِلثُّبُوتِ؛ لأنّ «هل» أَدْعَىٰ لِلْفِعْلِ مِن «الْهَمْزَةِ»، فَتَرْكُهُ مَعَهُ أَدَلُّ عَلَىٰ كَمالِ الْعِنايَةِ بِحُصُولِهِ[1].

وَلِهَذا لَا يَحْسُنُ «هَلْ زَيْدٌ مُنْطَلِقٌ؟» إلّا مِن البَلِيغ[2].

[أقسام «هَل»]

وَهِي قِسْمَانِ: بَسِيطَةٌ، وَهِي الّتِي يُطْلَبُ بِهَا وُجُودُ الشَّيْءِ، كَقَوْلِنَا: «هَلْ الْحَرَكَةُ مَوْجُودَةٌ؟» وَمُرَكَّبَةٌ، وَهِيَ الّتِي يُطْلَبُ بِها وُجُودُ شَيْءٍ لِشَيْءٍ، كَقَوْلِنَا: «هَلْ الحَرَكَةُ دَائِمَةٌ؟»

---

(١) في قوْلِهِ: ﴿فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾ أبْرَزَ الشّكر في صورة الثَّابت (الاسم: شاكرون)، وهذا العدولُ أَدلّ علىٰ كمال العناية بتحقيق الشّكر من بقائه علىٰ أصله (تشكرون)؛ ذلك أنَّ العدول عن الأصل لا يكونُ إلّا لأمرٍ يَقتضيه، والمُقتضِي هنا الدلالةُ علَىٰ الاعتناءِ بحدوثِ الشّكر حدوثًا يَنقُلُه من طورِ الفعلية المتجدد إلىٰ طور الاسمية الدّالِ علىٰ الثبوت، وفي «الثبوت» حصَانةٌ من الزوال، ومن النقصِ، ومن الخللِ.

وبهذا يتبيّن أنه لا عدول عن الأصل في (فَهَلْ تَشْكُرون)؛ لأنّ (هل) دخلت علىٰ الفعل (تشكرون)، فالمعنَىٰ علىٰ التّجدد، والتّجدُّدُ عرضةٌ للتوقف، أو النّقصان، أو التّفاوت.

وكذلك لا عدولَ مِن التَّجدّد إلىٰ الثّبات في (فهَل أَنْتُم تَشْكرون) — علىٰ قبحه، لا خطئه – لأنّه علَىٰ تقدير فِعل بعد (هل)، هو كما في (إذا) إذا ما دخلت علىٰ اسم، فإنّه يقدر فعل بعدها؛ ذلِك أنَّ (إِذَا) يَطْلُبُ الْفِعْلَ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ مَعْنَىٰ الشَّرْطِ، كما يقُول أهلُ العلم.

(٢) أيْ: لا يحسُنُ العُدولُ عن (هل ينطلق زيد) إلىٰ (هلْ زيدٌ منطلق) إلاَّ مِن بليغ؛ لأنّه هُو الّذي يقصِد – عَن علمٍ – بهذا العدول إلَىٰ الدّلالة علىٰ ثبات الانطلاق، والدَّلالة علىٰ أنّ السؤالَ ليْس علَىٰ انطلاقٍ مِن زيدٍ، بلْ علىٰ ثبوتِ ذلك منه، وأنَّ الانطلاق أمرٌ من شأنه لا يفارقه، وغيرُ البليغِ إذا قال: (هل زيدٌ منطلقٌ) فإنّه لا يلتفتُ إلىٰ ذلك. والصّوابُ لا يكونُ صوابًا إلّا إذا كان عَن عِلم وقصدٍ.

[بيان ما يطلب بغير الهمزة وهل]

وَالْأَلْفاظُ الباقِيَةُ لِطَلَبِ «التَّصَوّرِ» فَقَطْ[1]:

أَمّا «ما» فَقِيلَ: يُطْلَبُ بِهِ إمّا شَرْحُ الاسْمِ، كَقَوْلِنَا: «مَا الْعَنْقاءُ؟» وَإمّا مَاهِيَّةُ المُسَمّىٰ، كَقَوْلِنا: «مَا الْحَرَكَةُ؟»[2].

وَالْقِسْمُ الأَوّلُ يَتَقَدَّمُ عَلَىٰ قِسْمَيْ «هَلْ» جَمِيعًا، وَالثَّانِي يَتَقَدَّمُ عَلَىٰ «هلْ» الْمُرَكَّبَةِ دُونَ الْبَسِيطَةِ، فَالْبَسِيطَةُ فِي التَّرْتِيبِ وَاقِعَةٌ بَيْنَ قِسْمَيْ «ما»[3].

---

(١) ما يدلُ علىٰ الاستفهام من الأسماء إنما هو بالتضمين، وليس بالوضع اللُّغوي، فهي موضوعةٍ لمعانٍ أُخر؛ فمنها ما هو موضوع للظرفية الزمانية، ومنها ما هو موضوع للمكانية، ومنها ما هو موضوعٌ للحالية، ومنها ما هو موضوع للعددية ...، فاستعماله أداة استفهام إنّما هو بالتضمن، لا بالوضع.

وهي تمتاز - أيضًا - بأمرٍ آخر: أنها لطلب تصور شيءٍ معيّن، فالمسؤول عنها مفرد، وليس نسبة بين مفردْين.

(٢) الفرقُ بينهما: أن شرح الاسم هو بيان معناه في الوضع اللغوي، وأما ماهية المسمىٰ فحقيقته، فالأول تبينه بما يكشف معناه، وقد يكون هذا بمرادفه، مثل: ما السَّجنجل؟ فتقول: المِرْآةُ. ما الغَضنفر؟ فتقول: الأسد.

وأما الحقيقة والماهية فبذكر جنسه وفصله، كقوله: ما الإنسان؟ فتقول: حيوان ناطق، فقولك: (حيوان) بيان الجنس، وقولك: (ناطق) بيان الفصل.

(٣) يريد أن التَّرتيب يكون كالتَّالي:

السؤال بـ(ما) عن شرح الاسم، ثُمّ السّؤال بـ(هل) البسيطة، ثم السؤال بـ(ما) عن الماهية والحقيقة، ثم السؤال بـ(هل) المركبة.

وعلىٰ ذلك تكون (هل) البسيطة، لا بدَّ أن يسبقها السّؤال بـ(ما) عن شرح الاسم؛ ليتبين له معناه، ثم يأتي السؤال بـ(هل) البسيطة عن وجوده وعدمه، ثم يأتي السؤال بـ(ما) عن الحقيقة، ثم يختم بالسؤال بـ(هل) المركبة.

وَقَالَ السَّكاكِيُّ: يُسْأَلُ بِـ«ما» عَن الجِنْسِ، تَقُولُ:» مَا عِنْدَكَ؟» أيْ: أيُّ أَجْناسِ الأَشْياءِ عِندَك؟ وَجوابُهُ: «إنْسانٌ»، أَوْ «فَرَسٌ»، أوْ «كِتابٌ»، أوْ نَحْوَ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ تَقُولُ: «مَا الكَلِمَةُ؟ وَمَا الْكَلامُ؟» وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ [الحجر: ٥٧][1] أَيْ: أَيُّ أَجْناسِ الْخُطوبِ خَطْبُكُم؟ وَفِيهِ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى﴾ [البقرة: ١٣٣][2]، أيْ: أَيُّ مَنْ فِي الوجودِ تُؤْثِرونَهُ لِلْعِبادَةِ؟

أَوْ عَنِ الوَصْفِ، تَقُولَ: «مَا زَيْدٌ؟» و»مَا عَمْرٌو؟» وَجوابُهُ: الكَرِيمُ أَو الْفَاضِلُ وَنَحْوهُمَا، وَسُؤالُ فِرْعَونَ: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣][3] إمّا عَنْ الجِنْسِ لاعْتِقادِه - لِجَهْلِهِ باللهِ - تَعالَىٰ - أَن لَا مَوْجُودَ مُسْتقِلًّا بِنَفْسِهِ سِوَىٰ الْأَجْسامِ، كَأَنَّهُ قَالَ: أيُّ أَجْنَاسِ الْأَجسامِ هُو؟

وَعَلَىٰ هَذا جَوابُ مُوسَىٰ - عَلَيْهِ السّلامُ - بِالْوَصْفِ لِلتَّنبيهِ عَلَىٰ النَّظَرِ المُؤَدِّي إِلَىٰ مَعْرِفَتِهِ، لَكِنْ لَمَّا لَمْ يُطابِقْ السّؤَالَ عِنْدَ فِرْعَونَ عَجَّبَ الْجَهَلَةَ الّذِينَ حَوْلَهُ مِنْ قَوْلِ مُوسَىٰ -عَلَيْهِ السّلامُ- بِقَوْلِهِ لَهُمْ: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥]، ثُمَّ لَمَّا وَجَدَهُ مُصِرًّا عَلَىٰ الْجَوابِ بِالْوَصْفِ؛ إذْ قَالَ فِي الْمَرّةِ الثّانِيَةِ:

---

(١) سياق الجملة: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ [الحجر: ٥١ - ٦٠].

(٢) سياق الجملة: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

(٣) سياق الجملة: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣ - ٢٨].

﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٦] اسْتَهْزَأَ بِهِ، وَجَنَّنَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء: ٢٧]، وَحِينَ رَآهُمْ مُوسَىٰ - عَلَيْهِ السّلامُ - لَمْ يَفْطَنُوا لِذَلِكَ فِي الْمَرَّتَيْنِ غَلَّظَ عَلَيْهِم فِي الثَّالِثَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٨].

وَإِمّا عَنْ الوَصْفِ طَمَعًا فِي أَنْ يَسْلُكَ موسىٰ - عَلَيْهِ السّلامُ - فِي الجَوابِ مَعَهُ مَسْلَكَ الْحاضِرينَ لوَ كانُوا هُم الْمَسْؤُولِينَ مَكانَهُ لِشُهْرَتِهِ بَيْنَهُمْ بِربِّ العَالَمِينَ إِلَىٰ دَرَجَةٍ دَعَتْ السَّحَرَةَ إِذْ عَرَفُوا الْحَقّ أَنْ أَعْقَبُوا قَوْلَهَمْ: ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٤٧] بِقَوْلِهِمْ: ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٨] نَفْيًا لاتِّهامِهِمْ أَنّهم عَنَوْهُ، ولِجَهْلِهِ بِحَالِ مُوسَىٰ - عَلَيْهِ السّلامُ - إِذ لَمْ يَكُنْ جَمَعَهُما قَبْلَ ذَلِكَ مَجْلسٌ؛ بِدَلِيلِ أنّه قَالَ: ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ۝٣٠ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ٣٠ - ٣١]، فَحِينَ سَمِعَ الجَوابَ تَعدَّاهُ عَجبٌ، واسْتَهْزَأَ، وَجَنَّنَ، وَتَفَيْهَقَ بِمَا تَفَيْهَقَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ۝٢٩ ﴾ [الشعراء: ٢٩][1].

• • •

(١) سَعىٰ السّكاكيّ إلىٰ تبيين نسق الحوار والمناظرة والمحاجّة بيْن سيّدنا موسىٰ - عَلَيْهِ السّلامُ - وفرعون، وترتيب كلام كل علىٰ كلام الآخر، وهذا بابٌ من أبواب البلاغة دقيقٌ، يعتمد علىٰ تلاحظ المعاني، وبناء بعضِها علىٰ بعض، وهو يقُوم علىٰ اتِّساق حركةِ العقل في تتبع مسار المعنىٰ، وهو يدخل في (باب الاستدلال)، الذي جعله السكاكي تتمة بابي (المعاني) و(البيان).

وأمَّا «مَنْ»، فَقالَ السّكّاكِيُّ: «هُوَ لِلسُّؤَالِ عَن الجِنْسِ مِنْ ذَوِي العِلْمِ[1]، تَقُولُ: «مَنْ جِبْرِيلُ؟» بِمَعْنَىٰ: أَبَشَرٌ هُو أَمْ مَلَكٌ أَمْ جِنِّيٌ؟ وَكَذَا «مَنْ إبْلِيسُ؟» وَ«مَنْ فُلانٌ؟»

وَمِنْهُ قَوْلُهُ - تَعالَىٰ - حِكَايَةً عَنْ فِرْعَوْنَ: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩] أيْ: أَمَلَكٌ هُوَ أَمْ بَشَرٌ أَمْ جِنِيٌّ؟ مُنْكِرًا لِأَن يَكُونَ لَهُمَا رَبٌّ سِواهُ؛ لادّعائِهِ الرُّبُوبِيّةَ لِنَفْسِهِ، ذاهِبًا فِي سُؤَالِهِ هَذَا إلَىٰ مَعْنَىٰ: أَلَكُمَا رَبٌّ سِوَايَ؟ فَأَجَابَ مُوسَىٰ - عَلَيْهِ السّلامُ - بِقَوْلِهِ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

كَأَنّهُ قَالَ: نَعَمْ، لَنَا رَبٌّ سِواكَ، هُوَ الصَّانِعُ الّذِي إذَا سَلَكْتَ الطّرِيقَ الّذِي بَيَّنَ بِإيجادِهِ لِمَا أَوْجَدَ، وَتَقْدِيرِهِ إيَّاهُ عَلَىٰ مَا قَدّرَ وَاتّبَعْتَ فِيهِ الخِرّيتَ المَاهِرَ، وَهُوَ «العَقْلُ» الْهادِي عَن الضَّلالِ - لَزِمَكَ الاعْتِرافُ بِكَوْنِهِ رَبًّا، وَأَن لَا رَبّ سِواهُ، وَأَنّ الْعِبادَةَ لَهُ مِنِّي وَمِنْكَ وَمِن الخَلْقِ أَجْمَعُ حَقٌّ لَا مَدْفَعَ لَهُ.

وَقِيلَ: هُوَ لِلسّؤالِ عَن العارِض المُشَخّصِ لِذِي العِلْمِ، وَهَذَا أَظْهَرُ؛ لأنّه إذَا قِيلَ: «مَن فلانٌ؟» يُجابُ: بِـ«زَيْدٌ»، وَنحْوِهِ؛ ممّا يُفِيدُ التّشْخيصَ، وَلَا نُسَلِّمُ صِحّةَ الجَوابِ بِنْحْوِ: «بَشَرٌ» أوْ «جِنّيٌ»، كَما زَعَمَ السّكَاكِيُّ.

وَأَمّا «أيّ» فَلِلسّؤالِ عَمَّا يُمَيّزُ أَحَدَ المُتَشَارِكينَ فِي أَمْرٍ يَعُمّهُما[2]، يَقولُ

---

(١) قال: (من ذَوي العلم)، ولم يقل: للسؤال عن (العاقل)؛ حتىٰ يصِح استعمال «مَنْ» مع الله - تعالىٰ - وهو لا يقال عنْه: «عاقلٌ»، بل يقال: «عليمٌ».

(٢) «أيّ» بفتح «الهمزةِ»، وتشديد «الياء»؛ فهي ثلاثيّة، وهي اسمٌ يفيد واحدًا من خمس معانٍ؛ منها: «الاستفهام»، نحو: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠]، ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤].

القائِلُ: «عِنْدِي ثِيابٌ»، فتَقولُ: «أيُّ الثّيابِ هِيَ؟ « فتَطْلُبُ مِنْهُ وَصْفًا يُمَيّزُهَا عِنْدَكَ عَمّا يُشارِكُهَا فِي الثَوْبيّةِ.

وَفِي التّنْزِيلِ: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ [مريم: ٧٣][1]، أيْ: نَحْنُ أَمْ أَصْحابُ مُحَمّدٍ - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلّم؟ وَفِيهِ: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ [النمل: ٣٨][2] أيْ: الإِنْسِيّ أم الْجِنِيّ؟

• • •

وأمّا «كَمْ»[3] فَلِلسّؤالِ عَن «العَدَدِ»، إذَا قُلْتَ: «كَم دِرْهَمًا لَك؟» و«كَمْ رَجُلًا رأَيْتَ؟» فكَأَنَّكَ قُلْتَ: أَعِشْرونَ أَمْ ثَلاثُونَ أَمْ كَذَا أَمْ كَذَا؟ وَتَقولُ: «كَمْ دِرْهَمُكَ؟» وَ«كَمْ مَالُكَ؟» أيْ: كَمْ دَانِقًا؟ أَوْ «كَم دِينارًا؟» و«كَمْ ثَوبُكَ؟» أيْ: «كَمْ شِبْرًا؟» أَوْ «كَمْ ذِرَاعًا؟» و«كَمْ زَيْدٌ ماكِثٌ؟» أيْ: «كَمْ يَوْمًا؟» أوْ «كَم شَهْرًا؟» و«كَمْ رَأَيْتُكَ؟» أيْ: «كَمْ مرّةً؟» وَ«كَمْ سِرْتَ؟» أيْ: «كَمْ فَرْسَخًا؟» أَوْ «كَمْ يَوْمًا؟»

---

(١) سياق الجملة: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

(٢) سياق الجملة: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨].

(٣) تأتِي «كمْ» علىٰ وجهين: خبرية؛ بمعنىٰ: (كثير)، واستفهامية؛ بمعنىٰ: (أيّ عددٍ)، وهي - سواءٌ كانت استفهامية أم خبرية - يلزمها أمور خمسة: الاسمية، والبناء، ولزوم التصدير، والافتقار الىٰ التمييز، والإبهام.

ويشترط في الاستفهامية أن يكون تمييزها مفردًا؛ خلافًا للكوفيين، ولا بدَّ أن يكون منصوبًا عند جمهور أهل العلم. أمّا «الخبرية» فيكون مفردًا ومجموعًا، واجب الخفض. وتمييز الاستفهامية منصوب، ولا يجوز جرّه مطلقًا إلا إذا جر (كم) بحرف جر، وأجاز بعض أهلِ العلم جر تمييز (كم) الاستفهامية مطلقًا، وفي هذا توسعة علىٰ المتكلّمين.

قَالَ اللهَ - تَعالَىٰ: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ ﴾ [الكهف: ١٩][(١)]، أيْ: كَمْ يَوْمًا؟ أَوْ كَمْ ساعَةً؟ وَقَالَ: ﴿ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ [المؤمنون: ١١٢][(٢)]، وقال: ﴿ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٍ ﴾ [البقرة: ٢١١][(٣)]، ومِنْهُ قَوْل الفَرَزْدَقِ:

كَمْ عَمَّةٍ لَكَ يَا جَرِيرُ وَخَالَةٍ ... فَدْعاءَ قَدْ حَلَبَتْ عَليَّ عِشارِي[(٤)]

فِيمَنْ رَوَىٰ بِالنَّصْبِ، وَعَلَىٰ رِوايَةِ الرَّفْعِ تَحْتَمِلُ الاسْتِفْهامِيّةَ وَالْخَبَرِيّةَ[(٥)].

---

(١) سياق الجملة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١٩].

(٢) سياق الجملة: ﴿ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٢ – ١١٤].

(٣) سياق الجملة: ﴿ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [البقرة: ٢١١].

(٤) البيت من قصيدة يهجو بها «جريرًا» هجاء فاحشًا، مطْلعُهَا:

يَا ابْن المراغة إِنَّمَا جاريتني ... بمسبقين لَدَىٰ الفعال قصار

(الفدعاء): المرأة التي اعوجت إصبعها من كثرة حلبها، أو أصاب رجلها عوجٌ من كثرة مشيها وراء الإبل راعيةً. (عشاري) العشار: جمع عُشَراء: الناقة التي أتىٰ عليها من وضعها عشرة أشهر.

ومعنىٰ البيت: لك يا جرير عمات وخالات كُثر فدعاوات من كثرة حلب نوقِي ورعيها. ومثلُ هذه الأعمال عند العربِ لا يقوم بها إلا الإماءُ والعبيد؛ ولا سيما رَعْيُ الإبل.

(٥) يجوز في «عمةٍ» و«خالةٍ» الخفض علىٰ قياس تمييز الخبرية، والنصب علىٰ أنها تهكمية، والرفع علىٰ احتمالِ الوجهين الخبرية والاستفهامية.

يقول البغدادي في» خزانة الأدب»: «كلٌّ من الْجَرّ وَالنّصب أبلغ من الرّفْع؛ لِأَنَّهُمَا يدلان علىٰ أَن لجرير عماتٍ وخالات أجيرات ممتهنات، وَالرَّفْعُ يدل علىٰ أَن لَهُ عمَّة وَاحِدَة حلبت لَهُ عشاره. وَلِهَذَا قَالَ السيرافي: «الأجود فِي الْبَيْت الْخَفْض، وَبعده النصب، وَبعده الرّفْع».

وَأَمَّا «كَيْفَ» فَلِلسّؤَالِ عَن الْحالِ، إذَا قِيلَ: «كَيْفَ زَيْدٌ؟» فَجوابُه: «صَحِيحٌ، أَوْ سَقِيمٌ، أَوْ مَشْغُولٌ، أَوْ فارِغٌ»، ونحو ذَلِكَ.

وَأَمَّا «أيْن»، فَلِلسّؤالِ عَن المَكانِ، إذَا قِيلَ: «أَيْنَ زَيْدٌ؟» فَجَوابُهُ: «فِي الدّارِ، أوْ فِي المَسْجِدِ، أَوْ فِي السّوقِ»، وَنَحو ذَلِكَ.

وَأَمّا «أنّىٰ» فَتُسْتعمَلُ تارةً بِمَعْنَىٰ «كيف»، قَالَ اللهُ تَعالَىٰ: ﴿ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣][1]، أيْ: كَيْفَ شِئْتُمْ، وَأُخْرَىٰ بِمَعْنَىٰ: «مِن أَيْنَ» قَالَ اللهُ تَعالَىٰ: ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ [آل عمران: ٣٧][2]، أيْ: مِنْ أيْنَ لَكَ هَذا؟

---

(١) سياق الجملة: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، تأويل ﴿ أَنَّىٰ ﴾ في هذا السياق بمعنىٰ (كيف) يحتاج إلىٰ إجابة سوالٍ عن المقتضِي الإعراب بـ﴿ أَنَّىٰ ﴾؛ دون (كيف)، ولو قيل: (كيف شئتم) أيتساويان؟

﴿ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ تجمع بيْن معنيين:

الأول: كيف شئتم مقبلة أو مدبرة، في صمامٍ واحد، هو موضع تحقيق الحرث «النسل». والآخر: متىٰ شئتمْ إِذَا تَطَهَّرْنَ.

وفي قوله تعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، المعنىٰ علىٰ أنَّ ﴿ أَنَّىٰ ﴾ ، اسْتِفْهَامٌ مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّعَجُّبِ، يتعجَّبون من أن يجعل فيهم ملكًا.

وفي قوله تعَالَىٰ: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [البقرة: ٢٥٩] الآية.. هي متعينة لمعنىٰ «كيف»، وهو استفهام استبعادي إنكاريّ.

وفي قوله تعَالَىٰ: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٤٠] المعنىٰ علىٰ التَّعجب من أن يكون له ولد، وهو في هذا الحال، كأنه قيل: كيف يكون لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ، وَامْرَأَتِي عاقِرٌ؟

(٢) سياق الجملة: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا

وَأَمَّا «مَتَىٰ» و«أيّانَ» فِللسّؤالِ عَن الزّمانِ، إذَا قِيلَ: «مَتَىٰ جِئْتَ؟» أوْ «أيّانَ جِئْتَ؟» قِيلَ: «يومَ الجُمُعَةِ»، أَوْ «يومَ الْخَمِيسِ»، أَوْ «شَهْرَ كَذَا»، أَوْ «سَنَةَ كَذَا».

وَعَنْ عَلِيّ بْن عِيسَىٰ الرّبْعِي: «أنّ «أيّان» تُستعملُ فِي مَواضِع «التّفْخِيمِ»، كَقَوْلِهِ – تَعَالَىٰ-: ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ٦] [(١)]، ﴿يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ [الذاريات: ١٢] [(٢)].

• • •

زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

(١) سياق الجملة: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١ – ٦].

(٢) سياق الجملة: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ١١ يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٢ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ [الذاريات: ١٠ – ١٤].

ويقول الله تعالىٰ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

تَبَصّر متدبرًا، أعرَبَ عن يوم البعث بثلاثة أسماء: ﴿يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، و﴿يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾؛ أي: الحساب، و﴿ٱلسَّاعَةِ﴾، ولكل اسم في سياقه معنىٰ، ولكل اسم سياقُهُ الذي لا يصلح معه غيره، تبصّر لعلك تطعَم، فتسْلم.

[استعمال الأدوات في غير ما وضعتْ له][1]

ثُمَّ هَذِهِ الأَلْفاظُ كَثِيرًا مَا تُسْتَعْمَلُ فِي مَعانٍ غَيْرِ الاسْتِفهامِ، بِحَسَبِ مَا يُناسِبُ المَقامَ[2].

مِنْها: «الاسْتِبطاءُ»، نَحو: «كَمْ دَعَوْتُكَ؟» وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤][3].

---

(١) كل أداةٍ من أدوات المعاني إنّما وُضِعَتْ لمعنىٰ معيّن، ولكّن بعض سياقات البيان ومقاصده توجبُ اسْتعمال هذه الأداة في معنىٰ آخر، وهي إذ تُستعمَلُ فيه لا تفارق معناها الوضعي مفارقةً تامّةً، بل يبقىٰ قليل منه ممزوجًا في المعنىٰ الآخر الذي استعملت فيه.

وهذا يجعل المعنىٰ الجديد ليس صرفًا ساذجًا، وليس كلّ أداة تستعمل في أيّ معنىٰ جديد، بل لا بد أن تكون هنالك قُربَىٰ، ولو خفية بين المعنىٰ الجديد «المنتقل إليه»؛ المستعمل فيه، والمعنىٰ الوضعيّ الأصيل.

واستعمال الأداة في المعنىٰ الجديد بعضُ أهل العلم يذهبُ إلىٰ أنّه علىٰ طريقِ المجاز المرسل، وبعضهم يذهبُ إلىٰ أنّه علىٰ سبيلِ «الكناية»، وبعضهم يذهبُ إلىٰ أنه علىٰ سبيل «مستتبعات التراكيب»، وهذا هو الأقربُ، ومستتبعاتُ التّراكيب، لا توصف بأنها مجازٌ أوْ كنايةٌ.

(٢) قوله: (تُسْتَعْمَلُ) متضمنٌ اشتراط القصد؛ لأن الاسْتعمال – أي: طلب العمل – دلالة، لا يمكن أن يكون إلّا إذا كان المستعمل قاصدًا، وهذا يهديك إلىٰ أنّ السكاكي يذهب إلىٰ أنها ليست من مستتبعات التراكيب؛ لأنّه لا يُشْتَرَطُ في «المستتبعات» القصد، بل يكفي أن يكون النّظم في سياقه دالًّا؛ سواء قصده المتكلم أو لم يقصد.

(٣) سياق الجملة: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤]، القرآنُ يحكِي ما كان مِنه في الأمَم السّوابق؛ من مَسّ البأساء والضّراء، فقولُه: ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ لا يرادُ به سيّدنا محمّدٌ – صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلّم – بل رسولٌ مِن الأمم السوابق الخوالي، أمَّا رسولُنا – صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلّم – فإن فيه مِن اليقينِ المَكين ما يعصمُه من أن يَستبْطِئَ موعودَ ربه – عَزَّ وَعَلَا.

وفي قوله: ﴿مَّسَّتۡهُمُ﴾ تصويرٌ لِما لَحق بِهم مِن البأساء والضَّراء أنَّه مجرّد «مسٍّ»، فكَيف بما فوقَه؟ وفي قولِهم: ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ تصويرٌ لِما بلغَ فِيهم مَسّ البأسَاء والضّراء، فحملهم إلىٰ أن يستبطِؤُوا

وَمِنْهَا: «التَّعَجُّبُ»، نَحْوَ قَوْلِهِ: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ [النمل: ٢٠][1].

النصر الموعود به، وقولهم هذا قد يكون قولًا لسانيًّا مجهورًا، وقد يكون في أنفسِهم، ولم يتلفظوا به، وهو الأليق بالرسُول القائدِ.

وتبصّر مُتدبّرًا قولَ الله – جَلَّ جلالُهُ: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ تبصَّر الإضافة ﴿نَصْرَ ٱللَّهِ﴾، وتبصّر قوله: ﴿قَرِيبٌ﴾، ولم يقل: (آت)، وكأنّ فيهم ما حاجزَهم عن أن يبْصِروا ما هو قريبٌ مِنهم.

(١) سياق الجملة: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٠ – ٢٢]، قولُ سيّدنا سلمان – عَلَيْهِ السّلامُ –: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ المُعْربُ عَن عظيم تعَجّبه من حاله المانعه من رؤية الهدهد، والتعجب إنما يكون لعدم معرفة السبب المفضِي إلىٰ عدم رُؤية الهدهد، وهو النبيّ الّذي يرىٰ الجن علّىٰ لطفها، ويسوسها ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢].

وتبصّر عظيم أدب سيدنا سليمان – عَلَيْهِ السّلامُ – وعصمته من سوء الظنّ برعيته؛ أسند سبب عدم الرؤية إليْه، ولم يسنده إلىٰ الهدهدِ، وفي هذا ما يوثّق العَلاقةَ بيْن الحاكِم والمحكوم، وهذا مِن حكمةِ وأدب فن السياسة القيادية.

إيّاك أن تبدِي سوءَ ظَنّ برَعِيَّتِك؛ لأنَّ هذا يُوحِي بأنّهم غيرُ راضِين بك، ولولا ذلك ما كان منهم الّذي أسأت فيهم الظنّ به.

ومن التعجب قوله تعَالَىٰ: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَالِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ۝٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤١ – ٤٣]، يقول شيخنا – أعزّه الله تعالىٰ: «و﴿مَا﴾ هذه هي (ما) الاسْتفهاميةُ، والمراد بالاسْتفهام التعجبُ والإنكار، وموطن «التعجب»، و»الإنكار» هو هذه المقابلةُ الحادة بيْن الموقفين، ومن أجلِ أن يُبرزَ هذه المفارقةَ بيْن الموقِفين لَمْ يقُلْ: (مالِي أدعوكمْ إلىٰ الإيمانِ، وتدعونني إلىٰ الكفرِ)، وإنما ذكرَ مآل دعوتِهِ وأنها النجاةُ، ومآلَ دعوتِهِمْ وأنَّها النّارُ.

ومجيءُ هذه الصيغة: ﴿مَالِيٓ أَدْعُوكُمْ﴾ كثيرٌ في الكتابِ العزيز؛ منْها قولُه – سبْحانَه – علىٰ لِسان نوحٍ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣ – ١٤]....» (كتاب آل حم، ص:١٥٨).

وَمِنْهَا: «التَّنْبِيهُ عَلَىٰ الضَّلالِ»، نَحْو ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ [التّكوير:٢٦][1].

وَمِنْهَا: «الوَعِيدُ»، كَقَوْلِكَ لِمَنْ يُسِيءُ الأَدَبَ: «أَلَمْ أُؤَدِّبْ فُلانًا؟» إِذَا كَانَ عالِمًا بِذَلِكَ، وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المُرسَلات:١٦][2].

---

(١) سِياق الآية: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢٩]، في سياق الإعرابِ عن شأن سيّدنا رسُول الله - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلّم - وعن شأن القرآن الكريم جاء قوله تعالىٰ: ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ معربًا لهم عن فداحة ما يقولون في الرسول - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلّم - وفي القرآن، وأنَّ الّذي قالوا إنّما هو ضلالٌ مبينٌ، لا يغيب عن أحد، له شَرْوَ نَقِيرٍ من عقلٍ! ما هو بضلال خفي حتىٰ تُعْذَروا بالوقوع فيه، إنّما هو ضلالٌ جد واضح، فكيف خفي عنكم؟! فالسؤال عن متجههم فيما يقولونه عن سيدنا رسُول الله - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلّم - وعن القرآن إعرابٌ لهم عمّا هم فيه من الضلالةِ التي لا تخفَىٰ علىٰ أحد.

وفي قوله: ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ إيماءٌ إلىٰ عظيم شأن سيدنا رسول الله - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلّم - وشأن القرآن، وأنّ مَنْ خفي عليه ذلك فهو الذي لا يُبْصِرُ شيئًا من الحق، فَعَمَهُ قلبه عَمَهٌ مطبق؛ ولذا أردفه بقوله: ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ فعجيبٌ أن تقولوا في القرآن ذلك، وهو الذي جعله منزله - جَلَّ جلالُهُ - ذكرًا للعالمين أجمعين، وفي هذا من التّعريض بهم ما فيه.

(٢) سياقُ الآية: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٧ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [المرسلات: ١٤ - ١٨]، الوعيد في قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ للمشركين جدّ ظاهر وقَويّ، وهَذا إنّما يَتأتّىٰ مِن اسْتحضارِ ما حلَّ بِسابِقيهم، ويتبصّروا في سببَه، وفِي حضُور هذا السّبب فِيهم؛ ممّا يفضِي بِهم إلَىٰ أن يُدركوا أنّهم في تحقق أسبَاب ما حلَّ بِسَابقيهم فِيهم - أيْضًا - سَيُفْضِي لا محالةَ إلىٰ ما حلّ بأولئك السابقين من الهلاك؛ لاتِّفَاقهم في الأسباب المؤدية إلىٰ تلك العقوبةِ الفادِحة.

في الآية دعوةٌ إلىٰ أنْ يَتَبصّر كلُّ حالَ مَن كان قبله، وأن يستكشف ما جعلهم كذلك؛ ليتخذ من ذلك عبرةً، وليَتخذ حجازًا بيْنه وبيْن ما كان سببًا في ما حلّ بسابقيه، فالعاقلُ إذا رأىٰ أنّه قد حلَّ بأحدٍ مِن قبلِه مِن النَّكالِ، فإنه لا بدَّ أن يتبصَّرَ أسبابَ ذلك، ومن هنا نُدرِكُ أهمية مدارسة سيرِ الأمم

وَمِنْهَا: «الأَمْرُ»، نَحْو قَوْلِهِ تعالىٰ: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤][1]، وَنَحْو: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥][2].

السوابق وتاريخها؛ إنها مُدَارَسَةٌ للاعتبار، لا للتسْلية.

(١) سباق الجملة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝١٣ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣ – ١٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ۝١٠٧ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٨ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ۝١٠٩ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝١١٠ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝١١١ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧ – ١١٢].

سبقَ القولُ في نظم قولِه تعالىٰ: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، وبانَ لك أنّ هذِه الجُملةَ مبْنيّةٌ علىٰ العُدولِ عَن الأصلِ: (فهلْ تشكرون؟)؛ إيذانًا بكمالِ العنايةِ بحصولِ الشّكرِ؛ لِعظيم أهميتِهِ، ومثلُ هذا النّظم لا يأنسُ إلّا بمقام الدعوةِ إلىٰ تَحقيقِ ما هُو جليلٌ، لا تَستقيمُ الحياةُ إلّا بِتحقيقِه وتمكينِه.

وهذا يهدِي إلىٰ أنّ تحقيق الشكر أمْرٌ مطلوبٌ محبوبٌ، فكأنّه قيل: اشكرُوا شكرًا ناجزًا مُحيطًا مَكينًا لَا يتخلّف، ولا يتوقّفُ، ولا يتباطأ.

وكذلِك النّظمُ هنا: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ عَدَل عَن (فَهَلْ تُسْلِمون) مؤذِنًا بِأنّ تحقيقَ الإسلام أمْرٌ بالغُ الأهميّةِ، وبالغُ الاعتِناءِ بتحقيقهِ تَحقيقًا كَميلًا، مُحيطًا، ناجزًا، لا يتوقّف، ولا يَتخلّفُ، وهذا منْ أقوىٰ مسالِك الأمرِ بَما هو محبوبٌ تحقيقُه وتمكينُه وتقريرُه لعظيم جلال قدره، وعظيم أهميتِهِ.

ولا تحسبنّ أنّ قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؟ مَحصورٌ فِي الأمر بالدُّخولِ في الإسلام بقولِ: «لا إله إلا الله محمّد رسُول الله» فحسب، بل هو أشمل من ذلك؛ هو طلب ما سبق، وما يترتبُ عَليه مِن إسلام الأمر كلّه لله – تعالىٰ – فذلك هو جوهر «الإسلام» الّذي هو الدّين الذِي جاء به كلُّ الأنبياءِ والرّسل – عَليْهم الصّلاةُ والسّلامُ.

(٢) سياق الآية: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٣ – ١٦].

وَمِنْهَا: «التَّقْرِيرُ»[١].

وَيُشْتَرَطُ فِي الهَمْزَةِ أَن يَلِيَهَا المُقَرَّرُ بِهِ، كَقَوْلِكَ: «أَفَعَلْتَ؟» إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُقَرِّرَهُ بِأَنَّ الفِعْلَ كان مِنْهُ، وَكَقَوْلِكَ: «أَأَنْتَ فَعَلْتَ؟» إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُقَرِّرَهُ بِأَنَّهُ الفاعِلُ[٢].

وَذَهَبَ الشَّيْخُ عبدُ القاهِرِ والسَّكَّاكِيُّ وَغَيْرُهُما إِلَىٰ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢] مِنْ هَذا الضَّرْبِ[٣]، قَالَ الشَّيْخُ: «لَمْ يَقُولُوا ذَلِكَ لَهُ - عَلَيْهِ السّلامُ - وَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُقِرَّ لَهُمْ بِأَنَّ كَسْرَ الأَصْنامِ قَد كانَ، ولكنْ أَنْ يُقرّ بِأَنّهُ مِنْهُ كان، وَكَيْفَ؟ وَقَدْ أَشارُوا لَهُ إِلَىٰ الفِعلِ فِي قولِهِمْ: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا﴾، وَقَالَ هُو -عَلَيْهِ السّلامُ- فِي الجَوابِ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وَلَوْ كَانَ التَّقرِيرُ بِالفِعْلِ لَكانَ الجوابُ: «فَعلْتُ، أَوْ: لم أَفْعَل»[٤].

---

(١) التقريرُ: حَمْل المخاطب برفق علىٰ أن يعترف بما فعل، أو علم.

(٢) هذا بيانٌ لموقع المقرّر به مِن الهمزة: إن كان مناط التقرير «الفعل» فهو مدخول الهمزة، وإن كان غيره من فاعل أو متعلق، فهو الذي يكون مدخول الهمزة.

(٣) سياق الآية: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٥٤ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٥١ - ٦٣].

(٤) دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، نشر: الخانجي - القاهرة، ص(١١٣)

وَفِيهِ نَظَرٌ؛ لِجَوازِ أنْ تَكُونَ «الهَمْزَةُ» فيه علَىٰ أصْلِها؛ إذْ ليْس فِي السِّياقِ مَا يَدلُّ علىٰ أنَّهم كانُوا عالِمينَ بِأنّهُ - عَلَيْهِ السّلامُ - هُوَ الَّذِي كَسَرَ الأَصْنامَ[1]، وَكَقَولِكَ: «أزَيْدًا ضَرَبْتَ؟» إذا أَرَدْتَ أن تُقرّرهُ بأنَّ مَضرُوبَهُ زَيْدٌ.

ومِنْهَا: الإنْكارُ[2] إمّا للتّوْبيخِ بِمَعْنَىٰ: «ما كانَ يَنبَغِي أن يَكونَ»، نَحْو: «أَعَصَيْتَ رَبّك؟» أوْ بِمَعْنَىٰ: «لا يَنْبَغِي أنْ يَكُونَ»، كَقَوْلِكَ للرَّجُلِ يُضَيّعُ الحَقّ: «أَتَنْسَىٰ قَدِيمَ إحْسانِ فُلانٍ؟» وَكَقَوْلِكَ لِلرَّجلِ يَرْكَبُ الخَطَرَ: «أَتَخْرُجُ فِي هَذا الْوَقْتِ؟ أتَذْهَبُ فِي غَيْرِ الطَّرِيقِ؟».

فقرة: (١٩٥).

عبد القاهر استدلَّ علىٰ أنَّ التَّقرير ليس بالفعل بما كان من إشارتهم إلىٰ الفعل، ولا يُقرّر بما هو مشارٌ إليْه، وإنّما يقرّر بما لا يُعلم، فالتّقرير بأنّه هو الذي قد فعل، فاسم الإشارة في ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا ﴾ قرينة لفظية علىٰ أنّ التقرير ليس بالفعل، بل بالفاعل، فتناسق مفاد﴿ هَٰذَا ﴾ مع تقديم ﴿ أَنتَ ﴾؛ ولذا بَيَّنَ لهم الفاعل، فقال: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾.

ومقتضىٰ الظاهر إن أريد إقراره بالفاعل أن يكونَ جوابه بتقديم الفاعل، فيقول: «بل كبيرُهم فعله»، أو يقول: «كبيرهم». ولم يأتِ النظم علىٰ هذا، بل جاء: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾، وحكمة ذلك أن يحملهم علىٰ واحدٍ من الأمرين: أن يعمدوا إلىٰ كبيرهم يسألونه إن كانوا يؤمنون أنّه يمكن أن يجيب، أو يدفع عن نفسِهِ، أو أن يرجعوا عن عبادتهم له، إن كانوا عالمين أنَّ كبيرهم لا يتكلم، ولا يفعل. فكيف لعاقل أن يعبد مَن لا يتكلم، ولا يفعل؟! فإذا كان عدم الكلام، وعدم الفعل نقضٌ شنيع في الإنسان، فكيف في من يعبدهُ ذلك الإنسان؟! ففي قوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ مناداة عليْهم بالحمقِ والسّفَاهة، وتلك التي لا يرضاها منْ بِهِ طَرَقٌ!!!

(١) القولُ بأنهم لم يكونوا عالمين بأنه هو الفاعل، فهم يستفهمون علىٰ الحقيقة يخدشه قوله تعالىٰ: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء:٥٧]، وقوله: ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء:٦٠].

(٢) في الإنكار معنىٰ النفي، أي: نفي أنه كان، أو سيكون إن كان إنكارًا تكذيبيًّا، فيكون معناه: (لم يكن)، أو (لن يكون). أو إنكار صواب فعلِه، أو عدم فعله إن كان الإنكار للتوبيخ علىٰ الفعل أو عدم الفعل، فيكون المعنىٰ: (ما كان له أن يكون)، أو (ما كان له ألا يكون).

والْغَرَضُ بذلِكَ تَنْبيهُ السّامِعِ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَىٰ نَفْسِهِ، فَيَخْجَلَ أَوْ يَرْتَدِعَ عَن فِعْلِ ما هَمَّ بِهِ.

وَإمّا لِلتَّكذِيبِ بِمَعْنَىٰ: «لَمْ يَكُنْ»[1]، كَقَوْلِهِ تعالَىٰ: ﴿أَفَأَصْفَـٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا﴾ [الإسراء: ٤٠][2]، وقَولِهِ: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ [الصافات: ١٥٣][3].

---

(١) يُسمىٰ الاستفهام الإنكاري التكذيبي بالاستفهام الإنكاري الإبطالي؛ أي: إنه يبطل دعوىٰ، ويقوضها. والعدولُ عن التكذيب بأسلوب النّفي أقوىٰ؛ من أنّ المخاطب حين يسمع الاستفهام يحسِب أنّه يُسْتَعلَمُ منه، فيسعَىٰ إلىٰ الجواب، فلا يجدُ ما يُجيبُ به، فيتمكّن فيه معنىٰ النفي، وأن ما ادعىٰ وجوده ليس بموجود، وحينذاك لا يعمد إلىٰ المجادلة والمناكدة، فهو نفي ممزوج بالتكذيب من أقصر طريق، ولا يخفَىٰ عليْكَ أنّه تكذيبٌ مشوبٌ بشيْءٍ من التسفيه أو التوبيخ.

(٢) دخلت «الهمزةُ» علىٰ الفعل: «أَصْفاكُم» أيْ: (اصطفاكم)، فكان مناطَ التكذيب، و«الفاء» في ﴿أَفَأَصْفَـٰكُمْ﴾ عاطفة ما بعدها علىٰ ما قبل «الهمزة»، فهي متأخرة من تقديم؛ لأن للهمزةِ الصَّدارةَ، ففي «النّظم» تأخيرٌ من تقديم.

ومن أهلِ العلم من قال: إن مدخول «الهمزة» محذوف، عطفت عليْهِ «الفاء» ما بعدها، ففي الأسلوب «حذف وتقدير»، و«اتساع المعنىٰ».

وكلُّ نظمٍ يُحْتَمَلُ تأويلُه علىٰ أكثرَ من وجهٍ صحيحٍ، فهُو من قبيل اتِّساع المعنىٰ، وهذا الاتِّساعُ مُرادٌ، فلو لم يرده الله - جَلَّ جلالُهُ - لما جعل النظم يحتمل تأويله علىٰ أكثر من وجهٍ. فافهم.

(٣) سياق الآية: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الصافات: ١٥٣ - ١٥٧].

قَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿أَصْطَفَى﴾ بِـ«هَمْزَةِ قَطْعٍ»، مَفْتُوحَةٍ عَلَىٰ أَنَّهَا «هَمْزَةُ الِاسْتِفْهَام»، و«هَمْزَةُ الْوَصْلِ» الَّتِي فِي الْفِعْلِ مَحْذُوفَةٌ لِأَجْلِ الْوَصْلِ، فأغنتْ عنها «همزة الاستفهام»، وَقَرَأَهُ أَبُو جَعْفَرٍ المدني وحده بِـ«هَمْزَةِ وَصْلٍ» عَلَىٰ أَنَّ «هَمْزَةَ الِاسْتِفْهَامِ» مَحْذُوفَةٌ.

وحَذْفُ «هَمزةِ الاسْتِفهامِ» فِي العَربيَّةِ سائغ شائع، ويُفهَم الاسْتفهامُ من السِّياقِ ومِن الأداءِ، وهُو مِن خَواصّ «الهَمزة»؛ مِن أنّها «أمُّ البابِ»، وسائرُ أدواتِ الاسْتفهامِ لا تُحذفُ، ولا يُقدّر غيرُ «الهمزةِ» في المواضعِ الّتي لَم تُذكرْ فيها أدواتُ الاستفهامِ.

أوْ بِمَعْنَىٰ «لا يَكُونُ» نَحْو: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: ٢٨][1]

وعليْهِ قَوْلُ امْرِئ الْقَيْس:

وسواءٌ كانت «الهمزة» مذكورةً علىٰ وجهٍ، أوْ محذوفةً علىٰ وجهٍ، فالاستفهامُ مفيدٌ التّكذيبَ والتّجهيلَ، وارْتقَىٰ فِي التَّجهيلِ والتّسفيهِ فقال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ فهذا استفهامٌ، أيْ: أَيّ شيْءٍ حصل لكمْ، فقلتم ما قلتمْ؟ وفي هذا مِن التّهويلِ لِما كان منهم، وكأنّهم بقولِهم هذا حلَّ بهم ما لا يُتصوّر، فنقلَهم إلىٰ حالٍ جدّ عجيبة، وكُل هذا عائدٌ علىٰ تشنيع مقالتِهم، وأنّهم حين قالوا كأنَّهم الفاقِدُونَ عقولَهم، بل هم فاقدوها علَىٰ الحقيقةِ، وهذا الاستفهامُ بدلٌ من الاستفهامِ السَّابقَ.

وقولُه: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ استفهامٌ عَن الحالِ الَّتي كانوا عليْها فِي حكمِهم هذا، فالمعنَىٰ: أيّ شيْءٍ حلّ بعقولِكم، فحكمتم هذا الحكم الذي لا يقول به مَن به طرَقٌ، كيف كان حالُكم، وأنتُم تفعَلون؟!

ويأتي قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ استفهامًا إنكاريًّا توبيخيًّا، و(أمْ) في قوله: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ منقطعة، مقدَّرٌ معها «همزة استفهام»، وهو للإنكار، والمعنىٰ: بلْ ليس لكم سلطانٌ مبين علىٰ ما ادَّعيتم.

(١) سياق الآية: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: ٢٥ – ٢٨]

قوله تعالىٰ: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ مركّبٌ من «همزة الاستفهام التّكذيبي»، ومن الفعل (نلزم)، وفاعله المستتر، المفعول الأوّل (كاف الخطاب)، والمفعول الثاني (ها) العائد علىٰ «البَيِّنة» في قوله – سبْحانه وتعالىٰ: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾.

مناطُ الإنكار التّكذيبي هو الفعل (نلزم)؛ أي: لن يكونَ منا ذلك الإلزام مِن أنَّه مناقضٌ لمنطق العقل والحكمة، فالاستفهام فيها استفهام تكذيبيّ.

وأنت تلحظ ثقلًا في أداء هذه الجملة، وهو ثِقَلٌ يصوّر لك بجرسه ثقل إيجاد هذا الإلزام؛ لأنّ الفطرةَ ومنطق العقل الرَّشيد يَأْبَيَانِ أن يكون إلزامٌ بالهداية لِمَن كان كارهًا.

أَيَقْتُلُنِـي وَالمَشْـرَفِيّ مُضاجِعِـي ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأنْيابِ أَغْوالِ[١]

فِي مَن رَوَىٰ: «أَيَقْتُلُنِي» بالاسْتِفهام[٢]

وقَولُ الآخَرِ:

أَأَتْـرُكُ إنْ قَلَّـتْ دَرَاهِـمُ خالِـدِ ... زِيارَتَـه؟ إنِّـي إذنْ لَلَئِيـمُ[٣]

و«الإنكَارُ» كـ«التّقرير» يشترطُ أن يَلِي المُنْكَرُ الهَمْزَةَ[٤]، كَقوْلِهِ تعالىٰ:

(١) الاستفهام هنا قائمٌ مقام النفي، الممزوج بالاستخفافِ والاحتقار، والافتخارِ - أيضًا - الافتخار بهيبة الرجال منه، والافتخار بأسره قلوب النساءِ، لا يرغبن في العتق من أسرِه؛ «فأصبحتُ معشُوقًا»!

(٢) يشير إلىٰ روايةٍ أخرىٰ غير مشهورة:» ليقتلني» علىٰ نحو قوله في البيتِ قبله:

يَغُطُّ غَطيطَ البَكرِ شُدَّ خِناقُهُ ... لِيَقتُلَني وَالمَرءُ لَيسَ بِقَتّالِ

(٣) البيتُ لعمارة بن عَقيل، حفيد الشّاعر جرير من ولدِه بلال، وهو من قصيدة يمدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني، ويذم تميم بن خزيمة النهشلي، وبعد البيت قوله:

فلَيْت بثوبيه لنا كان خالد ... وكان لبكـر بالثّـراء تميـم

فيصبح في قومي أغرّ محجّل ... ويصبـح في بكـر أغـمّ بهيـم

ينكر الشاعر إنكارًا تكذيبيًّا أن يكون منه تركٌ لخالد حين أنفذ الجودُ والسخاء ما في يمينه من متاع الدنيا، وهو الذي لم تعرف يمينُهُ قبضًا، ولو حملت علىٰ أن تقبض ما كان لها أن تفعل، أيترك مَنْ كان الجودُ يأنس بِه، ويأوِي إليْه حصنًا له؟ لا يكون.

(٤) هذا من خواصِّ الاستفهام بـ«الهمزة»، ولمّا كانت «الهمزةُ» «أمّ الباب» كان لها خواصٌ تفردتْ بها عن كل الأدوات التي ضمنتْ معناها، فمنطق العقل الفطريّ ألا تكون «الأم» في مصافّها ما هو متولدٌ منها، أليست «أمًّا»؟ فالإعرابُ عنها بأنها «أم» يهدي إلىٰ خصوصيتها، وأنَّ كلًّا إنما هي أصله، وأنه يؤمُّها.

وهكذا كلُّ أداة هي «أمّ الباب» في المعاني الإضافية كـ»النفي»، و»الاستفهام»، و»النداء»، و»الشرط» ...، وحبذا استقراء ذلك، وتبيين خَواص كلّ أداة هي «أم بابها» ففي ذلك ما ينفعُك، ويمتعك.

﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ﴾[الأنعام: ٤٠][(١)]، ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾[الأنعام: ١٤][(٢)]، ﴿أَبَشَرٗا

---

(١) سياقُ الجملة قول الله – عزّ وجلّ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤٠ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠ – ٤١].

الاستفهام الذي في ﴿أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾ يُراد به معنىٰ الأمر، أيْ: (أخبروني) خبرًا متولدًا عن رؤيةٍ ويقين، وهو أمرٌ يرادُ به تسفيههم؛ لأنهم لا يجرؤون علىٰ أن يخبروه بسفههم، وحمقهم.

جاء ما هو مناط الإنكار مدخول «همزة» الاستفهام الإنكاريّ التّوبيخي التسْفيهي، كمثل ما كان الأمر في «همزة» الاستفهام التقريريّ، فمناط الإنكار هنا هو معمول الفعل ﴿تَدۡعُونَ﴾: ﴿غَيۡرَ ٱللَّهِ﴾، قدَّمه علىٰ عامله ﴿تَدۡعُونَ﴾ من أنّ عامله هذا ليس مناط الإنكار، هو ينكِرُ عليْهِم أن يكون غَيرُ الله – تعالىٰ– هو المتوجه إليْه بالدّعاء.

يقيمهم في مقامٍ يرغم أنفَ كلّ سامعٍ منهم، أخبروني إن أتاكم عذاب الله – جَلَّ جلالُهُ – أو القيامة من تدعون ليكشف عنكم؟ أيكونُ فيكم من يلجأ إلىٰ إلهه الذي اتخذه لنفسِه من حجر أو شجرٍ، ونحوِ ذلك؟ أفعلتموها يومًا؟ أكان ذلك من سفيهٍ منكم؟

أقامهم أمام أنفسهم وأحوالهم التي لا يجهلُها أحدٌ فيهم، لن يكونَ فيهم مدعٍ أنّه يفعل حينًا؛ ولذا جاء بعده قولُه تعالىٰ: ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ﴾ قصَر دعاءَهم في تلك الحال علىٰ الله – سبْحانه وتعالىٰ – وهنا يُبرز لهم شيئًا من معالمِ جلالِ الألوهية وعزّتها وسلطانها وقدرتها: ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ﴾ أرأيت إلىٰ قوله: ﴿إِن شَآءَ﴾ يَفيض بمعاني العزة والجلال.

ويأتي قولُه تعالىٰ: ﴿وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ﴾ معطوفًا علىٰ قوله: ﴿إِيَّاهُ تَدۡعُونَ﴾ أي: تدعونه وحدَه، وتنسون ما تشركون. تبصرْ جعلهم ينسون ما كانوا يشركونه الله – تعالىٰ – في العبادة، ولم يشركوها في إنقاذهم؛ ليقينهم أنَّها لا تُنقِذ نفسَها إن اعتُدي عليها، فكيف بغيرها؟

وتبصّر الإعراب بالمضارع ﴿تُشۡرِكُونَ﴾ دون أشركتم، كأنه جعلهم لن يقلعوا عن هذا الإشراط، فهم قائمون له وبه في قابل الأيام والأحوال، بيَّن لهم بهذا ما هم فيه من حمق وسفاهةٍ، لا يرضاها لنفسه من له ذرة من عقل.

(٢) سياقُ الجملة قوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٢ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝١٣ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٢ – ١٤] دَخلتْ همزةُ الإنكارِ التّكذيبيّ علىٰ معمولِ ﴿أَتَّخِذُ﴾ من أنّه مناطُ الإنكار،

﴿مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القمر: ٢٤](1)، وكَقَوْلِهِ تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١ – ٣٢](2) أيْ: لَيْسُوا

وليس اتخاذُ الوَلِيِّ هُو مناطُه، فلا بُدَّ مِن اتّخاذِ وَليّ؛ ذلِك ضرورةٌ.

الإنكارُ أن يكونَ غيرُ الله – تَعالَىٰ – وليًّا؛ أيْ: متوليًّا ناصرًا، وهذا عامٌّ في كلّ ماعدا الله – سبْحَانه – فموالاة غيره – تَعالَىٰ – شركٌ.

(1) سياقِ الجملة قول الله تَعالَىٰ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ۝٢٣ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝٢٤ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝٢٥ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٣ – ٢٦]، جعلوا مناط الإنكار التكذيبي معمول الفعل (نتبع): (بشرًا منا واحدًا)، وقرَّروا أن ذلك إن كان كانوا في ضلالٍ وسعر، وهم ليسوا كذلك، فليس مناط الإنكار هو «الاتباع»، بل ما يُتبع.

وقولهم: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ جاءت الهمزة للإنكار التكذيبي، إنكار وتكذيب حصول هذا الفعل إلقاء الذكر عليْه من بينهم، وما هو – علىٰ زعمهم – بأفضلهم، إنه إلا كذابٌ أشر، جعلوا علة إنكار الإلقاء راجعة إلىٰ ذات الرسولِ، فليس هو بأهل لذلك، وكأنّهم يلزمون ربهم – تَعالَىٰ – ألا يُلقي الذكر إلا علىٰ أشرفهم، أو مَن يرضونه، لا علَىٰ ما يرضاه هو، أقاموا أنفسَهم مقام الوَصيّ علىٰ الله – جَلَّ جلالُهُ.

(2) سياق الجملة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٠ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٠ – ٣٢]، جاء قولُه – تَعالَىٰ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ استفهامًا تكذيبيًّا بدَلالة قوله بعد: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وَفِي ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾ قصرٌ طريقه التقديم، مثلما في قَوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ ...﴾ قصرٌ إضافيٌّ، طريقه تقديم المسند إلَيْهِ (هم) علىٰ المسند الفعلي ﴿يَقْسِمُونَ﴾ فِي حيز (الاستفهام التكذيبيّ)، واجتماع الجملتيْن ﴿أَهُمْ...﴾، و﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾ واجْتماعهُما يفيدُ معنَىٰ القصر غير الاصطلاحي؛ لأنَّه جمع بيْن الإثبات والنّفي تصريحًا في جملتين، فكان فيه معنىٰ القصر الاصطلاحي، ولو أنَّ ذلك جاء في جملة واحدةٍ، دُلّ علَىٰ النّفي والمَنفي بالتَلويح، وعلَىٰ الإثباتِ والمُثْبتِ بالتّصريحِ لكان قصرًا اصطلاحيًّا عند البلاغيين.

والمقامُ هنا يقتضِي البَسط؛ إنّه مقامُ تقرير مَعنىٰ كذبِهم في ادّعاءِ أنّهم الذين يختارون مَن ينزل عليْهِ الوحي، وهُو مقام التّصريح فيه بالإثبات والنفي أقوىٰ وأظهر.

وهكذا ترىٰ تكثيفَ توكيد المعنىٰ باجتماع عدة صور للقصر، الذي هو عند جمْعٍ منْ أهلِ العلم

هُم المُتَخَيِّرين لِلنُّبوّةِ مَنْ يَصْلُحُ لَها، المُتولِّينَ لِقِسْمَةِ رَحْمَةِ اللهِ - تَعالَىٰ - الَّتِي لَا يتولَّاها إلَّا هُوَ بِباهِرِ قُدْرَتِه، وَبَالِغِ حِكْمَتِهِ.

وَعَدَّ الزّمَخْشَرِيُّ قَوْلَهُ - تَعالَىٰ -: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩][1]، وَقَوْلَهُ: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ [الزخرف: ٤٠][2] مِنْ هَذَا الضَّرْبِ، عَلَىٰ أَنَّ المَعْنَىٰ: أَفَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَىٰ إكْراهِهِمْ عَلَىٰ الإيمانِ؟ أَوْ أَفَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَىٰ هِدَايَتِهِمْ عَلَىٰ سَبِيلِ الْقَسْرِ وَالإلْجاءِ؟ أَيْ: إنَّما يَقْدِرُ عَلَىٰ ذَلِكَ الله - تَعالَىٰ - لا أَنْتَ.

وَحَمَلَ السَّكَّاكِيُّ تَقْدِيمَ الاسْمِ فِي هَذِهِ الآياتِ الثّلاثِ عَلَىٰ البِناءِ عَلَىٰ الابْتِداءِ؛ دُونَ تَقْدِيرِ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، كَمَا مَرَّ فِي نَحْوِ: «أَنَا ضَرَبْتُ»، فَلا يُفِيدُ إلَّا تقوّي الإنْكار[3].

«تأكيدٌ علىٰ تأكيدٍ».

(١) سِياقُ الْجملةِ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٩٩ - ١٠٠].

(٢) سِياق الجملة: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٠ - ٤٤].

(٣) الفرق بيْن مذهبِ السَّكاكِيّ ومذهب الزَّمخشرِي، أنَّ الزّمخشرِيَّ يجعلُ النَّظم مِن قبيلِ تَقديمِ ما حقه في الأصل التَّأخير، فهو يفيدُ التّخصيصَ الّذي يُفيدُ وقوع الفعل، فتكونُ المنازعةُ في المقدّم لا في الفعل.

ولمَّا كان المخاطبَ في الآية سيدنا رسولَ الله - صَلّىٰ الله عَلَيْه وسلّم - وهو المَعصومُ مِن أن يظنّ أنّه هُو الّذي يمكنُه أن يكره، أو يظنّ أن له أن يكره أحدًا علىٰ الإيمان مع الله - سُبْحانَه وتَعالَىٰ - فيكون الأول للقلب والآخر للتعيين، لجأ الزّمخشري إلىٰ القول بالتّنزييل؛ أيْ: تنزيل رسُول الله - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وَصحبِه وسَلّم - من شدة حرصه علىٰ إيمانِ قومِه منزلة من يظن

وَمِنْ مَجِيءِ «الْهَمْزَةِ» لِلإِنْكارِ نَحْو قَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦][1]، وَقَوْلِ جَرِيرٍ:

أنه يملك الإكراه. والزمخشري كعبد القاهر والجمهور لا يفرقون في تقديم المسند إليه علىٰ الفعل في حيز النفي وشبهه بين أن يكون معرفة أو نكرة.

المُهم أن يكونَ المسند إليه – أيًّا كان – مقدمًا علىٰ الفعل، في حيز نفي أو شبهه؛ لِيفيد التَّخصيص علىٰ القطع.

ومذهب السَّكاكيّ أنّ تقديمَ المسند إليه النّكرة علىٰ الفعل مفيد للتَّخصيص علىٰ القطع، وإذا كانَ المسندُ إليه حينئذٍ معرفة، فلا يفيدُ الاختصاص علىٰ القطع، بل قد يكونُ له، وقد يكونُ للتقويةِ، كما في «ما أنا فعلتُ»، و«ما محمدٌ فعل»، فهذا قد يكون للاختصاص، وقد يكون للتقوية، وعليه قول الله تعالَىٰ: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ ...﴾ و﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ...﴾.

(١) سِياقُ الجملة: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٦ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ﴾ [الزمر: ٣٦ – ٣٧]، الآيتان من سورة «الزُّمر» المبنية علىٰ تحقيق الإخلاصِ لله – تعالَىٰ – ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢ – ٣].

ولمَّا دخلتْ همزَةُ الإنكارِ في ﴿أَلَيۡسَ﴾ علىٰ النَّفي أفادَتْ التَّقريرَ؛ لأنّ الإنكارَ نفيٌ، ودخولُ نَفْيٍ علىٰ نفيٍ يُفضِي إلىٰ التقرير، وهذا التقريرُ المتولِّدُ من أداتين أقوىٰ وأوفر مبالغةً من قولنا: «إن الله كافٍ عبده».

فقوله: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ مفيد تقريره بأن الله – تَعَالَىٰ – كافيه، وقوله: ﴿عَبۡدَهُۥ﴾ يريد به سيّدنا رسولَ الله، والإعرابُ عنه بقولِه: ﴿عَبۡدَهُۥ﴾ دون قوله: (كافيك) علىٰ الخطاب فيه من الإيماء إلىٰ ما به استحقَّ الكفاية، وهو كمالُ عبوديته، الصفاء لربّه – عزّ وعلا.

ولا يستقيمُ أن تجعل «الهمزة» هنا للتقرير بما دخلتْ عليه؛ لأنها دخلت علىٰ نفي، فيؤول المعنىٰ إلىٰ التقرير بانتفاء كفاية الله – جَلَّ جلالُهُ – عبدَه، وهذا غيرُ قويم، وضدُّ ما سيقَ الكلام له، وهنا يكون المتدبّر بحاجة إلىٰ ملاحظة السياق، فليس كلُّ قولٍ دخلت فيه «الهمزة» علىٰ نفي تفيد التقريرَ بما بعدها إثباتًا ونفيًّا، فقدْ تَأْتِي للتقرير بما بعد «الهمزة»، وهو «النّفي»، وذلك كما تراه في قولِ الشاعر:

أَلَا اصْطبار لِسَلْمَىٰ أَمْ لَها جَلَدُ ... إِذَنْ أُلاقِـي الّـذِي لاقـاهُ أمْثالِـي

قولُه: (اصطبار): تصبّر وتجلّد. و(لا قاهُ أمثالي): كناية عن الموت.

أَلَسْـتُمْ خَيْـرَ مَـنْ رَكِـبَ المطايـا وأَنْـدَىٰ الْعَالميـن بُطُـونَ رَاح[1]

فالهمزة لم تركب مع (لا) لتفيد تقريرًا بما بعد (لا)، بل هو استفهام عن انتفاء صبرها، وجعل معادله بعد (أم) (لها جلد).

ومثلُه قول الشاعِر:

أَلاَ ارْعِوَاءَ لِمَنْ وَلَّتْ شَبِيْبَتُهُ وَآذَنَتْ بِمَشِيْبٍ بَعْدَهُ هَرَمُ؟

قولُهُ: (ارْعواء): أيْ انكفاف. (وَلَّتْ): أدبرت. (وآذنت): أعلَمت.

دخلت «الهمزة» علىٰ النفي، وهو باقٍ علىٰ حالِه، ولم يتحول مع (الهمزة) إلىٰ تقريرٍ، فالاستفهامُ مُرادٌ به التّوبيخ والإنكار، فهو يبوخ علىٰ عدم الارعواء، فهو مناط الانكار التوبيخي التسفيهيّ.

وهذا مثل قول سيدنا حسان بن ثابت – رَضِيَ اللهُ عنه:

كأنّكُـمْ خُشُـبٌ جُـوفٌ أَسَـافِلُهُ مثقـبٌ فيـهِ أرواحُ الأعاصيـرِ

ألا طِعَـانٌ، ألا فُرْسَـانُ عادِيـةٌ إلاّ تَجَشُّـوَكُمْ حَـوْلَ التّنانِيـرِ

لا ينفَعُ الطُّولُ من نُوكِ الرّجال، ولا يهْدي الإلهُ سَبِيلَ المَعْشَرِ البُورِ

قوله: (ألا طعان)، (ألا فرسان) استفهام علىٰ النفي، فالهمزة باقية علىٰ حالها، و(لا) كذلك باقية علىٰ حالها؛ ولذا جاء قوله: (إلاّ تَجَشُّوَكُمْ) فكأنّه قال: لا طعان لكم ولا فرسان عادية لكم إلا تجشؤكم، ومع بقاء»الهمزة» علىٰ حالها، و(لا) علىٰ حالها فهو مفيد التوبيخ والسخرية والهزء.

ومثله قول الشاعر:

أَلَا عُمْرَ ولّىٰ مستطاعٌ رجوعُه فيرأب ما أثات يد الغفلات

قوله: (ولىٰ) أي: مضىٰ وأدبر. قوله: (فَيَرأَب) أي: يصلح. و(أثات) صدعتْ، وأفسدت.

يتساءل الشاعر متمنيًّا رجوع عمره الذي ولّىٰ؛ ليصلح ما فعلت به غفلاته إفسادًا.

(١) البيت من قصيدة يمدح بها عبد الملك بن مرْوان. وقوله: (أَلَسْتُمْ خَيرَ مَن رَكِبَ المَطَايا...) في سياق المدح إنّما يرادُ به تقريرُ هذا المعنىٰ في الأفئدة، ولا يراد به حملُ المخاطب بالإقرار به؛ فذلك مما يدفعه السياقُ، كما يدفع أنَّ الاستفهام عن النّفي، فذلك إن قيل به كان هجاءً.

وقوله: (ألستم) دخلت «همزةُ « الإنكار علَىٰ (ليس)، فأفاد اجتماعُهما الإثبات «التقرير»، والتقرير هنا ليس تقريرًا للمخاطب، فهو ليس بالمتوقف في ذلك؛ فضلا عن أن ينكرَه، بل هو تقريرٌ لغيرِه، وهو لا يخبرُ بأمرٍ مجهول للسَّامعين، بل هو يصف واقعًا مشهودًا، وإنّما يذكره، وهو مشهودٌ تلذّذًا بذكره، فمقتضىٰ المدح ألا يَكون المادح مخبراً بما يُنبِئُ به، بل هو يشدُو به تلذّذًا؛ «إنّما لذّةً ذَكَرْناها»!

أيْ: الله – جَلَّ جلالُهُ – كافٍ عَبْدَهُ، وَأَنْتُمْ خَيرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا؛ لأنَّ نَفْيَ النَّفْيِ إِثْبَاتٌ، وَهَذَا مُرَادُ مَنْ قَالَ: إنَّ «الْهَمْزَةَ» فِيهِ لِلتَّقرِيرِ، أيْ: لِلتَّقْرِيرِ بِما دَخَلَهُ النّفْيُ، لَا لِلتّقرِيرِ بالانْتِفَاءِ.

[سَبيلٌ آخَرُ إِلَىٰ إِنْكارِ الفِعلِ]

وَإِنْكارُ الفِعْلِ مُخْتَصٌّ بِصورَةٍ أُخْرَىٰ[1]، وَهِيَ نَحْوُ قَوْلِكَ: «أزيدًا ضَرَبْتَ أَمْ عَمْرًا؟» لِمَن يَدَّعِي أَنَّهُ ضَرَبَ إمّا زَيدًا، وَإمّا عَمْرًا دُونَ غَيْرِهِما؛ لأنّه إذا لَم يَتَعَلّق الفِعلُ بأحَدِهِما، وَالتَّقدِيرُ أنّهُ لَم يَتعَلّقْ بِغَيْرِهِما، فَقَد انْتَفَىٰ مِنْ أَصْلِهِ، لَا مَحالَةَ.

وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ تعالَىٰ: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣][2]، أَخرَجَ اللَّفظَ مُخْرَجَهُ إِذْ كَانَ قَدْ ثَبَتَ تَحْرِيمٌ فِي أَحَدِ الأشْياءِ، ثُمّ أُرِيدَ مَعْرِفَةُ عَيْنِ الْمُحَرَّمِ، مَعَ أَنَّ المُرادَ إنْكارُ التّحْرِيمِ مِنْ

---

(١) المعهودُ أن يكون المُنكَرُ واليًا «همزة الإنكار»، فإنْ كان المنكر الفعل، فإنّ الفعلَ يكون هو الوالِي «الهمزة».

وثَمَّ صورةٌ أبلغ في نفي الفعلِ يُعدَلُ فيها عن إيلاء الفعل «الهمزة»، والقصدُ إلَىٰ نَفي الفعل، وذلِك إذا ما كان الفعلُ ليس له إلّا فاعلٌ واحدٌ، وأدخلتَ الهَمزةَ علىٰ الفاعل، فنَفيُه يَلزمه نفي الفعلِ، كقولك: «آلرَّئيسُ أصدر قرار الحَرْب؟» لما كان إصدارُ قرار الحرب لا يكون في الدولة إلّا مِن الرّئيس، فأنكرت أن يكون الرئيس قد فعل، فهذا يعنىٰ أنَّك ضرورةً تُنكر الفعل أصلًا.

(٢) سياق القول: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٢ – ١٤٤].

أَصْلِهِ، وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ [يونس:٥٩][1]؛ إِذْ مَعْلُومٌ أَنَّ المَعْنَىٰ عَلَىٰ إِنْكارِ أَنْ يَكُونَ قَدْ كَانَ مِن اللهِ - تَعالَىٰ - إِذْنٌ فِيما قالُوهُ مِن غَيْرِ أَن يَكُونَ هَذا الإِذْنُ قَدْ كانَ مِن غَيْرِ الله - تَعَالَىٰ - فَأَضافُوهُ إِلَىٰ الله - عَزَّ وَعَلَا - إِلّا أَن اللَّفْظَ أُخْرِجَ مُخْرَجَهُ إِذَا كانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ؛ لِيكُونَ أَشَدَّ لِنَفْيِ ذَلِكَ، وإِبْطالِهِ، فإِنَّهُ إِذا نُفِيَ الْفِعْلُ عَمَّا جُعِلَ فاعِلًا لهُ فِي الْكَلامِ، وَلَا فاعِلَ لَهُ غَيْرُهُ لَزِمَ نَفْيُهُ مِنْ أَصْلِهِ.

---

(١) سياقُ الجملة قول الله - سُبحانه وتعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ٥٩ - ٦٠].

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ﴾ أمرٌ لسيدنا رسول الله - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلَّم - بأن يقول للمشركين، وأمْرُه أن يقُولَ تمكينٌ لحقيقةِ أنّه لا يقولُ من عندِه، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤].

وهذا الأمر - فوق دلالته علىٰ وحدانيَّة الله - عَزَّ وَعَلَا - فيه لفتٌ للانتباه إلىٰ المأمور بقولِهِ؛ لأنّه لولا أن يكونَ ذا أهميَّةٍ بالغة ما أمره بقولِه.

وقوله: ﴿أَرَءَيْتُم﴾ أيْ: أخبروني إن كنتم عالمين بما أسألكم عنه، أمْ أنّ ذلك لا وجود له، فأنتم تفترون؟ فإذا ما ذهبوا يبحثونَ لِيجيبوه لَم يَجدوا ما سُئِلُوا عنه، فلا يكون أمامهم إلّا الاعترافُ بأنّهم يفترون.

وقوله تعالىٰ: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ يلزمهم بأن يختاروا واحدًا من الاثنين، ولنْ يستطيعوا إلّا الإقرار بالثّاني «الافتراء».

وقوله: ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ تحتمل أن تكون (أم) متصلة، ويكون الاستفهام تقريرًا بأنّهم يفترون، ويحتملُ أن تكون (أم) منقطعة، كانت «الهمزة « المقدرة في (أم) المنفصلة للإنكار.

وظاهرُ تَركيب ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ أنّه يسألُ عن الفاعل، وأنّ الفعلَ ليْس محل استفهام، بل هو مسلم، فإذا ذهب المخاطبُ يبحث عن فاعلٍ لم يجد، فكان في هذا إلجاءٌ له أن يقرّ بأن الفعل لم يكن، فنفي الفاعل الوحيد الفريد للفعل يترتبُ عَليه - بطريقِ اللزوم - أن الفعلَ لم يكن، وهذا مسلكٌ قويٌ في إنكار الفعل، أقوىٰ من إدخال الهمزة علىٰ الفعل؛ أي: علىٰ المرادِ نفيُه؛ لأنَّهُ مصحُوبٌ بحجةٍ لا تُنقض، وهُو ضربٌ منْ بلاغةِ المحاجَّة.

قالَ السَّكَّاكِيّ: وإيَّاكَ أن يزُولَ عَنْ خاطِرِكَ التَّفْصيلُ الَّذِي سَبَقَ فِي نَحْوِ «أَنَا ضَرَبْتُ»، و«أَنْتَ ضَرَبْتَ»، و«هُوَ ضَرَبَ» مِن احْتِمالِ الابْتِداءِ، وَاحْتِمالِ التَّقْدِيمِ، وَتَفاوتِ المَعْنَىٰ فِي الوَجْهَيْنِ[1]، فَلا تَحْمِلْ نَحْوَ قَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ [يونس:٥٩] علىٰ التَّقدِيمِ؛ فَلَيْسَ المُرادُ أَنَّ الإِذْنَ يُنْكَرُ مِن الله - تعالَىٰ - دُونَ غَيْرِهِ، وَلَكِن احْمِلْهُ عَلَىٰ الابْتِداءِ؛ مُرادًا مِنْهُ تَقوِيَةُ حُكْمِ الإِنْكارِ[2].

وَفِيهِ نَظَرٌ؛ لأَنَّهُ إِنْ أَرادَ أَنَّ نَحْوَ هَذا التَّرْكِيبِ - أَعْنِي ما يَكونُ الاسْمُ الَّذِي يَلِي «الْهَمْزَةَ» فِيهِ مُظْهَرًا - لا يُفِيدُ تَوَجُّهَ الإِنْكارِ إِلىٰ كَونِهِ فَاعِلًا الفِعْلَ الَّذِي بَعْدَهُ، فَهُوَ مَمْنُوعٌ، وَإِنْ أَرادَ أَنَّهُ يُفِيدُ ذَلِكَ إِنْ قُدِّرَ تَقدِيمٌ وَتَأخِيرٌ، وَإلّا فَلا، عَلَىٰ ما ذَهَبَ إِلَيْه فِيما سَبَقَ، فَهَذِهِ الصُّورَةُ مِمَّا مَنَعَ هُو ذَلِكَ فِيهِ عَلَىٰ ما تَقَدَّمَ[3].

لَا يُقالُ: قَدْ يَلِي «الْهَمْزَةَ» غَيْرُ الْمُنْكَرِ فِي غَيرِ ما ذَكَرْتُمْ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: (أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرَفِيُّ مُضاجِعِي ...)، فإِنَّ مَعناهُ أَنَّهُ لَيْسَ بِالَّذِي يَجِيءُ مِنْهُ أَن يقْتُلَ مِثْلِي؛ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ:

لِيَقْتُلُنِي وَالْمَرْءُ لَيْسَ بِقَتَّالِ ... يَغِطُّ غَطِيطَ الْبَكْرِ شُدَّ خِنَاقُهُ

(١) ووجه ذلك عنده أنّ المُقَدَّم معرفةٌ، فلا يجبُ أن يكون مقدمًا من تأخير؛ لاحتمال أن يكون مبتدأ، بُني علَيْه الفعلُ خبراً عنه.

(٢) فيكون التقديم فِي مِثل هذا النّظم عند السكاكي مسلكًا من مسالك تأكيد النّسبة.

(٣) لا تحْسِبَنّ أنّ السَّكاكِي يَنفِي أنْ يكونَ الإنكار فِي قولِ الله - جَلَّ جلالُهُ: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ مِن قَبيلِ نَفْي الفِعل لا الفاعل، إنما هو ينكرُ أن يكونَ التقديم للتّخصيصِ من أن المقدم معرفةٌ، لا يتعين القولُ فيه بالتقديم من تأخير؛ ليفيدَ التّخصيص، فالتَّقديم من تأخير مُختصٌّ عنده بما كان المقدَّم نكرةً، لا معرفةً.

لأنّا نَقُولُ: لَيْسَ ذَلِكَ مَعْناهُ؛ لأنّهُ قَال: «وَالمَشْرَفِيُّ مُضاجِعِي»، فذَكَرَ ما يَكونُ مَنْعًا مِن الفِعلِ، وَالمَنْعُ إنّما يُحْتاجُ إليْهِ مَعَ مَن يتَصَوَّرُ صُدورُ الْفِعْلِ مِنْهُ؛ دُونَ مَن يكونُ فِي نَفسِهِ عاجِزًا عَنْهُ.

• • •

وَمِنْهَا: «التَّهَكّمُ[١]»، نَحْوُ: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ [هود: ٨٧][٢].

• • •

(١) «التهكم»: تقحم وتهدّم وتعرّض بالسّوءَىٰ، وهم هنا يتقحمون علىٰ نبيهم - عليْهِ السلامُ - ويتهدّمون ما يليقُ به من الإكرام والطاعة، والتأسي به، والقنوت لدعوته.

(٢) سِياقُ الجملةِ قول الله - جَلَّ جلالُهُ: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٤ - ٨٧].

في سياق تبيين ما كان من قوم سيدنا شعيب - عَلَيْهِ السّلامُ - في مدافعتهم الحق والخير أعرب القرآن عن مقالتهم له بقولهم: ﴿يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] في نظمهم هذا من التّحقير لصلاتِه، وما جاء به فيضٌ يصور لك ما أترعت به نفوسُهم من الحنق والبغض للحقّ والخيرِ، وكأنَّ الّذي جاءهم به يستأصلُ عزَّهم وهناءهم، قالوا: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ ...﴾ مقدّمين المسند إليه (صَلاتك) علىٰ المسند الفعليّ (تأمر) في حيز الاستفهام بالهمزة، وقد أُفْعِم النّظمُ بما يصور لك مبلغهم في التهكم بفعله وبه، وجاءوا بأسلوب الاستفهام، ولم يأتوا بأسلوبِ خبري (إن صلاتك تأمرك)؛ لما في ظاهرِ الاستفهامِ من استثارة إلىٰ طلب الحقيقة بنفسِه، فإن بحثَ أفضَىٰ به بحثُه إلىٰ أن فعله هذا لا يليقُ بمثلِه أن يفعلَه، فوقَ أن يأمر الآخرين بأن يفعلوا فعلَه.

ذلك تصويرٌ منهم لفداحة ما حلّ بنبيّهم - عَلَيْهِ السّلامُ - تجاوَز مرحلة فعل ما لا يليقُ إلىٰ الدعوة إليْه.

وفي هذا من التهكم بهذا الفعل (الصلاة) ما فيه، ومما يلزمه التهكم بِفاعله، وبالداعي إليْهِ. عدلوا عن الإعرابِ عن مرادهم من «الخبر» إلىٰ «الاستفهام»، ولو جاءُوا بما أرادوه في أسلوبٍ خبريّ لما تحقق منه الإعرابُ عن المعاني المكنونة في نفوسهم من «التّهكم» تقويضًا لمقامِهِ، كيما لا يقبل عليه من لا يكون راسخًا مثلهم في معتقدهم ومسلكهم.

وَمِنْهَا: «التَّحْقِيرُ»[1]، كَقَولِكَ: «مَنْ هَذَا؟» و«ما هَذَا»؟

(١) «التحقيرُ»: استصغارُ الشيءِ؛ أي: عده حقيرًا، والتحقيرُ تصويرٌ للشَّيْء في صورةٍ صُغرىٰ تقتحِمها العين، فلا يُحسَبُ لها.

ومن التحقير قول الله - سبْحانه وتعالىٰ - بيانًا لما يكون من المشركين في شأن سيّدنا رسولِ الله - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلّم: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، قولهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ مُفعَمٌ بالتحقير بهذا الاستفهام، وباختيار اسم الإشارة للقريب ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾، وأعربوا عنه باسم الموصولِ تثويرًا لحنق الآخرين عَلَيْهِ، والسّعي إلىٰ الإبلاغ في تحقيره، والتحذير والنفرةِ منه.

ومنه قول المتنبي في كافور:

مِن أيّةِ الطُّرق يأتي نحْوَكَ الكَرَمُ	أيْن المَحاجِمُ يا كافُورُ والجَلَمُ
جاز الأُولىٰ ملكَت كفاك قدرَهم	فعرفوا بك أنّ الكلبَ فوقَهم
لا شيْء أقبحُ مِن حُرٍّ له ذَكَرٌ	تَقودُهُ أَمَةٌ ليْست لَها رَحِمُ

يسلكُ المتنبي في شعرِه مسالكَ عدّة إلىٰ تحقيرِ كافور، وهو ما ذهب إليْه طواعيةً، بلْ ألجأه إلىٰ ذلك ما كان من سيف الدولة الحمداني؛ ممّا حملَه علىٰ أن يكون عند من كان مثل كافور، والشّأن أن ينتقل المرءُ من دار ذلّ إلىٰ دار عز، وهو انتقل إلىٰ دار كافور، وكأنّه يبعثُ برسالة إلىٰ سيف الدولة أن داره بالنسبة لما كان منه دار يتحوّل العاقلُ منها إلىٰ دارٍ أعز، وهو قد انتقل من عنده إلىٰ كافور، وفي هذا من التثريب علىٰ سيف الدولة ما فيه، فإذا ما كان القول الشعري هنا ظاهره تحقير كافور، فإنّ في باطنِه تَثْرِيبًا أنكىٰ أثرًا في نفسِ الحُرّ ممّا قاله في كافور. وذلك مسلك لطيف إلىٰ المعنىٰ، والمتنبي ممَّا يرفع شأنَه مذهبُه في إتيانه المعنىٰ من الجهة التِي هي أصح لتأديته.

وإذا ما كان المتنبي قد أوغل في هجاء كافور، فإنما هو موغلٌ في هجاء من رضُوا بأن يكون مثله عليهم سليطًا، والحقُّ أنّه ما هجاهم، بلْ سلح عليْهم، وحُقّ له أن يفعلَ.

ومن هذا قوله فيه:

من علَّم الأسودَ المخصيَّ مكرمةً	أقومُه البيضُ أم آباؤه الصِّيدُ
أمْ أُذْنُـهُ في يَـدِ النّخّـاسِ دامِيَـةً	أمْ قَدْرُهُ وَهْوَ بالفلْسَين مَرْدودُ
أوْلـىٰ اللّئَـام كُوَيْفِيـرٌ بمَعْـذِرَةٍ	في كلّ لُؤمٍ، وَبَعضُ العُذرِ تَفنيدُ
وَذاكَ أنّ الفُحُولَ البِيضَ عاجِزَةٌ	عنِ الجَميلِ فكَيفَ الخِصْيةُ السّودُ؟

وَمِنْهَا: «التَّهْوِيلُ»، كَقِراءَةِ ابْن عبَّاسٍ - رَضِي الله عَنهما: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠ مَن فِرْعَوْنَ﴾[الدخان: ٣٠-٣١][1] بِلَفْظِ «الاسْتِفْهام»، لمَّا وصَفَ اللهُ - تَعالَىٰ - العَذابَ بِأنَّهُ مُهينٌ لِشِدَّتِه وَفَظَاعَةِ شأنِهِ أَرَادَ أن يُصَوِّرِ كُنْهَهُ، فَقَالَ: ﴿مَن فِرْعَوْنَ﴾؟ أيْ: أَتَعْرِفونَ مَنْ هُوَ فِي فَرْطِ عُتُوِّهِ وَتَجَبّرِهِ؟

مَا ظَنُّكُمْ بِعَذابٍ يَكُونُ هُوَ المُعَذِّبُ بِهِ، ثُمَّ عَرَّفَ حَالَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

وَمِنْهَا: «الاسْتِبْعادُ»، نَحْوُ: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾[الدخان: ١٣ - ١٤][2].

استفهام في ظاهره أنه يطلب العلم بمَن علم كافور الكرم، وفي باطنه أنه ينفي الفعل الذي ينفي أن يكون من كافور كرمٌ.

والاستفهام - كما ترىٰ - يفيضُ بالتَّحقيرِ والتَّصغيرِ، وفي الوقت نفسِه يقرِّر أن كافورًا لا سبيل له إلىٰ شَيْءٍ من الكرم، إن هو إلا عبد خصيّ لا علاقة له بإنتاجِ الكرمِ كمثل علاقته بإنتاج الولد، أرأيتَ خصيًّا نجيبًا؟ كذلك كافور لا سبيل له أن ينتج كرمًا.

(١) سياقُ القولِ: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[الدخان: ٣٠ - ٣١]، قراءةُ (مَنْ) علىٰ الاستفهام من القراءات الشَّاذّة، والشّاذَّةُ إن اعتد بها عربيةً، فلا يُعتدّ بها تعبدًا، لا يُصلّىٰ بها، لوهنٍ في نسبها إلىٰ الوحي، ولا يصلّىٰ إلا بما كان متواترًا من القرآن؛ كَيْما يُثمر في نفسِ المُصَلّي، أمَّا عربيةً فمَن روَيت عنه إنّما هو ممَّن يُسْتشهدُ ببيانِه، فكيف بقراءته وروايته عمَّن هو فوقَه؟

(٢) سياق القول: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾[الدخان: ١٠ - ١٦].

«الاستبعاد»: عدُّ الشَّيْءِ بعيد الوقوع لموانع لا سبيلَ إلىٰ تجاوزها.

وكلمة: «أنّىٰ» اسمٌ مضمنٌ معنىٰ الاستفهام، وهو مشربٌ معنىٰ «كيفَ»، و«أنّىٰ» اسْمُ اسْتِفْهَامٍ، أَصْلُهُ

وَمِنْهَا: «التَّوْبِيخُ»، و«التَّعَجُّبُ» جَمِيعًا، كَقَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] أَيْ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾؟ وَالْحالُ أَنَّكُمْ عالِمونَ بِهذِهِ الْقِصَّةِ[1].

أَمَّا «التَّوْبيخُ»؛ فَلأَنَّ الْكُفْرَ مَعَ هَذِهِ الْحالِ يُنْبِئُ عَنِ الانْهِماكِ فِي الْغَفْلَةِ أَوْ الْجَهْلِ، وَأَمّا «التَّعْجِيبُ»؛ فَلأنَّ هَذِهِ الْحالَ تَأْبَىٰ أَن لَا يكُونَ لِلْعاقِلِ عِلْمٌ بِالصَّانِعِ، وَعِلْمُهُ بِهِ يَأْبَىٰ أَن يَكْفُرَ، وَصُدُورُ الْفِعْلِ مَعَ الصَّارِفِ الْقَوِيّ مَظِنَّةُ تَعَجُّبٍ.

وَنَظِيرُهُ: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤][2].

اسْتِفْهَامٌ عَنْ أَمْكِنَةِ حُصُولِ الشَّيْءِ، وَيَتَوَسَّعُونَ فِيهَا؛ فَيَجْعَلُونَهَا اسْتِفْهَامًا عَنِ الْأَحْوَالِ بِمَعْنَىٰ (كَيْفَ)؛ فكأنه قيل: (كيف تكون لهم الذكرىٰ عند ظهور الدّخان؟) فالاستفهام إنكاري بمعنىٰ لا يكون.

(١) الخطاب في ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ...﴾ للمنادىٰ عليْهم في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وأهلُ العلم علىٰ أنّه أردف الأمر بالعبادة في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ بموجباتها، وأردف التعجب من كفرهم والتوبيخ عليه بمثل ما أردف به الأمر بعبادته؛ ذلك أن مآل الأمرين سواء؛ الأمر بالعبادة، والتَّعجب من كفرهم والتَّوبيخ عَلَيْه، ففي هذا توكيدٌ للمعنىٰ.

(٢) الخطاب في قوله: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤] هم المخاطبون في قوله قبل: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ...﴾ [البقرة: ٤٠].

«الهمزة» في ﴿أَتَأْمُرُونَ﴾ للتَّوبيخ علىٰ أمرٍ هُم قائمون علىٰ ضدّه، والتَّوبيخ علىٰ دعوة الآخرين إلىٰ البر، ونسيانهم دعوة أنفسِهم، ولو كان عرضًا من الدنيا من مآكل ونحوِه لكانوا البادئين بأنفسِهم، وتوفيتها حقَّها وفوقه.

....

• • •

وفي قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ اسْتِفْهَامٌ إنكاري توبيخيّ جعلهم في نهجهم هذا من دعوة الآخرين إلىٰ البر، ونسيان دعوة أنفسهم، وحملها علىٰ اصطناع البِرِّ، كأنّهمْ قد فقدوا عقولهم، فأنكر عليْهم صنيعَهم.

و«همزة الاستفهام» في ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ دخلت علىٰ (الفاء)، فإمّا أن تكون (الفاء) مؤخرة من تقديم؛ لاستحقاق (همزة الاستفهام) الصدارة، وإمّا أن تكون «الهمزة» داخلة علىٰ محذوف، و«الفاء» عاطفة علىٰ مقدرٍ هو مدخول الهمزة.

جُمُعة القول في الاسْتفهام

الاستفهامُ: الأصلُ فيهِ أن تَطلُبَ العلم والفهم لِما تسأل عنه.

وفي الاصطلاحِ: طلبُ إيجادِ صورةِ المسْؤول عَنه في ذِهن المستفهِم.

وله أدواتٌ، أُمّها: (الهمزة)، وسائر الأدوات مضمّنة معنىٰ (الهمزة)، فهي تفيدُه بالتَّضمّن، لا بالوضع.

المستفهم عنه قد يكونُ مسندًا، أو مسندًا إليه، أو متعلقًا منْ متعلِّقات المسند، وهذا يسمىٰ سؤال تصورٍ، وهذا لا يكون بـ(هل)، ويكون بسائر الأدواتِ.

وقد يكون الاستفهامُ عن النسبة الواقعة بين المسند والمسند إليْه، وهذا استفهام تصديق، ويكون بـ(الهمزة) أو (هل)، ولا يكون بما عداهما.

الأصل أن يكون المستفهم عنه هو الذي يلي الأداة (الهمزة)، وقد يعدل عنه لمقتضٍ.

«الهمزةُ» قد يكونُ بعدها حرفُ عطفٍ (الواو، الفاء، ثُمَّ)، فيصح أن يكون العاطف مؤخرًا من تقديم، والمعطوف هو جملة الاستفهام، ويصح أن تكون «الهمزة» دالة علىٰ مقدر، والعاطف عطف ما بعده علىٰ مدخول «الهمزة» المقدر، فيكون المستفهَم عنه شيئان: المعطوف عليْهِ المقدر، والمعطوف.

(هل) إذا كانت للاستفهام، وكان في جملتها فعلٌ نسبته هي محل الاستفهام وجب بلاغةً أن يكون مدخولها الفعل، فإن لم تكن للاستفهام، أو كانت نسبة

الفعل ليست هي محل الاستفهام جاز ألا يكون ذلك الفعلُ مدخولها.

إذا اجتمعت (أم) مع (هل) كان الاستفهام بالهمزة المقدرة مع (أم المنقطعة)، وجردت (هل) من الاستفهام، وإذا اجتمعت (أم) مع أداة استفهام غير (هل) كان الاستفهام بالأداة، وجردت(أم) من الاستفهام.

* تختصُّ (هل) بأمورٍ؛ منها:

- أنها لاستفهام التصديق في الإثبات، لا في النفي.

- أنها تخصص المضارع للاستقبال.

- أنها لا تدخل علىٰ الشّرط، ولا علىٰ (إنّ)، ولا علىٰ اسم بعده فعل في الاختيار.

- أنها تأتي مع الفعل بمعنىٰ قد.

- أنها تجتمع مع الاستثناء (إلّا)، فتفيد (هل) النفي، فيكون التركيب خبرًا مفيدًا للقصر، ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾[الرحمن: ٦٠].

- أنها تقع بعد العاطف، لا قبله، وبعد (أم).

قد يُفادُ بأدوات الاستفهام معانٍ غير الاستفهام، وتكون إفادتها تلك المعاني بطريق المجاز المرسل عند بعض أهل العلم، أو بالكناية عند بعضٍ، أو بطريق مستتبعات التراكيب عن بعضٍ.

الاستفهامُ من الله – تعالىٰ – لا يكون حقيقيًّا قطّ، والاستفهام في القرآن محكيًّا عن بعض العباد يكون حقيقيًّا، ويكون غير ذلك، بحسبِ السّياقِ. وأكثرُ ما يكون الاستفهام في الشّعر مفادًا به معنىٰ غير الاستفهام، فالاستفهام الحقيقيّ لايكاد يأنس بِه الشّعرُ.

المعاني المفادة بأدوات الاستفهام كثيرة، تتنوَّع بتنوّع السّياق، وقد تفيد الأداة في التركيب الواحد أكثر من معنىٰ، فهي معانٍ لا تتعاندُ.

• • •

تطبيقات تحليليّة في أسلوب الاستفهام

التَّطبيق الأوّل:

يقُول الحقّ- جَلَّ جلالُهُ: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٢ ۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝١٣ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾

[الأنعام: ١٢ – ١٤].

جاءت هذه الآياتُ في سياق سورة «الأنعام»، وهي سورة معقودة تدليلًا علىٰ وحدانية الله – تعالَىٰ – بالآياتِ الكونيّة.

استهلت الآياتُ بالأمر الإلهي لسيد المرسلين ﴿قُل﴾، وهذا الأمر للوجوب وللفورية أيضًا. وأمرُ الله – تَعالىٰ – رسولَه – صلّىٰ الله عليْه وسلّم – بشَيْءٍ، أو نهيه عن شيْءٍ فيه معنىٰ تقرير بشريةِ وعبوديةِ سيّدنا رسول الله – صلّىٰ الله تَعَالَىٰ عليه وسلّم – فهو عبد مأمورٌ، ومن كان مأمورًا لا يصلح أن يكونَ إلهًا من دونِ اللهِ أو مَعَهُ – سُبْحانه – فإذا ما كانَ خيرُ الخلقِ وسيدهم لا يصلحُ لذلِك، فكلُّ منْ عَداه – أيضًا – لا يصلح أن يكون إلهًا.

وسورة (الأنعام) أكثرُ السّور التي ورد فيها الأمر بـ﴿قُل﴾، فهي سورة «الاستدلال علىٰ التوحيد بالآيات الكونية»، وفي ﴿قُل﴾ دلالةٌ فتيَّةٌ مُحكمَةٌ.

والاستفهامُ الذي في قوله تعالَىٰ: ﴿لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ للتقرير؛ فلا سبيل إلىٰ ذي عقل إلا أن يقول: ﴿لِّلَّهِ﴾، وفي قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ تقرير بالوحدانية؛ لأنّه أمر أن يقول: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: ٥٥]، فأنت تقدر الجار والمجرور خبرًا مقدمًا؛ ليفيد القصر (ما فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إلا لله)، فهو قصر موصوفٍ علىٰ صفةٍ قصرًا حقيقيًّا تحقيقًّا، وليس قصرًا إضافيًّا، ولا قصرًا ادّعائيًّا.

وفي هذا تقرير سيد الخلائق - عليْهِ الصّلاةُ والسّلامُ - أن ذلك لله وحدَه، فإذا أقرّ بذلك، وهو سيِّدُ الخلائق، فكل مَن عداه - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلّم - عليه الإقرار بذلك؛ ولذلك جاء هنا قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾، ولم يقل: ﴿لِّلَّهِ﴾ من غيرِ ﴿قُل﴾، كما في مواضِع أُخَر: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

وإذا ما كان قولُه تعالَىٰ: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ﴾ تصويرًا لجلال الألوهية، وسلطانها، وعزها، فإنَّ قولَه سُبْحانه: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ يصوّر جمال الربوبيّة، فيجمع فيه مُصغِيًا مسْتبصرًا متدبرًا بين جلالِ الألوهية وجمال الرّبوبيّة، فأنت المتمتع بالخشية جلالًا، وبالأنس جمالًا. أرأيتَ إلىٰ إكرامه لك مصغيًا مسْتبصرًا ومتدبرًا؟

وقوله سُبحانه: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ يصوّر جلال الألوهية وسلطانها واقتدارها وعزها، فيَملأ فؤادك خشيةً، ويقيم في بصيرتك مشهد الحشْر المهيب الرّهيبِ، فتكُفّ نفسَك وعقلَك وقلبَك عن

الالتفات إلىٰ المعصية؛ لأن في بصيرتك قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾، وهي كلمة لأهل العصيان تفيض بالرّهب والرّعب، وهي لأهل الطّاعة بُشرَىٰ بالحسنىٰ، فيقيمون علىٰ الطاعة، لا يبرحون، ثم يأتيك التّهديد لأهل العصيان: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وفي قوله تعالَىٰ: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾دَخلتْ همزةُ الإنكارِ التَّكذيبيّ علىٰ معمولِ (أتّخِذ) مِن أنّه مناطُ الإنكار، وليس اتخاذُ الوَلِيِّ هُو مناطَه، فلا بُدَّ مِن اتّخاذِ وَليّ؛ ذلِك ضرورةٌ، الإنكارُ أن يكونَ غيرُ الله – سُبحانَه – وهذا عامٌّ في كلّ ما عداه – جَلَّ جَلَالُه – فموالاة غيره شركٌ.

وفي قوله سبْحانَه وتَعالىٰ: ﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ١٣] قصرٌ، طريقه التقديم، والمعْنىٰ: ما الذي سكن فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إلّا لله، وهذا مقرر وحدانيته، وجلال ألوهيته وسلطانها، وهو قصر موصوفٍ علىٰ صفةٍ قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، وليس بقصرٍ إضافيّ.

وتقرير أنَّ كلّ ما في السّماوات والأرض مُلكه – سُبْحانه وتعالىٰ – وهو في القرآن جدٌّ كثير – يفيض باليقين والطمأنية للفؤادِ الرَّشيد الفقيه ما فيها من المعاني الإحسانية؛ إذا كان كل مخلوقٍ هو ملكه – تَعَالَىٰ –فالفؤاد الرشيد لا يتعلّق بشيْءٍ ممّا في أيدي العبادِ؛ لأنّه ملك عارية، وهم لا محالة سيُفَارِقُونه أو يفارقهم، لا يطيقون حمايته من الهلاك، فإذا تطلع الفؤاد الرشيد إلىٰ شيْءٍ إنما يتطلع إليه ملكًا أبديًّا لله – تَعَالَىٰ – لا عاريةً في يد أحد من العالمين، وبهذا يتحقق للعبد العزة، والعصمة من الاستذلال، فلا يكون عبد درهم، ولا دينارٍ، ولا إنسان، ولا لأي شيءٍ من العالمين.

لذا كان حريًّا بكل فؤاد إذا ما قرأ آيةً تحمل هذا المعنىٰ – وهي في القرآن جد كثير – فعليه أن يتلبث معتكفًا في محراب معانيها، فإنّه إن أحسن التّبصر سيجد فؤادَه من بعد التبصر غيرَه قبله، فإن لم يجد فليعلمَنَّ أنّه ما أحسن الاعتكاف والتبصر، أو أن في قلبه عوائقَ عن التلقّي، فحقُّ قلبه عليه أن يزكيه، طهرًا ونماءً، وأن يذكيه نشاطًا؛ فإنّ لقلبك عليْك حقًّا.

وقوله جَلَّ جلالُهُ: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾ استفهامٌ تقريريّ، فيه معنىٰ القصر، وقوله تَعالىٰ: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾استدلالٌ علىٰ استحقاقِه أن تقصر ولاية الاستنصار عَليه – عَزَّ وَعَلَا – ونفيها عن كلّ ما عداه.

وقوله: ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُ﴾ من قبيل القصر، قصر صفة علىٰ موصوفٍ قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، طريقه تقديم المسْند إِليْه ﴿هُوَ﴾ علىٰ الخبرِ الفِعليّ ﴿يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُ﴾ في حيز الإثبات.

وقوله: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ فيه قصرٌ غير اصطلاحي، فقد جمع بين الأمر بالإسلام، ونفي الشرك، فهو كقوله سُبْحانَه: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]، وكل ذلك مقرِّرٌ معنىٰ وحدانية الله – عَزَّ جلَّ.

• • •

التَّطبيق الثّاني:

يقُول الحق - سبْحانه وتعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾[هود: ٢٥ - ٢٨].

آياتٌ تُجْمل نبأ ما كان من قوم سيّدنا نوح - عَلَيْهِ السّلامُ - وما كان من قومِهِ معه، وهذا ليس قصدًا إلىٰ التسلية، بل إلىٰ الاعتبار؛ كي لا يكون من أمة سيدنا رسولِ الله - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلّم - ما كان من قوم سيّدنا نوح - عَلَيْهِ السّلامُ - معه، فيحلّ بهم ما حلَّ بقوم نوحٍ - عَلَيْهِ السّلامُ - وهذا من فيض عطاء ربوبية الله - جَلَّ جلالُهُ - فتحذير القوي المقتدر نعمةٌ منه علىٰ مَن يحذره.

لمّا قال لهم: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ أنبأهم بثلاثٍ عظام:

﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾، ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾، ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ الثانية بيان للأولىٰ، والثالثة بيانٌ للباعثِ علىٰ الأولىٰ.

الأولىٰ هي مناط الأمر، ولا يكون إنذارٌ إلا إذا كان من المُنذَرِ ما يوجبُ إنذاره لعله يذكر أوْ يَخشَىٰ، ولا يكونُ إنذارٌ إلّا إذا كان المرسِل مَن يُنذرهم

مقتدرًا عليهم، فلا ينذر الضعيفُ، ولا ينذر إلا إذا عليما محيطًا بأقوال وأفعال وأحوال من ينذره الظاهرةِ والباطنة.

وفي جرّ كلمة: ﴿أَلِيمٍ﴾ دلالة علىٰ أنّه نعتٌ لليومِ، وليس للعذاب، وفي نعت اليوم بذلك تهويلٌ لما يكون فيه من العذاب، فإذا كان زمان العذاب أليمًا، فكيف بالعذاب نفسِه؟ فوصف «الظرف» بما هو للمظروف إيماءٌ إلىٰ أن تحقق هذا في المظروف جد عظيم؛ ممّا جعلَه محيلًا الظرف كأنه المظروف، وفي هذا إطلاق للنفسِ للتَتَخيَّل كمْ يكون ذلك العذابُ هولًا ورهبًا؟

وبرغمٍ من قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ لم يلقوا بالاً لمقالتِه، فكان جوابُهم منبئًا بما هو معتمل في قلوبهم، طامسٌ عليها، مانعٌ لها من أن يكون منها أدنَىٰ قدر من التفكر والاعتبار، فتسارعوا إلىٰ الرد عليه ردًّا ينبئُ عن قوة ما هُم فيه من الضّلالِ، فقالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾، ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾، ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۢ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾.

استهلُّوا الرّد بتأكيد أن سيّدنا نوح - عَلَيْهِ السّلامُ - ليس إلّا مثلهم، فَلِمَ يكونُ هُو مِن بيْنهم نبيًّا؟! وكأنَّهم يتوهَّمون أنّه - عَليْه السّلام - يذهبُ إلىٰ أنّه ليس كمثلهم بشرًا، وجهلوا حكمة أن يكون مثلهم بشرًا، جعلوا بشريته سببًا في رفضه؛ بينا بشريته ضرورةٌ؛ لتحقيق التواصلِ والتفاهمِ.

إنهمْ لَيقلبون الحقائقِ، وليحسبون الأمور علىٰ غير حقيقتها؛ لعمهٍ في قلوبهم، ولَيحسبون اتباعَ من هو أدنىٰ منهم - في نظرهم - ما معه من الدّعوةِ

دليلًا علىٰ أنَّه ليس بأهلٍ للاتباع، فلو كان خيرًا لكانوا أوّل من اتبع، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١].

وهكذا يقيسون صواب الأشياء وصلاحها بحال من اتبعها؛ كأنهم يعرفون الحق بالرجال، ولا يعرفون الرجالَ بالحقّ، وهم إذ يعبرون عنهم بقولهم: ﴿أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ أي: المرء لا يحتاج إلىٰ أن يوقن أنهم أراذل لوقت ليتحقق، ذلك أنّ رزالتهم لا يُحتاج إلىٰ تفرسٍ لتظهر للناظر؛ إنّها - لكثرتها وقوتها - بادية فيهم لكلّ ناظرٍ - كذلك يزعمون - وقولهم: ﴿مَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ هو توكيد قولهم قبل: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ ؛ ولذا فُصِلَ.

ويتصاعدون قائلين: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ معبرين بالاسم ﴿كَٰذِبِينَ﴾؛ إيماءً إلىٰ أن الكذب بات سجيةً لا تفارقهم، واستعمال «الظن» هنا بمعنىٰ اليقين؛ إيماء إلىٰ أنَّ مَن ظَنّ مجرّد ظنٍ في كذبهم وجب عليه أن ينفر منهم، فكيف بالّذي تحقق من ذلك؟

وجاء ردُّه عليهم بما يليقُ به نبيًّا يسوسُ قومَه إلىٰ الحُسنىٰ، فلم يَرُدّ سوء أدبهم معه بمثله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ استهلّ الرّد بهذا النداء الذي يثير الحمية لمن كان له قلبٌ، ولمن ذاق طعم العزّة، ونصرة الحق، قال: ﴿يَٰقَوْمِ﴾، وهي كلمة تذكرهم بما عليهم إزاءه؛ أن يقُوموا لنصرته؛ ولا سيما أنَّه ما جاءهم إلا بالحق.

عليهم أن يقُوموا له ناصرين، لا قائمين عليه مصادمين مناكدين، ثمّ يُسائِلُهُمْ مِن بعد ذلك النِّداء: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ دعاهم إلىٰ أن يُخبروه: أيليقُ به إن كان علىٰ حَقّ مُبين منْ ربّه - تَعَالَىٰ - وآتاه رحمةً له ولهم، فما اسطاعوا أن يدركوا هذه الحقيقة - أيليقُ به أن يكرِههم عليها، ويُلزمهم علىٰ كرهٍ بها؟ أيليقُ بمثله؟! لايكون.

قوله تعالىٰ: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ مركب من همزة الاستفهام التّكذيبي، ومن الفعل (نلزم)، وفاعله المستتر، المفعول الأول (كاف الخطاب)، ومن المفعول الثّاني (ها) العائد علىٰ «البينة» في قوله تَعَالَىٰ: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾.

وأنت تلحظُ ثقلًا في أداء هذه الجملة، وهو ثقل يصوّر لك بجرسه ثقل إيجاد هذا الإلزام؛ لأن الفطرةَ ومنطق العقل الرشيد يَأْبَيَانِ أن يكون إلزامٌ بالهداية لِمَنْ كان كارها ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾؛ ومن ثم نهىٰ الله - تَعَالَىٰ - عن الإكراه في الدين؛ ذلك أنَّ «الإكراه» في أيّ أمرٍ من أمور الحياة لا يثمرُ إلّا قبحًا وفسادًا.

• • •

التّطبيقُ الثالث:

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٢ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْأَيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾ [الدخان: ٣٠ – ٣٣].

جاءت هذه الآياتُ في سياقِ سورة (الدُّخَان)، وهَي سابعة (آل حم)، والآيات في سياق تهديد المشركين؛ ببيان أنّ الّذي حلّ بقوم فرعون – وهم أشدّ منهم قوةً – يحلّ بهم؛ لاتفاقهم في الصَّدِّ عن سبيلِ الله – تعالىٰ.

استهل القول بهذا القسم المدلول عليْه بـ«لام القسم» في «لقد» ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا﴾، واصطفىٰ الفعل «نجّىٰ» المضعّف؛ دون «أنجَىٰ»، ففي «أنجَىٰ» لفتٌ إلىٰ السّرعة، وفي «نجَّىٰ» لفت إلىٰ تكرار الفعل وقوّته، وهذا يومئ إلىٰ كثرة ما كان منهم من السيئات المستحقة للعقوبة، فكانت النتيجة متكررةً بتكرر المعاصي، وكانت بالغةَ السُّوءَىٰ، وهذا يصور بالغ إغراقهم في المعصية، وبالغ حلم الله – تَعَالَىٰ – عليهم، وفي إسناد الفعل لـ«نا» إيماء إلىٰ عظمة ما كان منه – تَعَالَىٰ – لأن قيمةَ الأفعالِ من قيمة فاعليها.

وفي الإعراب باسم الجلالة «الله»، أو بضمير العظمة «نا» لفتٌ إلىٰ التّجلّي بأسمائه الحسنىٰ علىٰ تعدّدها، وتنوّع آثارها.

وفي الإعراب عنهم بقوله: ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ تعريضٌ بهم، كان حريًّا بهم أن يكونوا في سلوكهم أليق بشأن أبيهم النّبيّ، وفي الإعراب بقولِه: ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ معنىٰ ليس في «يعقوب»؛ في «يعقوب» لفت إلىٰ أن له عقبًا وذرية بالغة في زمانهم،

وفي «إسرائيل» معنىٰ التّعبد والقنوت، فكان بنسبتهم إلىٰ «إسرائيل» حثّ لهم علىٰ أن يحققوا معنىٰ ذلك الاسم فيهم، كما حققه أبوهم، ولكنّهم لم يفعلوا، فكانوا هم العقَقَةُ.

وفي وصف العذاب بأنّه «مُهين» لفتٌ إلىٰ ما كان يوقعه عليهم فرعون؛ لم يكن تعذيبُه لهم تعذيبًا مؤلمًا فحسبُ، بلْ كان كذلك، وكان مهينًا؛ امتهنهم استلّ آدميتهم بِما يكلفهم به من أعمالٍ وضِيعةٍ.

وكأنَّه أراد أن يستلب منهم ما تفضل به الله - تَعَالَىٰ - علىٰ بني آدم من التكريم، كأنه يقول: إنهم ليسوا منهم، إنّهم أحق بالإهانة، لا التكريم.

وكذلك يفعل حفدته في خصومهم، في كلّ قومٍ وعصرٍ ومصرٍ، لا يكتفون بأن يصبّوا عليْهم العذاب الأليم، بلْ يمزجونه بالإهانة، فيكون أثرُه في النّفس عديل أثره في أجسادهم؛ إن لم يكن يعلوه.

وفي وصف العذاب الذي نجّاهم الله - تعالَىٰ - منه بالمهين تعريضٌ بهم، كان عليهم إذ نجّاهم من هذا المهين أن يكونوا قانتين له، لا تخطرُ معصيتُه - سبْحانَه وتعالىٰ - ببال أحدهم، وإن خطرت قاومها حياءً مِمَّن نجاهم من العذاب المهين، لكنّهم ما لبثوا أن نجاهم، حتىٰ رغبوا في الشرك، وقد سجل الله - تَعَالَىٰ - ذلك عليْهم، ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٨ - ١٤٠]

ففي تصوير شدة ما كانوا فيه، ثمّ نُجُّوا منه إبلاغٌ في تصوير مِنَّةِ التَّنْجية؛ لأن قيمة العَطية تكونُ علىٰ قدر قيمة البَلِيّة.

ثم جاء قوله: ﴿مِن فِرۡعَوۡنَ﴾ بدلًا من قوله: ﴿مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾ جعل فرعون هو العذاب المهين! يقول شيخنا - أعزّه الله تعالىٰ: «هذا البدلُ أو البيانُ يعني أنَّ فرعونَ هُوَ العذابُ المهينُ، وانّه ليس لحمًا ودمًا وإنسانًا، وإنّما هو شرٌّ كلّهُ، وعذابٌ مُهينٌ كلّه.

وكان يُمكن أن يقالَ: ولقد نجينا بني إسرائيل من فرعونَ، ويحذف المبدل منه، الّذي يقولون: إنّه في نيّةِ الطّرح، ولو جاءَ الكلامُ علىٰ هذا الوجهِ لكانَ غير الَّذي جاءتْ عليْهِ الآية، ولو وضعته بإزاءِ ما جاءت عليه الآيةُ لوجدتَ معنًىٰ مغسُولًا.

والأصلُ في ذلك أنّ المبدل منه أقوَىٰ في الدّلالة علىٰ المعنىٰ المراد من البدل، فإذا جاء الّذي هو أضعفُ بدلًا من الذي هو أقوَىٰ اكتسبَ الأضعفُ من قوّةِ الأقوَىٰ، فالعذابُ المهينُ أقوَىٰ في داعيةِ النجاة من فرعون، فإذا جاء قولُه: ﴿مِن فِرۡعَوۡنَ﴾ بدلًا منْهُ اكتسبَ قوةَ المعنىٰ منه، ولو عكسْنا، وقلنا: ولقدْ نجيْنا بني إسرائيل من فرعون من العذاب المهين لضعفَ الكلامُ؛ لأنّ الَّذي عليْه الآية أفاد أنّ فرعونَ عذابٌ أليمٌ، والّذي قلناهُ أفاد أنّ العذابَ المُهين فرعون، وبيْنهما ما لا يخفىٰ.» (أ.هـ).

وَثَمَّ قراءَةٌ نُسِبَت إلىٰ سيدنا عبد الله بن عباسٍ - رضيَ الله عنهما-: «مَن فرعون»؟ علىٰ الاستفهام، المفيد تهويل طغيان فرعون وجبروته وفجوره، فكان

الجواب: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾، جاء به مؤكدًا لتمكين المعنىٰ في القلوب؛ لعظيم أهمية حضوره، كيما يكون علىٰ يقين أنّ كلَّ عالٍ علىٰ قومه مستضعفهم ومذلّهم تكون عقباه من جنس عقبىٰ فرعون؛ فحيث رأيت واحدًا يفعل في قومه من جنس ما فعل فرعون في بني إسرائيل فاستحضر هذه الجملة: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾، واستحضر ما حلّ به، ففي هذا ما يُعينك إلىٰ أن تكون المتعلقَ بربك - تَعَالَىٰ - المنتظر فرجةً، المتخذ الأسباب لأن تكون أهلًا لأنْ تُنَجّىٰ من العذاب المهين كما نَجّيَ بنِي إسرائيل. هذا مُهِمٌّ جِدًّا فِي زَمَنِ الِاسْتِضْعَافِ.

وقوله: ﴿ كَانَ عَالِيًا ﴾ لا يُراد أنّ ذلك كان ومضىٰ، بل هو هادٍ إلىٰ أن الصفة ﴿ عَالِيًا ﴾، ﴿ مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ قائمتان فيه قيامًا لا يزول، فالفعلُ «كان» هنا يلفت إلىٰ الكينونة، مجردة من الزمان.

والقرآنُ لم يقل: (كان مستعليًا)؛ لما قد تُفيده الصيغةُ من معنىٰ الطلب؛ أي: إنه يسعىٰ إلىٰ تحقيق ذلك، ولكنّ ﴿ عَالِيًا ﴾ يفيد أنه قد تحقَّق عُلُوُّه، وصار علوه علىٰ النّاس سمةً من سماته، وهذا شطر الكبر «غمط الناس»، وأنت لا تجد متجبرًا إلا وهو راسخ فيه اليقين بأنّه فوق الآخرين، ولولا ذلك ما تجبّر.

وقوله: ﴿ مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ لا يُراد به الإسراف في المأكل والمشربِ، ونحو ذلك، بل كان مسرفًا في التّجبّر، وفي انتهاك آدميّة الآخرين؛ في سفك دمائهم، وانتهاك أعراضهم، هو إسرافٌ في الظلم، والتجبر، والتّعذيب، والتّنكيل؛ ممّا يلفتك إلىٰ أنّه قد مُحِقَت منه الرّحمة، وأنه لا يكتفي بالتغلب علىٰ خَصْمه، بل هو مسرفٌ في إهانته، والتنكيل به.

وإذا ما كان الله - تَعَالَىٰ - لا يحبُّ مَنْ كان مسرفًا في مأكل ومشربٍ، ولو مِن حَلالٍ، كما يهدي إليْه قوله تَعَالَىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] فكيف بمن كان مُسْرِفًا في ظلم العباد، واحتقارهم وانتهاك أعراضِهم، واستلاب أموالهم، وسفك دمائهم؟!!!

• • •

التطبيقُ الرابع:

يشدو امرؤ القيس مصورًا مغامرةً من مغامراته النسائيّة، يقُول في ذلك المشهد التّخيليّ:

سَمَوتُ إِلَيها بَعدَ ما نامَ أَهلُها ... سُموَّ حَبابِ الماءِ حالًا عَلىٰ حالِ
فَقالَت: سَباكَ اللَهُ إِنَّكَ فاضِحي ... أَلَستَ تَرىٰ السُمّارَ وَالناسَ أَحوالي
فَقُلتُ: يَمينَ اللَهِ أَبرَحُ قاعِدًا ... وَلَو قَطَعوا رَأسي لَدَيكِ وَأَوصالي
حَلَفتُ لَها بِاللَهِ حِلفَةَ فاجِرٍ ... لَناموا فَما إِن مِن حَديثٍ وَلا صالِ
فَلَمّا تَنازَعنا الحَديثَ وَأَسمَحَت ... هَصَرتُ بِغُصنٍ ذي شَماريخَ مَيّالِ
وَصِرنا إِلىٰ الحُسنىٰ وَرَقَّ كَلامُنا ... وَرُضتُ فَذَلَّت صَعبَةٌ أَيَّ إِذلالِ
فَأَصبَحتُ مَعشوقًا وَأَصبَحَ بَعلُها ... عَلَيهِ القَتامُ سَيِّئَ الظَنِّ وَالبالِ
يَغُطُّ غَطيطَ البَكرِ شُدَّ خِناقُهُ ... لِيَقتُلَني وَالمَرءُ لَيسَ بِقَتّالِ
أَيَقتُلُني وَالمَشرَفِيُّ مُضاجِعي ... وَمَسنونَةٌ زُرقٌ كَأَنيابِ أَغوالِ
وَلَيسَ بِذي رُمحٍ فَيَطعَنُني بِهِ ... وَلَيسَ بِذي سَيفٍ وَلَيسَ بِنَبّالِ
أَيَقتُلَني وَقَد شَغَفتُ فُؤادَها ... كَما شَغَفَ المَهنوءَةَ الرَجُلُ الطالي
وَقَد عَلِمَت سَلمىٰ وَإِن كانَ بَعلُها ... بِأَنَّ الفَتىٰ يَهذي وَلَيسَ بِفَعّالِ
وَماذا عَلَيهِ إِن ذَكَرتُ أَوانِسًا ... كَغِزلانِ رَملٍ في مَحاريبِ أَقيالِ

• • •

اشتملتْ هذه الأبيات علىٰ أربع صور من الاستفهام:

- أَلَستَ تَرىٰ السُمّارَ وَالناسَ أَحوالي؟

- أَيَقتُلُني وَالمَشرَفِيُّ مُضاجِعي؟

- أَيَقتُلَني وَقَد شَغَفتُ فُؤادَها؟

- وَماذا عَلَيهِ إِن ذَكَرتُ أَوانِسًا؟

الاستفهام الأول منها: (أَلَستَ تَرىٰ السُمّارَ وَالناسَ أَحوالي)؟ تدفعه عن أن يلمّ بها؛ مخافةً عليْه، وقد اقتحم غيرَ مُبالٍ. قوله: (ألست ترىٰ ...)؟ متضمن تقريرًا يترتبُ عليْه إنكارٌ وإشفاقٌ؛ وكأنها تقول له: لولا السمار والناس من حولها لاتخذتُ له الفؤادَ مرتعًا.

وفي الاستفهام الثاني والثالث يتساءلُ منكرًا أن يكونَ مدخولُ الهمزة متحققًا، من بعلها يتساءلُ: (أَيَقتُلُني وَالمَشرَفِيُّ...)؟ (أَيَقتُلَني وَقَد شَغَفتُ فُؤادَها...)؟ هُوَ في الموضعين يقرّر ويمكّن معنىٰ: «إنّ ذلك لا يكونُ».

في الثاني أعْرَبَ عن أنّه مليكٌ ما يمْنَعُ قتلَه: (المشرفيّ، ورماح مسنونة)، وفي الثالث أعرب عن أنه مليك ما يمنعه: (قلبها المشغوف)، هو له كالمشرفي والمسنونة، يمنعان قتله.

ثلاثةٌ هنّ الموانعُ من قتله - إنْ كان مَن يُريدُ قتلَه قتَّالًا - فكيف، وزوجُها ليس بقتالٍ، «وَلَيسَ بِذي رُمحٍ »، «وَلَيسَ بِذي سَيفٍ»، «وَلَيسَ بِنبّالِ»؟!

وقوله: (أيقتلني) مفضٍ إلىٰ تقرير امتناع ذلك الفعل، لا لن يكون.

ومما هو حريٌّ أن يكونَ محلّ عنايتك قوله: «والمشرفِيّ مُضاجِعي...» أرأيْت ما يُضاجعه لا يفارقه؛ حتىٰ في لحظات أنسه ولهوه؛ (السيف المشرفي، والرماح المسنونة الزرق كأنياب أغوالِ)؟

ألك أنْ تتخيَّلَ هذا المشهد؟ أيكون مِن غير مَنْ كانت الفروسية عبادته وهويته؟ هو في ميدان الوغَىٰ لا يفارق سيفه ورماحه، وهو في ميدان الهوَىٰ كذلك!

وأسند المضاجعة إلىٰ السيف والرماح، ولم يسندها لنفسِه، لم يقل: (أيقتلني وأنا مضاجع المشرفي...؟) جعل السيف والرماح مضاجعتَه، لا تفارقه، إنه هو أمنُها وعزُّها، والسيف والرماح تعشقه لا تصبر علىٰ البعد عنه نهارها وليلها، كما النساء له كذلك.

ويأتي الاستفهام الرابع: (وَماذا عَلَيهِ إِن ذَكَرتُ أَوانِسًا؟) مفيدًا نفي أن يكون عليْه حرجٌ إن ذكرهن، فإنهم أوانسٌ، وفي الإعراب عنهنّ بقوله: (أوانس) ما يفهم أنّه لا يكون له من هُنّ إلا مؤانسة فؤادِه، ولا تكون المؤانسة إلا من الطريقين، فهن بحاجةٍ إليه، وهو إليهن بحاجةٍ.

وفي قوله: (ذكرت) ما يفهم أنّه لا يكونُ إلا ذكر، وليس من ورائه شيْءٌ، فهل علىٰ الذاكر تثريبٌ؟!! كذلك الشّعراء.

وليس يخفىٰ علىٰ مثلِك فرق ما بين قوله: (أيقتلني؟) وقولنا: (لا يقتلني)؛ الأول يحملك علىٰ أن ترىٰ بنفسك، وأن تصل إلىٰ الحقيقة بجهدك، فيكون

ما بلغتَ من المعنىٰ وليدَ عقلك وقلبك وذوقك، وأنت ألبتة لن تضيع ولَدَك، فيكون المعنىٰ في فؤادك آمنًا مباركًا يزكو نماءً، ويذكو فتاءً، وذلك من الإحسان إلىٰ المعنىٰ؛ ذلك أن المعنىٰ الذي يريده امرؤ القيس من الموضعين إنَّما هو وليد عقله وقلبه ونفسِه، فأنّىٰ له أن يضيعه؟! حقُّهُ عليه أن يكون عليه قَوَّامًا قِوامةَ رعايةٍ وحمايةٍ، وقد فعل.

أمَّا قولنا: (لا يقتلني)، أو(لن يقتلني) فهذا تقرير مباشر، وصل إلىٰ السامع مجانًا، حُمِلَ إليه بغير مؤونةٍ.

وثَمَّ رواية أخرىٰ غير مشهورة: «ليقتلني» علىٰ نحو قوله في البيتِ قبله:

(يَغُطُّ غَطيطَ البَكرِ شُدَّ خِناقُهُ ليَقتُلَني وَالمَرءُ لَيسَ بِقَتّالِ)

الشّاعرُ يكذّب دعوىٰ أن زوجَها سيقتله، وكان قبله قد وَصَمَه بأن ليس بقتَّالٍ، نفىٰ عنه أن يكونَ القتلُ لأعدائه وخصومه أمرًا هو ديدنُه، فليست له خبرةٌ ومهارةٌ في ذلك، ومن كان كذلك ليس بأهلٍ لأن يقتل مثله جريدًا من السلاح، فكيف إذا ما كان مضاجعُهُ سيفٌ مشرفيّ، ورِماحٌ زُرقٌ كأنيابِ أغوالِ، فكيف يفعلها؟

وفي قوله: (يَغط غطيطَ البَكر) تصويرٌ لما تأجَّج في صدرِ زوجها مِن الحَرَجِ والحَنَقِ الآخذِ بخناقِه، مع عَجزٍ عن أن يكونَ منه ما يريدُ مِن الانتقامِ.

• • •

التّطبيقُ الخامس:

يقول جرير بن عطيّة الخطفيّ (ت:١١٥هـ) في مِدحةٍ له في الخليفة عبد الملك بن مرْوان الأُمويّ، من بعد أن ذكر حالَ زوجِهِ «أم حَرزة» - و«حرزة» أكبرُ ولدِه - وما مسّها وبنيها من ضرٍّ، وتعليلها لهم سَاغبين بماء قراحٍ، فجاوبها مطمئِنًا فؤادَها المضطرب الملتاع علىٰ بنيها، فقال:

سَـأمْتاحُ البُحُـورَ، فجَنّبِينـي	أذاةَ اللّـوْمِ وانْتظِـرِي امْتِياحـي
ثِقـي بـالله لَيْـسَ لَـهُ شَـرِيكٌ	ومـنِ عنـدِ الخليفـةِ بالنجـاحِ
أعثنـي يـا فـداكَ أبـي وأمـي	بسـيبٍ منـكَ إنـكَ ذو ارتبـاح
فَإنّـي قـدْ رَأيـتُ عَلـيّ حَقًّـا	زِيَارَتـيَ الخَليفَـة وامْتِداحـي
سأشـكرُ أنْ رددت عليَّ ريشـي	وَأثْبَـتَّ القَـوادِمَ في جَنَاحـي
ألَسْـتُمْ خَيـرَ مَن رَكِـبَ المَطَايا	وأنـدىٰ العالميـنَ بطـونَ راح

قوله: (سأمتاح البحور) من الكلمِ التي تفيضُ ثقةً بجودِ عبد الملك، لم يجعله بحرًا، بل بحورًا، فأنَّىٰ لتلك البحور أن تنفَد؟ وأنَّىٰ لها أن تَرُدَّ ورادًا؟ وفي جمع (البحر) إيماءٌ إلىٰ تنوع العطايا؛ مضافًا إلىٰ الإيماء بكثرته.

وقوله: «ثقي باللهِ...البيت» هو عندي أعلىٰ في المدح من البيتِ بعده (أغثني...البيت)، فهذا البيت لا يليقن بمثل عبد الملك، ولا يليقنّ بجريرٍ أن يصرح له بالطلب، بل بالغوثِ، فمن جاد بعد سُؤْلٍ فليس بالجواد، وفي الطلب معنىٰ أنَّه لا يتوخىٰ شؤون رعيته؛ مما يحملهم إلىٰ أن يصرحوا بالطلب ويستجدوا.

الأولىٰ بجرير أن يلمّح، لا يُصرح، وأن يصوّر لعبد الملك أنّه لا يأخذ مِنْه عطاياه لحاجةٍ، بل للشرف والتَّبرّك والتلذُّذ، وهو فِي غير ما عَوز، فما يكون للخليفةِ عبد الملك أن يدع أحدًا من رعيته في عَوَزٍ، «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ، وَهْوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ...» (متفق عليْه).

طلب العطية في «سأمتاح البحور»، و«ثقي بالله...» تلويحيّ؛ بينا طلب العطية في «أغثني...» تصريحٌ، والتصْرِيحُ بطلب العطية - فوق أنّ فيه ما لا يليق بالطَّالب هو - أيضًا - فيه ما لا يليق بالمَمدوح، فقد يفهم منه أنّه لا يجودُ إلّا إذا ألجأ الطالبَ إلىٰ التّصريح بالطلب.

ولك أن تقولَ - مسوغًا تصريحَه بالطَّلبِ -: إنَّ الشّاعرَ أراد أن يقولَ: إنّ التَّصريح بالطلب في شأن (عبد الملك) ممّا لا يُعابُ به المادح والممدوح؛ التَّصريحُ هنا إيماءٌ إلىٰ أن مثله لا يُعابُ أحدٌ بالتّصريح بالطلب منه، كما لا يعاب تصريح الولد بالطلب من أبيه، وما الخليفة منهم إلا بمنزل الأب من أبنائه.

وإذا ما كان في قوله: (أغثني) ما يومِئُ إلىٰ شدة حَوجه إلىٰ ما طلب، فإنّك قد تقولُ: أليس في هذا رائحة ذم، إذا غفَل الممدوح عن رعيته، فألجأهم إلىٰ الاستغاثة؟ قد يكون.

ولعلك تقولُ: هُو ما يطلب غوثًا من فقر ماليّ، إنّما هو غوث من حوجٍ إلىٰ أن يكون المكرم منه، فذلك هو إليه أحوج من المال، فالمال يمكن أن يكتسب من غيره إلا أن غوث التكريم من (عبد الملك) له ما لا يكون إلا منه، فليْست قيمة العطايا في ذاتها وقدرها، بل في من أعطاها، فالشّعراء يطلبون من مثله تشرفًا وافتخارًا، فكيف بعطايا الله - تَعَالَىٰ؟

قد تقول ذلك، لكن السياقَ لا يساعدك، ألا ترىٰ أنَّ قوله:

سأشــكرُ أنْ رددتَ عليَّ ريشــي　　　وَأثْبَــتَّ القَــوادِمَ في جَنَاحــي

دالٌّ علىٰ أنّه يستجده مالًا؟ وقوله: (سأشْكر إنْ رددت...) لا يليقَنَّ ظاهرُه بجرير، ولا بالخليفةِ؛ علَّق شكره لعبد الملك إن ردَّ عليْه ريشه. أليس الخليفة مستحقًّا للشكر؛ لأنّه الخليفة؟ أليسَ هو المقيم شرع الله - تَعالىٰ - في الأرض؟ أليسَ هو القائم علىٰ حماية الأمة ودينها وعرضها من أن يُعتدَىٰ عليْها؟

لذلك يشكر الخلفاء، لا لعطاياهم، وما باله يقول: (إن) أتراه غير واثق أنه الفاعلُ، وإن لم يطلبْ؟

ثم تبصّر قوله: «رددتَ عليَّ ريشي» أَبَلَغَ بجرير العَوَزُ ذلك المبلغ؟ وهو الذي مَلأ اسمه وشعره الأسماع؟ أوَ مثلُه يُترَكُ حتىٰ يَستجدي من يرُدّ عليْه ريشه، وتلك حالٌ هي السّوءىٰ؟ ظاهرُ قولِهِ هذا هو عندِي إلىٰ الهجاءِ أقرب.

ولا أدري لِمَ تركه (عبد الملك) وما نقده، وهو النّقادة في الخلفاء، أم تراه لما سمع قوله له:

أَلَسْـتُمْ خَيـرَ مَـن رَكِـبَ المَطَايـا　　　وأنــدىٰ العالميــنَ بطــونَ راحِ

غفر له ما كان قبل؟ وكذلك النبلاء؛ الحسنات عندهم تمحو السيئات.

الاستفهام في: (ألستم خيَر من ركِبَ المطايا..) دخلت «همزة» الإنكار علىٰ (ليس)، فأفاد اجتماعهما الإثبات «التقرير»، والتقرير هنا ليس تقريرًا لـ(عبد الملك)، وإنّما هو يقرِّر به مَن سمع، «إياكِ أعني، واسْمعي يا جارة».

وهو لا يُخبِرُ بأمرٍ مجهولٍ للسامعين، بل هُو يَصِفُ واقعًا مشهودًا، وإنّما يذكرُه، وهو مشهودٌ تلذذًا بذكره، فمُقتضىٰ المدح ألَّا يَكونَ المادِحُ مُخْبِرًا بَما يُثنِي به، بلْ هُو يشدُو به تلذّذًا، «إنما لذّةً ذكرناها».

وهذا الشَّطرُ مِن البيت إذا قدَّرت أنّ الهمزة داخلة علىٰ النّفي (لستم) كان البيت هجاء، فهو فريدًا - في غير سياق القصيدة - يمكنك أن تجعله من «ليت عينيه سواء» أي: من قبيل التوجيه، لكن السياق هنا هو الضابط حركة التلقّي.

وقوله: (أندَىٰ العالمين بطون راح) إنما يريد بالعالمين من كانوا في زمان (عبد الملك) لا من كان قبله، فسيدنا رسول الله - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلّم - هو الذي يقال له ذلك.



التدريبات

(أوّلًا): جاءتْ سورة « الشّعراء» حاويةً لصور عديدة من: (القصر، والتمني، وأسلوب الاستفهام) استقصِ هذه الصورِ؛ مبينًا عدد الأدوات التي استُعمِلَت، ومعنىٰ كلّ أداةٍ في سياقها، والصور التّركيبية التي جاء فيها (القصر، والتمني، والاستفهام)؛ محللًا طريق دلالة الأدوات علىٰ تلك المعاني السياقية.

(ثانيًا): استقرِئْ ما في قصيدة المتنبي «الدالية» في كافور التي قالها عند ارتحاله (عيد بأية حالٍ عدتَ يا عِيد) من أسلوب «القصر»، و«التمنّي»، و«الاستفهام» (الأدوات، والخواص التركيبية والدّلالية لكلٍّ، والمعاني التي تفيدها أدوات التمني والاستفهام في سياقِ القصيدة)؛ مع بيان مقتضيات طرق القصرِ، وأنواعه، وأثر ذلك في المعنىٰ الشعري للقصيدة.

ثالثًا: لتكتبنّ مقالًا في موضوع: (الظلم ظلمات يوم القيامة) من فقرتين لا يَقلُّ عدد كلمهما عن مئة وخمسين كلمة (١٥٠)، تشتمل علىٰ صور متنوعة من أسلوب (القصر، والتمني، والاستفهام)، ثم حَلِّل كل سورة، وما أفادته من المعاني.



[أسْلوبُ الأمْــرِ]

وَمِنْ أنْواعِ الإنْشاءِ «الأمْرُ»(١)

(١) تعريفُ أسْلوبُ الأمْرِ:

المدلول اللغوي: كلمة «أمر» في (لسان العرب) لها عدَّةُ معانٍ؛ منها: معنىٰ: « الحال» و«الشّأن»، قَال تَعَالَىٰ: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]، وروىٰ البخاري في «المناقب» من صحيحهِ بسنده، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ - رضىٰ الله عنها - أَنَّهَا قَالَتْ: مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ - صلىٰ الله عليه وسلم - بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ - صلىٰ الله عليه وسلم - لِنَفْسِهِ، إِلاَّ أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بِهَا.

ويأتي بمعنىٰ: «الطلب»، والفرق بينهما: أنه بمعنىٰ (الحال والشأن) يُجمَع علىٰ «أمور»، وبمعنىٰ (الطلب) يُجمَع علىٰ «أوامر».

وفي القرآن يأتي بمعانٍ عديدة؛ بحسب سياق استعماله، وهذا يُدْرَك من «علْمِ الوجوهِ والنظائر».

وتعريفه الاصطلاحي: «طَلَبُ فعلٍ غيرِ كفٍّ علَىٰ جهة الاستعلاء»، هذا التّعريف مكوّنٌ من أربعة أمور:

(الأول): أنه طلبٌ، وهذا ما جعله إنشاءً طلبيًّا.

و(الثَّانِي): أنَّ المطلوب فعلٌ، وكلمة: «فعل»، أيْ: حَدَثٌ، وهو يَشمل: الفعل اللسانيّ، أيْ: «القول»، وفعل القلب «الاعتقاد»، وفعل الجوارح «الْعمل» كالكتابة.

و(الثَّالث): أنّ هذا الفعل ليس كفًّا وامتناعًا، كما في النّهي، نحو: «لا تتكلّم».

إنْ قلتَ: قولنا: (اكفُف عن اللَّعب) طلب «كفٍّ»، وهو أمْرٌ. قلتُ: الكفُّ هنا مُفَادٌ من مادة الفعل: (كَ ف ف)، وليس من صيغته (افعل)، ونحن كلامنا في «مدلول الصيغة» (افْعَلْ)، لا مدلول المادة: (ك ف ف)، وفرق ما بيْن ما دلّ بصيغته، وما دلّ بمادَّته، ومثله: «امتنع عن العبث»، و« توقف عن الصراخ».

و(الرَّابع): أن يكون الطلب علىٰ حال الاستعلاء، أي: عدّ الطالِب (الآمر) نفسَه عليًّا علىٰ منْ يأمرُه؛ سواء كان عاليًا في الحقيقةِ، كأمرِ سيّدِنا رسولِ - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلّم — أمته، وأمر الوالد ولده، أو عاليًا في زعمِه - لا في الحقيقةِ - كأمر الشرطيّ المواطن بالتوقف عن السّيْرِ.

وَالأَظْهَرُ أنّ صيغَتَهُ - مِن المُقْتَرِنَةِ بـ«اللَّامِ»[١]، نَحْوَ: «لِيَحْضُرْ زَيْدٌ»، وَغَيْرُهَا[٢]، نَحْوُ:«أكْرِمْ عَمْرًا»، «وَرُوَيْدَ بَكرا» [٣] - مَوْضوعَةٌ لِطَلَبِ الْفِعلِ اسْتِعْلاءً؛ لِتَبادُرِ الذِّهْنِ عِنْدَ سَماعِها إلَىٰ ذَلِكَ، وَتَوَقُّفِ مَا سِواهُ عَلَىٰ القَرِينَةِ.

---

(١) الاستظهار في قوله: (الأظهر) لما وضعت له صيغة «الأمر»، وليس الاستظهار لصيغتِه، فصيغه قطعية العلم؛ لأنَّها موضوعةٌ، وإنّما هو يَستظهِر ما وُضِعتْ له، وقوله: «الأظهر» يهديك به إلىٰ أنَّ هنالك مِن العلماء مَن لا يقول بهذا الذي بَيّنَهُ ممَّا وُضِعتْ له صيغ الأمر.

(٢) قوله: «وغيرها» أي: غير صيغة: «لتفعلْ: لتعلمْ»، وهي: صيغة «افعل»، وهي متولدة من «لتفعل»، وأسماء الأفعال الدالة علىٰ طلب فعلٍ من نحو: (هلمّ: أقبل)، (عليْك: الزم)، (هات: أعطني)، (مه: اكفف)، (صَه: اسكتْ)، (إلَيْك: تنحّ)...، والمصدر النائب عن فعل الأمر، نحو: (إحسانًا لولديك)، ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨] أي: (فليتبع، وليؤدِ).

وعلىٰ هذا فأسلوب الأمر له أربع صيع: (لتفعل - افعلْ - اسم فعل الأمر - المصدر النائب عن فعل الأمر).

(٣) رُوَيْدًا: أمهلْ، علىٰ زنة: «أَفعل» (أكْرِمْ). وهو علىٰ أربعة أوْجهٍ: اسْم فِعْلٍ: رُوَيْدَ زَيْدًا: أمْهِلْهُ، وصِفَةً: سارُوا سَيْرًا رُوَيْدًا، وحالًا: سارَ القومُ رُوَيْدًا، ومَصْدرًا: رُوَيْدَ عَمْرٍو.

وإذا دخلته الكاف (رويدك خالدًا)، لا تكون إلا اسم فعل أمرٍ، أيْ: (أمهله)، وهو يلزم حالة واحدةً؛ فلا يثنىٰ ولا يجمعُ، ولا يؤنث: رويْد محمدًا، رويد الطلابَ، رويد هنْدًا.

قالَ السّكّاكِيُّ: وَلإطْبَاقِ أَئِمَّةِ اللُّغَةِ علَىٰ إضافَتِها إلَىٰ الأَمْرِ بِقَوْلِهِمْ: «صِيغَةُ الأَمْرِ، وَمِثالُ الأَمْرِ، وَلامُ الأَمْرِ»(١). وَفِيهِ نَظَرٌ لا يَخْفَىٰ علَىٰ المُتَأَمِّلِ(٢).

---

(١) من بعد أنْ بيَّن أنّ الظاهر أنّ صِيغةَ الأمْر موضوعة للدَّلالة علىٰ طلب فعل علىٰ جهة الاستعلاء بَيّنَ السّكاكيّ وجه هذا الاستظهار، فجعله لأمريْنِ:

الأوّل: تَبادُر الذِّهْنِ عِنْدَ سَماعِها إلَىٰ أنها لطلب فعلٍ علىٰ جهةِ الاستعلاء، وغير ذلك المعنىٰ يتوقَّفُ فهمُه عَلَىٰ القَرِينَةِ، والمتبادر هو الحقيقة، وما توقف فهمُه علىٰ القرينةِ مجازٌ. فالمعنىٰ الحقيقي لصيغ الأمر طلبُ الفعل غير الكف علىٰ جهةِ الاستعلاء، وما عدا ذلك من المعاني هو ليس معنًىٰ وضعيًّا؛ لحاجة فهمه مِن هذِه الصِّيغِ إلىٰ قرينةٍ.

والآخر: إطْبَاق أَئِمَّةِ اللُّغَةِ علَىٰ إضافَتِها إلَىٰ الأَمْرِ بِقَوْلِهِمْ: «صِيغَةُ الأَمْرِ، وَمِثالُ الأَمْرِ، وَلامِ الأَمْرِ»، أي: دون أن يقولوا صيغة التهديد، أو لام الإباحة، ونحو ذلك، فالإضافة إنّما تكون للمعنىٰ الحقيقيّ، فلما أضافوا «الصيغة» و«اللام» لكلمة «الأمر» دلّ هذا علىٰ أنّها موضوعة له.

(٢) النَّظر مناطُه أنَّ أئمة اللغة لا يستعملون كلمة «الأمر» بهذا المفهوم، بل هو مصطلح مقابلٌ لمصطلح «الماضي»، و«المضارع» في تقسيم الفعل بحسب زمانه، فقولهم: «صيغة الأمر» أيْ: صيغة الفعل المقابل للماضي، والمضارع، وإن لم يكنْ الطلب الّذي فيه علىٰ جهة الاستعلاء، فكلّ طلب فعلٍ هو «فعل أمر» أيًّا كان حالُ الآمر.

[استعمالُ صيغةِ الأمر في غير ما وُضِعَتْ له]

ثُمَّ إنّها - أَعْنِي: «صِيغَةَ الأمْرِ» - قَدْ تُسْتَعْمَلُ فِي غَيرِ طَلَبِ الفِعْلِ، بِحَسَبِ مُناسَبَةِ المَقامِ[1]، كـ«الإِباحَةِ»، كَقَوْلِكَ فِي مَقامِ الإِذْنِ: «جالِسِ الحَسَنَ أَوْ ابْنَ سِيرِينَ»[2].

وَمِنْ أَحْسَنِ ما جاءَ فِيهِ قَوْلُ كُثَيِّر:

أَسِيئِي بِنَا أَو أحْسِنِي لَا مَلُومَةً ... لديْنا وَلَا مَقْلِيَّةً إنْ تَقَلَّتِ[3]

(١) استعمال صيغة «الأمر» في غير المعنىٰ الموضوع له لا بدَّ أن يكونَ بين المعنيين مناسبة، ولو بالغةَ اللَّطفِ والخفاءِ، وكلَّما كانت العَلاقة خفية كان تأمّل المعنىٰ المستعمل فيه الصّيغة أطرفَ وأمتعَ.

والمعنىٰ المستعمل فيه صيغة الأمر (المنتقل إليه) قد يكون فيه معنىٰ الطلب، وقد لا يكون فيه، وقد يكون فيه المعنىٰ خبريًّا، وقد يكون إفصَاحيًّا، أي: يفصِح عن معنىٰ نفسيّ.

اسْتعمال صيغة الأمر في غير المعنىٰ الوضعيّ هو استعمال غير حقيقيّ؛ من العلماء من قال: إنه من قبيل المجاز، ومنهم من قال: إنه من قبيل الكناية، ومنهم من قال: إنّه من قبيل «مسْتتبعات التراكيب»، علىٰ نحو ما مضىٰ في استعمال «الاستفهام» في غير ما وضعَ له حقيقةً.

(٢) الإباحةُ: الإذن بفعل شيْءٍ يظنّ أنّه غيرُ مأذون فيه؛ ولا سيما إذا ما كان ذلك الفعل قد حُظر قبلُ. روىٰ الشّيخان في صحيحيهما بسنديهما عَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلىٰ الله عليه وسلم: «نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا، وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ لُحُومِ الأَضَاحِيِّ فَوْقَ ثَلاَثٍ فَأَمْسِكُوا مَا بَدَا لَكُمْ، وَنَهَيْتُكُمْ عَنِ النَّبِيذِ إِلَّا فِىٰ سِقَاءٍ فَاشْرَبُوا فِىٰ الأَسْقِيَةِ كُلِّهَا، وَلَا تَشْرَبُوا مُسْكِرًا». قوله: (فَزُورُوهَا)، (فَأَمْسِكُوا)، (فَاشْرَبُوا) أوامر للإباحةِ، وليستْ للوجوب، ولا للنّدب، بقرينة الحَظر الّذي كان قبلُ.

(٣) البيت من قصيدة مطلعها:

خليليَّ هذا ربعُ عَزَّة فاعقلا ... قلوصيكُما ثمّ ابكيا حيثُ حلَّتِ

منها قوله:

خليليَّ إنَّ الحاجبيّة طلَّحتْ ... قلوصيكُما وناقتي قد أكلَّتِ

أيْ: لَا أَنْتِ مَلُومَةٌ، وَلا مَقْلِيّةٌ.

وَوَجْهُ حُسْنِهِ: إظْهَارُ الرِّضا بِوُقُوعِ الدَّاخِلِ تَحْتَ لَفْظِ الأَمْرِ، حَتَّىٰ كَأَنَّهُ مَطْلُوبٌ، أَيْ: مَهْمَا اخْتَرْتِ فِي حَقِّي مِن الإِساءَةِ وَالإِحْسانِ، فَأنَا راضٍ بِه غايَةَ الرِّضا، فَعامِلينِي بِهِما، وَانْظُرِي: هَلْ تَتَفاوَتُ حالِي مَعَكِ فِي الْحالَيْنِ؟[1]

وَ«التَّهْدِيد»، كَقَوْلِكَ لِعَبْدٍ شَتَمَ مَوْلَاهُ، وَقَدْ أَدَّبَهُ: «اشْتُمْ مَوْلاكَ»

فَلايَبْعُدَنْ وَصلٌ لِعَزَّة أَصْبَحَتْ	بعاقبةٍ أسبابهُ قد تولَّتِ
أَسِيئي بِنا أَو أَحْسِني لا مَلُومَةً	لدينا ولا مَقْلِيّةً إنْ تَقَلَّتِ

يقُول الزمخشري (٥٣٨هـ) في «الكشّاف»: «فإن قلتَ: لِمَ فعل ذلك؟ قلت: لنكتة فيه، وهي أنّ كثيرًا كأنَّه يقول لعَزة: امتحنِىٰ لطف محلّك عندي، وقوّة محبتي لك، وعاملينىٰ بالإساءة والإحسان، وانظري: هل تتفاوت حالي معك، مسيئة كنت أو محسنة»؟

ويقُول البغدادي في الخزانة: «والنكتة فِي مثل ذَلِك إِظْهَار نفي تفَاوت الْحَال بتفاوت فعل الْمُخَاطب، كَأَنَّهُ يأمرها بذلك لتحقيق أَنه علىٰ الْعَهْد، ومقلية بِمَعْنىٰ مبغضة من القلي، وَهُوَ البغض».

(١) قد يكون قوله: (أسيئي بنا... البيت) أقرب إلىٰ «التّسوية» منه إلىٰ الإباحة؛ فهو لا يُبيح لها أن تفعل؛ لأنّه لا سلطان له عليْها يمنع ويبيح، بل هو يعرب لها عنْ أنَّ الّذي يعنيه ليس نوع ما تفعل معه، بل الذي يعنيه أن تفعل معه ما تشاء، فتلذّذه بأن تكون هي الفاعلة، فإساءة منها أحبّ إليْه من الإحسان من غيرها، فهي مطلوبة لذاتها لا لفعلها، وهذا أليق به التسوية.

وكذلك قوله: «جالس الحسن أو ابن سيرين» هو إلىٰ «التّسوية» أقرب، ولا تقولنّ هذا من التخيير، يخيره أن يجالس واحدًا منهما، ففي القول بالتخيير إيماءٌ إلىٰ أن هنالك حظرًا من مجالستهما معًا؛ لذا قلت: «التّسوية» هنا أقرب.

ومِن أهل العلم مَن ذهب إلىٰ أنّ الأمر في: «جالس الحسن أو ابن سيرين» علىٰ نهج: «اقرأ البخاريّ، أو مسلم» هو للنّدب، أي: يحثه في رفق غير ملزم علىٰ أن يفعل، فإن قرأهما معًا فلا حرج.

وهذا يبيِّنُ لك أنّ الصيغَةَ تحتمل أكثر من وجه، وسياقُ الخطاب بها يعين علىٰ تحرير المعنىٰ والمغزَىٰ، وهذا من اتِّساعِ معنىٰ النّظْمِ وثرائه.

وَعَلَيْهِ: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾[فصلت: ٤٠][1].

---

(١) سياقُ الْجملةِ: قولُه تعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]

قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ لا يُراد منه الإباحة بفعل ما شاؤوا من خيرٍ وغيره، لا يكون. السّياقُ خطابٌ للذين يلحدون في آيات الله - تعالىٰ -فكيف يباح لهم أن يفعلوا ما شاؤوا؟ إنْ هو إلّا تهديُد لهم، والمعنىٰ: اعملوا ما شئتم، فسوف ترون من العذاب ما لا يخطر علىٰ قلوبكم.

وكثيرًا ما يقول الوالدان لولدِهما المناكِدهما: «افْعَلْ ما يُرِيحُك، وسَتَرَىٰ»، فيدْرِك الوليدُ أنّه يُهدَّد بما لا يَتصورُ من العقابِ.

السياقُ - كما ترَىٰ - هو أداةُ هِدَايَتِك إلىٰ مرادِ مَن يُخاطبك، فلا تغفلنَّ عن السياقِ، وإلّا ضلَلْتَ، وأَضْلَلْتَ.

وفي الذكر الحكيم قولُه تَعالَىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ٢٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴾ [الكهف: ٢٩ - ٣١]، قوله تَعالَىٰ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ ليس الأمر للتخيير أو التسوية أو الإباحة، الأمر تهديدٌ ووعيدٌ لمن كفر، والسياق ناطق بذلك: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا...﴾، فلو كانت الصيغةُ للإباحة أو التسوية أو للتخيير، لما جعل لمن كفر عذابًا، ولمن آمن ثوابًا.

ومن ثَمَّ يتبيَّنُ لك إضلالُ العلمانيين للعامة، ودعواهم أن الله - تَعالَىٰ - خيَّر العباد، وأباح لهم أن يكفروا أو يؤمنوا، هذا إضلالٌ لمن عَمِه قلبُه.

ومنه قول الله تَعالَىٰ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٤ - ٦٦]، وقوله تَعالَىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٥٣ - ٥٥]، قوله: (ليكفروا) ليس طلبًا منهم أن يفعلوا، أو إذن لهم، كلًّا، إنّما هو تهديدٌ بالغٌ، وقوله: (تمتّعوا) كذلك. وقوله تَعالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٣

و«التَّعْجِيزِ»(١): كَقَولِكَ لِمَن يَدَّعِي أمْرًا تَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي وُسْعِهِ: «افْعَلْهُ»، وَعَلَيْهِ: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣](٢).

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٣ – ٣٤]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

وكل فعلٍ أنت تبغضه، فتأمر به، فإنما أمرك به تهديدٌ لمن تأمره.

(١) «التَّعجيزُ»: إظهارُ عجز المخاطبِ؛ كيما يَرْتَدِعَ، ويَفِيءَ إلَىٰ الصَّواب.

(٢) سياق الجملةِ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣ – ٢٤]، بهذا التَّحدّي يُبرزُ للعالَمين عجزَهم عَن يَأتُوا بسورةٍ مِنْ مثلِه بلاغةً، و«منْ» في قوله:(مِنْ مِثْلِهِ) بيانية، وليست تبعيضية، وهذا لا طاقة لهُم به، فظهرَ لَهُم وللنَّاسِ أجمعين عجزُهم.

ومنه قوله تَعالىٰ: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣]، وقوله تعالَىٰ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

ومن هذا السبيل قول الأعرابي للفضل البرمكي:

إِذَا مَلَكَتْ كَفِّي مَنالًا، وَلَمْ أُنِلْ ... فَلا انْبَسَطَتْ كَفِّي، وَلَا نَهَضَتْ رِجْلِي

عَلَىٰ اللهِ إِخْلافُ الّذِي قَدْ بَذَلْتُهُ ... فَلاَ مُبْقٍ لِي بُخْلِي وَلَا مُتْلِفِي بَذْلِي

أَرُونِي بَخِيلًا نَالَ مَجْدًا بِبُخْلِهِ ... وَهاتُوا كَرِيمًا مَاتَ مِنْ كَثْرَةِ البَذْلِ

تفيض الأبياتُ حكمَةً، كما تفيضُ اقتدارًا علىٰ اسْتلالِ العطايا من أيدي القابضين عليْها، وفي قوله: (أروني) تحدٍّ فَتِيّ، يستلّ من الخزائن المصفدة ما يريد، مثل هذا الشعر مفاتيح خزائن، وهي بالنسبة لاستجداء العباد أشبه بصلاة الاستسقاء من الصالحين لربهم الكريم، فرقٌ بين الحالَيْن مثوبةً خالدةً، فافهم.

ومن هذا قول الشاعر ابن الرومي:

أرِنِي صديقًا لا ينوء بسقطة ... من عيبه في قدر صدر نهار

أرنِي الذي عاشرتَهُ فوجدتهُ ... متغاضيًا لك عن أقل عثار

هو لا يطلب منك أن تريه، وإنما يصور لك أنّ هذا الذي يطلبه إنما هو أمر عسرٌ، بل معجزٌ، لا سبيل

وَ«التَّسْخِيرِ»[1]: نَحْو: ﴿ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ [البقرة:٦٥][2].

إلىٰ تحقيقه؛ مما جعله يفر إلىٰ الاعتزال:

ذقتُ الطعوم فما التذذت براحةٍ ... من صحبة الأشرار والأخيارِ

أما الصديق فلا أُحب لقاءهُ ... حذرَ القِلىٰ وكراهة الإعوار

وأرىٰ العدوّ قذىٰ فأكره قربهُ ... فهجرت هذا الخلق عن إعذار

وليس «التعجيزُ» الذي في بَيْتَي ابن الرومي كمثل الذي في آية سورة «البقرة»؛ في بيتي ابن الرُّوميّ التَّعجيزُ احتماليٌّ، يُمكِن أن يَنْقَضَّ، بلْ هو المنقوض في زمن الصحابة – رضِيَ اللهُ عنهم – أمّا الذي في آية البقرة فهو أبديٌّ محكمٌ محيطٌ.

(١) «التسْخيرُ»: نقلُ الشيْءِ إلىٰ شيْءٍ آخر نقلاً فيه إهانةٌ. والصّيغة هنا مقصُود بها حدوث الفعل الذي هو التحول إلىٰ حال منبوذ مسْتحقر، ومن هذا أن يقولَ الرئيسُ لنائبِهِ: «كنْ حاجِبَ بَلاطِي»، ينقُلُه ممّا كان فيه إلىٰ حالٍ وضِيعٍ.

وقد يكون التسخير الإلهي لا إهانة فيه، كما في قوله – تَعَالَىٰ – للأرض: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤].

(٢) سِياقُ الجملةِ قَولُه تعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ [البقرة: ٦٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ [الأعراف: ١٦٥ – ١٦٦]، قوله: ﴿ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ فيه أَمْرٌ بالتحول من حالِ الإنسانية إلىٰ حال القردة، فقوله: ﴿ كُونُوا۟ ﴾ ليس معناه أنهم هم سيكونون بأنفسِهم، فذلك ليس لهم، وإنَّما هو له – جلَّ جلاله – سيحيلهم قردةً بقوله: ﴿ كُونُوا۟ ﴾، ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

وهذا المعنىٰ الذي في آية سورة (يس)، ونحوها يقيم في فؤاد السامع معنىٰ تعظيم قدرة الله – تعالىٰ – وسلطانه ووحدانيته، فإذا كنت أنت له، وبه كان لك ما تريد بأمرٍ منه – سبحانَهُ.

و«الإهانَةِ»:[1] نَحْو: ﴿ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴾[الإسراء:٥٠][2]. وقوله تعالىٰ: ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾[الدخان:٤٩][3].

و«التَّسْوِيَةِ»[4]: ﴿ قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ ﴾

---

(١) الإهانة: قلّة المبالاة بالمأمور، ولا يرادُ فعل ما أمر به.

والفرقُ بيْن «التسخير» و«الإهانة» أن في كلٍّ تحقيرًا؛ إلّا أن في التَّسخير يكون ما كان به الأمرُ، والإهانة لا يُراد أن يكون ما أَمر به. إنْ هو إلا إعرابٌ عن قلة المبالاة بالمأمور.

(٢) سِياقُ الجملة قولُه تعالىٰ: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ۝٤٩ ۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٤٩ – ٥٢]، قوله تعالَىٰ: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡ﴾ لا يراد أن يكونوا كذلك، فإنهم لا يستطيعون، وإنما يراد إهانتهم، وبيان قدرة الله – تعالىٰ – علىٰ بعثهم أيًّا كانوا، فليس ثَمَّ ما هو علىٰ الله عَصِيٌّ أن يبعثَه، كما يريدُ – جَلَّ جَلَالُه.

ويذهب الطاهر ابن عاشور في تفسيره إلىٰ أن الأمر في: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ...﴾ للتسوية، أيْ: أيّ ذلك كنتم فإنكم مبعوثون. وهو وجهٌ وجيهٌ.

(٣) سِياقُ الجملةِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ۝٤٦ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٣ – ٥٠]، قوله تعالىٰ: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ لا يراد منه أن يحدثَ هذا الذوق؛ لأنه قائم فيه – كما يفهمك سياق الآيات – إنما يراد به إهانته؛ لذا قيلَ له: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾، أي: كما زعمت في الدنيا أنك كذلك، فأين عزتك وكرامتك؟ وكلُّ من استمدّ في الدُّنيا عزَّتَه وكرامتَه من غير الله – جَلَّ جَلَالُه – فهو لا محالة إلىٰ هوانٍ.

(٤) التسويةُ: إعلامٌ بانتفاء الفرق بين الفعل وتركه، فإن كان ذلكَ في أمر حسن، ففيه معنىٰ «الإباحة»، وإن كان في غيره، ففيه معانٍ متنوعةٌ بحسب السياق، منها التيئيس، كأن تقولَ لمن أخطأ في حقك: «اعتذر أوْ لا تعتذر، لن أسامحك»، وقد سبق أن ذكرتُ أنّ قول الشاعر: (أسِيئي بنا أو أحسني ...) هو عندي من قبيل «التسوية»، وليس من قبيلِ «الإباحة»، كما ذكر.

[التوبة: ٥٣] [١].

وقوله: ﴿ فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ ﴾ [الطور: ١٦] [٢].

و«التَّمَنّي»: كَقَوْلِ امْرِئ الْقَيْسِ:

(١) سياق الجملة: ﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٥٣ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ۝٥٤ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٥٣ – ٥٥].

(٢) سياقُ الجملة: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: ٧ – ١٦].

ليس قوله: ﴿ ٱصْبِرُواْ ﴾ مرادًا به ما يراد بقوله: ﴿ ٱصْبِرُواْ ﴾ في قول الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، في آية (آل عمران) أمرٌ أُريد إنجازه وتحقيقه، فالصيغة: (افعلوا) مرادٌ بها معناها الموضوعة له، وفي آية (الطور) مراد بها استواء الفعل وتركه في انتفاء الفائدة منه، ففعله حينذاك عبثٌ.

ومنه قولُهُ تعالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٩ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٧٩ – ٨٠]، المعنَىٰ – كما يَقُولُ الزّمخشريّ –: «استغفِرْ لهم أو لا تستغفِرْ لهم، وانظر: هل ترَىٰ اختلافًا بيْن حال الاستغفار وتركه؟»

وفي هذا تيئيس للمنافقين وإقناطٌ، وفيه تصوير لفداحة هذا الأمر (النفاق)، فهو والكفر والشرك سواء، لا يجدي معه شيءٌ؛ أيًّا كان فاعلُ ذلك الشيْء، وفي هذا إعلام لنا أن علينا أن نهيئ أنفسنا أن نكون أهلًا لأن يستجاب لدعائنا لأنفسنا، أو لدعاء الصالحين لنا. الغيث لا يُجدي مع أرض صلداء صماء، فالمُعَابَةُ في الأرض (المدْعو له)، لا في الغيث (الدّاعِي)، وقد أرشد إلىٰ هذا سيدنا رسُول الله – صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلهِ وَصحبِه وسَلّم – بقولِه: (أعِنّي بكثرَة السّجودِ).

(أَلا أَيُّها اللّيْلُ الطّويلُ ألا انْجَلِي)[1]

و«الدّعَاء»:[2] إذَا اسْتُعْمِلَتْ فِي طَلَبِ الفِعْلِ علَىٰ سَبِيلِ التَّضَرُّعِ، نَحْو: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ [نوح:٢٨][3].

و«الالْتِماس»: إذَا اسْتُعْمِلَتْ فِيهِ علَىٰ سَبِيلِ التَّلَطُّفِ، كَقَوْلِكَ لِمَنْ يُساوِيكَ فِي الرُّتْبَةِ: «أَفْعَلْ» دُون «الاسْتِعلاءِ»[4].

---

(١) شطر بيت من معلقته يقول واصِفًا ليله الأليل:

ولَيلٍ كَمَوجِ البَحْرِ أَرْخَىٰ سُدولَهُ	عَليّ بأَنْواعِ الهُمُومِ ليبَتَلي
فَقُلْتُ لَهُ لمّا تَمَطَّىٰ بِصلبهِ	وَأَرْدَفَ أَعْجازًا ونَاءَ بكَلْكَلِ
أَلا أَيُّها اللّيْلُ الطّويلُ ألا انْجَلِي	بِصُبْحٍ، وما الإصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ
فَيا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ	بِكُلِّ مُغَارِ الفَتْلِ شُدّتْ بِيَذْبُلِ
كأنّ الثُّرَيّا عُلّقَتْ في مَصابِها	بأمراسِ كَتّانٍ إلىٰ صُمّ جَنْدَلِ

«الانجلاء»: الانكشاف التام، الّذي لا تَبْقَىٰ فيه أثارةٌ مِنْ ظُلمةٍ، وأمرُهُ الليل بالانجلاء يريدُ تمنّي أن يكون ذلك الأمر المحبوب العسير، وفي ذلك تصويرٌ لما يلقاه من صعابٍ في رحلتِه إلىٰ مغزاه النبيل؛ استعادة ملك أبيه.

(٢) لما كان «الأمر» في حقيقته التي وُضِعَ لها عند البلاغيين (طلب فعل غير كفٍّ علىٰ جهةِ الاستعلاء)، كانَ إذا ورَدَتْ صيغتُهُ ممن هو أدنىٰ لمن هو أعلىٰ، أو يُعتَقد أنه الأعلىٰ، فضرورة ألا يكون المراد به حقيقته، بل التضرع والخضوع والقنوت، وهذا في الإسلام لا يكون إلا لله ربّ العالمين.

(٣) سياق الجملة قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح: ٢٦ – ٢٨]، قوله: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ طلبٌ من العبد لخالقه أن يفعل له ما ذكر، وما وقع عليه فعل الغفر والستر مطوي للعموم، لم يقل: (اغفر لي كذا)، بل قال: ﴿ٱغْفِرْ لِى﴾، أيّ: كلّ ما وقع منيّ لا يرضيك. و«الغَفْرُ» فَوْقَه «العَفْوُ».

(٤) صيغة (الاستفعال: الاستعلاء) تهدي إلىٰ أنه يطلب ذلك، فقد لا يكون في الحقيقة عاليًا، وإنما

و«الاحْتِقار»:[1] نَحْوُ: ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ [يونس:٨٠][2].

• • •

يعد نفسه عاليًا علىٰ غيره كذلك.

ويُفاد «الاستعلاء»، أو» التلطف» من طريقة أداء العبارة؛ ففي الأداء معانٍ نفسيةٍ قد تعجِزُ الكلم ونظمُها عن الإعرابِ عنها؛ بينا طريقة الأداء، بل هيئة المؤدّي – هي الأقدرُ علىٰ ذلك.

«الجرسُ» و»الصورة» من عوامل الإبانة عما دقّ ولطف؛ ولذا هدىٰ سيدنا رسولُ الله – صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلّم – إلىٰ أن نزين القرآن بأصواتنا (أدائنا)، روىٰ أبو داود في كتاب «الوتر» من سننه بسنده عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْه – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّىٰ اللهُ عليه وسلّم: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ».

(١) «الاحتقار»: عدّ الشَّيْءِ صغيرًا ذليلا، والتَّحْقِيرُ: التّصغيرُ. والمُحَقَّراتُ: الصغائر، وفي الاحتقار استهانةٌ.

(٢) سِياقُ الجملة قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ٧٩ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ٨٠ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ٨١ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٧٩ – ٨٢].

قوله: ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ يفيض احتقارًا لما زعموه سبيلًا إلىٰ كسره، وإذلاله، وإزهاق دعواه، فأظهر لهم كمال الثّقة فيما أرسل به، وكمال يقينه أن الذي هُم به واثقون إنّما هو جدٌّ حقير.

وممَّا هو جديرٌ بأن تكونَ علىٰ ذكر منه أنّ المعاني السِّياقيّة الّتي تُستعمل فيها صِيغة الأمرِ جدُّ كثيرة؛ ولا سيما في بيان الوحي، فلا يستطيعُ واحدٌ أن يحصيها؛ لأنّها تتولد من الصيغة والنّظم والسّياقِ ومغزَىٰ الكلام، وما كان كذلك لا سبيلَ إلىٰ استقرائه وحصرِه. فما قاله البلاغيون، وما قاله اللغويون، وعلماء أصول الفقه في أسفارهم إنّما هو قليلٌ جدًّا ممّا يُفاد من صيغةِ الأمر في السّياقات المتعدّدة والمتنوعة.

[إنفاذ الأمرِ بيْن الفوريةِ والتراخِي]

ثُمَّ الأمْرُ - قَال السَّكَاكِيُّ: «حَقُّهُ الْفَوْرُ؛ لأَنَّهُ الظَّاهِرُ مِن الطَّلَبِ، وَلِتَبادُرِ الْفَهْمِ عِنْدَ الأَمْرِ بِشَيْءٍ بَعْدَ الأَمْرِ بِخِلافِهِ إِلَىٰ تَغْيِيرِ الأَمْرِ الأَوَّلِ؛ دُونَ الْجَمْعِ وَإِرَادَةِ التَّراخِي».

وَالْحَقُّ خِلافُهُ؛ لِما تَبَيَّنَ فِي أُصُولِ الفِقْه(1).

---

(1) لما كان «الأمر» (طلب فعلٍ) نظرَ أهل العلم: أهذا يستوجب فورية التنفيذ والإنجاز، أم أن في الأمر سَعة، الأهم أن يتحققَ الإنجاز؟

تنوعت آراءُ أهل العلم؛ منهم من رآه علىٰ الفوريَّةِ إلا إذا كان في الكلام قرينَةٌ تهدي إلىٰ الإذن بالتراخي؛ ذلك أنّه لما كان طلبًا علىٰ سبيل الاستعلاء، كما هو حقيقة ما وضع له أسلوبُ الأمر، فاقتضىٰ الاستعلاء الوجوب، واقتضىٰ الفورية، فالقول بوجوب الإنجاز اقتضاه شرط الاستعلاء، كذلك الفورية اقتضاها.

أمّا الدّيمومة، فمرجعها إلىٰ المأمور به؛ فمما يؤمر به ما لا يجوز إلّا أن يكون علىٰ الاستدامة.

ومن أهل العلم من رآه علىٰ التَّراخي، إلا إذا كان في الكلام أوْ سياقِه قرينةٌ هادية إلىٰ أنّه علىٰ الفور، ألا ترىٰ أن المؤذّن يقول: «حيَّ علىٰ الصلاة»، ولم يقل أحد من الفقهاء - فيما أعلم - بوجوب الصّلاة عقب الأذان مباشرة، وإلّا لما كان لكّل وقت من أوقات الفريضة مبتدأُ زمانِ أداءٍ، ومُنتهىٰ.

والذي أذهبُ إليه أن الأمر مرجعُه إلىٰ حقيقة المأمور به، فإن ممّا يؤمر به لا يجوز إنجازه علىٰ التّراخي؛ ألا ترىٰ إلىٰ قوله تعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] أيقال: إن إنجاز الأمر في قوله جَلّ جلاله: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ علىٰ التراخي؟ لا يكون.

ألا ترىٰ إلىٰ ما رواه البخاري في كتاب «التفسير» من صَحيحِهِ بسنده عَنْ أَبِيٰ سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّىٰ - رَضِيَ الله عنه - قَالَ:» كُنْتُ أُصَلِّي فِيٰ الْمَسْجِدِ، فَدَعَانِيٰ رَسُولُ اللهِ - صلىٰ الله عليه وسلم - فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّيٰ، فَقَالَ: «أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ثُمَّ قَالَ لِيٰ: لأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِيٰ الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ»، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِيٰ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ: «لأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِيٰ الْقُرْآنِ»؟ قَالَ: «﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِيٰ أُوتِيتُهُ». =

جُمُعَةُ الْقَوْلِ وَزُبْدَتُهُ فِي الأَمْر

١) اختلفَ أهلُ العلم في ما وضعتْ له صيغة الأمر:

- جمهورهم علىٰ أنّه: طلبُ إيجاد أمر غير حاصلٍ عند الطلبِ، وهذا بيان عام.

- ومنهم من زاد شرط «الاستعلاء»؛ طلبُ مسْتعلٍ ممّن هو دونه - حقيقةً أو اعتقادًا - إيجاد ما لم يوجد.

- ومنهم من زاد شرط الوجوب.

- ومنهم من زاد شرط الفورية، فقيل: الأمر: طلب مستعلٍ ممّن هو دونه إيجاد فعلٍ غير موجود، علىٰ سبيل الوجب والفور. وهذا يضيق ما هو داخلٌ في حقيقةِ «الأمر».

المهِمُّ أنَّ عمودَ أمرِهِ: طلبُ إيجاد فعل ليس بموجودٍ وقت الطلب. هذا ما هو حاضر في كل تعريفات الأمر.

٢) أسلوبُ الأمرِ من أكثر الأساليبِ الإنشائية حضورًا في بيان الوحي قُرآنًا وسنةً، وأكثر ما يكون مرادًا به معناه الوضعي.

= فمن الأوامر ما يجب إنجازه فورًا، ومنها ما يصح إنجازه علىٰ التراخي بحسبه. وهذه القضية هي قضيةٌ عُنِي بها علماء أصول الفقه، واشتجرت آراؤهم.

٣) أكثر ما يكون أسلوب «الأمر» في البياني الإبداعي البشري - شِعرًا ونثرًا أدبيًّا - يُفاد به غيرَ معناه الوضعيّ؛ فهو فيها أقرب إلىٰ تصوير المعاني النفسية المعتلجة في صدر الأديب.

٤) للأمر صيغ أربع:

صيغة المضارع المقترنة به لام مكسورة، تجزم الفعل المضارع، ومنها صيغة (افعل)، هي مأخوذة من الصيغة السابقه، ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤]، ثُم اسم فعل الأمر، وهو سماعي لا قِياسيّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، ثُمّ المصدر النائبُ عن فعل الأمر.

٥) صيغ الأمر قد يُفاد بها - بحسَب نظم الكلام والسياق - معانٍ عدة، بل قد يُفاد به أكثر من معنىٰ في جملة واحدةٍ في سياقٍ واحد، وهي معان لا تتعاند، يقول البدر الزركشي في (البحر المحيط في أصول الفقه): «وَتَرِدُ صِيغَةُ: (افْعَلْ) لِنَيِّفٍ وَثَلَاثِينَ مَعْنًىٰ».

٥) المعاني المفادة سياقيًّا من صيغة الأمر، من أهل العلم من عدَّها: «مجازًا مرسلا»، ومنهم من عدها من قبيل: «الاستعارة»، ومنهم من عدها: «كناية»، ومنهم من عدها من: «مستتبعات التراكب».

٦) الأمر لا يلزم منه في كلّ صورة أو سياق إنجاز المطلوب علىٰ الفور؛ منه ما هو علىٰ الفور إن تحققت عوامل الإنجاز الفوري عند المأمور، ومنه ما هو يؤذن بإنجازه علىٰ التراخِي، والأمر مرجعه إلىٰ نوع المأمور به، وإلىٰ مقامِ الآمر.

٧) أسْلوبُ الأمْر غيرُ منحصرٍ في الصيغ الأربع المعلومة، بل قد يأتي بطريق الخبر، وقد يأتي بطريقِ الثّناء علىٰ فعلٍ أو فاعلٍ، وهو في القرآن كثير، بل هو أكثر من الأمر الذي جاء بإحدىٰ الصيغِ الأربع، وفي هذا مجالٌ وسيعٌ خصيبٌ للتدبر البلاغيّ في الأساليب، واسْتنباطِ المعاني الإحسانية.

• • •



[أسْلُوبُ النّهـي]

وَمْنْهَا: «النَّهْيُ»[١]

وَلَهُ حَرْفٌ واحِدٌ، وَهُوَ «لا» الجازِمَة فِي قَوْلِك: «لَا تَفْعَلْ»، وَهُوَ كَالأَمر في الاستعلاء.[٢]

وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ فِي غَيْر طَلَبِ الْكَفِّ أوْ التَّرْكْ[٣]، كالتَّهديدِ، كَقولِكَ لِعبْدٍ لا يَمتَثِلُ أمْرَك: «لا تَمتثِلْ أمْرِي»[٤].

---

(١) أهلُ العِلم أنَّ «النَّهي» كـ«الأمر» في حقيقة معناه، إلاَّ أنَّ «الأمر» طلبُ إيجاد فعل غير كف، و«النّهي»: «طلبُ الكفِّ عَن فعل بصيغةٍ علَىٰ سبيل الاستعلاء».

والكفُّ هنا يشمل الكف عن فعل لم يوجد، كقولك للمسلمْ: «لا تكفر»، وترك فعل قائم، كقولك لمن يَحتسِي خمرًا: (لا تشربْ الخَمْر).

و«النهي» متعلق بمعنىٰ «الصيغة»: «لا تفعلْ»، لا بمعنىٰ مادة الفعل، فقولك: «كفّ عن اللّهو» إنّما هو أمرٌ باعتبارِ الصّيغة، وإن كان نهيًا باعتبار المادة: (ك ف ف).

(٢) قال: (وله حرفٌ واحدٌ)؛ دون قوله: (وله صيغةٌ واحدةٌ)؛ لأن بعض أهل العلم كابن جني (ت:٣٩٢ هـ) في كتابه «الخَصائص» ذهب إلىٰ أنّ له صيغةً أخرىٰ هي صيغة: «اسْم فعل النّهي»، كما في (مَه)، فهم يؤولونها بمعنىٰ: (لا تفعلْ).

والأعلىٰ عندي أنّ له صيغةً واحدةً هي صيغة الفعل المضارع الدّاخل عليه (لا) النّاهية، أمَّا نحو: (مَهْ) فهو مؤول بمعنىٰ: (كُف)، كما قلنا في (صَه) معناه: (اسكت)، وليس (لا تتكلم)، وتقليل الأقسام أضبط.

(٣) قوله: (قد يستعمل) لا تفيد هنا (قد) التقليل، بل (التّوكيد)، وَاستعمالُ صيغتِهِ في غير معناه الوضعي كثيرٌ؛ ولا سيّما في الشّعر. ويُقال فيه ما قيل في (الأمر)، وفي طريق إفادته أهو مجاز أم كناية أم مستتبعات تراكيب.

(٤) المعاني السياقية التي تُفاد من صيغته في سياقاتها غيرُ قليلةٍ، علىٰ نحو ما تراه من استعمالها في «الدّعاء» في بيان الوحي قرآنًا وسنّة، ودونك الآيتين الأخيرتين من سورة «البقرة»: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا

وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ومِن ذلك إفادتُه التّثبيتُ والدّيمومة علىٰ الكفّ عما هو مكفوفٌ عنه، كقولك للمسلْم: «لا تكفر»، ومِن هذا قول الله – تَعالَىٰ – لسيّدنا رسول الله – صَلّىٰ اللهُ عَلَيْه، وعلَىٰ آلِه وصَحبِه وسَلّم: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٢ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ [الأحزاب: ١ – ٣].

الأوامر والنّواهي في هذه الآيات أريد به الثبات، والدّيمومة، والملازمة علىٰ الحال الّتي هو عليها؛ ذلك أنّه – صلّىٰ الله عليه وسلم – قائمٌ علىٰ مقتضىٰ هذه الأوامر والنّواهي، وإذا ما كان هذا في شأنِه – صَلّىٰ اللهُ عَلَيْه، وعلَىٰ آلِه وصَحبِه وسَلّم – فكيف في حالنا؟!!

ومنها: «التَّحْقيرُ لِشَأْنِ الْمَنْهِيِّ عنه»، كَقَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ [الحجر: ٨٧ – ٨٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ١٣٠ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ١٣١ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ [طه: ١٣٠ – ١٣٢]، فالتَّحقيرُ بادٍ لما نُهِيَ عن مدّ عينيه إليْه؛ فإنّ ذلك مفضٍ إلىٰ أن يشغله عن ربّه – تَعالىٰ – وهذا في شأن سيدنا رسول الله واجبٌ، وطاعته علىٰ الفور والدَّيمومة.

ومنه: «التَّيْئيس»، كقوله تَعالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [التحريم: ٧]، الخطاب للذين كفروا إنّما هو في الآخرة، وهو الموضعُ الوحيدُ في القرآن وجه فيه النّداء للذين كفروا بهذه الصيغة» الذين كفروا»، وهي أعم من «الكافرين»، ومن «الّذِينَ آتُوا الكِتابَ».

ومِنه: «النّهي» عن لازم المنهي عنه صراحة، كما في قول الله تَعالَىٰ: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢]، جليٌّ لا يخفىٰ أن يُنهَىٰ المرءُ عمَّا هو قادر علىٰ فعلِه، أو يتوقع منه فعله، فإذا نُهِي عن فعلٍ لا يكونُ، فالمراد لازمه، فقوله: (لا تمُوتنّ) لا يرادُ به النهي عن الموت، فليس ذلك بيدِ أحدٍ من البشر،

[أساليبُ الإنشاءِ الطّلبيّ خَلا «النّداءَ» مُتضَمّنَةٌ مَعْنَىٰ الشّرْط]

وَاعْلم أنَّ هَذِهِ الأَرْبَعَةَ - أعْنِي: «التّمَنّي»، و«الاسْتفهامَ»، و«الأَمْرَ»، «النَّهْيَ» - تَشْتَرِكُ فِي كَوْنِها قَرِينَةٌ دالَّةٌ عَلَىٰ تَقْدِيرِ الشَّرْطِ بَعْدَها، كَقَوْلِكَ: «لَيْتَ لِي مَالًا أنْفِقه»، أيْ: إنْ أُرْزَقْه، وَقَوْلِكَ: «أَيْنَ بَيْتُكَ أَزُرْكَ»، أيْ: إنْ تُعرّفِنيهِ، وَقَوْلِكَ: «أكْرِمْنِي أُكْرِمْكَ»، أيْ: إنْ تُكْرِمْنِي، قَالَ الله تعالىٰ: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي﴾ [مريم: ٥-٦][1] بـ(الجزْم)، فَأمّا قِراءَةُ «الرّفْعِ»[2] فَقَدْ

وإنّما هو نَهْيٌ عن حالةٍ لا يكونون فيها مسلمين عندما يحلّ بِهم الموت، ويلزمُه الأمرُ بأن يكونُوا علىٰ حال الإسلام، والنّهي عن اللازمِ أقوىٰ من الأمر بالملزوم.

ومنْها: «التَّوْبيخ»، كما تقولُ لِمن يَعظ النّاس بترك أمر هو به متلبسٌ:

إبـدأ بِنَفْسِـك فانْهَهـا عَـن غيّهـا ... فـاذا انْتَهَـت عَنـهُ فَأَنـت حَكِيـم

فَهُناكَ تَعْدِلُ إن وَعَظْتَ، وَيُقْتَدَىٰ ... بالقَـوْلِ مِنْـك وَيُقْبَـلُ التَّعْلِيـم

لاَ تَنْـهَ عَـنْ خُلُـقٍ وَتَأْتِـيَ مِثْلَهُ ... عَـارٌ عَلَيْـكَ إذا فَعَلْـتَ عَظِيـمُ

(١) سياق الجملة قول الله تَعَالَىٰ: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾ [مريم: ١ - ٦].

(٢) يقول «أبو زرعة ابن زنجلة» (حوالي: ٤٠٣هـ) في (حجة القراءات): «قَرَأَ أَبُو عَمْرو وَالْكسَائِيّ «يَرِثْنِي وَيَرِث» جزمًا جَوَابًا لِلْأَمْرِ، وَإِنَّمَا صَار جَوَاب الْأَمر مَجْزُومًا لِأَن الْأَمر مَعَ جَوَابه بِمَنْزِلَة الشَّرْط وَالْجَزَاء؛ الْمَعْنىٰ: هَب لي وليا، فَإِنَّك إِن وهبته لي ورثني. وَقَرَأَ الْبَاقُونَ: «يَرِثنِي وَيَرِث» بِالرَّفْع، جَعَلُوهُ صفة للْوَلِيّ، أَي: وليًا وَارِثًا.

وَإِنَّمَا اخْتَارُوا الرّفْع لِأَن «وليا» نكرَة، فَجعلُوا «يَرِثنِي» صفة، كَمَا تَقول: (أعرني دَابَّة أركبها)، وكما قَالَ: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وَلَو كَانَ الِاسْم معرفَة لَكَانَ الِاخْتِيَار الْجَزْم، كَمَا قَالَ: ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ﴾ [الأعراف: ٧٣]، فالهاء معرفَة، فَلَا يجوز أَن تجْعَل النكرَة صفة للمعرفة. وَاعْلَم أَن الْفِعْل الْمُضَارع إِذا حلَّ مَحل اسْم الْفَاعِل لم يكن إِلَّا رفعًا، كَقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ [المدثر: ٦] أَي: مستكثرًا.

حملَها الزّمخشري علىٰ الوَصْف[١]، وقال السكّاكي: «الأَوْلَىٰ حَمْلُها عَلَىٰ «الاسْتئْنافِ»؛ دُون «الوَصف»؛ لِهلاكِ يَحْيَي - عَلَيْهِ السّلامُ».[٢]

وأَراد بـ«الاسْتِئنافِ» أَن يَكونَ جَوابَ سُؤالٍ مُقدَّرٍ، تَضَمّنَهُ مَا قبْلَه، فَكَأَنّهُ لَمّا قَالَ: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ قِيلَ: مَا تَصْنَعُ بِهِ؟ فَقالَ: «يَرِثُنِي»، فَلَمْ يَكُنْ داخِلًا فِي المَطْلُوبِ بِالدُّعاءِ[٣]، وَقَولُكَ:» لا تَشْتُم يَكُنْ خَيْرًا لَكَ»، أيِ: إنْ لا تَشْتُمْ.

وَأَمَّا العَرْضُ، كَقَولِكَ لِمَنْ تَراهُ لَا يَنْزِل: «أَلَا تَنْزِل تُصِبْ خَيْرًا» أيْ: إنْ تَنْزِلْ، فَمُولَّدٌ مِنَ الاسْتِفْهامِ، وَلَيْسَ بِهِ؛ لأنَّ التّقْدِيرَ أَنّه لا يَنْزِلُ؛ فَالاسْتفهام عَنْ عَدَمِ النّزُولِ طَلَبٌ لِلْحاصِلِ، وَهُوَ مُحال.[٤]

وحجتُهم فِي ذَلِك أَن زَكَرِيًّا - عَلَيْهِ السّلامُ - إِنَّمَا سَأَلَ وليًّا وَارِثًا علمه ونبوته، وَلَيْسَ المَعْنىٰ علىٰ الجَزَاء، أَي: إِن وهبته ورث؛ ذَلِك لِأَنَّهُ لَيْسَ كلُّ وليّ يَرث، فَإِذا لم يكن كَذَلِك لم يسهل الجَزَاء؛ من حَيْثُ لم يَصح أَن تَقول: إِن وهبته ورث؛ لِأَنَّهُ قد يَهَبُ وليًّا لَا يَرث، وَأُخْرَىٰ وَهِي: أَن الْآيَة قد تمَّت عِنْد قَوْله: «وليا»، ثمَّ تبتدِئُ: «يَرِثني»، أَيْ: هُوَ يَرِثنِي وَيَرِث من آل يَعْقُوب. (أ.هـ).

(١) يقول: «الجَزْم جواب الدّعاءِ، والرّفْعُ صِفَةٌ».

(٢) يقُول السعد في شرح المفتاح (٢/ ٥٦١): «المصنفُ علىٰ الاسْتئنافِ؛ إذ يلْزمُ من الحمل علَىٰ الوصفيّةِ أنه طلَبَ وليًّا يرِثُهُ، وَلَمْ يُوهب وليًّا كذلِك؛ لأنّ الموهوب هو يَحيىٰ - عَلَيْهِ السّلامُ - ولمْ يرثهُ، بلْ هَلَك قبْلَه».

(٣) ما كان سيّدنا «زكريا» - عَلَيْهِ السّلامُ - مريدَه وارثَ عَرضٍ مِن الدّنيا، بل وارثًا لرسالتِه؛ إخراج الناسِ من الظلمات إلىٰ النور، كذلك شأن النبلاء، يطلبون الولد لحمل الرسالة، ونصرة الحقّ بالحقّ، وصناعةِ الخيرِ ونشره في الناس احتسابًا، فكيف بسيدنا «زكريا» - عليْهِ السلام؟!

(٤) المعنىٰ: أنَّ جزم الفعل في جواب «العَرْضِ» الذي هو طلب بغير حَثٍّ؛ بيْنا «التحضيض» طلبٌ مع حَثّ إنّما هو مولد من الاستفهام، فقولك: «ألَا تنْزِلُ عِندنا فَنُكْرِمْك»، فهو لا يكون إلّا معه «همزة الاستفهام»؛ ومن ثم يدخل «العرض» في «الاستفهام»؛ لأنَّ الاستفهام عَن عَدم النزول هنا محال؛ لأنّه واقع، ولا يستفهم عمّا هو واقع مشهود.

وَتَقدِيرُ الشَّرْطِ فِي غيرِ هذِه المواضِعِ لِقَرينَةٍ جَائِزٌ - أيْضًا - كَقَوْلِهِ تعالىٰ: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ [الشورىٰ: ٩]، أيْ: إنْ أَرادُوا وَلِيًّا بِالْحَقِّ، فاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ بِالْحَقِّ، لَا ولِيَّ سِواه[1].

ففي قول الله تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٢٧] قوله: (ألا تأكُلُون) عرض، وليْس استفهامًا بالهمزة: أيْ ليْسَ استفهامًا عن انتفاء الفعل؛ لأنَّ عدم الأكل من الملائكةِ واقعٍ مشهود، فقوله: (ألا) للعرْضِ.

(١) سياق الجملة قوله تَعَالَىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورىٰ: ٩]، الاستفهام في (أم اتخذوا ..) استفهامٌ إنكاريّ توبيخيّ تسفيهي، مستفاد من الهمزة المقدرة قبل (أم) الإضرابية، وفي الإعراب بقوله: (اتخذوا) تصوير لاعتنائهم بهذا الفعل الأحمق السَّفيه، وهذا يصور لك ما بلغوا فيه من الضلالة والسَّفاهة والحمق.

منْ ذا الذي يجتهد في تحقيق فعل سفيهٍ؟! فالإبانة بقوله: (اتخذوا)، أي: (افتعلوا) من (الأخذ)، وفي الأخذ قوة ونشاط، ثم هم يتخذون من دون الله أولياء، بلغوا من السفاهة والحمق حدًّا تجاوزوا به أن يجعلوا مع الله أولياء إلىٰ أن يتخذوها من دونه، كفروا به ولم يشركوا، تجاوزوا مرحلة الإشراك إلىٰ مرحلة الكفر. وهم إذْ يَتخذون غير الله - تَعَالَىٰ - وليًّا مُصِرُّونَ علَىٰ التَّعدّد (أولياء) إمّا عرفانًا بأنّ واحدًا ممَّا اتخذوا غير قادر علىٰ توليهم، وإمَّا أنَّ التَّعدّد بات سجيةً، وكلُّ ذلك يصور لك ما عليْه أولئك الذين أنقذك الله - تَعَالَىٰ - فلم يجعلك - عَزَّ وعَلَا - وآباءَك وأجدادك منهم، فأيّ نعمة أنعم الله - تَعَالَىٰ - عليك؟! إنّها النعمة الحسْنىٰ، ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]؟

ويأتِي قوله تَعَالَىٰ: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ مُصَدَّرًا بـ(الفاء) المعربة عن شرط مقدر؛ إنْ أرادوا وليًّا قديرًا علىٰ أن يتولاهم وحدَه - جَلّ جلاله- فالله - تَعَالَىٰ - هُو الوَلِي.

وجاء نظمُ جملة الجواب علىٰ القصر، (أي: ما الوليُّ إلا الله)، وطريق القصر هو تعريف طرفَي الجملة، وضمير الفصل، وهُو قصرٌ حقيقيّ تحقيقيّ، وإنْ شئتَ أن تجعلَه إضافيًّا لملاحظةِ ﴿ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ ، فيكون مآل المَعنىٰ: «اللهُ هُو الوَليُّ، لا ما اتَّخَذْتُمُوهُم أولياءَ»، ومع هذا يَؤولُ القصرُ إلىٰ الحقيقيّ التّحقيقي؛ لأنَّ المَنْفِي عنه الحُكْم عامٌّ علىٰ التَّحقيق، ثمَّ يعطف علىٰ جملة: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ قولُه: ﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وهي جملةٌ مُفيدةٌ للقصرِ الحَقِيقِيّ التَّحقيقيّ، وطريقه التّقديم؛ تقديم المسند إليه (هو) علىٰ المسندِ (يَحيَي ويُمِيت)، وعطْفُ

وَقولُهُ تعالَىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ﴾ [المؤمنون: ٩١][1] أيْ: لَو كانَ معه إِلَهٌ إِذنْ لَذَهَبَ.

هذه الجملةِ فيه مِن «التهَّديد» ما فيه؛ ولا سيّما أنّه قَدّمَ قولَه: (يُحيِىٰ)، وفيه نَقْضٌ لِما هُمْ عَلَيْه منْ إنكارِ البَعْثِ، فهم لا ينكرون الموت، إنما يُنكرونَ الإحياءَ بعده.

والقصْرُ آتٍ مِن طَريقَين: طريق «التّقديم» – كما سبق – ومِنْ مادَّة الفِعل (يُحْيي)، فهذا الفعلُ لا يكون إلا من واحد، لا يتحقق الإحياء من أكثر من واحد، فالقصر المُفاد مِن مادَّة الفِعل: (يُحْيِي) تأكيدٌ للقصْرِ المُفاد مِن سبيل «التّقديمِ»، وهو أَلْطَفُ مِن «طريق التّقديم» في هذه الجُملةِ.

ليس الإحياء والإماتة فحسب، بل هو علىٰ كلِّ شيْءٍ قَديرٌ، وفِي تَقدِيم المُتعلّق (علَىٰ كُلّ شَيْءٍ) علَىٰ المتعلّق (قدير) إسباغٌ مُحيطٌ، فلَمْ يَبْقَ لِغيْرِه قدرةٌ، وفِي الإعرابِ بقولِه: (قدير) دون «قادر» إبلاغٌ في تقرير القُدرةِ الإلهيّة.

يقُول شيخُنا – أعزّه الله وذريته وتلاميذه –:» مَجيئ هاتيْن الجُمْلتيْن: ﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بَعد الّتي قبلهما: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ ظاهرُ الدّلالةِ علىٰ أنّ الولاية لا تكونُ إلّا لمن وُصِف بهاتين الصِّفتيْنِ: إحياء الموتَىٰ، والقُدرةِ علىٰ كلِّ شَيْءٍ، ومَن اتَّصفَ بهما اسْتحقّ أن يُعبَد، وأن يُتخذَ وَليًّا، وهذِه الدَّلالةُ عَودٌ عليْهم بالتَّجهيل والإذلال؛ لأنَّهُم لَم يَتَّخذُوا وليًّا، وإنّما اتّخذُوا أوْلياءَ، وهذه الصِّفاتُ المُبَرِّرة للولايةِ غيرُ قابلة لأنْ تُوجدَ في اثْنَيْنِ؛ فضْلًا عنْ جَمعٍ مِن الأولياء» (أ.هـ).

(١) سياق الجملة قولُهُ تعالىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١ – ٩٢]، هذه الآية نُظِمَتْ نَظمًا يُقرّرُ المَعْنىٰ بِسلُوك مَا يُظَن أنَّه مُخالفٌ لِمنطقِ العقل؛ مَنْطقُ العَقل أنَّ النَّتيجةَ لا تُقدّم علَىٰ الدَّليل، وهُنا بَدأ بالنَّتيجة؛ إيماءً إلىٰ أنَّها في نفسِها ظاهرةٌ قائمةٌ راسِخَةٌ لا تَفْتقِرُ إلىٰ دَليلٍ، والإتيانُ بالدَّليلِ عقبَها، فَما هُو إلّا لِتأكِيدِها، لا لِتأسيسِها.

عَدَلَ بالدَّليلِ عَن وَظيفتِه وموقعِه؛ لِيَهدِيَك إلىٰ أنّك إنْ تَبَصَّرْتَ لَسْتَ بحاجةٍ إلَىٰ دليل، النَّتِيجةُ دليلُها فِي نفسِها، لا تفتقِر إلىٰ دليل، وهذا مسلَكٌ مِن مسالك الإبلاغ فِي تأكيدِ المَعْنىٰ، وفِي الوَقْتِ نفسه فِيهِ مَعنَىٰ «التَّوْبيخ والتَّسْفِيهِ» لِمَن أعْرَضَ أوْ توقّف، كيْف يتوَقَّف فِي التّسليم بأمْر دَليله فيه، وما كان دَليله فِيه كان أرسخَ؟ فإذا شَفَعْناهُ بِدليلٍ مِن خارجِه كان ذلك تأطيدًا لَه وتمْكينًا، وما ذاك إلّا من عظيمِ الاعْتناء بِه مِنْ أنّه مَعنًىٰ إذا لَم يَرْسخ، ويَسمق فِي الأفئدة، فكلّ

شيْءٍ إلَىٰ انْهيارٍ.

كذلِك سَلكَتِ الآيةُ سَبيلَها إلَىٰ إرْغامِ أُنُوفِ المُشرِكين، ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ تِلْك هِي الحقيقةُ الَّتِي دليلُها فِي نفسِها، ثُم يأتِي الدَّليلُ: ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾، وقائمٌ في عَيانِ كلٍّ أنّه لَم يذهبْ أحدٌ غيره – تَعَالَىٰ – بِما خلَقَ، ومَا عَلا وارتفعَ أحدٌ عليه – جَلّ جلالُه – فلَم يَبْقَ إلّا التّسليمُ بأنّه مَا اتَّخذَ مِنْ وَلَدٍ، وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إلهٍ، فتَقدِيرُ الكلامِ: لَو كان مَعه إلهٌ إذن لذهب كلّ بما خلق...، وذلك لَم يكنْ، فثبتَ أنّه ما اتّخذَ مِن ولدٍ، ومَا كان معَهُ مِن إلهٍ.

ثمَّ جاءَ بقوله تَعَالَىٰ: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ منزّهًا عن اتخاذ الولَد والشّريك؛ تلك هِي الحقيقة، وأَرْدَف هذِه الفاصِلة بقولِه: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

تبصَّرْ كيف قال أولًا: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾، ثُمَّ قال: ﴿ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ جَعَلَ لِكُلّ آية فاصلتَها، لَم يجمع بين (سُبْحان) و(تعالَىٰ) في فاصِلةٍ واحدة، كَمَا فِي قَولِهِ: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[الأنعام: ١٠٠]، وغيرها: [يونس:١٨]، [الإسراء:٤٣]، [النّحل:١]، [الرّوم:٤٠]، [القصص:٦٨]، [الزُّمَر:٦٧].

قولهُ: (سُبْحان)، وقولُه: (تَعَالَىٰ) إذا اجتمعا ذِكْرًا افترقا معنًىٰ، وإذا افترقا ذِكرًا اجتمعا مَعْنًىٰ؛ (سُبحان) تَنْزِيه عن نقصٍ ذاتي كالجهل مثلًا، و(تَعَالَىٰ) تنزيهٌ عَن نقصٍ خارجي، كالحاجة إلىٰ شريك أو صاحبة أو ولد.

وإذا نظرتَ في فاصلة هاتيْن الآيتين من سورة «المؤمنون» رأيت النَّظم قد حبك حبكًا؛ قولُه تعالىٰ فِي الآية الأولىٰ: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ جعلَ الفاصلة: (سُبحان)، وهِي للتَّنزّه عَن النَّقص الذَّاتِي كالجَهل، فِي مُقابلة التّنزّه عَن النقص الخَارجِي (الّشركاء)، المدلول عليه بصدرِ الآية: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾، والآيةُ الأخرَىٰ: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ جاءت الفاصلة مُصرّحة بالتّنزّه عَن النّقص الخارِجيّ (الشّركاء)، وصدره تنزّهٌ عَن النّقصِ الذّاتِي (الجهل)، مدلولًا عليْه بقولِه: (عالم الغَيب).

وعلَىٰ هذا يجَتمع فِي كلّ آيةٍ تَنزُّهُه عَن نَقصٍ ذاتِيّ (سُبحان)، ونقص خارجِيّ (تَعَالَىٰ)؛ الأولَىٰ صرَّح بالتّنزّه الذّاتِي مِن (سُبحان)، وفُهِمَ التَّنزّه عَن النّقص الخارجِيّ بلازِم صدرِها، والآيةُ الأخْرَىٰ صرَّحَ بالتَّنزّه عَن النّقصِ الخارجِيّ (تَعَالَىٰ)، وفُهِمَ التَّنزُّه عَن النَّقصِ الذَّاتِي مِن قولِه: (عالم)،

[جُمُعةُ القولِ وزبدتُه فِي أسْلوبِ «النّـهي»]

١) أسْلوبُ «النّهي» يُقَابِلُ أسلوب «الأمر»؛ «الأمر» طلب إيجاد فعلٍ لم يكن، و»النّهي» كفُ عن فعلٍ موجودٍ، أو يتوقّع وجوده. وله صيغةٌ واحدة: (لا تفعلْ).

٢) «النّهيُ» يقتضِي فوريّة الكَفّ عن الفعل، وديمومة الكفّ، إلا إذا كان في الكلامِ أو القرينةِ ما يَهدِي إلىٰ عدمِ الفوريّة، أو الدّيمومة.

٣) النّهي عن الشّيْءِ يلزمُه الأمر بضد ما نُهي عنْه، فهما متلازمان، كما أنّ الأمر بالشيءِ يلزمه النهي عن ضدّ ما أمر به.

٤) المقام هو الذي يقتضي التصريح بالنهي، والتلويح بضده (الأمر)، وكذلك المقام هو الذي يقتضي التصريح بالأمر، والتلويح بالنهي عن ضدّ المأمور بِه.

٥) وقد يصرحُ بالمعنيين معًا؛ «الأمر بالشّيْءِ، والنّهي عن ضد المأمور به»، ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا ﴾[النساء: ٣٦] إذا اقتضىٰ المقام إبراز الانتهاء بكلّ علىٰ درجةٍ سواء، وفي تقديم «الأمر» علىٰ «النَّهي» عن ضدّ المأمور به تَرَقٍّ. وكلّ هذا مناط اجتهاد العقل البلاغيّ تأويلًا وتثويرًا؛ سواء في بيانِ الْوحي قرآنًا وَسُنّةً، أَوْ بَيان الإبداعِ البشَريّ شعرًا ونثرًا أدبيًّا.

وكان قولُه أوَّلًا: (عَمَّا يَصِفون) أنيسًا به (سبْحان)؛ لأنَّه تنزيهٌ عَن الوصْفِ بِنقصٍ ذاتِيّ، وكان قولُه: (عَما يُشرِكون) أنَسًا به (تَعَالَىٰ) الثَّانية؛ لأنَّه تنزيه عَن النّقص الخارجِيّ (تَعَالَىٰ)، وهذا بالغ الدقة واللطف والطرافة.

٦) «النَّهي» له صيغة واحدة هي: «لا» الناهية، الدَّاخلة علىٰ المضارع.

٧) صِيغة «النهي»: «لا تَفعَلْ» موَضُوعةٌ للتّحريم، وهي تسْتعملُ في غيره في معانٍ عدَّة، وهي معانٍ سياقيّة.

٨) المعاني السّياقية المفادة بِصَيغةِ» النّهي» مِن العلماءِ مَن جعلها من قبيلِ» المجاز»، ومنهم مَن جعلها مِن قبِيلِ الكِنايةِ، ومنْهم مَنْ جعلَها مِنْ قَبيلِ» مُسْتتبَعاتِ التّراكيب»، وهِي لا تُوصفُ بمجازٍ أو كِناية.

٩) «الأمْرُ» و»النّهي» إنْ ذُكِر مع كُلٍّ جوابُه، وكان الجوابُ مجزومًا فهو علىٰ تقدير الشرط، (زرْني أكرمْك)، أي: «إن تزرْني أكرْمك»، وإن كان الجواب مرفوعًا جُعِلَ علىٰ نهج شِبْهِ كمال الاتصال، (الاسْتئناف البياني).

١٠) العلماء منهم من يرىٰ أن سبيل دلالة «صيغة النهي» علىٰ غير المعنىٰ الموضوعة له صيغة النهي، كمثل ما قيل في دلالة صيغة الأمر علىٰ غيرِ معناها الوضعي.

١١) أسْلوبُ النهي غيرُ منحصرٍ في صيغته الفريدة؛ قد يأتي بطريق الخبر، وقد يأتي بطريقِ ذم فعلٍ أو فاعله، وهو في القرآن كثير، بل هو أكثر من الأمر الذي جاء يصيغته الفريدة.





[النِّداء]

ومنْها: «النّداء»[1].

(١) مصطلح «النّداء» مُشتقٌّ من: «ندَىٰ» الصوت، أي: استطال وبَعُد، ومنه حديث الترمذي في الصلاة في شأن «الأذان»، ورؤيا سيدنا عبد الله بن زيد - رضي الله عنه - قال له سيدنا رسول الله - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلّم -: «إِنَّ هَذِهِ لَرُؤْيَا حَقٍّ، فَقُمْ مَعَ بِلَالٍ؛ فَإِنَّهُ أَنْدَىٰ وَأَمَدُّ صَوْتًا مِنْكَ، فَأَلْقِ عَلَيْهِ مَا قِيلَ لَكَ، وَلْيُنَادِ بِذَلِكَ».

وفي نطق المصطلح: «النِّداء» كسر النُّون مع المدّ، وهو أشهرها، ثم كسر النّون مع القصر، ثُمّ ضَم النُّون مع المدّ، وهو أقلها تداولاً.

والنداء: طلب إقبال المنادَىٰ بحرفٍ ينوب مناب: «أدعو»، أي: أنْ يطلُبَ المنادِي ممن يخاطبه أن يُقبِلَ إليه، والإقبالُ قد يكون معنويًّا، وقد يكون حسيًّا بالانتقال إلىٰ مكان المنادِي.

وهو في قوة (أقبل)؛ ولذا عُدَّ إنشاءً باعتبار ما يفيده من طلب الإقبال.

وأدواته ثمانية كلها حروف، وهي: (يا)، و(أيا)، و(هيا) للبعيد حسًّا أو معنًىٰ كالغافل، و(الهمزة) و(أي) للقريب حسًّا أو معنًىٰ كالحبيب، و(آ)، و(آي) للبعيد حسًّا أو معنًىٰ.

(وا) تنوب مناب (يا) في «النّدبة»، وليست «النّدبة» في حقيقتها من النداء الحقيقيّ، فلا طلب فيها، بلْ هي إفصاحٌ عن معنًىٰ نفسيٍّ، وعدّها من الإنشاء الطلبي تسامحٌ، فَهي من الإنشاء غير الطلبيّ (الإفصَاحي) ولعلهم عدوها من الطلبي من أنّ أداتها أداة «النّداء»، وهو عندهم من «الطَّلبيّ».

وأم الباب (يا) فهو أعمّها، يدخل علىٰ كلّ منادًىٰ بعيدٍ أو قريبٍ، وتتعيّن (يا) في نداء اسم الله - تَعَالَىٰ - وهو الذي يقدر عند حذف أداة النداء، كمثل «همزة الاستفهام» حين تُحذف.

وقد يُنَزَّلُ البعيدُ منزلةَ القريب، وقد ينزل القريب منزلة البعيد لمقتضٍ، وقد تحذف أداة النداء كما في: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

وجاءت (يا) مرة واحدة في القرآن مع (رب): ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف: ٨٨]، ولم تأتِ في القرآن مع اسم الجلالة (الله)، وقد جاء عوض ذلك (اللهمّ) بميم مشددة، كما في: «اللّهُم صَلّ علىٰ سيدنا مُحمّد، وعلَىٰ آلِه وصَحبِه وسَلِّمْ»، وقد يجمع بين (اللهم) و(ربنا)، كما في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤].

وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ صِيغَتُهُ فِي غَيْرِ مَعْناهُ، كـ«الإغْراء» فِي قَوْلِكَ لِمَنْ أَقْبَلَ يَتَظَلّمُ: «يا مَظْلُومُ».[1]

و«الاخْتِصاص» فِي قَولِهِمْ:» أَنَا أَفْعَلُ كَذَا أَيُّها الرّجُلُ»، وَ»نَحْنُ نَفْعَلُ كَذَا أَيُّهَا الْقَوْمُ»، «وَاغْفِر اللّهُم لَنَا أَيّتُها الْعِصابَةُ»[2]، أيْ: مُتَخَصّصًا مِنْ بَيْنِ الرِّجالِ، وَمُتَخَصّصِينَ مِنْ بَيْنِ الأقْوامِ وَالْعَصَائِب.[3]

---

(١) الإغراء معناه: الزم واحفظ، وهو: (التّأرِيثُ)، أي: الحث علىٰ لزوم ما هو فيه، والاستهتار فيه، والانشغال به عن غيرِه، فقولك لمن يَتظلّم: (يا مظلوم)، إغراء له لينتصف.

(٢) يقول المبرد في «المقتضب»: أجروا حرف «النداء» علىٰ الْعِصَابَة، وَلَيْسَت مدعوة؛ لِأَن فِيهَا الِاخْتِصَاص الذي فِىٰ النداء،... فَإِذا قلت: «اللَّهُمَّ اغْفِر لنا أيتها الْعِصَابَة»، فَأَنت لم تدع الْعِصَابَة، وَلَكِنَّك اخْتَصَصْتَها من غَيرهَا؛ كَمَا تخْتَص الْمَدْعُو، فَجرَىٰ عَلَيْهَا اسْم النداء، أعنىٰ: (أيتها)».

(٣) لم يذكر صَاحب الإيضاح من المعاني السِّياقيةِ للنّداء سِوىٰ «الإغراء» و»الاختصاص»، وأهل العلمِ يذكرون له معانِيَ أُخَر منْها:

«الاستغاثةُ» وجمهورُ النُّحاة يجعلون الاستغاثة بابًا مسْتقلًّا، وهي: نداءُ مَن يُخلِّصُ مِن شدَّةٍ أوْ يُعينُ علَىٰ مَشقّةٍ، نحْو قولنا: يا لَله لأهل الحقّ والخيْرِ، «اللام» في «لله» لامُ استغاثة، وهي مفتوحةٌ؛ فَرْقًا بيْنها وبيْن: لام «المُسْتَغاثَ له».

والاستغاثةُ تقالُ في الشّدائِدِ طلبًا للغَوثِ، ومن هذا قول الشاعر، وهو مهلهل:

يـا لَبكـرٍ أَنْشِـروا لـي كُليبًـا   ويـا لَبكـرٍ أيـنَ أيـنَ الفـرارُ

(أنْشروا)، أي: أحيُوا. يقُول سيبويه: «فاستغاث بهم ليُنشروا له كُليبًا، وهذا منه وعيد وتهدد. وأما قوله: (يا لَبكرٍ أين أينَ الفِرارُ)، فإنّما استغاث بهم لهم، أي: لِمَ تفرون؟ استطالةً عليهم ووعيدا».

ويقُول البغدادي في «الخزانة»: «وَحملهَا النّحاس علىٰ الِاسْتِهْزَاء، فَقَالَ: إِنَّمَا يَدعُوهُم ليهزأ بهم، أَلا ترَاهُ قَالَ: أنشروا لي كليبًا؟

وَقَالَ الأعلم: والمستغاثُ من أَجله فِي الْبَيْت هُوَ المستغاث بِهِ، وَالمعْنَىٰ: يَا لبكر أدعوكم لأنفسكم، مطالبًا لكم فِي إنشار كُلَيْب وإحيائه، وَهَذَا مِنْهُ استطالة ووعيد...»

وليس يخفي ما في الأمر (أَنشِروا) من التعجيز، وفي (أين أين الفرار) تيئيس واسْتهزاء.

وقال قيس بن ذريح:

تَكَنَّفنِىٰ الوُشاةُ فأَزْعَجوني   فيَا لَلناس للْواشي المطاعِ

وقول الشاعر:

يا لقومي ويا لأمثال قومي		لأناسٍ عُتوهم في ازدياد

وقال آخر:

يَا لَلرِّجال ذَوي الألْبَاب مِنْ نَفَر		لَا يَبْرَحُ السّفَهُ المُرْدِي لَهُم دِينَا

والأصلُ أن يكون المستغاثُ بِه مقرونًا بـ(اللام)، وقلَّ خُلُوّه منها، من ذلك:

ألَا يا قوم للعجب العجيب		وللغفلات تعرض للأريب

ومنها: «التّعجّب» وهُو مِن المعانِي النَّفسيّة فِي حَقّ البَشَرِ الّتي لا سبيلَ إلىٰ تعريفِها تعريفًا حقيقيًّا مشتملًا علىٰ بيان «الجنس»، و«الفصل»، وكلٌّ يعرفه بنفسِه مِن أنَّا نُمارِسُه، وعظم المعاني النفسية لا تُعرَّفُ تعريفًا حقيقيًّا منطقيًّا، وإنما تُعرّفُ بآثارها.

والتّعجُّبُ إنّما يكُونُ حِينَ يَدْهَشُ المَرْءُ مِن غَرابةِ أمْرٍ غَيرِ مُعتادٍ، يَجهَلُ سببَهُ.

و«العَجَبُ» مِن الأفعالِ التي أُسْندَت إلَىٰ اللهِ – سُبْحانَه وَتَعالَىٰ – وَنَحنُ نُؤمِنُ بِذلِك، ولَا نُكيّفُها، لَيْس كَمِثلِهِ شَيْءٌ فِي ذاتِه وَصفاتِهِ وأَفْعالِه، فإيَّاك والتّأويلَ والتّكْييف. رَوَىٰ الإمامُ أحمَدُ فِي مسندِه عَنْ سيّدنا عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ – رضِيَ اللهُ عنه – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صلَّىٰ الله عليه وسلَّمَ –: «إنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – لَيَعْجَبُ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ». (أي: ليس له مَيلٌ إلىٰ لَهْوٍ ونحْوِه؛ لِجدِّهِ وَوَقارِهِ).

وأسلوب «التّعجب» له في العربية صيغتان: (ما أفْعلَهُ، وَأفعِلْ به)، قال تعالىٰ: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ٣٧ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [مريم: ٣٧ – ٣٨]، ودلالتهما عليه دلالة وضعية، وهو من حيثُ هو «معنىٰ» يُفادُ من تراكيبَ كثيرة معنىٰ سياقي، لا وضعي كما في صيغتي التعجب الموضوعتبن له، فدلالتُهما عليه دَلالةٌ وضعيّة، لا سياقيّة.

ومن النداء المفيد معنىٰ التعجبُ قولُ امرئ القيس في معلقته في كل فؤادٍ فَهوم:

فَيا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ		بِكُلِّ مُغَارِ الفَتْلِ شُدّتْ بِيَذْبُلِ

كأنّ الثُّرَيّا عُلّقَتْ في مَصامها		بأمراسِ كَتّانٍ إلىٰ صُمّ جَنْدَلِ

قوله:(فَيا لَكَ مِنْ لَيْلٍ) نداءٌ، أُريد به التعجب من شأن ذلك الليل الذي له ابتداءٌ، وليس له انتهاءٌ.

ومن هذا قول ابن ربيعة في رائيته:

فيــا لــك مــن ليــلٍ تقاصـرَ طولُهُ		ومــا كانَ ليلِــي قبــلَ ذلــكَ يقصرُ

ويالكَ مــن ملهًىٰ هنــاكَ ومجلسٍ		لنــا لــم يكــدِّرْهُ علينــا مكــدِّرُ

يمــجُّ ذكــيَّ المســكِ منهــا مفلّجٌ نقــيُّ الثنايــا ذو غــروبٍ مؤشَّــرُ

يــرفُّ إذا تفــترُّ عنــهُ كأنّــهُ حصَــىٰ بــردٍ أو أقحــوانٍ منــوّرُ

وترنــو بعينيهــا إلــيَّ كمــا رَنــا إلــىٰ ظبيةٍ وســطَ الخميلــةِ جؤذرُ

فلمّــا تقضّــىٰ اللّيــلُ إلّا أقلُّــهُ وكادتْ توالِــي نجمــهِ تتغــوَّرُ

أشــارتْ بأنَّ الحيَّ قدْ حــانَ منهمُ هبــوبٌ ولكــنْ موعدٌ لــكَ عزور

فيا بعد ما بين الليليْن! ليلٌ قصيرٌ أطاله الهم، وليلٌ طويلٌ قصره اللهو!

ومن هذا ندار الدار متعجبًا من سطوتها عليه:

يــا دارُ! إنّ غــزالًا فيــكِ عذّبنــي لله درُّكِ مــا تحويــن يــا دارُ

الــدارُ تملِكُنــي ويحــي وصاحبها قلبــي، مليكان: ربُّ الــدار والدارُ

يــا دارُ لــولا غَــزالٌ فيــكِ عُلّقَني مــا كان لــي فيــكِ إقبــالٌ وإدبــارُ

ومنها: «التّحسّر والتّحزُّن»، كما فيٰ قول الشاعر:

يــا دارُ قــد غيّرهــا بلاهــا كأنمــا بقلــم محاهــا

أخربهــا عمــران مــن بناها وكرّ ممســاها علــىٰ مغناها

وطفقــت ســحابة تغشــاها تبكي علىٰ عراصها عيناها

وقال آخر:

يا دارُ أَيْنَ ظِباؤُكِ اللُّعْسُ قَدْ كانَ لِي فِي أُنْسِها أُنْسُ

أَيْنَ الْبُدُورُ عَلَىٰ غُصُونِ نَقا مِنْ تَحْتِهِنَّ خلاخِلٌ خُرْسُ

وقال آخر:

يا دارُ حُيّيتِ إنْ كانَتْ تَحِيَّتُنا تُغنِي ولَو كانَ فِي التَّسليمِ إشْفائِي

لا زِلْتُ أبكيكِ ما قامَت بِنا قَدَمٌ أبْغِي الشّفا بِكِ مِن سَقمِي ومِن دائِي

كلّ ذلك نداء للديار تحسرًا وتحزنًا علىٰ أيامٍ خلت كانت مرتع نفوس وقلوبٍ.

ونداءُ الدّور والأوطان في الشّعر العربيّ جدّ كثير؛ ولا سيما في فواتح القصائد، وما التّحسّرُ والتَّحزُّنُ عليْها، بلْ علىٰ ما كان فيها ومَن فيها.

والنّداءُ تحسّرًا وتحزُّنًا يأتي كثيرًا في شعر الرّثاءِ، من هذا قول ابنُ الرّومِي في ولدِه هبةُ الله:

أبُنَــيّ إنّــكَ وَالْعــزاء مَعًــا بالأمْــسِ لُفَّ عَلَيْكُمــا كَفَنُ

[أغراض إيقاعِ الخبر موقع الإنشاء]

ثم الخبر قد يقع موقع الإنشاء[1]:

فـإذا تناولـتُ العـزاءَ أبَـىٰ   نَيْلِيه أنْ قَد ضمَّه الجُنن
أبُنيّ إن أحزنْ عليك فلي   في أن فقدتُك ساعةً حزن

• • •

(١) البيانُ البليغُ لا تُستمَدُّ دقائق ولطائف وطرائف معانيه الإحسانية من نظمها فحسْبُ، بلْ مسْتمدُّها من ثلاثٍ: (النظمِ الحكيمِ، السّياقِ المديدِ، والمغزَىٰ اللّطيفِ).

تلك هي مُسْتَمَدُّ المعاني الإحسانيّة، والنّظمُ (التّركيب) – علىٰ شرف مقامه – وإن كان هو المعدنُ للمعاني إلّا أنّ للسياق والمغزىٰ عليه سلطانًا، وهذا مما يمنح النّظم الخبري أن يقوم حيث يقومُ الإنشاءُ، بل قد يقُوم حين يراد الإبلاغ في معنىٰ الإنشاء، والأمر كمثله في مقامِ الإنشاء مقام الخبر، كالذي رأيته في مقامِ استفهام مقام النّفي «الإنكاريّ التّكذبيّ».

وفي القرآن كثيرٌ من الأخبار التي أُريد بها الأمر أو النّهي؛ وذلك حين يراد مزيد تقريرٍ وتأطِيد، كما تراه في قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾، ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾ ونحو ذلك...، فالأول نهي، والآخر أمرٌ.

وتحت كلِّ خبر عن جليلٍ جميلٍ أمرٌ به، وتحت كلّ خبر قَمِيءٍ قبيح نهيٌ عنه؛ ممّا يجعلُ مسالكَ الأمر والنهيِّ اللذين هما طريقا التشريع جدَّ كثيرة في بيان الوحي قرآنًا وسنةً.

وأهلُ العلم قد ذكروا قليلًا من أغراضِ إقامة «الخبر» مقام «الإنشاء»، وهو جديرٌ بأن يُستَقْرَأَ من بيانِ الوحي قُرآنا وسنةً.

إِمَّا لِلتّفاؤُلِ[١]، أَوْ لإظْهارِ الحِرْصِ فِي وُقُوعِهِ، كَما مَرَّ[٢]، «وَالدُّعاءُ» بِصِيغَةِ الماضِي مِن البَلِيغِ يَحْتَمِلُ الوَجْهَيْنِ[٣]، أَوْ لِلاحْتِرازِ عَن صُورةِ الأَمْرِ، كقولِ العبدِ للمَوْلَىٰ إذا حَوَّلَ عَنْهُ وَجْهَهُ: «يَنْظُرُ المَوْلَىٰ إِلَيَّ ساعَةً»، أَوْ «لِحَمْلِ المُخاطَبِ علَىٰ المَطْلُوبِ»؛ بِأَنْ يَكُونَ المُخاطَبُ مِمَّنْ لَا يُحِبُّ أن يُكَذِّبَ الطَّالِبَ[٤]، أَوْ لِنَحْوِ ذَلِكَ.

---

(١) التفاؤل ضد التشاؤم، وسيدنا رسول الله – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلَّم – قد فسَّر لنا معنىٰ الفأل فيما رواه البخاري في كتاب «الطب» من صَحيحه بسنده عَنْ هُرَيْرَةَ – رضيَ الله عنه – قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – صلىٰ الله عليه وسلم – يَقُولُ: «لاَ طِيَرَةَ، وَخَيْرُهَا الْفَأْلُ»، قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ: «الْكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ».

فإنت إذا قال لك صَاحبك، وأنت تغدو لقضاء أمرٍ صالحٍ مصلحٍ: «وفقك اللهُ» انشرح صدرك واسْتبْشرتَ، هذا صورة الخبر، وهو يُريد الدعاء لكَ، ولكنّه عدلَ إلىٰ الخبر كيما تتفاءل، وتسْتبْشر.

(٢) إظهار الحرص في وقوعه يكونُ حين تريد أن تطلب إيحاد شيْءٍ، فلا تأمر به، بل تظهر طلبك في صورة من يُخبرُ عنه أنّه قد كان، وأنَّ الذي تطلبه قد أُنجز في وقتٍ يسيرٍ؛ حتىٰ إنك لم يبق لك إلّا أن تخبر عنه، لا أن تطلبه.

وهذا فيه تصويرُ حرصِكَ للمُخَاطَب علىٰ ما تطلب؛ لعظيم أهميته، وتظهر له – أيضًا – عظيم ثقتك في أنّه منجزٌ ما أنت مريدٌ في وقت كلا وقت، وهذا من الحكمة في الطلب وسياسته، وهو كثيرٌ في كلامِ النَّاس.

وقول صَاحب «الإيضاح» كما مَرّ، أيْ: في باب «المسند» عند الحديث عن «التقييد بالشرط»، فراجعه.

(٣) يريدُ أن إبراز «الدّعاء» في صورة الخبر يحتمل أن يراد به: «التّفاؤل»، وإظهار حرصك علىٰ تحقق ما دعوتَ بِه.

(٤) هذا يتحقَّق إذا كنت عليمًا بأنَّ مَن تطلب منه لن يكذبك مهما طلبت، فلا تقول له: «افعل كذا»، بل قل: «فَعلْتَ كذا»، فأنت هنا في صورة من يُخبرُ عنه، وهو يُجِلُّكَ عَن أن تَبدوَ غير صادق، فيفعل؛ لتظهر في الواقع أنَّك الصّدوق في قولك له: «فَعَلْتَ كذا».

وهذا حسن جدًّا حين يكون الحال بين الولد ووالده، والتّلميذ وشيخِهِ. وإذا ما كان صَاحبُ «الإيضاح» هنا قد لفت إلىٰ مقتضيات العدول عن الإنشاء إلىٰ الخبر، نزولًا عن أن السياق

تَنبيهٌ[١]:

مَا ذَكَرْناهُ فِي الأبْوابِ الخَمْسَةِ السَّابِقَةِ لِيس كُلُّهُ مُخْتَصًّا بالخَبرِ، بَلْ كَثيرٌ مِنْهُ حُكْمُ الإِنْشَاءِ فِيهِ حُكْمُ الخَبرِ، يَظْهرُ ذَلِكَ بِأدنىٰ تَأَمُّلٍ، فَلْيَعْتَبِرْهُ النَّاظِرُ.[٢]

• • •

للقول في باب «الإنشاء»، فلك أن تكون علىٰ ذكر من أنّ «الإنشاء» يقع – أيضًا – موقع الخبر؛ لمقتضيات عدّة، كما في قول سيدنا رسول الله – صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلّم –: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» (البخاري، العلم)، «لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَىٰ لِغَيْرِ أَبِيهِ وَهْوَ يَعْلَمُهُ إِلاَّ كَفَرَ، وَمَنِ ادَّعَىٰ قَوْمًا لَيْسَ لَهُ فِيهِمْ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»، «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » (الترمذي، الأدب)، «مَنْ قَالَ فِيْ الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» (الترمذي، تفسير القرآن)، «مَنْ حَلَفَ بِيَمِينٍ آثِمَةٍ عِنْدَ مِنْبَرِي هَذَا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ وَلَوْ عَلَىٰ سِوَاكٍ أَخْضَرَ» (ابن ماجه، الأحكام).

قوله: (فليتبوّا) أمرٌ، أُريد به الخبر، أيْ: (تَبَوَّأَ)، وفي هذا مِن التَّهديد ما فيه.

• • •

(١) «التَّنبيهُ»: يُرادُ به: أمرٌ قد يُشغَلُ عنه بغيره، مع أهمية استحضاره، وهنا يذكرنا بأنّ علينا أن نستحضر المباحث التي سبق القول فيها في أحوال مكونات الخبر، ونحن ندرس «الإنشاء»، فكثيرٌ مِنها قائمٌ في «الإنشاء» قيامَه في «الخَبر»، فاستغنَىٰ «الخطيبُ» بدرسِه في «الخبر» عن إعادة درسِه في «الإنشاء»، ولو أنّك تَتَبّعت صورَ أساليب الإنشاء في الشعر مثلًا لرأيت: «التَّقديم»، و«التّأخير»، و«الحذف» قائمًا فيها.

(٢) قوله: «فليعتبره الناظر» أمرٌ أريد به النصح والإرشاد.

[جمُعةُ القول في أسلوب «النّداء»]

١) «النّداءُ» غرضٌ له أسلوبٌ، ولأسلوبِه أدواتٌ تدلُّ عليه، وهي عند أهلِ العلم ثمانٍ؛ بعضها للبعيد، وبعضها للقريب، وقد يُستعملُ ما هو للبعيدِ في نداءِ القَريبِ، وقد يُستعملُ البعيدُ للقريبِ لمقتضياتٍ، يُعنَىٰ البلاغيُّ باستبصارها، واستنباط معانٍ سياقية منها.

٢) أمُّ أدوات النّداء (يا)، وهي تُستَعمل في كلّ سياقٍ، وهي الّتي تُقدّر إذا ما جاءت أداةُ النّداء محذوفَةً، وهي التي تدخل علىٰ اسم الجلالة، ولا يستعملُ القرآن سواها.

٣) في غيرِ البيانِ البليغ يَستعمل العامَّةُ «النداء» لطلب إقبالِ المنادَىٰ علىٰ المناديه، إمّا إقبالًا حسيًّا؛ كالالتفاتِ إليه بوجهه، أو الانتقالِ إليْه ببدنه من مكانِه، أو انتقالًا معنويًّا؛ (الانتباه، وترك ما هو شاغلٌ قلبه).

٤) وفي البيان البليغ – بيان الوحي، وبيان الإبداع البشَريّ – يُرَادُ به معانٍ عديدة، يحرّرها السّياقُ.

٥) للإعراب عن المُنَادَىٰ باسم أو صفةٍ عَلاقةٌ بما يُنادَىٰ من أجله من نحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ ، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ ... إلخ.

٦) يقام الخبرُ مقامَ الإنشَاءِ، كما يُقامُ الإنشاءُ مقامَ الخبرِ؛ لمقتضيات ومقاصدَ عديدة، هي مناطُ النظر البلاغي.

• • •

تدريبات تحليلية
في (الأمر، والنهي، والنداء)

التّطبِيق الأَوَّلُ:

يقُول الحقّ - سبحانه - في سورة: «أم الكتاب»: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦ – ٧].

سورة « أمّ الكتاب» هي السّورةُ التي يؤسَّسُ عليْها القولُ في سائر سور القرآن، فما من معنًىٰ في أيّ سورة بعدها، إلا وله نسبٌ وثيقٌ بآية، أو جملةٍ، أو كلمة في سورة: «أم الكتاب»، قد يكونُ ذلك النّسبُ ظاهرًا وقريبًا، وقد يكون بالغَ الخفاء والبعد، ولكنّه في الحالين هو نسبٌ جدّ وثيقٌ.

استهلت السّورةُ - كما ترىٰ - بالثناء عليه - جَلّ جلاله - يعلمنا كيف نثني عليْهِ؛ ولذلك كان قوله تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٢ – ٤] هو جمعة كل ثناء علىٰ الله – تَعَالَىٰ – في الكتابِ والسنة.

وفي قوله: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ﴾ قصرٌ، فالمعنىٰ: (ما الحمدُ إلا لله)، وهو قصر موصوفٍ علىٰ صفة، أي: ما الحمدُ إلا مسْتحَقٌ لله – تَعَالَىٰ – فمثله قولُه تعالىٰ: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الجاثية: ٣٦] إلا أن القصر في آية «الجاثية» طريقه التقديم، وهذا طريقه تعريف المسند إليْه بـ(أل).

ثم جعل من بعد ذلك الميثاقَ الذي بيْنه وبين عباده؛ ممثلًا في آيةٍ واحدةٍ من جُملتَيْن؛ الأولىٰ لله - تَعَالَىٰ - والأخرىٰ لعباده الطائعين، ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، وجعلهما في آية واحدة؛ إيماء إلىٰ عظيم ارتباطهما ببعضهما، فلا يصلُح أحدهما بغيرِ الآخر، فمَن عبده، ولم يستَعِنْ به وحدَه، فما عبدَه، ومن استعانَ به وحده، وما عبده وحده، فما استعانَ بِه، تلازمٌ لا ينفكّ أبدًا، وفي تقديم حق الله - تَعَالَىٰ - علىٰ حقّ العباد؛ ليُميّز مَن هو أحقّ أن يُعان من العباد، فمن أدّىٰ ما عليْه لله - تَعَالَىٰ - أدّىٰ الله - تَعَالَىٰ - له ما يُريد.

وفي تقديم المفعول في كل جملة دلالة علىٰ الاختصاص «القصر»، فكأنه قيل: (ما نعبد إلا أنت، وما نسْتعين إلا بك أنت)، فكل في قوة «لا إلهَ إلّا اللهُ»، وهو قصر صفةٍ علىٰ موصوف قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ لأنَّ المنفيّ عنه أن يُعبد وأن يُسْتعانَ بِهِ كلّ ما عدا الله - تَعَالَىٰ - ثم بيّن لهم كيف يستعينون به؛ بالدّعاء الجمُعة الّذي لا تجد دعاءً في الكتابِ والسنّة إلّا وهو منسولٌ من هذا الدّعاء، مجموعًا إليْه، ومجموعًا فيه. فهو بحقٍّ جُمعة كلّ دعاء.

جاء الدّعاء في صورة «أمر»: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، والّذي بيْن الأمر والدّعاء أنّ في كلٍّ (طلبُ فعلٍ)، إلّا أنَّ في الأمر يكونُ الطالبُ عاليًا أو مسْتعليًا؛ بيْنا الطَّلبُ في الدّعاء يكونُ المطلوبُ منه هو العالِي، فكأنَّ بيْن «الأمر» و«الدّعاء» مِن وجْهٍ تَنَاظُرًا، ومن وَجْهٍ تَقَابُلًا؛ يجتمعان فِي شيْءٍ، ويَفترقان في شيْءٍ.

فقوله: (اهدنا) دُعاءٌ يَبتهلُ به العبدُ من بعد أن تبيَّنَ له حقُّ الله عليه؛ اختصَاص الله - جَلَّ جلالُهُ - بالعبادةِ، واختصَاصُه - أيَضًا - بالاستعانةِ به،

فكما أنّ حقّه أن يُعبدَ وحدَه لا شريكَ له، فحقُّه - سُبحانه - علىٰ عباده أن يُسْتعان به وحدَه؛ لأنَّ كلَّ مَن عداه غيرُ قادرٍ علَىٰ تحقيقِ الإعانةِ بنفسِه، فغَيرُه إذا استُعِينَ به، فإنّما يُستعانُ بمَن هو في حاجةٍ إلىٰ مَن يُعينُه، فمَنْطِقُ العَقْلِ أن تُوجَّه الاسْتعانةُ إلَىٰ مَن هُو المقتدِر علَىٰ أن يُعينَ كلَّ مَن طلبَ عَوْنَهُ، وتَنزّه هُو عنْ أن يَحتاجَ إلَىٰ إعانةِ غيرِه له - جلَّ جَلالُه.

والهدايةُ المطلوبةُ ضربان، يُرتَّب الثّانِي علَىٰ الأوَّلِ:

الأوّلُ: هدايةُ إبانةٍ وإرشادٍ.

والآخرُ: هدايةُ إعانةٍ وتَوفيق.

الضرّبُ الأوّلُ من الهدايةِ مبذولٌ لكلّ العباد؛ مَنْ طَلب وَمَن لم يطلب، وهذا ملحوظٌ فيه شيءٌ من معنىٰ قولِه جَلّ جلاله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقولِه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، والآخرُ إنّما هُو لِمَن خَصّ اللهَ بالعبادة، والاستعانةِ به، وهو ملحوظٌ فيه شَيْءٌ منْ معنَىٰ قولِه تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وقولِه: ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾. والمسْلِمُ يطلبهما معًا؛ (الإبانة، والإعانة).

والصراطُ المستقيمُ المطلوبُ الهداية إليه عام في كل أمرٍ من أمور الحياةِ، ولمّا كان قوله تَعالىٰ: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فيه «إجمالٌ» بيَّنه بقوله تَعَالَىٰ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وهذا مِن هداية الإبانةِ، فقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بدلٌ من الصِّراط المستقيم، وصراطُ الّذين أنعم عليهم هو صراط أولئك الذين علموا الحق وعملوا به، وهم المسلمون الذين إذا سمعوا أمرَ الله ونهيه ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وصراطُ

المغضوب عليْهم هو صراطُ الذين علموا الحقّ، ولم يعملوا به، وهم الذين إذا سمعوا أمرَ اللهِ - تَعالىٰ - ونهيه قالوا بلسان حالهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]، ومثالهم الأعلىٰ «اليهود»، فكلُّ من علم ولم يَعمل بما علم هو في زمرتهم.

وصراطُ الضَّالين هو صراط الذين يَعملون بغير علم، يَبتدعون لأنفسهم عبادات ابْتَدَعُوهَا مَا كُتِبْت عَلَيْهِم، وتركوا ما كتب عليْهم، اتخذوا أنفسهم مشرّعين لأنفسِهم، ومثالهم «النّصارَىٰ»، فكلّ من عبدَ معبوده بغير علمٍ هُو من زمرتهم.

• • •

التّطبيقُ الثاني:

يقول الله - تَعَالَىٰ - في ختام سورة (آل عِمران): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[آل عمران: ٢٠٠]

هذه الآية هي رأسُ المعنىٰ القرآنيِّ في السورة، وذروته استهلها بالنداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وهذا النداء ورد في القرآن تسعين مرة، وهو نداء فيه معانٍ جمّة:

فيه معنىٰ التذكير بالميثاق والعهد: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] (أم الكتب)، وفيه تلطُّفٌ وتحبُّبٌ منه - تَعَالَىٰ - فهو يناديهم بأحبِّ صفاتهم وأفعالهم إليه، وفيه تنبيهٌ لهم أنَّ إيمانهم ما يزال في طور الفعل لم يرتقِ إلىٰ طور الصّفة، قال: (آمنوا)، ولم يقل: (يا أيها المؤمنون)، و(المؤمنون) أعلىٰ درجة من (الذين آمنوا)، فهم بحاجةٍ إلىٰ ما يجعلهم يصعدون إلىٰ درجة (المؤمنون)، الذين نعتهم في أول سورة (المؤمنون) بنعوتٍ جليلةٍ.

ثم جاء بعد هذا النداء بأربعة أوامر، نسقها بالواو لما بينها من التوسط بين الكمالَيْن: (اصْبِرُوا)، (وَصَابِرُوا)، (وَرَابِطُوا)، (وَاتَّقُوا اللهَ)، وهذه الأوامر مقتضَاها الوجوبِ والفورية والدّيمومة؛ كلٌّ علىٰ وسْعه؛ فالطَّلَبُ بطريقِ الأمر إنّما يكونُ علىٰ وسع المأمور، أمّا النهي فلا تسامح فيه؛ لأنّه ليس فعلًا يحتاج إلىٰ وسْع، هو ترك فعل، وهذا الناسُ فيه - إن أرادوا - علىٰ مستوًىٰ واحدٍ من قدرةٍ علىٰ الترك بخلاف الأمر، فإنه فعلٌ يتفاوتون في طاقاتهم ما استطاعوا ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾[التغابن: ١٦]، أما النهي فلا تسامح فيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ

ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾[آل عمران: ١٠٢] الأمر الأول أمرٌ بالصبر، والثاني أمر بالتعاون عليه والتواصي به (صابِروا)، وفي (صابروا) دعوة إلىٰ الصمود في وجه خصم صابر علىٰ باطله، ففي صيغة (فاعِلوا) معنىٰ التعاون، والتناصح، ومعنىٰ المقاومة.

والأمر الثالث طلب المرابطة علىٰ الثغور الحسية والمعنوية، والمعنوية أنكىٰ؛ ولا سيّما في زماننا، والمرابَطَةُ أصلُها ربط الخيل، وتهيئَتها للنزال؛ كيما لا تُؤْتَىٰ الأُمَّةُ في غفلتها، فحقٌّ أن يكون كُلُّ مسلم مرابطًا حذرًا، ﴿ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ ﴾[النساء: ٧١]، وفي هذا دعوةٌ إلىٰ اليقظة، وعدم الانشغال بما يُلهي عن الحق والخير والواجب.

ثم يختم الأوامر بأعمّها، الذي هو واجبٌ أن يكون في كلّ حال: (اتّقُوا الله)، وهذا أمر واجبُ الإنجاز والنفاذ علىٰ الفور والديمومة، لا يستقيم معه تراخٍ، ولا تقصير، أو انقطاع. فالتقوىٰ جُمُعة كلّ خير، وعصمةٌ من كل سوء حسيّ أو معنويّ.

ثمَّ ختمَ الآية بقوله تَعَالَىٰ: ﴿ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ جعلهم بهذه الأربعة علىٰ رجاء أن يتحقق لهم الفلاح؛ ليكون العبدُ دائمًا علىٰ خشيةٍ من الغفلة، وألّا يعتد أحدٌ بصبره ومصابرته ومرابطته، ويدل به علىٰ ربّه - تَعالىٰ - فإنه لا يدري ما يكون بعدُ، فمن رضي عن نفسِه لم يرضَ عنه ربّه - تَعالىٰ - فالمسلمُ دائمًا موقِنٌ بالتقصير في حقِّ ربّه - تَعَالَىٰ - عليه، لا يَدِلّ بعمله، ولا يركن إليه، بل هو دائم الخشية، راجٍ العفو والسّتر.

• • •

التطبيقُ الثالث:

يقُول الحقّ – سُبْحانَه وتَعالَىٰ – في طليعة سورة «النّساء»: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴾ [النساء: ١ – ٦]

هذه السورة أُقِيمَت لبيان منهج بناءِ الأسرة المسلمة علىٰ أساسٍ من العدل والرّحمة والتسامح، هذه الثلاثة: (العدل – الرحمة – التسامح) هي عمُد بناء أي أسرة، يراد أن يتحقق فيها معنىٰ الاسم الذي سميتْ به (أسرة).

استهلّت هذه الصورة بيانها بقوله تعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ [النساء: ١]، ولم تسْتهلّ سورة بذلك سوىٰ سورة «الحج» ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴾ [الحج: ١]، وجاء مثل هذا في ثبج سورة «لقمان»: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا

مَوْلُودٌ هُوَجَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [لقمان: ٣٣].

والاستهلال بـ(يا أَيّها النّاس)؛ دون (يأ أَيّها الّذِين آمنوا)، كما في سورة «المائدة» مناسبٌ لما جاءت له السورة؛ إقامة أسرة مسلمة علىٰ أساس مستقرٍّ راسِخٍ لا تميد به.

وكلمة: (الناس) مشتقة من» النّوْس»، أي: الاضطراب، فهذا المعنىٰ مضافًا إليه معنىٰ العموم والإحاطةِ ملحوظٌ فيه الأوامر والنّواهي، المشكلة للأحكام التي يحقق الالتزام بها بناء أسرة محكمة.

النداء هنا أُريد به الإقبال - علىٰ ما سيُذكر في هذه السورة - أيقظهم من غفلتهم، ومن غمرة الحياة واضطرابها، نادىٰ عليهم بما يُشعرهم بما هم فيه من الحاجة إلىٰ ما يُحقق لهم الاستقرار، وما يُخرجِهم من هذا النَّوس والاضطراب والتردّد.

ثم يورد في هذه الآيات السّت أوامرَ ونواهٍ بالغة الأهمية، اشتملت هذه الآيات علىٰ صور عدة من الأمر والنهي، واستهلت بنداء لم يتكرر إلّا في فاتحة سورة الحج: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج: ١]، وفي ثبح سورة «لقمان» ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [لقمان: ٣٣]..

واشتملت علىٰ خمس عشرة صورة من صور «الأمر»:

- ﴿ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ (الأمر للوجوب).

- ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ (الأمر للوجوب).

- ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ (الأمر للوجوب).

- ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ (للإباحة).

- ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ (للإباحة).

- ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ (الأمر للوجوب).

- ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ (للإباحة).

- ﴿ وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾ (الأمر للوجوب).

- ﴿ وَٱكْسُوهُمْ ﴾ (الأمر للوجوب).

- ﴿ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ (الأمر للوجوب).

- ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا ﴾ (الأمر للوجوب).

- ﴿ فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ (الأمر للوجوب).

- ﴿ فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ (الأمر للوجوب).

- ﴿ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ (للإباحة).

- ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأمر للوجوب).

منها ما كان الأمر فيها للوجوب (إحدىٰ عشرة صورة)، ومنها ما كان الأمر فيها للإباحة (أربع صور).

واشتملت علىٰ أربع صور من «النّهي» كلها للتحريم، والفورية، والديمومة.

- ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾.

- ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾.

- ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾.

- ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ﴾.

• • •

هذِه الأوامرُ والنَّواهِي الَّتِي استُفتِحت بها السُّورة كلّها جاءت وقد أريد بها ما وضعتْ له صيغة الأمر وصيغة النّهي، ولَم تأت صيغة (لِيفعل) في الأمر في هذه «الآيات» إلّا مرتين (فَلْيَسْتَعْفِفْ)، (فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ)، وهي أصلُ صيغة «الأمر»، والغالبُ أنَّها تأتي حين يُراد اللَّفت إلىٰ أهمية الاستجابة لما يُطلب، وإن كان الطلبُ للإباحة أوْ النَّدب، ففي قوله تَعالىٰ: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ إباحة ممزوج بإلزام، الإباحة مناطها (ليأكل)، والإلزام مناطه (بِٱلْمَعْرُوفِ)، مناط العناية ليس الاستجابة للأكل، كلّا. مناط العناية قوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ هنا الإلزام، وليس الإلزام في (الأكل).

وهذه «الباء» في (بِٱلۡمَعۡرُوفِ) بالغة الأهمية، فهو يُوجب ملازمة المعروف في ممارسة الفعل (الأكل)، و «المعروف» هو كلُّ ما لا تنكره النّفس السّوية، والعقل النّصيح الصريح الذي لم يتأثر بالعادات والتقاليد والمارسات الذَّميمة، فمعروف النبلاء ليس كمثله معروف الدَّهماء.

وفي الآية الأولىٰ جاء الأمرُ بالتقوىٰ مرتين؛ تأكيدًا لوجوب الالتزام به، ففيه تحقيق حصانة الأسرة والأمة، وفي قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا ﴾ فيضٌ بالغٌ من الترهيب، مَنْ أقامها في فؤاده كانت له عونًا علىٰ أن يحقق ما أُمِرَ به من التقوىٰ.

وهذه الفاصلة لم تأتِ إلا في هذا الموضع، وفي سورة «الأحزاب»: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴾ [الأحزاب: ٥٢] الإسلامُ حريصٌ علىٰ أن يكون في المسلم رقابته من داخله، ليس بحاجةٍ إلىٰ من يرصد ما يكون منه ﴿ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴾ [ق: ١٨].

• • •

التّطبيق الرَّابع:

يقُول الحق - سبحانَه وتعالىٰ-: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]

هذه الآيةُ من فيض الرّحمة الربّانية الخاصَّة بأهل الطَّاعة، وهي بالغةُ الأهميةِ في بيان الصِّراط المُستقيم إلىٰ تحقيقِ الأَمَنة والطُّمأنية علَىٰ ما نحن مكلَّفون بالقوامة عليه رعايةً وحِمايةً؛ مِن والديْن، وزوج، وولد، وأخوةٍ، ونحوهم.

هذه الآيةُ لو أقامها كلُّ مسلمٍ - أيًّا كان موقعه في الحياة - لاستقامتْ حركتُه في حياتِه، ولاستقامتْ له حركةُ الحياة، آيةٌ فيها دعوةٌ إلىٰ إصلاح المرءِ نفسَه لربّه - جَلّ جلالُه - ليصلحَ اللهُ - تَعَالَىٰ - له ولأهله الحياة.

اشتملتْ هذه الآية علىٰ ثلاثةِ أوامر، جاءت كلها بصيغة واحدة: (وَلْيَخْشَ)، (فَلْيَتَّقُوا)، (وَلْيَقُولُوا)، وجاءتْ جميعًا بصيغة: (لِيفْعلْ)، وهي صيغة تحملُ معنىٰ الإلزام بتحقيق المطلوب؛ لما في تحقيقه من نفعٍ عميمٍ قويم.

الأمر الأول: (ولْيَخْشَ) أمرٌ بالخشيةِ، وهو أعلىٰ مقامًا من «المخافة»؛ المخافة عامَّة، تكون عن علم بما يُخافُ مِنه، وبغيرِ علم، أمَّا «الخَشيَةُ» فضربٌ خاصٌّ من المخافة؛ لإنَّها مخافةٌ مؤسَّسَةٌ علىٰ علمٍ، وعلىٰ استحضارِ شأنِ مَنْ يُخشَىٰ منه، وما يُخشَىٰ منه، وعلَىٰ عِلْمٍ بما يترتب علىٰ عدمِ اتقائه؛ ولذا قصر الله - تَعَالَىٰ - تَحقق خشيته علىٰ العلماء؛ الذين اتخذوا العلم النفيع في أيِّ مجالٍ من مجالات الحياةِ، وإن كان «أُمُّ العلومِ» العلمَ بكتابِ اللهِ - تعالَىٰ - وبسنة رسولِه - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلّم - ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ

ﭐلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٨]، وهو قصر صفةٍ علىٰ موصوفٍ، قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، طريقه «إنّما»، الدّالة علىٰ أنَّ ما يُنبّؤُ به أمرٌ مِن شأنِه أن يكونَ معلومًا، ومِن شأنِه ألّا يتوقّف فيهِ عَقيلٌ فَهيم؛ فضلًا عن أن يردّه.

الخوف من الله - عَزَّ وَعَلَا - يكونُ من العلماءِ وغيرِهم؛ بيْنا الخشيةُ منه لا تتحقَّق إلّا من العلماء، وهذا وحدَهُ كفيلٌ بأن يجعَل كلَّ نَصُوحٍ لنفسِهِ أن يكونَ مِن تلك «الطائفة: العلماء»، فلو لَم يكن لك من العلم الصّريحِ النّفيع إلّا أنْ تكونَ مِمّن يخشَىٰ الله - تَعالَىٰ - لكفاك، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

قولُه: ﴿ وَلۡيَخۡشَ ﴾ لم يُبيِّن لنا ما الّذي يُخْشَىٰ منْهُ؛ لأمورٍ مِنها:

- العموم، أي: خشية ما يجبُ أن يكون أهلًا لأن يُخشَىٰ.

- جلاء ما هو جديرٌ بالخَشية منه؛ ولذا قال بعد: ﴿ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾.

وقوله: ﴿ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾، أيْ: فليتقوا أن يكون منهم ما لا يرضاه - سُبْحانَهُ وَتَعَالَىٰ - مِن قولٍ أو فعلٍ أو حالٍ ظاهرٍ أو باطنٍ، وهذا يَستوجِبُ العلمْ بما لا يرضَاه - جَلَّ جلالُه - فكلُّ عملٍ غير مؤسَّسٍ علىٰ علْمٍ صحيحٍ صريحٍ وثيق هو المُفضِي إلىٰ ما لا تحمدُ عقباه، فالأمرُ في قوله: ﴿ وَلۡيَخۡشَ ﴾، وقوله: ﴿ فَلۡيَتَّقُواْ ﴾ مُتضمّن الأمر بالعلم بما يَرضاه الله - تعالَىٰ - وما لا يرضاه، وما يحبّ، وما لا يحبّ.

وفي القرآن والسنة بيانُ ذلك تصريحًا وتلويحًا، وهذا العلمُ مِن أوَّل وأهمّ حقوقِ الأبناء علىٰ الآباء، وهو في الوقتِ نفسِه من أكثر الحقوقِ إهدارًا؛ ومن ثَم

كثر عقوقُ الأبناء آباءهم؛ جزاءً وفاقًا.

والأمر في قوله تَعالىٰ: ﴿وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ من الأوامرِ التي لا يكاد يسْلمُ من الغفلة عنها أحدٌ، والقول السديد هو القول الذي لا خلل فيه؛ سواءٌ فيما تضمنه من معانٍ ومقاصد، أو في نظمه أو أدائه، أو مقامه... إلخ، وهذا يستوجبُ أن يكونَ المرءُ علىٰ علمٍ وثيقٍ مكين محيطٍ بما يوجب للقول السداد، ويعصمه من أن يمْنَىٰ بشيءٍ من الخللِ.

والقولُ جاء في الذكر الحكيم منعوتًا بثمانية نعوتٍ: (معروفًا) (٤ مرات)، و(سديدًا) (مرتين)، و(بليغًا، وكريما، وميسورا، وعظيما، ولينا، وثقيلًا) (مرةً لكلٍّ)؛ ممّا يهديك إلىٰ وجوب العلم بما يحقق لقولك هذه النعوت، وهو عِلْم جدّ ثقيل حملًا، وجدّ نبيل عطاءً، ولكن أكثر النّاس لا يشعرون.

هذا الأمر ﴿وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ علىٰ عظيم أهميته، وفداحة أثر التقصير في تحقيقه هو من أكثر الأفعال التي يمارسها الناسُ استهانة به، وغفلة عن آثاره.

• • •

تــدريبات

(أوّلًا): استقصِ ما في سورة (الأحزاب) من أساليب «الإنشاء الطلبيّ»؛ مبرزًا نوعَه، ونظم كل أسلوبٍ، مع تبيين المعنىٰ المدلول عليْه نظمًا وسياقًا.

(ثانيًا): استقصِ ما في معلقة «زهير» من الأساليب الإنشائية، محللًا كل أسلوبٍ، مبرزًا ما أفاده كلٌّ في سياقِه من المعاني الشعرية.

(ثالثًا): صُغْ مقالًا في موضوع: (الظُّلمُ ظُلماتٌ يومَ القيامة)؛ مشتملًا علىٰ أساليب الإنشاء الطلبي جميعًا، مع الضبط بالشكل التام، ووضع علاماتِ الترقيم، ثم حلِّل ما في مقالك من أساليبَ إنشائيةٍ؛ مبرزًا ما أفادته من المعاني السياقيّة.

• • •

البَابُ السَّابعُ

القَوْلُ فِي الفَصْلِ والوصل

الوَصْلُ عَطْفُ بَعْضِ الجُمَلِ علَىٰ بَعْضٍ[1]، وَالفَصْلُ تَرْكُه[2].

وَتَمْييزُ مَوضِعِ أَحدِهما مِن مَوضِعِ الآخَرِ علَىٰ ما تَقْتَضِيهِ البَلاغَةُ فَنٌّ مِنْها عَظيمُ الخَطَرِ، صَعْبُ المَسْلَكِ، دَقِيقُ المَأْخَذِ، لَا يَعْرِفُهُ علَىٰ وجْهِهِ، وَلَا يُحِيطُ عِلمًا بكنهِهِ، إلَّا منْ أُوتِيَ فِي فَهْمِ كَلَامِ الْعَربِ طَبْعًا سَلِيمًا، وَرُزِقَ فِي إِدْراكِ أَسْرارِهِ ذَوْقًا صَحِيحًا؛ وَلِهذَا قَصَرَ بَعْضُ العُلَماءِ البَلاغَةَ عَلَىٰ مَعْرِفَةِ «الفَصْلِ مِن الْوَصْلِ»، وَمَا قَصَرَها عَلَيْه لأنّ الأمْرَ كذلك، إنّما حَاولَ بِذلِكَ التَّنْبيهَ علَىٰ

(١) هذا التَّعريفُ يحتاجُ إلىٰ إضافةِ «بالواو خاصَّةً»، حتىٰ لا يدخلَ فيه علىٰ مذهبهم العطفُ بغير «الواو».

والأَوْلَىٰ أن يُقال: الفصل والوصل عند البلاغيين: «عطفُ جملة علىٰ أخرىٰ لا محل لها من الإعراب، أو قيد معنوي يراد إشراكها فيه بالواو خاصة».

هذا التعريفُ مكتملُ الأركانِ، وهي علىٰ النحو التالي: (عطف جملة علىٰ جملة)، يُخْرِج عطفَ المفردات، و(لا محلّ لها من الإعراب، أوْ قيدٍ معنويٍّ يراد إشراكها فيه)، يخرج عطف جملة علىٰ جملة، لها محلّ من الإعراب، أو لها قيد، (بالواو خاصة) يخرج ما كان العطف فيه بغير(الواو).

ولا يُفْهَمُ من هذا أنَّ ما أخرجَه التّعريفُ لا يدخل في بلاغة الكلام، كلَّا، هو لا يَدْخُلُ في الفصل والوصل الاصطلاحي، أي: عند البلاغيين خاصَّةً، فهو تحريرٌ لمصطلح: «الفصل والوصل» عند البلاغيين وحْدَهم.

(٢) قوله: «وَالْفَصْلُ تَرْكُه» معناه: والفصل - مصطلحًا بلاغيًّا - هو تَرْكُ عطف جملة علىٰ جملة لا محل لها من الإعراب، أو قيد معنوي بالواو خاصَّةً.

وهذا لا يعني أنَّا نُسَمّي العطفَ بالفاء «فصلًا»، أو العطفَ بالواو علىٰ جملة لها محلٌّ من الإعراب «فصلًا» - هذا يُسَمَّىٰ: (عطفًا نحويًّا)، لا فصلًا بلاغيًّا، فوجَبَ تحريرُ مفهوم المصطلح البلاغِيِّ، فتحريرُ مفاهيم المصطلحات مُهمٌّ جِدًّا في تحقيقِ حُسن الفهمِ.

مزيدِ غموضِهِ، وأنَّ أحدًا لا يكمُل فيه إلّا كمُل فِي سائرِ فنونِها، فَوَجَبَ الاعْتِنَاءُ بِتَحْقِيقِهِ علَىٰ أَبْلَغِ وَجْهٍ فِي البَيَانِ، فنقول - واللهُ المستعان[1]:

• • •

[أحْوالُ الفَصْلِ والوصْل بيْن جُمَلٍ مُشتَركَةٍ فِي الحُكْمِ]

إِذَا أَتَتْ جُمْلَةٌ بَعْدَ جُمْلَةٍ، فالأُولَىٰ مِنْهُما إمّا أنْ يكونَ لَها مَحَلٌّ مِن الإعْرابِ أَوْ «لا»[2]، وَعَلَىٰ الأَوّلِ إِنْ قُصِدَ التَّشْرِيكُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الثَّانِيَةِ فِي حُكْمِ الإعْرابِ

---

(١) أيْ: قَصَرَ البلاغَةَ علىٰ معرفةِ الفصل والوصل قصرًا للمبالغَةِ والادِّعاءِ؛ إيماءً إلىٰ أنَّ معرفَةَ ما سواهما أيسَرُ من معرفتِهما؛ لحاجتهما إلىٰ مزيدِ لقانيةٍ ويقظةٍ، وتبَصُّرٍ وتدسُّسٍ في حركة المعنىٰ، والبصرِ بأنساب المعاني بين الجُمل والفِقَر، ونحوِهِمَا.

فمَنْ ملكَ القدرةَ علىٰ معرفة مواضِعِ الفصل من الوصل، وهو يُبين عن معانيه كان المُقتدرَ علىٰ أن يعرفَ مواقعَ الأساليبِ الأُخَر، وما بينها من فروق؛ لما يحتاجه عرفانُ البليغ بمواقعِ العطف بالواو بين الجمل إلىٰ مزيدِ حكمةٍ وبصيرةٍ.

وكذلك مَن ملك القدرةَ علىٰ معرفة مقتضِيات الفصل، ومقتضيات الوصل، وهو يتلقَّىٰ البيانَ البليغَ، والقدرةَ علىٰ مَعرفةِ أثرِ ذلك في المعنىٰ، كان علىٰ غيرِ ذلك أقدرَ.

(٢) لا يكونُ للجملة محلاً من الإعراب إلا إذا صَلَحَتْ أنْ تقعَ موقِعَ المفرد، وهي سبْعُ جُمَلٍ:

الواقِعةُ خبرًا: محمدٌ يقرأ القرأن.

الواقِعةُ حالًا: جاء محمدٌ يرتل القرآن.

الواقِعةُ مفعولًا: يقُول محمدٌ: إنَّ أباه مسافرٌ.

الواقِعةُ مضافًا إليه: اجلس حيثُ يجلس خالدٌ.

التابعةُ لمفرد، كالجملة الواقعة بعد نكرةٍ: جاء رجلٌ يحفظ القرآن.

الواقِعةُ جوابًا لشرطٍ جازمٍ، إذا كانت مقرونة بالفاء، أو بـ(إذا) الفجائية، نحو: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦]

التابعةُ لجملة لها محلٌّ من الإعراب: محمد يقرأ القرآن، ويصلي علىٰ النبيّ - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلّم.

عُطِفَتْ عَلَيْهَا[١]، وَهذَا كَعطْفِ المُفرَدِ علَىٰ المُفرَدِ؛ لأنّ الجُملةَ لا يَكونُ لَها مَحَلٌّ مِن الإعرابِ، حتّىٰ تَكونَ واقِعةً مَوقِعَ المُفردِ، فكَمَا يُشْتَرَطُ فِي كَونِ العَطْفِ بـ(الواو) ونحوِه مَقبُولًا فِي المُفْرَدِ أنْ يَكونَ بَيْنَ المَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ جِهَةٌ جامِعَةٌ[٢]، كَما فِي قولِه تَعالىٰ: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾ [سبأ:٢]، [الحديد:٤][٣] - يُشْتَرَطُ فِي كَونِ

(١) كما في قولِك: (محمدٌ ينصُر الحقَّ بالحقِّ، ويصنَعُ الخيرَ، وينشرُه في النّاس)، قولُك: (ينصُر الحقَّ بالحقِّ) له محلٌّ من الإعراب (خبر)، عطفْتَ عليه قولَكَ: (يصنع الخير وينشره)؛ ليشارِكَه في حكم الخبريَّة.

وقولُه تَعالَىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ [النصر: ١ - ٣] قولُهُ: (جاء نصر الله) فِعلُ الشّرط، عُطِفَ عليه: (رأيت الناس)؛ لمشاركته في الحكم (فعل الشرط)، وقَوْلُه: (سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) جواب الشرط، عطف عليه قوله: (استغفره)؛ لمشاركته في الحكم (جواب الشرط).

(٢) أيْ: إنّه لا يصحّ عطفُ شيْءٍ علَىٰ شيْءٍ - جملةً أوْ مفردًا - إلاّ إذا كان هنالك عَلاقةٌ بيْنهما، تُسمّىٰ: «الجامع»؛ أي: ما يَجْمَعُ بيْن المُتعاطفيْن، وقوله: (عطف) يتضمنُ اشتراطَ الجامعِ؛ لأنَّه لا يكونُ إلّا إذا كانت عَلاقَةٌ.

وقد يكونُ الجامعُ ظاهرًا وقريبًا، وقد يكونُ خفيًّا بعيدًا، وكلَّما كان الجامِعُ خفيًّا كان البيانُ أمتعَ بلاغةً. واستبصارُ الجامعِ في البيانِ البَليغِ يَحتاجُ إلىٰ فِرَاسَةٍ بيانيّةٍ، وبصيرةٍ نافذة، وقدرةٍ علىٰ إدراكِ خفيِّ أنسابِ المعاني.

(٣) سِياقُ الآيَةِ: طَليعَةُ سورَةِ «سَبأ»، بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [سبأ: ١ - ٢]، وسورة (الحديد) بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [الحديد: ١ - ٤].

عَطَفَ (مَا يَخْرُجُ مِنْهَا) علىٰ (مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ)، وعطفَ (مَا يَعْرُجُ فِيهَا) علىٰ (مَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء)؛ لما بين كلِّ جُملتين من التَّقابُل.

العَطْفِ بِالواوِ ونحْوِه مَقبولًا فِي الجُمْلَةِ ذَلِكَ، كَقَولِكَ: (زَيدٌ يَكْتُبُ وَيُشْعِرُ، أَوْ يُعطِي وَيَمْنَعُ)[1]، وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[البقرة: ٢٤٥][2]؛ وَلِهَذَا عِيبَ علَىٰ أَبِي تَمَّامٍ قَوْلُه:

لَا والَّذِي هُوَ عالِمٌ أنَّ النَّوَىٰ ... صَبِرٌ، وأنَّ أبا الحُسَيْنِ كريمُ[3]

وفي الآيَةِ نَسَقٌ بديعٌ (يلج) مقابل (يخرج)، و(ينزل) مقابل (يعرج)، بدأ في كلٍّ بما هو إلىٰ السفول (يلج)، (ينزل)، وثنىٰ في كلٍّ بما هو إلىٰ الصعود (يخرج)، (يعرج)، وهذا دالٌّ علىٰ كَمَالِ العلم والقُدرة، الدّالَّيْنِ علىٰ وحدانيته وعزته - سُبحانه وتعالىٰ.

(١) بين الكتابة والشِّعر جِهَةٌ جامِعَةٌ، بالغَةُ الظهورِ، وبين الإعطاءِ والمَنعِ جهةٌ جامعَةٌ ظاهرةٌ أيضًا (التضاد).

ولو قيل: (محمدٌ يضحك، ويمشىٰ) لكان قبيحًا، فليست عَلاقةٌ بيْن (الضحك) و(المشي).

(٢) يقُولُ الحقُّ - جلّ اسْمُهُ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[البقرة: ٢٤٥]، عُطِفَ قولُه: (يبسط) علىٰ قوله: (يقبض)، الواقع خبرًا عن اسم الجلالةِ؛ لمُشاركَتِهِ في الحكم الإعرابي، فاللهُ العليّ القديرُ جامعٌ كمالَ الفعليْن، وجاء الإعرابُ بالفعل المضارع إيماءً إلىٰ أنّه فِعْلٌ مُتَجَدِّدٌ بالنسبةِ لكلّ مخلوقٍ، دائمٌ لا ينقطِعُ.

(٣) البَيْتُ من قصِيدةٍ لأبي تمام، يمدحُ بها محمد بن الهيثم الشّيبانيّ، يقولُ فيها:

زعمت هواكَ عفا الغداةَ كما عفتْ ... مِنْها طُلولٌ باللِّوَىٰ ورُسُومُ

لا والـذي هوَ عـالمٌ أنَّ النَّـوىٰ ... صَبِـرٌ وأنَّ أَبَـا الحُسَـيْنِ كَرِيـمُ

ما زِلْتُ عَنْ سَـنَنِ الوِدَادِ ولا غَدَتْ ... نفسـي علـىٰ إلـفٍ سـواكِ تحومُ

قولُهُ: (لا والّذي هو...) رَدٌّ علىٰ قولِهِ: (زعمتْ) أي: لم يعف هواها من فؤادي، ثم يُقسم بالله - تَعالىٰ - معربًا عنه بقوله: (والّذي هو عالم...)، وجواب القسَم: (مازِلْتُ عَنْ سنن الوداد ...) أي: ما تحوّلت عمّا كنتُ عليْهِ مِن هواها.

أبو تمام عطف قوله: (أنَّ أَبَا الحُسَيْنِ كَرِيمُ) علىٰ قوله: (أنَّ النـوىٰ صَبِرٌ)، وجعلهما معًا من معلوم الله - تَعَالَىٰ - وليس ثَمَّ جامعٌ ومناسبَةٌ ظَاهِرَةٌ بَيْنَ كَرَمِ أَبِي الحُسَيْنِ وَمَرارَةِ النَّوَىٰ.

وبالرُّجوعِ إلىٰ ما قيل في شأنِ الجامعِ، وتقسيمهِ إلىٰ «عقليّ»، و«وهمِيّ»، و«خياليّ» تجدُ العَلاقةَ بين الأمرين المذكورين في البيتِ بينهما جامِعٌ وهْمِيٌّ؛ لاجتماعِ لازم «كرم أبي الحسين»، و«مرراة

إذ لا مُناسَبَةَ بيْن كَرَمِ أَبِي الحُسَيْنِ ومَرارَةِ النَّوَىٰ، وَلا تَعَلُّقَ لأحَدِهِمَا بالآخَرِ.

• • •

[الفَصْلُ لِعَدَمِ الاشْتِراكِ فِي الحُكْمِ]

وإنْ لَمْ يَقْصِدْ ذَلِكَ تُرِكَ عَطْفُهَا عَلَيْها[1]، كَقَوْلِهِ تَعالىٰ: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤ – ١٥]، لَمْ يُعْطَفْ ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ علىٰ ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾؛ لأنَّه لَو عُطِفَ عَلَيْهِ لَكَانَ مِن مَقُولِ المُنافِقِين، وَلَيْسَ مِنْهُ[2]، وكَذا قوله تَعالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ

النَّوَىٰ»، علىٰ ما سيأتيك في مبحثِ «الجامع» – إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ.

(١) اسمُ الإشارةِ فِي قولِهِ: (وإنْ لَمْ يَقْصِدْ ذَلِكَ) يُرادُ به عدمُ التَّشريكِ في الحُكْمِ، أي: إنَّه إذا لم يقصِد المتكلِّمُ أن يُشْرِكَ الثّانِيَةَ للأولىٰ في حُكْمِها – علىٰ المُتكلِّمِ أن يترُكَ العطف بـ(الواوِ)؛ سواء كان بينهما جامعٌ، أو لم يكن بينهما جامع، فعِلَّةُ تَرْكِ العطفِ عَدَمُ قصدِ التَّشريكِ فِي الحُكْمِ.

(٢) قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤ – ١٥] مُكَوَّنٌ من أمرَيْنِ؛ من قَوْلِهِ تعالىٰ: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾، ومن قولِهِ: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، الأولُ من شَرطٍ وجوابه، وجُملةُ الجوابِ – كما ترَىٰ – مكونةٌ من فعلِ القَوْلِ من المنافقين، ومقولِه، ومقولُ القوْلِ جملتان: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، و﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾، وهما معًا منْ كلامِ المنافقين، الثّانية مؤكدة للأولَىٰ.

ثم يأتي الرَّدُّ من الله – تَعالىٰ – علىٰ قول المنافقين لليهودِ: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ قائلًا: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، فهذه من كلام اللهِ – تَعَالَىٰ – فلو عُطِفَتْ علىٰ ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، أو علىٰ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ لكان من مقول المنافقين؛ في حين هو من قول الله – تعالىٰ – فكان ترْكُ العَطفِ لعدمِ قصدِ التّشريك في الحكم؛ لأنَّ بهذا التَّشريك يفسُد المعنىٰ.

هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ ﴾[البقرة: ١١ - ١٢][(١)]، وكذا قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ١٣][(٢)].

• • •

[العَطْفُ بَيْنَ الجُمَلِ بِغيرِ الواوِ]

وَعَلَىٰ الثَّانِي إنْ قُصِدَ بَيانُ ارْتِباطِ الثّانِيَةِ بالأُولَىٰ عَلَىٰ مَعْنَىٰ بَعْض حُروفِ الْعَطْفِ سِوَىٰ «الواو» عَطَفْتَ عَلَيْهَا بِذلِكَ الْحَرْفِ، تَقُولُ: «دَخَلَ زَيْدٌ، فَخَرَجَ عَمْرٌو»، إذا أَرَدْتَ أن تُخبِرَ أنّ خُروجَ عَمْرٍو كان بَعد دُخولِ (زَيدٍ) مِن غيرِ مُهْلَةٍ، وَتَقولُ: «خَرَجْتُ، ثُمّ خَرَجَ زَيْدٌ»، إذا أَرَدْتَ أن تُخْبِرَ أنّ خُروجَ زَيْدٍ كان بَعدَ خُروجِكَ بِمُهْلَةٍ، وَتقولُ: «يُعْطِيكَ زَيْدٌ دِينارًا، أَوْ يَكْسُوكَ جُبّةً» إذَا أَرَدْتَ أنْ تُخْبِرَ أنَّهُ يَفْعَلُ واحِدًا مِنْهُما لا بِعَيْنِهِ[(٣)]، وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ

---

(١) نسقُ هذه الآيَةِ كمثل نسقِ الآيَةِ السَّابِقَةِ إلاّ أنَّ مقولَ المنافقين هنا جُملَةٌ واحدَةٌ: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، وجملةُ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ من قولِ الله - تَعالىٰ - ولا يَصحّ عطفُ قولِه - تَعالَىٰ - علَىٰ قول المنافِقين؛ لئلّا يُظنّ أنّ الجُملتَين معًا منْ مقولِ المُنافِقين، فيفسُدُ المَعنىٰ، فتركُ العطفِ هنا اتقاءُ فسادِ المعنىٰ.

(٢) الأمرُ في هذ الآية كالآيتين قبْلها؛ مقالَةُ المنافقين جملةٌ واحدٌة: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾، وجملةُ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ من قول الله - تعالىٰ - ولو عُطِفَت بالواو لتُوُهِّمَ أنَّ الجملتين من مقول المنافقين، وهذا يفسد المعنىٰ أيضًا، فترْكُ العطف هنا لدفْعِ فَسادِ المعنىٰ.

(٣) يُشيرُ هنا إلىٰ أنّ العطفَ بغيرِ «الواو» مثل «الفاء»، و«ثُمَّ» - إذا أُريدَ بيانُ ارتباط الثانية بالأولىٰ صحَّ لك العطفُ، فأنت إذا أَردْتَ أن تربطَ بين حَدَثَيْنِ وقعَ كُلٌّ مِن واحدٍ غيرِ الآخرِ، جاز لَك أن تعطفَ بغير (الواو)، تقولُ: (أُذّن لصلاة الصّبح، فوُلِدَ خالدٌ) أردْتَ أن تُفيدَ أنَّ ولادتَه كانت مقترَنَةً بالأذان علىٰ الفورية، وإنْ قلْتَ: (ثُم ولِدَ خالدٌ) كنت تُريد إفادَةَ حدوثِ الولادة من بعد

﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾[النمل: ٢٧][(١)].

• • •

[ترك العطف لعدم الاشتراك في القيد]

وإنْ لَم يَقْصِدْ ذَلِك، فإنْ كانَ لِلأُولَىٰ حُكْمٌ، وَلَمْ يُقصَدْ إعطاؤُه للثَّانيَةِ تَعيّنَ الفَصْلُ، كَقَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[البقرة: ١٤-١٥]، لَمْ يَعْطِفْ ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ علَىٰ ﴿قَالُوٓا۟﴾؛ لِئلَّا يُشارِكَهُ فِي الاخْتِصاصِ بالظَّرفِ المُقدَّمِ، وهُو قولُه: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ﴾، فإنَّ اسْتهزاءَ اللهِ - تَعالىٰ - بِهِم - وهُوَ أَنْ خذَلَهُم، فَخَلَّاهُمْ، وَمَا سَوَّلَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ مُسْتَدْرِجًا إِيَّاهُم مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرونَ - مُتّصِلٌ لا يَنقَطِعُ بِكُلِّ حَالٍ؛ خَلَوْا إِلَىٰ شَياطِينِهِم، أمْ لَمْ يَخْلُوا إِلَيْهِم[(٢)].

الأذان بمُدَّةٍ.

وعليك أنْ تلحظَ أنَّ قولَه: (دَخَلَ زَيْدٌ، فَخَرَجَ عَمْرُو) لا يستقيمُ أن تَعطف (خرج عمروٌ) بأيّ عاطفٍ إلا إذا تحقق أمران:

الأوّل: أن تقصد الإخبار بالأمرين معًا، وبك حاجةٌ إلىٰ ذلك، وإلّا لا معنًىٰ لأنْ تجمعَ بيْنهما.

الآخر: أن يكون مخاطبُك بحاجةٍ إلىٰ أن يعلم نبأ كلٍّ، وما كان منهما، فلو أنَّ الأمرَ لا يعنيه، أو يعنيه نبَأُ أحدِهما دون الآخر، أو يعرف أحدهما ويجهل الآخر فلا معنًىٰ لهذا العطف.

(١) ورد ذلك القولُ من سيِّدِنا سليمانَ - عَليه السّلام - للهدهد حين أخبره بما ذكرت الآيات قبلُ، فما كان من نبيِّ اللهِ - تعالىٰ - إلا أنْ أخبرَه أنَّه سينظر في ما أخبرَ به، وقَدَّمَ قولَه: «صدقت» لحسن ظنّ منه بالهدهدِ، وهُو يعلم أنَّ الهدهد لن يكذب عليه؛ لأنه يعلم أنه نبي الله، وقوله: (أم كنت من الكاذبين) تعليم لنا ألا نأخذ أي قولٍ إلّا من بعد تثبت، فتلك هي الحكمة. وفرْقٌ بيْن التَّوثُّق وسوءِ الظنِّ، فافهم.

(٢) سبق النظرُ في منْع عطف (اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) علىٰ (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ)، وهنا النَّظرُ في منع عطف (اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) علىٰ (قالوا)؛ لأنّه لو عُطِفَ عليه كان المعنىٰ: أنّه لا يستهزئُ بهم إلَّا

وَكَذَلِكَ فِي الآيَتَيْنِ الأخِيرَتَيْنِ، فَإِنَّهُمْ مُفْسِدونَ فِي جَميعِ الأَحيانِ، قِيلَ لهم: لا تفسِدوا، أوْ لا، وَسُفَهاءُ فِي جَميعِ الأوْقاتِ، قِيلَ لَهُمْ: آمِنُوا أوْ لَا.

• • •

[أحْوالٌ أُخَر لِلْفَصْلِ]

وإنْ لَم يَكنْ لِلأُولَىٰ حُكْمٌ كَما سَبَقَ[1]، فإنْ كانَ بيْن الجُملتَين كَمالُ الانْقِطاعِ، وليس في الفَصلِ إيهامُ خِلافِ المَقْصودِ - كما سَيأتِي - أوْ كمالُ الاتّصال، أوْ كانَت الثَّانيةُ بِمَنزِلةِ المُنقطِعةِ عَن الأُولىٰ، أوْ بِمَنزلة المُتَّصلةِ بِها - فَكذلِك يَتَعَيّنُ الفَصْلُ.

• • •

[وَجْهُ تَعَيُّنِ الفَصْلِ فِي هذِه الصُّورِ الأَرْبَعِ]

أَمَّا فِي الصُّورةِ الأُولَىٰ؛ فَلأنَّ «الواوَ» لِلْجَمْعِ، وَالْجَمْعُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ يَقْتَضِي مُناسَبَةً بَيْنَهُما - كَما مَرَّ.

وَأَمَّا فِي الثَّانيةِ؛ فَلأنَّ العطفَ فيها بِمنزِلةِ عطفِ الشَّيْءِ علَىٰ نَفْسِهِ، مَع أنّ

إذا خَلوا، فاسْتهزاؤُه بهم سيكونُ مقيدًا بزمان الخلوة، وهذا غيرُ حَقٍّ. هو - سُبْحَانَهُ وتعَالىٰ - يستهزِئُ بِهم فِي كلِّ وقتٍ.

(١) وهذا يتَمَثَّلُ في ثلاث صور:

ألَّا يكون للأولىٰ حكمٌ إعرابي.

ألَّا يكونَ للأولىٰ قيدٌ معنوي؛ كأنْ تكون جملة شرطٍ.

أن يكون لها أحدُهما، ولا يُرادُ إشراك الثانية فيه.

العَطفَ يَقتضِي التَّغايُرَ بيْن المَعطوفِ وَالمَعْطوفِ عَليهِ.

وأمَّا فِي الثَّالِثَةِ والرّابِعةِ، فَظاهِرٌ مِمَّا مَرّ.

• • •

[كَمالُ الانْقطاعِ]

وأمّا «كَمالُ الانْقطاعِ» فَيكونُ لِأَمْرٍ يَرْجعُ إلَىٰ الإسْنادِ، أَوْ إلَىٰ طَرَفَيْهِ[1].

(الأَوّل): أنْ تَختلِفَ الجُملتانِ خَبرًا وَإنشاءً:

أ) لَفْظًا وَمَعْنًىٰ، كَقَولِهِمْ: «لَا تَدْنُ مِنَ الأَسَدِ يَأْكُلُكَ»، و«هَلْ تُصْلِحُ لِي كَذا أَدْفَعُ إلَيْكَ الأُجْرَةَ؟ بِالرّفْعِ فِيهِما[2].

وَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَقَالَ رَائِدُهم أرْسُوا نُزَاوِلُهَا ... فكلّ حَتْفِ امرِئٍ يجْرِي بمقدارِ[3]

---

(١) سَبَبُ الانقطاعِ بيْن الجملتين إما اختلافُ الجملتَيْن في الخبرية والإنشائيَّةِ في المعنىٰ واللَّفظ معًا، أو فِي المعنىٰ وحْدَه، أوْ لا يكونُ بيْنهما جامعٌ، وهذا السببُ الثاني لا يتحقَّقُ في الكلامِ البليغِ؛ ولا سيما في بيان الوحي قرآنًا وسُنَّةً.

(٢) إنْ جَزمتَ (يأكلك)، أو (أدفع) كان الكلامُ في كلٍّ أسلوبًا واحدًا، والجزمُ يكون علىٰ تقدير شرطٍ في كلٍّ: (إنْ تدنُ يأكلْك، وإن تُصْلح أدفعْ).

(٣) البيتُ للأخطل، كما في كتاب سيبويهِ، وليس في «الديوان». «الرائد»: مَن يتقدَّمُ قومَه طلبًا للماء والكلأ ونحوهما. «أرسوا»: أمرٌ من رست السفينة، ومنه: «المَرسَىٰ» مكان رسوها، و«المرسَاة»: الأداة التي يُرسَىٰ بها. و«نُزاول»: نحاول، و«الهاء» في «نزاولُها» يحتمل أن يعود إلىٰ السفينةِ أو الحرب. و«الحَتف»: الموت».

قال: «نزاولُها» بالرّفعِ، فكان بين جملة (أرسُوا)، وجملة (نُزاولُها) «كمال انقطاعٍ في النسبة»؛ الأولىٰ (إنشاء؛ أمر)، والثانية (خبر)، فإنْ جزمْتَ «نزاولْ» كانت في جواب الأمر، فلا يكونُ في البيتِ

ب) أَوْ مَعْنًىٰ، لَا لَفظًا، كقولِكَ: ماتَ فُلانٌ - رَحِمَهُ اللهُ»[١].

وَأَمَّا قَوْلُ اليَزِيدِيِّ:

مَلَّكْتُـهُ حَبْلـي، ولكنَّـهُ أَلْقَـاهُ مـن زُهْـدٍ عَلـىٰ غارِبي
وقـالَ إِنِّـي في الهَـوىٰ كاذِبٌ انْتَقَـمَ اللهُ مِـن الْـكاذِبِ[٢]

شاهدٌ.

فإنْ قلتَ: إنَّ جملَةَ: «أرسُوا» في البيت جملةٌ لها محلٌّ من الإعراب، وكلامُنَا في الجملة التي لا محلّ لها من الإعراب، وعلىٰ هذا لا يكون البيتُ مما نحن فيه؛ «الفصل لكمال الانقطاع». قلتُ: الذي يجبُ أن تكون علىٰ ذكر منه أن الجملة الأولىٰ إذا كانت مقول قولٍ، فأنت أمام أمرين:

الأول: اعتبار حال الجملة الأولىٰ، كما في البيت، فيكون لها محل.

الآخر: اعتبارها في لسان من يُحكَىٰ عنه، أي: في المحكِي، لا في الحكاية؛ المحكيّ هو كلام المنقول عنه، «المخبر عنه»، والحكاية هي كلام المُخبر «الشاعر».

إن اعتبرْتَ الجُملةَ في كلامِ المَنقُولِ عنه «الرائد»، فهي لا محلّ لها، والبيت صالح لاستشهاد به في «كمال الانقطاع»، وإذا اعتبرتَها في الحكاية «كلام الشاعر»، فالجملة لها محل من الإعرابِ، فلا يصلح للاستشْهاد. وهذه قاعدَةٌ استصْحبْها في كلِّ ما تحقَّقَ فيه «المحكي» و«الحكاية».

(١) قوله: «رَحِمَهُ اللهُ» جملةٌ إنشائيَّةٌ دُعائيَّةٌ، وإن كان لفظها علىٰ الخبرية؛ تفاؤلاً أنَّ ذلك مُتحقِّقٌ ثقَةً بواسِعِ رحمتِه - تعالىٰ - فأنت تُخبِرُ، لا تدعو. فكأنك تخبر بأمرين: (موته)، و(رحمة الله - تَعالَىٰ - له)، الأول علىٰ التّحقيق، والآخر علىٰ الادِّعاء تفاؤلًا.

وهذا متداولٌ بيْن الناس، وهو جميلٌ من البليغ؛ لأنَّه يقصد هذا المعنىٰ النبيل التَّفاؤليّ، أما الدهماءُ فيقولونه تقليدًا، وتقليدُ أهلِ الفضلِ فِي الخير خيرٌ، فافهمْ.

(٢) البيْتان لأبي محمد يحيىٰ بن المبارك بن المغيرة العدوي، شاعرٌ وراوية، وعالمٌ باللغة (ت: ٢٩٢هـ). قولُه: «مَلَّكْتُهُ حَبْلي»: جعلتُ له سلطانًا عليّ. و«غارِبي»: كاهلي، و«الغارب» للبعير ما بيْن الظهر والعنقِ، ما يُلقَىٰ عليه رَسَنُه.

محلُّ النَّظرِ قولُهُ: «إِنّي في الهَوىٰ كاذِبٌ»، «انْتَقَمَ اللهُ مِن الكاذِبِ»، هما جملتان؛ الأولىٰ: خبرية، مقول القول. والأخرىٰ: خبريَّةٌ لفظًا، إنشائيَّةٌ معنًىٰ (دعاء)، ففصلت الثانيةُ؛ لاختلافها في النسبة الكلامية معنًىٰ عن الأولىٰ.

فَعَدَّهُ السَّكَّاكِيّ - رَحِمَهُ الله - تعالىٰ - مِنْ هَذا الضَّرْبِ، وَحَمَلَهُ الشَّيْخُ عَبْدُ القاهِرِ - رَحِمَهُ اللهُ - تعالىٰ - عَلَىٰ «الاسْتِئنافِ» بِتَقْديرِ: (قُلْتُ)[1].

(الثَّانِي): أن لا يكونَ بيْن الجُملَتينِ جامِعٌ - كَما سَيَأتِي[2].

• • •

[كَمالُ الاتِّصال]

وَأَمَّا كَمَالُ الاتّصالِ، فَيَكُونُ لأمُورٍ ثَلاثَةٍ:

[الصُّورَةُ الأُولَىٰ: تنزيل الثانية منزلة التوكيد من الأولىٰ]

الأوّلُ: أنَ تكونَ الثّانِيةُ مؤكِّدةً لِلأُولَىٰ[3]، والمُقْتضِي للتّأكيدِ دَفْعُ تَوَهُّمِ

وجملة: «إنّي في الهَوىٰ كاذِبٌ» لها محلٌّ من الإعرابِ، والذين مثلوا بالبيت قطعوا النَّظَرَ عن «الحكاية»، والتفتوا إلىٰ المحكيِّ (كلامِ المحبوب)، وعلىٰ هذا فلا يكونُ للأُولَىٰ محلٌّ من الإعراب.

(١) ذهب عبدُ القاهر - مُحقًّا - إلىٰ أن جملة: (انتقم) إنَّما هي جوابُ سؤالٍ تولَّدَ من جملة: (قال: إنّي في الهوَىٰ كاذب)، لما قال الشّاعرُ ذلك تخَيَّلَ أنَّ هنالك مَنْ سأله، وماذا قلتَ أنت ردًّا عليه؟ جاء قوله: «انْتقمَ...»، أيْ: قلتُ: «انتقم الله...»، وهذا كنايةٌ عن صدقِه، لا يدعُو علىٰ نفسِه إلا إذا كان واثقًا أنَّه عَلىٰ غير ما اتَّهمَه به محبوبُه.

وعُظمُ ما جاءوا به في باب «كمال الانقطاع» الأعلىٰ حملُهُ علىٰ «الاستئناف البياني: شبه كمال الاتصال» كما سيأتي - إن شاء الله تَعالىٰ.

(٢) أي: إنَّ الجملتيْن متفقتان في النسبةِ الكلاميَّةِ؛ بَيْد أنّه لا جامعَ بيْنهما، والعطفُ بـ«الواو» شَرْطُ صِحَّتِه أن يكونَ جامعٌ بيْن طرفيهِ.

وهذه الصّورَةُ في البيانِ البليغِ قليلَةٌ جدًّا، وما يُقال في مثله: إنَّه لا جامِعَ بينهما عند التّحقيق ستَجِدُ أنَّ هنالك جامعًا لطيفًا خفِيًّا؛ لأنَّ الكلامَ صادِرٌ من بليغ أديبٍ، فالأنْسابُ بيْن معاني الكلامِ البَلِيغِ مقدسّةٌ كتقديسِ الأنسابِ بين الأنامِ.

(٣) التأكيدُ بين الجُمَلِ ضَربان:

التَّجوزِ والغَلطِ[1].

وَهُوَ قِسْمانِ:

(أحَدُهُما): أن تُنزّلَ الثَّانيةُ مِن الأُولَىٰ مَنزِلةَ التَّأكِيدِ المَعْنَوِيّ مِن مَتْبوعِهِ فِي إِفادَةِ التّقرِيرِ، مَع الاخْتلافِ فِي المَعْنَىٰ[2]، كَقولِه تَعالَىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: ١ - ٢]، فإنَّ وِزانَ ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ فِي الآيَةِ وِزَانُ «نَفْسِهِ» فِي قَوْلِكَ: «جَاءَنِي الْخَلِيفَةُ نَفْسُهُ»[3]، فإنّه لَمّا بُولِغَ فِي وَصْفِ الكِتابِ بِبلُوغِهِ

(الأوّل): لفظِيٌّ إذا تَطابَقَ منطوقُ الجملتين ومعناه، وهذا ما يُسمّىٰ بـ«التّكرار»، وليس كلامُنا فيه في هذا الباب، بلْ في باب: «الإطناب».

و(الآخرُ) معنًىٰ، وهو نوعان:

- ما تلاقيا في المعنىٰ المقصُودِ.

- ما تلاقيا في الغرض من المعنىٰ المقصود.

الأولُ يَنزِلُ منزِلَةَ التَّوكيدِ اللَّفظيِّ بين المفردات، والآخرُ يَنزِلُ منزِلَ التَّوكيدِ المَعْنَويّ فِي المُفْردات. وهذا التَّصنيفُ بِحَسَبِ مناطِ التلاقي بيْن الجملتين.

(١) توَهُّمُ التَّجوُّزِ: أنْ يظُنَّ السّامِعُ أنَّ المتكلمَ إنَّما يتَجَوَّزُ في كلامِه، كأنْ يقولُ: «زارني الأميرُ»، فيظُنُّ السّامعُ أنَّه يُريد بالأمير وزيرَه لا هو، فلكي يدْفَعَ هذا التّوهُّمَ يقول: «زارني الأميرُ نفسُه»، فلا يتوهم أحدٌ أنّه يريدُ التجوز. وهذا يُمْكِنُ أن يكون مع بيان الإبداعِ البَشَريّ شِعرًا وَنثرًا أدبيًّا.

وتَوَهُّمُ الغلَطِ أو النِّسيان قد يكونُ في بَيانِ العَامَّة، أما في بيانِ البَليغِ فلا يكونُ، ولا يشتَغِلُ به العقلُ البلاغيُّ، ولا تكادُ تجِدُ منه شيئًا في شعرٍ أوْ نثرٍ أدبيٍّ، اللَّذين هما مشغلَةُ النَّظرِ البَلاغِيِّ من بَيانِ النَّاسِ.

(٢) يُريد بالمعنىٰ هنا: (معنىٰ المنطوق)، فمعنىٰ المنطوقِ في (ذَٰلِكَ)، و(لَا رَيْبَ فِيهِ)، و(هُدًىٰ لِّلْمُتَّقِين) مختلِفٌ.

(٣) وَجْهُ ذلك أنَّ قولَه تَعالىٰ: (ذَٰلِك الكتاب) دالٌّ بنظمِه علىٰ كَمَالِه في نفسِهِ؛ وذلك من الإعرابِ باسمِ الإشارة للبعيد (ذَٰلِك)، والإخبارِ عنه بقوله: (الكتاب) المُعَرَّف بـ(أل)، فكأنّه قيل: (هو الكتاب الكامل)، كما تقولُ: (هو الرَّجل)، أي: (الكامل في الرجولة)، ثم يأتي بعده: (لارَيْبَ فِيهِ)، ونفيُ الرّيب عن شيْءٍ لا يكونُ إلا إذا كان كاملًا، فالتقت الجُملتان في تقرير معنىٰ كمال

الدَّرَجَةَ القُصْوَىٰ مِن الْكَمالِ؛ بِجَعْلِ الْمُبْتَدأِ ﴿ذَٰلِكَ﴾، وَتَعْرِيفِ «الْخبَرِ» بِاللَّامِ - كانَ عِنْدَ السّامِعِ قَبْلَ أن يَتَأمّلَهُ مَظِنَّةَ أَنَّهُ مِمّا يُرْمَىٰ بِه جُزافًا مِن غَيْرِ تَحقُّقٍ، فأتْبَعَهُ ﴿لَارَيْبَۛ فِيهِۛ﴾، نَفْيًا لِذَلِكَ، إتباعَ الْخلِيفَةِ «نَفْسَهُ»؛ إزالَةً لِما عَسَىٰ أن يَتوهَّمَ السَّامِعُ أَنَّك فِي قوْلِك: «جاءَنِي الْخَلِيفَةُ» مُتَجوّزٌ، أَوْ سَاهٍ[1]، وَكَذا قَوله: ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا﴾ [لقمان:٧][2]، الثّانِي مُقرِّرٌ لِما أَفادَه الأوّل[3].

وكذا قوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]؛ لِأنَّ قَولَه: ﴿إِنَّا

الكتاب، كما التقىٰ قولُك: (نفسه) معَ قولك: (الخليفة). الالتقاءُ - كما ترَىٰ - ليس في معنىٰ منطوق الجملتين، بل في لازمِ معناهما.

(١) إذا ما كان كلُّ مجازٍ يُشترَطُ مَعَهُ قَرينةٌ تَمْنَعُ السَّامعَ مِن أنْ يَظُنَّ إرادَةَ الحقَيقةِ، كما فِي: «سَمعتُ أسدًا يَخطبُ»، فيه ما يحميك مِن أنْ تظنّ أن كلمة: «أسدًا» علىٰ حقيقتها، كذلك قد تحتاجُ الحقيقةُ حين تكونُ غريبةً غير معهودة إلىٰ ما يمنع توهم التجوز فيها، كما في أول سورة البقرة: (ذَلِكَ الكِتاب) حقيقةُ المعنىٰ: كمالُ ذلك الكتاب في ما أُنزِلَ لَه: «هداية العبادِ إلىٰ الصراطِ المسْتقيمِ، وإخراجهم من الظلمات إلىٰ النّور»، ولما كانت هذه الحقيقةُ غيرَ معهودةٍ في شأنِ أيِّ كتابٍ غيرِ القرآن فقد يَظنُّ غيرُ المسلمِ في قوله تَعالىٰ: (ذَلِكَ الْكتَابُ) التجوّزَ والمبالغةَ والادِّعاء - جاء بقوله: (لاريْبَ فيه) فحماه منْ أن يَظنَّ، أوْ يَتَوَهّمَ ذلك.

ومنْ حَقِّ السّامعِ علىٰ المتكلم أن يُقيمَ في كلامِه ما يَحمِيه من أن يفهَمَ غيرَ مُرادِهِ من كلامِهِ.

(٢) سِياقُ الجُملَةِ القرآنيَّةِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [لقمان: ٦ - ٧]، هاتان الآيتان حريٌّ بك أن تكونا في وعيكَ؛ كيْما لا تُقارف شيئًا مما تتحدّثان عنه، فكثيرٌ ممَّن حولَكَ لهم نَصيبٌ ممَّا تُخْبِرانِ به.

(٣) جاءت الجملَةُ الأولىٰ: (كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا) تُشَبِّهُه بمَن لم يَسمع في عدمِ الاستجابة، ثمَّ أتْبَعها بِمَا هو آكَدُ في عَدَمِ تَحقُّقِ الاستجابة؛ تشبيهِهِ بمَن فِي أُذُنَيْهِ وَقْرٌ.

التشبيهُ الأوَّلُ فيه احتمال أن يَسمع بعدُ، أمّا الثاني فتشبيهُه بمَن في أذنيه وقرٌ قطْعُ احتِمَالِ أن يكونَ منه سماعٌ؛ لأنَّ سَبَبَ عَدَمِ سَمَاعِه لا يزول كما يزول في الأول. فجاء قولُهُ: (كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا) مفصولًا عن قولِهِ: (كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا) من أنّه مؤكِّدٌ معنوِيٌّ؛ اختلفا في معنىٰ المنطوق، واتفقا في لازمه؛ (عدم الاسْتجابة).

مَعَكُمْ﴾ مَعْناهُ: الثَّباتُ علَىٰ اليَهُودِيّةِ، وَقَوْلَهُ: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ رَدٌّ لِلإسْلامِ وَدفْعٌ لَه منهم؛ لأنّ المُستَهْزِئَ بِالشَّيْءِ، الْمُسْتَخِفَّ به مُنْكِرٌ لَهُ، وَدَافِعٌ لَه؛ لِكَوْنِهِ غَيْرَ مُعْتَدٍّ بِهِ، ودَفْعُ نَقِيضِ الشَّيْءِ تَأْكِيدٌ لِثَباتِهِ[1].

وَيَحْتَمِلُ الاسْتِئْنافَ، أيْ: فَما بالُكُم - إنْ صَحّ أَنَّكُمْ مَعَنا - تُوافِقُونَ أَصْحابَ مُحَمّدٍ[2]؟

---

(١) لا يكونُ المرْءُ مع غيره إلا إذا كان علىٰ مذهَبِهِ ومنهَجِه؛ لأنَّها مَعِيَّةُ منهجٍ معتقدٍ، ومبدأ وسلوك، لا معيّةَ أجسادٍ، فقولُ المنافقين لليهود: إنّا علَىٰ مذهبِكم ومنهجكم في مُعَادَاة الإسلامِ ونبيِّهِ - صَلّىٰ اللهُ عليْهِ وسلّمَ - وقومه، وقولُهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أقوىٰ في تقرير معنىٰ (إنَّا مَعكم) وذلك من وجهين:

(الأول): قولُهم: (مستهزؤن) فالاستهزاءُ بالشّيْء زائدٌ علىٰ ردّهِ ورفضه، فقد ترفضُ قولًا، ولكنك لا تهزأُ به، فإذا هَزِئْتَ به، فقد بالغت في ردِّه ورفضِه، وفي الطَّعْنِ علىٰ أصحابه.

(والآخر): إعرابهم عن مُرادِهم بأسلوب القصر، واتِّخاذِهم (إنّما) المفيد أنَّ مدخولها أمرٌ لا يتوقَّف فيه، وكأنّهم يقولون لليهود: استهْزاؤنا بالإسلام أمرٌ مسلمٌ لقوته وظهوره، أو من شأنه أن يُسلم.

وهذا مبالغَةٌ منهم في تقريرِ عدائِهم للإسلام ونبيِّهِ - صَلىٰ الله عليه وسلم - وقومِه، فالجملةُ الثانيةُ: (إنّما نَحنُ مُسْتهزِؤونَ) اختلفت عن الأولَىٰ (إنّا معكم) في معنىٰ المنطوق، واتفقتا في الغرض، فكانت الثانية كالمؤكدة للأولىٰ تأكيدًا معنويًّا، فهي بمنزلة: (نفسِه) من (الخليفة) في المثال السَّابق.

(٢) الذّهابُ إلىٰ أنَّ فَصْلَ جملةِ: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ عن جملة ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾؛ لوقوعها جوابًا عن سؤالٍ تضمنته جملة: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، فتكون استئنافًا بيانيًّا مَردُّهُ إلىٰ ملاحظة أنَّ جملةَ: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، تَستَثِيرُ اليهودَ حين يقارنون بين ما سمعوه من المنافقين: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، وما يرونه من اجتماعهم معهم في صلاتهم في المسجد خلف النّبيِّ - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِهِ وَصحبِهِ وسَلّم.

هذا التناقضُ بين المَسموعِ والمشهودِ يُثيرهُم إلىٰ التّساؤلِ: ما لكم تقولون: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، وأنتم تُصاحبونهم، وتوافقونهم في عبادتهم؟ فيأتي من المنافقين الجوابُ عن هذا السُّؤالِ الَّذي خَلَقَتْهُ جملةُ: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ في صدور اليهود، فقالوا مبالغين في التوكيد: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾.

لم يقولوا: (نستهزِئُ بِهم)، أو (إنّا نَهْزَؤُ بهم)، بل قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾؛ ليجتَثُّوا من قلوبِ

وَ(ثانيهِما): أنْ تُنَزَّلَ الثَّانِيةُ مِن الأُولَىٰ مَنْزِلَةَ التَّأكِيدِ اللَّفْظِيِّ مِن مَتْبوعِهِ فِي إفادَةِ التَّقْرِيرِ مَعَ اتّحادِ المعنَىٰ(١)، كَقَولِهِ تعَالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]

فَإنّ ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ معناهُ: أنّه فِي الهِدايَةِ بالِغٌ دَرَجَةً لا يُدْرَكُ كُنْهُها، حَتَّىٰ كَأنّهُ هِدَايَةٌ مَحْضَةٌ(٢)، وَهَذا مَعْنَىٰ قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ لأنَّ مَعْناه - كَما مَرّ -

---

اليهود ما يَعيثُ فيها من الشّكِّ فيهم، ولعَلَّ اليهودَ قد تظاهروا بِتَصديقِ المنافقين في مَقَالِهم، وهم يعلمون أنّهم منافقون، ومِن شأنِ المُنَافِقِ ألا يَصْدُقَ مَع أحَدٍ، ولا مع نَفسِهِ.

(١) أيْ: مع اتحادٍ فِي المعنَىٰ المقصُود في كلٍّ، واختلافٍ فِي معنىٰ المنطوق، فقولُهُ تعالىٰ: (ذلِك الكِتاب) المَعنىٰ المَقصودُ: الكتابُ الكاملُ في ما أُنزِلَ لَهُ، وهُو الهِدايةُ إلَىٰ الحُسْنىٰ، وكلُّ ما كان كاملًا في المقصُود منه هو كاملٌ في كلّ شيءٍ، فالقرآنُ كاملٌ في كلّ شيْءٍ؛ فِي كَلِمِهِ، ونظمِه، وموضوعاته، ومقاصده، وفِي أدائه الصّوتيّ والكِتابيّ؛ ما مِن شَيْءٍ إلّا وهُو كاملٌ فيه.

(٢) قوله تعالىٰ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ جملةٌ تامَّةٌ خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، تقديرُه (هو) علىٰ وجهٍ من الإعراب، وليس خبرًا عن ﴿ذَٰلِكَ﴾ علىٰ وجهٍ آخر، أخبر عنه بالمصدر، كما في قولكَ: (عُمر عدلٌ) أخبرتَ بالمصدر (عدل) إعلامًا بكماله في العدل، وكمالِ العدل فيه، فكأنّه العَدْلُ، فقولُهُ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الكتابُ هو الهدىٰ؛ لكمال الهدىٰ فيه، فلن تجد هُدًىٰ لِمراد الله - تعالىٰ - مِنك إلّا فيه، ولكمالِه في الهدَىٰ، فما منْ هدًىٰ إلّا وهو قائمٌ فيه، فهما شيءٌ واحدٌ، فليس فيه شيْءٌ إلّا وهو هدًىٰ، وليس منْ هدًىٰ إلّا وهو فيه.

هذا المعنىٰ المقصودُ هو عينُ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ - كما سبق بيانُهُ - فكان تطابقٌ بيْن ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، و﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ في المعنىٰ المقصُود، فهو علىٰ غرارِ «جَاء الخليفَةُ نفسُهُ»، فكما أنّك لا تعطفُ (نفسه) علَىٰ (الخليفة)؛ لأنَّ الشَّيءَ لا يُعطفُ علىٰ نفسِه، كذلك لم يعطفْ ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ علىٰ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ لِما بيْنهما مِن التَّوكيد اللَّفظي تَنْزيلًا.

بدأَ بِما نُزِّل مَنزلةَ التّوكيدِ المَعنويّ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، ﴿لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾، وأردفَه بما نُزّل مَنزِلَةَ التّوكيد اللفظِيّ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّ التّوكيدَ اللّفظيَّ أقوَىٰ، فترقَّىٰ إلىٰ الأعلىٰ.

الفصلُ بين: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، و﴿لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾ لكمال الاتصال توكيدًا معنويًّا؛ للاتحاد في الغرض، والفصلُ بيْن ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، و﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لـ«كمال الاتصال» توكيدًا لفظيًّا؛ للاتحاد في المعنىٰ المقصود، أيْ: المقصود من معنىٰ المنطوق.

الكتابُ الكامِلُ، والمُرادُ بكمالِه كَمالُهُ فِي الهِدايَةِ؛ لأنّ الكُتُبَ السّماويّةَ بِحَسبِها تَتفاوَتُ فِي دَرَجاتِ الكَمال[1].

وَكَذا قَوْلُه تَعالَىٰ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، فإنَّ مَعْنَىٰ قولِهِ: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ مَعْنَىٰ ما قَبْلَهُ، وَكَذا مَا بَعْدَهُ تأكِيدٌ ثانٍ؛ لأنّ عَدَمَ التّفاوُتِ بيْن الإنذارِ وَعدمِه لا يَصِحُّ إلا فِي حَقِّ مَن ليْس لَه قلْبٌ يَخْلُصُ إلَيْهِ حَقٌّ، وَسَمْعٌ تُدْرَكُ بِهِ حُجّةٌ، وبَصَرٌ تَثْبُتُ بِهِ عِبْرةٌ[2]، وَيَجُوزُ أن يَكونَ

أمّا معنىٰ المنطوق في كلٍّ فمختلف؛ تبيّن لك أن لديْنا «معنىٰ المنطوق»، وهذا مختلفٌ، و«معنىٰ مقصود»، وهذا مُتَّحِدٌ في الجملتين الأولىٰ والثالثة، و«الغرض من المعنىٰ المقصُود»، وذلك متحد بيْن الأولىٰ والثانية، فالجملَةُ الأولىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ هو المؤَكَّد، والجملتان: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾، و﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ توكيدٌ للجملة الأولىٰ، وبهذا يَتبَيَّنُ لك أنَّ جملةَ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ هي الجملَةُ المركزِيَّةُ التي بُنِيَتْ عليها السُّورَةُ، وهِيَ: «بَرَاعَةُ الاسْتِهْلالِ».

(١) لا تحسِبنّ تفاوتَها في درجات الكمالِ مِن عجزٍ في مُنزِّلِها - معاذ الله تعالَىٰ - إنما هو تفاوتٌ مطابقٌ حالَ مَن أُنْزِلَت إليهم؛ إقامةً لحياتهم علىٰ بصيرةٍ، ولمّا كان القرآنُ هو آخرُ كتِاب يُنَزلُ للناسِ - كلّ النّاسِ في كلّ عصرٍ ومصرٍ إلىٰ قيامِ السَّاعةِ - كان كتابًا كاملًا فِي هدايةِ النّاس - كلّ الناس لمن أراد أيًّا كان عصره ومصره وجنسه ولسانه - فكمالُه في الهدايةِ مطابقٌ مقامَه مِن العُمومِ والدَّيمومة، فكلُّ كتابٍ سماويّ مطابقٌ فِي مستوَىٰ هدايتِه، وما تضمَّنه لحالِ مَن أنزل إليْهم، وذلِك إعجازُ إلهي، يَرزقُ كلٌّ علىٰ قدرِ حاجتِه.

(٢) سِياقُ الآيَةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٦ - ٧]، قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ المعنىٰ المقصُود: أنّ أولئك لن يؤمنوا أنذرتهم أم لم تنذرهم، فالأمران: (الإنذارُ، وعدمُهُ) سواءٌ، ذلك ما يفهمه كلّ سميعٍ بدلالة قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فاستواءُ الإنذارِ وعدَمِهِ مُتعَيَّنٌ في أمر الإيمان، بقرينة صَدرِ الآيةِ، فإذا جاء قوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ كان معنىٰ منطوقه مطابقًا المعنىٰ المقصود من قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾، فهو توكيدٌ له؛ ومن ثَمَّ فُصِلَ عنه، وهذا في مقابل: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، فبيْنهما مقابلَةٌ بديعَةٌ.

وقوله من بعده: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡ...﴾ تأكيدٌ ثانٍ فيه بيانٌ لمقتضىٰ هذا الحال،

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ خبرًا لـ«إنّ»، فالجُملةُ قبلَها اعتراضٌ[1].

• • •

[الصّورة الثّانية: تنزيل الثانية منزلة البدل من الأولىٰ]

الثَّانِي: أن تَكونَ الثَّانِيةُ بَدلًا مِن الأُولَىٰ[2]، والمُقْتضِي لِلإبْدالِ كَوْنُ الْأُولَىٰ غَيْرَ وافِيةٍ بِتَمامِ المُرادِ؛ بِخِلافِ الثانيةِ[3]، وَالمَقامُ يَقْتَضِىٰ اعْتناءً بِشأنِهِ؛ لِنُكتَةٍ،

فمَنْ كان الإنذار وعدمه سواءً عليه، فهذا - لا محالة - غير مالك لما به يكون الاهتداء؛ السمع المحيط، والبصر النفيذ، والفؤاد الرشيد. فهذه وسائلُ إدراكٍ خُتم عليْها، فكأنها غير موجودة؛ لأنَّ قيمةَ الأشياء بعملها ونفعها، لا بذاتها.

(١) علَىٰ هذا الوجهِ من الإعرابِ لا يكونُ في الآيةِ «فصلٌ»، ولكن فيه «اعتراضٌ»، وهو من أساليبِ توكيد المعنىٰ - أيْضًا - ولا يكونُ المعنَىٰ المعترضُ به غريبًا عن المعنىٰ المعترضِ فيه، بل هو منه إلّا أنه اعتراضٌ من حيثُ النَّظمُ النّحويُّ (التّركيبيّ)، وليس اعتراضًا مِن حيثُ اتساقُ أنسابِ المعانِي وتلاحُظُها، فما هُو بالمعنىٰ الزّنيمِ - مَعاذَ اللهِ تعالىٰ أن يكون في كتاب الله تعالىٰ شَيءٌ منْ ذلك.

(٢) في «البدل» يُجمع بيْن شيْئين: (مبدلٍ منه، وبدلٍ)، وبالجمع بينهما يحصل للسميع الرّشيد ما لا يحصلُ بأحدهما دون الآخر؛ في الجمع بينهما ثلاثٌ: (تمامُ الدّلالة علىٰ المراد - توكيدُ المُبدلِ منه - تَبْيِينُه).

إلّا أنَّ الأمرَ الرئيسَ المقصُودَ إليه قصدًا رئيسًا إنّما هو تمامُ الدَّلالة؛ بيْنا «تأكيدُ المبدل منه» وتبْيِينُه أمران سِيق إليْهما القولُ البَدَلِيُّ سَوقًا تبعيًّا لا رئيسًا. فَحَسَنٌ أنْ تعرفَ مَراتِبَ المعاني، ومقاصِدَ الإنباءِ بها، فهذا مِن فرائض النَّظر البلاغيَّ في البيان، ومن لم يُعْنَ بذلك، فليس من البلاغة الفهْمِيّةِ فِي شَيْءٍ.

وأقسامُ البدل الذِي بيْنه وبيْن المبدل منه علاقةٌ - ثلاثةُ أضربٍ: إمّا أن يكونَ هُوَ هُوَ، أو هو بعضه، والبعض لا يخلو إمّا أن يكون جزءًا منه، أو وصفًا فيه. الأوّلُ: بدلُ الكلّ من الكلّ، نحو: قام زيد أخوك. والثاني: بدل البعض، نحو: قرأت الكتاب مقدمته. والثالث: «بدل اشتمال»، نحو: أعجبني الكتاب أسلوبه.

(٣) في الصُّورة الأولَىٰ الّتي نُزّلت فيها الجملَةُ الثّانيةُ من الأولىٰ منزلة التّوكيدِ لها - كان المعنىٰ في

كَكَوْنِه مَطْلوبًا فِي نَفسِه، أَوْ فَظِيعًا، أَوْ عَجِيبًا، أَوْ لَطِيفًا[1].

وَهُوَ ضَرْبانِ:

(أَحَدُهُما): أَن تُنَزَّلَ الثَّانِيَةُ مِن الأُولَىٰ مَنْزَلَةَ بَدَلِ البَعْضِ مِن مَتْبُوعِهِ[2]،

الأولىٰ مفتقرًا إلىٰ إحكامٍ وحَصَانَةٍ تمنعُ السّامِعَ من مَظنَّة التجوُّزِ، أو السَّهوِ، أو الغلط.

وفي هذه الصّورة الثّانية المعنىٰ في الجملة الأولىٰ غيرُ تامّ الدَّلالة علىٰ المراد، فكان مفتقرًا إلىٰ ما يُحقّق له هذا التّمام الدَّلالي، وهذا سبيلُ تحقيقِه «البدليَّةُ»، فجاءت الثّانية محققةً ذلك التمام، فنزلتْ الثانية منزلة «البدل» مِن الأُولَىٰ.

(١) يُشير في هذا إلىٰ ما يقتضي الاعتناء بالمعنىٰ، فيُؤْتَىٰ بالدَّلالَةِ عَلِيَّةً تامَّةً، فيذكرُ لهذا بعضًا من أحوالِ ذلك المَعنىٰ المستوجِبَة تمام الدلالة عليه؛ يذكُرُ أربعًا منْ أحوالِه:

- أن المعنىٰ مَطْلوبٌ فِي نَفسِه.
- أنَّ المعنىٰ فَظِيعٌ.
- أنَّ المعنىٰ عجيبٌ.
- أنَّ الْمعنىٰ لطيفٌ.

هذه بعضٌ من أحوال المعنىٰ المستوجبة تحقيق تمام الدلالة عليه، فيؤْتَىٰ ببدَلٍ منه، يُحقِّقُ هذا التمام الدلالِيَّ.

وأنتَ ترىٰ صاحبَ «الإيضاح» يبدَأُ بحالٍ عامٍّ يرجع إلىٰ المعنىٰ في نفسِه، هو من المعاني التي لا يستغنىٰ عنها، وحاله هذا من الأحوال التي لا تتغيرُ؛ لأنها أمرٌ قائمٌ فيه، مطلوبٌ في نفسِهِ، لا لشيءٍ عارضٍ له.

ثم تلاه بحال الفظاعة، يُقَالُ: فَظُعَ الْأَمْرَ يَفْظُعُ فَظَاعَةً، إِذَا عَظُمَ وَهَابَهُ صَاحِبُهُ وَفَزِعَ مِنْهُ، فهو شديدٌ شنيعٌ جاوز المقدار، يقُول الشاعر:

وَلَكِنَّهُــمْ بَانُــوا وَلَــمْ أَدْرِ بَغْتَــةً ... وَأَفْظَعُ شَيْءٍ حِينَ يَفْجَؤُكَ البَغْتُ

ثم تلاه بـ» العجب» أي: إنَّه أمرٌ غريب لا يعرفُ سببه، ثم ختم بـ» اللطف»، وهو الخفاء.

هذه أحوالٌ تجْعَلُ المعنىٰ مُسْتَحِقًّا أن تكون الدلالَةُ عليه تامَّةً؛ ليتمكن في فؤاد السامعِ؛ فيعملَ فيه.

(٢) وهذا يفيدُكَ أنَّ مناطَ القصدِ الرّئيس إنّما هو ذلك البعضُ. ويُمكن ألاّ يذكر الكلّ، لكنَّه أراد بذلك أن يوردَ عليك المعنىٰ كاملًا، ثم يورده عليْك مخصّصًا؛ تقريرًا للمعنَىٰ، وتبينًا لِمناط

كَقَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء:١٣٢ -١٣٤]، فَإِنَّهُ مَسُوقٌ للتَّنْبيهِ علَىٰ نِعَمِ اللهِ - تَعالَىٰ - عِنْدَ المُخاطَبينَ، وَقَوْلُهُ: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أوْفَىٰ بتأدِيتِه مِمَّا قَبْلَه؛ لِدلَالتِهِ عَلَيْها بِالتَّفصِيلِ مِن غَيْرِ إحالَةٍ عَلَىٰ عِلمِهِم مِن كَونِهِمْ مُعانِدينِ، والإمْدادُ بِما ذُكِر مِن الأنْعامِ وَغيرِها بَعْضُ الإمْدادِ بِما يَعْلَمُون(١)،

وَيَحْتَمِلُ الاسْتِئنافَ(٢).

القصد، وما ذلِك إلّا اعتناءً بالمَعنىٰ مِن جهةٍ، واعتناءً بكَ سميعًا من أخرَىٰ.

(١) سياقُ الآيةِ قولُهُ تعالىٰ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٣١ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٣٤ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣١ - ١٣٥]، لمَّا كان السِّياقُ سياقَ اعتناءٍ بالغٍ بدعوتهم إلىٰ اتِّقاءِ اللهِ - تعالىٰ - واتِّباع نبيِّهم جاء تكريرُ قولِهِ تعالىٰ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، ثُمّ كرَّر قوله: (اتقوا) بعدها، وكان يُمكِنُ - عَربيةً في غير القرآن - أنْ يُقال: (اتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُون الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُون)، لكنَّه أعاد الأمر بالتّقوىٰ؛ لأنّها مناطُ العناية بتحقيقها، ففيها المنجاةُ والكرامةُ، فالسِّياقُ كلُّه لتمكين هذا في قلوبهم.

وسلكَ سبيلَ إقناعهم بالامتنان عليهم بالعطاءِ، وهو سبيلٌ من سُبُل الاستدلالِ علىٰ وحدانية الله - تعالىٰ - وهو وافرٌ في سورة «النّحل»، فساقَ الكلامَ مَساقَ الاستدلال بالامتنانِ بالنّعم، فعرضها أوّلا غيرَ مفصلَةٍ؛ ليقيمَهم في مقام تذكّر بعضِ هذِه النِّعَم - كُلٌّ بحَسَبِ اهتمامِه وشعوره بجليل النِّعمِ - ثُمّ أردفَ ذلك بذكر بعضٍ مِن النّعم؛ ذَكر مِنها الأَنْعَام وَالبَنِين وَالجَنَّات وَالعُيُون، فهذه نِعمٌ لا سبيلَ لأحدٍ أن يستغنِيَ عنْها، بلْ لَا تَجِدُ مَن يَستكْفِي مِنْها بكثيرٍ وفيرٍ، هي نِعَمٌ كلّما أُعطِي المرْءُ مِنها طلب المزيد،؛ إنّها مَطلوبةٌ لذاتها لا علَىٰ قدر الحاجةِ إليها، ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠].

وأنْت تلحَظُ أنّه ذكر لَهم النِّعَمَ الحِسِّيَّةَ الّتي يَستوِي فيها النَّاسُ، ولَم يُعرِّجْ علىٰ النِّعمِ المعنويَّةِ، فغيرُ قليلٍ منهم هو المَحروم منها، وفي هذا الاختصاص شائبةُ تعريضٍ لطيفٍ بهم، فكان قولُهُ: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدلَ بعضٍ من قوله: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾، فهو أوْفَىٰ بتأدية المراد، ولمَّا كان بدلَ بعضٍ مِمَّا قبلَه لم يُعطَفْ عليه؛ لما بيْنهما من كمال الاتصال.

(٢) القولُ باحتمال الاستئناف منظورٌ فيه إلىٰ ما تضمَّنه قوله: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ مِن إثارةٍ لهم، فتساءَلُوا: بِمَ أمدّنا؟ فيأتِي قولُه: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ جوابًا عنه، فيكون

و(ثانيهما): أنْ تُنزَّلَ الثّانِيَةُ مِن الأُولَىٰ مَنزِلةَ «بَدَلِ الاشْتِمالِ» مِن مَتبُوعِهِ[(١)]، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠ - ٢١]، فإنَّ المُرادَ هو حَمْلُ المُخاطَبين علىٰ اتِّبَاعِ الرسل، وقولُهُ تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أوْفَىٰ بتأدية ذلك؛ لأنَّ معناه لا تخسرون معهم شيئًا من دنياكم، وتربحون صِحَّةَ دِينكم، فينتظم لكم خير الدنيا وخيرُ الآخرة[(٢)].

بينهما «شبْهُ كمالِ اتصال».

وأكادُ أَشَمُّ في القولِ بـ«الاسْتئْناف البَيانِيّ» هُنا تَعريضًا بِهم؛ لأنّهم لا يَتساءَلُون: (بِمَ أَمَدَّنا) إلَّا إذا كانوا قد بلغوا مِن الغباء مَبلغًا لا يشعرون معه بما أمدّهم به، أو كانوا قد بلغُوا من العِناد مبلغًا اعتقدُوا أنّ ما هو معهم من النّعم إنّما هُو مِن عندِ أنفُسِهم، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]، فجاءَ الجوابُ مشتملًا علىٰ تعريضٍ بذكر الإمدادِ الحسيِّ - علىٰ ما بيّنتُ قبلُ - وهذا من باب تلاحظ المعاني، وهو بابٌ جدّ لطيف (خفي)، وجِدٌّ طريف (متجدد العطاء).

وحَسَنٌ أنْ تَلتَفِتَ إلىٰ قولِهِ في أَكْثَرَ من موضِع: «ويحتمل الاستئناف»، مِثْلُ هذا يهدِي إلىٰ أنّك إنْ نَظرتَ إلىٰ ما تفعلُه الجملةُ الأولَىٰ في نفسِ السَّامع من إثارةٍ رأيتَ الثَّانية جوابًا، قلتَ: بـ(الاستئناف)، وإنْ نظرتَ إلىٰ ما بيْن الأولَىٰ والثَّانية من تقاربٍ قلتَ: بـ«كمال الاتصال»، فالأمرُ مرجِعُه إلىٰ جهةِ النّظر، وهذا مِن اتّساعِ معانِي النّظم، وهذا - أيضًا - بابٌ يحتاجُ إلىٰ نَظرٍ فسيحٍ، وَمحيطٍ، ونفيذٍ، ومتجدّدٍ. وفِي هذا إمْتاعٌ ممزوجٌ بعوائدِ الفوائدِ، وتلك الّتِي تشرئبُّ إليْها الأفئدَةُ الرَّشِيدَةُ.

(١) الفرقُ بين «بدل البعض»، و«بدل الاشتمال»: أنّ «بدل البعض» يكون البعضُ متحيزًا؛ بيْنا «بدلُ الاشْتمال» يكونُ البعضُ مُنداحًا فيه جميعِه، غيرَ مُتحيِّزٍ. الأولُ كقولك: «قرأتُ الكتابَ مقدمتَه»، والآخر: «أعجبني الكتابُ فكرتُه».

(٢) سياقُ الآيَةِ: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠ - ٢١]، ومغزَىٰ قوله: الحثُّ علىٰ اتِّباعِ الرُّسُلِ وطاعتهم فيما جاءوا به من الهدىٰ، وهذا يحتاج إلىٰ أن يبلغ الحثُّ كمَالَهُ؛ لينفذ في هذه القلوب الصلدة،

ولما كان قولُهُ: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ جديدًا غيرَ قائم بكمال الحَثِّ أتبعَه بما يُبيِّنُ قدر أولئك الرسل،

وَقولِ الشّاعِرِ:

أقولُ لَه: ارْحل، لا تُقيمنَّ عندنا وإلَّا، فكُن فِي السِّرِّ والجَهرِ مُسلِما

فإنَّ المُرادَ بِهِ كَمالُ إظْهارِ الكَراهَةِ لإقامَتِهِ؛ بِسَبَبِ خِلافِ سِرِّهِ الْعَلَنَ، وَقَوْلَهُ: «لَا تُقِيمَنَّ عِندَنا» أوْفَىٰ بِتَأدِيَتِهِ؛ لِدَلالَتِهِ عَلَيْهِ بِالمُطابَقَةِ مَع التّأكِيدِ، بِخلافِ «ارْحَلْ»[1].

وإخلاصهم في تحقيق الهدىٰ لقومهم، فقال: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ جمع سِمَتيْن مِن سِماتِ الرّسلِ، الّتِي هِي أقدرُ علىٰ النَّفاذِ فِي قلوبِ المُخاطَبين:

بَدأَ بِما هُو الأهَمُّ عِند المُخاطَبين: ألَّا يكوَن الدَّاعِي يَبْغِي مِن وراءِ دَعوتِه نَفعًا خاصًّا به، وَعَطَفَ عَلَيْه ما يطمئن القلوب أن أولئك الرسل في أنفسهم علىٰ صراط مستقيم.

والشأنُ في الإنسان إذا دُعِيَ إلىٰ اتِّباع أمرٍ ليس هو عليه - نَظَرَ أولًا أيكلفُه ذلك مقابلًا؟ ثم ينظر في حال مَن يدعوه أهو مُتَّبِعٌ ما يدعو؟ فإذا ما تحقَّقَ هذان كان الأملُ في القبول والإقبال أقوىٰ.

وهذا مِن سِياسةِ الدَّعوةِ، فليس القيامُ بالدَّعوةِ مقصورًا علىٰ أنْ تُسْمِعَ النَّاسَ هذه الدَّعوةَ، بل لا بُدَّ مِن السَّعْي إلَىٰ تَهْيئةِ القُلوبِ لأنْ تسْمَعَ، فالحِكْمَةُ فِي الدَّعوةِ هِي عمودُ الأمرِ، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ ومَن ثَمَّ كان قولُ الدَّاعِي لقومِه: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أوْفى من قوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ بتحقيق المراد، فوقَعَ موقِعَ «بدل الاشتمال» منه، فلم يُعْطَفْ عليْهِ بـ«الواو».

(١) البيْتُ مجهولٌ قائلُهُ، وقولُهُ: «ارحل» وإنْ كان له محلٌّ من الإعراب، ممَّا يوهم أنَّه غيرُ داخلٍ في هذا المبحث، إلّا أنَّه - كما سبق بيانُه - إنّما هو منظورٌ فيه علىٰ القول المحْكِيِّ، لا الحكايةً.

وجملة: (ارْحلْ) لا تُفيدُ وحدَها تصويرَ مَقْتَ بِقائِهِ فيهم علَىٰ ما هو عليه مِن السّوءَىٰ، والمقامُ مُقتضٍ الإعرابَ عَن كمالِ ذلك المَقتِ، ما دام علىٰ ذلك الخُلقِ المَقيتِ، فجاء قولُه: (لَا تُقِيمَنَّ عِنْدَنا) دَلالةً علَىٰ المُرادِ دَلالةً غَير احْتماليّةٍ؛ مِمّا يُحَقِّقُ التَّوفِيةَ بِالمُرادِ.

بقِي أمرٌ ذُو بالٍ؛ إن كنتَ قد وفّيت النّظَرَ العلمِيَّ البلاغِيَّ بعضَ حقِّهِ في هذا البيت، فهل لك أنْ تتبَصَّرَ ما يحملُهُ إليْنا من الهدَىٰ في أدب الضيف؟

إنّ للضيافة في الإسلام - «الضّيف، والمُضَيِّف» - أدبًا فوق الّذي كانت العربُ تعرف، وهو نبيلٌ،

وَوِزانُ الثّانِيةِ مَعَ كُلّ واحِدٍ مِن الآيَةِ وَالبَيْتِ وِزَانُ «حُسْنِها» فِي قَوْلِكَ: «أعْجَبَتْنِي الدَّارُ حُسْنُها»؛ لأنّ مَعْناها مُغايِرٌ لِمَعْنَىٰ ما قَبْلَها، وَغَيْرُ داخِلٍ فِيهِ مَع ما بيْنَهُما مِن المُلابَسَةِ.

• • •

[الصُّورةُ الثّالثَة: تنزيلُ الثّانيةِ مَنزِلَةَ عطف البيان مِن الأُولَىٰ]

الثَّالِثُ: أنْ تكونَ الثّانِيَةُ بَيانًا للأُولَىٰ؛ وذلِك بأنْ تُنَزَّل مِنْها مَنْزِلَةَ «عَطْفِ البَيانِ» مِن مَتْبُوعِهِ فِي إفادَةِ الإيضاحِ.

وَالمُقتَضِىٰ لِلتَّبْيينِ أن يكونَ فِي الأولَىٰ نوعُ خفاءٍ، مَع اقتضاءِ المقامِ إزالَتَهُ[1].

فزادَه الإسلامُ نُبلًا علىٰ نُبلٍ؛ إنَّه الأدبُ الذي نحنُ أحوجُ ما نكون إلىٰ التخلُّقِ به، وتعليمِه المُجتمع الإنسانيّ أجمعه بلسان حالنا. وتلك مسْوليّتي ومسْؤليتك، فقم إليْها، وبها.

(١) «عَطْفُ البَيان» في المفردات، علىٰ ما يقوله المَجد ابن الأثير (٦٠٦هـ) في كتابه: «البديع في علم العربية»: «اسم يتبع الاسم الذي قبله، علىٰ جهة البيان له. ويكون بالألفاظ الجامدة، ويتنزّل من الكلمة المتبوعة منزلة الكلمة المترجمة عمّا قبلها؛ فيكون الثاني معرِّفًا للأوّلِ؛ لأنّه أشْهَرُ أسمَاءِ المذكور، أو كناه».

فإذا جاءت جملةٌ بعد أخرىٰ، وأَدَّتْ وظيفَةَ «عطفِ البيان» في المفردات أخذت حكمًا من أحكامها في أنها لا تُعْطَفُ علىٰ ما قبلها، وفي أنَّها تكشِفُ عنه، وتجليه؛ فلا يلتبس بغيرِه.

وهذا يكون حين يكون المقام مقتضيًا تَحقيقَ المتكلّم مزيدَ حسن الدلالة علىٰ مراده؛ وبهذا يتبيَّنُ لك إذا كانت الجملَةُ دلالتها غير كاملة الحسْن وضُوحًا جاءت الثانية، فنزلت منزلة «عطف البيان»، وإذا كانت الأولىٰ غير تامّة الدلالة علىٰ المراد جاءت الثانية، فتنزل منزلة «البدل»، وإذا كانت الثانية غير محكمة الدلالة، ويمكن أن يتوهم التّجوز والخطأ والنسيان، فإن الثانية تأتي لتنزل منزلة «التأكيد».

فتبين لك عَلاقة الثلاثة بحسن الدلالة وتمامها وإحكامها «تبرجها»، وتلك هي مقومات حقيقة

كَقَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، فَصَلَ جُملَةَ: ﴿قَالَ﴾ عمّا قبلَها؛ لِكَوْنِها تفسيرًا له وتَبيينًا، وَوِزَانُهُ وِزَانُ (عُمَرَ) فِي قَولِهِ: (أَقْسَمَ باللهِ أبُو حَفْصٍ عُمر)(١).

وَأَما قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، فَيَحْتَمِلُ التّبْيينَ والتّأكِيدَ؛ أمّا «التّبيينُ» فَلأنَّهُ يَمتَنِعُ أن يخْرُجَ مِن جِنْسِ البَشَرِ، وَلا يَدْخُلَ فِي جِنْسٍ آخرَ، فَإثباتُ المَلَكِيّةِ لَهُ تَبْيينٌ لِذلِك الجِنسِ وَتَعيينٌ. وأمّا «التّأكِيدُ» فلأنّه إذا كان مَلَكًا لَم يَكُنْ بَشرًا؛ ولأنَّه إذا قِيلَ فِي العُرْفِ لإنسانٍ: «ما هذا بشرًا» - حَالَ تَعظيمٍ له وَتَعجُّبٍ ممّا يُشاهَدُ مِنْهُ مِن حُسْنِ خُلُقٍ أوْ خَلْقٍ - كان الغَرضُ أنّه مَلَكٌ بِطريقِ الكِنايةِ(٢).

البلاغة عند عبد القاهر.

(١) سِياقُ الآية: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١١٥ - ١٢٣]

جملة: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ لم تُبيِّن ما وسْوسَ به الشّيطانُ، والمقامُ يقتضِي العِرفانَ بما وسوسَ به لأبينا آدم - عَليْهِ السّلامُ - ففيه من العِبرة ما يجبُ أن تكون بينةً، فجاء قولُه: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾، فكانتَ هذه الجملةُ مُبيِّنةً هذه الوسوسَةَ، فوقَعتْ موقِعَ عطف البيان من متبوعهِ في المفرداتِ، فنُزِّلت منزلتَه في المفردات، وأُعطيت حكمَه فِي عدمِ العَطف بـ(الواو).

تبصّرْ ما وسْوسَ بِه الشَّيطانُ يَهديكَ إلىٰ أنَّ الشّيطانَ قد علِمَ بما جُبِلَ عليه الإنسانُ؛ حبُّ الخلودِ، وحُبَّ التّملّك المُقيم الّذي يَزيدُ، ولا يَنقُصُ.

(٢) أبان أنّ قولَه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ تَحتمِلُ عَلاقتُه بقوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ وَجْهَيْن بِحسبِ تأويلِ

[وَجْهُ عَدَمِ عَدِّ «بَدَلِ الكلِّ»، و«النّعتِ» مِن صُورِ «كمال الاتّصال»]

فَإِنْ قِيلَ: هَلَّا نزّلْتُم الثّانِيةَ مَنزِلَةَ «بَدَلِ الْكُلّ» مِنْ مَتْبوعِهِ فِي بَعْضِ الصُّوَرِ، وَمَنْزِلَةَ «النّعْتِ» مِن مَتْبُوعِهِ فِي بَعضٍ؟

قُلْنا: لأنّ «بَدَلَ الكُلِّ» لا يَنفَصِلُ عَن «التّأكِيد» إلّا بأنّ لَفظَهُ غيرُ لَفظِ مَتْبوعِهِ، وَأنّهُ مَقصُودٌ بالنّسْبَةِ دُونَ مَتْبُوعِهِ، بِخلافِ التّأكِيدِ.

و«النّعْتُ» لا يُفْصَلُ عَنْ «عَطْفِ البَيانِ» إلا بأنَّه يَدُلُّ علَىٰ بَعضِ أحْوالِ مَتْبوعِهِ، لا عَلَيْهِ، وَ«عطْفُ البَيانِ» بالعَكْسِ.

وَهذِهِ كُلُّها اعْتِباراتٌ لا يَتحقّقُ شَيْءٌ مِنْها فِيما نَحْنُ بِصدَدِهِ.

النَّفي في ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾:

- إنْ أَوَّلْتَ النّفيَ علىٰ أَنَّهُنّ أَخْرَجْنَهُ مِن جِنْسِ البّشريّة، فوجبَ عَلَيْهن أن يُدخلنَه فِي جنسٍ آخرَ، فيأتِي قولُهنّ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ عَطْفَ بَيانٍ.
- وإنْ أَوَّلْتَ النَّفْيَ علَىٰ أنّه لا يُقْصَدُ به الإخراجُ، وإنّما يُقصَدُ به ما يلزمُ إخراجَه مِن البشرية بِمَعونةِ السّياق، فقولُهنَّ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ توكيدٌ للازمِ إخْراجِه مِن البَشريّةِ فِي سِياقِ التَّعظيمِ.

فهُو علَىٰ الوجهِ الأوَّل فُصِلَ لِـ«كَمالِ الاتّصالِ تبييناً»، وَعلَىٰ الثَّاني فُصل لـ«كَمالِ الاتّصالِ تَوكيدًا»، والوَجْهُ الثّاني أقوَىٰ لِما يقْضِي بِهِ سياقُ القولُ؛ سياقُ القولِ لا يَجعلُ جُملة: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ بِحاجَةٍ إِلَىٰ تَبْيينٍ، سِياقُها موضّحٌ القصدَ مِنها، السّياقُ يَأنَسُ بتقريرِ معنَىٰ مَلائِكيّتِهِ.

وتلحظُ أنّ النّسوة قد أقمْن المَعنىٰ علىٰ أسلوبِ قصرٍ بـ(ما، وإلّا)، مراعاةً لحالِ المَعنىٰ، قصرَ موصوفٍ علىٰ صِفَةٍ قصرًا إضافيًّا للقلْبِ، نفيْنَ عنه البَشريّة، وأثبتنَ الملائكية.

مقتَضىٰ الظاهر أن يقلْن: «إنّما هذا ملكٌ كريمٌ»، لا أن يقلْن: «مَا هذا إلا ملَكٌ كريمٌ»، فـ(إنّما) تهدِي إلىٰ أنَّ ما دخلتْ عَلَيْهِ أمرٌ منْ شأنِه ألّا يُنكر، وهذا أليقُ بالدّعوىٰ، لكنّهنّ عدَلْنَ عن هذا الطَّريق إلىٰ «الاستثناءِ المُفرَّغ»؛ نظرًا إلىٰ أنَّ قيمةَ المعنىٰ يَحتاجُ كلٌّ إِلَىٰ أن يَقرّرَ في فؤادِه؛ مع أنه في هذا السياقِ لا يُنكر؛ فليسَ تقريرُ المعانِي في الأفئدة من أنّها مما قد تُنْكَرُ فحسب، فمقتضِياتُ تقرير ما لا يُنْكَرُ عديدةٌ، والقصرُ بِطريقِ النَّفْيِ والاسْتِثناءِ مِمّا يُحقّقه ذلِك.

[شِبْهُ كَمَالِ الانْقِطاعِ]

وأمّا كَونُ الثّانِيةِ بِمنزِلةِ المُنقَطِعةِ عَن الأُولَىٰ؛ فَلِكوْنِ عَطْفِها عَلَيْها مُوهِمًا لِعَطْفِها علَىٰ غيرها، وَيُسمَّىٰ الْفَصلُ لِذلِك «قَطْعًا»[1].

مِثالُه قَولُ الشّاعِرِ:

وَتَظُنّ سَلْمَىٰ أنَّنِي أبْغِي بِها ... بَدلًا، أُراهـا فِي الضَّلالِ تَهيم

لَمْ يَعْطِفْ «أُراها» علَىٰ «تَظنّ»؛ لِئلَّا يَتوهّمَ السَّامِعُ أنَّه مَعطوفٌ علَىٰ

(١) هذه الصّورةُ لا يكونُ تَركُ العَطفِ بـ«الواو» فيها مِن جهةِ عَلاقةِ الجُملَةِ الثّانية بالأولىٰ من حيثُ المعنىٰ، بل تركُهُ حِمَايَةً للسّامع من أنْ يَتَوَهَّمَ خلافَ المُرادِ؛ ولذا لمْ يُسَمَّ: «فصلًا»؛ لأنَّ الفصلَ كَما في «كمال الاتصال»، وكما سيأتيك في «شبهِ كمالِ الاتصال» مِن أنَّ العَلاقةَ بيْن معنىٰ الجُملتين بالغةُ الوثاقةِ.

وكانَت تسميةُ تركِ العَطف هنا قطعًا - إيماءً إلىٰ أنّ «الفصل» في هذا البابِ ليس قطيعةً بيْن المعنيين، ففرقٌ بيْن مصطلح «الفصل» ومصطلح «القطع».

«الفصل» من وثاقة العَلاقة بين المعاني، والاستغناء عن عامل خارجيٍّ؛ لِتحقيقِ العَلاقةِ الوُثقَىٰ، و«القَطع» لا يُفيدُ وثاقة علاقةٍ، بلْ هو حمايةٌ - في هذا المبحث - للسّامع من أنْ يَتَوَهّمَ خلافَ المراد، فحقُّ السّامعِ فِي حُسن دَلالته علىٰ المراد هُو الموجبُ ترك العطف، ولو تحقَّقَت قرينَةٌ أُخرَىٰ غير ترك العطف لِحمايَةِ السَّامِعِ من تَوَهُّمِ خلافَ المُراد - لصحَّ العطفُ؛ لأنَّ تركَ العطفِ قد كان ما يُغنِي عَنه، فلم يبقَ مقتضٍ لترك العطفِ بـ«الواو».

«أبغِي»؛ لِقرْبهِ مِنْهُ، مَع أنَّهُ ليْس بِمُرادٍ[1]، وَيَحْتَمِلُ الاسْتئنافَ»[2].

[أقسامُ القَطْعِ عِنْدَ السَّكّاكِيّ]

وقَسَّمَ السَّكَّاكِيُّ القَطْعَ إلَىٰ قِسْمَيْنِ:

(أحدُهُما): القَطْعُ للاحْتياطِ، وهُو مَا لَم يَكُن لِمانِعٍ مِن العَطْفِ، كَما فِي هذَا البيْتِ[3].

---

(١) قوله: «أُراها» بمعنىٰ: (أظنُّها). والبيت من جملتين: (تَظُنّ سَلْمَىٰ أنَّني أبْغِي بِها بَدلاً)، (أُراها فِي الضَّلالِ تَهيم)، الأولىٰ إخبارٌ منه عَمَّا كان من سلمىٰ، والأخرىٰ إعرابٌ عَن رأيه فيما كان منها.

يجوزُ - نحوًا - أنْ يعطف: (أُراها...) علىٰ (تظن...)، ولكن في هذا العطف قد يظن أن قوله: (أراها...) معطوف علىٰ خبر (أنّ) في: (أنني أبغي...)، فيترتب عليه أنْ يُفْهَمَ أنّه يُخبر أنّ سلمىٰ تظن أمريْن:

- تَظن أنه يبغي بها بدلًا.

- وتظن - أيضًا - أنه يراها في الضلال تهيمُ.

وهذا مخالفٌ للواقِع؛ لأنَّها لا تظنّ إلا شيئًا واحدًا؛ أنّه يبغِي بها بدلًا، تَرْك العطف حتىٰ لا يُفْهَمَ غيرُ المراد، فالقطعُ هنا لدفْعِ التَّوهُّمِ.

(٢) أيْ: يحتمِلُ أنَّ قولَه: (أُراها...) جوابٌ عَن سؤالٍ مقدَّرٍ، أثارَتْهُ جملةُ (تَظنّ سَلمَىٰ...)، وهذا الاحتمالُ هو الأعلَىٰ.

ومن هذا قول الشاعر:

يَقُولُون: إنِّيٰ أَحْملُ الضَّيمَ عندَهم

أعوذُ بِربّي أن يُضامَ نَظيرِي

لم تعطف جملة: «أعوذُ...» علىٰ «يقولُون...»؛ لِئلَّا يُتَوَهَّمَ أنَّها معطوفةٌ علىٰ جملةِ: «أحمِلِ الضَّيمَ»، فيكون هذا مِن مقولِهم، وما هو بذلِك؛ لأنَّهُمْ لَم يَقولوا إلا جملةً واحدةً: (أنِّي أحمِلُ الضَّيمَ عِندَهُمُ)، أمّا قوله: (أعُوذُ بِرَبّي أن يُضامَ نَظيرِي) فَمِن مَقولِ الشَّاعِرِ لا مِن مَقولِهِم.

والأعلَىٰ أنّه مِن قبيلِ الاسْتِئنافِ البَيانِيِّ؛ جَوابًا عَنْ سؤالٍ أثارتْهُ الجملةُ الأولَىٰ: فَما تَقولُ في قولِهم؟

(٣) هذا القِسْمُ ينبغي ألا يكون له عَلاقَةٌ بباب «الفصل والوصل»؛ لأنَّ الفصلَ فيه إنّما هو من جهةِ

و(الثَّانِي): القَطْعُ للوُجوبِ، وهُو ما كان لِمانِعٍ، وَمَثَّلَهُ بِقوْلِه تَعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾[البقرة: ١٥]، قالَ: لأنّه لَو عَطَفَ لَعَطَفَ إمّا علَىٰ جُمْلَةِ ﴿ قَالُوٓاْ ﴾، وإمّا علَىٰ جُملَة: ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾، وَكِلاهُما لَا يَصِحّ؛ لِمَا مَرَّ[1].

وَكذا قوله: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ ﴾[البقرة: ١٢]، وقَوْلُه: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾[البقرة: ١٣].

وَفِيهِ نَظَرٌ: لِجَوازِ أنْ يَكونَ المَقْطُوعُ فِي المَواضِعِ الثَّلاثَةِ مَعْطُوفًا علَىٰ الْجُملَةِ المُصدَّرَةِ بالظَّرفِ، وهَذا القِسْمُ لَمْ يُبَيِّنْ امْتِنَاعَهُ[2].

• • •

وثاقةِ المعاني ببعضها، لا لأمرٍ آخر.

(١) أي: لعدم قصد المشاركة في الحكم، أو القيد المعنوي (إذا خلوا...).

والذّهابُ إلىٰ أنَّه قد يتوهم عطفه علىٰ ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ لا يُمكن أن يقعَ مِن عاقل؛ إذ كيف يَتَوَهَّمُ عاقلٌ أنّهم قالوا: ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾، وقالوا: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾[البقرة: ١٥]، هذان قولان لا يجريان قَطُّ علَىٰ لِسانٍ واحدٍ أبَدًا.

ثمّ إنّه لَمْ يقولوا: (اللهُ يستهزئ بنا)، ولا يسْتقيم أن يُقال: إنّ هذا من قبيل الالتفاتِ مِن التَّكلّم إلىٰ الغَيْبَةِ؛ لأنّه لا مقتضِي لهذا الالتفات إنْ قيل به، فالاحتمالُ الثّاني مُتهافِتٌ.

(٢) يذهب إلىٰ أنَّ قولَه: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ يَصِحُّ عربيّةً عطفُه علىٰ رأسِ قوله: ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ ﴾ [البقرة: ١٤]، ويصحُّ عطفُ قوله: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ ﴾ علىٰ رأس قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ ﴾ [البقرة: ١١]، وَيَصِحُ عَطْفُ قَوْلِهِ: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ مَعطُوفًا علَىٰ رأسِ قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ ﴾ [البقرة: ١٣].

[شِبْهُ كَمالِ الاتِّصَالِ][1]:

وأمَّا كَونُها بِمَنْزِلَةِ المُتَّصِلَةِ بِها؛ فَلِكونِها جَوابًا عَن سُؤالٍ اقْتَضَتْه الأُولَىٰ، فَتُنزَّلُ مَنْزِلَتَهُ، فَتُفْصَلُ الثَّانِيةُ عَنْهَا، كَما يُفصَلُ الجَوابُ عَن السُّؤالِ[2].

وَقَالَ السَّكَّاكِيُّ: فَيُنَزَّلُ ذَلِكَ مَنْزِلَةَ الوَاقِعِ[3]. ثُمّ قَالَ: وَتَنْزِيلُ السُّؤالِ

---

(١) فِي «شبْه كمال الاتِّصال» لدينا ثلاثُ جُملٍ: جملتان نُطِق بهما، وجملةٌ مُقَدَّرَةٌ في الذهن، فكأنّ لدينا (جدّة، وأم، وحفيدة)، الحاضرتانِ في الجنان واللِّسان (الجدة – الجملة الأولىٰ)، و(الحفيدة – الجملة الثالثة)، أمّا (الأم – الجملة الثانية) فحاضرةٌ في الجنان، غائِبَةٌ عن اللِّسان.

الثانية المقدرة متولدة من الأولىٰ، والثالثة مسبَّبَةٌ عن الثانية المقدرة (غير المنطوقة).

لم يجعله «كمالَ اتّصال» مِن أنّ الجملة (الثالثة) التي هي بمنزلة (الحفيدة)؛ ليْست مُتصلةً بالأولىٰ مباشرةً اتصالَ التابعِ بالمتبوعِ (نحوًا)، كما في (التَّوكيد، والبدل، وعطف البيان)، بلْ هي مُتَّصِلَةٌ بالأولىٰ اتِّصالًا غَيرَ مباشرٍ؛ هِي جوابٌ عن سؤالٍ مُقَدَّرٍ (الأم)، متولِّدٍ من الجملة الأولىٰ (الجدّة)؛ فالعَلاقةُ بيْن الثَّانية نطقًا، والثالثة اعتبارًا (الحفيدة)، والأولىٰ (الجدّة) إنّما هي بواسطة.

(٢) قوله: (أمّا كونها...) معطوفٌ علىٰ قوله قبلُ في (شِبهِ كمالِ الانقطاع): «وأمَّا كَونُ الثانيةِ بمنزلة المنقطعةِ عن الأولىٰ...»، والمعنىٰ: وأمّا كوْنُ الثانية بمنزلةِ المُتَّصِلَةِ بالأولىٰ، فلكونِ الثانية جوابًا عن سؤالٍ اقتضته الأولَىٰ، فتنزَّل الأولىٰ منزلة هذا السّؤال، فتُفْصَلُ الثّانِيَةُ عنها، كما يُفصَلُ السّؤالُ عن الجوابِ.

من كلام «صَاحب الإيضاح» يتبين أنه يُنزل الجملة الأولىٰ منزلة السؤال الذي تولد منها، فمناطُ التنزيل هو الجملة الأولىٰ، وهو في هذا مغايرٌ مذهبَ السّكاكِيّ في مناط التّنزيل.

(٣) السّكاكيُّ ذهب إلىٰ تنزيل السؤالِ المقدر المتولد من الأولىٰ منزلة الحاضر المنطوق به، فتكون جملةُ (الجواب) مفصولَةً عن جملةِ السُّؤالِ المُقدَّرِ.

مذهَبُ السكاكِيِّ يعتَمِدُ علىٰ استحضار محاورةٍ بين طَرَفَيْن؛ الأول قال الجملةَ الأولىٰ، فتساءل الطرفُ الآخرُ، فأجابه الطَّرفُ الأول، وهذا عندي هو الأعلىٰ.

ومن البيِّن أن هذا الأسلوب لا يكون إلّا إذا كانت الجملة الأولىٰ مشتملة علىٰ ما يستثيرُ النفس فتتساءل؛ لاشتمالها علىٰ أمرٍ غريبٍ أو مجهول، فليس من شأن المَرء أن يتساءلَ عن كلِّ شيْءٍ،

بالفَحْوىٰ مَنْزِلَةَ الواقِعِ لا يُصارُ إليه إلا لِجهاتٍ لَطيفةٍ؛ إمَّا لِتَنْبيهِ السّامِعِ علَىٰ مَوقِعِهِ[(١)]، أوْ لإِغْنائِه أَن يَسأَلَ[(٢)]، أوْ لِئلَّا يُسمَع مِنْهُ شَيْءٌ[(٣)]، أوْ لِئلَّا يَنْقطِعَ كلامُكَ بِكَلامِهِ[(٤)]، أوْ لِلْقَصْدِ إِلَىٰ تَكْثِيرِ المَعْنَىٰ بِتَقليلِ اللَّفظِ، وَهُوَ تَقْدِيرُ السُّؤالِ، وَتَرْكُ العاطِفِ[(٥)]، أوْ لِغَيرِ ذلِك ممَّا يَنْخرِطُ فِي هذَا السِّلْكِ[(٦)].

بل عما جهلَه في ذاتِه، أو في سببه، فاستَغْرَبَه.

(١) أي: لتنبيهِ السَّامع علَىٰ موقعِ السّؤالِ المقدَّرِ، الّذي نزّله السّكاكيُّ منزلَةَ الواقِعِ، ونَزّلَ الخطيبُ الأولَىٰ منزِلَتَه.

(٢) هذا فيه إشفاقٌ وإغناءٌ للمخاطبِ عَن أن يَسألَ إكرامًا، فأنْت تبادرُه بالحوابِ قبلَ أن يسأل، كما يبادرُ الجوادُ الفقيرَ بالعطاءِ قبل أن يَسأَلَ؛ إكرامًا له، وهذا لا يكونُ إلّا مِن لَقانةِ المتكلم وفراستهِ؛ إذْ تكونُ لَديهِ القُدرةُ علَىٰ أن يَتخيَّلَ السّؤالَ الذي تُثيرُه الأولَىٰ، فَيُجيبُ علَىٰ قدرِه، وهذا لا يكونُ إلّا من عِرفانِ المُتكلّم بالسّامعِ؛ لأنّ الجُملةَ الأُولىٰ قدْ يَسمعُها اثنان، فَتثِيرُ فِي واحدٍ سؤالًا، وَتُثيرُ فِي آخرَ سوآلًا غيرَه.

(٣) هذه ضِدُّ سابِقَتِها، فيها مثلبَةٌ للسَّامِعِ، وهذا إنَّمَا يكونُ بين متكلمٍ ومخاطبٍ علىٰ غيرِ سبيلٍ واحدٍ، وهذا من أنكَىٰ ما يكونُ بين متخالفين.

(٤) وهذا يكون حين يوجد تسلسلٌ بيانُهُ مهِمٌّ؛ لاستكمال تبيين المراد؛ فحينًا يكون تدَاخُلُ كلامين من متحاورَيْنِ مُفسِدًا لحُسْنِ تلَقي البيان.

(٥) هذا فيه ملاحظةُ حقِّ البيانِ من جهةٍ، وحقِّ المُخاطَبِ السَّمِيعِ من أخرىٰ؛ لأنّ طيَّ السّؤالِ المتولَّدِ من الجملة الأولىٰ يَجعَلُ المُرادَ قد أُعربَ عَنه بِجمْلتَين لا بثلاث، وهذا من الإيجازِ الذي هو سِمَةٌ رَئِيسَةٌ من سِمَاتِ البيانِ البَلِيغِ الحَمِيدَةِ.

أمَّا حقُّ المخاطبِ السَّميع، فإنّ في هذا المسلك دعوةً إِلَىٰ أنْ يُفكِّرَ فيما خُوطب به وجيزًا، فينثر معانيه في فؤاده، فيتلذّذ بذلك النّشرِ والبسط، وهذا يكونُ في سياقِ مُخَاطَبَةِ مَن هو أهْلٌ لأنْ يُوثَقَ باقتدارِه علىٰ تفصيلِ الوجيزِ، وتثويرِ المكنون المَكنوز.

(٦) في هذا حثٌّ لك علىٰ ألاَّ تَستغنِيَ بما ذكر لك من النُّكَتِ، بل عليْك أنْ تستنبطَ بنفسِكَ من البيان البليغ أمثالَ ما ذَكَرَ؛ فإنَّ الدَّرسَ البلاغِيَّ لا يزكو إلا بأنْ تقرأَ في البيانِ البليغِ المُعجِزِ؛ بيانِ الوحي، وبيان الإبداع شعرًا ونثرًا، فمن اكتفَىٰ بما يُذْكَرُ من البيانِ البليغِ في أسفارِ البلاغيين، فإنَّ عِلمَه ببلاغة البيان يكون علمًا جديبًا، إلىٰ المَوات أقربُ.

وَيُسَمَّىٰ «الفَصْلُ» لِذلِكَ «اسْتِئنَافًا»، وكَذا الجُمْلَةُ الثَّانِيةُ - أَيْضًا - تُسَمّىٰ (اسْتِئْنَافًا)[1].

[أضْربُ الاسْتئناف]

والِاسْتِئْنافُ ثَلاثةُ أضْرُبٍ:

[الضَّربُ الأول]

لأنَّ السُّؤالَ الّذِي تَضَمَّنَتْه الجُملَةُ الأولَىٰ إمّا عَن سببِ الحُكمِ فِيها مُطلَقًا، كقولِه:

قَالَ لي: كَيفَ أَنْت؟ قُلتُ: عَليلُ   سَـهرٌ دَائِـمٌ، وَحُـزْن طَوِيـل

أيْ ما بالُكَ عَليلًا؟ أوْ ما سَببُ عِلّتِكَ[2]؟

وَكقوله:

وَقد غَرِضْتُ من الدُّنْيَا فَهَل زمني   مُعط حَياتِي لِغرٍّ بَعْدُ مَا غَرَضَا؟!

---

(١) ليس تعدُّدُ الأسماءِ تَكاثُرًا عقيمًا، بل في التّسمية (استئنافًا) إيماءٌ إلىٰ أنّ هذا من المتكلم ابتداءُ إكمالٍ لِمَا كان قد دَاخَلَهُ من تقديرِ السُّؤالِ القائِمِ في جَنانِ المخاطبِ السّميعِ من الجملة الأولىٰ، فجَعَلَ ما حَضَرَ في جَنانِ السَّامعِ كأنّه حاضرٌ، فتوقَّفَ المتكلِّمُ يَسمع؛ ليُجيبَ، ثُمّ استأنَفَ كَلامَه بالجُمْلة الثّانِيَةِ.

(٢) في هذا البيت موضعان للفصل؛ للاستئنافِ البياني؛ الأول: قوله: (قلت عليل)، والآخر: قوله: (سهرٌ دائم)، ومحلُّ الاستشهاد هو الثاني.

الأوّلُ هو الجاري في المحاورة، وهي تُبْنَىٰ علىٰ الاستئناف البيانيِّ، من أنّ السَّامِعَ حين يَسْمَعُ قولَ أحدِ طَرَفي المحاورة يتطلَّعُ إلىٰ أنْ يَعْرِفَ أثر مقالةِ هذا الطرفِ من المحاورة في الطرفِ الآخر، وكيف تلقاه، وكيف فعل فيه قوله، وكيف اتَّخذَ منه موقفًا، وكيف عبّر عن موقفه من قولِهِ.

جرَّبتُ دهري وأهْليهِ فَمَا تَركَتْ لِيَ التجاربُ فِي وُدِّ امْرِئ غَرضا

أيْ: لِمَ تَقولُ هذَا وَيْحكَ؟ ومَا الّذِي اقْتضاكَ أن تَطوِي عن الحَياةِ - إلىٰ هذا الحَدِّ - كَشْحَكَ[1]؟

[الضَّرْبُ الثَّانِي]

وإمّا عَن سَبَبٍ خاصٍّ لَه، كَقَوْلِهِ تعالَىٰ: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٢][2]، كأنّه قِيلَ: هَل النَّفْسُ أمّارَةٌ بالسُّوءِ؟ فَقِيلَ: إنَّ النّفْسَ لأمَّارَةٌ بِالسّوءِ.

وَهَذا الضَّربُ يَقْتضِي تَأكِيدَ الحُكمِ - كَما مَرَّ فِي بابِ أحوالِ الإسْنادِ.

---

(١) البيتان لأبي العلاء المعري. قوله: (غَرض)، أي: ضَجرَ، وقوله: (الغر) الغفول الذي لا خبرة له، و(لِغرٍّ بَعْدُ مَا غَرضَا) أي: لِغرِ مَا ضِجر بعدُ.

البيتُ الثّاني فُصِلَ عمَّا قبلَه؛ لأنّهُ جوابُ سؤالٍ استثاره البيتُ الأولُ في فؤادِ السَّامعِ من أنّه بيْت يُعْربُ عن أنَّ صدْرَ الشّاعرِ مُتْرَعٌ مُفعَمًا بالهمِّ والكَمد، فيسأله لِمَ ذلك؟

(٢) سياقُ الجُملةِ القُرآنيَّةِ قولُه تعالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٠ - ٥٣]

نظْمُ الآيَةِ يَهْدِي إلىٰ أنّ الجملةَ الأولىٰ: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ مُوحٍ بأنّ السّامعَ لا يحتاجُ أن يسألَ عَن سببٍ عامّ؛ مثل: (لِمَ لا تبرّؤها؟) فيكون سببًا عامًّا عن عدم التبْرئةِ؛ ذلِك أنّ الشّأنَ في الإنسانِ أنّهُ لا يُصرّح بَعدم تبرئة نفسِه إلا إذا كان هنالك أمرٌ خاصٌّ حَملَه علىٰ ذلك، وهنا يقومُ في نفسِ السَّامع تردّدٌ بيْن أَسئلة: أهُو لا يبرِّؤها؛ لأنّ النَّفسَ فُطِرَتْ علىٰ أن تأمر بما لا يُسْترضَىٰ، أمْ أنّه قد كان منه ما لا يجعله بريئًا، أم ماذا؟ هذا التردّدُ لا يكونُ إلا إذا تحقّق في النّفسِ أنَّ هنالك سببًا إلّا أنّه لا يُعلَمُ نوعُه، فتَسْتَشرِفُ النّفسُ إلَىٰ تَعيينِ السّببِ الخَاصّ، فيأتي قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، فيُعيّن السّبب الخاصّ.

[الضّربُ الثّالث]

وإمّا عَن غَيرِهما، كَقولِهِ تعالَىٰ: ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ﴾ [هود: ٦٩]، كَأنّه قِيلَ: فماذا قَالَ إبْراهِيمُ -عليه السّلامُ؟ فَقيلَ: قَالَ: سَلامٌ[١].

ومنه قول الشاعر:

زَعَـمَ العَـواذِلُ أنَّنِي فِـي غَمْـرَةٍ صَدَقُوا، وَلَكِنْ غَمْرَتِي لا تَنْجَلَي

فإنّه لمّا أبدَىٰ الشِّكايَةَ مِن جماعاتِ العُذَّالِ، كان ذلِك ممّا يُحرّكُ السّامِع، لِيسْأَلَ: أَصَدَقُوا فِي ذلكَ أمْ كَذبُوا؟ فأُخْرِجَ الكلامُ مُخرَجَه إذا كان ذلِك قَدْ قِيلَ لَه، ففصل[٢].

---

(١) سياقُ الجملة قولُه تعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ [هود: ٦٩]، فصل قوله: ﴿قَالَ سَلَٰمٞ﴾ عن ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾؛ لما بيْنهما من شبه كمال الاتصال؛ حيثُ أثار قولُه: ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ الرّغبَةَ في السّامع أن يعرف ما ردَّ به سيدنا إبراهيم – عليْهِ السَّلام – ذلك أنّه من شأن الإنسان إذا عَلِمَ أنَّ فلانًا قال لصَاحبه كلامًا أن يتطلَّعَ إلىٰ أن يَعرِفَ ما ردَّ به صَاحبُه، فيسأَلُ: ماذا قال له صاحبُه؟ فجاء الجوابُ: ﴿قَالَ سَلَٰمٞ﴾، وهذا هو الشّأنُ في كلِّ ما جاءَ علىٰ سبيل المُقاولَةِ، وهو في القرآن والسّنَّةِ جدّ كثير. هُو سؤالٌ عن غيرِ سببٍ خاصٍّ أو عامٍّ.

ردَّ سيِّدُنا إبراهيمُ – عليه السّلامُ – بالرّفع إعرابًا عن أنّه ردَّ عليهم بما هو أحسنُ من سلامِهم، فـ«الرّفْعُ» تأويلُهُ: أَمْرِي سَلَامٌ لكم، أيْ: لن يكونَ مِني لكم إلّا سلامٌ، وفي هذا تمكينٌ للطُّمأنِينَةِ لهم، وشأنُ الضّيف أنّه أحوجُ إلىٰ قِرَىٰ النّفس بالطّمانِينة أكثرُ مِن حاجتِه إلَىٰ قِرَىٰ البُطون بالطّعامِ والشَّرابِ.

(٢) (زعم) بمعنىٰ: (قال)، وليس بلازِمٍ أن يكونَ الزَّعْمُ كَذبًا في كلّ موضعٍ، فسِيبويْهِ يقولُ في مواضعَ عِدَّةٍ من كتابه: «زعم الخليل». و(العواذل): جمع «عاذلة»، أي: جماعة عاذلة من الرّجال، بقرينة قوله: (صدقوا)، وليس «عاذلة» جمعَ إناث؛ لأنّه لو كان لقال: (صدقنَ)، وحين يكون (العَذل) من الرِّجال يكون أنكَىٰ، فكيف إذا لم يكُ مِن واحدٍ، بل مِن جماعةٍ؟ (غمرة): شدة تغمر وتغطي من تنزلُ به. (تنجلي): تنكشفُ.

وَمِثله قولُ جُنْدَب بن عَمّار:

زَعَمَ العَواذِل أنَّ ناقَةَ جُنْدَبٍ ... بجَنوبِ خَبْتٍ عُرّيَتْ وأَجَمَّتِ
كَذَبَ العَواذِلُ لَو رَأَيْنَ مُنَاخَنا ... بالقادِسِيّة قُلْنَ: لَجّ، وذَلَّتِ[1]

وقَدْ زادَ هُنا أمْرَ «الاسْتئنافِ» تأكيدًا بأَنْ وَضَعَ الظَّاهِرَ مَوْضِعَ المُضمَر؛ مِنْ حيْثُ وَضَعَهُ وَضْعًا لا يَحتاجُ فِيه إلَىٰ ما قَبلَهُ، وأتَىٰ بِه مَأتَىٰ ما لَيْسَ قَبْلَهُ كَلامٌ[2].

وَمِنَ الأمْثِلَةِ قَولُ الوَلِيدِ:

عَرَفْـتُ المَنـزِلَ الخالِي ... عَفـا مِـن بَعْـدِ أحْـوالِ
عَفـاهُ كُلّ حَنّـانٍ ... عَسُـوفِ الوَبْـلِ هَطّالِ[3]

فإنّه لمّا قال: «عَفا»، وكانَ العَفاءُ ممّا لا يَحْصُلُ لِلْمَنْزِلِ بِنفسِهِ، كان مَظِنّةَ

فصل قوله: (صدَقوا)؛ لأنّه جوابُ سؤالٍ أثارتْهُ الجملةُ الأولَىٰ: (زَعمَ العَواذِلُ أنَّني فِي غَمْرَةٍ)، أصدقوا أم كَذبُوا؟ وهو سؤالٌ عن غير سببٍ عامٍّ أو خاصّ، ولم تأتِ الجُملة المُستأنفةُ: (صَدقُوا) مؤكّدَة؛ لِتنزيلِها منزلةَ الظَّاهر الّذي لا يَمسُّه شَكٌّ.

(١) «جندب»: اسم الشّاعر، وهو في الأصلِ نوْعٌ من الجَرادِ. و«خبت»: اسم موضع. و«عُرِّيتْ»: حُطّ عنها الرّحلُ. و«أجمَّتْ»: ارتاحتْ، وزالَ عنها كلالُها. و«لَجّ»: تَمادَي فيه واستهتَر.

(٢) يشيرُ إلىٰ تَصَرُّفٍ من الشاعر كان له ألاّ يتَّخِذَه؛ عدل عن أن يقول: «كذبن» إلىٰ قوله: (العواذل) في أول البيت الثاني، لكنه عدل، فقال: (كَذَبَ العَواذِلُ) مقيمًا الظَّاهرَ مَقامَ الضَّميرِ؛ إبرازًا لما كان منهن من العذل، وكان حقًّا عليهنَّ ألّا يفعلْنَ، فأَجْرَىٰ بَيانَه علىٰ استقلالِهِ عن البيت الثاني، وعدل عن (كذبت العواذل) إلىٰ (كذب العَواذلُ) ذكَّرَ الفعلَ، وكان له أن يؤنِّثَه، وعدل عن التّأنيثِ إلىٰ التّذكيرِ إيماءً إلىٰ قُوتِهنّ في الكذب.

(٣) البيْتان للوليد بن يزيد الأمويّ، قولُه: (عفا)، أي: درسَ، ولم يبقَ منه شيْءٌ. (من بعد أحوال)، أي: أحوال السّعادة والهناء. (حنّان): السحاب المطير. (عسوف): شديد المطر. (هطال): مدرارٌ.

أن يُسْأَلَ عَن الفاعِلِ(١).

ومِثْلُهُ قَولُ أَبِي الطَّيِّبِ:

ومَـا عَفَـتِ الرّيـاحُ لَـهُ مَحَـلًا   عَفَـاهُ مَـنْ حَـدَا بِهِـم وَسَـاقَا(٢)

فإنّه لَمَا نَفَىٰ الفعلَ المَوجودَ عَن الرّياحِ كان مَظِنّةَ أن يُسأَلَ عَن الفاعلِ(٣).

---

(١) البيتُ الأَوَّلُ بشطريْهِ يَفِيضُ بالأسىٰ والتّحزُّنِ علىٰ ما حلَّ بالمنزل، وكلمةُ: «منزل» هنا كلمَةٌ عالِيَةٌ، تُشِيرُ إلىٰ أنّ كلَّ مَن حازَه وجَد فيه حاجةً إلىٰ أن ينزلَ؛ لِما فيه مِمّا يُبْهِجُ الفؤادَ، فليس غيرُه أَوْلَىٰ بأن يُنْزَلَ فيه، لما فيه من جاذبِيَّةِ سحْرٍ تفجر من ساكنيه، وقوله: (عَفا مِن بَعد أحوالِ) حاملٌ سؤال: ما عفاه؟ فيأتي قوله: (عفاه كل حنان...)، وكان بملك الشاعر أن يقول: «كلّ حنانٍ»؛ دون أن يصرح بقوله: «عفا»، وكأنّه رأىٰ في إعادة الفعلِ ما يَزيد في الشّعور بما قد حَلَّ بهذا المنزلِ الّذي كانت تَتَنَزَّلُ فيه شآبيب الموَدَّةِ والأُنسِ.

(٢) البيت للمُتنبي من قصيدةٍ يمدَحُ سيفَ الدَّولَةِ، وقد أمَر له بفرس دَهماء وجارية مطلعها:

أَيَدْرِي الرَّبْعُ أيّ دَمٍ أَراقا؟   وأيّ قلوبِ هذا الرّكْبِ شاقا؟
لَنَـا ولأهْلِـهِ أبَـدًا قُلُـوبٌ   تَلاقَىٰ في جُسُومٍ ما تَلاقَىٰ
ومَا عَفَتِ الرّياحُ لَهُ مَحَلًّا   عَفَاهُ مَنْ حَدَا بِهِمِ وَسَاقَا
فَلَيْتَ هوَىٰ الأحبّةِ كانَ عَدلًا   فَحَمّلَ كُلّ قَلبٍ ما أطَاقَا

(٣) إذا ما كان الوليدُ بن يزيد الأموي في البيتين السابِقَيْن قد ألقَىٰ جَريرَةَ تهَالُكِ المنزلِ علىٰ الأمطارِ ومثيراتها، فإنّ المُتَنَبِّي فِي بَيْته هذا قد برّأها، ونفَىٰ أن تكونَ الرّياحُ هي الّتي عَفت الدِّيارَ، فلما كان منه ذلك كان بِمَظنَّةِ أن يُسَاءَلَ: من ذا الذي عَفَاه إذن؟ فقال: (عفاه مَن حَدا بهم وساقا)، أَوْقَعَ الجَريرَةَ علىٰ ذلك الّذي حمَلَ الأهلين، وارتَحَلَ بهم، فارتحلَتْ معه الحياةُ، حتىٰ عن المنازل، وعنْ كلّ شيْءٍ في تلك الديار، وفي هذا تفظيعٌ لِفعْلَةِ الحادي بهم، وما كانَ له أنْ يَفْعَلَ.

فَصَلَ قولَه: (عفاه مَنْ حدا بِهم وساقَا) عن قوله: (وما عفت...)؛ لوقوعِهِ جوابًا عن سؤال تولَّدَ من الشطرة الأولىٰ، وأعاد صَدْرَ الجملَةِ المُستأنَفَةِ، وكان بمقدوره ألا يُعيدَها، ولكنه فعل؛ ليبرزَ ما كان فعيلًا فيه من التَّحسُّرِ والتَّحزُّنِ علىٰ ما حلّ بالديار.

وكأنّي به يأسَىٰ للدِّيار إذ حُرِمَتْ بالرحيل ممّا كان فيها، فإذا كان هذا أثرُ الرّحيل في الديار فكيف به بالقلوبِ؟! ففيه من الإبلاغ في تصويرِ ما حَلَّ به من التَّحَسُّرِ والتَّحزُّنِ ما فيه!!

[صُورُ نَظْمِ جُمْلَةِ الجَوابِ المُسْتأْنَفَةِ]

وَأَيْضًا مِن الاستئنافِ ما يأتِي بإعادَةِ اسْمِ ما اسْتُؤنِفَ عَنْهُ، كَقولِكَ: (أَحْسَنْتُ إِلَىٰ زيْدٍ، زَيْدٌ حَقيقٌ بالإحْسانِ)[(١)]، وَمِنْهُ ما يُبْنَىٰ علَىٰ صِفتِه، كَقولِكَ: (أَحْسَنْتُ إِلَىٰ زَيْدٍ، صَدِيقُك القَدِيمُ أَهْلٌ لِذَلِك)، وهذَا أَبْلَغُ لانْطوائِهِ علَىٰ بَيانِ السَّبَبِ[(٢)].

وَقَدْ يُحْذَفُ صَدْرُ «الاسْتِئنافِ»؛ لِقيامِ قَرينَةٍ، كَقولِهِ تَعالَىٰ: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ﴾ [النور: ٣٦ – ٣٧][(٣)] فِيمَنْ قَرأَ: (يُسَبَّحُ)، مبنيًّا للمفعول[(٤)]، وَعَلَيْهِ نَحْوُ قَوْلِهِمْ: «نِعمَ الرَّجُلُ، أوْ رَجلاً زيدٌ»، و«بِئْسَ الرَّجُلُ، أوْ

(١) كأنَّ في إعادةِ اسمه إيماءً إلىٰ أنّ ذلك لا بُدَّ أن يكون، ففي إعادَةِ الاسمِ إيماءٌ إلىٰ استحقاقِهِ الإحسانَ؛ لأنَّ في ذكرِ الاسم استحضارٌ له، وما الاسمُ إلا سِمَةٌ وعلامة تستحضر في وعي السامع المسمّىٰ بخصَاله وأفعالِه.

(٢) قوله: «وهذا أبْلغ...» أي: أكثر مبالغةً، ولا يريد بقوله: (أبلغ) من البلاغة، بل من المبالغة؛ لأنّ عيارَ البلاغة المطابقةُ، وقد يقتضي المقامُ عدمَ المبالغةِ، فيكون الأعلىٰ بلاغةً مما جاء علىٰ المبالغة دون اقتضاء المقام. فحيثُ سمعتَ أهلَ العلمِ يقولون: «هذا أبلغُ»؛ ولا سيما في تفسير القرآن وشرح السُّنَّةِ، فاعلمْ أنّهم يريدون بقولهم: (أبلغ): أكثر مبالغة، لا أنّه أعلىٰ بلاغةً؛ ذلك أنّ البيان القرآنيَّ والبيان النبويّ لا تتفاوت بلاغَةُ كلٍّ، فكلٌّ علىٰ شَرف البلاغة وذروتها في بابِه، فليست آيةٌ أو سورةٌ أعلىٰ بلاغةً من آيةٍ، ولا حديث أعلىٰ بلاغةً من حديثٍ. فاحذَرْ.

(٣) سياق القول: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦ – ٣٨].

(٤) قرأ ابنُ عامرٍ، وأبو بكرٍ عن عاصمٍ (يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا) بفتح الباء، وقرأ الباقون ﴿يُسَبِّحُ﴾ بكسر الباء. علىٰ قراءةِ بناء الفعلِ لغيرِ الفاعلِ يكون قولُه: ﴿رِجَالٌ﴾ صدرَ جملةٍ مستأنفةٍ، هي جوابٌ عن سؤالٍ تولَّدَ من قولِهِ: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا ...﴾، فكأنَّه قيل: (من يُسبح له فيه؟) فقيل: رجالٌ؛ دون إعادةِ صَدْرِ الجُملَةِ، أي: لم يقُلْ: (يسبّح له فيها رجالٌ)، كما قال المتنبّي: «عفاه من حدا...».

رَجُلًا عمَرو» علَىٰ القولِ بأنّ المَخصوصَ خَبَرُ مُبتدأ محذوفٍ، أيْ: «هُوَ زَيْدٌ»، كأنّهُ لَمّا قِيلَ ذَلِك، فأبْهَمَ الفاعِلَ بِجَعْلِهِ مَعْهُودًا ذِهْنِيًّا مُظْهَرًا أَوْ مُضْمَرًا سُئِلَ عَنْ تَفْسيرِهِ، فَقِيلَ: «هُوَ زَيْدٌ»، ثُمّ حُذِفَ المُبْتَدَأُ[1].

وقَدْ يُحْذَفُ «الاسْتِئنافُ» كلُّه، ويُقامُ ما يدُلُّ عَليْهِ مَقامَهُ، كَقَوْلِ الحَماسي:

زَعَمْتُمْ أَنَّ إخْوتَكُمْ قُرَيْشٌ ... لَهُمْ إِلْفٌ وَلَيْسَ لكم إلافُ[2]

---

(١) إذا جعلت «زيدًا»، و«عَمرًا» هما المخصوص، فأنت معك جملةٌ واحدة، فلا يكون من هذا الباب - الفصل والوصل - في شيْءٍ، وإن جعلتَ المخصوصَ بالمدح أو الذمِّ محذوفًا، فقولك: «زيدٌ، وعمرٌو» خبرُ مبتدأ محذوفٍ، وتكون هذه الجملة جوابًا عن سؤالٍ تولّد من جملةِ: (نِعم الرجلُ، أوْ رَجُلًا)، و(بئْسَ الرَّجلُ، أو رجلًا)، وكان الفصلُ لكمال الاتصال، وقد حذف صدر جملة الاستئنافِ.

(٢) البيت لِمساور بن هِنْد بن قيس بن زُهَيْر، يهجو بني أَسد، وبعده:

أُولَئِكَ أومِنُوا جُوعًا وخَوْفًا ... وَقَد جاءَتْ بَنُو أَسْد، وخافُوا

لما كان قوله: (زعمتم... البيت)، كأنّه سُئِلَ: «أصَدَقُوا أمْ كَذبوا؟» فكان الجوابُ: (كذبوا)، وحذفه، وأقامَ ما يدلُّ عليْه قوله: (أولئك...)، وكأنّي به في حذفِه جملةَ الاستئنافِ يُشير إلىٰ أنَّ هذا جوابٌ مقطوعٌ به، لا يحتاجُ أنْ يُصرِّحَ لهم به، فكلٌّ يرَىٰ آياتِه فيهم، وفي هذا تعريضٌ بغبائهم ووقاحتهم.

غَبِيّ وقحٌ مَن يَدّعي في نفسِه شيءٌ حَسِينًا، وفِيه آياتٌ تُنادِي فوقَ رأسِه: ألَا قد كذبتَ، وافتريْتَ، وكلٌّ يَسمَع ويرَىٰ آياتِ كَذبِهِ، وتكذيبِهِ.

ثُمّ يُصرح الشاعرُ بآية لا تُنْكَر، ولا تَخْفَىٰ من آيات كذبِهم وادِّعائهم الأخوة، فقال: (أولئك ...)؛ مشيرًا بالبعيدِ إلىٰ قريشٍ؛ إيماءً إلىٰ سُموِّ مَقامِهم ودرجاتِهم عَن دركاتِ بني أسد.

ولمَ يقل لهم: (وأنتم جعتم وخفتم)، أعرضَ عن خِطابهم، مصرحًا باسْمهم تَسجيلًا عليهم، وإيماءً إلىٰ أنّهم غائبون عما ادّعوه لأنفسِهم، وغائبون عن المشهد الذي تُخاطب فيه قريشٌ تبجيلًا، إنّهم أحقُّ بأن يُعرَضَ عنهم، ولكنّه في صدر البيتِ الأول خاطَبَهم ليسجل عليهم الزّعم، فاستحضَرهم، وصكَّهم بقوله: (زعْمتم)، ثم غَيّبَهم بعد أن صكّ أسماعهم. كذلِك يترقّىٰ في هجوهم وإخزائهم، وكذلك الشّعراءُ.

حَذَفَ الجَوابَ الَّذِي هُو: (كَذَبْتُمْ فِي زَعْمِكُمْ)، وَأقام قولَه: «لَهُمْ إِلْفٌ، وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَافٌ» مقامَه؛ لِدلالته عليه[1]، وَيَجُوزُ أن يُقدّرَ قولُه: «لهم إلف، وليس لكم إلافٌ» جوابًا لِسؤالٍ اقتضاه الجوابُ المَحذُوفُ، كأنّه لمّا قال المُتكلّم: «كذبتم»، قالُوا: «لِم كَذبْنا؟» فقال: «لَهُمْ إِلْفٌ، وَلَيْسَ لَكُمْ إِلافُ»، فيكونُ فِي البَيْتِ اسْتِئنافان[2].

وَقَدْ يُحذَفُ، ولَا يُقامُ شَيْءٌ مَقامَه، كَقولِهِ تعالَىٰ: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ [ص: ٣٠][3]

ولِمَا في هذين البيتين من قوَّةِ الأثر فِي مَن قيلَ في حقِّهم اصطفاهما أبو تمّامٍ، وهو مَنَ هو شاعرًا، وناقدًا، وما الاختيارُ إلا صورةٌ من صور النّقد الأدبيّ.

(١) الشَّأنُ في لسان العربية أمران كُلِّيّان (ذِكْرًا، وطيًّا):

- ما يدركُه «الجَنان» دون ذكرٍ، فالأصلُ عدمُ الذكر، فإن ذُكِرَ كان عدولًا عن الأصل، ويُسْأَلُ عن المقتضِي للذكر، لا عن المقتضِي للطيّ؛ لأنَّ الطيَّ حينئذٍ هو الأصلُ.
- إذا كان في الكلامِ قرينةٌ دالَّةٌ، فالأصلُ أن يُكتَفَىٰ بدلالة القرينةِ؛ دون تصريحٍ بما تدُلُّ عليه القرينةُ.

ومثلُ هذا يُحَقِّقُ للبيان وجازتَه، وتحقيقُ الوجازةِ ليس ثمرتُها الاقتصادَ في البيان، كلَّا! ثمرتُه العظمىٰ هي تفعيلُ وعي المُخَاطَبِ السَّميعِ، وإكرامُه بإتاحة مجالِ التَّفكير والتَّأويل، فما يُصَرَّحُ فيه بكلّ شيءٍ هو عند أولي الألباب حِرمانٌ للمُخاطَب من لذَّةِ التفكير والتأويل، وهذا لا يركبه إلا شحيحٌ، والجود بشَهِيّ الكلام مُقَدَّمٌ علىٰ الجود بشهيِّ الطّعامِ عند أولي الألباب.

(٢) يُفادُ من هذا أنَّ ما طُوِي كأنَّه قائمٌ؛ ذلك أنَّ الاعتبارَ ليس لقيامِ الكلامِ في «اللِّسان»، بل الاعتبار في القيامِ في «الجَنان»، ولمَّا كان قولُهُ: «كذبتم» قائمًا في الجَنان، دون اللِّسان؛ لعدم الحاجةِ بشغل اللِّسانِ به، من قوة ظهوره وحضورهِ في كلّ ذي عقلٍ - لمَّا كان ذلك جعلَ هذا الغائب الحاضرَ الفاعل مثيرًا لسؤال: لِمَ كذَّبْتَنا في دعوانا أخوة قريْشٍ؟ فقال لهم: لَهُم إلفٌ...، وهذا يُبيِّن لك أن أسلوبَ الحذفِ عُمدةٌ في صياغةِ ونسيجِ هذيْن البَيْتينِ.

وكلُّ صورةٍ شِعريَّةٍ لها أساليبُ رئيسةٌ، وأساليبُ مساعدةٌ، والبلاغيُّ النّاقدُ حَقّ عليْهِ أن يَملِك مهارةَ التّبصُّرِ النَّافِذِ المُدْرِكِ منازل الأساليبِ فِي صناعةِ وصياغةِ صورةِ المعنَىٰ، وأن يكونَ له نصيبٌ مِن الفِراسةِ البيانيَّةِ، يخترقُ بها أسوارَ الغَيْبِ.

(٣) سياق الجملة: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ۝٤١ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ۝٤٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٤١ - ٤٣]،

أَيْ: (أَيُّوبَ)، أوْ: (هو) لِدَلالةِ ما قبلَ الآيةِ، وَما بَعدَها عَلَيْهِ، وَنَحْوُه قولُه: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨]، أيْ: (نَحْنُ)[١].

• • •

[مَواضِعُ الوَصْل]

(الوَصْلُ لِدَفْعِ الإيهامِ):

وإنْ لَم يَكُنْ بيْن الجُمْلتَينِ شَيْءٌ مِن الأحْوالِ الأرْبَعِ تَعَيَّنَ «الوَصْلُ»[٢]؛

وكذلِك فِي قِصة سيّدنا داود وسليمان - عَلَيْهِما السّلامُ: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

وفِي الإعرابِ بقولِهِ: ﴿ٱلْعَبْدُ﴾؛ دون النبيِّ - مثلًا - إيماءٌ إلىٰ أنَّ مَناطَ استحقاقِه المَدحَ الإلهيّ، إنّما هو «العُبودِية»، فَتَحْقِيقُ هذِه السِّمَةِ فِي أيٍّ يُحقِّقُ له نصيبًا من رضوان اللهِ - تَعالَىٰ - والثّناء عليه، هذا هو السَّبيلُ إلىٰ هذا المقامِ.

(١) سياقُ الجملة قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧ - ٤٨]، سياقُ القولِ حديثُ اللهِ - تَعَالَىٰ - عَن قدرتِه وإنعامِه، فكان لِزامًا أن يكونَ المَخصوصُ بالمدحِ هُو اللهُ - جَلَّ جلالُهُ.

مَدْحُ اللهِ - تَعَالَىٰ - نفسَه تعليمٌ لعباده أنْ يمدحوه، وقيامٌ بالحَمْلِ عن عبادِهِ؛ فإنَّهم لا يطقيون الوفاء بحقِّه في مدحه، فمَدَحَ نفْسَه؛ لأنّه لا يكونُ غيرُه أعلمُ بما هُو جديرٌ به من المدح، وهذا مِن فضْلِ رَحمَتِه بعِبَادِه.

(٢) مُصطلحُ «الوَصلِ» عند البلاغيين خاصٌّ بالعطف بين الجمل بالواو، فهو نوعٌ خاصٌّ من أنواع «عطف النَّسَق»؛ ولذا تُسَمَّىٰ «الواوُ» في هذا الباب «واو الوصل»، وليس «واو العطف»، فالعطفُ أعَمُّ من «الوصل»، وهو مصطلَحٌ يَلفتُ إلىٰ عَلاقاتِ المعاني وأنسابِها.

هو يأتِي لا لِيؤسِّسَ وصلًا لم يكنْ، كلَّا! هُو يأتِي لِيبرزَ هذا الوَصل حين يكونُ بحاجةٍ إلىٰ مزيدِ إبْرازٍ، فـ«الواوُ» في باب «الوصل» كاشِفَةٌ عَن موجودٍ، هي كـمثلِ «كاف التَّشبيه» لا تَخلُقُ مشابهةً بيْن شيئين لا وجودَ لها، كلَّا! هِي تَرْمُزُ إلَىٰ مشابهةٍ قائمَةٍ، وتكشِفُ عنها. تلك وظيفةُ «الواو» في مبحثِ «الوصل»، وتلك حدودُ عملِها.

إمَّا لِدَفْعِ إيهامِ خِلافِ المَقْصودِ، كَقَوْلِ البُلَغاءِ: (لا، وأيّدَكَ اللهُ)[1]، وهَذَا عَكْسُ الفَصْلِ للقَطْعِ[2].

• • •

[الوَصْلُ لِلتَّوسُّطِ بيْن الكَماليْنِ]

وإمّا للتَّوسُّطِ بيْن حالَتَيْ «كَمالِ الانقطاعِ»، و«كَمالِ الاتّصالِ»، وهُو

---

(١) (أوّلاً): هذا «الوصلُ» يُشتَرط فيه خَمْسَةُ شُروطٍ؛ ليكونَ وصْلاً بلاغيًّا:

أن يكون بالواو.

أن يكون بيْن جملتين، فأكثر.

أن يكون المعطوفُ عليه ليس له محلٌّ من الأعرابِ، أو قيدٌ معنوي يرادُ الإشراك فيه.

أن يكون بين الجملتين فأكثر جامعٌ؛ سواء كان جليًّا أو خفيًّا، المهمُّ أن يتحقَّقَ الجامِعُ.

أن يكون كلُّ ذلك إذا اقتضَىٰ المقَامُ.

(ثانيًا): «الواو» فِي: «وأيَّدَكَ اللهُ» ليست «واوَ وَصْلٍ»، هِي لَم تَعطِفْ ما بعدَها علَىٰ ما قَبْلَها؛ إبرازًا لِما بَيْنَهما مِن نَسَبٍ، كلّا! هذه «واوُ دَفعِ الإيهامٍ» وجودُها لِمنْع أن يُظنّ أنّ (لا) داخلةٌ علىٰ (أيّد)، فيكونُ المَعنىٰ دعاءً علىٰ المخاطبِ، لا دعاءً له. وإذا تحقَّقَتْ قرينَةٌ غير قرينة «الواو» مقاليّة أو مقاميّة فلا يلزمُ الإتيانُ بها، كأنْ يَسْكُتَ سَكتَةً تُفْهِمُ أنَّ الكلامَ قد تَمَّ عِندَ آخِرِ «لا»، وما بعدَها كلامٌ مُستَأْنَفٌ، أوْ توضعُ علامةُ ترقيمٍ تُفْهِمُ تَمَامَ الكلامِ عند آخرِ «لا».

فإذا أُمِنَ اللَّبسُ، فلا حاجةَ إلَىٰ الإتيانِ بـ«الواو»، المُهِمُّ أن يكونَ فِي القولِ قرينةٌ مَقاليّةٌ أوْ مقامِيّةٌ تَحْمِي السَّامِعَ مِن فَهْمِ غيرِ المِرادِ.

(٢) أي: إنَّ تَرْكَ «الواو» قد يترتَّبُ عليه فَهْمُ غيرِ المُراد، فيُؤْتَىٰ بها كما هنا، وهذا ليس وصلاً، ولا عطْفَ نسَقٍ، بل هذا دفع إيهامٍ، ومنْعُ لبسٍ.

والإتيانُ بها فِي موضعٍ قد يترتَّبُ عليه فهْمُ غيرِ المرادِ، فيتركُ ذكرُها، ولا يكونُ تركُها «فصلًا» بلاغيًّا، بل هُو «قطْعٌ»، فدَفْعُ الإيهامِ ورَفْعُ اللَّبْسِ قد يكونُ بذكْر «الواو»، وقد يكونُ بتَرْكِها، والسِّياقُ هُوَ الّذي يُعَيّنُ وَيُحَرِّرُ.

وعلَىٰ هذا لا تكونُ هذِه الصُّورةُ علىٰ التَّحقيقِ مِن مَبْحثِ «الوصلِ» مُصطلَحًا بلاغيًّا.

ضَرْبانِ:

(أحدُهُما): أن يَتَّفِقَا خبَرًا أوْ إنْشاءً، لَفْظًا وَمَعنًىٰ، كَقَولِه تَعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٤][1]، وقولِه: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الروم: ١٩][2]، وَقولِه: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾

(١) الآيتان مُتطابقان نظمًا، وهما اسْميتان، خَبريتان لفظًا ومعنًىٰ، وبيْنهُما جامعُ التّقابلِ، فَصَحَّ عَطْفُ الثّانيَةِ علَىٰ الأُولَىٰ، وليس للأُولَىٰ حُكْمٌ إعرابيٌّ أوْ قيدٌ مَعنويٌّ.

(٢) سياقُ القولِ: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٨ - ١٩]، الجملتان فعليتان، مضارعتان، متطابقتان نظمًا، وهما خبريتان لفظًا ومعنًىٰ، وبينهما جامعُ التَّقابلِ، عطف الثانية علىٰ الأولىٰ لتوسطهما بين الكماليْن.

وقدّمَ قولَه: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ ...﴾ علَىٰ قولِه: ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ...﴾؛ لأنّ إخراجَ الحيِّ أدلُّ علىٰ كمالِ القدرةِ علَىٰ البَعثِ الذِي هو مناطُ المُنازعَةِ والمعاندةِ.

[النساء: ١٤٢][١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: ٣١][٢].

و(الثَّانِي) أن يتَّفِقا كَذلِك مَعْنًىٰ لَا لَفظًا[٣]، كقَولِه تعالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ

(١) سياقُ القول: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢ - ١٤٣]، الجملتان خبريتان لفظًا ومعنًىٰ، والأولىٰ فعليَّةٌ مضارعيَّةٌ، والأخرىٰ اسمِيَّةٌ، وبينهما جامِعُ التَّناسُبِ، وهذا يهديك إلىٰ أنّ الاختلافَ بالفعلية والاسمية غيرُ مدفوعٍ.

وفِي قولِه: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ ثلاثةُ أوجُهٍ إعرابيَّةٍ:

(الأول): أنّها معطوفةٌ علىٰ خبر إنّ: ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾، وعلىٰ هذا جرىٰ التَّمثيلُ. وفيه نظرٌ؛ لأنّهُ عَطَفَ علىٰ ما له محلٌّ من الإعراب، والشّرطُ أن يكونَ المعطوفُ عليهِ لا محلّ له من الإعراب.

(الثاني): أنّها جملةٌ حاليَّةٌ فِي محلٍّ نصب.

(الثّالث): أنّها استئنافِيَّةٌ.

وعلىٰ الثّاني والثالث لا يكون هنا «وصْلٌ»؛ لأنَّ الواوَ فِي الحاليَّةِ ليست واوَ وصْلٍ صرف، وفي الثالثةِ الواوُ استئنافِيَّةٌ.

وفي العدولِ في الثّانية ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ عن الفعليَّةِ إلىٰ الاسمِيَّةِ تنبيهٌ إلىٰ أنَّ خداعَ الله - تَعَالَىٰ - لهم قائمٌ لا ينقطع؛ بينا خداعهُم مُنقَطِعٌ لعجزهم عن ديموميَّةِ المُخَادَعَة، وفي هذا بُشرىٰ للذين آمنوا؛ أنَّ المنافقين لا يقتدرون علىٰ استدامة خداعهم، وإنّما الله - تَعَالَىٰ - كاشفٌ خداعهم.

(٢) سياقُ الآيَةِ: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، ثلاثُ جُمَلٍ: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ فعليّة إنشائيّة؛ الأولىٰ والثانية «أمر»، والثالثة «إنشاء»، وبينها جامِعٌ، وكلُّها معطوفةٌ علىٰ جُملَةٍ استئنافيَّةٍ لا محلّ لها من الإعراب ﴿خُذُواْ..﴾.

(٣) الاعتبارُ هنا في الاتِّفاق معنًىٰ؛ من حيثُ النّسبَةُ الكلاميَّةُ، سواء كانت فيهما خَبريّة أوإنشائيّة.

ﭐلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة:٨٣][١]، عَطَفَ قَوْلَه: (قُولُوا) علَىٰ قَوْلِهِ: (لا تَعبدون)؛ لأنّه بِمعنَىٰ: (لا تَعْبدُوا)، وأمّا قَولُه: (وَبالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) فتَقدِيرُه: إمّا (وتُحسِنون)، بمَعْنَىٰ: (وأحْسِنُوا)، وإمّا (وأحْسِنوا)، وهذَا أبْلَغُ مِن صَرِيحِ الأمْر والنّهْي؛ لأنّه كأنَّه سُورِعَ إلَىٰ الامتثالِ والانْتهاء، فهُو يُخبِرُ عَنْه[٢].

وأمَّا قولُه فِي سورةِ (البَقَرةِ): ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[٣]، فقالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِيهِ: «فإنْ قُلْتَ: عَلامَ عَطَف هَذا الأمْرَ، وَلَمْ يَسْبِقْ أمْرٌ وَلا نَهْيٌ يَصِحّ عَطْفُهُ عَلَيْهِ؟ قُلْتُ: ليْس الّذِي اعْتُمِدَ بِالعَطْفِ هُو الأمْرُ، حَتَّىٰ يُطْلَبَ لَهُ مُشاكِلٌ مِن أمْرٍ أوْ نَهْيٍ يُعْطَفُ عَلَيْهِ إنّما المُعْتَمَدُ بِالعَطْفِ هُو جُمْلَةُ وَصْفِ ثَوابِ المُؤمِنِينَ، فَهِي مَعْطُوفَةٌ عَلَىٰ جُمْلَةِ وَصْفِ عِقابِ الْكافِرِينَ، كَما تَقولُ: «زَيْدٌ يُعاقَبُ بِالقَيْدِ والإرْهاقِ، وَبَشّرْ عَمْرًا بِالعَفْوِ والإطْلاقِ». وَلَكَ أنْ تَقولَ: هُوَ مَعْطوفٌ عَلَىٰ (فَاتّقُوا)، كَما تَقولُ: «يا بَنِي تَمِيمٍ احْذرُوا عُقوبَةَ مَا جَنَيْتُمْ، وَبَشّرْ يا فُلانُ بَنِي

---

(١) سِياقُ القولِ: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ [البقرة: ٨٣ – ٨٤].

(٢) قوله: «هو أبلغُ»، أي: أكثر مبالغةً في تقرير الأمر.

(٣) سياقُ الجملة: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٣ – ٢٥]

أَسَدٍ بإِحْسانِي إِلَيْهِم»[1].

هَذا كَلامُهُ، وفِيهِ نَظَرٌ لا يَخْفَىٰ علَىٰ المُتأمِّلِ[2].

وَقَالَ - أَيْضًا - فِي قَوْلِهِ - تَعالَىٰ - فِي سُورَةِ «الصّفّ»: ﴿وَبَشِّرِ

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف: أبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الثالثة، ١٤٠٧هـ، ج:١، ص: ١٠٤.

يذهبُ الزمَخشَرِيُّ إلىٰ أنَّ قولَه: «وبشر» ليس من عطفِ جملةٍ علىٰ جملةٍ، حتىٰ يُطلَبَ الاتّفاقُ في النِّسبَةِ الكلاميَّةِ معنًىٰ، بل هو من قبيل عطْفِ مجموعِ كلام علىٰ مجموعِ كلام يُمَثِّل كلٌّ «قصةً»، وهذا لا يُطلَبُ فيه اتِّفاقُ النِّسبةِ الكلاميَّةِ، وهو ما يُعرَفُ بـ«عطف قِصَّةٍ علَىٰ قِصّةٍ»، وهو في القرآن كثيرٌ.

ولا يُرادُ بالقصِّةِ هنا مفهومها الاصطلاحيّ في «الأدب»، بل يراد مجموعُ كلامٍ يُنبئُ عن موقفٍ أو موضوعٍ متكامل، كمثل الإخبارِ عن أحوال المؤمنين، وأحوالِ الكافرين يوم القيامة.

(٢) مناطُ النَّظرِ أمران:

(الأوّل): اختلافُ المُخاطَب في كلٍّ؛ ففي: (اتقوا) المُخاطَبُ الكافرون، وفي (بَشر) المُخَاطَبُ هو سيِّدُنا رسولُ الله - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلّم.

(الآخر): أنَّ الأولَ المعطوفَ عليْهِ: (اتقوا) مقيَّدٌ بالشَّرطِ: (فإن لم تفعلوا)، والآخر: (بشر) غيرُ مقيدٍ؛ لأنَّ تبشير الذين آمنوا غيرُ مقيّدٍ بعجز الكافرين عن الإتيان بسورة.

ومِن أهلِ العلم مَنْ نقَدَ هذا النَّظَر؛ بأنّه لا ضَرَر من اختلافِ المُخاطَبَيْن، فبين المخاطبين تقَابُلٌ؛ (الكافرون، والنبي - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلّم)، وبأنَّه لا ضَرَر في تقييد الأمرِ بالبِشارةِ بما قيد به الأول (اتقوا)، أي: إذا وقَعَ عجزُهم عن الإتيان بسورة أمر الكافرين باتِّقاء النار، وأمر سيدنا رسُول الله - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلّم - بتبشير المؤمنين، أي: في لحظة العجز يكون أمران؛ أمرٌ للكافرين باتِّقاء النّار، وأمرٌ لسيدنا رسُولِ اللهِ - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلّم - بتبشير الذِين آمنوا.

﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1]: إنَّه مَعْطُوفٌ علَىٰ «تُؤْمِنونَ»؛ لأنّهُ بِمَعْنَىٰ: (آمِنُوا)[2]. وَفِيهِ - أيْضًا - نَظَرٌ؛ لأنَّ المُخاطَبِين فِي «تُؤمِنُون» هُم المُؤْمِنون، وَفِي «بَشّرْ» هُو النَّبِيّ - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلّم - ثُمَّ قَوْلُه: «تُؤمِنونَ» بَيانٌ لِما قَبْلَهُ علَىٰ سَبيلِ «الاسْتِئْنافِ»، فَكَيْفَ يَصِحُّ عَطْفُ «بَشّرْ المُؤْمِنِينَ» عَلَيْهِ[3]؟!

وَذَهَبَ السَّكاكِيُّ إلَىٰ أنّهُما مَعْطُوفانِ علَىٰ «قُلْ»، مُرَادًا قَبْلَ «يا أيها الناس»، وَ«يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا»؛ لأنّ إرَادَةَ القَوْلِ بواسِطَةِ انْصِبابِ الكَلام إلَىٰ مَعْناهُ غَيْرُ عَزيزةٍ فِي القُرآنِ، وَذَكَرَ صُورًا كَثِيرَةً؛ مِنْها قَوْلُه تَعالَىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ﴾ [البقرة: ٥٧]، وقوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ﴾ [البقرة: ٦٣]، وقوله: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمۡنًا وَٱتَّخِذُواْ﴾ [البقرة: ١٢٥] أي: وقلنا، أو قائلين[4]. والأقربُ أن يَكونَ الأمْرُ فِي الآيَتَيْنِ معطُوفًا

---

(١) سِياقُ الجملَةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ - ١٣].

(٢) يقُول الزّمخشريُّ: «فإنْ قلتَ: عَلامَ عَطفَ قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؟ قُلْتُ: علىٰ «تُؤْمِنُونَ»؛ لأنّه في معنىٰ الأمر، كأنّه قيل: «آمِنوا وجاهِدوا يُثِبْكُم الله وينصركم، وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك». (تفسير الكشاف ج:٤، ص ٥٢٦).

(٣) سبق دفعُ نقدِ الخطيبِ علىٰ اختلافِ المخاطبِ في كلٍّ، أمّا النَّقْدُ بأنّ قولَه: تَعالىٰ: «تُؤْمِنُونَ» استئنافٌ، ولا يصحُّ عَطْفُ ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عَلَيْهِ؛ بأنّه ليس ما يَمنعُ جعلُ ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ علىٰ سبيلِ الاستئنافِ.

وفي الآيةِ مناقشاتٌ أُخرُ بيْن أهلِ العلمِ، لا يَتّسِعُ المقامُ لاستقرائها ومناقشتِها.

(٤) نصّ كلام «السّكاكيّ» في «مفتاح العلوم»، نشر: مصطفىٰ البابي الحلبي وشركاه - القاهرة - عام:١٣٥٦هـ، ص١٢٥).

علَىٰ مُقدّرٍ، يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ، وَهُوَ فِي الآيَةِ الأُولَىٰ: «فأَنْذِرْ»، أَوْ نَحْوَهُ، أيْ: (فَأَنْذِرْهُمِ، وَبَشّر الّذِينَ آمَنُوا)، وَفِي الآيَةِ الثَّانِيَةِ «فَأَبْشِرْ»، أَوْ نَحْوَهُ، أيْ: (فَأَبْشِرْ يَا مُحَمَّدُ، وبَشِّرْ المُؤْمِنِينَ)(١).

وهَذا كَما قَدَّرَ الزّمَخْشَرِيُّ قولَه تَعالىٰ: ﴿ وَٱهۡجُرۡنِى مَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٦] مَعْطُوفًا علَىٰ مَحذوفٍ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُه: ﴿ لَأَرۡجُمَنَّكَ ﴾ [مريم: ٤٦]، أيْ: فَاحْذَرْنِي واهْجُرْنِي؛ لأنّ ﴿ لَأَرۡجُمَنَّكَ ﴾ تَهْديدٌ وتَقْريعٌ(٢).

• • •

(١) العطفُ علىٰ مُقدَّرٍ يُفهَمُ من سياقِ القول - كثيرٌ في بيان الوحي، وفي البيانِ البشريِّ الإبداعِيِّ، ويغلبُ أن يكون ذلك حين يكونُ المعطوفُ عليهِ قريبَ الإدراكِ، فلا حاجةَ للتَّصريحِ بِه.

(٢) يقُولُ الزّمخشَريُّ: «فإنْ قُلْتَ: علام عُطِفَ ﴿ وَٱهۡجُرۡنِى ﴾؟ قلتُ: علىٰ معطوفٍ عليهِ محذوفٍ، يَدلُّ عليه ﴿ لَأَرۡجُمَنَّكَ ﴾، أي: فاحذرنىٰ واهجرني؛ لأنَّ ﴿ لَأَرۡجُمَنَّكَ ﴾ تهديدٌ وتقريعٌ». (تفسير الكشاف، ج: ٣، ص٢١).

[الجَامِعُ بيْن الجُمْلَتَيْنِ][(١)]

والجَامِعُ بيْن الجُمْلَتَيْنِ يَجِبُ أن يَكونَ باعْتبارِ «المُسند إليه» فِي هَذِهِ، وَ«المُسْنَدِ إليه» فِي هذِه، وباعْتِبارِ «المُسْنَدِ» فِي هذِه وَ«المُسْنَدِ» فِي هَذِهِ جَمِيعًا، كَقَولِكَ: «يُشْعِرُ زَيْدٌ، وَيَكْتُبُ»، وَ«يُعْطِي وَيَمْنَعُ»، وَقَوْلِكَ: «زَيْدٌ شاعِرٌ، وَعَمْرٌو كَاتِبٌ»، وَ«زَيْدٌ طَوِيلٌ، وَعَمْرٌو قَصِيرٌ» إذَا كَانَ بيْنَهُما مُناسَبَةٌ؛ كَأَنْ يَكُونَا أَخَوَيْنِ أَوْ نَظِيرَيْنِ، بِخلافِ قَوْلِنَا: «زَيْدٌ شَاعِرٌ، وَعَمْرٌو كاتِبٌ» إذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا مُناسَبَةٌ، وَقَوْلِنا: «زَيْدٌ شَاعِرٌ، وَعَمْرٌو طَوِيلٌ» كانَ بَيْنَهُمَا مُناسَبَةٌ أَوْ لَا، وَعَلَيْهِ قَولُه تَعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٦]، قُطِعَ عَمّا قَبْلَه؛ لأنّهُ كَلامٌ فِي شَأْنِ الّذِينَ كَفَرُوا، ومَا قَبْلَهُ كَلامٌ فِي شأنِ القُرآنِ[(٢)].

---

(١) (الجامعُ) هو المعنىٰ الرابطُ بيْن شيْئين، وقد يكونُ ظاهرًا قريبًا، وقد يكونُ لطيفًا، يحتاجُ إدراكُهُ إلىٰ مزيدٍ من اليقظَةِ، والقدرةِ علىٰ تَتَبُّعِ حَركَةِ المعنىٰ، فقد يُجْمَعُ معنًىٰ إلىٰ معنًىٰ بعيدٍ عنه.

والجامعُ في مُكوِّناتِ عالم البيان، كالنَّسبِ في مكونات عالمِ الإنسان سواءً بسواءٍ، وكما أنَّ من النَّاس ذا فِراسَةٍ يقتدرُ بها علىٰ أنْ يُدْرِكَ النَّسبَ بين اثنين، وإنْ تخالَفَتْ أشكالُهُما - كما كانَ شأنِ «المُدلجيّ» في شأنِ سيِّدِنا زيدٍ وأسامةَ - رضِيَ الله عنهما - فالأمرُ - كذلك - في عَالمِ البيان قد تتباعَدُ أشكالُ نظومِ صُور المعاني، وبينها نسبٌ عريقٌ دَفِينٌ، فيكون لبعضٍ ذوي الفراسة البيانية ما يقتَدِرُ به علىٰ أن يُبصِرَ ما بيْن هذه المعاني التي تباعدت، واختلَفَتْ صُورُها من نسبٍ عريقٍ.

وهذا بابٌ دقيقٌ، يحتاجُ إليه المُتدَبِّرُ بيانَ الوَحْي، وبديعَ الشّعر والنّثر الأدبيّ.

وإذا رأيتَ مَنْ يقولُ بـ«الاقتضَاب» في بيانِ الوحيِ إنَّما هو مُنْبِئٌ عَن كَلَلٍ فِي بصيرتِهِ؛ لَم يرَ النَّسَبَ بين المعاني، فحَكَم علىٰ ما عَلِمَ، لا علىٰ ما هو قائمٌ في البيان، فليس في بيانِ الوَحْيِ «اقتضَابٌ»، أو «كمالُ انقطاعٍ بلا إيهامٍ»، لا يكونُ في بيانِ الوحْيِ انقِطَاعٌ بيْن جُملتينِ مُتَقَارِبَتَيْنِ، أو مُتَباعِدَتَيْنِ. وكلّما كان الجامعُ لطيفًا «خفيًّا» كان عطاءُ تدبُّرِه وتبصُّرِه طَريفًا «مُتَجدّدًا».

وحديثُ البلاغيّين عن «الجَامع» في «الفصل والوصل» من حدِيثِهم عنه في «التَّشبيه والمَجاز»، فكَما أنّهم يَعتدُّون بالجامعِ «الخياليّ» في «التشبيه، والمجاز» يعتدُّونَ بِهِ في «الفصل والوصل».

(٢) يُريدُ أنّه من أول سورة «البقرة» إلىٰ آخرِ قولِهِ تَعالَىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

وَأَمَّا مَا يُشْعِرُ بِه ظاهِرُ كَلامِ السّكاكِيِّ فِي مَوضِعٍ مِنْ كِتابِهِ أَنَّه يَكْفِي أَنْ يَكُونَ الجامِعُ باعْتبارِ المُخْبَرِ عَنْهُ، أو الخَبَرِ، أَوْ قَيدٍ مِنْ قُيودِهِما[1] - فإِنَّه مَنْقوضٌ بِمَا مَرّ[2]، وبِنَحْوِ قَوْلِكَ: «هَزَمَ الأَمِيرُ الجُنْدَ يَومَ الجُمُعَةِ، وَخاطَ زَيْدٌ ثَوْبِي فِيهِ»، وَلَعَلّهُ سَهْوٌ، فإِنّه صَرّحَ فِي مَوْضِعٍ آخَر منه بامتناعِ عَطْفِ قولِ القائلِ: «خُفِّي ضَيِّقٌ» علَىٰ قَوْلِهِ: «خاتَمِي ضَيِّقٌ»، مَع اتّحادِهِما فِي الخَبَرِ.[3]

• • •

ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٥] كلامٌ في شأنِ القرآنِ؛ بيْنا قوله تعالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [البقرة: ٦] إلىٰ آخر قوله تعَالَىٰ: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [البقرة: ٢٠] كلامٌ في شأنِ الكافرين والمنافقين، ولا جامع بيْن القولَيْن؛ ومن ثم قطع لكمال الانقطاعِ بلا إيهامٍ.

وهذا الذي قاله ليس هو الذي اتّفَقَ عليه أهْلُ العِلمِ، فهنالك مَن يرىٰ غيرَ ذلك، والقولُ فيه مُشتَجَرٌ.

(١) يقول: «والجامِعُ العقليُّ هو أن يكونَ بينهما اتّحادٌ في تصور مثل الاتّحادِ في المُخبَرِ عنه، أو في الخبر، أو في قَيْدٍ من قُيودِهِمَا، أو تماثل هناك، فإنَّ العَقْلَ بتَجْريدِه المثلين عن التَّشخص في الخارِجِ يرفع التَّعدد عن البين» (المفتاح، ط: الحلبي، ص٢٥٣). وقوله: (أو) يُوهِمُ الاكتِفاءَ بأيٍّ.

(٢) أيْ: من امتناع الوصل بين «زيدٌ شَاعرٌ»، و«عمرو طويلٌ»؛ لِعَدَمِ المُناسبةِ بين المسندِ في كلٍّ.

(٣) يقُولُ في (المفتاح): «وأنتَ كما قُلْتَ: (إنَّ خاتمي ضيق) تذكَّرْتَ ضِيقَ خفك وعناءك منه، فلا تقول: (وخفي ضيق)؛ لنُبُوِّ مَقامِك عن الجَمْعِ بين ذكر الخاتم وذكر الخفِّ، فتختار القطعَ». (المفتاح، ص٢٧٠)

[أنْواعُ الجامِعِ]

ثُمّ قالَ: الجامعُ بيْن الشّيْئَيْنِ عَقْلِيٌّ، وَوَهْمِيٌّ، وَخَيالِيٌّ:

أمّا العَقلِيُّ[1] فهُوَ أنْ يَكونَ بيْنَهُما اتِّحادٌ فِي التَّصوُّرِ، أوْ تَماثُلٌ، فإنَّ العَقْلَ بِتَجرِيدِه المِثْلَينِ عَن التَّشَخُّصِ فِي الخارِجِ يَرْفَعُ التَّعَدُّدَ بينهما - أوْ تَضايُفٌ، كمَا بَيْنَ «العِلّةِ» و«المَعْلُولِ»، و«السّبَبِ» و«الْمُسَبّبِ»، و«السُّفْلِ» و«الْعُلُوِّ»، و«الأَقَلّ» و«الأكْثَرِ»، فإنّ العَقلَ يَأبَىٰ أن لا يَجْتَمِعا فِي الذِّهْنِ.

وأمَّا «الوَهْمِيُّ»[2] فَهُوَ أنْ يَكونَ بيْن تَصَورَيْهما «شِبْهُ تَماثُلٍ»، كَلَوْنِ بَياضٍ وَلَوْنِ صُفْرَةٍ، فإنّ الوَهْمَ يُبْرِزُهُما فِي مَعْرِضِ الْمِثْلَيْنِ[3]؛ وَلِذَلِكَ حَسُنَ الجَمْعُ بَيْنَ الثَّلاثَةِ الّتِي فِي قَوْلِهِ:

ثَلاثَـةٌ تُشْـرِقُ الدُّنْيَـا بِبَهْجَتِهَـا ... شَمْسُ الضُّحَىٰ وَأَبُو إِسْحَاقَ والْقَمَرُ[4]

(١) الجامِعُ العَقْلِيُّ جامِعٌ موضوعِيٌّ مُتَعينٌ، قائمٌ في الواقِعِ، لا سبيل إلىٰ الاختلاف عليهِ، فكل أولي النّهَىٰ يدركونه، ولا يختلفون عليْهِ، كالعَلاقة بين الولَد وأبيه، واللّيل والنَّهار، ونحو ذاك. وهذا الجامعُ قائمٌ في كل أنواعِ البيانِ البليغِ.

(٢) الوهْمُ هو القوّةُ التي تُدْرِكُ معانِيَ عند إدراك المحسوسات، فالحِسُّ يُدْرِكُ الأمورَ المحسوسَةَ، كإدراك (الفأر) عند رؤيته (الهرّ)، أمَّا إدراكُ العداوةِ والخطر والخوف، فهذه معانٍ يُدركُها (الوهمُ).

كلُّ المشاعر التي تدركها عند روية أشياء حسية أداة إدراكها «الوهم»، أنت قد تَشعُرُ بالمسرَّةِ عند رؤية إنسانٍ ما، ويشعر شقيقُكَ الخَطَرَ عند رؤيته.

(٣) يقُول السَّعدُ: «من جهة أنه يسبِقُ إلىٰ الوهم أنَّهما نوعٌ واحدٌ، زِيدَ فِي أحدِهِما عارِضٌ؛ بخلافِ العَقلِ فَإنَّه يَعرِفُ أنَّهُما نوعانِ مُتَبايِنانِ، دَاخِلان تحت جِنْسٍ هو اللَّوْنُ».

(٤) قاله محمد بن وهبٍ، يمدَحُ المُعتَصِمَ، وبعْدَهُ:

تحكِـي أفاعيلـهُ في كلِّ نائبـةٍ ... الغيث والليث والصَّمصامَة الذكر

أَوْ «تضادٌّ» كالسَّوادِ والبَياضِ، والهَمْسِ والجَهارَةِ، والطِّيبِ والنَّتَنِ، والحَلاوَةِ والحُموضَةِ، والمَلاسَةِ والخُشُونَةِ، وكَالتَّحرُّكِ والسُّكُونِ، والقِيامِ والقُعودِ، والذّهابِ والمَجِيءِ، والإقْرارِ والإنْكارِ، والإيمانِ والكُفْرِ، وكالمُتّصِفاتِ بِذَلِكَ: كالأسْودِ والأبْيَضِ، والمُؤمِنِ والكافِرِ.

أوْ «شِبْهُ تَضادٍّ»[1] كالسَّماءِ والأرْضِ، والسَّهْلِ والْجَبَلِ، والأَوّلِ والثّانِي، فإنَّ الوَهمَ يُنْزِلُ المُتَضادَّيْنِ والشَّبِيهَيْنِ بِهِما مَنْزِلَةَ المُتَضايِفَيْنِ، فَيَجْمَعُ بَيْنَهُما فِي الذّهْنِ؛ ولِذَلِكَ تَجِدُ الضّدَّ أَقْرَبَ خُطُورًا بِالْبَالِ مَعَ الضِّدِّ.

والخَيالِيُّ[2] أنْ يَكونَ بيْن تَصَوُّرَيْهِمَا تَقارُنٌ فِي الخَيالِ سَابِقٌ.

فالشمس تحكيه في الإشراق طالعةً	إذا تقطَّعَ عن إدراكها النظرُ
والبدرُ يحكيه في الظلماء منبلجًا	إذَا استنارت لياليه به الغررُ

جلِيٌّ لا يَخفىٰ أنَّ قولَه: (شمسُ الضّحَىٰ، وأبو إسحاق، والقمرُ)، وقولَه: (الغيث، واللّيث، والصَّمصامَة الذكر) مِن قبيل عطف المفرداتِ، وليس من قبيل وصْل الجمل.

وهو لا يستشهدُ به علىٰ «الوصل»، بل علىٰ ما بين الثلاثة من تماثُلٍ في الإشراق. وهذا ليس علىٰ التَّحقيقِ، فلا إشراقَ في «الممدوح»، بل هو ضربٌ من التّوهُّمِ، والشِّعْرُ يُعَتدُّ فيه بما في تصوُّرِ الشّاعر، وإن لم يكن قائمًا في الواقع، أي: لا يُعْتَدُّ فيه بالصِّدقِ الأخلاقِيِّ (المنطقيّ)، بل بالصِّدْقِ الفنيِّ (النفسيّ)، فالإشراقُ الَّذِي فِي (شَمْسِ الضُّحَىٰ، والقمرِ) حِسِّيٌّ، والذي في (أبي إسْحاقٍ) نفسِيٌّ.

وكذا قوله في تاليه: (الغيث، واللّيث، والصَّمصامَة الذكر) بينَها تَماثُلٌ في دَفْعِ النّوائِبِ.

(١) الفرقُ بين «التضاد» و«شبهه» أنَّ التّضادَ يكون بيْن شيئنِ مُتَنافِيَيْن في ذاتِهِما، كـ(السفل والعُلُوّ)، وشِبْهَ التّضاد لا يكون التنافي بين ذاتَيْهِما، بل بما يلزمُ ذاتيهما.

(٢) «الخَيالُ» هو القُوَّةُ المُتَصرِّفَةُ في ما ثَبت في حافظة «الحس المشترك»، يصنَعُ منها صورًا، ليس لها قيامٌ في الواقِعِ، علىٰ النَّحوِ الَّذِي شكَّلَها عَلَيْهِ الخَيالُ.

وعلىٰ ذلك فالفَرْقُ بين: (العقلِيِّ، والوهْمِيِّ، والخيالِيِّ) أنَّ العقلِيَّ فِيه عَلاقَةٌ حَقيقِيَّةٌ بين الأشياء، والوهْمِيَّ العَلاقةُ بينها اعتباريَّةٌ لا حقيقيّة، والخيالِيّ لا تُوجَدُ عَلاقةٌ بينها في ذاتها أو لوازمها،

[أسْبابُ التَّخييلِ]

وأسْبابُهُ مُخْتَلِفَةٌ؛ ولِذلِكَ اخْتَلَفَتِ الصُّوَرُ الثَّابِتَةُ فِي الخَيالاتِ تَرَتُّبًا وَوُضُوحًا، فَكَمْ صُوَرٍ تَتَعانَقُ فِي خيالٍ، وَهِيَ فِي آخَرَ لَا تَتَراءَىٰ، وَكَمْ صُورَةٍ لا تَكادُ تَلوحُ فِي خَيالٍ، وهِي فِي غيرِه نارٌ علَىٰ عَلَمٍ[1].

كمَا يُحْكَىٰ أنَّ صَاحِبَ سِلاحِ مَلِكٍ، وَصائِغًا، وَصَاحِبَ بَقَرٍ، وَمُعَلِّمَ صِبْيَةٍ - سافَرُوا ذاتَ يَوْمٍ، وَوَصَلُوا سَيْرَ النَّهارِ بِسَيْرِ اللَّيْلِ؛ فَبَيْنَما هُمْ فِي وَحْشَةِ الظَّلامِ، وَمُقاسَاةِ خَوْفِ التَّخَبُّطِ والضَّلالِ طَلَعَ عَلَيْهِم البَدْرُ بِنُورِه، فَأَفاضَ كُلٌّ مِنْهُم فِي الثّناءِ عَلَيْهِ، وَشَبّهَهُ بِأَفْضَلِ مَا فِي خِزانَةِ صُوَرِهِ، فَشَبّهَهُ السّلاحِيُّ بِالتُّرْسِ المُذَهّبِ يُرْفَعُ عِنْدَ المَلِكِ، والصَّائِغُ بِالسَّبِيكَةِ مِن الإبْرِيزِ تَفْتَرُّ عَنْ وَجْهِهَا البَوْتَقَةُ، والبَقَّارُ بِالجُبْنِ الأبْيَضِ يَخْرُجُ مِنْ قَالَبِهِ طَرِيًّا، وَالْمُعَلِّمُ بِرَغِيفٍ أَحْمَرَ يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ بَيْتِ ذَوِي مُرُوءَةٍ[2].

وَكَما يُحْكَىٰ عَنْ وَرَّاقٍ يَصِفُ حَالَهُ: عَيْشِي أضْيَقُ مِنْ مَحْبَرَةٍ، وَجِسْمِي أَدَقُّ مِنْ مِسْطَرَةٍ، وَجَاهِي أَرَقُّ مِن الزُّجاجِ، وَحَظّي أَخْفَىٰ مِنْ شَقِّ الْقَلَمِ، وَبَدَنِي

بل هي من صنعةِ «الخيال»؛ بحسبِ الأسباب المؤذنة إلىٰ الاقترانِ فيهِ، وهِيَ أَسْبَابٌ تختَلِفُ باختلاف النّاسِ؛ فَمَا يَثبتُ فِي خَيالِكَ قد لا يَثْبُتُ في خيال تَوْأَمِكَ.

(١) ذلك أنَّه ليس في الخياليّاتِ عَلاقاتٌ حقِيقِيَّةٌ كما في العقليَّات، أو علاقات اعتبارية شبيهةٌ بالعقليات كما في الوهميات، فجميعُ ما يثبت في الخيال ممّا يصل إليه من الخارج عن طريق الحواسّ إنّما يثبت فيه بحسَبِ تأديه، وتكرره فيه اجتماعًا وافتراقًا، وهذا ممّا يتفاوت فيه الناسُ، فأسبابُ الخَيالِ أسبابٌ خارجِيَّةٌ اتِّفاقِيَّةٌ.

(٢) قيَّدَه ببيت ذَوِي مُروءةٍ احترازًا؛ لتكتملَ الصُّورَةُ في الاستِدَارةِ واللَّمعانِ واستواء اللَّون، أمّا غيرهم فقد يبعثون إليه بما هو أقل أرغفتهم استدارةً، ونضجًا، فلا تكتمل المشابَهَةُ بالقَمر، وفي هذا تَعريضٌ بمن لَيسوا من أهلِ المروءةِ.

أَضْعَفُ مِنْ قَصَبَةٍ، وطَعَامِي أَمَرُّ مِنَ العَفْصِ[1]، وشَرابِي أَشَدُّ سَوادًا مِن الحِبْرِ، وَسُوءُ الحَالِ لِي أَلْزَمُ مِنَ الصَّمْغِ!

• • •

[حَاجَةُ البَلاغِيِّ إِلَى الجَامِعِ الخَيَالِيِّ]

وَلِصَاحِبِ عِلْمِ المَعَانِي فَضْلُ احْتِياجٍ إِلَىٰ التّنبُّهِ لأنْواعِ الجَامعِ؛ لا سِيَّمَا «الخَيالِيُّ»، فإنّ جَمْعَهُ علَىٰ مَجْرَىٰ الإلْفِ والعادَةِ بِحَسَبِ مَا تَنْعَقِدُ الأسْبابُ فِي ذَلِكَ، كَالجَمْعِ بيْنَ الإِبلِ والسَّماءِ وَالْجِبالِ وَالأَرْضِ فِي قَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠]، بِالنّسْبَةِ إِلَىٰ أهْلِ الوبَرِ، فَإِنَّ جُلَّ انْتِفاعِهِم فِي مَعاشِهِمْ مِن الإِبلِ، فَتكُونُ عِنايَتُهُمْ مَصْرُوفَةً إِلَيْهَا، وَانْتِفاعُهُمْ مِنْها لَا يَحْصُلُ إِلّا بأنْ تَرْعَىٰ وَتَشْرَبَ؛ وَذَلِكَ بِنُزُولِ المَطَرِ، فَيَكْثُرُ تَقَلُّبُ وُجُوهِهِمْ فِي السَّماءِ، ثُمّ لا بُدّ لَهُمْ مِنْ مَأْوَىٰ يؤْوِيهِمْ، وَحِصْنٍ يَتَحَصَّنُونَ بِهِ، وَلَا شَيْءَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ كَالْجِبالِ، ثُمَّ لَا غنًىٰ لَهُمْ لِتَعَذُّرِ طُولِ مُكْثِهِمْ فِي مَنْزِلٍ عَن التَّنَقُّلِ مِنْ أَرْضٍ إِلَىٰ سِواهَا، فإذَا فَتَّشَ البَدَويُّ فِي خَيالِهِ وَجَدَ صُوَرَ هَذهِ الأشْياءِ حاضِرَةً فِيهِ علَىٰ التَّرْتِيبِ المَذْكُورِ، بِخِلافِ الحَضَرِيِّ، فَإِذَا تَلا قَبْلَ الوُقوفِ مَا ذَكَرْنَا ظَنَّ النَسَقَ - لِجَهْلِهِ - مَعِيبًا[2].

---

(١) ما يُتَّخَذُ منه «الحِبرُ»، وهو بالِغُ المَرارَةِ، فمَناطُ المُشَابهِةِ: «الطعمُ»، وفي الذِي بَعدَهُ: «اللَّون»، فاختلفا.

(٢) فيما ذكره صاحبُ «الإيضاح» من كلامِ السّكاكيِّ في آياتِ سُورةِ «الغاشِية» شيءٌ من التّصرُّفِ غيرِ المخلِّ. (مفتاح العلوم، ص١٢٤)

ولو أنّ البلاغيين استحضَروا ما قالوا في: «الجامع الوهمي والخيالي» عند نقْدِهم بيْتَ «أبي تمام»:

[مُحَسّناتُ الوَصْلِ][1]

وَمِنْ مُحَسِّناتِ «الوَصْلِ» تَناسُبُ الجُملَتَيْنِ فِي الِاسْمِيَّةِ وَالفِعْلِيَّةِ، وَفِي المُضِيِّ والمُضارَعَةِ إلا لِمانِعٍ[2]؛ كَما إذَا أُرِيدَ بِإحْداهُما التّجَدُّدُ وبالأُخْرَىٰ الثُّبُوتُ، كَما إذَا كانَ زَيْدٌ وَعَمْرٌو قَاعِدَيْنِ، ثُمّ قَامَ زَيْدٌ دُونَ عَمْرٍو، وَقُلْتَ: (قامَ زَيْدٌ، وَعَمْرٌو قاعِدٌ)، كَما سَبَقَ.

• • •

(لا، والّذِي هُو عالِمٌ أنَّ النَّوَىٰ صَبِرٌ...) لَمَا كان لهم أن يَعِيبوا، ولَعَلِموا أنّ هنالك جامعًا خياليًّا، بلْ وهميًّا بيْن «مرارةِ النّوىٰ»، و» كرم أبي الحسين» في وعْي أبي تمام وَوهْمِه؛ ذلِك أنَّ استحضارَ «النّوىٰ» في وعيه يلزمُهُ المرارَةُ، واستحضارَ كَرَمِ أبِي الحُسين يلزمه الحلاوةُ، وهذا من قبيل الجامعِ الوهمِيِّ.

(١) التَّحسينُ هنا تحسينُ المَعنىٰ من تحسينِ الصُّورة في الأفئدة، وذلك لا يكونُ إلا بمطابقة الاقتضاء، فهو حُسنٌ وظيفيٌّ مرتهنٌ بالسّياق والمقصد، وليس حسنًا ذاتيًّا لا يَتَخَلَّفُ، فما هو حَسَنٌ في سياقٍ ومَقْصِدٍ قد لا يكونُ كذلك في غيرهِمَا؛ ولذا كان الحُسْنُ البلاغِيُّ في التَّراكيبِ من قبيلِ الواجِب؛ ومن ثَم تَنتفي «المعياريَّةُ» عَن العقل البلاغِيِّ العَربِيِّ، الّتي يَصِمُه بها مَنْ لم يُحسن القراءةَ.

(٢) العُدُولُ عن التّطابُقِ في الاسْمِيَّةِ والفعليَّةِ وما ذكر لمقتضٍ منْ مُقتضياتِ الحال هو البلاغةُ، وتركه العدول حينئذٍ قُبْحٌ، فالتّراكيبُ في ذاتِها لَيْسَتْ هِيَ مناطَ الحُسْنِ، بلْ البلاغةُ فِي مطابقتِها لمقتضَىٰ الحال.

ترىٰ هذا في قولِه تَعالَىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: ٩٥ – ٩٦]، وقولِه تَعالَىٰ: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [البقرة: ٢١٢]، وقولِه تَعالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقولِه تَعالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج: ٢٥].

[فروقٌ نظميَّةٌ في الجُملَةِ الحَاليَّةِ]

[تَوْطِئَةٌ في الحَالِ]

ومِمَّا يَتَّصِلُ بِهذَا البابِ القولُ فِي الجُملةِ إذا وَقَعتْ حَالًا مُنْتَقِلَةً[1]، فَإِنَّها تَجِيءُ تَارةً بـ«الواوِ»، وتَارةً بِغيرِ «الواو». فَنَقولُ: أَصْلُ الحَالِ «المُنْتَقِلَةِ» أنْ تكونَ بِغيْرِ «واوٍ»؛ لِوجُوهٍ:

(الأوّلُ): أنَّ إِعْرابَها ليْس بِتبَعٍ[2]، ومَا لَيْسَ إعْرابُه بِتبَعٍ لا يَدْخُلُهُ «الواوُ»، وَهَذِه «الواوُ» وإنْ كَانَتْ تُسمّىٰ «واوَ الحالِ»، فإنَّ أصْلَها «العَطْفُ»[3].

(الثّانِي): أنَّ «الحَالَ» فِي المَعْنَىٰ حُكْمٌ علَىٰ ذِي الحَالَ، كَالْخَبَرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ المُبْتَدَأ، إلّا أَنَّ الفَرْقَ بَيْنَهُ وَبيْنَها أنّ الحُكْمَ بِهِ يَحْصُلُ بِالأصَالَةِ، لَا فِي ضِمْنِ شَيْءٍ آخَرَ، وَالحُكْمَ بِها إنَّما يَحْصُلُ فِي ضِمْنِ غَيْرِها، فَإِنَّ الرّكُوبَ مَثَلًا فِي قَوْلِنا: «جَاءَ زَيْدٌ رَاكِبًا «مَحْكُومٌ بِهِ عَلَىٰ زَيْدٍ، لَكِنْ لَا بالأَصالَةِ، بَلْ بِالتَّبَعِيَّةِ؛ بِأنْ وُصِلَ بِالْمَجِيءِ، وَجُعِلَ قَيْدًا لَهُ بِخِلافِه فِي قَولِنا: «زَيْدٌ راكِبٌ».

---

(١) أي: مؤسسة منتقلةٌ، وهي التي يصِحُّ أن تُفارِقَ صاحِبَها، وتقابِلُها اللاَّزِمَةُ، (خلق اللهُ الأرضَ منبسطةً، والسماءَ مرتفعَةً).

(٢) أي: إنَّها ليست كعطفِ النَّسقِ.

(٣) يقُول عبد القاهر: «وتَسْميتُنا لها (واو حال) لا يُخْرِجُها عن أنْ تكونَ مُجْتَلَبةً لِضَمِّ جملةٍ إلىٰ جملةٍ». (دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: محمود شاكر، ص٢١٤، فقرة: ٢٤٣)

وهذه «الواوُ» لا تَخْلُو من معنىٰ «العطف»؛ لأنّها موضوعةٌ له، وكلّ حرفِ معنًىٰ وُضِعَ لِمَعْنًىٰ هُو لا يَتخلّىٰ عنه حِين يُستعْمَلُ في غيره فِي سياقٍ آخرَ، فاستعمالُهُ في غيرِهِ يكونُ جامعًا بيْن المعنيين (الوضعي، والسياقيّ) إلّا أنّ المعنىٰ السِّياقِيَّ المنقول إليهِ هو المقصود بالقصدِ الرئيسِ، والمعنىٰ الوضعيّ قائمٌ فيه.

(الثَّالِثُ): أنَّها فِي الحَقِيقَةِ وَصْفٌ لِذِي الحالِ، فَلا يَدْخُلُها «الواوُ» كَالنَّعْتِ، فَثَبَتَ أنَّ أَصْلَها أنْ تَكُونَ بِغَيْرِ «واوٍ»، لَكِنْ خُولِفَ الأَصْلُ فِيها إذَا كانَتْ جُمْلَةً؛ لأنّها بِالنَّظَرِ إلَيْها مِنْ حَيْثُ هِي جُمْلَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ بِالإفادَةِ، فَتَحْتاجُ إِلَىٰ ما يَرْبِطُها بِما جُعِلَتْ حَالًا عَنْهُ[1]، وَكُلُّ واحِدٍ مِن «الضّمِيرِ» وَ«الواو» صالِحٌ للرّبْطِ، وَالأَصْلُ الضّمِيرُ؛ بِدَلِيلِ الاقْتِصارِ عَلَيْهِ فِي الْحَالِ المُفْرَدَةِ والْخَبَرِ وَالنَّعْتِ.

• • •

وَإِذَا تَمَهَّدَ هذَا، فَنَقولُ: الجُمْلَةُ الّتِي تَقَعُ حَالًا ضَرْبانِ:

أ) خَالِيَةٌ عَنْ ضَمِيرِ مَا تَقَعُ حَالًا عَنْهُ.

ب) وَغَيْرُ خالِيَةٍ.

أمّا (الأُولَىٰ) فَيَجِبُ أنْ تَكُونَ بِـ(الواو)؛ لِئَلّا تَصِيرَ مُنْقَطِعَةً عَنْهُ، غَيْرَ مُرْتَبِطَةٍ بِهِ، وَكُلُّ جُمْلَةٍ خالِيَةٍ عَنْ ضَمِيرِ مَا يَجُوزُ أن يُنْتَصَبَ عَنْهُ حَالٌ يَصِحُّ أنْ تَقَعَ حَالًا عَنْهُ إذَا كانَتْ مَعَ (الواو) إلا المُصَدَّرَةَ بِالمُضارِعِ المُثْبَتِ[2]، كَقَوْلِكَ: «جاءَ زَيْدٌ، وَيَتَكَلَّمُ عَمْرٌو»، عَلَىٰ أنْ يَكونَ «ويَتكَلَّمُ عَمْرٌو» حَالًا عَن زَيْدٍ؛ لِما سَيأْتِي أن ارْتِباطَ مِثْلِهَا يَجِبُ أن يَكُونَ بـ«الضّمِيرِ» وَحْدَهُ.

---

(١) قوله: «جُمْلَةٌ مُسْتَقِلّةٌ بِالإفادَةِ» أي: فيها إِسْنادَان؛ (مسندٌ، ومسندٌ إليه)، كما في (جاء محمدٌ يقرأُ القرآنَ)، قولُك: (يقرأ القرآن) جُملَةٌ مُتَحَقِّقٌ فيها الإسنادُ بين رُكْنَيْهَا، ولو أظهرْتَ الضَّمِيرَ فِي (يقرأ) لاستقلَّتْ تمامًا عَمَّا قبلها، وأفادتْ معنًىٰ تامًّا، ولا تكونُ حينئذٍ حالًا.

(٢) الجُملَةُ الحاليَّةُ لا يستقِيمُ أنْ تخلُوَ منْ رابطٍ يربِطُها بجملةِ صَاحبِ الحالِ، فإنْ خَلَتْ من ضميرٍ يَعودُ علىٰ صاحبِ الحالِ وجبَ أن تكونَ مربوطَةً بـ«الواو»؛ لما في «الواو» من معنىٰ العطفِ، وهذا وجوبٌ اقتَضَتْهُ الصِّحَّةُ النَّحويّةُ، وإلا كان الكلامُ مبترًا.

وَأَمَّا (الثّانِيَةُ) فَتارَةً يَجِبُ أَنْ تكونَ بـ(الواوِ)، وَتارَةً يَمْتَنِعُ ذَلِكَ، وَتارَةً يَتَرَجَّحُ أَحَدُهُما، وَتارَةً يَسْتَوِي الأمْرانِ، وَ(الواوُ) غَيرُ مُنافٍ لِلضّمِيرِ فِي إفادَةِ الرّبْطِ، فَتَعَيَّنَ التَّنْبِيهُ علَىٰ أسبابِ الاخْتلافِ؛ فنقولُ:

الجُملَةُ إنْ كانَتْ فِعلِيّةً، وَالْفِعْلُ المُضارِعُ مُثْبَتٌ امْتَنَعَ (الوَاوُ)، كَقولِه تعالَىٰ: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠][1]، وقولِهِ: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦][2]، وقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٧ - ١٨][3]؛ لأنَّ أصلَ الحالِ المُفْرَدَةِ أنْ تَدُلَّ عَلَىٰ حُصولِ صِفَةٍ غَيْرِ ثابِتَةٍ، مُقارِنٍ لِما جُعِلَتْ قَيْدًا لَهُ، و«المُضارِعُ» المُثْبَتُ كَذَلِكَ.

أمّا دَلالَتُهُ عَلَىٰ حُصولِ صِفَةٍ غَيْرِ ثَابِتَةٍ فلأنّهُ فِعْلٌ مُثْبَتٌ، وَالْفِعْلُ المُثْبَتُ يَدُلُّ عَلَىٰ التّجَدُّدِ وَعَدَمِ الثُّبُوتِ - كَمَا مَرَّ[4]- وَأَمَّا دَلالَتُهُ عَلَىٰ المُقارَنَةِ، فَلِكَوْنِهِ مُضارِعًا، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ بِالضَّمِيرِ وَحْدَهُ كَالحالِ المُفْرَدَةِ؛ وَلِهَذا امْتَنَعَ نَحْوُ:

---

(١) سِياقُ الجُملَةِ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩ - ١١٠]، جُملَةُ: (يَعْمَهُونَ) حَالٌ مِنَ معمول (نذر)، الضمير الذي في محل نصب مفعول به، وجاء في سورة البقرة: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]، والعَمَه: فُقْدَانُ البصيرة إدراكَها المعنويات، كالعمىٰ: فقدانُ البصَر إدراكَه المحسوسات. وكُلُّ كَافرٍ أو عَاصٍ هو في حَالِ كُفْرِه، أو عِصْيَانِه آخِذٌ حَظَّهُ مِن العَمَهِ.

(٢) قوله: (تسْتكثر) جملةٌ مُضارِعِيَّةٌ، مُثبتَةٌ، وقعتْ حالاً من الضَّميرِ في (تمنن)، وجاءت مربوطَةً بالضَّمير في (تستكثر)، حال من الضمير في (تَمْنُنْ).

(٣) قوله تعالىٰ: (يتَزكّىٰ) جملَةٌ حاليَّةٌ من الضَّميرِ فِي (يؤتِي)، وهي مُرتَبِطَةٌ بجملَةِ صاحِبِ الحال بالضمير، وقوله: (يتزكّي)

(٤) أيْ: في مبحثِ (أحوال المسند).

«جاءَ زَيْدٌ، وَيَتَكَلَّمُ عَمْرٌو» - كَمَا مَرّ - وَأَمَّا مَا جاءَ مِن نَحْوِ قَوْلِ بَعْضِ العَرَبِ: «قمتُ، وأصكُّ عَيْنَه أو وَجْهَه[١]»، وَقَوْلِ عَبْدِ اللهِ بْن هَمّامٍ السَّلُولِيّ:

فَلَمَّا خَشِيتُ أَظَافِيرَهُمْ نَجَوْتُ وَأَرْهَنُهُمْ مَالِكَا[٢]

فقِيلَ: علَىٰ حَذْفِ «المبتدأ»، أيْ: «وأنَا أصُكّ عَيْنَه»، و«أنا أرْهَنُهُم»، وقِيلَ: الأوَّل شاذٌّ، والثّانِي ضَرورةٌ[٣]، وقالَ الشَّيْخُ عبدُ القاهر: «لَيْسَتْ (الواو) فيهما لِلحالِ، بلْ هِي للعَطْفِ، و(أصّك) و(أرْهَن) بمَعنَىٰ: (سَكَكْتُ)، وَ(رَهَنْتُ)، وَلَكِنَّ الغَرَضَ مِنْ إخْراجِهِما علَىٰ لَفْظِ الحالِ أنْ يَحْكِيا الحالَ فِي أحَدِ الخَبَرَيْنِ، وَيَدَعا الآخَرَ علَىٰ أَصْلِهِ، كَمَا فِي قَولِه:

وَلَقد أَمُرُّ عَلَىٰ اللَّئِيمِ يَسُبُّني فَمضَيْتُ، ثُمَّتَ قلْتُ لا يَعْنيني[٤]

(١) جاء قولُه: (أَصُكُّ) جملةً حاليّةً، مربوطةً بـ(الواو)، والشّأنُ أن تُربَطَ بالضّمير دون (الواو)، وتأويلُها أن (أصُك) خبرُ مبتدأ محذوفٍ، فتكونُ اسميّةً، يَصِحُّ ربطُها بـ(الواو)، والتقدير: (وَأنَا أَصُكُّ)، وحذْفُ المبتدأ مَع وجودِ قرينةٍ سائغٌ شائعٌ فِي العربيةِ.

وأُوِّلَ - أيضًا - علَىٰ أنَّ التَّعبير بالمُضارع (أَصُكّ) علىٰ أنّه منْ قبيل حكاية ما كان: والمعنَىٰ: (وصَكَكَتُ)، وإخراجُ الماضِي مخرجَ المُضارع سائغٌ شائعٌ في العربيّةِ.

(٢) ما قيل في (وأصك) يُقال هنا في (وأرهنهم) سواءً بسواء، فاعتبر.

(٣) قيل بالشذوذ في العبارة النثريَّة، وبالضرورة في بيت الشعر؛ لأن الضرورةَ خاصَّةٌ بالشِّعرِ من أجلِ الوزنِ، ولا ضرورَةَ في النثرِ، وقيل: تكون في النثر لِتحقيقِ السَّجع، فالسَّجْعُ في النَّثرِ مثلُ الوزنِ في الشّعرِ.

والذي أذهبُ إليه أنّ الفرار إلىٰ الحكم بالشذوذِ أو الضرورة حين يكونُ المتكلمُ مِمّن يشهد له باللَّسَنِ - ضَرْبٌ من الاسْتِسْهال، والتّأويلُ أعلىٰ. وتضييقُ القَوْلِ بالشُّذوذِ وبالضّرُورةِ أولَىٰ، ففي تَضييقِ القولِ به تَوسِعَةٌ علىٰ المتكلمين.

(٤) البيت لشمير (عمير) بن عمرو الحنفي، جاهلِيٌّ، وبعدَهُ:

غَضْبانَ مُمْتلِئًا عَلَيّ إهابَه

ويُبيِّنُ ذلك أنَّك ترَىٰ «الفاءَ» تَجيءُ مكانَ «الواوِ» في مثلِه، كما في خَبر (عبدِ الله بنِ عَتيك)، فإنّه ذَكرَ دُخُولَهُ علَىٰ (أَبِي رافِعٍ اليهوديِّ) حِصْنَه، ثُمَّ قال: فانتهيتُ إليه، فإذا هو في بَيْتٍ مظلمٍ، لا أدْرِي أينَ هوَ مِن البيتَ، فقلتُ: أبا رافع! فقالَ: منْ هذا؟ فأهْويتُ نحوَ الصَّوْتِ، فأضربُه بالسَّيف، وأنا دَهِشٌ. فإنّ قولَه (أَضرِبُه) مضارعٌ عطَفه بـ«الفاء» علىٰ ماضٍ؛ لأنّه في المعنىٰ ماضٍ»[1].

وإنْ كان الفِعلُ مضارعًا مَنفيًّا، فيَجوزُ فيهِ الأمْرانِ مِن غَيرِ تَرجيحٍ؛ لِدَلالتِه علَىٰ المُقارَنَةِ؛ لِكونِه مُضارِعًا، وَعَدَمِ دَلالتِه علَىٰ الحُصولِ؛ لِكونِه مَنفِيًّا.

أمَّا مَجِيئُهُ بـ «الواو» فكَقِراءَةِ ابن ذكوان[2]: (فاسْتَقِيمَا وَلا تَتْبعانْ) [يونس:٨٩] بتخفيف النون[3]، وَقَوْلِ بَعْضِ العَرَبِ:

إنّي – وَربِّك – سُخطُه يُرضِيني

(ثُمّ): إنْ ضمَمْتَ (الثّاء) فهي عاطفةٌ، وإن فتَحتَهَا، فظرفٌ بِمعنىٰ (هنالك)، والْعَرَبُ تَزِيدُ فِي (ثُمَّ)، و(ثَم) «تَاءً»، تَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا ثُمَّت فَعَلْتُ كَذَا (ثَمَّ) بِمَعْنَىٰ: (هُنَاكَ)، وَهُوَ لِلْبَعِيدِ بِمَنْزِلَةِ هُنَا لِلْقَرِيبِ. قوله: (أمر) علىٰ معنىٰ (مررت)، جاء به مضارعًا تصويرًا له، كأنَّه يحدُثُ بين عينِكَ.

وقوله: (يَسُبُّنِي) صفةٌ للئيم؛ لأنّ (أل) في (اللَّئيم) جِنسيَّةٌ، لا تُفِيدُ تعريفًا، يريدُ أنّه لا يَمُرُّ علىٰ لئيمٍ واحِدٍ، بل عدّةِ لئام مُتكاثرين في أوقاتٍ متعدّدةٍ، وهو بهذا يصِفُ نفسَهُ بالحِلْمِ والأناة، وأنَّه دأبُه وعادتُهُ، كما يقولُ الطيبي في حاشيتِهِ «فتوح الغيبِ».

(١) دلائل الإعجاز، ص٢٠٦ فقرة: (٢٣٢) بتصرف يسير].

(٢) ابن ذَكْوَان: عبد الرحمن بن أحمد ابن ذكوان (١٧٣ – ٢٠٢ هـ)، عالمٌ بالقراءات، كان شيْخَ الإقراءِ فِي الشَّامِ.

(٣) سِياقُ الجُملَةِ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨ – ٨٩].

قرأ ابنُ عامرٍ وحْدَهُ ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ﴾ (تَفْعلان) بتخفيف النُّونِ، وقرأ الباقون «تَتَّبِعَانِّ» مشددة النون.

(كُنْتُ وَلَا أُخْشَّىٰ بِالذِّئْبِ)[1].

وَقَوْلِ مِسْكِينٍ الدّرامي:

أكْسَبَتْهُ الوَرِقُ البيضُ أبًا ... ولقدْ كانَ ولا يُدعَىٰ لأبْ[2]

وقولِ مالِك بن رُفَيعٍ، وكان جَنَىٰ جِنَايَةً، فطلبَهُ مُصعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ:

بَغَاني مُصْعَبٌ وبنو أبيه ... فأينَ أَحِيدُ عنهُم؟ لا أَحِيدُ

مَنْ قرأَ بإِسْكَان «التَّاء» وتخفيفها أخذه من (تَبِعَ يَتْبَع)، ومَنْ قَرأَ بِفَتْحِهَا وتشديدِها أخَذَهُ من (أتبع يتّبع)، وهما لُغَتَانِ مَعْنَاهُمَا واحدٌ، وإن كان في التَّشديدِ تأكيدٌ للنَّهْي.

يقُولُ ابن زنجلة في (حجة القراءات): «قرأ ابنُ عامرٍ (ولا تتبعان) بتخفيف النون، المعنىٰ: (فاستقيما وأنتما لا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون)، وهو الذي يُسمِّيهِ بعضُ أهل العربيَّةِ (الحال)، والمعنىٰ: فاستقيما غير متبعين سبيل الذين لا يعلمون.

وقرأ الباقون بالتشديد ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ﴾ بالتشديد موضع تتبعان جزم، إلا أن النُّونَ الشّديدَةَ دخلت للنّهي مؤكدة، وكسرت لسكونها وسكون النون التي قبلها، واختير له الكسْرُ؛ لأنَّها بعد الألفِ، وَهِيَ تُشبِهُ نونَ الاثنين». (حجة القراءات، ص٣٣٦).

(١) مثلٌ، وقوله: (أُخْشَىٰ) مبنِيٌّ للمفعول، والمعنىٰ: (ولا أُخَوّفُ بالذئبِ؛ فإنَّه لا يخافُهُ مثلي)، وإنَّما أنا أخوف الذئب، وقوله: (كنت) أي: جبلت، ولا يريدُ أنَّ ذلك قد كان ومضَىٰ، بل يُريدُ أنَّه جُبِلَ علىٰ ذلك منذ كان، تقول: «كُنتُ لا أُحِبُّ أن أَظلِمَ أو أُظْلَم»، أيْ: جُبِلتُ وفُطِرْتُ علىٰ ذلك منذ خُلِقْتُ، وكذلك شأنُ كلِّ مسلمٍ، فَكُنْهُ.

(٢) البيتُ من قصيدةٍ يقُول فيها:

أنا مِسكينٌ لِمن يَعرفُني ... لوني السُّمرة ألوان العرب
من رأىٰ ظبيًا عليه لؤلؤ ... واضح الخدين مقرونًا بضبّ
أكسبته الورق البيض أبًا ... ولقد كان وما يُدعىٰ لأب
ربَّ مهزولٍ سمينٌ بيته ... وسمين البيت مهزول النسب

(الوَرِقُ) بفتح الفاء وكسر العين: الدراهم. والشَّاهدُ إتيانُ قوله: (ولا يدعىٰ) بالواو، والفعلُ مضارعٌ منفِيٌّ.

أقـادُوا مِـنْ دَمِـي وتَوَعَّـدوني   وكنـتُ ومـا يُنَهْنِهُنِـي الوعيـدُ[١]

وأمَّا مَجيئُه بِغيرِ (واوٍ) فَكَقَولِهِ تعالَىٰ: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ٨٤][٢]، وَقولِ عِكْرِشةَ العَبْسِيّ:

مَضَوْا، لا يِريدونَ الرّواحَ وَغالَهُم   مِن الدّهْرِ أسْبابٌ جَرَيْنَ علَىٰ قَدْرِ[٣]

وَقَولِ خَالدِ بنِ يَزيدِ بنِ مُعاويَة:

لَـوْ أنّ قَوْمًـا لِارْتِفـاعِ قَبيلـةٍ   دَخلُوا السّماءَ دَخلْتُها لَا أُحْجَبُ[٤]

---

(١) جاء بالجملَةِ الحاليّة المضارعيّة المنفيّة (ما يُنَهْنِهُنِي الوعيدُ) مقترِنَةً بـ(الواو)، مَع وجودِ الضَّمير الرَّابط، و(كان) تامّةٌ، وقوله: (يُنَهْنِهُنِي) أيْ: يَزْجُرُنِي.

(٢) سياقُ الجملة قوله تعَالَىٰ: ﴿ ۞لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٨٢ – ٨٥].

قولُهُ – جلَّ جلالُهُ – حكايَةً عنهم: ﴿ لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ منفيَّةٌ بـ(لا)، ولم تقترن بـ(الواو)، والاستفهامُ في: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ ﴾ تعجُّبِيٌّ مشوبٌ بالإنكارِ علَىٰ مَن يُعاتِبُهم في إيمانِهم.

(٣) يَحْسُنُ بك أن تفيءَ إلىٰ شرح الحماسة للتبصّرَ أبيات المقطوعة، وهي في رثاء بنيه، ولا ينفعك إلا أن تفيْء إلىٰ تلك الشروح.

جاء قولُهُ: (لا يريدون الرَّواح) جملة حاليةٌ مضارعية منفيّةٌ، غير مربوطة بجملة صاحب الحال بـ(الواو)، بلْ بالضَّمير في (يريدون)، فكأنَّها مفصولةٌ عنها؛ لاستغنائها عن الواو في الاتِّصال بما قبلها، فجملَةُ الحال التي ربطت بالضمير دون الواو هي شبيهةٌ بجملة النعتِ التي تَسْتغنِي عن الرّبطِ بـ(الواو)، كما في قولِك: (قرأت كتابًا مؤلِفُه عليم فهيم) فجملةُ: (مؤلفه عليم حكيم) نعتٌ مربوطَةٌ بجملةِ المَنعوتِ بالضمير.

(٤) قوله: (لا أحجبُ) كمثل قول الذي قبله: (لا يريدون الرواح) سواءً بسواءٍ.

وَقَولِ الأعْشَىٰ:

أتَيْنـا أَصْبهـانَ، فَهَزّلَتْنَـا ... وَكُنّـا قَبْـلَ ذَلِـكَ فِـي نَعِيـمِ
وَكانَ سَـفاهَةً مِنّـي وَجَهْـلًا ... مَسِـيرِي لَا أَسِـيرُ إِلَـىٰ حَمِيمِ[1]

وإنْ كَانَ ماضِيًا لَفْظًا أوْ مَعْنًىٰ، فَكَذَلِكَ يَجُوزُ الأمْرانِ مِن غَيْرِ تَرْجِيحٍ.

أَمّا مَجِيئُهُ بِـ(الواو) فَكَقَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾ [آل عمران: ٤٠][2]، وَقَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ [مريم ٩][3]، وقَولِ امْرِئِ القَيْسِ:

(١) قوله: (هزّلتنا): أضعفتنا، (حميم): صديق. ويقولُ عبد القاهر في «الدلائل»: « قولُه: (لا أسيرُ إلىٰ حَميمٍ) حالٌ من ضميرِ المتكلمِ الذي هو (الياء) في (مسيري)، وَهُوَ فاعلٌ في المعنىٰ، فكأنه قال: وكانَ سَفاهةً مني وجهلًا أَنْ سرتُ غيرَ سائرٍ إلىٰ حَميمٍ، وأنْ ذهبتُ غيرَ مُتوجِّهٍ إلىٰ قريب».

(٢) سياقُ الجملة قولُه تعالىٰ: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٣٨ – ٤٠].

قوله: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾ جملة حالية ماضوية، مقترنة بـ(الواو)، والاستفهام في ﴿أَنَّىٰ﴾ فيه معنىٰ التَّعَجُّب، فحالُه من الكِبَرِ وحال زوجه المعهود ألا يكون معه إنجابٌ، فجاءه الجواب ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، وما كان سيدنا زكريا – عَلَيْهِ السلام – وهو النَّبِيُّ – بمستبعِدٍ، بل هو المُتَعَجِّبُ من قُدْرَةِ الله – تَعالَىٰ.

(٣) سياقُ الجملة: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ٧ – ١٠].

أَيَقتُلنــي وَقَــد شَــغَفتُ فُؤادَهــا كَما شَغَفَ المَهنوءَةَ الرَّجُلُ الطالي[1]

وَقولِهِ:

فجِئْتُ وقد نَضَّتْ لنَوْمٍ ثيابَها لدىٰ السِّترِ إلَّا لِبسَةَ المُتفَضِّلِ[2]

وَقَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾[الأنعام: ٩٣][3]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [مريم: ٢٠][4]، وَقَولِ كَعْب:

(١) (شغفتُ فؤادها)، أي: ملأ حُبِّي قلبَهَا، وأحاط به. (المهنوءَة): المطلية بالقطران، والتشبيه مرادٌ به الإحاطة، وليس تشبيه حبّه لها بالقطران، وقلبها بناقة ذات جرب، مثل هذا لا يكون. وهو يلحظ معنىٰ الشفاء أي: إنَّ حُبَّهَا له يَشفِي مَا بها. والشَّاهِدُ في: (وقد شغفت...) جمعَ بين (الواو) والضَّمِيرِ.

(٢) سِيَاقُ البيت من معلقته:

إذا ما الثريا في الســماء تعرضت تعــرضَ أثناء الوشــاح المفصَّلِ
فجِئْــتُ وقــد نَضَّتْ لنَــوْمٍ ثيابَها لدىٰ السِّترِ إلاَّ لِبْسَةَ المُتَفَضِّلِ
فقالــت يميــن الله ما لــكَ حيلةٌ وما إن أرىٰ عنك الغوايةَ تنجلي
خَرَجْتُ بهـا أمشي تَجُرّ وَراءَنا علـىٰ أثَرَيْنـا ذَيْـلَ مِـرْطٍ مُرَحَّـلِ

الشَّاهِدُ فيه كسابقه، و(نضت): نزعَتْ ثِيَابَها لِتَنام. (لبسةَ المُتَفَضّل): أي: الثوب الذِي تَنامُ فيه.

(٣) سياقُ الجملة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

(٤) سياقُ الجملة: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ١٦ - ٢١].

قولُها: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾، ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ جُملَةٌ حاليّةٌ ماضويَّةٌ منفيَّةٌ، جمعَتْ بين الواو

لا تأخُذَنّي بأقْوَالِ الوُشاةِ، وَلم أُذْنِبْ، وإن كَثُرَتْ فِيَّ الأقَاوِيلُ[١]

وَقَولِهِ تَعالَىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ [البقرة: ٢١٤][٢]، وَقَوْلِ الشّاعِرِ:

بَانَتْ قَطامِ، ولَمّا يَحْظَ ذو مِقَةٍ مِنْها بِوصْلٍ وَلا إنْجازِ مِيعادِ[٣]

• • •

وأمَّا مَجِيئُهُ بِلا (واو) فَكَقَولِهِ تَعالَىٰ: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ [النّساء: ٩٠][٤]، وَقولِ الشَّاعِرِ:

والضمير ربطًا.

(١) البيتُ من قصيدة كعب بن زهير، يمدح سَيِّدَ الخلائقِ - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلّم - وقبلَ بَيْتِ الشّاهِدِ:

أُنْبِئْتُ أنّ رسولَ اللهِ أَوْعَدَني والعَفْوُ عِنْدَ رَسولِ اللهِ مأمولُ

مَهْلًا! هداكَ الذي أَعْطَاكَ نافلةَ الـ قُرْآنِ فيها مَوَاعِيظٌ، وَتَفْصيل

لا تأخُذَنّي بأقْوَالِ الوُشاةِ، وَلم أُذْنِبْ، وإن كَثُرَتْ فيّ الأقَاوِيلُ

لَقَدْ أَقُومُ مَقَامًا لَوْ يَقُومُ بِهِ أَرَىٰ وَأَسْمَعُ ما لَوْ يَسْمَعُ الفِيلُ

قولُهُ: (وَلَمْ أُذْنِبْ) جُملَةٌ حاليّة فعلية ماضوية مَنفِيّةٌ جاءت بـ«واو الحال» و«الضميرِ» معًا، فتَوَثّقَ الرَّبْطُ.

(٢) سِياقُ الجُملةِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، الشَّاهدُ فِي: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾، وهو كسوابقه.

(٣) (المقة): الحب. والشّاهِدُ في: (لم يحظ)، وهو كسوابقه.

(٤) سِياقُ الجملة قولُه تَعالَىٰ: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟

وإنّـي لَتَعْرُونِـي لِذِكْـراكِ هِـزّةٌ   كَما انْتَفَضَ العُصْفُورُ بَلّلَهُ القَطْرُ(١)

وَقَوْلِهِ:

أتَيْناكم قَدْ عَمَّكم حَذَرُ العِدا   فَنِلْتُمْ بِنَا أَمْنًا، وَلَمْ تَعْدِمُوا نَصْرًا(٢)

وَقَوْلِهِ:

مَتىٰ أرىٰ الصُّبحَ قدْ لاحَتْ مَخايلُهُ   واللَّيْلُ قد مُزِّقَتْ عنه السَّرابيلُ(٣)

وكَقَولِهِ تعالَىٰ: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾ [آل عمران: ١٧٤] (٤)، وَقَوْلِهِ: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗا﴾

قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ٨٩ - ٩٠] ﴿حَصِرَتۡ﴾ بِمَعْنَىٰ: ضاقَتْ وَحَرِجَتْ. وجُملَةُ: ﴿حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ﴾ حاليّة ماضوية مُثْبَتَةٌ، جُرّدت من (الواو) اكتفاءً بالضّمير.

(١) (تَعْرونِي): تَعْترِينِي، و(الهِزَّة) - علىٰ فِعلَة: صِيغَةُ هَيئَةٍ. الشَّاهِدُ: (بَلّلَهُ القَطْرُ)، جاءت جملة حالية ماضوية مثبتة مجردة من (الواو).

(٢) الشاهد: (قَدْ عَمَّكم حَذَرُ العِدا)، وهو كسابقه.

(٣) البيتُ لحُندُج بن حُندُج، من قصيدة وهي في حماسة لأبي تمام، يقول:

فِي لَيْلِ صُولٍ تَناهَىٰ العَرْضُ وَالطُّولُ   كأنَّما ليْلُهُ بِاللَّيلِ مَوْصُولُ
لاَ فارَقَ الصبْحُ كَفِّي إنْ ظَفِرْتُ بهِ   وَإنْ بَدَتْ غُرَّةٌ منْهُ ونَحْجيلُ
لِساهِر طالَ فِي صُولٍ تَمَلْمُلُهُ   كأنَّهُ حيَّةٌ بِالسَّوطِ مَقْتول
متىٰ أرىٰ الصُّبْحَ قدْ لاحَتْ مخايِلُهُ   وَاللَّيْلُ قدْ مُزِّقَتْ عنْهُ السَّرابيلُ

الشَّاهِدُ: (قد لاحت مخايله)، و(قد مزقت عنه السرابيل)، وهو كسابقه، وتأويله: مَتىٰ أرىٰ الصُّبْح لائحًا؟ ومتىٰ أرىٰ الليل ممزقًا عنه السراويل؟ والاستفهامُ للاستبطاءِ، وهو يُصَوِّرُ ما فيه من ضيقٍ، واللَّيلُ هنا ليلٌ نَفْسِيٌّ هو ضيقُ صدره، والصُّبْحُ هو الفَرَجُ المُرتَقَبُ.

(٤) سياقُ الجملَةِ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا

[الأحزاب: ٢٥][1]، وقَولِ امْرِئِ القَيْس:

فَأَدْرَكَ لمْ يَجْهَدْ وَلمْ يَثنِ شَأوَهُ[2]

وقَولِ زُهيرٍ:

كَأَنَّ فُتَاتَ العِهْنِ في كلِّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الفَنَا لم يُحَطَّمِ[3]

ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣ – ١٧٤]، الشَّاهد في قوله: ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾، وهو كسوابقه.

(١) سِياقُ الجُملَةِ قولُهُ تعالَىٰ: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]، قولُهُ: ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ فعلية منفيةٌ، رُبِطَتْ بالضَّميرِ؛ دون (الواو).

(٢) من قَصيدَةٍ مطلَعُها:

خليلّي مرّا بي علىٰ أم جندب نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفُؤادِ المُعذَّبِ

ومنها يصف جواده:

فلأيًا بلأي ما حملنا غلامنا علىٰ ظَهْرِ مَحْبوكِ السّرَاة مُحنَّبِ
ووليٰ كشؤبوب الغشي بوابل ويخرجن من جعد ثراهُ منصبِ
فَلِلساقِ أُلهوبٌ وَلِلسَوطِ دُرَّةٌ وَلِلزَّجرِ مِنهُ وَقعُ أَهوَجَ مُتعَبِ
فَأَدْرَكَ لمْ يَجْهَدْ وَلمْ يَثنِ شَأوَهُ يمرُّ كخذروف الوليد المُثقَّبِ

الشَّاهِدُ: قولُهُ: (لَمْ يجهد)، وهو كسوابقه؛ ربط بالضمير دون (الواو).

(٣) البيْتُ من معلقة زهير بن أبي سلمىٰ. مناطُ الشَّاهِدِ قولُهُ: (لم يحطمِ)، جملة حاليَّةٌ منفيَّةٌ، بغيرِ (واو).

قوله: (الفتات): ما تناثر منه. (العِهن): الصوف المصبوغ الأحمر الذي تزين فيه الهوادج. (الفنا): نوعٌ من الشَّجَرِ يُسَمَّىٰ ثمرُه: (حب الذئب). (يحطم): يكسر. يُشَبِّهُ الشَّاعِرُ الصُّوفَ الأحْمَرَ الذي زينت به الهوادج بحب الفنا قبل أن يكسر؛ لأنه إذا تحطَّم فَقَدَ لونَهُ الشَّدِيدَ الاحْمِرَارَ، فقولُهُ: (لم يكسر) إيغالٌ في التشبيه، ولو لم يَأْتِ بِه فَسَدَت الصُّورَةُ.

[سببُ الإتيانِ بالوَجْهَيْنِ]

والسَّبَبُ فِي أنْ جَازَ الأمْرانِ فِيهِ إذا كانَ مُثبَتًا - دَلالتُه علَىٰ حُصولِ صِفَةٍ غيرِ ثابتَةٍ؛ لِكَونِهِ فِعْلًا، وَعَدَمُ دَلالَتِهِ علَىٰ المُقارَنَةِ؛ لِكَوْنِه ماضِيًا؛ وَلِهَذا اشْتُرِطَ أنْ يَكُونَ مَعَ (قد) ظاهِرَةً أوْ مُقدَّرَةً، حَتَّىٰ تُقَرِّبَهُ إلَىٰ الحالِ، فَيَصِحَّ وُقوعُهُ حالًا.

وظاهِرُ هذا يَقتضِي وجوبَ (الواو) فِي المَنْفِيِّ؛ لانْتِفاءِ المَعْنَيَيْنِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَجِبْ فِيهِ، بَلْ كَان مِثْلَهُ. أمّا المَنْفِيُّ بِـ(لَمَّا) فَلأنَّها لِلاسْتِغراقِ[1]، وأمَّا المَنْفِيُّ بِغَيْرِهَا؛ فلأنّه لَمَّا دَلّ علَىٰ انْتِفاءٍ مُتَقَدِّمٍ، وَكانَ الأصْلُ اسْتِمرارَ ذَلِكَ حَصَلَتْ الدَّلالةُ علىٰ المُقارنَةِ عِندَ إطلاقِهِ، بِخلافِ المُثْبَتِ، فإنَّ وَضْعَ الفِعْلِ علَىٰ إفادَةِ التَّجدُّدِ. وَتَحقِيقُ هذا أنّ اسْتِمرارَ العَدَمِ لا يَفْتَقِرُ إلَىٰ سَبَبٍ، بِخلافِ اسْتِمرارِ الوُجودِ، كما بُيِّنَ فِي غيرِ هذا العِلْمِ.

• • •

وإنْ كانَتْ الجُمْلَةُ اسْمِيَّةً، فالمَشْهورُ أنَّهُ يَجوزُ فِيها الأمْرانِ، وَمَجِيءُ (الواوِ) أوْلَىٰ:

أ) أمَّا الأوّلُ، فلِعَكْسِ مَا ذكَرْناه فِي المُصدّرَةِ بِالماضِي المُثْبَتِ، فَمَجِيءُ (الواو) كَقَوْلِهِ تَعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢][2]،

---

(١) أيْ: لاستغراق الأزمنة؛ لأنَّها تَدلُّ علىٰ اتِّصالِ نَفيها بالحالِ.

(٢) يقُول الله تَعالَىٰ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، مناطُ الشّاهِدِ قولُه: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، جملة حاليَّةٌ اسميَّةٌ، جمعَتْ بين الربط بالواو والضَّميرِ، فازدادت وثاقتُها بجملةِ صَاحبِ الحالِ.

وقولِهِ: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧][(١)]، وَقَوْلِ امْرِئِ القَيْسِ:

أَيَقتُلُني وَالمَشرَفِيُّ مُضاجِعي ... وَمَسنونَةٌ زُرقٌ كَأَنيابِ أَغوالِ[(٢)]

وقولِه:

لَيَاليَ يَدْعُونِي الهَوَىٰ فَأُجِيبُهُ ... وَأَعْيُنُ مَنْ أَهْوَىٰ إليّ رَوَانِي[(٣)]

---

(١) يقُولُ الله تَعَالَىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧]، مناطُ الشَّاهِدِ قولُهُ: ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾، جملة الحال اسمية، يجوزُ فيها الوجهان، والأعلىٰ الإتيانُ بـ(الواو)، وهي في قوة: (لاتباشروهن عاكفين في المساجد).

(٢) سبق بَيانُ سِياقِهِ، ومَنَاطُ الاستشْهادِ قولُهُ: (وَالمَشرَفِيُّ مُضاجِعي...)، جملة حاليَّةٌ اسمِيَّةٌ، يجوز فيها الوجهان؛ الإتيانُ بالواو، وتركُهُ. وهذه الجُملة من الجُمَلِ الشَّريفَةِ، وهي تُصَوِّرُ عَظِيمَ فروسيته، وشجاعته، واستعداده لنزاله.

(٣) البيت من قصيدة لامرئ القيس، مطلعها:

لِمَنْ طَلَلٌ أبْصَرتُهُ فَشَجَاني ... كخط زبور في عسيب يمانِ

دِيَارٌ لهِنْدٍ وَالرَّبَابِ وَفَرْتَني ... ليالينا بالنعفِ من بدلان

ليالي يدعوني الهوىٰ فأجيبهُ ... وأعينُ من أهوىٰ إليّ رواني

مناطُ الاسْتشهادِ: قوله: (وأعينُ من أهوىٰ إليّ رواني) جملَةٌ اسمِيَّةٌ، يجوز فيها الإتيانُ بـ(واو) الحالِ، ويجوز تركُها، والأَوْلَىٰ الإتيانُ بالواوِ.

قولُهُ: (النّعف) ما انحدر من الحبل، وارتفع عن الوادي. (بدلان): اسم موضع. (رواني) أي: ناظرات مديماتٍ النظر إليه؛ لكلفهن به. وهو حَريصٌ علىٰ أنْ يُصَوِّرَ نفسَه المعشوق الآخذ بقلوب الحسناوت.

ب) والخُلُوُّ مِنْهَا، كَما رَواهُ سِيَبَوَيْهِ: «كَلَّمْتُهُ فُوهُ إِلَىٰ فِيَّ»[١]، و«رجع عَوْدُهُ علَىٰ بَدْئِهِ» بالرفع[٢]، وما أَنْشَدَهُ أَبو عَلِيٍّ فِي «الإغْفال»:

ولَـوْلا جَنَـانُ الليـلِ مـا آبَ عامـرٌ إلـىٰ جَعْفـرٍ، سِـرْبالُه لـم يُمَـزَّقِ[٣]

وقول الآخر:

ما بال عينك دمعها لا يرقأ[٤]

---

(١) يقُول سيبَويهِ: «وبعضُ العرب يقول: كلّمتُه فُوهُ إلىٰ فِيَّ، كأنَّه يقول: كلّمتُه وفُوهُ إلىٰ فِيَّ، أي كلّمتُه وهذه حالهُ، فالرفعُ علىٰ قوله كلّمتُه، وهذه حالهُ...

وإذا قال: كلّمتُه فُوهُ إلىٰ فِيَّ، فإنَّما يريد أن يُخبِر عن قُربه منه، وأنَّه شافَهه، ولم يكن بينهما أحدٌ». (الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، ١/ ٣٩١).

والنصبُ: (فاه إلىٰ فيّ) يجْعَلُ الحالَ مفردًا، ولا يكونُ مِمّا نحن فيه.

(٢) أي: رجع عودُه علىٰ بدْئِهِ، إذا رجع في الطريق التي جاء منها، ورفعُ (عوده) علىٰ أنَّه مبتدأ، والجار والمجرور بعده خبر، والجملة حال من الضمير في جاء. و(عودُه) معرِفَةٌ بالإضافة إلىٰ الضمير، فيؤول بنكرَةٍ من لفظه أو من معناه، أي: (عائدًا، أو راجعًا)، و(علىٰ بدئه): بيان، والمعنىٰ: رجع آخره علىٰ أوَّلِهِ.

(٣) البيت لسلامة بن جندل، من قصيدة مطلعها:

لِمَن طَلَلٌ مِثلُ الكِتابِ المُنمَّقِ خلا عهدهُ بين الصُّليبِ فمطرقِ

ومنها:

وأمُّ بحيـرٍ في تمـارسِ بيننـا متىٰ تأتها الأنباءُ تخمشْ، وتحلقِ

تركنا بحيرًا؛ حيثُ أزحفَ جدُّهُ وفينا فراسٌ عانيًا، غيرَ مطلقِ

ولولا جنانُ الليلِ ما آبَ عامرٌ إِلىٰ جَعفرٍ سِربالُهُ لم يمزَّقِ

مناطُ الاستشهادِ: قولُه: (سرباله لم يمزق)؛ جاءت جُملَةُ الحال خلاءً من (الواوِ)، وهذا وجْهٌ فيها، والآخَرُ أنْ تكونَ بالواوِ.

(٤) مَناطُ الاستِشهادِ: قوله: (دمعها لا يرقأ)؛ جاءت الجملة الحالية خلاء من (الواو)، ومثله قولُ سيدنا حسان بن ثابتٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

وقول الآخر:

ثُمَّ رَاحوا عَبَقُ المِسكِ بِهِمْ[1]

ب) وأمّا (الثّاني) فَلِعَدَمِ دَلالةِ الاسْمِيَّةِ علَىٰ عَدَمِ الثُّبُوتِ، مَعَ ظُهورِ الاسْتِئنافِ فِيهَا؛ لاسْتِقْلالِها بالفائِدَةِ، فَتَحْسُنُ زِيادَةُ رَابِطٍ؛ لِيَتَأَكَّدَ الرَّبْطُ[2].

وقَالَ الشَّيخُ عبد القاهر: «إنْ كانَ المُبتدأُ ضميرَ ذي الحالِ، وجبَ «الواوُ»،

مـا بـالُ عَيْنِـكَ لا تَرْقَـا مَدامِعُهـا	سَحًّا علىٰ الصّدْرِ، مثلَ اللؤلؤ الفَلِقِ
علىٰ خبيبٍ، وفي الرحمنِ مصرعهُ	لا فشـلٍ حيـنَ تلقـاهُ ولا نـزِقِ
فاذهـبْ خبيـبُ، جـزاكَ اللهُ طيبـةً	وجنـةَ الخلـدِ عنـدَ الحـورِ في الرفـقِ

(١) إكمالُ البيتِ: (يُلحِفونَ الأرضَ هُدّابَ الأُزُرْ)، وهو من قصيدَةٍ لِطَرَفَةَ العبد، مطلعها:

أَصَحَوْتَ اليَومَ أم شاقَتْكَ هِرّ	ومِنَ الحُبّ جُنونٌ مُسْتَعِرْ

منها:

وتَسـاقَىٰ القَـوْمُ كأسًـا مُـرّةً	وعَـلا الخَيْـلَ دِمـاءٌ كالشَّـقِرْ
ثـمّ زادوا أنّهُـمْ في قَوْمِهِـمْ	غُفُـرٌ ذنبَهُـمُ، غَيـرُ فُخُـرْ
لا تَعِـزُّ الخَمْـرُ، إن طافـوا بهـا	بِسِـباءِ الشّـوْلِ، والكُـومِ البُكُـرْ
فـإذا مـا شَـربوها وانتَشـوا	وهَبـوا كُلَّ أمـونٍ وطِمِـرْ
ثـمّ راحـوا عَبَـقُ المِسـكِ بهِـمْ	يُلحِفـونَ الأرضَ هُـدّابَ الأُزُرْ
ورِثـوا السّـؤْدُدَ عـن آبائِهِـمْ	ثـمّ سَـادُوا سُـؤدُدًا، غَيـرَ زَمِـرْ
نحنُ في المَشتاةِ ندعوا الجَفَلىٰ	لا تَـرَىٰ الآدِبَ فينَـا يَنْتَقِـرْ

مَناطُ الاسْتشهادِ: قولُه: (عَبَقُ المِسكِ بِهِمْ)؛ جملة حالية اسميَّةٌ، خلاء من الواو.

(٢) أي: إنَّ الحالَ إذا كانت جملةً اسمِيَّةً، فالإتيانُ بالواو أولىٰ؛ ذلك أنَّ الاسمِيَّةَ لاستقلالِهَا بالفائدَةِ يكونُ الاستِئنافُ فيها أظهَرَ، والإتيانُ بـ«الواو» يُقوِّي الارتباطَ الذي قد يُضعِفُه الاستقلالُ بالفائدة من الاسمية، أمّا الفعلية فَلا تُشعِرُ بالاستقلالِ، وحاجتُها إلىٰ مزيدِ ربْطٍ بالواو من دونِ حاجَةِ الاسمِيَّةِ.

كَقولِكَ: «جاءَنِي زَيدٌ وَهُوَ يُسْرِع»، أو: «وهُو يُسْرِعُ»، وَلَعَلّ السّبَبَ فِيهِ أنّ أَصْلَ الفائِدةِ كانَ يَحصُلُ دونَ هَذا الضَّمِيرِ؛ بِأنْ يُقالَ: «جَاءَ زَيدٌ يُسْرِعُ أوْ مُسْرِعًا»، فالإِتيانُ بِهِ يُشْعِرُ بِقَصْدِ الاسْتِئْنافِ المُنافِي لِلاتِّصَالِ، فلا يصِحُّ لأنْ يَسْتَقِلَّ بإِفَادَةِ الرّبطِ، فَتَجِبُ «الوَاوُ».

وقال - أيضًا: إنْ جُعِلَ نَحوُ: «علَىٰ كَتِفِهِ سَيْفٌ» بِتقْدِيمِ الظَّرْفِ حَالًا عَن شَيْءٍ، كَما فِي قَوْلِنا: «جَاءَ زَيْدٌ علَىٰ كَتِفِهِ سَيْفٌ» كَثُرَ فِيها أنْ تَجِيءَ بِغيْرِ «واوٍ»، كَقَولِ بشّارٍ:

إِذَا أَنْكَرَتْنِـي بَلْـدةٌ أَوْ نكِرْتُهـا   خَرجْتُ مَعَ البازي عَلَيَّ سَوادُ[1]

---

(١) البيْتُ من قصيدَةٍ، مطلعُها:

أَخَالِـدُ لَـمْ أخبِـطْ إِلَيـكَ بِنِعْمَـةٍ   سَوَىٰ أَنّني عَافٍ وأنْتَ جَوَادُ
فـإن تعطني أفرغ إليك محامدي   وَإِنْ تَأبَ لا يُضْرَبْ عَلَيْكَ سِدَادُ
رِكَابِي عَلَىٰ حَرْفٍ وَقَلْبِي مُشَيَّعٌ   وغيـر بـلاد الباخليـن بـلاد
إِذَا أَنْكَرَتْنِـي بَلْـدةٌ أَوْ نكِرْتُهـا   خَرجْتُ مَعَ البازي عَلَيَّ سَوادُ

قوله: (نهضت مع البازي علي سواد) معناه - كما يقول السعد: «إذا لم يعرف قدري أهلُ بلْدَةٍ، أو لم أعرفْهم خرجْتُ منهم وفارقتُهم مبتكرًا، مصاحبًا للبازي الذي هو أبكرُ الطيورِ؛ مُشتملًا علىٰ شيْءٍ من ظُلمَةِ اللّيلِ، غير منتظر لإسفار الصُّبحِ، فقولُهُ: (عَلَيَّ سَواد) أيْ: بقية من اللَّيلِ، (حال) ترك فيها الواو.» (أ. هـ).

ولم يرتضِ السَّعْدُ هذا الَّذي ذهبَ إليْه عبد القاهر، واستظهر أنّ مثل (عَليَّ سواد) يَحتَمِلُ أمورًا؛ منها:

- أنْ يكونَ في تقدير المفرد.
- أنْ يكونَ جملةً اسميّةً، قُدِّم خبرُها.
- أنْ يكونَ فِعليّةً، مُقدّرةً بالماضي.
- أنْ يكونَ جملةً فعليّةً، مقدّرةً بالمضارع.

يَعْني: (عليَّ بَقِيَّةٌ من اللَّيلِ)، وقولِ أَبِي الصَّلتِ، عبد اللهِ الثقفيّ يمْدَحُ ابنَ ذي يزن:

فَاشْرَبْ هَنِيئًا عَلَيْكَ التّاجُ مُرتَفِقًا   فِي رَأْسِ غُمْدانَ دَارًا مِنْكَ مِحْلاَلَا[1]

وَقَوْلِ الآخَرِ:

لَقَدْ صَبَرَتْ لِلذُّلِّ أعوادُ مِنْبَرٍ   تقوُم عَلَيها في يديكَ قضيبُ[2]

فعلىٰ التقديرين الأولين يمتنع (الواو)، وعلىٰ التقديرين الأخيرَيْنِ لا تَجِبُ الواوُ، فمن أجْلِ هذا كثُر تركُها.

(١) البيتُ من قَصيدَةٍ، منها قولُهُ:

فاشرب هنيئًا عليك التاج مرتفقا   فىٰ رأس غمدان دارًا منك محلالا

ثـمّ اطّـل المسـك إذ شـالت نعامتهـم   وأسـبل اليـوم مـن برديـك إسـبالا

تلـك المـكارم لا قعبـان مـن لبـن   شـيبا بمـاء فعـادا بعـد أبـوالا

مَناطُ الاسْتشهادِ: قولُهُ: (عليْك التّاجُ مرتفقًا) جُمْلَةٌ اسمِيَّةٌ، الخَبَرُ فِيهَا ظرفٌ (عليك) مُقدمًا علىٰ الْمُبْتَدَأ، جاءت بغير (الواو) وهو الأكثر، وقوله: (دارًا) منصوب علىٰ الحالية، نصب «دارًا» علىٰ الحالِ من (رأس غمدان): قصرٌ بِصنعاءَ.

(٢) بيت من قصيدةٍ لواثلةَ خليفة الدوسيّ، يهجو عبد الملك بن المهلّب، يقول فيها:

رأيتـك لمـا شـبتَ أدركَك الّـذي   يُصِيبُ سُراةَ الأزْدِ حِينَ تَشيب

سـفاهةُ أحـلامٍ وبخـلٌ بنائـلٍ   وفيك لِمَن عاب المَزُونَ عُيوب

لقد صَبَرَتْ لِلذل أعوادُ مُنْبَرٍ   تُقومُ علْيها، فِي يَديْك قَضِيب

بكىٰ المنبر الغربيّ إذ قمت فوقه   وكادت مسامير الحديد تذوب

وقدْ أوحشَتْ منكم رساتيق بَيْهَق   وبالمصـر دور جمّـة ودروب

(المزون): اسمٌ من أسماء عمان، وأهلها من الأزد، وهم رهط المهلب بن أبي صفرة، وذلك أنَّ جَدَّهم الأعلىٰ مازن بن الأزد. (الرساتيق): جمع رستاق، ورساتيق. (بيْهق): اسم بلد.

مَناطُ الاسْتشهادِ: (فِي يَديْك قَضِيب)، يستشهد بها علىٰ ما استشهد به (عليك التاج مرتفقًا).

ثُمّ قال: والوَجْهُ أن يُقَدَّرَ الاسمُ فِي الأمْثِلَةِ مُرْتَفِعًا بالظّرْفِ، فإِنَّهُ جَائِزٌ باتِّفاقٍ من صَاحبِ «الكتابِ»، و«أبي الحسن»؛ لاعتمادِه علىٰ ما قَبْله[1]، ثُمّ اختارَ أن يكونَ الظّرْفُ هنا خاصّةً فِي تقديرِ (الواو).

ثُمّ قالَ: وَرُبّما يَحْسُنُ مَجِيءُ الاسْمِيّةِ بِلا (واوٍ) لِدُخولِ حَرْفٍ علَىٰ المُبْتَدَأ، كَما فِي قَوْلِهِ:

فَقُلْتُ عَسَىٰ أَن تُبْصِريني كَأَنَّمَا ... بَنِيَّ حوالَيَّ الأسودُ الحوارِدُ[2]

فإِنَّه لَوْلَا دُخولُ (كأنَّ) عَلَيْهِ لَمْ يَحْسُن الكَلامُ إلا بـ(الواوِ)، كَقَوْلِكَ: «عسىٰ أن تبصريني، وبني حوالي الأسود»، ثُمَّ قَالَ: وَشَبِيهٌ بِهَذا أنْ تَقَعَ حالًا بِعَقِبِ المُفْرَدِ، فَيَلْطُفُ مَكانُها، بِخِلافِ مَا لَو أُفْرِدَتْ، كَقَوْلِ ابْنِ الرُّومِيِّ:

---

(١) صَاحبُ الكتاب: سيبويْه. وأبو الحسن: الأخفش الأوسط سَعيد بن مسعدة، صاحب الخليل بن أحمد الفراهيدي، ثم أخذ عن سيبويه، وهو أكبر من سيبويه سنًّا (ت: ٢١٥هـ). ترجمته في إنباه الرواة علىٰ أنباه النحاة، تأليف: جمال الدين القفطي (ت: ٦٤٦هـ) نشر: المكتبة العصرية، بيروت. ط: الأولىٰ، ١٤٢٤ هـ، ج٢، ص٢٦.

(٢) البيتُ من أبياتٍ قالها الفرزدق لزوجه النوار، وكان لا يولد له ذكور، فعيَّرَتْهُ، فقال:

وَقَالَت أراهُ وَاحِدًا لَا أَخا لَهُ ... يُؤَمِّلُهُ يَوْمًا هُوَ وَالِدُ

فَقُلْتُ: عَسَىٰ أَن تُبْصِريني كَأَنَّمَا ... بَنِيَّ حوالَيَّ الأسودُ الحوارِدُ

فَإِنّ تَميمًا قبلَ أَن يلد الْحَصَا ... أقامَ زَمَانا وَهُوَ فِي النَّاس واحدُ

(حوالي)، أي: يحيطون بي. (الحوارد): الغِضاب، (حرد): غضب. (يلد الحصا): يلِدُ أولادًا عدَدَ الحصا كَثْرةً.

مَناطُ الاسْتشهادِ: (كَأَنَّمَا • بَنِيَّ حوالَيَّ الأسودُ الحوارِدُ)، جاءت الجملةُ حالًا، وهي اسمِيَّةٌ، خلاءً من (الواو)؛ لدخول (كأنَّ) علىٰ المبتدأ، فلم تَأتِ (الواو) كيما لا يدخل علىٰ الجملة رابطان، ولولا (كأنَّ) لجاءت (الواو).

وَاللهُ يُبْقيك لنَا سالمًا بُردَاكَ تبجيلٌ وتَعظيمُ[1]

فإنَّه لَوْ قَالَ: «وَاللهُ يُبْقِيك لَنا بُرْداكَ تَبْجيلٌ» لَمْ يَحْسُنْ[2].

هَذا كُلُّهُ إذَا لَمْ يَكُنْ صاحِبُها نكِرَةً مُقَدَّمَةً عَلَيْها، فإنْ كانَ كَذَلِكَ نَحْو: «جاءَنِي رَجُلٌ، وَعَلَىٰ كَتِفِهِ سَيْفٌ» وَجَبَ (الوَاوُ) لِئَلَّا تَشْتَبِهَ بِالنَّعْتِ.

وأمَّا نَحْوُ قَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ﴾ [الحجر: ٤][3] فَقَالَ السَّكّاكِيُّ: «الوَجْهُ فِيهِ عِنْدِي هُوَ أنَّ: ﴿وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ﴾ حَالٌ لِـ﴿قَرۡيَةٍ﴾؛ لِكَوْنِهَا فِي حُكْمِ المَوْصُوفَةِ، نَازِلَةً مَنْزِلَةَ: «وَمَا أهْلَكْنَا قَرْيَةً مِنَ القُرَىٰ»، لَا وَصْفٌ. وَحَمْلُهُ عَلَىٰ الوَصْفِ سَهْوٌ لَا خَطَأٌ، وَلَا عَيْبَ فِي السَّهْوِ لِلإنْسانِ، وَلا ذام. وَ«السَّهْوُ»: مَا يَتَنَبَّهُ لَهُ صَاحِبُهُ بِأدْنَىٰ تَنْبِيهٍ، و«الْخَطَأُ»: مَا لَا

(١) البيْتُ من مقطوعَةٍ لابنِ الرّوميّ، يقول فيها:

نحن ميامينُ علىٰ أنّنا علىٰ أعاديكَ مشائيمُ
لمّا دخلنا دخلتْ نِعمةٌ كان لها حولكَ تَحْويم
ولم يُفَخِّمْكَ الذي نِلْتَهُ بل للعطايا بك تَفخيم
قلّ لك المُلْكُ ولو أنهُ مَجْموعةٌ فيه الأقاليمُ
نِعْمَ المفاتيحُ وقد قُدِّرتْ مِثْلَ المفاتيحِ الخواتيمُ
واللهُ يُبقيك لنا سالمًا بُرْداكَ تبجيلٌ وتعظيم

مَناطُ الاسْتشهادِ: قولُهُ: (سالمًا ... بُرْداكَ تبجيلٌ وتعظيم)، جاء قوله: (سالمًا) حالًا مفردًا، وقوله: (برداك...) حالًا جملةً اسميَّةً، خلاء من (الواو)؛ لوقوعِها عقب حالٍ مُفرَدٍ، ولولا تقَدُّمُ الحالِ، لكانَتْ الحالُ الجملةَ الاسميَّةَ بالواوِ.

(٢) دلائل الإعجاز، ص٢١١.

(٣) سياقُ الآية قولُه تعَالَىٰ: بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر: ١ – ٣].

يتَنَبَّهُ لَهُ صاحِبُهُ، أوْ يَتَنَبَّهُ وَلَكِنْ بَعْدَ إِتْعَابٍ[1].

وَكَأَنَّهُ عَرَّضَ بِالزَّمَخْشَرِيّ؛ حَيْثُ قَالَ فِي تَفْسِيرِهِ: ﴿لَهَا كِتَابٌ﴾ جُمْلَةٌ وَاقِعَةٌ صِفَةً لِقَرْيَةٍ»، والقياس أن لا يتوسط الواو بينهما، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾[الشعراء: ٢٠٨]، وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوفِ، كما يقال في الحال: «جاءني زيد عليه ثوب»، و«جاءني زيد وعليه ثوب»[2].

ثُمّ قَالَ السّكّاكِيُّ: مَنْ عَرَفَ السَّبَبَ فِي تَقْدِيمِ الحالِ إذَا أُرِيدَ إيقاعَها عَن النَّكِرَةِ تَنَبَّهَ؛ لِجَوازِ إيقاعِها عَن النَّكِرَةِ مَعَ (الواو) فِي مِثْل: «جَاءَنِي رَجُلٌ، وَعَلَىٰ كَتِفِهِ سَيْفٌ»، وَلِمَزِيدِ جَوازِهِ في قَوْلِهِ - عَزَّ اسْمُهُ: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ﴾[الحجر: ٤] عَلَىٰ مَا قَدّمْتُ.

---

(١) مفتاح العلوم، ص١٢٠

(٢) قال في كشافه: «﴿وَلَهَا كِتَابٌ﴾ جملةٌ واقِعَةٌ صفة لـ﴿قَرۡيَةٍ﴾»، والقياسُ أن لا يتوسط (الواو) بينهما، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾، وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفَةِ بالموصوف، كما يُقالُ في الحال: (جاءني زيد عليه ثوب، وجاءني وعليه ثوب).

ويعلقُ شرف الدين الطيبيّ (ت: ٧٤٣ هـ) في حاشيته «فتوح الغَيب»: «قوله: (أن لا يتوسط الواو) يعني: القياس أن لا يتوسط بين الصفة والموصوف العاطف لِشِدَّةِ اتصالها به، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨]، لكن لمّا افترق الحكمُ بينهما اختصت هذه بها، فإنّ لصوق الصفة فيما نحن فيه أشد من لصوقها في قوله: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾، فإنَّ إهلاكَ قريةٍ من القرىٰ لكون أجلها مقدرًا لا ينفك عن قضائه وقدره؛ بخلاف إهلاكها عن إنذار منذر، فإنه قد ينفكُّ عنه، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٨].

وَاعْلَمْ أنَّ السَّكَّاكِيّ بَنَىٰ كَلامَهُ فِي الجُمْلَةِ الواقِعَةِ حَالًا علَىٰ أُصولٍ مُضْطَرِبَةٍ، لا يَخْفَىٰ حالُها علَىٰ الفَطِنْ؛ لا سِيّما إذَا أحاطَ عِلْمًا بِما ذَكَرْناهُ وأَتْقَنَهُ، فَآثَرْنَا الإعْرَاضَ عَن نَقْلِ كلامِهِ، والتَّعَرّضَ لِما فِيهِ مِن الْخَلَلِ؛ لِئَلّا يَطُولَ الكِتابُ مِنْ غَيْرِ طَائِلٍ.



جُـمُعةُ القولِ وزُبدتُه

فِي أحوالِ الجملةِ الحاليّة رَبطًا بالضَّميرِ، وربطًا بالواو أو بِهما معًا.

أولًا: كليات.

١- الحالُ تأتِي مفردًا، وجملة فعلية مضارعية، وماضوية مثبتة ومنفية، وجملة اسمية، وشبه جملة.

٢- الحال نوعان: مؤسّسة ومؤكّدة، والمؤسّسة نوعان: (لازمة ومنتقلة)، وكلامُنا فِي المؤسّسة المنتقِلة وحدَها.

٣- الأصلُ ربطُ الحالية بالضميرِ.

٤- واو الحالِ أصلُها واو عطف.

٥- مجيئها (واو الحال) آيةٌ علَىٰ أنّ الحالية ذات استقلالٍ ما عَن جملةِ صاحب الحالِ، فتشبه الجملة الثانية في (التوسّط بيْن الكمالين)، وتركه الإتيان بالواو آية علىٰ تمازجها مع جملة صاحب الحال، فهما حينئذٍ جملةٌ واحدةٌ، فتؤول جملة الحال بمفرد.

• • •

ثانيًا: (الأحوال).

١- الجملةُ الحاليّة الخالية من الضّميرِ يجبُ الإتيانُ بالواو.

٢- الجملةُ الحاليّةُ المضارعية المثبتة لا تأتي بالواو، فإن جاءت فإما أن الواو عاطفة، وإما أن تكون علىٰ حذف مبتدأ، فتكون اسمية.

٣- الجملةُ الحاليّة المضارعة المنفية يجوزُ فيها الأمران من غير ترجيح.

٤- الجملةُ الحاليّةُ الماضوية يجوز فيها الأمران من غير ترجيح.

٥- الجملة الاسمِيّة، يجوز فيها الأمران، والأولىٰ الإتيانُ بالواو.

٦- الجملة الحالية الاسمية إن كانت «شبه جملة» مقدمة علىٰ صاحب الحال المعرفة الأكثر ألا تأتي بالواو.

٧- الجملة الحاليّة الاسمية إن دخل عليها حرف امتنعت الواو.

٨- الجملة الحالية الاسمية، شبه جملة مقدمة علىٰ صاحبها النكرة وجبت الواو.

• • •

وعلىٰ هذا يُمكِنُك ضَبطُ أحوالِها: (الوجوب، والامتناع، والاستواء، والجواز)، مع رُجحان وجهٍ علىٰ آخر علىٰ النحو الآتي:

يجب الإتيان بالواو في حالين:

(أ) أن تكون جملة الحال خالية من ضمير يربطها بجملةِ صَاحبِ الحالِ.

(ب) أن تكون اسميةً شبه جملة مقدمة علىٰ صاحبها النكرة.

تمتنع الواو في حالتين:

(أ) الجملة مضارعية مثبتة. (ب) اسمية دخلها حرف.

يستويان في حالين:

(أ) مضارعية منفية. (ب) ماضوية.

(يجوز الأمران) مع رجحان الإتيان بالواو في حالة واحدة (اسمية).

(يحوز الأمران) والأرجح عدمُ الإتيان بالواو في حالة واحدة إذا كان صاحبها نكرة، وهي شبه جملة مقدمة علىٰ صاحبها.



تطبيقاتٌ تحليليّة على الفصل والوصل

التطبيقُ الأوّلُ

يقولُ الله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

آيةُ الكرسيِّ إذا نظرت فيها ألفيتَها تسعَ جُمَلٍ نحويّة: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾، ﴿ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ ﴾، ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾، ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴾، ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴾، ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾، ﴿ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ ﴾، ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَا ﴾، ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾.

جاءت ثلاثُ جُملٍ معطوفة بـ«الواو»: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾، ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَا ﴾، ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾، وجاء سائرُ الجُمل غيرَ معطوفةٍ، وهذه التي لمْ تُعطَفْ كانت مقرِّرةً ومبيِّنَةً لما قبلها، وكانت الأولىٰ والثانية المعطوفة متمِّمة لما قبلها، فكأنّها مِنها، وكان في العطفِ لفتٌ إلىٰ ما في المعطوفِ من إضافةٍ إلىٰ المعطوفِ إليه، يحسن الاعتناء بهذه العَطِية (الزيادة)، ولولا هذا لصحَّ عربيَّةً أن لا تُعطَفَ، فيؤُتَىٰ بها علىٰ نسَق أترابِها التي لم تعطف، وكانت الثالثةُ تَذييلًا للآية جمعاء.

هذا إجمالٌ لشأنِ الجُمل في آية الكُرسيِّ عطفًا بالواو وفصلًا.

المعنىٰ النّحويُّ في كلِّ جملةٍ من جُمَلِ آيةِ الكُرسيِّ لا يفتقرُ إلىٰ السَّابِقِ عليه عند النُّحاة وإنْ تَنَاسَل منه، هذه الجُملُ النّحويَّةُ الإحدىٰ عشرة أو العشرة إنّما هي جميعُها مُكَوِّنٌ لِجملَةٍ قُرآنِيَّةٍ (بيانيّةٍ) واحدة، لا سبيلَ لك إلىٰ أنْ تقفَ علىٰ المعنىٰ القرآنيِّ الكريم من هذه الآية العُظمَىٰ من جملة نحويّة واحدة منها، بل لا بدَّ أن ينتهيَ به التّدبُّرُ إلىٰ آخرِ حرفٍ منها ليجمعَ قلبُك المعنىٰ القرْآني لهذه الآيَةِ.

الجُملةُ النّحويَّةُ الأولىٰ هنا: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ هي الجملةُ المفتاحُ، وهي الجملةُ الأساسُ التي بُنِيَتْ عليها بَقِيَّةُ الجُمَل في بناء المعنىٰ القرآني وتشكيله لهذه الجملة القرآنيَّةِ.

ويأتي قولُهُ تعالىٰ: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ ليُقَرِّرَ ويُبيّن - أيضًا - مَضْمُونَ قولِهِ تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ ؛ ذلك أنّ من كان حيًّا قيومًا علىٰ كلّ شيْءٍ يلزمه ألا يأخذَه شيْءٌ من سنةٍ أونومٍ؛ لأنّه لو أخذه قليلٌ جدًّا من ذلك لكان العالَمون بغيرِ قيومٍ حينئذٍ؛ فَيَفْنَىٰ العالَمُ، وعدمُ فنائِهِ آيةٌ قاطِعَةٌ علىٰ أنَّه لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، فهذه الجملَةُ مؤكِّدَةٌ لِسَابِقَتِهَا؛ ومِنْ ثَمَّ فُصِلَتْ عنها؛ لكمال اتصالِهِمَا، فهي جامعةٌ توكيد وتبيين.

وَيأتي قولهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، فكان تقريرُه الوحدانيَّةَ جدّ ظاهر؛ لأنَّ من اختَصَّ بملك ما في السّموات وما في الأرض، لم يكن هنالك إله دونَهُ أو معه؛ وإلا لنَازَعَه في اختصاصِه بملكيَّةِ ما في السمواتِ وما في الأرضِ، فهذا التقديمُ أفادَ الاختصاص، بل إنَّ بيانَ الجُمْلَةِ لَيُفِيدُ التَّخصيصَ بغيرِ تقديمٍ، فاجتمع لهذه الجملةِ التَّخصيصُ بطريقِ التقديم، والتخصيصُ

بخصوص مادَّةِ القول، فلو قيل - في غير القرآن: (ما في السموات وَما فِي الأرضِ له) لفُهِم - أيضًا - التّخصيصُ؛ لِمَا في (اللام) من قولِهِ: (له) من معنىٰ التخصيص، فقولُك: (الكتاب لمحمد) يُفْهَمُ منه معنىٰ التخصيصِ لا محالة، ومَن نازَع في ذلك فقد كَابَر.

وفي هذا تقْرِيرٌ لِانْفِرَادِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ علىٰ ما قرَّرته الجمل السابقة؛ وَلِذَلِكَ استغنَتْ بِما فَيها من عوامِلِ الاتّصالِ الذّاتِيِّ عن أيِّ عاملٍ خارجيٍّ.

وَقولُه تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ يُقرِّرُ ما قرَّرَتْهُ الجُمَلُ السَّابِقَةُ - أيضًا - فهو - تعالَىٰ - لمَّا أفاد بقولِه: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أنَّ كلَّ العالمين ملكه، وليس لغيرِه شيءٌ من ذلك، فكان لازمُ ذلك أنَّ العالمين أجمعين يذلون له ويَخضَعون، وأنّه ليس لأحد ألبتَّةَ منهم أنْ يشفعَ لأحدٍ إلاَّ إذا أذِنَ المالِكُ.

قولُه تعالَىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ استفهامٌ دالٌّ علىٰ النفّي، فهو في معنىٰ: (لا يشفع أحدٌ عنده إلا بإذنه)، وهذا يُؤكِّدُ وحدانِيَّته وقيوميَّته؛ وَلِذَلِكَ لم تكن هذه الْجُمْلَةُ بحاجةٍ إلىٰ أنْ تُعْطَفَ علىٰ قَبْلَهَا؛ لِمَا فيها من وافِرِ عَوامِلِ الاتِّصالِ الذّاتِيِّ المَكِينِ.

ويأتي قولُه - جَلّ جلالُه: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ مُقرِّرًا ما سَبَقَ مِن قَولِهِ: ﴿ٱلۡحَىُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ من كَمالِ عِلْمِهِ وقيُّومِيَّته، فمن يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِي ما في السموات وما في الأرضِ فهو المحيطُ بهم علمًا وقيّوميَّةً.

ويذهبُ بعضُ أهلِ العلمِ إلىٰ تأويلِ قولِهِ تعالىٰ: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ علىٰ أنَّه استِئنافٌ بيانِيٌّ، أجابَ عن تساؤلٍ يَتَوَلَّدُ فِي القلبِ من نفْيِ أنْ يَشْفَعَ أحدٌ لأحدٍ إلا بإذنِهِ - تَعالىٰ - تقديرُه: (لِمَ لا يصلُح أحدٌ أن يشفعَ لأحدٍ إلا بأذنه - تعالىٰ)؟ فتكون عِلَّةُ عَدَمِ صَلاحهم لِذلك نُقصانَ علمِهم، فلا يُحسنون العلمَ بمن يستَحِقُّ الشَّفَاعَةَ، ومَن لا يستَحِقُّ، فلا يتَحَقَّقُ العدلُ في ذلك.

وجاء قولُه تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ مُكَمِّلًا لقولِهِ: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾، فحقَّ له أنْ يُعطفَ عَليْه؛ لأنّه مِن تَمامِهِ، نافيًا عنهم ما أثبتَه لنفسِه - سبحانه - وكان البيانُ بنفْيِ الإحاطَةِ بِشَيْءٍ من علمِهِ هاديًا إلىٰ أنّهم قد يعلمون بتعليمه لهم شيئًا من علمِهِ، فهو القيُّومُ الَّذي لا يقتَدِرُ أحدٌ علىٰ شيْءٍ إلا بتقديرِ الله - عَزَّ وَعَلَا - له.

وكان قولُهُ تعالىٰ: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾، وقولُهُ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ في معنىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٣٢،٢١٦]، [آل عمران: ٦٦]، [النّور: ١٩] جامعًا بين الإثبات في جملة والنفي في أخرىٰ، ولم يسلك سبيلَ القصرِ؛ لأنَّ سبيلَ القصرِ يجعلُ النَّفيَ هو مناطَ القصدِ الرئيسِ، وهنا القصدُ إلىٰ أنْ يكونَ الإثباتُ والنّفيُ معًا في مقامٍ سواء من القصد الرّئيس، لا يجعل أحدهما مدلولًا عليه تصريحًا والآخر تلويحًا، وفي هذا هدايَةٌ للمُتلقي أن يتَّخِذَ من الصّبر علىٰ حُسن التلقي والفهم لكلٍّ ما للأخرىٰ.

وهذا يُبَيِّنُ لكَ أنَّ الإطنابَ هنا بالتَّصريح بما فُهِمَ تَلويحًا هو الَّذي اقتضاه المقامُ والقَصْدُ، فكان الإطنابُ في هذا السِّياقِ أبلغَ من الإتيانِ بأسلوبِ القصرِ الذي حِلْيَتُه الرَّئِيسَةُ «الإيجاز».

ويأتي قولهُ تعالىٰ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ مقررًا ما قرَّره قولُه: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من كمال جلال ألوهيته وعظمته، وإحاطة علمه وقدرتِهِ، واتِّساع مُلكِه.

وقولُه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أكثَرُ مُبالغَةً علىٰ كمالِ علمه وقدرته اللَّذين هما من لوازمِ وحدانيَّتِهِ، وإذا ما كان كُرسِيُّهُ قد وسِع السمواتِ والأرضَ فليس لأحد سواه شيءٌ فيهما، وهذا ما قرَّره منطوقُ قولِهِ: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وكان من تمام معنىٰ قولهِ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ المستلزم ملكه لهما قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾، فجاءَتْ معطوفَةً عليها؛ لأنَّها من تمامها.

وجاءت فاصلةُ الآيَةِ أعَم من كل ما سبق، ومؤكدة كلّ ما سبق - كما هو الشأن في الجملة التذييلية - فقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾، قوله: ﴿ٱلْعَلِىُّ﴾ ظاهر في معنىٰ القيومية، وهو أعمّ منها، وقوله: ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ دالٌ علىٰ أنَّه الجامع لكلّ عوامل القيوميةِ، ولكلِّ صفاتِ الكمالِ في ذاتِه ﴿ٱلْحَىُّ﴾، وفي أفعالِه ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾، فشأنُ عظيمِ القوم أن يكون جامعًا خصالَ الكمالِ الَّتي في قومِه، فمَا مِن حِليةٍ إلا له منها نصيبٌ وفيرٌ، وهُو الجامعُهم علىٰ كلمته السّواء، فـ(الواو) في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ «واو» تذييلٍ فيها معنىٰ العطف، دالة علىٰ أنَّ هذه الجملةَ، وإنْ كانت تحمل توكيدًا لكلّ ما سبق فإنّها تفيدُ جديدًا يجعلها جديرةً بأن لا تعدّ تابعةً تبعيّةً صِرفة، لا تختصّ بمزيد فضلٍ، يتبين لك من هذا ما يُؤخذ من الإعراب باسمه ﴿ٱلْعَلِىُّ﴾ و﴿ٱلْعَظِيمُ﴾، فهما اسمان

مُعربان عن كمال العزّة ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾ ، والإحاطة ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾، فقوله: ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾ دالٌّ علىٰ الموصوفِ بِهِ بالتَّضمّن، وعلىٰ مدْلُولِ منطوقِه بالمطابقة، وعلىٰ صِفات الكمال والتنزّه عَن النقصِ باللزوم، هو دالٌّ علىٰ أنَّه الحيُّ، وأنَّه القيوم، بل دلالته عليهما جدُّ ظاهرة، فلا يكونُ عليًّا إلا مَن كان هو الحيُّ، وهو القَيُّوم.

وقولُهُ: ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ الجامعُ لكل صفاتِ الكمال والتنزه عن النقصِ في ذاتِه وصِفاتِه وأفعاله، فكان رأس المعنىٰ وشرفه في هذه الآية من جنس مفتتحها.

وكان عَصَبُ المعنىٰ تقريرَ كمالِ علمه وقدرته؛ بما تضمَّنَهُ تقريرُ إحاطةِ مُلكه العالمين.

• • •

التَّطْبِيقُ الثَّانِي

يقول اللهُ تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

جاءتْ هذه الآيَةُ في خاتمة سورةِ (القصص) تقريرًا لعقيدَةِ «التَّوحِيد»، التي هي الأساسُ الَّذِي يقومُ عليه عَلاقة الإنسان بالله - سبحانه - وبالحياة؛ كونها وإنسانها، جاءت في جملٍ مُتَتابعَةٍ تتابعًا هاديًا إلىٰ عظيمِ تآخيها.

استفتحت الآيةُ بهذا النَّهْيِ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، وهو مُوَجَّهٌ في ظاهرِ البيان إلىٰ رسُول الله - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْه، وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ - مثل ما جاء في الآية التي قبلها ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧]، وهو الذي لم يدعُ قط قبل البعثة إلهًا غير الله - تعالىٰ - فكيف يفعلها من بعدِ البعثة؟! ولكن البيان جاء علىٰ النَّحو الموجه النّهي إليْه - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْه، وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ - ولم يقل: (وَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ) موجهًا النَّهي إلىٰ أمّة الدَّعوة كلِّها، وذلك لفتًا إلىٰ علوِّ شأنِ هذا النَّهْيِ، وأنَّه جديرٌ بأنْ يُوَجَّهَ إلىٰ كلِّ مخلوقٍ، وإن لم يُتوَقَّعْ وقوعُهُ منه؛ إشارةً إلىٰ خطره، وأنّه ممَّا يُخشىٰ أنْ يُقارِفَ المرءُ شيئًا منه علىٰ غفلةٍ عارِضَةٍ، فإنَّ الشِّرْكَ أخفَىٰ من دبيبِ النَّمل.

وفي توجيهِ النَّهْيِ إلىٰ رسُول الله - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ - توكِيدُ توجِيهِهِ إلىٰ كلِّ مَن دونه من الأمة، وهو - صَلّىٰ اللهُ عَلَيْه، وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ - أفضلُ وأتقىٰ وأخشىٰ النَّاسِ، وهذا مسلَكٌ من مسالكِ البيان في تقريرِ المعنىٰ: أنْ توجه النهي إلىٰ من ليس بمتلبس بما يُنهي عنه، ولا يتوقع أن يكون منه.

وفي توجيهِ هذا النَّهي إلىٰ رسُولِ الله – صَلّىٰ اللهُ عَلَيْه، وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ – تقريرٌ لوحدانيَّةِ اللهِ – سُبحَانَه وتَعَالَىٰ – لأنَّهُ إذا ما كان رسُولُ الله – صَلّىٰ اللهُ عَلَيْه، وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ – بمحل أن يُنهَىٰ فهو ليس بمحلٍّ إلا أن يكون لله – تعالىٰ – عبدًا، فالمأمور والمنهي لا يكون إلهًا ألبتة، فدلَّ قولُه تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾ علىٰ وحدانية الله – سُبحَانَه وتَعَالَىٰ – بمنطوقه وبلازمه.

وفي توجيه النّهي إلىٰ رسُولِ الله – صَلّىٰ اللهُ عَلَيْه، وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ – قطْعٌ لِطَمَعِ المشركين فِي أنْ يكونَ مِن رسُولِ الله – صَلّىٰ اللهُ عَلَيْه، وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ – ما تنشرح له صدورُهم في هذا البابِ.

وإذا ما كان قولُه تعالَىٰ: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾ قد سُبق بقولِهِ تعالىٰ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧]، فظاهرُ الأمر ألا يأتي معطوفًا بالواو؛ لتنزيلِه منه منزلة المؤكّد (بالكسر) من المؤكَّدِ (بالفتح)؛ إلا أنَّ البَيانَ جاء بـ(الواو) ﴿وَلَا تَدۡعُ﴾ لفتًا إلىٰ أنَّ الأُولَىٰ نَهَتْ عن أنْ يكونَ واحدًا من المشركين، وكأنَّ فيه حملًا علىٰ متاركتهم وهجرهم، ومخالفتهم في كلّ أمرٍ من أمورهم لا يقُوم علىٰ توحيدِ الله – سُبحَانَه وتَعَالَىٰ – فهو دعوةٌ إلىٰ المفاصلة، وتَرْكِ اتِّخاذِ أحدٍ منهم نصيرًا أو وليًّا من دون المُوَحِّدِين الله –تعالىٰ.

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾ يَحْمِلُ معنًىٰ زائدًا علىٰ سابقِهِ؛ فيه نَهْيٌ عن أنْ يكونَ فِي دَعوتِهِ أيّ شَائِبَةٍ من شوائِبِ الشِّركِ، حتّىٰ وإن تحققت مفاصلته المشركين، ولم يكن منهم في شيءٍ. وهذا ما جعل محمول هذه الجملة

فيه ما يجعله غير محمول التي قبلها؛ مما يجعله جديرًا بأن يلتفت إليه علىٰ أنّه ليس تابعًا لما قبل، وإن كان من جنسِهِ.

وجاء التَّصريحُ بوحدانيته - سُبحَانَه وتَعَالَىٰ - في قوله تعالىٰ: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾، فهو صريحٌ في هذا، وفيه معنىٰ التَّعليلِ للنَّهيِ، فهذه الجُمْلَةُ تَحْمِلُ توكيدًا وتقريرًا لمَا دَلَّ عَليْه منطوقُ سَابِقَتِها ولازِمها.

وتأتِي الثالثة: ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ ﴾ صرف البيان إلىٰ تقريرِ وجوبِ الإخلاصِ له في الأمرِ كلِّه، ومآلُ هذا أيضًا توحيده - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - لأنه إذا كان ما أُرِيدَ به غيره هالكًا، فهذا الذي أريد له لا يصلح أن يكون إلهًا؛ وإلا لما هلك ما أُريد له.

وجملةُ: ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ ﴾ مَسوقَةٌ بالقصد الرئيسِ إلىٰ تقريرِ وجوبِ الإخلاصِ له في الأمرِ كلِّه، فكلُّ عَمَلٍ لا يُرادُ به وجهه غيرُ نافعٍ، وأكَّد ذلك بقولِهِ تعالىٰ: ﴿ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ ﴾، أي: هو مُختَصٌّ بفصْلِ القضاءِ، وإنفاذِ القُدرةِ فِي الدُّنيا والآخرة، وكل ما ظاهره حكم لغيرِه هو مِمَّا يردّه رادٌ فوقه إلا حكمه - سُبحَانَه وتَعَالَىٰ - فلا رادّ له.

ويأتِي قولُهُ تعالىٰ: ﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ ليُقرِّرَ أنَّ مآلَ كلِّ شيءٍ إليْه، فلا يكونُ ثَمَّ ما يخرجُ عن سلطانِه، وفي تقديم الجار والمجرور علىٰ عامله ما يُفْهِمُ التَّخصيص، فكأنه قيل: (ما ترجعون إلاَّ إليْه)، وهو من قصر الموصوف علىٰ الصِّفة، (ما مرجعكم إلا إليه).

ويُفْهَم من اختِصاصِ الرُّجوعِ إليه أنّه هو وحْدَه الَّذِي يحكم في العالمين يوم الدين، وأنَّ كُلَّ ما عداه - سُبحَانَه وتَعَالَىٰ - خاضعٌ له.

• • •

التّطبيقُ الثالثُ

يقُول الله سبْحانه وتَعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ [لقمان: ٦ – ٧] استهلالُهُ البيانَ بقولِهِ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ يستَحضِرُ في وعيك أوّلَ موضِعٍ وردت فيه هذه العبارةُ (الآية الثامنة من سورة البقرة)، وهي عبارَةٌ قد وردَتْ في مواطنَ عدَّةٍ من القرآن، وكان عُظم ما وردت فيه هادٍ إلىٰ ما لا يُستحمدُ من الأفعال والأحوال، وكأنَّ في مدلولِ ما اشتقت منْهُ كلمة: «النّاس» ما يأنسُ بِهِ هذا الاستقباح للأفعال والأحوال، فكلمة: «ناس» مأخوذَةٌ من «النّوسُ»؛ الإضطراب.

لم يعطفْ قوله تعالىٰ: ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ علىٰ قوله: ﴿ وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ﴾ من أنَّه توكيدٌ له، وفُصِلَ: ﴿ كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ عنه أيضًا، من أنَّه توكِيدٌ ثانٍ له، ووجْهُ ذلك أنَّ قولَهُ: ﴿ وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ﴾ يُفِيدُ أنّه لم يَلتَفِتْ إليها، ولم يُلْقِ لها بالًا، وهذا المعنىٰ هو معنىٰ منطوقِ قولهِ: ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ ، فتشبيهه بمَنْ لم يسمع هو كالمطابقِ لمن لَمْ يقبلْ، ويأتي قولُهُ: ﴿ كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ فيقرّرُ ما قرّره ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ علىٰ وجْهٍ أعلىٰ وأقوىٰ؛ ذلك أنَّ المقصودَ من التَّشبيه بِمَنْ في أذنيه وقْرٌ هُوَ بعينه المقصودُ من التَّشبيه بمَنْ لم يسمع؛ إلاَّ أنَّ الثاني أبلغُ وآكَدُ في الذي أُرِيدَ.

وذلك أنَّ المعنىٰ في التشبيهين جميعًا أنْ يَنْفِيَ أن يكونَ لتلاوةِ ما تُلِيَ عليه من الآياتِ فائدَةٌ معه، ويكونَ لها تأثيرٌ فيه، وأنْ يجعلَ حالَه إذا تُلِيتْ عليه كحالِه

إذا لم تُتْلَ. ولا شُبهةَ في أنَّ التشبيه بِمَنْ في أذنيه وقرٌ أبلغُ وآكَدُ في جعلِه كذلكَ مِنْ حيثُ كان مَنْ لا يصحُّ منه السَّمْعُ، وإن أرادَ ذلكَ أبعدَ مِنْ أنْ يكونَ لتلاوةِ ما يُتْلَىٰ عليه فائدةٌ مِنَ الذي يصحُّ منه السَّمْعُ إلا أنه لا يسمعُ، إما اتِّفاقًا، وإما قصدًا إلىٰ أنْ لا يسمعَ.

التفَتَ عبْدُ القاهر - كما ترىٰ - إلىٰ العَلاقَةِ بين معنىٰ جملة: ﴿ كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾، ومعنىٰ جملة:)﴿ كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا ﴾ فرأىٰ أنّه وإن كان ظاهر المعنىٰ (المنطوق) غير متطابقٍ، فإنَّ الاعتدادَ بالمقصُودِ من التَّشبِيهِ في كلٍّ، والمقصُود في كلٍّ سواءٌ، فكأنّه تكرارٌ له، غيرَ أنّه في الجملة الثانية أدخل في المبالغةِ.

ووجْهُ هذا أنّ التَّشبِيهَ بِمَنْ لم يسمع قد يُظَنُّ مَعَه أنَّ عَدَمَ السَّمَاعِ هو منْ الغفلة، وذلك مانِعٌ عارِضٌ سَرعاَن ما يزول، فيتحقق الاستماعُ، وتتحقَّقُ الاستجابة، أمَّا إذا كانَ المانعُ أنَّ فِي أُذُنَيْهِ وقرًا، فذلك مانِعٌ لا أمَلَ في زوالِهِ، فهو وفَاقِدُ السَّمْعِ كليَّةً سَوَاءٌ؛ ومِن ثَمَّ ينقطِعُ الطَّمَعُ في سماعِه، وهذا أليَقُ بالمقامِ، وهو ضَرْبٌ مِن تَصَاعُدِ المعنَىٰ.

وممَّا يحسُن الالتفاتُ إليه أنّ الآيَةَ جَعلت تولِّيه مستكبرًا مُلازِمًا لتلاوَةِ الآياتِ عليه، فجعلت ما الأصلُ فيه - الحملُ علىٰ الإقبال مع مَن هو سويّ الحال - هو نفسه الحامل له علىٰ أن يولي مستكبرًا، وهذا تصويرٌ لعظِيمِ مَا بلَغَه من انقِلابِ أَمرِهِ.

وجاء قولُهُ: ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ مُبِينًا عن وَجْهِ التَّوَلِّي، فهو تَوَلٍّ مبعَثُهُ الاستكبارُ، وليس مبعثُه أمرًا في الآياتِ المتلُوَّةِ عليْه، ومثلُ هذا لا يُطمَعُ في أنْ يُجتهدَ في حملِه علىٰ الإقبالِ بالاجتهادِ في التَّبيينِ والتّقريبِ؛ لأنَّ العِلَّةَ ليست فيما يُطْرَحُ بين يديهِ من الآياتِ، بل العلَّةُ فيه هو: (الاستكبار)، وفي هذا قطعٌ للطَّمع في إقبالِهِ، وهو توطِئةٌ لِما يحملُه قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾.

وفي اصطفاءِ صِيغَةِ: ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾، ولم يأتِ البيانُ بـ(متكبّرًا) للإشارةِ إلىٰ أنَّه كلّما بلغَ منزلًا من التكَبُّرِ تطلَّب ما هو أعلىٰ، فـ(السين والتاء) في ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ في أصلهما دالاّن علىٰ الطَّلَبِ، فكأنَّه يطلُبُ زِيادَةً في التَّكَبُّرِ علىٰ ما هو عليْهِ؛ لاستمتاعه به، ومثلُه لا أملَ ألبتَّةَ في أن يهتدِي، ففرقٌ بيّنٌ بيْنَ (المتكبّر والمُستكبِر)؛ المتكبِّرُ أخَفُّ وطأَةً من المُستكْبِرِ.

• • •

التطبيقُ الرابعُ

ومن هذا البابِ ما رواه مسلمٌ في (الزّهد والرّقائق) من صَحيحه بسنده عَنْ أَبِىٰ هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلّىٰ اللهُ عَلَيْهِ، وعلَىٰ آلِه وصَحبِهِ وسَلّم –: «قَالَ اللهُ – تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ – أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِىٰ غَيْرِىٰ تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ».

قولُهُ – جلّ جلاله: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِىٰ غَيْرِىٰ تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» توكيدٌ لقوله تعالىٰ: «أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ»؛ ذلك أَنَّه يلزم من غناه (عن الشّركاء) أنّ مَن أشرك ردّ عليْه عملَه، فكان قولُهُ تعالىٰ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِىٰ غَيْرِىٰ تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» مؤكدًا بمنطوقِه لازمَ منطوقِ «أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ»، وفي هذا من تقريرِ وُجُوبِ صَفاءِ تَوحيدِهِ ذاتًا وصفةً وفعلًا، وأن يكونَ العبدُ أحرصَ ما يكون علىٰ صفاء إيمانِه وتوحيدِه الله – تعالىٰ – فذلك الّذي لا يكفّ الشّيطان وأعوانه من الإنسِ عن التّطوافِ حولَه يفتنون النَّاسَ فيه، وما زَلقتْ أقدامٌ كمثل ما زلِقتْ في هذا الباب، فكلّ ما يقترفُه العبدُ إن صفا توحيده أهلٌ لأن يُغْفَرَ بتوبةٍ أوْ بغيرها تفضلًا منه – جلّ وعلا – أمّا الشِّرك فإنَّ الله – تَعَالَىٰ – قضَىٰ بأنّه لا يغفرَه؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١١٦].

هذا الحديثُ القدسِيُّ من أكثرِ الأحاديث رَهَبًا للعبادِ؛ ذلك أنّ الشِّركَ رياء يَسْرُبُ إلىٰ القلوبِ سَرَبًا أخفىٰ من دبيبِ النّمل، وأكثرُ أدواءِ العلماءِ والدُّعاةِ وأعتاها وأنكاها وأنكها - الرّياء والعجب والحقد، واللهُ - تعالىٰ - هو المُستَعاذُ به منْ كل ما لا يُرضِيه.

• • •

التطبيقُ الخامسُ

ومن هذا ما جاء عنه - صَلّىٰ اللهُ علَيْهِ، وعَلىٰ آلِه وَصَحبِه وسلّم - مُرَغِّبًا في مخادنة القرآن والصيام ما رواه أحمد في مسنده بِسَندهِ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ، حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ دَاوُدَ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعَةَ عَنْ حُيَيِّ بْنِ عَبْدِ اللهِ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِيِّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللهِ - صلىٰ الله عليه وسلم- قَالَ: «الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ، مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ فَشَفِّعْنِىٰ فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِىٰ فِيهِ. قَالَ فَيُشَفَّعَانِ». (راه الإمام أحمد، والطبراني في المعجم الكبير)

قوله - صَلّىٰ اللهُ علَيْهِ، وعَلىٰ آلِه وَصَحبِه وسلّم: «الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» من عظيم البُشرىٰ التي تحملُ من أصغىٰ إليها بقلبٍ عقولٍ إلىٰ أنّ يكونَ له من هذين مقدار حاجتِه إلىٰ الشفاعة له بيْن يديْ ربِّه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

هذه البُشرىٰ جاءت مجملةً مُحكَمَةً، لا يتبيَّنُ للسَّامِعِ نوعُ الشَّفاعَةِ، وما يكونُ بها، فيكتفِي بهذه البُشرىٰ المُحْكَمَةِ القلبُ الفقيهُ؛ بيْد أنّه ليتطلَّعُ إلىٰ مزيدٍ من التبيين والتفصيل؛ اعتناءً بجليل البيان، فيأتي من بعدُ ما فيه تحقيقٌ لهذه الطّلِبة.

يأتي قولُهُ - صَلّىٰ اللهُ علَيْهِ، وعَلىٰ آلِه وَصَحبِه وسلّم -: «يَقُولُ الصِّيَامُ أَيْ رَبِّ مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ فَشَفِّعْنِىٰ فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِىٰ فِيهِ» ففي هذا البيان تفصيلٌ لهذه الشّفاعة، وبيانٌ لكيفيتها، فقولُه

- صَلّىٰ اللهُ علَيْهِ، وعَلىٰ آلِه وَصَحبِه وسلّم -: «يقُول الصيامُ... إلخ» ينزل ممّا قبلَه منزلة عطفِ البيان في المفردات؛ ومن ثَمَّ أوثر تَرْكُ العطفِ بـ(الواو) لفتًا إلىٰ أنَّ هذا تبيينٌ لصدر الحديثِ.

ومَسلكُ الإجمال ثم التَّبيين في الإبانة فيه من تقريرِ المعاني في النفُوسِ ما فيه؛ لإيرادِ المعنىٰ موردين: مَورد الإجمالِ، ومورد التفصيل، ولكلٍّ عطاؤه؛ منْ عطاء الإجمال بَعْثُ النفسِ علىٰ الاستشراف إلىٰ مزيدٍ مِن العلمِ والعِرفان بما ورد عليْها، وهذا يجعلها عظيمَةَ العناية بما أحبَّتْ أن تعلمَه مفصلا، فلولا أنّه ذو قدْرٍ ما رَغِبَتْ في تفصيله وتبيينه وتفسِيره.

يؤثر العبدُ الصّيامَ إيمانًا واحتسابًا علىٰ الاستمتاع بتلك الملَذَّاتِ المُبَاحَةِ، وهذا آيةٌ علىٰ عظيم الرّغبَةِ في رضوانِ اللهِ - تعالىٰ - إيثار محبوبِ الله - تعالىٰ - علىٰ محبوبِ النّفسِ ومُشْتَهاهَا، فيكون له يومَ القيامة من الصِّيامِ أن يبتهلَ إلىٰ ربّه - سُبحانَه وتَعالَىٰ جدُّهُ -: «أَيْ رَبِّ، مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ فَشَفِّعْنِىٰ فِيهِ».

والقرآن مشغلة العبد ليله عن نومِهِ، وما يرغبُ فيه من الرّاحة والإخلاد، يؤثر أنْ يُكَلِّمَ اللهَ - تعالىٰ - بكلامِهِ، وأنْ يَتفقَّهَه، وأن يأنسَ به إيمانًا واحتسابًا علىٰ الاستمتاع بمنامِه وسكونِه، وهذا - أيضًا - آيةٌ بيِّنَةٌ علىٰ عظيمِ الرّغبة في رضوانِ اللهِ - تعالىٰ - إيثار محبوبِ الله - تعالىٰ - علىٰ محبوبِ النّفسِ ومشتهاها، فيكون له يومَ القيامة من القرآن أن يقولَ: «مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِىٰ فِيهِ».

تَبَصَّرْ كيف أنَّ الرسولَ - صَلّىٰ اللهُ علَيْهِ، وعَلىٰ آلِه وَصَحبِه وسلّم - تسليمًا كثيرًا في جانب الصيام قال: «يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ، مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ فَشَفِّعْنِىٰ فِيهِ»، وفي جانبِ القُرآنِ يقولُ: «وَيَقُولُ الْقُرْآنُ مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِىٰ فِيهِ»، لم يقل هنا كما قال في الصيام: (أي ربّ)؛ لأنّ القرآنَ غيرُ مخلوق، فلا يجوز أنْ يُقال عن الله - تعالىٰ-: ربّ القرآن، ومن حلف قائلًا: وربّ القرآن، فقد ضلَّ؛ في حين يجوز أن يقال: وربّ الكعبة، ويقول: والقرآن الكريم مقسمًا بالقرآنِ؛ لأنَّ القرآنَ كلامُ الله - تعالىٰ - وكلامه غيرُ مخلوق - سُبحانَه وتَعالَىٰ جدُّهُ.

إذا كان هذا عطاءُ مصاحَبَةِ الصّيام، وعطاءُ مصاحَبَةِ القرآنِ، فكيف يكون العطاءُ إذا جمَعَ العبدُ في نَهَارِه إلىٰ الصَّومِ قراءَةَ القُرآنِ؟

• • •

التّطبيقُ السادسُ

ومن هذا في الكلمة الشاعرة ما جاء به أوس بن حجر راثيًا فضالةَ بنَ كلدة:

أيّتُهَــا النّفْــسُ أجْمِلــي جَزَعَــا	إنّ الــذي تحذريــنَ قــدْ وقعَــا
إنّ الــذي جمــعَ السّــماحةَ والنَّـ	ـــجْدَةَ والحَــزْمَ والقُــوَىٰ جُمَعَا
الألْمَعِــيَّ الّــذي يَظُنُّ لــكَ الظَّـ	ـــنَّ كَأنْ قَــدْ رَأىٰ وَقَــدْ سَــمِعا
والمخلــفَ المتلفَ المــرزّأَ لمْ	يُمْتَــعْ بِضَعْــفٍ ولمْ يمُــتْ طَبَعَا
والحافــظَ الناسَ في تحــوطَ إذا	لــم يُرْسِــلوا تَحْــتَ عائِــذٍ رُبَعَا
وازدحمــتْ حلقتَا البطــانِ بأق	وامٍ وطــارتْ نفوسُــهُمْ جزعَــا
وَعَــزّتِ الشّــمْألُ الرِّيــاحَ وَقَــدْ	أمسَــىٰ كميــعُ الفتــاةِ ملتفعَــا
وشُــبِّهَ الهَيْــدَبُ العَبَــامُ مــن الْـ	أقْــوَامِ سَــقْبًا مُلَبَّسًــا فَرَعــا
وكانــتِ الكاعــبُ الممنّعــة الـ	ـــحسناءُ في زادِ أهلِهــا سَــبُعَا
أودَىٰ وهــلْ تنفعُ الإشــاحةُ منْ	شــيءٍ لمَنْ قــدْ يحــاولُ البدعَا

استهَلَّ أَوْسٌ مَرثِيَّتَه بهذه الفاتحةِ: (أيّتُهَا النّفْسُ أجْمِلي جَزَعَا)، مُقَدِّمًا النداء علىٰ نفسِه، مجردًا منها آخر يُنادِيه، فهذه الصِّيغَةُ (أيتها) تحمِلُ من المعانىٰ ما جعلها معهودةً في السنة البيانية للقرآن، فلم يقل: (يا نفس)، بل قال: (أيتها النفس)، حاذفًا حرْفَ النداءِ؛ دلالَةً علىٰ قُربه مِمَّنْ يُناديه، وأنه لا يناديه إيقاظًا من غفلَةٍ، بل يناديه استئناسًا، وليكون لها الرفيق فيما ألَمَّ بِهَا، والنَّصيحَ لها، فحريٌّ أن تُصغِي إليْه ولا تسترسل فيما هي فيه، فتتلَف، وهو الحريصُ علىٰ بقائها، فليس له إلا هِيَ مِن بعد أنْ فَقَدَ المرثِيَّ.

ثم يَتَوَجَّهُ إليها بالنُّصْحِ: (أجملي جزعًا) لَم يقل لها: (لا تجزعِي)؛ لأنّ جزعَها علَىٰ فضالةَ لا يجوز إنكارهُ عليها، وإنما يطلُبُ منها أنْ تجزَعَ جَزَعًا جميلًا...»[1].

حثَّها علَىٰ ألَّا تُفرطَ في الجزع، فتسترسل في تفاصيله، بل يكون لها منه جملتُهُ منْ كلِّ ضربٍ نصيبٌ، وأن يكون ذلك الجزَعُ المجملُ جميلًا، لا يُتْلِف، ولا يعيقُ عن القيامِ بما يَجِبُ القيام به، ولا يقصّر في حقِّ المرثيّ في الجزع من فراقه. فقولَهُ: (أجملي) يجمَعُ أمرًا بالإجمال، وأمرًا بأن يكونَ هذا الجزعُ المجمَلُ جميلًا، فهي صيغَةٌ من قبيل المشترك الذي يُرادُ مَعْنَيَيْهِ في سِياقٍ واحِدٍ لِتآنسهمَا، والمشتركُ قد يُرادُ منه أكثرُ من معنًىٰ من معانِيه إذا ما كان المرادُ مِمّا يأنسُ السّياق به مفردًا ومجموعًا إلىٰ غيرِه، فَلَيْسَ القولُ بالمنْع مِن إرادةِ معاني المُشتَرَكِ فِي سياقٍ واحدٍ علىٰ إطلاقِهِ، بل ذلك إذا لم يكنْ كلٌّ آنسًا بالآخَرِ فِي السِّياقِ الَّذي له البيانُ.

ولمَّا كان هذا المنصوحُ به فيه ما يَستَثِيرُ النَّفسَ للعرفان بالباعثِ عليه جاء قولُهُ: (إنّ الذي تحذرينَ قدْ وقعَا) استئنافًا بيانيًّا، وبُنِي الاستئنافُ علىٰ هذا النّظم البالغ توكيدًا، علىٰ نحو ما تراه من الإعراب بـ(إن)، وباسم الموصولِ وصِلته، وبـ(قد)، ودخوله علىٰ الفعل الماضي، وفي تكثيفِ هَذِه المؤكِّدَاتِ تقريرٌ للنبأ في النفس، وكأنَّها تُنازِع في تلقّيه، وفي الإعراب باسم الموصُول وصلته بيان أنَّه لم يكن لها ما تحذرُه غيرَه - كما يقول شيخنا - فكلُّ ما في الحياة لا يُخشىٰ فقدُهُ إنْ فُقِدَ فضالةُ، فقد توفَّر ذلك الحذر لفقد فضالة وحْدَه، فهو الأحقُّ بأنْ

---

(١) الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، لشيخنا، ص٢٥٧.

يُحْذَرَ فقدُه، فكلُّ ما عَداه يكونُ في غيرِه عوضًا عنه، أمّا فضالةُ فَفَقْدُه الفَقْدُ، يقُولُ شيخُنا: «ولعلّ هذا مِنْ أهَمِّ مَا تقدَّمَ به هذا المطلع».

وهذا الشَّطْرُ هُو القصيدَةُ، أو - كما تقولُ العَرَبُ - هو بيْتُ القَصِيدِ، أي هو فسطاطُهَا، وبيتُها الّذي يجمَعُها، فقولُ العَرَبِ: (هذا بيْتُ القَصِيد) لبيتٍ في القصيدَةِ أو شطرة إنَّما يعنون أنّ فيه أمَّ المَعنىٰ، وفيه يقطُنُ مقصُودُها، ومعناها الأم، وغرضُها المحوريُّ المركزيّ، هو أمُّ القرىٰ، وهذا منهم التفاتٌ إلىٰ أنَّ في كلِّ بَيانٍ عالٍ (أمَّ القرىٰ)، فلو أنَّ أوسًا سكتَ بعد قولِهِ: (إنّ الذي تحذرين قدْ وقعا) لكَفَىٰ أهْلَ الفَهْمِ، ولكان لك أنْ تَسْتَرسَلَ في التَّفصيلِ من عند نفسك علىٰ قدر علمك وتصَوُّرِك، فتستعذب بذلك، فالقصيدةُ مجموعةٌ في هذه الشطرةِ، ولكنّ أوسًا يأبَىٰ إلا أنْ يُفصِّلَ، لا ليُعلِم بِما يُجهَل، أنّىٰ وكلّ الحياة عليمة بمنْ فضالة؟ إنّما يُفَصِّلُ ليشغلَ هذه النّفس عن الاسترسال في الجزع فتتْلف، يستحضِرُ لها سمعًا ما هِيَ العليمة به قلبًا، فيقول لها:

إنّ الذي جمعَ السّماحةَ والنَّـ ـجْدَةَ والحَزْمَ والقُوَىٰ جُمَعَا

يمضي مُسترسلًا إلىٰ أنْ يبلُغَ الخبَرَ (أودَىٰ)، وما بينهما من تفاصيل المسند إليه، يقول شيخنا عن ذلك:) أودىٰ): أقْصَرُ خَبرٍ عن أطولِ مبتدأ في الشّعر ... وإنّ (أوسًا) كان يمدُّ الكلامَ في المبتدأ، ويَمطلُهُ، حتّىٰ لا ينطق بالخبرِ المفزعِ له.

• • •

التطبيقُ السّابعُ

قَالَ عَنْترة:

وعَلِمْتُ أَن مَنِيَّتي إنْ تَأْتِني ... لا يُنْجِني مِنْهَا الفِرارُ الأَسْرَعُ
فصَبَرْتُ عَارِفَةً لِذَلِكَ حُرَّةً ... تَرْسُو إِذَا نَفْسُ الجَبانِ تَطَلَّعُ

قولُهُ:» تَرْسُو إِذَا نَفْسُ الجَبانِ تَطَلَّعُ» مؤكدٌ قولَهُ: «صَبَرْتُ عَارِفَةً لِذَلِكَ حُرَّةً»، ذلك أنَّ مَنْ صبرَ عَارفًا أنَّ مَنِيَّته إنْ جاءَت فلا مَنجاةَ مِنها هُو حتمًا ثابتٌ فِي اللّقيا، ولا يَفرُّ حين يفرُّ الآخرون.

ومن ثَمَّ فصَلَ قولَهُ: «تَرْسُو إِذَا نَفْسُ الجَبانِ تَطَلَّعُ» عن قولِه: «صَبَرْتُ عَارِفَةً لِذَلِكَ حُرَّةً»، ومقامُ الفخرِ مقتضٍ إبرازَ الخصالِ الَّتي يَتَّسِمُ بها المُفتخرُ، والّتي يفوقُ بها مَن عداه، وهذا ما جعلَه يُسَلِّطُ الضوءَ علىٰ هذا المعنىٰ: (اليقين ورباطة الجأشِ)، فكان له ذلك في الاتصال توكيدًا.

وهذا اليقينُ القائمُ في نَفْسِ عنترَةَ - مَع ما له مِن مَهارةٍ في القتال والمُنازلَةِ - هو الَّذي جَعَل منه عنترَةَ الّذي ينهزمُ خَصْمُه أمامَه بما يقُومُ في قلبِه من الرَّهبِ منه، فقد اجتمعَ لِعنترةَ الأمران: هذا اليقينُ، وكمَالُ الاستعداد والعدَّة، وبغيرِهما لن يكون عِزّ ونصرٌ.

ومَن مَلك كلّ عدّة، وفاقَ مهارَةً ودُربةً، ثمّ خَلا قلبُه من اليقين بأنّ منيَّته إن جاءتْ فلا مَنجاة، فإنّه لنْ ينتفع باستعدادِه ومهارتِه وعدّتِه؛ لأنَّ نفسَه سَتُهْزَمُ من قبل أن يُقدِمَ علىٰ المنازلة، فأوّل ما يَهزِمُ المقاتلَ خَورُه وخواءُ نفسِه مِن اليقين

أنَّ لمنيته موعدًا زمانًا ومكانًا وكيفيةً، وأنّه لا سَبيل إلىٰ تغييرِ ذلك، أو الفرارِ منه.

وقد حرَصَ القرآنُ علىٰ أنْ يَغرِسَ هذا اليقينَ في قلوبِ المسلمين، حتَّىٰ لا تكونَ حركتُهم في هذه الحياةِ يتغوّلها الرّهبُ مِن العُقبَىٰ، والحُسبان بأنَّ في المُبالغة في الحذرِ منجاة، ومَن امتلأَ قلبُه بهذا اليَقينِ وضَعفتْ عدّته واستعدادُه ومهارتُه، فَإنّهُ الخلاءُ من فضيلةِ الأقدامِ ومثوبتِهِ معًا، وذلك ما لا يليقُ بعاقلٍ، فوَجب الجمعُ بيْن الأمرين معًا.

• • •

التّطبيقُ الثّامنُ

وممَّا جاء الفصلُ فيه لكمال الاتصال تبيينًا قَولُ الفرزدق:

أَخَافُ وَرَاءَ الْقَبْرِ إنْ لَمْ يُعَافِنِي   أَشَدَّ مِنَ الْمَوْتِ التِهَابًا وأضيقا
إذا جاءني يوم القيامة قائد   عنيف وسواق يسوق الفرزدقا
لَقَدْ خَابَ مِنْ أَوْلاَدِ آدَمَ مَنْ مَشَىٰ   إلىٰ النَّارِ مَغْلُولَ الْقِلاَدَةِ أَزْرَقَا
يُقَادُ إلَىٰ نَارِ الْجَحِيمِ مُسَرْبَلًا   سَرَابيلَ قَطْرَانٍ لِبَاسًا مُحَرِّقا
إذا شربُوا فيها الصديد رأيتهم   يذوبون من حرّ الجحيم تحرّقا

قوله: (إذا جاءني يوم القيامة قائدٌ)، وما بعدَه تفسيرٌ لما في البيت الأول؛ ومن ثَمَّ فُصِلَ عنه؛ لأنّه ليس شيئًا غيرَه، إلاَّ أنّ ذاك مجملٌ، وهذا مفصّل.

وأنت إذا ما نظرتَ في البيْت الأول:

أَخَافُ وَرَاءَ الْقَبْرِ إنْ لَمْ يُعَافِنِي   أَشَدَّ مِنَ الْمَوْتِ التِهَابًا وأضيقا

رأيتَ أنَّ الفرزدَقَ استهلَّه بقولِهِ: (أخاف)، وهنا يشرئبُ القلبُ ليُبْصِرَ ذلك الذي يَخافُهُ «الفرزدقُ»، وهو الذي طالما افتخَرَ بآبائه، وشجاعته، فإذا ما جاء قوله: (وراء القبر) ازداد القلبُ تشوقًا، فإذا به يُريك أنَّه لا محالَةَ واقعٌ في قبضَةِ الخوف إلا أنْ يُعَافَىٰ، ولم يذكر لك الفاعلَ؛ إيماءً إلىٰ أنَّ ذلك ليس له إلا فاعلٌ واحدٌ، لا يحتاجُ عاقلٌ إلىٰ أنْ يصرّح باسمه ليعلم أنَّ طيَّ ذكرِه أدلُّ عليهِ.

يصور «الفرزدقُ» لك ما يعمل في قلبه من بعد أن كبرَت سنّه، وثاب إليه رشدُه، أدرك أن القبرَ، وإن كان هو الّذي تنخلع من رؤيته القلوب، فإنّ الذي

وراءه لأشد التهابًا وضيقًا، وإذا ما كان القبرُ علىٰ ضيقِه هو المتسِعَ بالنسبة لما وراءه، فكيف يكون ما وراءه؟

هنا يهتبلُ «الفرزدقُ» الفرصَةَ، فيصوّرُ لك ما وراء هذا الذي هو أشدُّ وطأةً من القبرِ، ويمضِي في التَّبيين والتَّصوير، وأنت تتبصَّر تبيينَه وتصويرَه، تدرِك ما يعتملُ في صدر «الفرزدق».

يصَوّر لك نفسَه وهو مسوقٌ مدفوعٌ في قفاه، ولا حولَ له ولا قوة، وأيّ قائدٍ وسائق إنَّه لعنيفٌ، وما هو بعنف يُطاق، إنّه عنف ملَكٍ، لَو لَم يكنْ من العقوبةِ إلاَّ سوقُه ودفعُه، لك فَىٰ العاقلَ أن يفرَّ ممَّا يوجبُ له ذلك الدَّفع والسوق، بدَأَ بأقلِّها، مع أنَّها وحدَها كافية، ثمَّ يمضِي بك ليبيّن لك أنَّ هذا القياد والسّوق والدَّفع إنّما يكونُ المقودُ مغلولًا، والغَل والتكبيل وحدَه كافٍ، وإنْ لَم يكنْ قيادٌ وسوقٌ ودفعٌ، فكيف، وقد اجتمعا؟ وفي اصطفائه (القلادة) من تصوير المهانة ما فيه، فما هو بعذابٍ أليمٍ رهيبٍ فحسبُ، بلْ هو العذابُ الأليمُ المُهين، فإذا ظنَّ ظانٌّ أنّه بجلَدِه وفتوته يَقْتَدِرُ علىٰ أنْ يَصْبِرَ علىٰ الألم – وإنْ عظمَ – فأنَّىٰ له إنْ كان فتيّ النَّفسِ والجسمِ أن يُطيق العذاب المُهين؟

ويمضي الفرزدقُ يُصَوِّرُ لك هَوْلَ ما يكون من بعدِ القبر، ومثل هذا الشعر هو الجدير بأنْ يقيمه المرءُ في وعيه، ويَسْحضرَه، ويتذوقه، فإنّ فِيه ممَّا ينفع النّضيرَ الوفير.

• • •

التطبيقُ التاسع

ومن هذا الباب ما تغنّىٰ به سيِّدُنا حسّانُ بنُ ثابتٍ - رضِيَ اللهُ عَنْه:

أصُون عِرضِي بِمَالي لا أدنّسُه   لا بَارَك اللهُ بعدَ الْعِرضِ فِي المَالِ

أحتال لِلْمَالِ إنْ أودَىٰ فأكسبُه   وَلستُ للعرضِ إن أودَىٰ بِمحتالِ

قوله: (لا أدنّسه) توكيدٌ لقولهِ: (أصُون عرضِي بمالِي)، وجعلَ الشّاعرُ صيانَةَ المال، واتِّقاءَ بذلِهِ في المكرماتِ مِمّا يخدشُ العرضَ، وحسنَ الذّكر، وعبَّر عن هذا بالتَّدنِيس، وهي كَلِمَةٌ جدّ بالغة في التَّنفيرِ؛ لما فيها من دَلالَةٍ عَلَىٰ أنّ هذِه المَعرَّةَ لا تَكادُ تُنسَىٰ، ولا تكادُ يُتطَهَّرُ مِنها، فتبقَىٰ سُبَّةَ الدَّهرِ، يَتوارَثُها خلفٌ عَن سَلفٍ.

وقوله: (لا بارك الله... إلخ) يحملُ توكيدًا لِمَا قَبلَه، وهو أسلوبُ دُعاءٍ، يَفيضُ بتصويرٍ عظيمٍ؛ نفورِه مِمَّا يُمكن أنْ يَخدِشَ عِرضَه، فهذا الدُّعاءُ يجعَلُ المال الَّذِي لا يصُونُ العِرْضَ في صُورةِ العَدُوِّ الجديرِ بالتَّصدِّي له، وذلك من نصِيح العقلِ، وكريمِ الخُلُقِ.

وقوله: (أحتال للمال) يحملُ تأنيسًا لمن يخشَىٰ إنفاقَ مالِهِ صِيانةً لعرضِه، يريه أنَّ المالَ ممَّا يستحصل من بعدِ فقدٍ، والعرض لا سبيل إلىٰ استحصَالِه إن خُدِشَ، فكيفَ إن فُقِدَ؟ ولذا لم يعطف قوله: (احتال...) علىٰ ما قبله، ففيهِ بيانٌ لبعضِ العلَّةِ التي تحمِلُ علىٰ وقايَةِ العرضِ بالمالِ.

وهذان البيتان، وإنْ وهنَتْ شاعرِيَّتُهما فقد استحكمت الحكمَةُ فِيهما؛ ممَّا يجعلُ لهما نَصيبًا مِن أنْ يَقومَا مقامَ الصَّانعِ لشَخصيَّةِ المسلم، فاستحقَّا أن يكونا حاضِرَيْنِ في الوعي، جارِيَيْنِ علىٰ الألسنةِ، فَعَلِيُّ الحِكْمَةِ فِيهِمَا جَبرَ مَا وَهَنَ مِن شَاعِرِيَّتِهِمَا.

• • •

التطبيقُ العاشر

ومن هذا قول بشار بن برد:

مـا مـنْ جميلـةِ معشَـرٍ إلا لَها ... أخـتٌّ تُعـدُّ، وما لَهـا أخَواتُ

لا الشمسُ تقشِرها، ولا قمرُ الدّجا ... وهمـا اللَّـذان لهمـا المثلاتُ

وقوله: (لا الشمس تقشِرها...) توكيدٌ لقوله: (وما لها أخوات)، أيْ: وليس لها في الحسن مثيلٌ، وجاء بالمؤكّد تقريرًا لأنّ انفرادَها بالحسن ليس أمرًا قائمًا في عالم النِّساء فحسبُ، بل هو في الخلائق؛ ولا سيَّما ما جعل مضرب مثلٍ فِي وضاءتِه وحسنه؛ (الشّمس والقمر)، وهذا من بَشَّارٍ إبلاغٌ في تقريرِ مَعناه، وحِياطته منْ أنْ يَحُومَ حولَه ما يُمكن أن يخدشَهُ - ولو علىٰ سبيل التّوهُّمِ - وهذا وإن كان فيه من قِرَىٰ السّامع ما فيه، فهو - أيضًا - من توفِّيه المعنىٰ حَقَّهُ من الرِّعايَةِ والحِيَاطَةِ، فهو وليدُ عَقْلِه ونَفْسِهِ.

• • •

التطبيق الحادي عشر

ومن هذا قولُ الشَّاعِرِ:

إذا أريــت النــاسَ أنَّــك نعجــةٌ	أكلتك في هذي الحياةِ ذئابُها
كنْ راسِخًا فِي الحقِّ، لا تك ليّنًا	مهما عَدَتْ يومًا عَلَيْكَ كلابُها

البيتُ الثّانِي - كَما لا يخفَىٰ - يُقَرِّرُ معنَىٰ الأوّل، فهو نازِلٌ منه منزِلَةَ المؤكِّد لمضمونِه، وهذا من عنايَةِ الشَّاعر بتوطِينِه في النّفوسِ؛ لما له من عظيمِ الأثَرِ الحَميدِ فِي منْ قَبِلَه، وأَقْبَلَ عليه، فاتَّخذَه مِنهَاجَ حياةٍ، فليس في الحياةِ مَذلَّةٌ إلا آتِيَةٌ مِن قِبَلِ الاستنعاج، فإنْ رَضِيَ أحدٌ أن يُسْتَنْعَجَ، فلن يلقَىٰ في حياشه إلا ذلًّا وهَوانًا. وهذا ما أنت تراه في قومك: استنْعَجُوا، فقُطِعَتْ رِقَابٌ كان يُظَنُّ أنَّها ستكون في القومِ عَلِيّة، وخُرِصَتْ أَلْسِنَةٌ طالما صدَّعَتْنا بما تَتَصايَحُ به من التَّمسُّكِ بالحريَّةِ، والعزَّةِ والكرامة، والعدالَةِ الاجتماعِيَّةِ، وهم اليوم أذلُّ من الوَتد!

وقولُهُ: (لا تكُ ليّنًا) توكِيدٌ لِقَولِهِ: (كنْ راسِخًا فِي الحقِّ)، وهكذا تتَوَافَدُ عواملُ توطيدِ المعنىٰ، وتوطينه في النفوس؛ فيملك عليْها أقطارها، فيكون مليكها، فلا يقودها إلا إلىٰ ما فيه عزّها.

ونحنُ أحوَجُ ما نكونُ إلىٰ أَنْ يكونَ هذانِ البيتان حاضِرَيْنِ في أسمَاعِنا وأفئدتنا، مُهَيْمِنًا أثرُهُما علىٰ سلوكِنا.



تدريبات

علىٰ الفصل والوصل والجملة الحالية

(أولًا): استقصِ ما اشتَمَلَتْ علَيْه سورةُ (الزُّمَر) من أسلوبِ الفصل والوصل، والجملة الحالية، محلِّلًا نظْمَ كلٍّ، وما اشتمَلَ عليهِ كلُّ صورة من المعاني الإحسانيَّةِ المتولَّدَةِ من الفصل والوصل، ومن أحوال الجملة الحالية تركيبًا، وارتباطا بالواو، أو الضمير، أو بهما معًا.

(ثانيًا): استقصِ ما اشتملت عَلَيْهِ معلقةُ (النابغة الذبياني) من صور الفصل والوصل، والجمل الحالية، محلِّلًا نظْمَ كلٍّ، وما اشتملت عليه من المعنىٰ الشعريِّ.

(ثالثًا): اكتب مقالًا في موضوعِ: (كونوا عباد الله إخوانًا) مشتملًا علىٰ كل صور الفصل والوصل، والجمل الحالية مرتبطَةً بالواو، أو الضمير، أو بهما معًا، محلِّلًا نظْمَ كلٍّ، وما اشتملت عليه من المعاني.





البَابُ الثَّامِنُ

الْقَوْلُ فِي الْإِيجَازِ وَالْإِطْنَابِ وَالْمُسَاوَاةِ(١)

تَعْرِيفُ السَّكَّاكِيِّ لِلْإِيجَازِ وَالْإِطْنَابِ وَالْمُسَاوَاةِ:

قَالَ السَّكَّاكِيُّ:

أَمَّا الْإِيجَازُ وَالْإِطْنَابُ؛ فَلِكَوْنِهِمَا نِسْبِيَّيْنِ(٢)، لاَ يَتَيَسَّرُ الْكَلاَمُ فِيهِمَا إِلاَّ بِتَرْكِ التَّحْقِيقِ(٣)، وَالْبِنَاءِ عَلَىٰ شَيْءٍ عُرْفِيٍّ، مِثْلُ جَعْلِ كَلاَمِ الْأَوْسَاطِ عَلَىٰ مَجْرَىٰ مُتَعَارَفِهِمْ فِي التَّأْدِيَةِ لِلْمَعَانِي فِيمَا بَيْنَهُمْ - وَلَا بُدَّ مِنَ الِاعْتِرَافِ بِذَلِكَ - مَقِيسًا عَلَيْهِ، وَلِنُسَمِّهِ «مُتَعَارَفَ الْأَوْسَاطِ»(٤)، وَأَنَّهُ فِي بَابِ الْبَلاَغَةِ لاَ يُحْمَدُ مِنْهُمْ وَلاَ يُذَمُّ(٥).

---

(١) هَذَا هُوَ الْبَابُ الثَّامِنُ مِنْ أَبْوَابِ عِلْمِ الْمَعَانِي، وَهُوَ بَابٌ عَظِيمٌ حَتَّىٰ قَالَت الْعَرَبُ: الْبَلاَغَةُ هِيَ: الْإِيجَازُ وَالْإِطْنَابُ.

(٢) كَوْنُ الْإِيجَازِ وَالإِطْنَابِ نِسْبِيَّيْنِ؛ أَيْ إِضَافِيَّيْن، أنَّ الحُكْمَ عَلَىٰ كَلاَمٍ بِأَحَدِهِمَا إِنَّمَا يُنْظَرُ فِيهِ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ غَيْرِه، هَذَا يَتَحَقَّقُ إِذَا فُصِلَ الْكَلاَمُ عَنْ مَقَامِهِ الْخَاصِّ بِهِ الَّذِي يَقْتَضِي الإِيجَازَ فِي مَوْضِعٍ وَالإِطْنَابَ فِي آخَرَ، فَلَا يَتِمُّ التَّعْرِيفُ إِلَّا بِإِضَافَةِ كُلٍّ مِنْهُما إِلَىٰ شَيْءٍ آخَرَ.

(٣) يَعْنِي بِالتَّحْقِيقِ: التَّعْيِينَ؛ أَيْ: بِتَرْكِ القَطْعِ بِالحُكْمِ بِأَحَدِهِمَا عَلَىٰ نَظْمٍ أَوْ نَصٍّ، وَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُ يُمْكِنُ الْحُكْمُ فِي ضَوْءِ الْمَقَامِ الْوَارِدِ فِيهِ.

(٤) (مُتَعَارَفُ الأَوْسَاطِ) هُوَ الْكَلاَمُ الَّذِي لاَ يُحْمَدُ وَلاَ يُذَمُّ، وَالإِيجَازُ: مَا قَلَّ عَنْهُ، وَالإِطْنَابُ: مَا زَادَ عَلَيْهِ لِفَائِدَةٍ.

(٥) كَوْنُ مُتَعَارَفِ الأَوْسَاطِ مِعْيَارًا لِلإِيجَازِ وَالإِطْنَابِ وَالْمُسَاوَاةِ بَعِيدٌ لَمْ يَرْتَضِهِ لَهُ الْقَوْمُ، وَحُجَّتُهُمْ: أنه لَا بَأْسَ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ عُرْفٍ، وَلَكِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عُرْفَ الْعَرَبِ الْفُصَحَاءِ الَّذِينَ يُنْظَرُ إِلَىٰ كَلامِهِمْ الَّذِي هُوَ مِيزَانٌ فِي الْحُكْمِ بالمُطَابَقَةِ أَوْ عَدَمِهَا، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ الحُكْمِ عَلَىٰ النُّظُومِ والنُّصُوصِ بِالبَلاغَةِ، أَمَّا غَيْرُ هَؤُلاءِ الفُصَحَاءِ مِنْ مُتَعَارَفِ الأَوْسَاطِ فَلا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَجْعَلَ كَلامَهُمْ مِيزانًا فِي الحُكمِ بيْنَ الأَقْوالِ، لاسِيَّمَا أَنَّ أَبَا يَعْقُوبَ قَدْ قَضىٰ عَلَىٰ كَلامِهِمْ

فَالْإِيجَازُ: هُوَ أَدَاءُ الْمَقْصُودِ مِنْ الْكَلَامِ بِأَقَلَّ مِنْ عِبَارَاتِ مُتَعَارَفِ الْأَوْسَاطِ.

وَالْإِطْنَابُ: هُوَ أَدَاؤُهُ بِأَكْثَرَ مِنْ عِبَارَاتِهِ؛ سَوَاءٌ كَانَتْ الْقِلَّةُ أَوْ الْكَثْرَةُ رَاجِعَةً إِلَىٰ الْجُمَلِ أَوْ إِلَىٰ غَيْرِ الْجُمَلِ.

ثُمَّ قَالَ[1]: «الاِخْتِصَارُ[2] لِكَوْنِهِ مِنَ الْأُمُورِ النِّسْبِيَّةِ يُرْجَعُ فِي بَيَانِ دَعْوَاهُ[3] إِلَىٰ مَا سَبَقَ تَارَةً[4]، وَإِلَىٰ كَوْنِ الْمَقَامِ[5] خَلِيقًا بِأَبْسَطَ مِمَّا ذُكِرَ أُخْرَىٰ»[6].

مُنَاقَشَةُ الْخَطِيبِ لِرَأْيِ السَّكَّاكِيِّ:

وَفِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ كَوْنَ الشَّيْءِ نِسْبِيًّا لَا يَقْتَضِي أَلَّا يَتَيَسَّرَ الْكَلَامُ فِيهِ إِلَّا بِتَرْكِ التَّحْقِيقِ وَالْبِنَاءِ عَلَىٰ شَيْءٍ عُرْفِيٍّ، ثُمَّ الْبِنَاءُ عَلَىٰ مُتَعَارَفِ الْأَوْسَاطِ وَالْبَسْطِ الَّذِي يَكُونُ الْمَقْصُودُ جَدِيرًا بِهِ رَدٌّ إِلَىٰ جَهَالَةٍ[7]، فَكَيْفَ يَصْلُحُ لِلتَّعْرِيفِ؟![8].

بِأَنَّهُ لَا يُحْمَدُ مِنْهُمْ وَلَا يُذَمُّ، وَظَنَّ أَنَّ هَذَا هُوَ الكَلَامُ الدَّارِجُ الدَّائِرُ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ النَّاسِ فِي قَضَاءِ مَقَاصِدِهِمْ الْمُتَنَوِّعَةِ.

(١) أَيْ: السَّكَّاكِيُّ.

(٢) أَيْ: الْإِيجَازُ.

(٣) أَيْ يُنْظَرُ فِي تَعْرِيفِهِ.

(٤) أَيْ: إِلَىٰ كَوْنِ عِبَارَةِ الْمُتَعَارَفِ أَكْثَرَ مِنْهُ؛ أَيْ: أَكْثَرَ بَسْطًا مِنَ الْكَلَامِ الْمُوجَزِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْمُتَكَلِّمُ سَوَاءٌ كَانَ مَا ذَكَرَهُ الْمُتَكَلِّمُ أَقَلَّ مِنْ عِبَارَةِ الْمُتَعَارَفِ، أَوْ أَكْثَرَ مِنْهَا، أَوْ مُسَاوِيًا لَهَا.

(٥) أَيْ إِلَىٰ اعْتِبَارِ كَوْنِ الْمَقَامِ الَّذِي أَوْرَدَ فِيهِ الْكَلَامَ الْمُوجَزَ.

(٦) أَيْ أَكْثَرُ بَسْطًا مِنَ الْكَلَامِ الْمُوجَزِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْمُتَكَلِّمُ سَوَاءٌ كَانَ مَا ذَكَرَهُ الْمُتَكَلِّمُ أَقَلَّ مِنْ عِبَارَةِ الْمُتَعَارَفِ، أَوْ أَكْثَرَ مِنْهَا، أَوْ مُسَاوِيًا لَهَا.

(٧) أَيْ: رَدٌّ إِلَىٰ مَجْهُولٍ؛ لِصُعُوبَةِ ضَبْطِ مُتَعَارَفِ الْأَوْسَاطِ.

(٨) وَمَعْنَىٰ قَوْلِهِ: (لِأَنَّ كَوْنَ الشَّيءَ نِسْبِيًّا... إلخ) أَنَّ كَوْنَ الشَّيءِ نِسْبِيًّا لاَ يَلْزَمُ مِنْهُ عُسْرُ الْمَعْنَىٰ.

رَأْيُ الْخَطِيب:

وَالْأَقْرَبُ[١] أَنْ يُقَالَ: الْمَقْبُولُ مِنْ طُرُقِ التَّعْبِيرِ عَنِ الْمَعْنَىٰ هُوَ تَأْدِيَةُ الْأَصْلِ الْمُرَادِ[٢] بِلَفْظٍ مُسَاوٍ لَهُ، أَوْ نَاقِصٍ عَنْهُ وَافٍ، أَوْ زَائِدٍ عَلَيْهِ لِفَائِدَةٍ[٣].

وَالْمُرَادُ بِالْمُسَاوَاةِ: أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ بِمِقْدَارِ أَصْلِ الْمُرَادِ؛ لَا نَاقِصًا عَنْهُ بِحَذْفٍ أَوْ غَيْرِهِ كَمَا سَيَأْتِي، وَلَا زَائِدًا عَلَيْهِ بِنَحْوِ تَكْرِيرٍ أَوْ تَتْمِيمٍ أَوْ اعْتِرَاضٍ، كَمَا سَيَأْتِي.

الْإِخْلَالُ:

الْمُرَادُ بِالْإِخْلَالِ: وَقَوْلُنَا: «وَافٍ» احْتِرَازٌ عَنِ الْإِخْلَالِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ قَاصِرًا عَنْ أَدَاءِ الْمَعْنَىٰ؛ كَقَوْلِ عُرْوَةَ بْنِ الْوَرْدِ مِنَ الطَّوِيلِ:

عَجِبْتُ لَهُمْ إِذْ يَقْتُلُونَ نُفُوسَهُمْ ... وَمَقْتَلُهُمْ عِنْدَ الْوَغَىٰ كَانَ أَعْذَرَا[٤]

---

(١) أَيْ: الأَقْرَبُ إِلَىٰ الصَّوَابِ، وَالْمُرَادُ: هُوَ الصَّوَابُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨].

(٢) أَصْلُ الْمُرَادِ: هُوَ الْمَعْنَىٰ الأَوَّلُ الَّذِي يَقْصِدُ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ إِفَادَتَهُ لِلْمُخَاطَبِ، وَلاَ يَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ الْعِبَارَاتِ وَاعْتِبَارِ الْخُصُوصِيَّاتِ.

(٣) وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الْمُسَاوَاةَ هِيَ الْمِعْيَارُ لِلإِيجَازِ وَالإِطْنَابِ، وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ السَّكَّاكِيَّ يَجْعَلُ الْمُسَاوَاةَ غَيْرَ مَقْبُولَةٍ فِي الْبَلَاغَةِ، وَأَصْلُ الْمُرَادِ أَوْ الْمُسَاوَاةُ: أَنْ يَأْتِيَ الْمَعْنَىٰ بِلَفْظٍ مُسَاوٍ لَهُ، وَهُوَ مِعْيَارُ الْخَطِيبِ فِي الْحُكْمِ عَلَىٰ الْكَلام بالإِيجَازِ أَوْ الإِطْنَابِ، فَمَا قَلَّتْ أَلْفَاظُهُ عَنِ الْمُسَاوَاةِ هُوَ الإِيجَازُ بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ وَافِيًا بِأَدَاءِ الْمَعْنَىٰ، وَمَا زَادَتْ أَلْفَاظُهُ عَنِ الْمُسَاوَاةِ هُوَ الإِطْنَابُ بِشَرْطِ أَنْ تَكُونَ الزِّيَادَةُ لِفَائِدَةٍ.

(٤) عُرْوَةُ بْنُ الْوَرْدِ شاعرٌ جَاهِلِيٌّ صُعْلُوكٌ فَاتِكٌ، وَقَدْ تَعَجَّبَ مِمَّنْ يَقْتُلُ نَفْسَهُ عَلَىٰ فِرَاشِهِ جُبْنًا عَنِ الْقِتَالِ، وَلَوْ تَحَلَّوْا بَالشَّجَاعَةِ وَقُتِلُوا عِنْدَ الْوَغَىٰ؛ أَيْ: الْحَرْبِ، لَكَانَ أَعْذَرَ لَهُمْ مُرُوءَةً وَأَخْلَاقًا، وَالتَّفْضِيلُ هُنَا لَيْسَ علَىٰ بَابِهِ؛ إِذْ لَا وَجْهَ للمُوَازَنَةِ بَيْنَ الصَّنِيعَيْنِ، والشاهدُ فِي أَنَّ الإِيجَازَ هُنَا

فَإِنَّهُ أَرَادَ «إِذْ يَقْتُلُونَ نُفُوسَهُمْ فِي السِّلْمِ»، وَقَوْلِ الْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ مِنَ الرَّجَزِ:

وَالْعَيْشُ خَيْرٌ فِي ظِلَا   لِ النَّوْكِ مِمَّنْ عَاشَ كَدًّا[1]

فَإِنَّهُ أَرَادَ: (الْعَيْشَ النَّاعِمُ فِي ظِلَالِ النَّوْكِ خَيْرٌ مِنَ الْعَيْشِ الشَّاقِّ فِي ظِلَالِ الْعَقْلِ)؛ فَأَخَلَّ كَمَا تَرَىٰ.

التَّطْوِيلُ وَالْحَشْو:

وَقَوْلُنَا: «لِفَائِدَةٍ» احْتِرَازٌ مِنْ شَيْئَيْنِ: أَحَدُهُمَا: التَّطْوِيلُ، وَهُوَ أَلَّا يَتَعَيَّنَ الزَّائِدُ فِي الْكَلَامِ؛ كَقَوْلِهِ مِنَ الْوَافِرِ:

وَأَلْفَىٰ قَوْلَهَا كَذِبًا وَمَيْنًا[2]

قَدْ أَخَلَّ بِالْمَعْنَىٰ الَّذِي قَصَدَهُ الشَّاعِرُ لَمَّا حَذَفَ الْقَيْدَ الأَهَمَّ مِنْ تَعْبِيرِ: يَقْتُلُونَ نُفُوسَهُمْ «فِي السِّلْمِ»، وَلَا يُفْهَمُ مَقْصُودُ الشَّاعِرِ بِدُونِهِ.

(١) الْحَارِثُ بْنُ حِلِّزَةَ شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ مِنْ أَصْحَابِ الْمُعَلَّقَاتِ يَقْصِدُ هُنَا إِلَىٰ تَفْضِيلِ الْعَيْشِ النَّاعِمِ فِي ظِلَالِ الْحُمْقِ وِالْجَهْلِ عَلَىٰ الْعَيْشِ الشَّاقِّ فِي ظِلَالِ الْعَقْلِ وَالتَّفْكِيرِ فَحَذَفَ مِنْ تَعْبِيرِهِ مَا أَخَلَّ بِالوَفَاءِ بِالْمَقْصِدِ.

(٢) عَجُزُ بَيْتٍ لِعَدِيِّ بْنِ الأَبْرَشِ، وَصَدْرُهُ قَوْلُهُ: وَقَدَّدَتِ الأَدِيمَ لِرَاهِشَيْهِ، يَصِفُ حَالَ «الزَّبَّاءِ» مَلِكَةِ تَدْمُرَ لَمَّا فَاجَأَهَا جُزَيْمَةُ بْنُ الأَبْرَشِ عَلَىٰ أَبْوَابِ حِصْنِهَا، وقَدَّدَتْ: قَطَعَتْ. الأَدِيمَ: الْجِلْدَ. الرَّاهِشَانِ: عِرْقَانِ فِي بَاطِنِ الذِّرَاعَيْنِ؛ أَيْ: قَطَعَتْ الْجِلْدَ إِلَىٰ أَنْ وَصَلَ الْقَطْعُ لِلرَّاهِشَيْنِ. وَالضَّمِيرُ فِي «رَاهِشَيهِ» وَفِي «أَلْفَىٰ» لِجَذِيمَةِ - فَتْحِ الْجِيمِ مُكَبَّرًا وَبِضَمِّهَا مُصَغَّرًا - ابْنُ الأَبْرَشِ مَلِكُ الْحِمْيَرِ، وَفِي «قَدَّدَتِ» وَفِي «قَوْلِهَا» لِلزَّبَّاءِ مَلِكَةِ (تَدْمُرَ) وَقِصَّتُهُمَا مَعْرُوفَةٌ. وَالشَّاهِدُ عِنْدَ الْخَطِيبِ أَنَّ الكَذِبَ وَالْمَيْنَ وَاحِدٌ فَهُوَ نَمُوذَجٌ عَلَىٰ التَّطْوِيلِ مِنْ غَيْرِ تَعْيِينِ الزَّائِدِ فِي الْكَلَامِ. وَقَدْ رُوِيَ: (كَذِبًا مُبِينًا) وَعَلَيْهِ فَلَا يَكُونُ فِيهِ تَطْوِيلٌ. وَقِيلَ: إِنَّهُ لَا تَطْوِيلَ فِي الرِّوَايَةِ الأُولَىٰ؛ لِأَنَّ الْقَصْدَ مِنْهُ التَّأْكِيدُ، وَالْمَقَامُ يَقْتَضِيهِ. يُنْظَرُ: بغية الإيضاح، ص ٣٢٧.

فَإِنَّ الْكَذِبَ وَالْمَيْنَ وَاحِدٌ[1].

وَثَانِيهِمَا: مَا يَشْتَمِلُ عَلَىٰ الْحَشْوِ؛ وَالْحَشْوُ مَا يَتَعَيَّنُ أَنَّهُ الزَّائِدُ؛ وَهُوَ ضَرْبَانِ:

أَحَدُهُمَا: مَا يُفْسِدُ الْمَعْنَىٰ؛ كَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ مِنَ الطَّوِيلِ:

وَلَا فَضْلَ فِيهَا لِلشَّجَاعَةِ والنَّدىٰ   وَصَبْرِ الْفَتَىٰ لَوْلَا لِقَاءُ شَعُوبِ

فَإِنَّ لَفْظَ: «النَّدَىٰ» فِيهِ حَشْوٌ يُفْسِدُ الْمَعْنَىٰ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَىٰ: أَنَّهُ لَا فَضْلَ فِي الدُّنْيَا لِلشَّجَاعَةِ وَالصَّبْرِ وَالنَّدَىٰ لَوْلَا الْمَوْتُ، وَهَذَا الْحُكْمُ صَحِيحٌ فِي الشَّجَاعَةِ دُونَ النَّدَىٰ؛ لِأَنَّ الشُّجَاعَ لَوْ عَلِمَ أَنَّهُ يُخَلَّدُ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَخْشَ الْهَلَاكَ فِي الْإِقْدَامِ؛ فَلَمْ يَكُنْ لِشَجَاعَتِهِ فَضْلٌ، بِخِلَافِ الْبَاذِلِ مَالَهُ، فَإِنَّهُ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ يَمُوتُ هَانَ عَلَيْهِ بَذْلُهُ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ إِذَا عُوتِبَ فِيهِ: كَيْفَ لَا أَبْذُلُ مَا لَا أَبْقَىٰ لَهُ؟ أَنَّىٰ أَثِقُ بِالتَّمَتُّعِ بِهَذَا الْمَالِ؟! وَعَلَيْهِ قَوْلُ طَرَفَةَ مِنَ الْبَسِيطِ:

فَإِنْ كُنْتَ لَا تَسْطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي   فَذَرْنِي أُبَادِرْهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي

وَقَوْلُ مِهْيَارٍ مِنَ الْبَسِيطِ:

فَكُلْ إِنْ أَكَلْتَ وَأَطْعِمْ أَخَاكَ   فَلَا الزَّادُ يَبْقَىٰ وَلَا الْآكِلُ

فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ يُخَلَّدُ، ثُمَّ جَادَ بِمَالِهِ كَانَ جُودُهُ أَفْضَلَ، فَالشَّجَاعَةُ لَوْلَا الْمَوْتُ لَمْ تُحْمَدْ، وَالنَّدَىٰ بِالضِّدِّ.

---

(١) وَلاَ يَتَعَيَّنُ أَحَدُهُمَا لِلزِّيَادَةِ، وَلاَ يَترَجَّحُ، وَيَرَىٰ النُّحَاةُ أَنَّ الشَّيءَ يُعْطَفُ عَلَىٰ نَفْسِهِ تَأْكِيدًا، وَالتَّأْكِيدُ فَائِدَةٌ مُعْتَبَرَةٌ فِي الْإِطْنَابِ، وَعَلَيهِ فَلَا عَيْبَ.

وَأُجِيبَ عَنْهُ: بِأَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّدَىٰ فِي الْبَيْتِ بَذْلُ النَّفْسِ[1] لاَ بَذْلُ الْمَالِ؛ كَمَا قَالَ مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ مِنَ الْبَسِيطِ[2]:

يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِنْ ضَنَّ الْجَوَادُ بِهَا وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَىٰ غَايَةِ الْجُودِ

ورُدَّ بِأَنَّ لَفْظَ «النَّدَىٰ» لَا يَكَادُ يُسْتَعْمَلُ فِي بَذْلِ النَّفْسِ، وَإِنْ اسْتُعْمِلَ فَعَلَىٰ وَجْهِ الْإِضَافَةِ، فَأَمَّا مُطْلَقًا: فَلَا يُفِيدُ إِلَّا بَذْلَ الْمَالِ.

وَالثَّانِي: مَا لَا يُفْسِدُ الْمَعْنَىٰ؛ كَقَوْلِهِ مِنَ الْوَافِرِ:

ذَكَـرْتُ أَخِـي فَعَاوَدَنِـي صُدَاعُ الـرَّأْسِ وَالْوَصَبُ

فَإِنَّ لَفْظَ «الرَّأْس» فِيهِ حَشْوٌ لَا فَائِدَةَ فِيهِ؛ لِأَنَّ الصُّدَاعَ لَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي الرَّأْسِ، وَلَيْسَ بِمُفْسِدٍ لِلْمَعْنَىٰ[3]. وَقَوْلِ زُهَيْرٍ مِنَ الطَّوِيلِ:

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِي

فَإِنَّ قَوْلَهُ: «قَبْلَهُ» مُسْتَغْنًىٰ عَنْهُ، غَيْرُ مُفْسِدٍ، وَقَوْلِ أَبِي عَدِيٍّ مِنَ الطَّوِيلِ:

نَحْنُ الرُّءُوسُ وَمَا الرُّءُوسُ إِذَا سَمَتْ سَمَتْ فِي الْمَجْدِ لِلْأَقْوَامِ كَالْأَذْنَابِ

فَإِنَّ قَوْلَهُ: «لِلْأَقْوَامِ» حَشْوٌ لَا فَائِدَةَ فِيهِ، مَعَ أَنَّهُ غَيْرُ مُفْسِدٍ.

مَا يُتَوَهَّمُ أَنَّهُ حَشْوٌ وَلَيْسَ مِنْهُ:

---

(١) وَعَلَىٰ هَذَا التَّفْسِيرِ لاَ يَكُونُ فِي بَيْتِ الْمُتَنَبِّي حَشْوٌ حَسْبَ رَأْيِ مَنْ دَافَعَ عَنْهُ.

(٢) يَمْدَحُ دَاوُدَ بْنَ حَاتِمٍ الْمُهَلَّبِيّ.

(٣) وَأَخَذَ عَلَيْهِ أَيْضًا: أَنَّ الذَّاكِرَ لِمَا فَاتَ مِنَ مَحْبُوبٍ يُوصَفُ بِأَلَمِ الْقَلْبِ وَاحْتِرَاقِهِ لاَ بِالصُّدَاعِ. يُنْظَر: بُغْيَةُ الْإِيضَاحِ، ص ٣٢٨.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ تَشْتَبِهُ الْحَالُ عَلَىٰ النَّاظِرِ[1]؛ لِعَدَمِ تَحْصِيلِ مَعْنَىٰ الْكَلَامِ وَحَقِيقَتِهِ، فَيَعُدُّ مِنَ الزَّائِدِ عَلَىٰ أَصْلِ الْمُرَادِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، كَمَا مَثَّلَهُ بَعْضُ النَّاسِ بِقَوْلِ الْقَائِلِ[2] (مِنَ الطَّوِيلِ):

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًىٰ كُلَّ حَاجَةٍ ... وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ

وَشُدَّتْ عَلَىٰ دُهْمِ الْمَهَارَىٰ رِحَالُنَا ... وَلَمْ يَنْظُرِ الْغَادِي الَّذِي هُوَ رَائِحُ

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا ... وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ

يُبَيِّنُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْهُ مَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَاهِرِ فِي شَرْحِهِ[3]

قَالَ: أَوَّلُ مَا يَتَلَقَّاكَ مِنْ مَحَاسِنِ هَذَا الشِّعْرِ أَنَّهُ قَالَ: «وَلَمَا قَضَيْنَا مِنْ مِنًىٰ كُلَّ حَاجَةٍ»، فَعَبَّرَ عَنْ قَضَاءِ جَمِيعِ الْمَنَاسِكِ - فَرَائِضِهَا وَسُنَنِهَا - بِطَرِيقِ الْعُمُومِ الَّذِي هُوَ أَحَدُ طُرُقِ الِاخْتِصَارِ.

ثُمَّ نَبَّهَ بِقَوْلِهِ: «وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ» عَلَىٰ طَوَافِ الْوَدَاعِ الَّذِي هُوَ آخِرُ الْأَمْرِ، وَدَلِيلُ الْمَسِيرِ الَّذِي هُوَ مَقْصُودُهُ مِنَ الشِّعْرِ.

ثُمَّ قَالَ: «وَشُدَّتْ...الْبَيْتَ»، فَوَصَلَ بِذِكْرِ مَسْحِ الْأَرْكَانِ مَا وَلِيَهُ مِنْ ذَمِّ الرِّكَابِ وَرُكُوبِ الرُّكْبَانِ.

---

(١) مَن اشْتَبَهَ عليْهِ هذَا لَيْسَ مِنْ جُمْلَةِ النَّاسِ، بَلْ هُوَ لَهُ عِنَايَةٌ بِالشِّعْرِ وَنَقْدِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ كَمَلَةِ النُّقَّادِ الْمُتَذَوِّقِينَ، وَهُوَ ابْنُ قُتَيبَة فِي الشِّعْرِ والشُّعَرَاءِ، وَقَدْ نَقَلَ عَنْهُ مَنْ لَمْ يَتَنَبَّهْ.

(٢) هُوَ كُثَيِّرٌ، وَنُسِبَتْ لِيَزِيدَ بْنِ الطَّثْرِيَّةِ. وَقِيلَ: لِعُقْبَةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ الْمَعْرُوفِ بِالْمضرَبِ، وَالْمُرَادُ بِالنَّاسِ: الْعُلَمَاء، وَمِنْهُمْ ابْنُ قُتَيْبَةَ الَّذِي قَالَ عَنْهُمَا: إِنَّهَا كَفَارِع بُنْدُقٍ، وَلَيْسَ فِيهَا عَلَىٰ ضَخَامَةِ لَفْظِهَا كَبِيرُ مَعْنَىٰ، فَهِيَ عِنْدَهُ مِنَ التَّطْوِيلِ الَّذِي لَا فَائِدَةَ مِنْهُ. يُنْظَرُ: بغية الإيضاح، ٣٢٩.

(٣) ص ١٦٨ شَرْحُ الْأَسْرَارِ لِلْإِمَامِ عَبْدِ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيِّ، د/ مُحَمَّد شَادِي، ط/ دَارُ الْيَقِينِ.

ثُمَّ دَلَّ بِلَفْظِ «الْأَطْرَاف» عَلَىٰ الصِّفَةِ الَّتِي تَخْتَصُّ بِهَا الرِّفَاقُ فِي السَّفَرِ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي فُنُونِ الْقَوْلِ وَشُجُونِ الْحَدِيثِ، أَوْ مَا هُوَ عَادَةُ الْمُتَظَرِّفِينَ مِنَ الْإِشَارَةِ وَالتَّلْوِيحِ وَالرَّمْزِ وَالْإِيمَاءِ، وَأَنْبَأَ بِذَلِكَ عَنْ طِيبِ النُّفُوسِ، وَقُوَّةِ النَّشَاطِ، وَفَضْلِ الِاغْتِبَاطِ، كَمَا تُوجِبُهُ أُلْفَةُ الْأَصْحَابِ، وَأَنَسَةُ الْأَحْبَابِ، وَيَلِيقُ بِحَالِ مَنْ وُفِّقَ لِقَضَاءِ الْعِبَادَةِ الشَّرِيفَةِ، وَرَجَا حُسْنَ الْإِيَابِ، وَتَنَسَّمَ رَوَائِحَ الْأَحِبَّةِ وَالْأَوْطَانِ، وَاسْتِمَاعَ التَّهَانِي وَالتَّحَايَا مِنَ الْخِلَّانِ وَالْإِخْوَانِ.

ثُمَّ زَانَ ذَلِكَ كُلَّهُ بِاسْتِعَارَةٍ لَطِيفَةٍ؛ حَيْثُ قَالَ: «وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ» فَنَبَّهَ بِذَلِكَ عَلَىٰ سُرْعَةِ السَّيْرِ وَوَطَاءَةِ الظَّهْرِ، وَفِي ذَلِكَ مَا يُؤَكِّدُ مَا قَبْلَهُ؛ لِأَنَّ الظُّهُورَ إِذَا كَانَتْ وَطِيئَةً، وَكَانَ سَيْرُهَا سَهْلًا سَرِيعًا، زَادَ ذَلِكَ فِي نَشَاطِ الرُّكْبَانِ، فَيَزْدَادُ الْحَدِيثُ طِيبًا.

ثُمَّ قَالَ: «بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ» وَلَمْ يَقُلْ: بِالْمَطِيِّ؛ لِأَنَّ السُّرْعَةَ وَالْبُطْءَ فِي سَيْرِ الْإِبِلِ يَظْهَرَانِ غَالِبًا فِي أَعْنَاقِهَا، وَيَتَبَيَّنُ أَمْرُهَا مِنْ هَوَادِيهَا وَصُدُورِهَا، وَسَائِرُ أَجْزَائِهَا تَسْتَنِدُ إِلَيْهَا فِي الْحَرَكَةِ، وَتَتْبَعُهَا فِي الثِّقَلِ وَالْخِفَّةِ[1].

---

(١) إِنَّمَا حَلَّلَ عَبْدُ الْقَاهِرِ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ هَذَا التَّحْلِيلِ الرَّاقِي؛ لِبَيَانِ أَنَّ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ الَّتِي عَدَّهَا بَعْضُهُمْ حُلْوَةَ اللَّفْظِ، قَلِيلَةَ الْمَعْنَىٰ، هِيَ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ حَافِلَةٌ بِالْمَعَانِي بِمَا فِيهَا مِنْ مَشَاعِرَ فَيَّاضَةٍ، وَإِيحَاءَاتٍ ثَرِيَّةٍ، وَرُمُوزٍ لِمَعَانٍ حَيَّةٍ خِصْبَةٍ. فَظَاهِرُ كَلَام عَبْدِ الْقَاهِرِ أَنَّ الْأَبْيَاتَ الثَّلَاثَةَ مِنَ الْإِيجَازِ، وَقِيلَ: إِنَّهَا مِنَ الْمُسَاوَاةِ، وَكَانَ عَلَىٰ الْخَطِيبِ أَنْ يَذْكُرَ مَقَامَاتِ الْإِيجَازِ وَالْإِطْنَابِ وَالْمُسَاوَاةِ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ أَهَمِّ مَا يُعْنَىٰ بِهِ فِي عِلْمِ الْمَعَانِي. يُنْظَر: بغية الإيضاح، ص ٣٣٠.

الْقِسْمُ الأَوَّلُ

الْمُسَاوَاةُ[1]:

كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣][2]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وَقَوْلِ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيِّ «مِنَ الطَّوِيلِ»:

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي ... وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَأَىٰ عَنْكَ وَاسِعُ[3]

---

(١) قَدَّمَهَا؛ لأَنَّهَا الأَصْلُ الْمَقِيسُ عَلَيْهِ. قَالَ الْعَسْكَرِيُّ: الْمُسَاوَاةُ أَنْ تَكُونَ الْمَعَانِي بِقَدْرِ الأَلْفَاظِ، وَالأَلْفَاظُ بِقَدْرِ الْمَعَانِي، لَا يَزِيدُ بَعْضٌ عَلَىٰ بَعْضٍ، وَهُوَ الْمَذْهَبُ الْمُتَوَسِّطُ بَيْنَ الإِيجَازِ وَالإِطْنَابِ، وَإِلَيْهِ أَشَارَ الْقَائِلُ بِقَوْلِهِ: كَأَنَّ أَلْفَاظَهُ قَوَالِبُ لِمَعَانِيهِ، يُنْظَر: كِتَابُ الصِّنَاعَتِين، ١٧٣، وَالشَّوَاهِدُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي أَوْرَدَهَا الْخَطِيبُ لِلْمُسَاوَاةِ مِنْ دُرَرِ الْبَيَانَيْنِ الْمُعْجِزِ وَالْعَالِي، واكْتِنَازُ مَعَانِيهَا، واحْتِشَادُ دَلَالَتِهَا وإِيحَاءَاتِهَا تَجْعَلُهَا فِي الصَّدْرِ الأَوَّلِ مِنْ شَوَاهِدِ الإِيجَازِ، وَتَحْلِيلُهَا الْمُتَذَوِّقُ يَشْهَدُ لِهَذَا الْحُكْمِ.

(٢) وَإِنَّمَا كَانَتْ الآيَةُ مِنْ قَبِيلِ الْمُسَاوَاةِ؛ لأَنَّ الْمَعْنَىٰ قَدْ أُدِّيَ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ التَّرْكِيبِ وَضْعًا يَقْتَضِي ذَلِكَ.

(٣) يَقُولُ: أَيْنَ الْمَهْرَبُ مِنْكَ؟ فَإِنَّكَ مِني كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ - لاَ مَحَالَةَ — مُدْرِكِي، فَلَسْتُ بِمُسْتَطِيعٍ أَنْ أَفْلِتَ مِنْكَ مَهْمَا أَمْعَنْتُ فِي الْفِرَارِ، وَظَنَنْتُ أَنَّنِي بِمَنْجَىٰ يَعْصِمُنِي وَيَقِينِي؛ لِمَا لَكَ مِنْ قُوَّةِ النُّفُوذِ وَسَعَةِ السُّلْطَانِ.

وَالشَّاهِدُ فِي الْبَيْتِ: أَنَّ مَعَانِيَهُ مُفْرَغَةٌ فِي قَوَالِبَ مُطَابِقَةٍ لَهَا؛ فَلَقَدْ شَبَّهَ النُّعْمَانُ بِاللَّيْلِ تَشْبِيهًا تُلَاحَظُ فِي وَجْهِهِ الرَّهْبَةُ وَالْخَوْفُ مَعَ ضَرُورَةِ اللَّحَاقِ وَالإِدْرَاكِ.

تَلْخِيصٌ لِمَا سَبَقَ

ضَوَابِطُ وَفُرُوقٌ:

مِنْ خِلَالِ مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ يَتَبَيَّنُ مَا يَلِي:

- أَنَّ طُرُقَ التَّعْبِيرِ عَنِ الْمَعْنَىٰ ثَلَاثَةٌ هِيَ: الْمُسَاوَاةُ وَالْإِيجَازُ وَالْإِطْنَابُ.
- أَنَّ شَرْطَ الْإِيجَازِ أَنْ يَكُونَ وَافِيًا بِالْمَعْنَىٰ الْمُرَادِ، فَلَوْ قَصُرَ اللَّفْظُ عَنِ الْمَعْنَىٰ لَمْ يَكُنْ إِيجَازًا وَإِنَّمَا يَكُونُ إِخْلَالًا.
- أَنَّ شَرْطَ الْإِطْنَابِ الْفَائِدَةُ، فَلَوْ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ فَائِدَةٌ، وَلَمْ يَتَعَيَّنْ الزَّائِدُ صَارَ تَطْوِيلًا، وَإِنْ تَعَيَّنَ صَارَ حَشْوًا.
- أَنَّ التَّطْوِيلَ وَالْحَشْوَ يَتَّفِقَانِ فِي أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا زِيَادَةٌ فِي الْكَلَامِ دُونَ فَائِدَةٍ، وَيَخْتَلِفُ التَّطْوِيلُ عَنِ الْحَشْوِ فِي أَنَّ الزِّيَادَةَ فِيهِ غَيْرُ مُعَيَّنَةٍ، أَمَّا الْحَشْوُ فَالزِّيَادَةُ فِيهِ مُعَيَّنَةٌ.
- أَنَّ الْمُسَاوَاةَ هِيَ: أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ بِمِقْدَارِ أَصْلِ الْمُرَادِ؛ لَا نَاقِصًا عَنْهُ بِحَذْفٍ أَوْ غَيْرِهِ، وَلَا زَائِدًا عَلَيْهِ بِنَحْوِ: تَكْرِيرٍ، أَوْ تَتْمِيمٍ، أَوْ اعْتِرَاضٍ.
- أَنَّهُ قَدْ يَشْتَبِهُ الْحَالُ عَلَىٰ النَّاقِدِ فَيَجْعَلُ مِنَ الزَّائِدِ عَلَىٰ أَصْلِ الْمَعْنَىٰ مَا لَيْسَ مِنْهُ؛ وَلِذَلِكَ يَنْبَغِي عَلَىٰ النَّاقِدِ الْمُتَأَمِّلِ فِي النُّصُوصِ أَنْ يُنْعِمَ النَّظَرَ فِيهَا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ أَيَّ الطُّرُقِ الثَّلَاثَةِ سَلَكَهَا الْقَائِلُ فِي نَظْمِهِ.

تمرين

١ . لِمَاذَا عُدَّ مِنَ الْإِخْلَالِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ: «فَإِنَّ الْمَعْرُوفَ إِذَا زَجَا كَانَ أَفْضَلَ مِنْهُ إِذَا تَوَفَّرَ وَأَبْطَأَ»، «زَجَا» بِمَعْنَىٰ تَيَسَّرَ، وَفِي رِوَايَةٍ: «وَحَىٰ» بِمَعْنَىٰ أَسْرَعَ؟

٢ . يَعُدُّونَ مِنَ الْمُسَاوَاةِ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿ كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١] فَهَلْ تَرَىٰ أَنَّهَا مِنْهَا، أَوْ مِنْ إِيجَازِ الْقِصَرِ؟ عَلِّلْ لِمَا تَرَاهُ.

٣. لِمَاذَا كَانَ مِنَ الْمُسَاوَاةِ قَوْلُ بَعْضِ الْبُلَغَاءِ: «عَلَّمَتْنِي نَبْوَتُكَ سَلْوَتَكَ، أَسْلَمَنِي يَأْسِي مِنْكَ إِلَىٰ الصَّبْرِ عَنْكَ»؟

٤ . بَيِّنْ مَوْطِنَ التَّطْوِيلِ فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ مِنَ الطَّوِيلِ:

أَلَا حبَّذا هِندٌ وأَرْضٌ بها هِندُ ... وهِنْدٌ أَتَىٰ مِنْ دُونِهَا النَّأْيُ والبُعْدُ

٥ . مَتَىٰ يَكُونُ بَسْطُ الْكَلَامِ حَشْوًا، وَمَتَىٰ يَكُونُ تَطْوِيلًا، وَمَتَىٰ يَكُونُ إِطْنَابًا؟

٦ . مَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْإِطْنَابِ وَالْحَشْوِ وَالتَّطْوِيلِ؟

٧. اذْكُرِ الطَّرِيقَ الَّذِي عُبِّرَ بِهِ عَنِ الْمَعْنَىٰ الْمُرَادِ فِي الْأَمْثِلَةِ الْآتِيَةِ، وَمِنْ أَيِّ قَسْمٍ مِنْ أَقْسَامِهِ:

(أ) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]

(ب) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٠]

(جَ) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨]

(د) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [البقرة: ١٨٩]

(هـ) قَوْلُ الشَّاعِرِ: (أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ).

(وَ) قَوْلُك: جُوزِيَ الْمُذْنِبُ بِذَنْبِهِ، وَهَلْ يُجَازَىٰ إِلَّا الْمُذْنِبُ؟

(زَ) قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَأَلْفَيْتُهُ بَحْرًا كَثِيرًا فُضُولُهُ .. جَوَادًا مَتَىٰ يُذْكَرْ لَهُ الْخَيْرُ يَزْدَدِ

(حَ) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]

(ط) قَوْلُ الشَّاعِرِ:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَىٰ الْقَذَىٰ .. ظَمِئْتَ، وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهُ

٨. قَالَ كُثَيِّر:

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًىٰ كُلَّ حَاجَةٍ ... وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ

وَشُدَّتْ عَلَىٰ دُهْمِ الْمَهَارَىٰ رِحَالُنَا ... وَلَمْ يَنْظُرِ الْغَادِي الَّذِي هُوَ رَائِحُ

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا ... وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ

لِكُلِّ كَلِمَةٍ فِي الْأَبْيَاتِ فَائِدَةٌ بَلَاغِيَّةٌ، حَلِّلْهَا بِمَا يَكْشِفُ عَنْ تَذَوُّقِكَ الْبَلَاغِيِّ.



الْقِسْمُ الثَّانِي

الْإِيجَازُ:

وَهُوَ ضَرْبَانِ: أَحَدُهُمَا إِيجَازُ الْقِصَرِ، وَهُوَ مَا لَيْسَ بِحَذْفٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، فَإِنَّهُ لَا حَذْفَ فِيهِ مَعَ أَنَّ مَعْنَاهُ كَثِيرٌ يَزِيدُ عَلَىٰ لَفْظِهِ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ مَتَىٰ قَتَلَ قُتِلَ كَانَ ذَلِكَ دَاعِيًا لَهُ قَوِيًّا إِلَىٰ أَلَّا يُقْدِمَ عَلَىٰ الْقَتْلِ، فَارْتَفَعَ بِالْقَتْلِ الَّذِي هُوَ قِصَاصٌ كَثِيرٌ مِنْ قَتْلِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، فَكَانَ ارْتِفَاعُ الْقَتْلِ حَيَاةً لَهُمْ، وَفَضْلُهُ عَلَىٰ مَا كَانَ عِنْدَهُمْ أَوْجَزَ كَلَامٍ فِي هَذَا الْمَعْنَىٰ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: الْقَتْلُ أَنْفَىٰ لِلْقَتْلِ مِنْ وُجُوهٍ[1]:

أَحَدُهَا: أَنَّ عِدَّةَ حُرُوفِ مَا يُنَاظِرُهُ مِنْهُ - وَهُوَ: ﴿فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ عَشَرَةٌ فِي التَّلَفُّظِ، وَعِدَّةَ حُرُوفِهِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ.

وَثَانِيها: مَا فِيهِ مِنَ التَّصْرِيحِ بِالْمَطْلُوبِ الَّذِي هُوَ الْحَيَاةُ بِالنَّصِّ عَلَيْهَا؛ فَيَكُونُ أَزْجَرَ عَنِ الْقَتْلِ بِغَيْرِ حَقٍّ؛ لِكَوْنِهِ أَدْعَىٰ إِلَىٰ الِاقْتِصَاصِ.

وَثَالِثُهَا: مَا يُفِيدُهُ تَنْكِيرُ (حَيَاةٍ) مِنَ التَّعْظِيمِ أَوْ النَّوْعِيَّةِ كَمَا سَبَقَ.

وَرَابِعُهَا: اطْرَادُهُ، بِخِلَافِ قَوْلِهِمْ؛ فَإِنَّ الْقَتْلَ الَّذِي يَنْفِي الْقَتْلَ: هُوَ مَا كَانَ عَلَىٰ وَجْهِ الْقِصَاصِ، لَا غَيْرُهِ.

---

(١) فِي الْمُوَازَنَةِ تَحْلِيلٌ جَيِّدٌ، وَلَكِنْ فِيهِ إِهْمَالٌ لِدَلَالَاتٍ دَقِيقَةٍ، وَإِيحَاءَاتٍ شَفِيفَةٍ، سِيَّمَا مَعَ النَّظَرِ فِي سِيَاقِي الآيَةِ الجُزْئِيِّ وَالْكُلِّيِّ، وَلَيْسَتِ البَلَاغَةُ مَقْصُورَةً عَلَىٰ عَدِّ الْأَحْرُفِ، وَالْعِنَايَةِ بِمَا عَدُّوهُ مِنْ فُرُوقٍ.

وَخَامِسُهَا: سَلَامَتُهُ مِنَ التَّكْرَارِ الَّذِي هُوَ مِنْ عُيُوبِ الْكَلَامِ، بِخِلَافِ قَوْلِهِمْ.

وَسَادِسُهَا: اسْتِغْنَاؤُهُ عَنْ تَقْدِيرِ مَحْذُوفٍ، بِخِلَافِ قَوْلِهِمْ، فَإِنَّ تَقْدِيرَهُ: (الْقَتْلُ أَنْفَىٰ لِلْقَتْلِ مِنْ تَرْكِهِ).

وَسَابِعُهَا: أَنَّ الْقِصَاصَ ضِدُّ الْحَيَاةِ؛ فَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا طِبَاقٌ كَمَا سَيَأْتِي.

وَثَامِنُهَا: جَعْلُ الْقِصَاصِ كَالْمَنبَعِ وَالْمَعْدِنِ لِلْحَيَاةِ، بِإِدْخَالِ (فِي) عَلَيْهِ عَلَىٰ مَا تَقَدَّمَ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢] أَيْ: هُدًىٰ لِلضَّالِّينَ الصَّائِرِينَ إِلَىٰ الْهُدَىٰ بَعْدَ الضَّلَالِ، وَحَسَّنَهُ التَّوَصُّلُ إِلَىٰ تَسْمِيَةِ الشَّيْءِ بِاسْمِ مَا يَئُولُ إِلَيْهِ، وَإِلَىٰ تَصْدِيرِ السُّورَةِ بِذِكْرِ أَوْلِيَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ ﴾ [يونس: ١٨] أَيْ: بِمَا لَا ثُبُوتَ لَهُ، وَلَا عِلْمَ لِلهِ مُتَعَلِّقٌ بِثُبُوتِهِ؛ نَفْيًا لِلْمَلْزُومِ بِنَفْيِ اللَّازِمِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨]؛ أَيْ: لَا شَفَاعَةَ وَلَا طَاعَةَ، عَلَىٰ أُسْلُوبِ قَوْلِهِ:

عَلَىٰ لَاحِبٍ لَا يُهْتَدَىٰ بِمَنَارِهِ[1]

(١) صَدْرُ بَيْتٍ لامْرِئِ القَيْسِ وَعَجُزُهُ: إِذَا سَافَهُ الْعَوْدُ النَّبَاطِيُّ جَرْجَرَا، واللَّاحِبُ: الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ الْمُنْقَادُ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ كَمَا ذَكَرَ صَاحِبُ اللِّسَانِ مَادَةَ لَحَبَ، وَالْمَنَارَةُ: عَلَامَةٌ تُوضَعُ عَلَىٰ الطَّرِيقِ لِلْهِدَايَةِ، وَسَاقَهُ: أَيْ شَمَّهُ، والْعَوْدُ: الْجَمَلُ الْمُسِنُّ، وَالنَّبَاطِيُّ: الْمَنْسُوبُ إِلَىٰ النَّبَطِ، وَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ الْقُدَمَاءِ، وجَرْجَرَا: ضَجَّ مِنَ التَّعَبِ ورَغَا، وَقَدْ عَدَّهُ الْخَطِيبُ مِنْ شَواهِدِ الْإِيجَازِ الدَّقِيقَةِ، أَيْ: لَا مَنَارَةَ وَلَا اهْتِدَاءَ، فَسُلِّطَ النَّفْيُ عَلَىٰ الْمُقَيَّدِ وَقَيْدِهِ جَمِيعًا، وَهُوَ تَرْكِيبٌ ذُو دَلَالَةٍ نَادِرَةٍ.

أَيْ: لَا مَنَارَ، وَلَا اهْتِدَاءَ، وَقَوْلِهِ:

وَلَا تَرَىٰ الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرُ[1]

أَيْ: لَا ضَبَّ، وَلَا انْجِحَارَ.

وَمِنْ أَمْثِلَةِ الْإِيجَازِ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِيمَا يُخَاطِبُ بِهِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فَإِنَّهُ جَمَعَ فِيهِ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ أَمْرٌ بِإِصْلَاحِ قُوَّةِ الشَّهْوَةِ؛ فَإِنَّ الْعَفْوَ ضِدُّ الْجَهْلِ، قَالَ الشَّاعِرُ:

خُذِي الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي[2]

أَيْ: خُذِي مَا تَيَسَّرَ أَخْذُهُ وَتَسَهَّلَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ أَمْرٌ بِإِصْلَاحِ قُوَّةِ الْغَضَبِ، أَيْ: أَعْرِضْ عَنِ السُّفَهَاءِ، وَاحْلُمْ عَنْهُمْ، وَلَا تُكَافِئْهُمْ عَلَىٰ أَفْعَالِهِمْ، هَذَا مَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ مِنْهَا، وَأَمَّا مَا يَرْجِعُ إِلَىٰ أُمَّتِهِ، فَدَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ أَيْ: بِالْمَعْرُوفِ وَالْجَمِيلِ مِنَ الْأَفْعَالِ؛ وَلِهَذَا قَالَ جَعْفَرُ الصَّادِقُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- فِيمَا رُوِيَ عَنْهُ: أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَجْمَعُ لَهَا مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ.

---

(١) عَجُزُ بَيْتٍ لِأَوْسِ بْنِ حَجَرٍ الجَاهِلِيِّ صَدْرُهُ: لاَ يُفْزِعُ الْأَرْنَبَ أَهْوَالُهَا، يَصِفُ صَحَرَاءَ مَهْجُورَةً غَيْرَ مَطْرُوقَةٍ، فَلَيْسَ فِيهَا مَا يُفْزِعُ أَرْنَبَها، وَلَا مَا يَجْعَلُ الضَّبَّ يَدْخُلُ جُحْرَهُ، وَالشَّاهِدُ كَسَابِقِهِ.

(٢) صَدْرُ بَيتٍ لِأَسْمَاءَ بْنِ خَارِجَةَ الفَزَارِيِّ عَجُزُهُ: وَلاَ تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَغْضَبُ، يَنْصَحُ بِهَذَا الْإِرْشَادِ الْحَكِيمِ زَوْجَهُ؛ كَيْ تَسْتَدِيمَ مَوَدَّتَهُ لَها، خَاصَّةً فِي حَالِ الْغَضَبِ الشَّدِيدِ، وَقَدْ أَوْرَدَ الْخَطِيبُ الشَّاهِدَ فِي سِيَاقِ تَحْلِيلِ آيَةِ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾.

وَمِنْهَا قَوْلُ الشَّرِيفِ الرَّضِيِّ:

مَالُوا إِلَىٰ شُعَبِ الرِّحَالِ وَأَسْنَدُوا ... أَيْدِي الطِّعَانِ إِلَىٰ قُلُوبٍ تَخْفِقُ[1]

فَإِنَّهُ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَصِفَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ بِالشَّجَاعَةِ فِي أَثْنَاءِ وَصْفِهِمْ بِالْغَرَامِ، عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: (أَيْدِي الطِّعَانِ).

وَمِنْهَا مَا كَتَبَ عَمْرُو بْنُ مَسْعَدَةَ عَنِ الْمَأْمُونِ، لِرَجُلٍ يُعْنَىٰ بِهِ، إِلَىٰ بَعْضِ الْعُمَّالِ؛ حَيْثُ أَمَرَهُ أَنْ يَخْتَصِرَ كِتَابَهُ مَا أَمْكَنَ: «كِتَابِي إِلَيْكَ كِتَابُ وَاثِقٍ بِمَنْ كُتِبَ إِلَيْهِ، مَعْنِيٌّ بِمَنْ كُتِبَ لَهُ، وَلَنْ يَضِيعَ بَيْنَ الثِّقَةِ وَالْعِنَايَةِ حَامِلُهُ».

إِيجَازُ الْحَذْفِ:

وَالضَّرْبُ الثَّانِي إِيجَازُ الْحَذْفِ، وَهُوَ مَا يَكُونُ بِحَذْفٍ، وَالْمَحْذُوفُ: إِمَّا جُزْءُ جُمْلَةٍ، أَوْ جُمْلَةٌ، أَوْ أَكْثَرُ مِنْ جُمْلَةٍ.

وَالْأَوَّلُ: إِمَّا مُضَافٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أَيْ: أَهْلَهَا، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] أَيْ: تَنَاوُلُها؛ لِأَنَّ الْحُكْمَ الشَّرْعِيَّ إِنَّمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَفْعَالِ دُونَ الْأَجْرَامِ، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] أَيْ: تَنَاوُلَ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّ لَهُمْ تَنَاوُلُهَا، وَتَقْدِيرُ التَّنَاوُلِ أَوْلَىٰ مِنْ تَقْدِيرِ الْأَكْلِ؛ لِيَدْخُلَ فِيهِ شُرْبُ أَلْبَانِ الْإِبِلِ؛ فَإِنَّهَا مِنْ جُمْلَةِ مَا حُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ [الأنعام: ١٣٨]؛ أَيْ:

(١) فِي هَذَا الْبَيْتِ إِيجَازٌ طَرِيفٌ مِمَّا شُهِرَ بِهِ «الرَّضِيُّ» مِنَ الْمَعَانِي النَّادِرَةِ؛ حَيْثُ جَمَعَ لِهؤلاءِ الْقَوْمِ بَيْنَ وَصْفَيِ الشَّجَاعَةِ والْعِشْقِ الْمُبْرِحِ، الشَّجَاعَةُ حَيْثُ أَسْنَدُوا «أَيْدِي الطِّعَانِ» إِلَىٰ قُلُوبٍ تَخْفِقُ إِشْفَاقًا مِنْ مُفَارَقَةِ أَحْبَابِهَا.

مَنَافِعُ ظُهُورِهَا، وَتَقْدِيرُ الْمَنَافِعِ أَوْلَىٰ مِنْ تَقْدِيرِ الرُّكُوبِ؛ لِأَنَّهُمْ حَرَّمُوا رُكُوبَهَا وَتَحْمِيلَهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ٢١] أَيْ: رَحْمَةَ اللهِ، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم ﴾ [النحل: ٥٠] أَيْ: عَذَابَ رَبِّهِمْ، وَقَدْ ظَهَرَ هَذَانِ الْمُضَافَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء: ٥٧].

وإما موصوف، كَقَوْلِهِ:

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَايَا[1] أَيْ: أَنَا ابْنُ رَجُلٍ جَلَا

وَإِمَّا صِفَةٌ نَحْوَ: ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف: ٧٩] أَيْ: كُلَّ سَفِينَةٍ صَحِيحَةٍ، أَوْ صَالِحَةٍ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ؛ بِدَلِيلِ مَا قَبْلَهُ، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ مَذْكُورًا فِي بَعْضِ الْقِرَاءَاتِ؛ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يَقْرَأُ: «وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا».

وَإِمَّا شَرْطٌ كَمَا سَبَقَ.

وَإِمَّا جَوَابُ شَرْطٍ، وَهُوَ ضَرْبَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يُحْذَفَ لِمُجَرَّدِ الِاخْتِصَارِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [يس: ٤٥] أَيْ: أَعْرَضُوا، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ بَعْدَهُ: ﴿ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ [يس: ٤٦]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ

(١) صَدْرُ بَيْتٍ لِسُحَيْمِ بْنِ وُثَيْلٍ الرِّيَاحِيِّ، شَاعِرٌ مُخْضرمٌ فِي الْجَاهِلِيةِ وَالْإِسْلَامِ تُوفي عامَ ٦٠ هجريةً، وعَجُزُ الْبَيْتِ: مَتَىٰ أَضَعِ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِي، جَلَا: عَلَمٌ مَنْقُولٌ عَنْ جُمْلَةٍ؛ فَلَا يَكُونُ فِيهِ حَذْفٌ، وَقِيلَ إِنَّ «جَلَا» بِمَعْنَىٰ كَشَفَ الأُمُورَ؛ فَيَتَحَقَّقُ الْحَذْفُ، والثَّنَايَا: الطُّرُقُ فِي أَعَالِي الجِبَالَ، وَمَقْصِدُ الشَّاعِرِ هُنَا: وَصْفُ أَبِيهِ بِأَنَّهُ رَكَّابٌ لِصِعَابِ الْأُمُورِ، وَالْعِمَامَةُ هِيَ: بَيْضَةُ الحَرْبِ التِي تُوضَعُ عَلَىٰ رَأْسِ المُحَارِبِ.

ﵟٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗﵞ [الرعد: ٣١] أَيْ: لَكَانَ هَذَا الْقُرْآنُ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﵟإِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖﵞ [الأحقاف: ١٠] أَيْ: أَلَسْتُمْ ظَالِمِينَ؟ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ بَعْدَهُ: ﵟإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَﵞ [الأحقاف: ١٠].

وَالثَّانِي: أَنْ يُحْذَفَ لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُ شَيْءٌ لَا يُحِيطُ بِهِ الْوَصْفُ، أَوْ لِتَذْهَبَ نَفْسُ السَّامِعِ فِيهِ كُلَّ مَذْهَبٍ مُمْكِنٍ؛ فَلَا يَتَصَوَّرُ مَطْلُوبًا أَوْ مَكْرُوهًا إِلَّا وَيُجَوِّزُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ أَعْظَمَ مِنْهُ، وَلَوْ عُيِّنَ شَيْءٌ اقْتَصَرَ عَلَيْهِ، وَرُبَّمَا خَفَّ أَمْرُهُ عِنْدَهُ؛ كَقَوْلِهِ: ﵟوَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَﵞ [الزمر: ٧٣]، وَقَوْلُهُ: ﵟوَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِﵞ [الأنعام: ٢٧] ﵟوَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚﵞ [الأنعام: ٣٠] ﵟوَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡﵞ [السجدة: ١٢].

قَالَ السَّكَّاكِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ -: «وَلِهَذَا الْمَعْنَىٰ حُذِفَتْ الصِّلَةُ مِنْ قَوْلِهِمْ: «جَاءَ بَعْدَ اللَّتَيَّا وَالَّتِي»[(١)]، أَيْ: الْمُشَارُ إِلَيْهِ بِهِمَا، وَهِيَ الْمِحْنَةُ وَالشَّدَائِدُ قَدْ بَلَغَتْ شِدَّتُهَا، وَفَظَاعَةُ شَأْنِهَا مَبْلَغًا يُبْهِتُ الْوَاصِفُ مَعَهُ حَتَّىٰ لَا يُحِيرَ بِبِنْتِ شَفَةٍ.

وَإِمَّا غَيْرُ ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﵟلَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚﵞ [الحديد: ١٠]، أَيْ: وَمَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدِهِ وَقَاتَلَ، بِدَلِيلِ مَا بَعْدَهُ.

---

(١) قَالَ المَيْدَانِيُّ هُمَا الدَّاهِيةُ الْكَبِيرَةُ والصَّغِيرَةُ، وَكَنَىٰ عَنِ الْكَبِيرَةِ بِلَفْظِ التَّصْغِيرِ تَشْبِيهًا بِالْحَيَّةِ؛ فَإِنَّهَا إِذَا كَثُرَ سُمُّهَا صَغُرَتْ؛ لِأَنَّ السُّمَّ يَأْكُلُ جَسَدَهَا [مَجْمَعُ الْأَمْثَالِ لِلْمَيْدَانِي ١/ ٩٢]، وَفِي الأَمْثَالِ مُنْتَهَىٰ الإِيجَازِ المُوحِي الْمُؤَثِّرُ.

وَمِنْ هَذَا الضَّرْبِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]؛ لِأَنَّ أَصْلَهُ: «يَا رَبِّ إِنِّي وَهَنُ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ مِنِّي شَيبًا».

وَعَدَّهُ السَّكَّاكِيُّ مِنَ الْقِسْمِ الثَّانِي مِنَ الْإِيجَازِ عَلَىٰ مَا فَسَّرَهُ؛ ذَاهِبًا إِلَىٰ أَنَّهُ -وَإِنْ اشْتَمَلَ عَلَىٰ بَسْطٍ - فَإِنَّ انْقِرَاضَ الشَّبَابِ، وَإِلْمَامَ الْمَشِيبِ جَدِيرَانِ بِأَبْسَطَ مِنْهُ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ فِيهِ لِطَائِفَ يَتَوَقَّفُ بَيَانُهَا عَلَىٰ النَّظَرِ فِي أَصْلِ الْمَعْنَىٰ وَمَرْتَبَتِهِ الْأُولَىٰ.

ثُمَّ أَفَادَ أَنَّ مَرْتَبَتَهُ الْأُولَىٰ: «يَا رَبِّي، قَدْ شِخْتُ» فَإِنَّ الشَّيْخُوخَةَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَىٰ ضَعْفِ الْبَدَنِ، وَشَيْبِ الرَّأْسِ.

ثُمَّ تُرِكَتْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةُ؛ لِتَوَخِّي مَزِيدَ التَّقْرِيرِ إِلَىٰ تَفْصِيلِهَا فِي: «ضَعُفَ بَدَنِي وَشَابَ رَأْسِي».

ثُمَّ تُرِكَ التَّصْرِيحُ بِـ «ضَعُفَ بَدَنِي» إِلَىٰ الْكِنَايَةِ بِـ«وَهَنَتْ عِظَامُ بَدَنِي» لِمَا سَيَأْتِي أَنَّ الْكِنَايَةَ أَبْلَغُ مِنَ التَّصْرِيحِ.

ثُمَّ لِقَصْدِ مَرْتَبَةٍ رَابِعَةٍ أَبْلَغَ فِي التَّقْرِيرِ بُنِيَتْ الْكِنَايَةُ عَلَىٰ الْمُبْتَدَأِ؛ فَحَصَلَ «إِنِّي وَهَنَتْ عِظَامُ بَدَنِي».

ثُمَّ لِقَصْدِ مَرْتَبَةٍ خَامِسَةٍ أَبْلَغَ أُدْخِلَتْ (إِنَّ) عَلَىٰ الْمُبْتَدَأِ، فَحَصَلَ «إِنِّي وَهَنَتْ عِظَامُ بَدَنِي».

ثُمَّ لِطَلَبِ تَقْرِيرِ أَنَّ الْوَاهِنَ عِظَامُ بَدَنِهِ قُصِدَ مَرْتَبَةٌ سَادِسَةٌ؛ وَهِيَ سُلُوكُ

طَرِيقَيْ الْإِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ؛ فَحَصَلَ «إِنِّي وَهَنَتِ الْعِظَامُ مِنْ بَدَنِي».

ثُمَّ لِطَلَبِ مَزِيدِ اخْتِصَاصِ الْعِظَامِ بِهِ قُصِدَتْ مَرْتَبَةٌ سَابِعَةٌ؛ وَهِيَ تَرْكُ تَوْسِيطِ الْبَدَنِ، فَحَصَلَ «إِنِّي وَهَنَتْ الْعِظَامُ مِنِّي».

ثُمَّ لِطَلَبِ شُمُولِ الْوَهَنِ الْعِظَامَ فَرْدًا فَرْدًا قُصِدَتْ مَرْتَبَةٌ ثَامِنَةٌ، وَهِيَ تَرْكُ الْجَمْعِ إِلَىٰ الْإِفْرَادِ؛ لِصِحَّةِ حُصُولِ وَهَنِ الْمَجْمُوعِ بِوَهَنِ الْبَعْضِ دُونَ كُلِّ فَرْدٍ؛ فَحَصَلَ مَا تَرَىٰ.

وَهَكَذَا تُرِكَتْ الْحَقِيقَةُ فِي: «شَابَ رَأْسِي» إِلَىٰ الِاسْتِعَارَةِ فِي: «اشْتَعَلَ شَيْبُ رَأْسِي»؛ لِمَا سَيَأْتِي أَنَّ الِاسْتِعَارَةَ أَبْلَغُ مِنَ الْحَقِيقَةِ، ثُمَّ تُرِكَتْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةُ إِلَىٰ تَحْوِيلِ الْإِسْنَادِ إِلَىٰ الرَّأْس، وَتَفْسِيرُهُ بِـ «شِيبًا»؛ لِأَنَّهَا أَبْلَغُ مِنْ جِهَاتٍ:

إِحْدَاهَا: إِسْنَادُ الِاشْتِعَالِ إِلَىٰ الرَّأْسِ؛ لِإِفَادَةِ شُمُولِ الشَّيْبِ الرَّأْسَ؛ إِذْ وِزَانُ «اشْتَعَلَ شَيْبُ رَأْسِي، وَاشْتَعَلَ رَأْسِي شَيْبًا» وِزَانُ «اشْتَعَلَ النَّارُ فِي بَيْتِي، وَاشْتَعَلَ بَيْتِي نَارًا» وَالْفَرْقُ بَيِّنٌ نَيِّرٌ.

وَثَانِيتِهَا: الْإِجْمَالُ وَالتَّفْصِيلُ فِي طَرِيقَيْ التَّمْيِيزِ.

وَثَالِثَتِهَا: تَنْكِيرُ (شِيبًا) لِإِفَادَةِ الْمُبَالَغَةِ.

ثُمَّ تُرِكَ: «اشْتَعَلَ رَأْسِي شَيْبًا» لِتَوَخِّي مَزِيدَ التَّقْرِيرِ إِلَىٰ: «اشْتَعَلَ الرَّأْسُ مِنِّي شَيْبًا» عَلَىٰ نَحْوِ: «وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي».

ثُمَّ تُرِكَ لَفْظُ: «مِنِّي» لِقَرِينَةِ عَطْفِ «اشْتَعَلَ الرَّأْسُ» عَلَىٰ «وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي» لِمَزِيدِ التَّقْرِيرِ، وَهُوَ إِيهَامُ حَوَالَةِ تَأْدِيَةِ مَفْهُومِهِ عَلَىٰ الْعَقْلِ دُونَ اللَّفْظِ»، ثُمَّ قَالَ

عَقِيبَ هَذَا الْكَلَامِ:

«وَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي فَتَقَ أَكْمَامَ هَذِهِ الْجِهَاتِ عَنْ أَزَاهِيرِ الْقَبُولِ فِي الْقُلُوبِ: هُوَ أَنَّ مُقَدِّمَةَ هَاتَيْنِ الْجُمْلَتَيْنِ، وَهِيَ «رَبِّ» اخْتُصِرَتْ ذَلِكَ الِاخْتِصَارَ، بِأَنْ حُذِفَتْ كَلِمَةُ النِّدَاءِ، وَهِيَ «يَا»، وَحُذِفَتْ كَلِمَةُ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَهِيَ يَاءُ الْمُتَكَلِّمِ، وَاقْتُصِرَ مِنْ مَجْمُوعِ الْكَلِمَاتِ عَلَىٰ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ فَحَسْبُ، وَهِيَ الْمُنَادَىٰ، وَالْمُقَدِّمَةُ لِلْكَلَامِ - كَمَا لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ مَنْ لَهُ قَدَمُ صِدْقٍ فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ - نَازِلَةٌ مَنْزِلَةَ الْأَسَاسِ لِلْبِنَاءِ، فَكَمَا أَنَّ الْبَنَّاءَ الْحَاذِقَ لَا يَرْمِي الْأَسَاسَ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يُقَدِّرُ مِنَ الْبِنَاءِ عَلَيْهِ، كَذَلِكَ الْبَلِيغُ يَصْنَعُ بِمَبْدَأِ كَلَامِهِ؛ فَمَتَىٰ رَأَيْتَهُ قَدِ اخْتَصَرَ الْمَبْدَأَ فَقَدْ آذَنَكَ بِاخْتِصَارِ مَا يُورِدُ». انْتَهَىٰ كَلَامُهُ.

وَعَلَيْكَ أَنْ تَتَنَبَّهَ لِشَيْءٍ، وَهُوَ أَنَّ مَا جَعَلَهُ سَبَبًا لِلْعُدُولِ عَنْ لَفْظِ «الْعِظَامِ» إِلَىٰ لَفْظِ «الْعَظْمِ» فِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّنَا لَا نُسَلِّمُ بِصِحَّةِ حُصُولِ وَهَنِ الْمَجْمُوعِ بِوَهَنِ الْبَعْضِ دُونَ كُلِّ فَرْدٍ؛ فَالْوَجْهُ فِي ذِكْرِ «الْعَظْمِ» دُونَ سَائِرِ مَا تَرَكَّبَ مِنْهُ الْبَدَنُ، وَتَوْحِيدِهِ؛ مَا ذَكَرَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ؛ قَالَ: «إِنَّمَا ذَكَرَ الْعَظْمَ؛ لِأَنَّهُ عَمُودُ الْبَدَنِ، وَبِهِ قِوَامُهُ، وَهُوَ أَصْلُ بِنَائِهِ، وَإِذَا وَهَنَ تَدَاعَىٰ، وَتَسَاقَطَتْ قُوَّتُهُ، وَلِأَنَّهُ أَشَدُّ مَا فِيهِ وَأَصْلَبُهُ، فَإِذَا وَهَنَ كَانَ مَا وَرَاءَهُ أَوْهَنَ، وَوَحَّدَهُ؛ لِأَنَّ الْوَاحِدَ هُوَ الدَّالُّ عَلَىٰ مَعْنَىٰ الْجِنْسِيَّةِ، وَقَصْدُهُ إِلَىٰ أَنَّ هَذَا الْجِنْسَ -الَّذِي هُوَ الْعَمُودُ وَالْقِوَامُ، وَأَشَدُّ مَا تَرَكَّبَ مِنْهُ الْجَسَدُ- قَدْ أَصَابَهُ الْوَهَنُ، وَلَوْ جُمِعَ لَكَانَ قَصْدًا إِلَىٰ مَعْنًىٰ آخَرَ، وَهُوَ أَنَّهُ لَمْ يَهِنْ بَعْضُ عِظَامِهِ وَلَكِنْ كُلُّهَا.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُرَادَ بِشُمُولِ الشَّيْبِ الرَّأْسَ أَنْ يَعُمَّ جُمْلَتَهُ؛ حَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ مِنَ السَّوَادِ شَيْءٌ أَوْ لَا يَبْقَىٰ مِنْهُ إِلَّا مَا لَا يُعْتَدُّ بِهِ.

وَالثَّانِي: أَعْنِي مَا يَكُونُ جُمْلَةً، إِمَّا مُسَبَّبٌ ذُكِرَ سَبَبُهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ ﴾ [الأنفال: ٨]، أَيْ: فَعَلَ مَا فَعَلَ، وَقَوْلِهِ: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: ٤٦] أَيْ: اخْتَرْنَاكَ، وَقَوْلِهِ: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [الفتح: ٢٥] أَيْ: كَانَ الْكَفُّ، وَمَنْعُ التَّعْذِيبِ، وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ:

أَتَـىٰ الزَّمَـانَ بَنُـوهُ فِـي شَـبِيبَتِهِ ... فَسَـرَّهُمْ وَأَتَيْنَـاهُ عَلَـىٰ الْهَـرَمِ[1]

أَيْ: فَسَاءَنَا.

أَوْ بِالْعَكْسِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ٥٤]، أَيْ: فَامْتَثَلْتُمْ؛ فَتَابَ عَلَيْكُمْ، وَقَوْلِهِ: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ ﴾ [البقرة: ٦٠]، أَيْ: فَضَرَبَهُ بِهَا، فَانْفَجَرَتْ، وَيَجُوزُ أَنْ يُقَدَّرَ: «فَإِنْ ضُرِبَتَ بِهَا فَقَدْ انْفَجَرَتْ».

أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٨] عَلَىٰ مَا مَرَّ.

وَالثَّالِثُ: كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٧٣]، أَيْ: فَضَرَبُوهُ بِبَعْضِهَا، فَحَيِيَ، فَقُلْنَا: ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾. وَقَوْلِهِ: ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ ﴾ [يوسف: ٤٥-٤٦]، أَيْ: فَأَرْسِلُونِي إِلَىٰ يُوسُفَ لِأَسْتَعْبِرَهُ الرُّؤْيَا، فَأَرْسَلُوهُ إِلَيْهِ، فَأَتَاهُ، وَقَالَ لَهُ: يَا يُوسُفُ. وَقَوْلِهِ: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٦]، أَيْ:

(١) بَنُو الزَّمَانِ: مَنْ عَاشُوا فِي نَعْمَائِهِ، سِيَّمَا وَالزَّمَانُ فِي شَبِيبَتِهِ، أَيْ: إِقْبَالِهِ، وَجَاءَ الشَّاعِرُ فِي هَرَمِهِ، أَيْ: فِي إِدْبَارِهِ وكَثْرَةِ بَلَايَاهُ؛ فَسَاءَ الشَّاعِرَ وأَحْزَنَهُ، وَالْبَيْتُ مِنْ شَوَاهِدِ حَذْفِ جُمْلَةِ: «فَسَاءَنَا» الْمُقَابِلَةِ لِجُمْلَةِ: «فَسَرَّهُمْ».

فَأَتَيَاهُمْ، فَأَبْلَغَاهُمْ الرِّسَالَةَ، فَكَذَّبُوهُمَا، فَدَمَّرْنَاهُمْ.

وَقَوْلِهِ: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا ﴾ [الشعراء: ١٦ – ١٨]، أَيْ: فَأَتَيَاهُ، فَأَبْلَغَاهُ ذَلِكَ، فَلَمَّا سَمِعَهُ قَالَ: ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ ﴾، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ: فَأَتَيَاهُ فَأَبْلَغَاهُ ذَلِكَ، ثُمَّ يُقَدَّرُ: فَمَاذَا قَالَ؟ فَيَقَعُ قَوْلُهُ: ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ ﴾ اسْتِئْنَافًا، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ ﴾ [النمل: ٢٨ – ٢٩]، أَيْ: فَفَعَلَ ذَلِكَ، فَأَخَذَتْ الْكِتَابَ، فَقَرَأَتْهُ، ثُمَّ كَأَنَّ سَائِلًا سَأَلَ، فَقَالَ: فَمَاذَا قَالَتْ؟ فَقِيلَ: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ ﴾.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ [النمل: ١٥]، فَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: هَذَا مَوْضِعُ الْفَاءِ، كَمَا يُقَالُ: «أَعْطَيْتُهُ فَشَكَرَ وَمَنَعْتُهُ فَصَبَرَ»، وَعَطَفَهُ بِالْوَاوِ إِشْعَارًا بِأَنَّ مَا قَالَاهُ بَعْضُ مَا أَحْدَثَ فِيهِمَا الْعِلْمُ، كَأَنَّهُ قَالَ: فَعَمِلَا بِهِ، وَعَلِمَا، وَعَرَفَا حَقَّ النِّعْمَةِ فِيهِ وَالْفَضِيلَةِ، ﴿ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾.

وَقَالَ السَّكَّاكِيُّ: يُحْتَمَلُ عِنْدِي أَنَّهُ تَعَالَىٰ أَخْبَرَ عَمَّا صَنَعَ بِهِمَا وَعَمَّا قَالَا؛ كَأَنَّهُ قَالَ: نَحْنُ فَعَلْنَا إِيتَاءَ الْعِلْمِ، وَهُمَا فَعَلَا الْحَمْدَ، مِنْ غَيْرِ بَيَانِ تَرَتُّبِهِ عَلَيْهِ؛ اعْتِمَادًا عَلَىٰ فَهْمِ السَّامِعِ، كَقَوْلِكَ: «قُمْ يَدْعُوكَ» بَدَلَ: قُمْ، فَإِنَّهُ يَدْعُوكَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْحَذْفَ عَلَىٰ وَجْهَيْنِ:

أَحَدِهِمَا: أَلَّا يُقَامَ شَيْءٌ مَقَامَ الْمَحْذُوفِ كَمَا سَبَقَ.

وَالثَّانِي: أَنْ يُقَامَ مَقَامَهُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ﴾ [هود: ٥٧] لَيْسَ الْإِبْلَاغُ هُوَ الْجَوَابُ؛ لِتَقَدُّمِهِ عَلَىٰ تَوَلِّيهِمْ،

وَالتَّقْدِيرُ: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَلَا لَوْمَ عَلَيَّ؛ لِأَنِّي قَدْ أَبْلَغْتُكُمْ»، أَوْ: فَلَا عُذْرَ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ؛ لِأَنِّي قَدْ أَبْلَغْتُكُمْ.

وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤]، أَيْ: فَلَا تَحْزَنْ وَاصْبِرْ؛ فَإِنَّهُ قَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، أَيْ: فَيُصِيبُهُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ الْأَوَّلِينَ.

وأدلة الحذف كثيرة:

مِنْهَا: أَنْ يَدُلَّ الْعَقْلُ عَلَىٰ الْحَذْفِ، وَالْمَقْصُودُ الْأَظْهَرُ عَلَىٰ تَعْيِينِ الْمَحْذُوفِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣] الْآيَةَ، وَقَوْلِهِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] الْآيَةَ؛ فَإِنَّ الْعَقْلَ يَدُلُّ عَلَىٰ الْحَذْفِ لِمَا مَرَّ، وَالْمَقْصُودُ الْأَظْهَرُ يُرْشِدُكَ إِلَىٰ أَنَّ التَّقْدِيرَ: حُرِّمَ عَلَيْكُمْ تَنَاوُلُ الْمَيْتَةِ، وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ نِكَاحُ أُمَّهَاتِكُمْ؛ لِأَنَّ الْغَرَضَ الْأَظْهَرَ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ تَنَاوُلُهَا، وَمِنَ النِّسَاءِ نِكَاحُهُنَّ.

وَمِنْهَا: أَنْ يَدُلَّ الْعَقْلُ عَلَىٰ الْحَذْفِ وَالتَّعْيِينِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، أَيْ: أَمْرُ رَبِّكَ أَوْ عَذَابُهُ أَوْ بَأْسُهُ، وَقَوْلِهِ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، أَيْ: عَذَابُ الله أَوْ أَمْرُهُ.

وَمِنْهَا: أَنْ يَدُلَّ الْعَقْلُ عَلَىٰ الْحَذْفِ، وَالْعَادَةُ عَلَىٰ التَّعْيِينِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ حِكَايَةً عَنْ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ: ﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢] دَلَّ الْعَقْلُ عَلَىٰ الْحَذْفِ فِيهِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يُلَامُ عَلَىٰ كَسْبِهِ، فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ: فِي حُبِّهِ؛ لِقَوْلِهِنَّ: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠، وَمَا بَعْدَهَا]، وَأَنْ يَكُونَ فِي

مُرَاوَدَتِهِ، لِقَوْلِهِنَّ: ﴿تُرَاوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٣٠]، وَأَنْ يَكُونَ فِي شَأْنِهِ وَأَمْرِهِ؛ فَيَشْمَلَهُمَا، وَالْعَادَةُ دَلَّتْ عَلَىٰ تَعْيِينِ الْمُرَاوَدَةِ؛ لِأَنَّ الْحُبَّ الْمُفْرِطَ لَا يُلَامُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ فِي الْعَادَةِ؛ لِقَهْرِهِ صَاحِبَهُ وَغَلَبَتِهِ إِيَّاهُ، وَإِنَّمَا يُلَامُ عَلَىٰ الْمُرَاوَدَةِ الدَّاخِلَةِ تَحْتَ كَسْبِهِ الَّتِي يَقْدِرُ أَنْ يَدْفَعَهَا عَنْ نَفْسِهِ.

وَمِنْهَا: أَنْ تَدُلَّ الْعَادَةُ عَلَىٰ الْحَذْفِ وَالتَّعْيِينِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧] مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَخْبَرَ النَّاسِ بِالْحَرْبِ، فَكَيْفَ يَقُولُونَ: إِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَهَا؟! فَلَابُدَّ مِنْ حَذْفٍ؛ قَدَّرَهُ مُجَاهِدٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مَكَانَ قِتَالٍ، أَيْ: إِنَّكُمْ تُقَاتِلُونَ فِي مَوْضِعٍ لَا يَصْلُحُ لِلْقِتَالِ، وَيُخْشَىٰ عَلَيْكُمْ مِنْهُ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّهُمْ أَشَارُوا عَلَىٰ رَسُولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَّا يَخْرُجَ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَأَنَّ الْحَزْمَ الْبَقَاءُ فِيهَا.

وَمِنْهَا: الشُّرُوعُ فِي الْفِعْلِ؛ كَقَوْلِ الْمُؤْمِنِ: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ كَمَا إِذَا قُلْتَ عِنْدَ الشُّرُوعِ فِي الْقِرَاءَةِ: «بِاسْمِ اللهِ»، فَإِنَّهُ يُفِيدُ أَنَّ الْمُرَادَ: «بِاسْمِ اللهِ أَقْرَأُ»، وَكَذَا عِنْدَ الشُّرُوعِ فِي الْقِيَامِ، أَوْ الْقُعُودِ، أَوْ أَيِّ فِعْلٍ كَانَ؛ فَإِنَّ الْمَحْذُوفَ يُقَدَّرُ عَلَىٰ حَسْبِ مَا جُعِلَتِ التَّسْمِيَةُ مَبْدَأً لَهُ.

وَمِنْهَا: اقْتِرَانُ الْكَلَامِ بِالْفِعْلِ؛ فَإِنَّهُ يُفِيدُ تَقْرِيرَهُ؛ كَقَوْلِكَ لِمَنْ أَعْرَسَ: «بِالرَّفَاءِ وَالْبَنِينَ»؛ فَإِنَّهُ يُفِيدُ: بِالرَّفَاءِ وَالْبَنِينَ أَعْرَسْتَ.



الْإِطْنَابُ

صُوَرُ الْإِطْنَابِ:

أَوَّلًا: الْإِيضَاحُ بَعْدَ الْإِبْهَامِ

• الْأَغْرَاضُ وَالْأَسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ لِلْإِيضَاحِ بَعْدَ الْإِبْهَامِ:

١ - لِيُرَىٰ الْمَعْنَىٰ فِي صُورَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ[١].

٢ - أَوْ لِيَتَمَكَّنَ فِي النَّفْسِ فَضْلَ تَمَكُّنٍ؛ فَإِنَّ الْمَعْنَىٰ إِذَا أُلْقِي عَلَىٰ سَبِيلِ الْإِجْمَالِ وَالْإِبْهَامِ، تَشَوَّقَتْ نَفْسُ السَّامِعِ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهِ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّفْصِيلِ وَالْإِيضَاحِ، فَتَتَوَجَّهُ إِلَىٰ مَا يَرِدُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَإِذَا أُلْقِي كَذَلِكَ تَمَكَّنَ فِيهَا فَضْلَ تَمَكُّنٍ، وَكَانَ شُعُورُهَا بِهِ أَتَمَّ.

٣ ـ أَوْ لِتَكْمُلَ اللَّذَّةُ بِالْعِلْمِ بِهِ[٢]؛ فَإِنَّ الشَّيْءَ إِذَا حَصَلَ كَمَالُ الْعِلْمِ بِهِ دَفْعَةً لَمْ يَتَقَدَّمْ حُصُولُ اللَّذَّةِ بِهِ أَلَمٌ، وَإِذَا حَصَلَ الشُّعُورُ بِهِ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ تَشَوَّفَتِ النَّفْسُ إِلَىٰ الْعِلْمِ بِالْمَجْهُولِ، فَيَحْصُلُ لَهَا بِسَبَبِ الْمَعْلُومِ لَذَّةٌ، وَبِسَبَبِ حِرْمَانِهَا مِنَ الْبَاقِي أَلَمٌ، ثُمَّ إِذَا حَصَلَ لَهَا الْعِلْمُ بِهِ حَصَلَتْ لَهَا لَذَّةٌ أُخْرَىٰ، وَاللَّذَّةُ عَقِيبَ الْأَلَمِ أَقْوَىٰ مِنَ اللَّذَّةِ الَّتِي لَمْ يَتَقَدَّمْهَا أَلَمٌ.

٤ ـ أَوْ لِتَفْخِيمِ الْأَمْرِ وَتَعْظِيمِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي

---

(١) إِحْدَاهُمَا مُبْهَمَةٌ، وَالْأُخْرَىٰ مُوضِّحَةٌ.

(٢) أَيْ: بِالْمَعْنَىٰ لِمَا لَا يَخْفَىٰ مِنْ أَنَّ نَيْلَ الشَّيْءِ بَعْدَ الشَّوْقِ وَالطَّلَبِ أَلَذُّ.

﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ۝٢٥﴾ [طه: ٢٥ - ٢٦]، فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿ٱشۡرَحۡ لِي﴾ يُفِيدُ طَلَبَ شَرْحٍ لِشَيْءٍ مَا لَهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿صَدۡرِي﴾ يُفِيدُ تَفْسِيرَهُ وَبَيَانَهُ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾، وَالْمَقَامُ مُقْتَضٍ لِلتَّأْكِيدِ لِلْإِرْسَالِ الْمُؤْذِنِ بِتَلَقِّي الْمَكَارِهِ وَالشَّدَائِدِ. وَكَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦]، فَفِي إِبْهَامِهِ وَتَفْسِيرِهِ تَفْخِيمٌ لِلْأَمرِ، وَتَعْظِيمٌ لَهُ.

٥- وَمِنَ الْإِيضَاحِ بَعْدَ الْإِبْهَامِ: لِلْمَدْحِ وَالذَّمِّ بِـ(نِعْمَ وَبِئْسَ).

وَمِنَ الْإِيضَاحِ بَعْدَ الْإِبْهَامِ بَابُ: «نِعْمَ وَبِئْسَ»[١] عَلَىٰ أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ[٢]؛ إِذْ لَوْ لَمْ يُقْصَد الْإِطْنَابُ، لَقِيلَ: (نِعْمَ زَيْدٌ، وَبِئْسَ عَمْرٌو).

تَرْبِيَةُ الْفَائِدَةِ فِي الْمَدْحِ وَالذَّمِّ فِي بَابِ: (نِعْمَ وَبِئْسَ):

وَوَجْهُ حُسْنِهِ سِوَىٰ الْإِيضَاحِ بَعْدَ الْإِبْهَامِ أَمْرَانِ آخَرَانِ:

أَحَدُهُمَا: إِبْرَازُ الْكَلَامِ فِي مَعْرِضِ الِاعْتِدَالِ؛ نَظَرًا إِلَىٰ إِطْنَابِهِ مِنْ وَجْهٍ، وَإِلَىٰ اخْتِصَارِهِ مِنْ آخَرَ، وَهُوَ حَذْفُ الْمُبْتَدَأِ فِي الْجَوَابِ.

وَالثَّانِي: إِيهَامُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْمُتَنَافِيَيْنِ.

وَمِنَ الْإِيضَاحِ بَعْدَ الْإِبْهَامِ: التَّوْشِيعُ.

---

(١) مِثْلَ: نِعْمَ الرَّجُلُ زَيْدٌ، وَبِئْسَ الرَّجُلُ عَمْرٌو.

(٢) وَهُوَ: أَنَّ الْمَخْصُوصَ بِالْمَدْحِ أَو الذَّمِّ خَبَرٌ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، تَقْدِيرُهُ: هُوَ زَيْدٌ، أَوْ هُوَ عَمْرٌو، فتكُونُ هَاهُنَا جُمْلَتَانِ، الْأُولَىٰ مُبْهَمَةٌ، هِيَ: نِعْمَ الرَّجُلُ زَيْدٌ، وَالثَّانِيَةُ مُوَضِّحَةٌ هِيَ: هُوَ زَيْدٌ، وَكَذَلِكَ فِي الذَّمِّ.

وَمِنْهُ التَّوْشِيعُ، وَهُوَ: أَنْ يُؤْتَىٰ فِي عَجُزِ الْكَلَامِ[1] بِمُثَنًّى[2] مُفَسَّرٍ بِاسْمَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا مَعْطُوفٌ عَلَىٰ الْآخَرِ، كَمَا جَاءَ فِي الْخَبَرِ: «يَشِيبُ ابْنُ آدَمَ وَيَشُبُّ فِيهِ خَصْلَتَانِ: الْحِرْصُ، وَطُولُ الْأَمَلِ»[3] وَقَوْلِ الشَّاعِرِ[4]

سَقَتْنِي فِي لَيْلٍ شَبِيهٍ بِشَعْرِهَا ... شَبِيهَةَ خَدَّيْهَا بَغَيْرِ رَقِيبْ

فَمَا زِلْتُ فِي لَيْلَيْنِ: شَعْرٍ وَظُلْمَةٍ ... وَشَمْسَيْنِ: مِنْ خَمْرٍ وَوَجْهِ حَبِيبْ

وَقَوْلِ الْبُحْتُرِيِّ[5]:

لَمَّا مَشَيْنَ بِذِي الْأَرَاكِ تَشَابَهَتْ ... أَعْطَافُ قُضْبَانٍ بِهِ وَقُدُودِ

فِي حُلَّتَيْ حِبْرٍ وَرَوْضٍ فَالْتَقَىٰ ... وَشْيَانِ: وَشْيُ رُبًى وَوَشْيُ بُرُودِ

وَسَفَرْنَ فَامْتَلَأَتْ عُيُونٌ رَاقَهَا ... وَرْدَانِ: وَرْدُ جَنًى وَوَرْدُ خُدُودِ

---

(١) الصَّوَابُ: أَنَّهُ يَأْتِي فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ أَوْ فِي وَسَطِهِ؛ لِأَنَّ تَقْيِيدَهُ بِالْعَجُزِ لَيْسَ لَهُ وَجْهٌ أَوْ مَعْنًىٰ.

(٢) وَتَقْيِيدُهُ بِالْمُثَنَّىٰ لاَ مَعْنَىٰ لَهُ لِوُقُوعِهِ فِي غَيْرِهِ كَقَوْلِهِ:

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهَا

شَمْسُ الضُّحَىٰ وَأَبُو إِسْحَاقَ وَالْقَمَرُ

(٣) تَجِدُ هَذَا الْخَبَرَ فِي الْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ، ٣/٩٥، وَمَعْنَىٰ «وَيَشُبُّ فِيهِ»: يَنْمُو.

(٤) الْبَيْتُ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُعْتَزِّ.

(٥) مِنْ قَصِيدَةٍ لَهُ فِي مَدْحِ الْمُتَوَكِّلِ «دِيوَانُ الْبُحْتُرِيِّ، ص ١٢٦، والأَدَبُ الْعَبَّاسِيُّ ص ٤٩٩». الْأَعْطَافُ: الْجَوَانِبُ. الْقُضْبَانُ: الْأَغْصَانُ. الْقُدُودُ: الْقَامَاتُ. الْحُلَّةُ: الثَّوْبُ الْجَدِيدُ. الْحِبْرُ: ضَرْبٌ مِنْ بُرُودِ الْيَمَنِ. الْوَشْيِ: النَّقْشُ. الرُّبَىٰ: جَمْعُ رَبْوَةٍ مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ. الْبُرُودُ جَمْعُ بُرْدٍ وَهُوَ كِسَاءٌ مُخَطَّطٌ.

ثَانِيًا: ذِكْرُ الْخَاصِّ بَعْدَ الْعَامِّ:

وَإِمَّا بذِكْر الْخَاصِّ بَعْدَ الْعَامِّ لِلتَّنْبِيهِ عَلَىٰ فَضْلِهِ[1] حَتَّىٰ كَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ جِنْسِهِ[2] تَنْزِيلاً لِلتَّغَايُرِ فِي الْوَصْفِ مَنْزِلَةَ التَّغَايُرِ فِي الذَّاتِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

ثَالِثًا: التَّكْرِيرُ:

الْأَغْرَاضُ الْبَلَاغِيَّةُ لِلْإِطْنَابِ بِالتَّكْرِيرِ:

وَإِمَّا بِالتَّكْرِيرِ لِنُكْتَةٍ[3].

١ - كَتَأْكِيدِ الْإِنْذَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣ - ٤]، وَفِي ثُمَّ[4] دَلاَلَةٌ عَلَىٰ أَنَّ الإِنْذَارَ الثَّانِي أَبْلَغُ وَأَشَدُّ.

٢ - وَكَزِيَادَةِ التَّنْبِيهِ عَلَىٰ مَا يَنْفِي التُّهْمَةَ، لِيَكْمُلَ تَلَقِّي الْكَلَامِ بِالْقَبُولِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ[5] ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ

(١) أَيْ: لِلتَّنْبِيهِ عَلَىٰ فَضْلِ وَمَزِيَّةِ الْخَاصِّ.

(٢) أَيْ: حَتَّىٰ كَأَنَّ الْخَاصَّ لَيْسَ مِنْ جِنْسِ الْعَامِّ.

(٣) لِيَكُونَ إِطْنَابًا لاَ تَطْوِيلاً.

(٤) أَيْ: وَفِي الْعَطْفِ بِـ (ثُمَّ).

(٥) التَّكْرِيرُ أَو التَّكْرَارُ هُنَا بِإِعَادَةِ النِّدَاءِ، وَلَفْظُ الْمُنَادَىٰ (قَوْم) مُضَافًا إِلَىٰ ضَمِيرِهِ؛ لِلإِشَارَةِ إِلَىٰ أَنَّهُ مِنْهُمْ، وَيَدْعُوهُم لِمَصْلَحَتِهِم ، وَلَيْسَ لِمَصْلَحَةٍ خَاصَّةٍ بِهِ، فَهَذَا مَعْنَىٰ زِيَادَةِ التَّنْبِيه عَلَىٰ مَا يَنْفِي التُّهْمَةَ.

﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ [غافر: ٣٨ - ٣٩].

٣ ـ وَقَدْ يُكَرَّرُ اللَّفْظُ لِطُولٍ فِي الْكَلَامِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩]، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ١١٠].

٤ ـ وَقَدْ يُكَرَّرُ؛ لِتَعَدُّدِ الْمُتَعَلِّقِ كَمَا كَرَّرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣]؛ لِأَنَّهُ تَعَالَىٰ ذَكَرَ نِعْمَةً بَعْدَ نِعْمَةٍ، وَعَقَّبَ كُلَّ نِعْمَةٍ بِهَذَا الْقَوْلِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ ذِكْرِهِ عَقِيبَ نِعْمَةٍ غَيْرُ الْغَرَضِ مِنْ ذِكْرِهِ عَقِيبَ نِعْمَةٍ أُخْرَىٰ.

فَإِنْ قِيلَ: قَدْ عَقَّبَ بِهَذَا الْقَوْلِ مَا لَيْسَ بِنِعْمَةٍ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾ [الرحمن: ٤٣ - ٤٤].

قُلْنَا: الْعَذَابُ وَجَهَنَّمُ وَإِنْ لَمْ يَكُونَا مِنْ آلَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَإِنَّ ذِكْرَهُمَا وَوَصْفَهُمَا عَلَىٰ طَرِيقِ الزَّجْرِ عَنِ الْمَعَاصِي وَالتَّرْغِيبِ فِي الطَّاعَاتِ مِنْ آلَائِهِ تَعَالَىٰ. وَنَحْوِهِ قَوْلُهُ: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥]؛ لأَنَّهُ تَعَالَىٰ ذَكَرَ قِصَصًا مُخْتَلِفَةً، وَأَتْبَعَ كُلَّ قِصَّةٍ بِهَذَا الْقَوْلِ، فَصَارَ كَأَنَّهُ قال عَقِبَ كُلِّ قِصَّةٍ: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ.

رَابِعًا: الْإِيغَالُ:

وَاخْتُلِفَ فِي مَعْنَاهُ، فَقِيلَ: هُوَ خَتْمُ الْبَيْتِ بِمَا يُفِيدُ نُكْتَةً يَتِمُّ الْمَعْنَىٰ بِدُونِهَا.

الْأَغْرَاضُ الْبَلَاغِيَّةُ لِلْإِطْنَابِ بِالْإِيغَالِ:

١ ـ كَزِيَادَةِ الْمُبَالَغَةِ[1] فِي قَوْلِ الْخَنْسَاءِ:

وَإِنَّ صَخْـرًا لَتَأْتَـمُّ الْهُـدَاةُ بِـهِ ... كَأَنَّـهُ عَلَـمٌ فِـي رَأْسِـهِ نَـارُ[2]

لَمْ تَرْضَ أَنْ تُشَبِّهَهُ بِالْعَلَمِ الَّذِي هُوَ الْجَبَلُ الْمُرْتَفِعُ الْمَعْرُوفُ بِالْهِدَايَةِ حَتَّىٰ جَعَلَتْ فِي رَأْسِهِ نَارًا، وَقَوْلِ ذِي الرُّمَّةِ:

قِفِ الْعِيسَ فِي أَطْلَالِ مَيَّةَ وَاسْأَلِ ... رُسُومًا كَأَخْلَاقِ الرِّدَاءِ الْمُسَلْسَلِ

أَظُنُّ الَّذِي يُجْدِي عَلَيْكَ سُؤَالُهَا ... دُمُوعًا كَتَبْذِيرِ الْجُمَانِ الْمُفَصَّلِ[3]

---

(١) أَيْ: كَزِيَادَةِ الْمُبَالَغَةِ فِي التَّشْبِيهِ فِي قَوْلِ الْخَنْسَاءِ.

(٢) الْعَلَمُ: الْجَبَلُ. رَأْسُهُ، قِمَّتُهُ، وَالضَّمِيرُ فِي الرَّأْسِ يَعُودُ لِلْجَبَلِ. تَأْتَمُّ: تَقْتَدِي وَتَتْبَعُ. الْهُدَاةُ: الَّذِينَ يَهْدُونَ النَّاسَ جَمْعُ هَادٍ. وَالشَّاهِدُ فِي الْبَيْتِ قَوْلُهَا: «فِي رَأْسِهِ نَارُ» فَإِنَّهَا زِيَادَةٌ لِلْإِيغَالِ، وَجِيءَ بِهَذِهِ الزِّيَادَةِ لِغَرَضِ الْمُبَالَغَةِ فِي التَّشْبِيهِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: «كَأَنَّهُ عَلَمٌ» وَافٍ بِالْمَقْصُودِ؛ أَعْنِي التَّشْبِيهَ بِمَا يُهْتَدَىٰ بِهِ وَهُوَ الْجَبَلُ، إِلَّا أَنَّ قَوْلَهَا: «فِي رَأْسِهِ نَارُ» زِيَادَةُ مُبَالَغَةٍ فِي مَدْحِ صَخْرٍ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْجَبَلَ الْمُرْتَفِعَ جِدًّا قَدْ تَخْتَفِي قِمَّتُهُ عَنِ الْأَعْيُنِ، فَلَمَّا قَالَت: (فِي رَأْسِهِ نَارُ) دَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ مَعَ عِلْوِهِ وَشُمُوخِهِ، فَإِنَّهُ وَاضِحُ الْمَخَايِلِ لِمَنْ يَأْتَمُّونَ بِهِ.

(٣) الْعِيسُ: الْإِبِلُ الْبِيضُ يُخَالِطُ بَيَاضَهَا سَوَادٌ خَفِيفٌ. الْأَطْلَالُ: جَمْعُ طَلَلٍ، وَهُوَ الشَّاخِصُ مِنَ الْآثَارِ. الرُّسُومُ: جَمْعُ رَسْمٍ، وَهُوَ مَا كَانَ لَاحِقًا بِالْأَرْضِ مِنْهَا، الْأَخْلَاقُ: جَمْعُ خَلَقٍ بِفَتْحَتَيْنِ وَهُوَ الْبَالِي. الْمُسَلْسَلُ: الرَّدِيءُ النَّسْجِ. يُجْدِي: يُعْطِي. التَّبْذِيرَ: التَّفْرِيقَ. الْجُمَانَ الْمُفَصَّلَ: اللُّؤْلُؤَ الْمُنَظَّمَ.

وَالشَّاهِدُ فِي الْبَيْتِ: «الْمُسَلْسَل»، و«الْمُفَصَّل» فَإِنَّهُمَا زِيَادَتَانِ لِلْإِيغَالِ جِيءَ بِهِمَا لِلْمُبَالَغَةِ فِي التَّشْبِيهِ.

٢ ـ وَكَتَحْقِيقِ التَّشْبِيهِ فِي قَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ:

كَأَنَّ عُيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا ... وَأَرْحُلِنَا الْجَزْعُ الَّذِي لَمْ يُثَقَّبِ

فَإِنَّهُ: لَمَّا أَتَىٰ عَلَىٰ التَّشْبِيهِ قَبْلَ ذِكْرِ الْقَافِيَةِ، وَاحْتَاجَ[١] إِلَيْهَا جَاءَ بِزِيَادَةٍ حَسَنَةٍ فِي قَوْلِهِ: «لَمْ يُثَقَّبِ»؛ لِأَنَّ الْجَزْعَ إِذَا كَانَ غَيْرَ مَثْقُوبٍ كَانَ أَشْبَهَ بِالْعُيُونِ، وَمِثْلُهُ قَوْلُ زُهَيْرٍ:

كَأَنَّ فُتَاتَ الْعِهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ ... نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَا[٢] لَمْ يُحَطَّمِ

فَإِنَّ حَبَّ الْفَنَا أَحْمَرُ الظَّاهِرِ أَبْيَضُ الْبَاطِنِ، فَهُوَ لَا يُشْبِهُ الصُّوفَ الْأَحْمَرَ إِلَّا مَا لَمْ يُحَطَّمْ، وَكَذَا قَوْلُ امْرِيءِ الْقَيْسِ:

حَمَلْتُ رُدَيْنِيًّا كَأَنَّ سِنَانَهُ ... سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَتَّصِلْ بِدُخَانِ[٣]

عَدَمُ اخْتِصَاصِ الْإِيغَالِ بِالشِّعْرِ:

وَقِيلَ: لَا يَخْتَصُّ بِالنَّظْمِ[٤]، وَمُثِّلَ لَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا

---

(١) وَمَعْنَىٰ ذَلِكَ: أَنَّ زِيَادَةَ الْإِيْغَالِ نَوْعَانِ:
الْأَوَّلُ: زِيَادَةٌ يَأْتِي الْمَعْنَىٰ بِدُونِهَا، وَتَأْتِي لِنُكْتَةٍ أَو مَزِيَّةٍ كَزِيَادَةِ الْمُبَالَغَةِ.
الْآخَرُ: زِيَادَةٌ يَحْتَاجُ الْمَعْنَىٰ إِلَيْهَا، كَمَا فِي قَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ؛ لَأَنَّ الْجَزْعَ وَهُو الْخَرَزُ الْمُسْتَدِيرُ عَادَةً مَا يَكُونُ مُثَقَّبًا، فَلَمَّا أَرَادَ الشَّاعِرُ مُطَابَقَةَ الْمُشَبَّهِ (عُيُونَ الْوَحْشِ) لِلْمُشَبَّهِ بِهِ (الْجَزْع) نَفَىٰ عَنْهُ التَّثْقِيبَ.

(٢) الْفَنَا: شَجَرٌ يُثْمِرُ ثَمَرًا أَحْمَرَ، ثُمَّ يَتَفَرَّقُ فِي هَيْئَةِ النَّبْقِ الصِّغَارِ، فَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ التَّشْبِيهِ، وَإِنَّمَا وَصَفَ مَا يَسْقُطُ مِنْ أَنْمَاطِهِنَّ إِذَا أُنْزِلْنَ، وَالْعِهْنُ: الصُّوفُ الْمُلَوَّنُ.

(٣) وَالشَّاهِدُ فِيهِ قَوْلُهُ: «لَمْ يَتَّصِلْ بِدُخَانٍ»، فَهِيَ زِيَادَةٌ أُتِي بِهَا إِيغَالاً لِتَحْقِيقِ التَّشْبِيهِ.

(٤) فَالإِيْغَالُ عَلَىٰ الْوَجْهِ الْأَوَّلِ مُخْتَصٌّ بِالنَّظْمِ، وَعَلَىٰ الْوَجْهِ الثَّانِي لاَ يَخْتَصُّ بِهِ، فَهُوَ عَلَىٰ هَذَا:

يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [يس: ٢١][(١)].

خَامِسًا: التَّذْيِيلُ:

وَهُوَ تَعْقِيبُ الْجُمْلَةِ بِجُمْلَةٍ تَشْتَمِلُ[(٢)] عَلَىٰ مَعْنَاهَا لِلتَّوْكِيدِ[(٣)].

وَهُوَ ضَرْبَانِ:

١ ـ ضَرْبٌ لَا يَخْرُجُ مَخْرَجَ الْمَثَلِ لِعَدَمِ اسْتِقْلَالِهِ بِإِفَادَةِ الْمُرَادِ، وَتَوَقُّفِهِ عَلَىٰ مَا قَبْلَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴾ [سبأ: ١٧]، إِنْ قُلْنَا: إِنَّ الْمَعْنَىٰ: وَهَلْ يُجَازَىٰ ذَلِكَ الْجَزَاءُ.

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: وَفِيهِ وَجْهٌ آخَرُ، وَهُوَ: أَنَّ الْجَزَاءَ عَامٌّ لِكُلِّ مُكَافَأَةٍ تُسْتَعْمَلُ تَارَةً فِي مَعْنَىٰ الْمُعَاقَبَةِ، وَأُخْرَىٰ فِي مَعْنَىٰ الْإِثَابَةِ، فَلَمَّا اسْتُعْمِلَ فِي مَعْنَىٰ الْمُعَاقَبَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ﴾ بِمَعْنَىٰ عَاقَبْنَاهُمْ بِكُفْرِهِمْ، قِيلَ:

خَتْمُ الْكَلَامِ شِعْرًا أَوْ نَثْرًا بِمَا يُفِيدُ نُكْتَةً يَتِمُّ الْمَعْنَىٰ بِدُونِهَا؛ أَيْ: بِدُونِ التَّصْرِيحِ بِهَا لَا بِدُونِهَا أَصْلًا.

(١) فَقَوْلُهُ: ﴿ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ مِمَّا يَتِمُّ الْمَعْنَىٰ بِدُونِهِ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ مُهْتَدٍ لَا مَحَالَةَ؛ إِلَّا أَنَّ فِي التَّصْرِيحِ بِهِ (زِيَادَةَ حَثٍّ عَلَىٰ التَّرْغِيبِ فِي اتِّبَاعِ الرُّسُلِ).

(٢) أَيْ: تِلْكَ الْجُمْلَةُ الْمُعَقَّبُ بِهَا.

(٣) أَيْ: بِقَصْدِ التَّقْوِيَةِ بِتِلْكَ الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ عِنْدَ اقْتِضَاءِ الْمَقَامِ لِلتَّوْكِيدِ، فَالتَّذْيِيلُ أَعَمُّ مِنَ الْإِيغَالِ عُمُومًا، وَهُمَا يَجْتَمِعَانِ فِيمَا يَكُونُ فِي خَتْمِ الْكَلَامِ لِنُكْتَةِ التَّأْكِيدِ بِجُمْلَةٍ كَمَا فِي: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم ﴾ الْآيَةَ، فَهَذَا إِيغَالٌ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ خَتَمَ الْكَلَامَ بِمَا فِيهِ نُكْتَةٌ يَتِمُّ الْمَعْنَىٰ بِدُونِهَا، وَتَذْيِيلٌ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ تَعْقِيبُ الْجُمْلَةِ بِأُخْرَىٰ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ مَعْنَاهَا لِلتَّأْكِيدِ، وَيَنْفَرِدُ الْإِيغَالُ فِيمَا يَكُونُ بِغَيْرِ جُمْلَةٍ، وَفِيمَا هُوَ لِغَيْرِ التَّأْكِيدِ سَوَاءٌ كَانَ بِجُمْلَةٍ أَمْ بِمُفْرَدٍ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: «لَمْ يُثَقَّبِ»، وَيَنْفَرِدُ التَّذْيِيلُ فِيمَا يَكُونُ فِي غَيْرِ خَتْمِ الْكَلَامِ بِجُمْلَةٍ، كَقَوْلِكَ: مَدَحْتُ زَيْدًا، أَثْنَيْتُ عَلَيْهِ بِمَا فِيهِ فَأَحْسَنَ إِلَيَّ.

فَالتَّذْيِيلُ: يَكُونُ فِي آخِرِ الْكَلَامِ وَغَيْرِ آخِرِ الْكَلَامِ بِخِلَافِ الْإِيغَالِ، فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْآخِرِ، وَالْإِيغَالُ قَدْ يَكُونُ بِغَيْرِ الْجُمْلَةِ، أَمَّا التَّذْيِيلُ فَلَا يَكُونُ إِلَّا بِالْجُمْلَةِ وَلِلتَّوْكِيدِ.

وَهَلْ يُجَازَىٰ إِلَّا الْكَفُورُ؟ بِمَعْنَىٰ وَهَلْ يُعَاقَبُ؟ فَعَلَىٰ هَذَا يَكُونُ مِنَ الضَّرْبِ الثَّانِي[1].

وَقَوْلِ الْحَمَاسِيِّ[2]

فَدَعَوا: نَزَالِ فَكُنْتُ أَوَّلَ نَازِلٍ   وَعَلَامَ أَرْكَبُهُ إِذَا لَمْ أَنْزِلِ؟!

وَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ:

وَمَا حَاجَةُ الْأَظْعَانِ حَوْلَكِ فِي الدُّجَىٰ   إِلَىٰ قَمَرٍ مَا وَاجِدٌ لَكِ عَادِمُهْ[3]

وَقَوْلِهِ أَيْضًا:

تُمْسِي الْأَمَانِيُّ صَرْعَي دُونَ مَبْلَغِهِ   فَمَا يَقُولُ لِشَيْءٍ لَيْتَ ذَلِكَ لِي[4]

وَقَوْلِ ابْنِ نُبَاتَةَ السَّعْدِيِّ:

لَمْ يُبْقِ جُودُكَ لِي شَيْئًا أُؤَمِّلُهُ   تَرَكْتَنِي أَصْحَبُ الدُّنْيَا بِلَا أَمَلِ

قِيلَ: نَظَرَ فِيهِ إِلَىٰ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ، وَقَدْ أَرْبَىٰ عَلَيْهِ فِي الْمَدْحِ وَالْأَدَبِ مَعَ

---

(١) وَهُوَ مَا أُخْرِجَ مَخْرَجَ الْمَثَلِ، وَذَلِكَ عَلَىٰ أَنْ يُرَادَ: وَهَلْ يُعَاقَبُ -أَيْ بِمُطْلَقِ عِقَابٍ لاَ بِعِقَابٍ مَخْصُوصٍ- إِلَّا الْكَفُورَ؛ بِنَاءً عَلَىٰ أَنَّ الْمُجَازَاةَ هِيَ الْمُكَافَأَةُ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَأَمَّا عَلَىٰ الْوَجْهِ الْأَوَّلِ؛ فَبِنَاءً عَلَىٰ أَنَّ الْجَزَاءَ بِمَعْنَىٰ الْعُقُوبَةِ.

(٢) هُوَ رَبِيعَةُ بْنُ مَقْرُومٍ الضَّبِّيُّ «الْحَمَاسَةُ، ١/ ٢٢». وَرَاجِعْ الْبَيْتَ فِي: الصِّنَاعَتَيْنِ، ص٣٦٦.

(٣) الظَّعِينَةُ: الْمَرْأَةُ فِي الْهَوْدَجِ. مَا نَافِيَةٌ، وَالْمَعْنَىٰ: لَيْسَ الْوَاجِدُ لَكِ عَادِمَ الْقَمَرِ؛ لأَنَّكِ تَقُومِينَ مَقَامَهُ.

(٤) الشَّطْرُ الْأَوَّلُ يَعْنِي: أَنَّ الْمَمْدُوحَ سَيْفَ الدَّوْلَةِ بَلَغَ مِنْ عَزِيمَتِهِ أَنَّ الْأَمَانِي الْبَعِيدَةَ تُصْبِحُ مِنْهُ قَرِيبَةَ الْمَنَالِ دُونَ أَنْ يَسْعَىٰ إِلَيْهَا، وَالشَّطْرُ الثَّانِي تَذْيِيلٌ يُؤَكِّدُ هَذَا الْمَعْنَىٰ.

الْمَمْدُوحِ؛ حَيْثُ لَمْ يَجْعَلْهُ فِي حَيِّزِ مَنْ تَمَنَّىٰ شَيْئًا[1].

٢- وَضَرْبٌ يَخْرُجُ مَخْرَجَ الْمَثَلِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

وَقَوْلِ الذُّبْيَانِيِّ:

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ ... عَلَىٰ شَعَثٍ، أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبُ؟!

وَقَوْلِ الْحُطَيْئَةِ:

تَزُورُ فَتًىٰ يُعْطِي عَلَىٰ الْحَمْدِ مَالَهُ ... وَمَنْ يُعْطِ أَثْمَانَ الْمَكَارِمِ يُحْمَدِ

وَقَدِ اجْتَمَعَ الضَّرْبَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٤ - ٣٥]، فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ مِنَ الْأَوَّلِ، وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الثَّانِي، وَكُلٌّ مِنْهُمَا تَذْيِيلٌ عَلَىٰ مَا قَبْلَهُ.

وَهُوَ[2] أَيْضًا: إِمَّا لِتَأْكِيدِ مَنْطُوقِ كَلَامٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾[3]، وَإِمَّا لِتَأْكِيدِ مَفْهُومِهِ[4] كَبَيْتِ النَّابِغَةِ، فَإِنَّ صَدْرَهُ دَلَّ بِمَفْهُومِهِ عَلَىٰ نَفْيِ الْكَامِلِ مِنَ الرِّجَالِ، فَحَقَّقَ ذَلِكَ، وَقَرَّرَهُ بِعَجُزِهِ.

---

(١) يَعْنِي أَنَّ السَّعْدِيَّ أَخَذَ مَعْنَىٰ الْمُتَنَبِّي وَزَادَ عَلَيْهِ فِي الْمَدْحِ وَالْأَدَبِ رَغْمَ اخْتِلَافِ الْمُتَمَنِّي.

(٢) أَيْ: التَّذْيِيلُ مُطْلَقًا سَوَاءٌ كَانَ مِنَ الضَّرْبِ الْأَوَّلِ أَوْ الثَّانِي.

(٣) فَإِنَّ زَهُوقَ الْبَاطِلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ مَنْطُوقٌ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾، وَالْمُرَادُ بِالْمَنْطُوقِ هُنَا: الْمَعْنَىٰ الَّذِي نَطَقَ بِمَادَّتِهِ.

(٤) أَيْ: مَفْهُومُ الْكَلَامِ «الْجُمْلَةُ الْأُولَىٰ».

سَادِسًا: التَّكْمِيلُ:

وَإمَا بِالتَّكْمِيلِ -وَيُسَمَّىٰ الِاحْتِرَاسَ أَيْضًا- وَهُوَ: أَنْ يُؤْتَىٰ فِي كَلَامٍ يُوهِمُ خِلَافَ الْمَقْصُودِ بِمَا يَدْفَعُهُ.

وَهُوَ ضَرْبَانِ:

١ ـ ضَرْبٌ يَتَوَسَّطُ الْكَلَامَ؛ كَقَوْلِ طَرَفَةَ «مِنَ الْكَامِلِ»:

فَسَقَىٰ دِيَارَكِ -غَيْرَ مُفْسِدِهَا- صَوْبُ الرَّبِيعِ وَدِيمَةٌ تَهْمِي

وَقَوْلِ الْآخَرِ[1] «مِنَ الْكَامِلِ»:

لَوْ أَنَّ عَزَّةَ خَاصَمَتْ شَمْسَ الضُّحَا فِي الْحُسْنِ عِنْدَ مُوَفَّقٍ لَقَضَىٰ لَهَا

إِذْ التَّقْدِيرُ: «عِنْدَ حَاكِمٍ مُوَفَّقٍ»؛ فَقَوْلُهُ: «مُوَفَّقٌ» تَكْمِيلٌ[2].

وَقَوْلِ ابْنِ الْمُعْتَزِّ «مِنْ الطَّوِيلِ»:

صَبَبْنَا عَلَيْهَا -ظَالِمِينَ- سِيَاطَنَا فَطَارَتْ بِهَا أَيْدٍ سِرَاعٌ وَأَرْجُلُ[3]

٢ ـ وَضَرْبٌ يَقَعُ فِي آخِرِ الْكَلَامِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]؛ فَإِنَّهُ لَوِ اقْتَصَرَ

(١) هُوَ كُثَيِّر.

(٢) أي: احْتِرَاسٌ تَوسَّطَ الْكَلَامَ.

(٣) وَالضَّمِيرُ فِي عَلَيْهَا لِلإِبِلِ، وَفِي «بِهَا» لِلسِّيَاطِ. قَوْلُهُ: «ظَالِمِينَ» تَكْمِيلٌ؛ لَأَنَّ ضَرْبَهَا إِنَّمَا يَكُونُ غَالِبًا مِنْ تَثَاقُلٍ فِي السَّيْرِ فَدَفَعَهُ بِذَلِكَ.

عَلَىٰ وَصْفِهِمْ بِالذِّلَّةِ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ لَتُوُهِّمَ أَنَّ ذِلَّتَهُمْ لِضَعْفِهِمْ، فَلَمَّا قِيلَ: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ عُلِمَ أَنَّهَا مِنْهُمْ تَوَاضُعٌ لَهُمْ؛ وَلِذَا عُدِّيَ «الذُّلُّ» بِـ«عَلَىٰ»؛ لِتَضْمِينِهِ مَعْنَىٰ الْعَطْفِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: عَاطِفِينَ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ وَجْهِ التَّذَلُّلِ وَالتَّوَاضُعِ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ التَّعْدِيَةُ بِـ«عَلَىٰ»؛ لِأَنَّ الْمَعْنَىٰ أَنَّهُمْ -مَعَ شَرَفِهِمْ وَعُلُوِّ طَبَقَتِهِمْ وَفَضْلِهِمْ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ- خَافِضُونَ لَهُمْ أَجْنِحَتَهُمْ.

وَمِنْهُ قَوْلُ ابْنِ الرُّومِيِّ[1] فِيمَا كَتَبَ بِهِ إِلَىٰ صَدِيقٍ لَهُ: «إِنِّي وَلِيُّكَ الَّذِي لَا يَزَالُ تَنْقَادُ إِلَيْكَ مَوَدَّتُهُ عَنْ غَيْرِ طَمَعٍ وَلَا جَزَعٍ، وَإِنْ كُنْتَ لِذِي الرَّغْبَةِ مَطْلَبًا، وَلِذِي الرَّهْبَةِ مَهْرَبًا»[2].

وَكَذَا قَوْلُ الْحَمَاسِيِّ[3] «مِن الطَّوِيلِ»:

رَهَنْتُ يَدِي بِالْعَجْزِ عَنْ شُكْرِ بِرِّهِ ... وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشَّكُورِ مَزِيدُ[4]

وَكَذَا قَوْلُ كَعْبِ بْنِ سَعْدٍ الْغَنَوِيِّ «مِنْ الطَّوِيلِ»:

حَلِيمٌ إِذَا مَا الْحِلْمُ زَيَّنَ أَهْلَهُ ... مَعَ الْحِلْمِ فِي عَيْنِ الْعَدُوِّ مَهِيبُ

فَإِنَّهُ لَوْ اقْتَصَرَ عَلَىٰ وَصْفِهِ بِالْحِلْمِ، لَأَوْهَمَ أَنَّ حِلْمَهُ عَنْ عَجْزٍ؛ فَلَمْ يَكُنْ صِفَةَ مَدْحٍ، فَقَالَ: «إِذَا مَا الْحِلْمُ زَيَّنَ أَهْلَهُ» فَأَزَالَ هَذَا الْوَهْمَ، وَأَمَّا بَقِيَّةُ الْبَيْتِ

---

(١) رَاجِعْ: زَهْرُ الْآدَابِ، ٤/ ٢٠٤.

(٢) قَوْلُهُ: (عَنْ غَيْرِ طَمَعٍ وَلاَ جَزَعٍ) احْتِرَاسٌ يُزِيلُ تَوَهُّمَ أَنَّ مَوَدَتَهُ لِغَرَضٍ مَا، وَفِيهِ تَأْكِيدٌ عَلَىٰ إِخْلَاصِ الْمَوَدَةِ.

(٣) الْبَيْتُ غَيْرُ مَنْسُوبٍ لِقَائِلٍ.

(٤) الشَّاهِدُ فِي الشَّطْرِ الثَّانِي، وَفِيهِ احْتِرَاسٌ يَدْفَعُ تَوَهُّمَ أَنَّهُ مُقَصِّرٌ فِي شُكْرِهِ.

فَتَأْكِيدٌ لِلَازِمِ مَا يُفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ: «إِذَا مَا الْحِلْمُ زَيَّنَ أَهْلَهُ» مِنْ كَوْنِهِ غَيْرَ حَلِيمٍ حِينَ لَا يَكُونُ الْحِلْمُ زَيْنًا لِأَهْلِهِ؛ فَإِنَّ مَنْ لَا يَكُونُ حَلِيمًا حِينَ لَا يُحْسِنُ الْحِلْمَ لِأَهْلِهِ يَكُونُ مَهِيبًا فِي عَيْنِ الْعَدُوِّ لَا مَحَالَةَ، فَعُلِمَ أَنَّ بَقِيَّةَ الْبَيْتِ لَيْسَتْ تَكْمِيلًا كَمَا زَعَمَ بَعْضُ النَّاسِ.

وَمِنْهُ قَوْلُ الْحَمَاسِيِّ «مِن الطَّوِيلِ»:

وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ فِي فِرَاشِهِ ... وَلَا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلُ[1]

فَإِنَّهُ لَوْ اقْتَصَرَ عَلَىٰ وَصْفِ قَوْمِهِ بِشُمُولِ الْقَتْلِ إِيَّاهُمْ؛ لَأَوْهَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِضَعْفِهِمْ وَقِلَّتِهِمْ، فَأَزَالَ هَذَا الْوَهْمَ بِوَصْفِهِمْ بِالِانْتِصَارِ مِنْ قَاتِلِهِمْ.

وَكَذَا قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ «مِن الْوَافِرِ»:

أَشَدُّ مِن الرِّيَاحِ الْهُوجِ بَطْشًا ... وَأَسْرَعُ فِي النَّدَىٰ مِنْهَا هُبُوبا

فَإِنَّهُ لَوْ اقْتَصَرَ عَلَىٰ وَصْفِهِ بِشِدَّةِ الْبَطْشِ؛ لَأَوْهَمَ ذَلِكَ أَنَّهُ عُنْفٌ كُلُّهُ، وَلَا لُطْفَ عِنْدَهُ، فَأَزَالَ هَذَا الْوَهْمَ بِوَصْفِهِ بِالسَّمَاحَةِ، وَلَمْ يَتَجَاوَزْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ صِفَةَ الرِّيحِ الَّتِي شَبَّهَهُ بِهَا، وَقَوْلُهُ: «إِنَّهُ أَسْرَعُ فِي النَّدَىٰ مِنْهَا هُبُوبا»؛ كَأَنَّهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُما-: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ؛ كَانَ كَالرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ»[2].

---

(١) الْبَيْتُ لِلسَّمَوْأَلِ بْنِ عَادِيَاءِ، شَاعِرٌ يَهُودِيٌّ جَاهِلِيٌّ، كَانَ مِنَ الْحُكَمَاءِ وَالْأَبْطَالِ الشُّجْعَانِ، وَالشَّطْرُ الْأَوَّلُ كِنَايَةٌ عَنِ الشَّجَاعَةِ وَاقْتِحَامِ غَمَرَاتِ الْحُرُوبِ، والْاحْتِرَاسُ فِي الشَّطْرِ الثَّانِي، و(طُلَّ) بِمَعْنَىٰ: أُهْدِرَ دَمُهُ، فَلَمْ يُقْتَصَّ لَهُ.

(٢) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ ٨/ ١٣، تَحْقِيقُ: جَمَاعَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ الطَّبْعَةُ: السُّلْطَانِيَّةُ، بِالْمَطْبَعَةِ الْكُبْرَىٰ الْأَمِيرِيَّةِ، بِبُولَاقِ مِصْرَ، ١٣١١ هـ. وَقَوْلُ ابْنِ عَبَاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- لَا احْتِرَاسَ فِيهِ، وَلَكِنْ جَاءَ

سَابِعًا: التَّتْمِيمُ:

وَإِمَّا بِالتَّتْمِيمِ، وَهُو: أَنْ يُؤْتَىٰ فِي كَلَامٍ لَا يُوهِمُ خِلَافَ الْمَقْصُودِ بِفَضْلَةٍ تُفِيدُ نُكْتَةً، كَالْمُبَالَغَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾[الإنسان: ٨]، أَيْ: مَعَ حُبِّهِ، وَالضَّمِيرُ لِلطَّعَامِ أَيْ: مَعَ اشْتِهَائِهِ وَالْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَنَحْوِهِ: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾[البقرة: ١٧٧]، وَكَذَا: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران: ٩٢]، وَعَنْ فُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ: «عَلَىٰ حُبِّ اللهِ»؛ فَلَا يَكُونُ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ[1].

وَفِي قَوْلِ الشَّاعِرِ «مِنْ الْمُنْسَرِحِ»:

إِنِّي عَلَىٰ مَا تَرَيْنَ مِنْ كِبَرِي ... أَعْرِفُ مِنْ أَيْنَ تُؤْكَلُ الْكَتِفُ[2]

وَفِي قَوْلِ زُهَيْرٍ «مِنْ الْبَسِيطِ»:

مَنْ يَلْقَ يَوْمًا -عَلَىٰ عِلَّاتِهِ- هَرِمًا ... يَلْقَ السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَىٰ خُلُقًا

بِهِ لِلْإِشَارَةِ إِلَىٰ أَنَّ تَشْبِيهِ النَّدَىٰ بِالرِّيحِ عِنْدَ الْمُتَنَبِّي كَأَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ ابْنِ عَبَاسٍ فِي وَصْفِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

(١) يَقْصِدُ الْآيَةَ الْأُولَىٰ، فَإِنَّهَا عَلَىٰ تَفْسِيرِ فُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ لاَ تَكُونُ مِنَ الاِحْتِرَاسِ؛ لَأَنَّهُ عَلَىٰ هَذَا يَدْخُلُ فِي تَأْدِيَةِ أَصْلِ الْمُرَادِ.

(٢) الْبَيْتُ لِقَيْسِ بْنِ الْخَطِيمِ، وَالشَّاهِدُ فِي قَوْلِهِ: (عَلَىٰ مَا تَرَيْنَ مِنْ كِبَرِي) تَتْمِيمٌ؛ لِلْمُبَالَغَةِ، وَلَيْسَ لِدْفَعِ تَوَهُّمٍ مَا.

ثَامِنًا: الِاعْتِرَاضُ:

وَإِمَّا بِالِاعْتِرَاضِ، وَهُوَ: أَنْ يُؤْتَىٰ فِي أَثْنَاءِ الْكَلَامِ، أَوْ بَيْنَ كَلَامَيْنِ مُتَّصِلَيْنِ مَعْنًىٰ بِجُمْلَةٍ أَوْ أَكْثَرَ لَا مَحَلَّ لَهَا مِنَ الْإِعْرَابِ لِنُكْتَةٍ سِوَىٰ مَا ذُكِرَ فِي تَعْرِيفِ التَّكْمِيلِ.

الْأَغْرَاضُ الْبَلَاغِيَّةُ لِلِاعْتِرَاضِ:

١ - كَالتَّنْزِيهِ وَالتَّعْظِيمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧].

٢ - وَالدُّعَاءُ فِي قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ «مِن الطَّوِيلِ»:

وَتَحْتَقِرُ الدُّنْيَا احْتِقَارَ مُجَرِّبٍ ... يَرَىٰ كُلَّ مَا فِيهَا -وَحَاشَاكَ- فَانِيَا

فَإِنَّ قَوْلَهُ: «وَحَاشَاكَ» دُعَاءٌ حَسَنٌ فِي مَوْضِعِهِ.

٣- وَنَحْوُهُ قَوْلُ عَوْفِ بْنِ مُحَلِّمٍ الشَّيْبَانِيِّ «مِنَ السَّرِيعِ»:

إِنَّ الثَّمَانِينَ -وَبُلِّغْتَهَا- ... قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَىٰ تَرْجُمَانِ

٤- وَالتَّنْبِيهُ فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ «مِنَ الْكَامِلِ»:

وَاعْلَمْ -فَعِلْمُ الْمَرْءِ يَنْفَعُهُ- ... أَنْ سَوْفَ يَأْتِي كُلُّ مَا قُدِرَا[1]

٥- وتَخْصِيصُ أَحَدِ الْمَذْكُورَيْنِ بِزِيَادَةِ التَّأْكِيدِ فِي أَمْرٍ عُلِّقَ بِهِمَا؛ كَقَوْلِهِ

(١) لَمْ يُعْرَفْ قَائِلُهُ.

تَعَالَىٰ: ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ ﴾ [لقمان: ١٤].

٦- وَالْمُطَابَقَةُ مَعَ الْاسْتِعْطَافِ فِي قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ «مِنَ الْكَامِلِ»:

وَخُفُوقُ قَلْبٍ لَوْ رَأَيْتِ لَهِيبَهُ ... «يَا جَنَّتِي» لَرَأَيْتِ فِيهِ جَهَنَّمَا

٧- وَالتَّنْبِيهُ عَلَىٰ سَبَبِ أَمْرٍ فِيهِ غَرَابَةٌ؛ كَمَا فِي قَوْلِ الْآخَرِ «مِنَ الطَّوِيلِ»:

فَلَا هَجْرُهُ يَبْدُو وَفِي الْيَأْسِ رَاحَةٌ ... وَلَا وَصْلُهُ يَبْدُو لَنَا فَنكَارِمُهْ

فَإِنَّ قَوْلَهُ: «فَلَا هَجْرُهُ يَبْدُو» يُشْعِرُ بِأَنْ هَجْرَ الْحَبِيبِ أَحَدُ مَطْلُوبَيْهِ، وَغَرِيبٌ أَنْ يَكُونَ هَجْرُ الْحَبِيبِ مَطْلُوبًا لِلْمُحِبِّ، فَقَالَ: «وَفِي الْيَأْسِ رَاحَةٌ»؛ لِيُنَبِّهَ عَلَىٰ سَبَبِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٧٧] اعْتِرَاضٌ فِي اعْتِرَاضٍ؛ لِأَنَّهُ اعْتَرَضَ بِهِ بَيْنَ الْمَوْصُوفِ وَالصِّفَةِ، وَاعْتَرَضَ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ بَيْنَ الْقَسَمِ وَالْمُقْسَمِ عَلَيْهِ.

وَمِمَّا جَاءَ بَيْنَ كَلَامَيْنِ مُتَّصِلَيْنِ مَعْنَىٰ قَوْلُهُ: ﴿ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢٢٢ - ٢٢٣]، فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ ﴾ بَيَانٌ لِقَوْلِهِ: ﴿ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ يَعْنِي أَنَّ الْمَأْتَىٰ الَّذِي أَمَرَكُمْ بِهِ هُوَ مَكَانُ الْحَرْثِ؛ دَلَالَةً

عَلَىٰ أَنَّ الْغَرَضَ الْأَصْلِيَّ فِي الْإِتْيَانِ هُوَ طَلَبُ النَّسْلِ لَا قَضَاءُ الشَّهْوَةِ[1]، فَلاَ تَأْتُوهُنَّ إِلَّا مِنْ حَيْثُ يَتَأَتَّىٰ فِيهِ هَذَا الْغَرَضُ، وَهُوَ مِمَّا جَاءَ فِي أَكْثَرَ مِنْ جُمْلَةٍ أَيْضًا.

وَنَحْوُهُ فِي كَوْنِهِ[2] أَكْثَرَ مِنْ جُمْلَةٍ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٣٦]، فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ لَيْسَ مِنْ قَوْلِ أُمِّ مَرْيَمَ.

وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٤ - ٤٦]، إن جُعِلَ ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾ بيانًا لـ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ لأَنَّهُمْ يَهُودٌ وَنَصَارَىٰ، أَوْ لِأَعْدَائِكُمْ، فَإِنَّهُ عَلَىٰ الْأَوَّلِ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ اعْتِرَاضًا.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾ صِلَةً لِـ ﴿نَصِيرًا﴾ أَيْ: يَنْصُرُكُمْ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا؛ كَقَوْلِهِ: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ [الأنبياء: ٧٧]، وَأَنْ يَكُونَ كَلَامًا مُبْتَدأً عَلَىٰ أَنَّ ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ صِفَةُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: «مِنَ الَّذِينَ هَادُوا قَوْمٌ يُحَرِّفُونَ»؛ كَقَوْلِهِ:

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا تَارَتَانِ؛ فَمِنْهُمَا ... أَمُوتُ، وَأُخْرَىٰ أَبْتَغِي الْعَيْشَ أَكْدَحُ

(١) لأَنَّ مَكَانَ الْحَرْثِ تُوضَعُ فِيهِ الْبِذْرَةُ لِلإِنْبَاتِ وَالثَّمَرِ، فَفِيهِ دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَىٰ مَا ذُكِرَ.

(٢) أَيْ: الاِعْتِرَاضُ بِأَكْثَرَ مِنْ جُمْلَةٍ.

وَقَدْ عُلِمَ مِمَّا ذَكَرْنَا أَنَّ الِاعْتِرَاضَ كَمَا يَأْتِي بِغَيْرِ وَاوٍ وَلَا فَاءٍ، قَدْ يَأْتِي بِأَحَدِهِمَا. وَوَجْهُ حُسْنِ الِاعْتِرَاضِ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ: حُسْنُ الْإِفَادَةِ، مَعَ أَنَّ مَجِيئَهُ مَجِيءُ مَا لَا مُعَوَّلَ عَلَيْهِ فِي الْإِفَادَةِ، فَيَكُونُ مَثَلُهُ مَثَلَ الْحَسَنَةِ تَأْتِيكَ مِنْ حَيْثُ لَا تَرْتَقِبُهَا.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يُقَيِّدُ فَائِدَةَ الِاعْتِرَاضِ بِمَا ذَكَرْنَاهُ، بَلْ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ دَفْعَ تَوَهُّمِ مَا يُخَالِفُ الْمَقْصُودَ، وَهَؤُلَاءِ فِرْقَتَانِ:

ـ فِرْقَةٌ لَا تَشْتَرِطُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ وَاقِعًا فِي أَثْنَاءِ كَلَامٍ أَوْ بَيْنَ كَلَامَيْنِ مُتَّصِلَيْنِ مَعْنًىٰ؛ بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ فِي آخِرِ كَلَامٍ لَا يَلِيهِ كَلَامٌ، أَوْ يَلِيهِ كَلَامٌ غَيْرُ مُتَّصِلٍ بِهِ مَعْنًىٰ، وَبِهَذَا يُشْعِرُ كَلَامُ الزَّمَخْشَرِيِّ فِي مَوَاضِعَ مَنَ الْكَشَّافِ: «فَالِاعْتِرَاضُ عِنْدَ هَؤُلَاءِ يَشْمَلُ التَّذْيِيلَ»، ومِنَ التَّكْمِيلِ مَا لَا مَحَلَّ لَهُ مِنَ الْإِعْرَابِ؛ جُمْلَةً كَانَ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ جُمْلَةٍ.

ـ وَفِرْقَةٌ تَشْتَرِطُ فِيهِ ذَلِكَ، لَكِنْ لَا تَشْتَرِطُ أَنْ يَكُونَ جُمْلَةً أَوْ أَكْثَرَ مِنْ جُمْلَةٍ.

فَالِاعْتِرَاضُ عِنْدَ هَؤُلَاءِ يَشْمَلُ مِنَ التَّتْمِيمِ مَا كَانَ وَاقِعًا فِي أَحَدِ الْمَوْقِعَيْنِ، وَمِنَ التَّكْمِيلِ مَا كَانَ وَاقِعًا فِي أَحَدِهِمَا، وَلَا مَحَلَّ لَهُ مِنَ الْإِعْرَابِ؛ جُمْلَةً كَانَ أَوْ أَقَلَّ مِنْ جُمَلَةٍ أَوْ أَكْثَرَ.

تَاسِعًا: الْإِطْنَابُ بِزِيَادَةِ قَيْدٍ مُعَيَّنٍ:

وَإِمَّا بِغَيْرِ ذَلِكَ:

• كَقَوْلِهِمْ: «رَأَيْتُهُ بِعَيْنِي»، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [النور: ١٥]، أَيْ: هَذَا الإِفْكُ لَيْسَ إِلَّا قَوْلًا يَجْرِي عَلَىٰ أَلْسِنَتِكُمْ، وَيَدُورُ فِي أَفْوَاهِكُمْ مِنْ غَيْرِ تَرْجَمَةٍ عَنْ عِلْمٍ فِي الْقَلْبِ، كَمَا هُوَ شَأْنُ الْمَعْلُومِ إِذَا تَرْجَمَ عَنْهُ اللِّسَانُ[١].

• وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [البقرة: ١٩٦][٢] لِإِزَالَةِ تَوَهُّمِ الإِبَاحَةِ، كَمَا فِي نَحْوِ قَوْلِنَا: «جَالِسِ الْحَسَنَ أَوْ ابْنَ سِيرِين» وَلْيُعْلَمَ الْعَدَدُ جُمْلَةً كَمَا عُلِمَ تَفْصِيلًا؛ لِيُحَاطَ بِهِ مِنْ جِهَتَيْنِ، فَيَتَأَكَّدُ الْعِلْمُ، وَفِي أَمْثَالِ الْعَرَبِ: «عِلْمَانِ خَيْرٌ مِنْ عِلْمٍ».

• وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿ كَامِلَةٌ ﴾ تَأْكِيدٌ آخَرُ، وَقِيلَ: أَيْ: كَامِلَةٌ فِي وُقُوعِهَا بَدَلًا مِنَ الْهَدْيِ، وَقِيلَ: أُرِيدَ بِهِ تَأْكِيدُ الْكَيْفِيَّةِ لَا الْكَمِّيَّةِ، حَتَّىٰ لَوْ وَقَعَ صَوْمُ الْعَشَرَةِ عَلَىٰ غَيْرِ الْوَجْهِ الْمَذْكُورِ لَمْ تَكُنْ كَامِلَةً.

• وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [غافر: ٧]، فَإِنَّهُ لَوْ لَمْ يَقْصِدْ الإِطْنَابَ لَمْ يَذْكُرْ ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾؛ لِأَنَّ إِيمَانَهُمْ لَيْسَ مِمَّا يُنْكِرُهُ أَحَدٌ مِنْ مُثْبِتِيهِمْ، وَحَسَّنَ

---

(١) كَلَامُ الْخَطِيبِ يَعْنِي أَنَّ الإِطْنَابَ هُنَا زِيَادَةٌ لِفَائِدَةٍ لاَ تَكُونُ إِلاَّ بِهِ.

(٢) بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ ﴾ [البقرة: ١٩٦]، فَيَكُونُ قَوْلُهُ بَعْدَهَا: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ إِطْنَابًا لِفَائِدَتَيْنِ: الأُولَىٰ: إِزَالَةُ تَوَهُّمِ الإِبَاحَةِ عِنْدَ التَّوَهُّمِ بِأَنَّ (أَوْ) بِمَعْنَىٰ (الْوَاو). وَالأُخْرَىٰ: الْعِلْمُ بِالْعَدَدِ جُمْلَةً بَعْدَ الْعِلْمِ بِهِ تَفْصِيلًا لِلتَّأْكِيدِ.

ذِكْرَهُ إِظْهَارُ شَرَفِ الْإِيمَانِ تَرْغِيبًا فِيهِ.

• وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، فَإِنَّهُ لَوْ اخْتُصِرَ لَتُرِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾؛ لِأَنَّ مَسَاقَ الْآيَةِ لِتَكْذِيبِهِمْ فِي دَعْوَىٰ الْإِخْلَاصِ فِي الشَّهَادَةِ كَمَا مَرَّ، وَحَسَّنَهُ دَفْعُ تَوَهُّمِ أَنَّ التَّكْذِيبَ لِلْمَشْهُودِ بِهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ(١)، وَنَحْوِهِ قَوْلُ الْبُلَغَاءِ: «لاَ وَأَصْلَحَكَ اللهُ».

• وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ إِخْبَارًا عَنْ مُوسَىٰ: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨]، وَحَسَّنَهُ أَنَّهُ ـ عَلِيهِ السَّلَامُ ـ فَهِمَ أَنَّ السُّؤَالَ يَعْقُبُهُ أَمْرٌ عَظِيمٌ يُحْدِثُهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الْعَصَا؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَنَبَّهَ لِصِفَاتِهَا حَتَّىٰ يَظْهَرَ لَهُ التَّفَاوُتُ بَيْنَ الْحَالَيْنِ.

• وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١] وَحَسَّنَهُ إِظْهَارُ الِابْتِهَاجِ بِعِبَادَتِهَا، وَالِافْتِخَارُ بِمُوَاظَبَتِهَا؛ لِيَزْدَادَ غَيْظُ السَّائِلِ.

الْإِيجَازُ وَالْإِطْنَابُ النِّسْبِيَّانِ:

وَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ يُوصَفُ الْكَلَامُ بِالْإِيجَازِ وَالْإِطْنَابِ بِاعْتِبَارِ كَثْرَةِ حُرُوفِهِ وَقِلَّتِهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ كَلَامٍ آخَرَ مُسَاوٍ لَهُ فِي أَصْلِ الْمَعْنَىٰ، كَالشَّطْرِ الْأَوَّلِ مِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ «مِنَ الطَّوِيلِ»:

يَصُدُّ عَنِ الدُّنْيَا إِذَا عَنَّ سُؤْدُدٌ ... وَلَوْ بَرَزَتْ فِي زِيِّ عَذْرَاءَ نَاهِدِ

(١) وَبِذَلِكَ يَدْخُلُ التَّكْمِيلُ أَوْ الْاحْتِرَاسُ فِي الِاعْتِرَاضِ فِيمَا لَوْ كَانَ بِجُمْلَةٍ لاَ مَحَلَّ لَهَا مِنَ الْإِعْرَابِ، وَالْبَعْضُ يُجِيزُهُ.

وَقَوْلِ الْآخَرِ[1] «مِنَ الطَّوِيلِ»:

وَلَسْتُ بِنَظَّارٍ إِلَىٰ جَانِبِ الْغِنَىٰ ... إِذَا كَانَتْ الْعَلْيَاءُ فِي جَانِبِ الْفَقْرِ

وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّمَّاخِ «مِنَ الْوَافِرِ»:

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ ... تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِالْيَمِينِ

وَقَوْلُ بِشْرِ بْنِ أَبِي خَازِمٍ «مِنَ الْوَافِرِ»:

إِذَا مَا الْمَكْرُمَاتُ رُفِعْنَ يَوْمًا ... وَقَصَّرَ مُبْتَغُوهَا عَنْ مَدَاهَا

وَضَاقَتْ أَذْرُعُ الْمُثْرِيْنَ عَنْهَا ... سَمَا أَوْسٌ إِلَيْهَا فَاحْتَوَاهَا

وَيَقْرَبُ مِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وَقَوْلُ الْحَمَاسِيِّ[2] «مِنَ الطَّوِيلِ»:

وَنُنْكِرُ إِنْ شِئْنَا عَلَىٰ النَّاسِ قَوْلَهُمْ ... وَلَا يُنْكِرُونَ الْقَوْلَ حِينَ نَقُولُ[3]

وَكَذَا مَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «الْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ»[4].

وَقَوْلُ الْعَرَبِ: «الثِّقَةُ بِكُلِّ أَحَدٍ عَجْزٌ».

---

(١) هُوَ: الْمُعَذَّلُ بْنُ غِيلَانَ، وَالشَّطْرُ الْأَوَّلُ مِنْ بَيْتِ أَبِي تَمَّامٍ إِيجَازٌ؛ لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ مَعْنَىٰ بَيْتِ ابْنِ غِيلَان كُلِّهِ.

(٢) هُوَ: السَّمَوْأَلُ بْنُ عَادِيَاءِ.

(٣) فَالْآيَةُ إِيجَازٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ بَيْتِ الْحَمَاسِيِّ؛ لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ أَصْلَ الْمَعْنَىٰ فِي كَلِمَاتٍ أَكْثَر.

(٤) لَمْ يَثْبُتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَجَاءَ فِي كَنْزِ الْعُمَّالِ أَنَّهُ مِمَّا جَاءَ فِي وَصِيَّةِ عَلِيٍّ لِلْحَسَنِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُما - وَهُوَ إِيجَازٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ قَوْلِ الْعَرَبِ؛ لِأَنَّهُ أَقَلُّ أَلْفَاظًا.

تَلْخِيصُ مَا سَبَقَ

ضَوَابِطُ وَفُرُوقٌ

مِنْ خِلَالِ مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ يَتَبَيَّنُ مَا يَأْتِي:

- أَنَّ صُوَرَ الإِطْنَابِ تِسْعٌ هِيَ:

١- الْإِيضَاحُ بَعْدَ الْإِبْهَامِ.

٢- ذِكْرُ الْخَاصِّ بَعْدَ الْعَامِّ.

٣- التَّكْرِيرُ.

٤- الْإِيغَالُ.

٥- التَّذْيِيلُ.

٦- التَّكْمِيلُ.

٧- التَّتْمِيمُ.

٨- الِاعْتِرَاضُ.

٩- الْإِطْنَابُ بِزِيَادَةِ قَيْدٍ مُعَيَّنٍ.

- أَنَّ الْإِيضَاحَ بَعْدَ الْإِبْهَامِ لَهُ أَغْرَاضٌ وَأَسَالِيبُ، فَمِنْ أَغْرَاضِهِ: أن يَتَمَكَّنَ فِي النَّفْسِ فَضْلَ تَمَكُّنٍ، وَمِنْ أَسَالِيبِهِ: بَابُ: نِعْمَ وَبِئْسَ، وَأُسْلُوبُ التَّوْشِيعِ.

- أَنَّ التَّوْشِيعَ مِنَ الْإِيضَاحِ بَعْدَ الْإِبْهَامِ؛ لِأَنَّ الْمُثَنَّىٰ مُبْهَمٌ، وَمَا بَعْدَهُ تَوْضِيحٌ لَهُ، وَيَأْتِي فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ وَوَسَطِهِ.

- أَنَّ ذِكْرَ الْخَاصِّ بَعْدَ الْعَامِّ يَكُونُ لِلتَّنْبِيهِ عَلَىٰ فَضْلِهِ.

- أَنَّ الْإِطْنَابَ بِتَكْرَارِ اللَّفْظِ يَكُونُ لِأَغْرَاضٍ، هِيَ:

❖ تَأْكِيدُ الْإِنْذَارِ.

❖ زِيَادَةُ التَّنْبِيهِ.

❖ وَقَدْ يُكَرَّرُ اللَّفْظُ لِطُولٍ فِي الْكَلَامِ.

❖ وَقَدْ يُكَرَّرُ؛ لِتَعَدُّدِ الْمُتَعَلِّقِ.

- أَنَّ الْإِيغَالَ هُوَ: خَتْمُ الْبَيْتِ بِمَا يُفِيدُ نُكْتَةً يَتِمُّ الْمَعْنَىٰ بِدُونِهَا.

- أَنَّ الْإِيغَالَ لَا يَخْتَصُّ بالشِّعْرِ.

- أَنَّ التَّذْيِيلَ هُوَ: تَعْقِيبُ الْجُمْلَةِ بِجُمْلَةٍ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ مَعْنَاهَا لِلتَّوْكِيدِ.

- أَنَّ التَّذْيِيلَ يَأْتِي عَلَىٰ ضَرْبَيْنِ هُمَا:

١- ضَرْبٌ لَا يَخْرُجُ مَخْرَجَ الْمَثَلِ لِعَدَمِ اسْتِقْلَالِهِ بِإِفَادَةِ الْمُرَادِ وَتَوَقُّفِهِ عَلَىٰ مَا قَبْلَهُ.

٢- ضَرْبٌ يَخْرُجُ مَخْرَجَ الْمَثَلِ.

- أَنَّ التَّكْمِيلَ هُوَ: أَنْ يُؤْتَىٰ فِي كَلَامٍ يُوهِمُ خِلَافَ الْمَقْصُودِ بِمَا يَدْفَعُهُ.

● أَنَّ التَّتْمِيمَ هُوَ: أَنْ يُؤْتَىٰ فِي كَلَامٍ لَا يُوهِمُ خِلَافَ الْمَقْصُودِ بِفَضْلَةٍ تُفِيدُ نُكْتَةً، كَالْمُبَالَغَةِ.

● أَنَّ الِاعْتِرَاضَ هُوَ: أَنْ يُؤْتَىٰ فِي أَثْنَاءِ الْكَلَامِ أَوْ بَيْنَ كَلَامَيْنِ مُتَّصِلَيْنِ مَعْنًىٰ بِجُمْلَةٍ أَوْ أَكْثَرَ لَا مَحَلَّ لَهَا مِنَ الْإِعْرَابِ لِنُكْتَةٍ سِوَىٰ مَا ذُكِرَ فِي تَعْرِيفِ التَّكْمِيلِ.

● أَنَّ الْإِطْنَابَ لَا يَقْتَصِرُ عَلَىٰ الصُّوَرِ الثَّمَانِيَةِ السَّابِقَةِ، بَلْ يَأْتِي بِغَيْرِهَا كَمَا فِي الْإِطْنَابِ بِزِيَادَةِ قَيْدٍ فِي قَوْلِكَ: رَأَيْتُهُ بِعَيْنِي.

● الْفَرْقُ بَيْنَ التَّكْمِيلِ وَالتَّتْمِيمِ: أَنَّ التَّكْمِيلَ يُؤْتَىٰ بِهِ فِي كَلَامٍ يُوهِمُ خِلَافَ الْمُرَادِ فَيَدْفَعُهُ، أَمَّا التَّتْمِيمُ فَإِنه يُؤْتَىٰ بِهِ فِي كَلَامٍ لَا يُوهِمُ خِلَافَ الْمَقْصُودِ، وَإِنَّمَا لِأَغْرَاضٍ كَالْمُبَالَغَةِ؛ وَلِذَلِكَ كَانَتْ تَسْمِيَةُ التَّكْمِيلِ بِالِاحْتِرَاسِ حَسَنَةً.

● أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الِاحْتِرَاسِ وَالتَّتْمِيمِ وَالِاعْتِرَاضِ: أَنَّ الْجُمْلَةَ فِي الِاحْتِرَاسِ وَفِي التَّتْمِيمِ لَهَا مَحَلٌّ مِنَ الْإِعْرَابِ، أَمَّا فِي الِاعْتِرَاضِ فَلَيْسَ لَهَا مَحَلٌّ مِنَ الْإِعْرَابِ.

● أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ التَّذْيِيلِ وَالْإِيغَالِ: أَنَّ التَّذْيِيلَ يَكُونُ فِي آخِرِ الْكَلَامِ وَفِي وَسَطِهِ وَآخِرِهِ، أَمَّا الْإِيغَالُ فَلَا يَكُونُ إِلَّا فِي آخِرِ الْكَلَامِ.

● أَنَّ الْإِيغَالَ قَدْ يَكُونُ بِغَيْرِ الْجُمْلَةِ، أَمَّا التَّذْيِيلُ فَلَا يَكُونُ إِلَّا بِالْجُمْلَةِ وَلِلتَّوْكِيدِ.



تَمْرِينَاتٌ

1. بَيِّنْ مَوْضِعَ الإِطْنَابِ، وَالدَّاعِي إِلَيْهِ فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

تَأَمَّلْ مِنْ خِلَالِ السَّجْفِ وَانْظُرْ بِعَيْنِكَ مَا شَرِبْتُ وَمَنْ سَقَانِي
تَجِدْ شَمْسَ الضُّحَا تَدْنُو بِشَمْسٍ إِلَيَّ مِنَ الرَّحِيقِ الْخُسْرَوَانِي

2. يَعُدُّونَ مِنَ الْمُسَاوَاةِ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، فَهَلْ تَرَىٰ أَنَّهَا مِنْهَا، أَوْ مِنْ إِيجَازِ الْقِصَرِ؟

3. مِنْ أَيِّ أَنْوَاعِ الإِيجَازِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]؟

4. مِنْ أَيِّ أَنْوَاعِ الإِطْنَابِ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

الْمَشْرِقَانِ عَلَيْكَ يَنْتَحِبَانِ قَاصِيهُمَا فِي مَأْتَمٍ وَالدَّانِي؟

5. بَيِّنْ مَوْضِعَ الإِطْنَابِ وَنَوْعَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ – ٦]

6. مِنْ أَيِّ أَنْوَاعِ الإِطْنَابِ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

لَوْ أَنَّ الْبَاخِلِينَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ رَأَوْكَ تَعَلَّمُوا مِنْكَ الْمِطَالَا

7. أَيُّهُمَا أَعْلَىٰ مَقَامًا فِي الْبَلَاغَةِ: الإِيجَازُ أَوِ الإِطْنَابُ؟ وَهَلْ هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ الإِيجَازِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَالإِخْلَالِ؟ وَبَيْنَ الإِطْنَابِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَالتَّطْوِيلِ؟


فهرس

فهرس الموضوعات

* * *

البَابُ السَّادس: القَوْلُ في الإنشاء

٨٩ – ٢٢١

البَابُ السَّابعُ: القَوْلُ فِي الفَصْلِ والوَصْل

٢٢٢ - ٣٢٨

* * *

البَابُ الثَّامِنُ: الْقَوْلُ فِي الْإِيجَازِ وَالْإِطْنَابِ وَالْمُسَاوَاةِ

٣٢٩ - ٣٧٨



جَامِعَةُ الأَزْهَرِ
قِطَاعُ كُلِّيَّاتِ اللُّغَةِ العَرَبيَّةِ وَالشُّعَبِ المُنَاظِرَةِ لَهَا
أَقْسَامُ البَلَاغَةِ وَالنَّقْدِ

الطبعة الأولى

١٤٤٥ هـ / ٢٠٢٣ م

